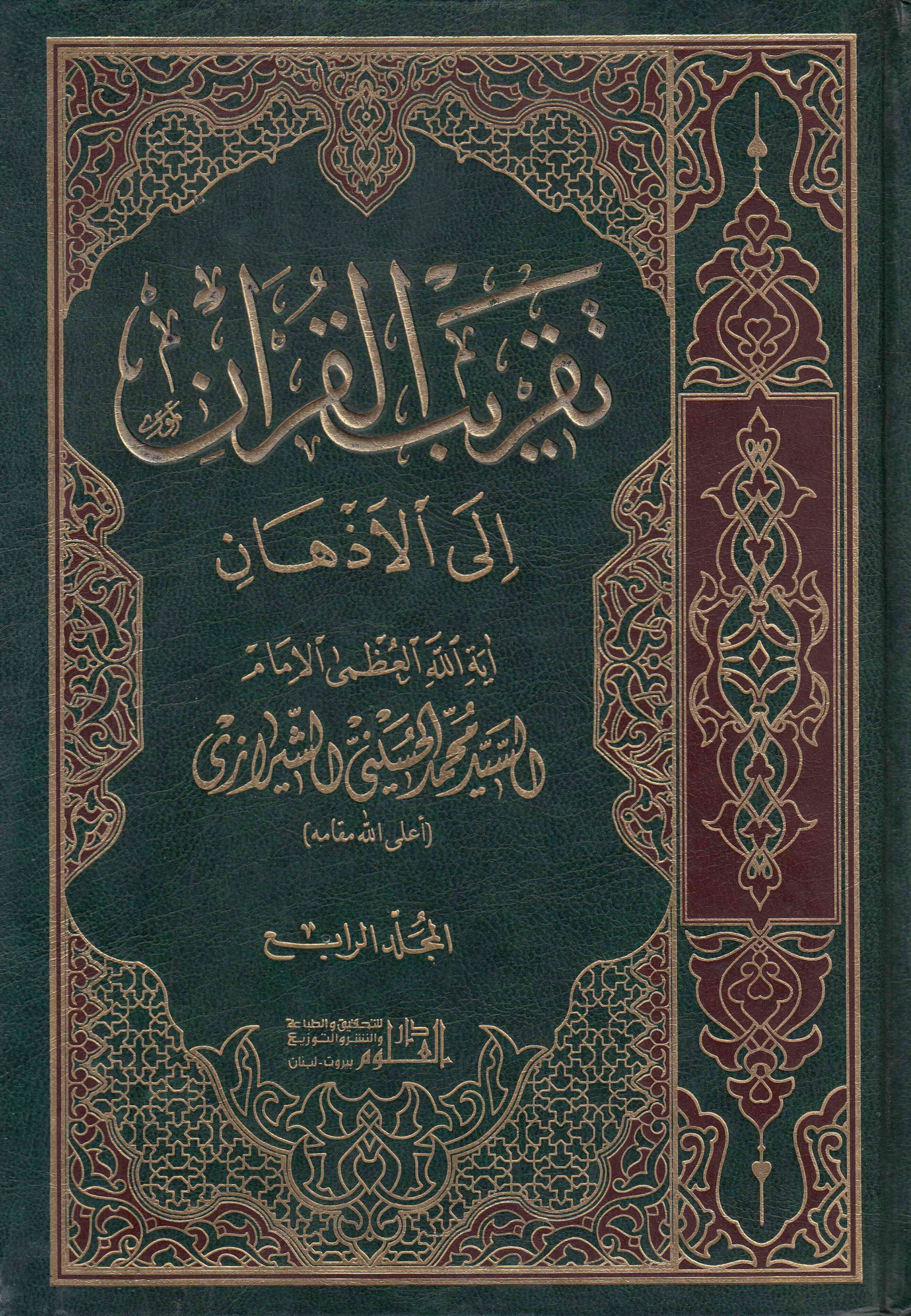
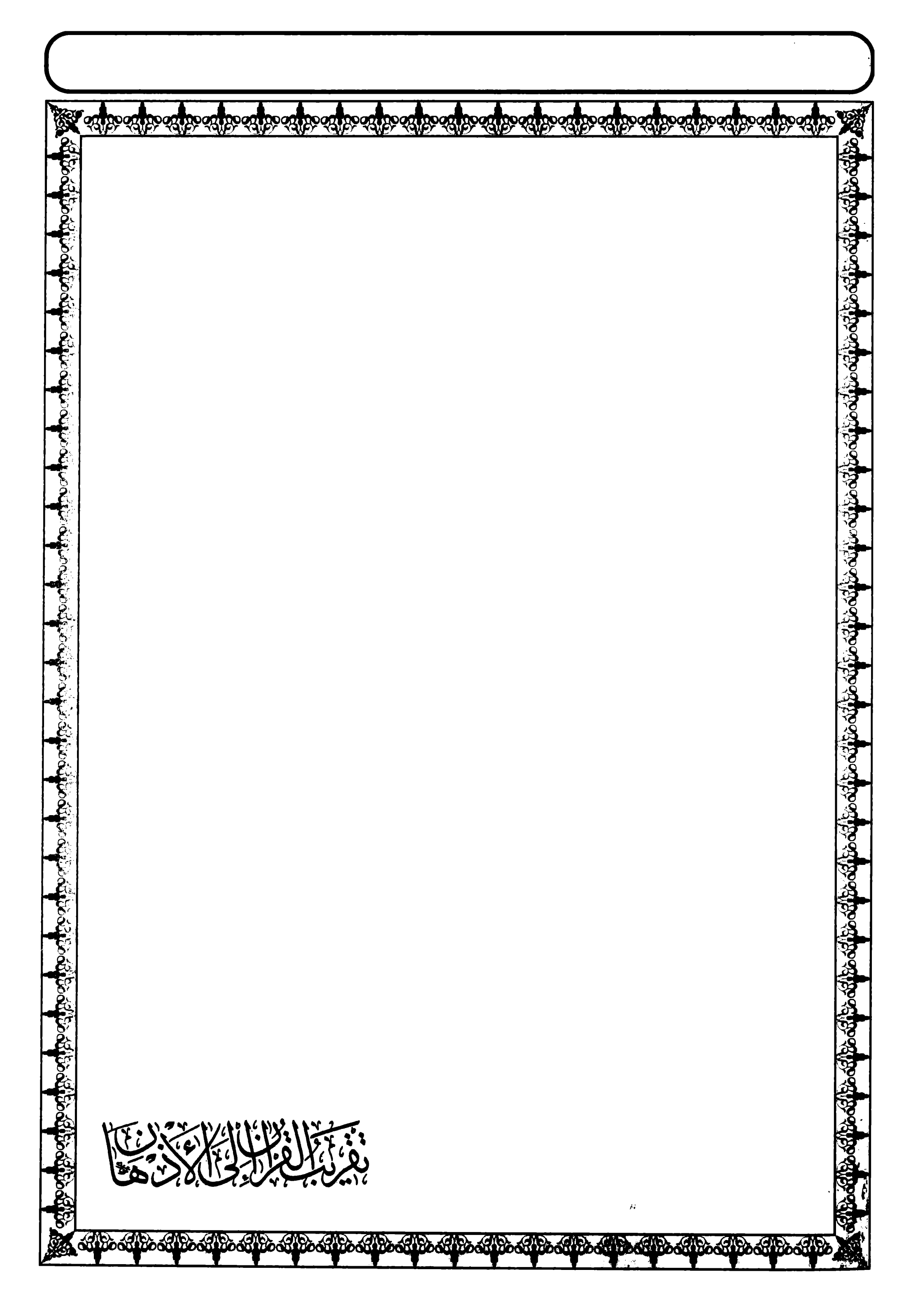
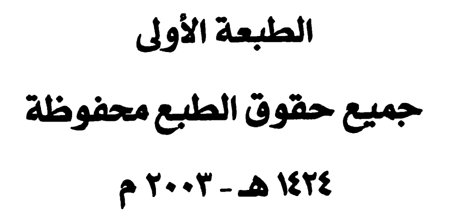

تقريب القرآن
إلى الأذهان
آية الله العظمى الإمام
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(أعلى الله مقامه)
المجلد الرابع
دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان


تقريب القرآن إلى الأذهان



الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع محفوظة

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة : حارة حريك - بئر العبد - شارع السيد عباس الموسوي - الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ - ٠٣/٤٧٣٩١٩ - ص.ب : ١٣/٦٠٨٠

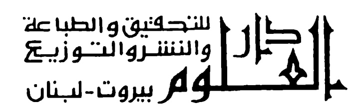
المستودع: حارة حريك - بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠

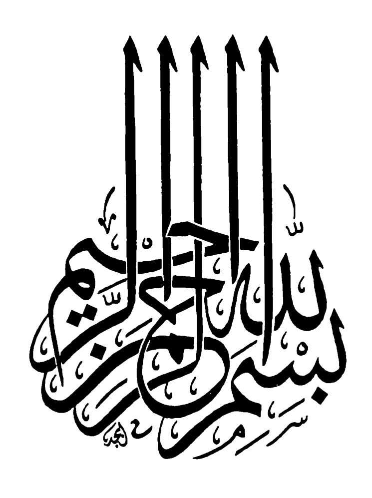
www.daraloloum.com E-mail : daraloloum@hotmail.com



آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(أعلى الله درجاته)

المجلد الرابع



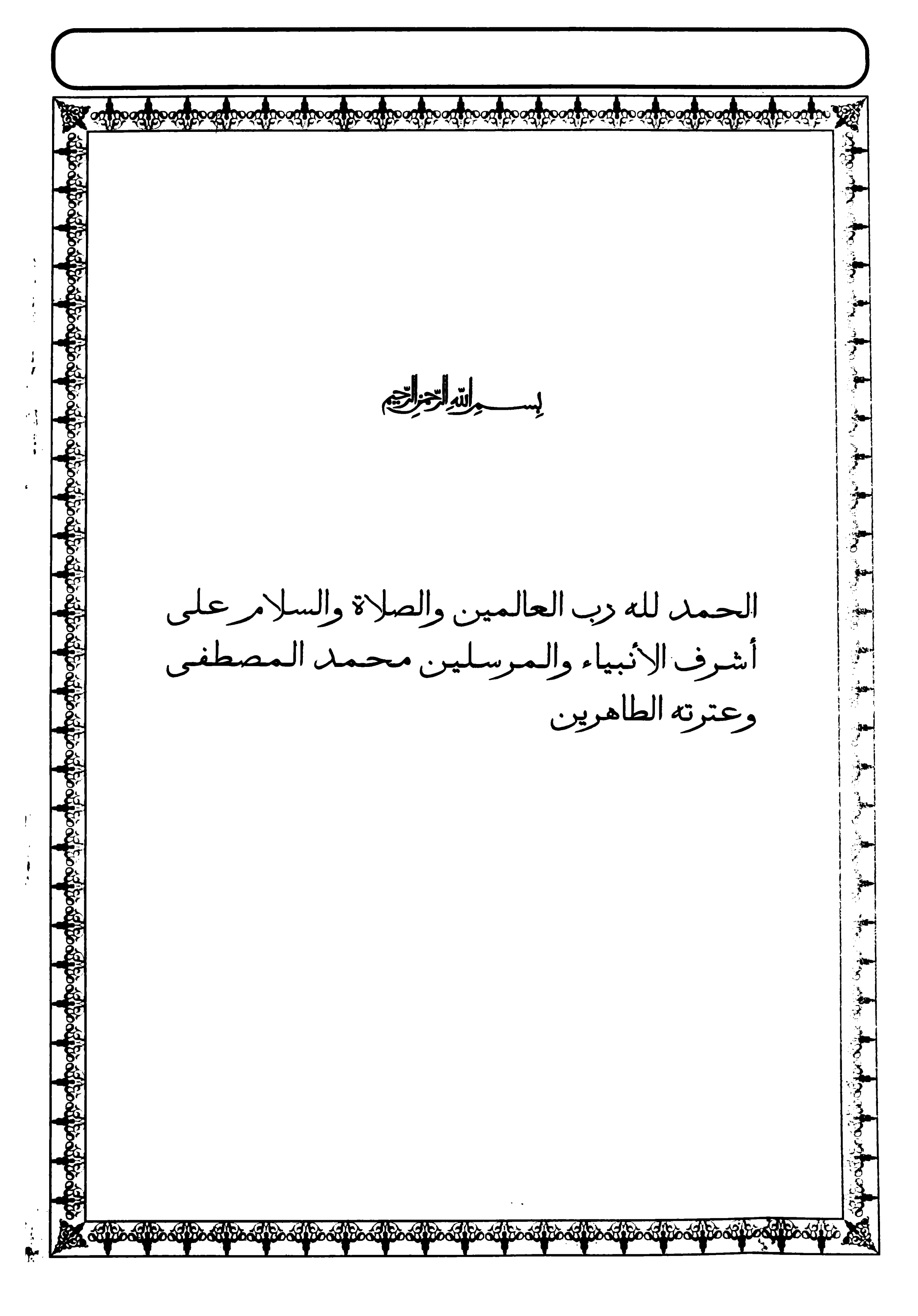




الجزء التاسع عشر

من آية (٢٢) سورة الفرقان

إلى آية (٥٦) سورة النمل



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٣﴾

[٢٢] ﴿**وقال الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ وهم الكفار المنكرون للبعث، الذين ليس لهم حتى الأمل والرجاء في لقاء جزاء الله وحسابه ﴿**لولا**﴾ أي هلاّ﴿**أنزل علينا الملائكة**﴾ ليخبرونا بأن محمداً ﷺ نبي ﴿**أو نرى ربنا**﴾ فيخبرنا بذلك، ويأمرنا بإطاعة الرسول واتّباعه، فرد عليهم الله سبحانه بقوله﴿**لقد استكبروا**﴾ أي تكبروا، وكان الإتيان من باب الاستفعال لإفادة أنهم إنما طلبوا الكبر، مع أن نفوسهم كانت مذعنة، كما قال تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)[1] ﴿ **في أنفسهم**﴾ أي في أمر أنفسهم حيث دفعوها إلى مستوى أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون الله ﴿**وعتو**﴾ أي طغوا ﴿**عتواً كبيراً**﴾ أي طغياناً عظيماً وتمردوا غاية التمرد.

[٢٣] إنهم لابد وأن يروا الملائكة لكن في وقت لافائدة في إيمانهم حينذاك ﴿**يوم يرون الملائكة**﴾ عند قبض أرواحهم ﴿**لا بشرى يومئذ للمجرمين**﴾ إنما يبشرون بالجنة والثواب في هذه الدنيا، قبل أن ينكشف لهم العالم الآخر، أما يوم الانكشاف عند قبض الروح، لا بشارة لهم، وإنما عذاب ونكال، وذلك كناية عن رفع التكليف ﴿**ويقولون**﴾ أي يقول الكفار في ذلك اليوم ﴿**حجراً محجوراً**﴾ كانت

(١) النمل: ١٥ .

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٤﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ

العرب إذا رأى أحدهم من يريد قتله يقول حجراً محجوراً دماءنا، أي حراماً محرماً، وهم حين يرون الملائكة يظنون إن هذا القول ينفع، ولقد كانت هذه الكلمة كالاستعاذة عندنا حين نرى مكروهاً، فنقول «نعوذ بالله».

[٢٤] ﴿**وقدمنا**﴾ أي قصدنا وتعمدنا، من باب استعمال المسبب في السبب، فإن القاصد إلى عمل يتقدم إليه ﴿**إلى ما عملوا من عمل**﴾ كانوا يظنون إنه عمل خيري ﴿**فجعلناه**﴾ أي ذلك العمل الخيري للكفار ﴿**هباءً**﴾ وهو الغبار الذي يرى إذا أشرقت الشمس من الكوّة، ومفرده هباءه ﴿**منثوراً**﴾أي منتشراً، فكما أن الهباء لا ينتفع به ولا يمكن التحصيل عليه كذلك أعمال هؤلاء الكفار التي ظنوها حسنات لم ينتفعوا بها، إذ شرط القبول الإيمان، الذي فقدوه.

[٢٥] ﴿**أصحاب الجنة**﴾ وهم المؤمنون ﴿**يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**خيرٌ مستقراً**﴾ أي أفضل منزلاً في الجنة، من أصحاب النار ﴿**وأحسن مقيلاً**﴾ أي موضع قائلة، وهي من القيلولة، وهو النوم قبل الظهر والاستراحة فيه في وقت الحر، وقد كان هذا من فعل كبرائهم، واستحب في الشريعة لما فيه من التنشيط للعمل بعده، وقوله «خير» و «أحسن» يراد بهما الفضل لا الأفضلية، إذ لا خير في مكان أهل النار.

[٢٦] ﴿**ويوم تشقق السماء بالغمام**﴾ يأتي متعلقه في قوله «الملك يومئذ» والمراد بتشقق السماء انقلاب أوضاعها، ففي يوم القيامة تنقلب أحوال

وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٦﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾

الأرض والسماء، ولعلّ معنى التشقق أن الإنسان يرى كأنّ شقّاً كبيراً أحدث في السماء، بأن ظهر لون غير اللون المرئي الآن، ولعل المراد بالغمام السحب التي تتراكم من الدخان والأبخرة الحادثة من جراء الانقلابات الكونية، أو يأتي غمام يحمل الملائكة، وهو الذي يشقق السماء، ويكوّن لوناً غير لون السماء، حتى يرى الإنسان فيها شقاً ﴿**ونزّل الملائكة تنزيلاً**﴾ كما قال سبحانه «يوم يرون الملائكة» وهذا حال يوجب الدهشة والاضطراب لأهل الأرض، فقد عرفوا أن القيامة قد قامت، وأن الملائكة عمال الله سبحانه وتعالى للحساب والتنظيم والسيطرة عل الموقف نزلوا.

[٢٧] ﴿**الملك يومئذ**﴾ أي يوم تشقق السماء ﴿**الحق**﴾ أي الملك الذي هو الملك حقاً، لا كملك ملوك الدنيا الذي يكون زائلاً ﴿**للرحمن**﴾ وإنما خص الملك به في ذلك اليوم، لأن في الدنيا يرى بعض أقسام الملك للناس، أما هناك فلا أحد يملك شيئاً حتى ملكاً ظاهرياً ﴿**وكان**﴾ ذلك اليوم ﴿**يوماً على الكافرين عسيراً**﴾ أي صعباً لشدته وهوله ومشقته.

[٢٨] ﴿**ويوم**﴾ عطف على «يوم تشقق» ﴿**يعضّ الظالم على يديه**﴾ أسفاً وندماً لما سبق منه من الظلم، والعض هو الأخذ بالأسنان، وكأن النادم إنما يفعل ذلك لإرادة إيلام جسمه انتقاماً لما صدر منه مما ألقاه في هذا النادم، والعض على اليدين في الندم الشديد ﴿**يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً**﴾ أي ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٣٠﴾

في سبيل الهداية حتى لا أبتلي بهذا اليوم العصيب.

[٢٩] ﴿**ياويلتىٰ**﴾ أي يا هلاكي احضر، أو يا قوم اطلبوا هلاكي ﴿**ليتني لم أتخذ فلاناً**﴾ أي الكافر الفلاني الذي أضلني ﴿**خليلاً**﴾ أي صديقاً حتى يقرأ في أذني ويضلني عن الرشاد، والمراد كل صديق يفسد الإنسان ويضله.

[٣٠] ﴿**لقد أضلني**﴾ وأغواني وصرفني خليلي ﴿**عن الذكر**﴾ القرآن، أو الرسول ﴿**بعد إذ جاءني**﴾ وحال بيني وبين الإيمان ﴿**وكان الشيطان للإنسان خذولاً**﴾ أي كثير الخذلان، يقال خذله إذا تركه في الشدة، ولم ينصره، وهذا أما من تتمة كلام الظالم، متحير لماذا تبع الشيطان حتى يخذله في القيامة، أو ابتداء من الله سبحانه للإلفات إلى وجوب عدم اتباع الشيطان، فإنه يخذل في أحرج الساعات.

قال ابن عباس: نزل قوله «ويوم يعض الظالم» في عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف، وكانا متخالين وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعاماً فدعى إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعى الناس، فدعا رسول الله إلى طعامه فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسوله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فبلغ ذلك أُبي بن

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣١﴾

خلف، فقال صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم. فقال أبي: ما كنت براضٍ عنك أبداً حتى تأتيه فتبصق في وجهه، ففعل ذلك عقبة وارتد وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال النبيﷺ: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فضرب عنقه يوم بدر صبراً، وأما أبي بن خلف فقتله النبيﷺ يوم أحد بيده في المبارزة[1].

أقول: وبناءً على هذا النزول يكون مصداق قوله «فلاناً» «أُبيّ» لأنه الذي كان خليلاً مع عقبة، وقد ورد في حديث آخر أن الرسولﷺ حين بصق في وجهه احمرّ وجهه المبارك، ومسح البصاق بيده، كما ورد أن الرسول جاء شاكياً إلى أبي طالب، فأمر أبو طالب بعض خدمه أن يأخذ رحم دابة، وجاء بها حتى رأى عقبة فأفرغها في رأسه، كما صنع بالرسولﷺ.

[٣١] ﴿**وقال الرسول**﴾ﷺ في ذلك الموقف الهائل، شاكياً إلى قومه ﴿**يا ربّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً**﴾ أي هجروا القرآن وابتعدوا عنه، والمراد بالقوم، إما قريش أو مطلق الناس، لأن المراد بقوم الأنبياء، من أرسلوا إليهم وهذا يناسب قول الظالم «لقد أضلني عن الذكر» والآية وإن كانت ظاهرة في الكفّار إلا أنها أعم، قال الإمام

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٦٩ .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾

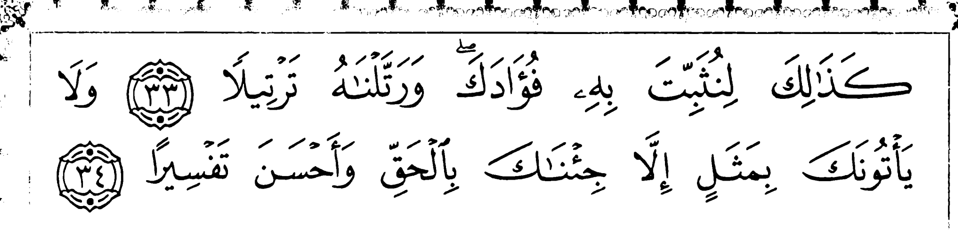
الصادق عليه السلام : ليس رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى جنة أو تسوقه إلى نار، تجري فيمن بعده إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[1]، وعلى هذا فهجر القرآن ـ في هذا الزمان ـ ترك العمل بأحكامه واتخاذ مناهج الكفار نظاماً للحكم، دون دساتير القرآن.

[٣٢] ويسلي الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن ترك الأقوام للهدى إنما هو شيء قديم، فقد كان للأنبياء أعداء يهجرونهم، ويعادونهم ﴿و﴾ كما لك أعداء يهجرون كتابك وينصبون لك العداء ﴿**كذلك جعلنا لكل نبي عدواً**﴾ ومعنى جعل الله سبحانه أنه لا يأخذهم حيث يعادون الأنبياء، وإنما يتركهم وشأنهم، ليبلغوا أجلهم، وليرفع مقام النبي بالصبر على المكاره. يقال: جعل الملك اللص في الطريق، إذا لم يضرب على يده وتركه يفعل ما يشاء ﴿**من المجرمين**﴾ أي من الذين يأتون بالجرائم، وهي المعاصي ﴿**وكفى بربك**﴾ يا رسول الله ﴿**هادياً**﴾ فإنه سبحانه يهدي الناس ﴿**ونصيراً**﴾ ينصر المؤمنين بالآخرة فلا يهمك أن يقف المجرم في طريق الدعوة ويكون له الغلب المؤقت.

[٣٣] وبعد أن بين الله تعالى بعض كلمات الكفار حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن مثل «قالوا لولا أنزل علينا الملائكة» ذكر بعض مناقشاتهم الأخر ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه**﴾ أي على الرسول ﴿**القرآن جملة واحدة**﴾

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٨٩ ص٨٧، وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام .



لامنجماً، فلو كان من عند الله كان قادراً على أن ينزله مرة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل من قبل جملة واحدة؟ ولعلهم كانوا يريدون بذلك تقوية افترائهم. أن الرسول إنما يتعلم القرآن من «عداس» وأضرابه، كما سبق منهم هذا الافتراء.

لكن جواب هذا أن القرآن إنما يأتي بالمناسبات، والتدرج خير لذلك من الإنزال جملة، ولذا يكون لكل آية شأن نزول، لا يجمل لو نزلت قبل ذلك، أو بعده بزمان ﴿**كذلك**﴾ أنزلناه متفرقاً ﴿**لنثبت**﴾ ونقوّي ﴿**به**﴾ أي بالقرآن ﴿**فؤادك**﴾ أي قلبك، فإن الوحي إذا جاء متدرجاً في كل حادثة وكل أمر كان ذلك موجباً لتقوية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن ينزل جملة واحدة، وهذا ضروري بالنسبة إلى البشر، وإن كان رسولاً معصوماً، أرأيت أن المؤمن كامل الإيمان ليزداد قوة كلما مرّ عليه آي الكتاب ﴿**ورتلناه**﴾ أي رتلنا القرآن ﴿**ترتيلاً**﴾ وهو التبيين من تثبيت وترسّل.

[٣٤] ﴿**ولا يأتونك**﴾ يا رسول الله، المشركون ﴿**بمثل**﴾ سيىءٍ لك لإبطال أمرك، إذا أرادوا بذلك تشبيه الرسول بمن لا اتصال له بالوحي، حيث لابد له أن يصنع الكلام تدريجاً ﴿**إلا جئناك بالحق**﴾ في جواب ذلك المثل ودحضه ﴿**وأحسن تفسيراً**﴾ لعملك من تفسيرهم، فإنا نبيّن وجه عملك بما هو عليه، وذلك أحسن من بيانهم الذين يريدون به إبطال أمرك.

[٣٥] إن تفسير هؤلاء المقلوب، لأعمال الرسول، سيودي بهم إلى أن

ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٦﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٧﴾

يحشروا مقلوبين على وجوههم ﴿**الذين يحشرون**﴾ ويساقون ﴿**على وجوههم**﴾ سحباً على الوجوه ﴿**إلى جهنم**﴾ ليلاقوا جزاء أعمالهم الكافرة في الدنيا ﴿ **أولئك شرّ مكاناً**﴾ أي منزلاً من غيرهم ﴿**وأضل سبيلاً**﴾ فإن سبيلهم يؤدي إلى الهلاك، بينما سبيل المؤمنين يؤدي إلى الجنان، وهذا في مقابل قولهم في المؤمنين «أنهم لضالون». و«شر» و«أضل» لايراد بهما التفضيل حقيقة.

[٣٦] ثم ذكر سبحانه قصص بعض الأنبياء عليهم السلام الذين كذبهم الأقوام فكانت لهم العاقبة السيئة بسبب تكذيبهم، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنذار للمشركين ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**موسى الكتاب**﴾ أي التوراة ﴿**وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً**﴾ له يساعده في التبليغ والإرشاد.

[٣٧] ﴿**فقلنا**﴾ لهما ﴿**اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ وهم فرعون وقومه، والمراد بتكذيبهم، إما بعد إتيانهما إليهم، وإما قبل ذلك حيث لم يقبل فرعون وقومه ما بقي من علوم الأنبياء عليهم السلام وآثار المرسلين، وجاء موسى وأخوه إليهم ودعياهم إلى الله فلم يقبلوا ﴿**فدمرناهم**﴾ أي أهلكنا فرعون وقومه بالغرق ﴿**تدميراً**﴾ أي إهلاكاً عظيماً.

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ

[٣٨] ﴿**وقوم نوح لما كذبوا الرسل**﴾ فإن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع رسل الله تعالى ﴿**أغرقناهم**﴾ بالطوفان ﴿ **وجعلناهم للناس آية**﴾ أي عبرة وموعظة ﴿**وأعتدنا**﴾ أي هيأنا ﴿ **للظالمين**﴾ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿**عذاباً أليماً**﴾ سوى ما حل بهم في دار الدنيا، أو المراد العموم أي أن كل ظالم قد هيئ له عذاب مؤلم موجع.

[٣٩] ﴿**و**﴾ أهلكنا ﴿**عاداً**﴾ قوم هود عليه السلام ﴿**وثموداً**﴾ قوم صالح ﴿**وأصحاب الرّس**﴾ ورد أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها «شاه درخت» وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا بينهم في الأرض وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام فأهلكوا بريح عاصفة شديدة الحمرة تحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة جمراً يلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار ﴿**و**﴾ أهلكنا ﴿**قروناً بين ذلك كثيراً**﴾ أي بين هذه الأقوام الذين ذكروا من عاد وثمود وقوم نوح وأصحاب الرس، والقرن هو الجيل، يقال لهم قرن لتقارن أعمارهم.

[٤٠] ﴿**وكلا**﴾ من تلك القرون والأقوام التي أهلكناها بسبب كفرهم وفسادهم ﴿**ضربنا له الأمثال**﴾ أي ذكرنا لهم أنهم إن لم يؤمنوا عُذبوا

وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٢﴾

كما عذب من سبقهم ـ وهذا كما نمثل لقوم الرسول ﷺ ـ ﴿**وكلاً**﴾ من أولئك القرون والأقوام ﴿**تبّرنا تتبيراً**﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً، يقال: تبره بمعنى أهلكه.

[٤١] ﴿**ولقد أتوا**﴾ أي مضوا ورأوا، والمراد كفار مكة ﴿**على القرية التي أمطرت مطر السوء**﴾ يعني قرية لوط التي أمطرت عليها الحجارة، فإن قريته بين مكة والشام، وقد كان أهل مكة يمرون عليها عند ذهابهم إلى الشام ولدى إيابهم ﴿**أفلم يكونوا**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**يرونها**﴾ أي يرون تلك القرية؟ فلماذا لا يخافون أن يصيبهم بتكذيبهم مثل ما أصاب تلك القرية؟ ﴿**بل**﴾ رأوها، ولكنهم ﴿**كانوا لا يرجون نشوراً**﴾ أي أنهم إنما لم يعتبروا بها لأنهم لا يقرون بالبعث والحساب، ومن أنكر الآخرة وأنكر المبدأ، حمل كل شيء على غير وجهه ولعلهم كانوا ينسبون قصة قوم لوط إلى الصدفة، كما نشاهد أمثالهم في أيامنا هذه.

[٤٢] ﴿**وإذا رأوك**﴾ الكفار، يا رسول الله ﴿**إن يتخذونك**﴾ أي لا يحسبونك ﴿**إلا هزواً**﴾ أي مهزواً به، كأنه أداة للسخرية والاستهزاء، فيقولون على وجه السخرية ﴿**أهذا**﴾ الرسول هو ﴿**الذي بعث الله**﴾ إياه ﴿**رسولاً**﴾ أي كيف يمكن أن يكون هذا رسولاً، ولم يكن استهزاءهم إلا عناداً وحسداً وكبراً، وإلا لم يكن لهم دليل ومنطق عل عدم رسالة الرسول ﷺ.

إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٣﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٤﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ

[٤٣] ﴿ **إن كاد**﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، يعني إنه كاد ﴿**ليضلنا عن آلهتنا**﴾ فقد قارب أن يأخذنا إلى طريق إلهه، فنضل طريق عبادة آلهتنا ﴿**لولا أن صبرنا عليها**﴾ أي لو لم يكن صبرنا على عبادتها، فإنه أزالنا عنها، بما يأتي به من الأدلة والحجج، إنهم سموا طريق الله سبحانه ضلالاً ﴿**وسوف يعلمون**﴾ في الآخرة ﴿**حين يرون العذاب**﴾ الذي يحل بهم جزاءً على شركهم وكفرهم ﴿ **من أضل سبيلاً**﴾ هل هم الضالون، أم الرسول والمؤمنون؟ والمعنى أنهم هناك يعرفون ضلال سبيلهم في الدنيا، حيث لامنجى ولامهرب.

[٤٤] ﴿**أرأيت**﴾ يا رسول الله، استفهام للتهكم بالمشركين ﴿ **من اتخذ إلهه هواه**﴾ فهو يعبد ما تشتهيه نفسه، لا ما أرشده العقل والدليل، وقد كان الرجل منهم يعبد حجراً ثم إذا رأى حجراً أحسن منه رماه واتخذ الثاني إلهاً، وهكذا ﴿**أفأنت**﴾ يا رسول الله ﴿**تكون عليه وكيلاً**﴾ كفيلاً تحفظه عن الضلال، والمعنى أنك لست عليه بوكيل حتى تحزن وتغتم لأجل انحرافه وضلاله وإنما أنت مبلغ مرشد وقد بلغت وأرشدت.

[٤٥] ﴿**أم تحسب**﴾ يا رسول الله، أي تظن ﴿**أن أكثرهم يسمعون**﴾ سماع تفهم وتعلم ﴿**أو يعقلون**﴾ ما تقوله وتقرأه عليهم؟ وهذا وإن كان بصورة الاستفهام لكنه بمعنى النفي، أي أن أكثر هؤلاء لايستمعون

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٦﴾

إليك للتفهم ولا يعطون ألبابهم وعقولهم للتدبير وإنما هم معاندون يريدون الإنكار ﴿**إن هم**﴾ أي ما هم ﴿**إلا كالأنعام**﴾ أي البهائم التي لاتسمع سماع تفهم، ولا عقل لها، وإنما تسمع النداء والصوت فقط ﴿**بل هم**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**أضلّ سبيلاً**﴾ فإن الأنعام تهتدي إلى مصالحها أما هؤلاء فلا يعقلون صالحهم عن غير الصالح لهم ولذا يعرضون عن الحق.

[٤٦] ثم يأتي السياق للتذكير بجملة من الآيات الكونية التي توقظ الضمائر، وتلفت العقول إلى الله سبحانه ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الروية ﴿**إلى ربك**﴾ أي ألم تعلم أن هذا الذي نذكره هو من فعل الله سبحانه لا مدخلية للغير في ذلك ﴿**كيف مد الظل**﴾ فإن الشمس إذا طلعت امتد لكل شيء ظل طويل نحو المغرب، فمن يا ترى جعل للأجسام ظلال عند إشراق النور والظل يوحي بالهدوء والبرد والراحة، إنه الله الذي جعل هذه الظلال ﴿**ولو شاء لجعله ساكناً**﴾ لا يتحرك بأن يوقف الشمس في مكانها حتى يبقى الظل في مكانه، لكنه سبحانه حسب الحكمة العليا جعل الظل متحركاً بحركة الشمس فمن يا ترى جعل الشمس متحركة حتى يتبعها في الحركة الظل؟ ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه**﴾ أي على الظل ﴿**دليلاً**﴾ فإنها هي التي تحدده وتعيّنه وتدل على ماهيته، إذ لولا الشمس وإشراقها، لم يعرف الظل، والأشياء تعرف بأضدادها.

ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٩﴾

---

[٤٧] ﴿**ثم قبضناه**﴾ أي قبضنا الظل، بمعنى أخذناه ﴿**إلينا**﴾ تشبيه بالذي يقبض الشيء إلى نفسه ﴿**قبضاً يسيراً**﴾ في يسر وسهولة، فإن الشمس كلما ارتفعت انتقص الظل حتى يعدم ولا يبقى منه شيء، والقبض تدريجي كمن يقبض الشيء بيسر لا عنف فيه ولا اندفاع.

[٤٨] ﴿**وهو**﴾ الله ﴿**الذي جعل لكم**﴾ أيها البشر ﴿**الليل لباساً**﴾ فإنه يشتمل على الإنسان حتى يستره مثل اللباس يشتمل على الإنسان، وفي الليل يقضي الإنسان من الأمور التي يحب سترها ما لا يقضي في النهار ﴿**والنوم سباتاً**﴾ أي راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم، والسبات قطع العمل، ومنه سبت رأسه إذا حلقه ويوم السبت لأنه كان يوم قطع العمل ﴿**وجعل النهار نشوراً**﴾ لانتشاء الروح في البدن فلا نوم، ولانتشاء الناس في حوائجهم.

[٤٩] ﴿**وهو الذي أرسل الرياح بشراً**﴾ مبشرات، فإن المصدر يستعمل للمفرد والتثنية والجمع بلفظ واحد ﴿**بين يدي رحمته**﴾ أي أمام رحمته التي هي المطر، فإن الرياح تثير السحاب، فإذا جاءت الرياح في فصل المطر استبشر الناس بأن وراءها الأمطار، فيفرحون للمنافع المترتبة على المطر ﴿**وأنزلنا من السماء**﴾ أي جهة العلو ﴿**ماءً**﴾أي المطر ﴿**طهوراً**﴾طاهراً في ذاته مطهراً لغيره.

لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥٢﴾

[٥٠] ﴿**لنحيي به**﴾ أي بالمطر ﴿**بلدةً ميتاً**﴾ قد ماتت بالجدب وعدم الماء، وإحيائها بالماء، حيث ينبت بالمطر الزرع، ويسمن الحيوان، ويكون وسيلة لنمو حياة الإنسان وازدهارها، وذكر البلدة إنما هو لأن فائدة المطر تعود إليها، وإن كانت الحياة تظهر مظاهرها ـ غالباً ـ في الصحاري ﴿**ونسقيه**﴾ أي نسقي بذلك الماء ﴿**مما خلقنا أنعاماً**﴾ أي الحيوانات التي خلقناها ﴿**وأناسي**﴾ جمع إنسان جعل الياء عوضاً عن النون ﴿**كثيراً**﴾ أي كثير من أفراد الناس، ولعل تأخير الإنسان لأن احتياج الأنعام إلى ماء المطر أكثر، فإن الإنسان يستخرج الماء إن لم يجده على ظاهر الأرض، وهكذا بالنسبة إلى النبات والحيوان، فإن احتياج النبات أكثر.

[٥١] ﴿**ولقد صرفناه**﴾ أي صرفنا المطر ﴿**بينهم**﴾ بأن أدرناه في جهات الأرض لانتفاع الكل، فلا يمطر مكاناً دون مكان ﴿**ليذكروا**﴾ نعم الله سبحانه، بما أودع فيهم من الفطرة، أصله «تذكر» أدغمت التاء في الذال ـ على القاعدة ـ ثم جيء بهمزة الوصل لئلا يمتنع الابتداء بالساكن ﴿**فأبى أكثر الناس إلا كفوراً**﴾ أي جحوداً لله سبحانه ولفضله وإحسانه، ويحتمل أن يكون الضمير في صرفناه عائداً إلى القرآن.

[٥٢] ﴿**ولو شئنا**﴾ بأن كانت المصلحة تقتضي ذلك ﴿**لبعثنا في كل قرية نذيراً**﴾

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾

ينذرهم ولكن توحيد الناس تحت لواء واحد بما في ذلك من فوائد التعاون اقتضى أن يرسل رسولاً واحداً، ثم ينتشر البلاغ منه إلى سائر الناس، وهذا بالنسبة إلى وقت إرسال محمدﷺ فلا ينافي قوله تعالى (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)[١] وهذه الآية أنسب إلى كون الضمير في «صرفناه» للقرآن لا للمطر.

[٥٣] ﴿**فلا تطع**﴾ يا رسول الله ﴿**الكافرين**﴾ فيما يدعونك من المداهنة والإجابة إلى بعض رغباتهم وترك التبليغ مدة من الزمان ﴿**وجاهدهم**﴾ والمراد الكفاح معهم ﴿**به**﴾ أي بالقرآن ﴿ **جهاداً كبيراً**﴾ فإن صبر الأعزل على الأذى أكبر من قتال المسلح مع الكفار في ميدان الحرب.

[٥٤] ثم يرجع السياق إلى عدّ الآيات الكونية ﴿**وهو**﴾ الله ﴿**الذي مرج البحرين**﴾ بحر المياه المالحة، وبحر المياه الحلوة فإن مياه البحار مالحة، والمياه التي تنزل من السماء فتسكن في أجواف الأرض كالبحار حلوة حتى تخرج من النفق الموجودة في الجبال، والله سبحانه حيث جعل بحيث يتلاقى هذين البحرين إذ مياه الأنهر تصبُّ في البحار المالحة، في جميع أطراف الأرض، حتى كان بعضها مختلط ببعض ومع ذلك لا يطغى البحر المالح على البحر العذب، حتى يفسده ويسقطه عن الانتفاع في الزرع والشرب.

﴿**هذا**﴾ يعني أحد البحرين ﴿**عذب فرات**﴾ أي طيب شديد الطيب

---

(١) فاطر: ٢٥.

وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾

سائغ شرابه ﴿**وهذا**﴾ أي البحر الثاني ﴿**ملح**﴾ أي كالملح في الملوحة، وإنما قيل ملح مبالغة، مثل زيد عدل ﴿**أجاج**﴾ شديد الملوحة ﴿**وجعل بينهما**﴾ بين البحرين ﴿**برزخاً**﴾ أي حجاباً أو حاجزاً من قدرة الله ﴿**وحجراً**﴾ أي منعاً ﴿**محجوراً**﴾ ممنوعاً دخول بعض المياه إلى بعض، حتى يفسد العذب بالمالح، وهذا لتأكيد المبالغة في عدم اختلاطهما اختلاطاً مفسداً، وإن «مرج» أخيراً بعد أخذ الأرض والناس حاجتهما منه، وهذا من بديع القدرة حيث جعل قرار المياه العذبة فوق سطح البحر.

[٥٥] ﴿**وهو**﴾ الله ﴿**الذي خلق**﴾ وأوجد ﴿**من الماء**﴾ أي المنى، أو الماء المكون للنبات والحيوان، حتى يأكلهما الإنسان، فيتحول في بدنه منياً ﴿**بشراً**﴾ أي إنساناً، قيل سمي بشراً، لظهور بشرته، بخلاف غالب الحيوانات المكسي جلدها بالريش أو الشعر أو ما أشبه ﴿**فجعله**﴾ أي جعل البشر بكيفية يتلاقى بعضهم مع بعض بسببها ﴿**نسباً وصهراً**﴾ فالأولاد والأحفاد يتلاقون بالمصاهرة والزواج، والتقدير «جعله ذا نسب وصهر» والصهر من صهر بمعنى قرب، ومنه يقال للشيء المذاب منصهر، لأنه يقترب بعضه إلى بعض ﴿**وكان ربك قديراً**﴾ أي قادراً على كل شيء، ولذا خلق هذه المخلوقات المدهشة، بهذا النظام والكيفية العجيبين.

[٥٦] إن الله سبحانه هو الذي خلق كل شيء، كما نشاهد في الآيات الكونية

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٧﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٨﴾

﴿و﴾ مع ذلك ﴿**يعبدون**﴾ أي هؤلاء المشركون ﴿**من دون الله**﴾ أي سواه سبحانه ﴿**مالا ينفعهم**﴾ بذاته ﴿**ولا يضرهم**﴾ فإن الأصنام أشياء جامدة لا تقدر على النفع ولا الضرر والمراد لا ينفعهم إن عبدوها، ولا يضرهم إن لم يعبدوها ﴿**وكان الكافر على ربه ظهيراً**﴾ الظهير العون، أي أن الكافر يعين الشيطان على ضد ربه وإلهه بينما اللازم على الإنسان العاقل أن يعين ربه على عدوه لاأن يعين عدوه ضد ربه.

[٥٧] ﴿ **وما أرسلناك**﴾ يا رسول الله ﴿**إلا مبشراً**﴾ لمن آمن وأطاع بالثواب ﴿**ونذيراً**﴾ لمن كفر أو عصى بالعقاب، فليس عليك انحراف هؤلاء، وإنما أنت مبلغ ومرشد فمن قبل فلنفسه ومن أبى فعليها.

[٥٨] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**ما أسألكم عليه**﴾ أي على التبليغ والإرشاد ﴿**من أجر**﴾ وثمن تعطونه لي عوض تبليغي وأتعابي ﴿ **إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ إما أن الاستثناء منقطع بمعنى أنه ما أسألكم إلا أن تتخذوا سبيلاً إلى ربكم، وقد ذكرنا سابقاً أن المستثنى منه لأنه مشتمل على أصل شيء وقيده، فقد يستثنى من الأصل ويكون الاستثناء حينئذ منقطعاً وقد يستثنى من مجموع القيد والمقيد فيكون الاستثناء متصلاً، وإما أن الاستثناء متصل، والمراد أني لا أسألكم أجراً ولكني لاأمنع من إنفاق المال في طلب مرضات الله سبحانه،

وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ

ولايخفى أن الخمس ليس أجراً، بل هو تعيين قسم من المال لقسم من الفقراء.

[٥٩] ﴿**وتوكل**﴾ يا رسول الله، ومعنى التوكل إيكال الأمر إلى الغير ﴿**على الحي الذي لا يموت**﴾ فإنه خير من وكله الإنسان، إذ هو لايموت فيضطرب أمر الوكالة، وقيد «الذي لا يموت» للتخصيص، إذ سائر الأحياء يموتون، توكل عليه، في أمر التبليغ وما تلاقيه من العنت والإرهاق في سبيل الدعوة ﴿**وسبح بحمده**﴾ أي نزهه تنزيهاً بالثناء، فإن التنزيه يكون بنفي النقائص وقد يكون بإثبات الكمالات المستلزمة لنفي النقائص ﴿**وكفى به**﴾ الضمير فاعل كفى، وأدخل حرف الجر على الفاعل، لأنه بمعنى اكتفى به ﴿**بذنوب عباده خبيراً**﴾ أي عالماً، فإنه يعلم ما يذنب العباد وسيجازيهم عليه، فلا تهتم بكفر الكافرين فإن حسابهم على الله، وإنما أنت مبلغ تسبح بحمد الله، وتتوكل في أمرك عليه.

[٦٠] ثم يبين السياق وصف الإله ليوقظ في الناس ما فطر فيهم من أنّ الكون لابد له من خالق فرجعوا إلى ما غفلوا عنه ﴿**الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما**﴾ من أنواع الملائكة والبشر والحيوان وسائر المخلوقات ﴿**في ستة أيام**﴾ وخصوصية ستة أيام لأجل أنه أحد أفراد التحديد، كما في خصوصية الإبطاء، مع أنه تعالى كان قادراً على أن يخلقها في لمح البصر لما عليه سنّة الله من تدريجية تكوينه في هذا

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ

الكون، كما نشاهد أن الزرع والجنين وغيرهما بحاجة إلى زمان حتى وقت الإكمال ﴿**ثم استوى**﴾ أي استولى ﴿**على العرش**﴾ بمعنى الإحاطة على الكون، وهذا كما يقال: بنى الملك المدينة ثم استقر على السرير، يراد أنه أحاط بالسلطة، لا أن هناك سريراً جلس عليه، والإتيان بـ «ثم» مع أن الاستيلاء كان من الأول، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وكأن الإتيان بهذا الكلام لإفادة أن مثل هذا الإله يلزم التوكل عليه، فإنه لا يخيب من فوض أمره إليه ﴿**الرحمن**﴾ قالوا: بأنه خبر، لـ «الذي» أي أنه هو الرحمن الذي يتفضل بالرحم على كل شيء فما أجدر بالإنسان أن يكل أموره إليه ﴿**فسأل**﴾ يا رسول الله ﴿**به**﴾ أي بواسطته ﴿**خبيراً**﴾ والمعنى إن تسأله عن شيء فإنه خبير بذلك الشيء، وهذا كناية عن أنه عالم بكل شيء فإخباره عن أي شيء كان، مطابق للواقع، وقد ذكر أهل الأدب إن من البلاغة أن يتوهم الإنسان شيئاً على وصفين، وصف الأصالة ووصف التوسط، ثم يقصد الأصيل بواسطة المتوسط، كما يقال: شربت به ماءً، والضمير للماء، أو قتلت به كافراً، أو وجدت به عالماً متحدثاً، وهكذا، وهذه الجملة لإفادة إن أخباره في أصل الخلقة هو الحق.

[٦١] ﴿**و**﴾ بعد هذه الآيات الكونية، والإلفاتات الجمّة ﴿**إذا قيل لهم**﴾ أي للكفّار ﴿**اسجدوا للرحمن**﴾ واخضعوا له، فإنه الخالق الراحم ﴿**قالوا**﴾ على طريق الكبر والاستعلاء ﴿**وما الرحمن**﴾ وقد أتوا بلفظ «ما» الذي هو لما لا يعقل استهزاءً، فقد كانوا لا يعترفون بهذا «اللفظ» من جملة

أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦١﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٣﴾

سخافاتهم الكثيرة ﴿**أنسجد لما تأمرنا**﴾ استفهام إنكار، أي نترك آلهتنا ونسجد لمن لا نعترف به ﴿**وزادهم**﴾ ذكر الرحمن ﴿**نفوراً**﴾ أي تنافراً عن الحق والإيمان.

[٦٢] وارتد السياق ليبين جملة أخرى من الآيات الكونية ﴿**تبارك**﴾ أي تعالى وتقدس الإله ﴿**الذي جعل في السماء بروجاً**﴾ من برج إذا ظهر، وهي البروج المعروفة الأثنى عشر، وهي منازل للكواكب السبع السيارة، أو يراد هنا بالبروج نفس الكواكب، لظهورها ﴿**وجعل فيها**﴾ أي في السماء، وهي سماعي ﴿**سراجاً**﴾ أي مصباحاً هي الشمس ﴿**وقمراً منيراً**﴾ أي مضيئاً.

[٦٣] ﴿**وهو**﴾ الإله ﴿**الذي جعل الليل والنهار خلفة**﴾ أي يخلف أحدهما الآخر، فإن «خلفة» هي كل شيء بعد شيء، وتقديم الليل ـ في الكلام ـ لأنه أشبه بالأصل، إذ النور يشقه ويمحيه ﴿**لمن أراد أن يذّكر**﴾ أي يتفكر ويستدل بذلك على الإله، فإن الغاية من خلق الأشياء هو الإنسان، والغاية من خلق الإنسان العبادة، وهي لا تتحقق إلا بالمعرفة، فصح أن يقال: خلقهما للتذكر، وسمي تذكراً لما أودع في فطرة الإنسان من الاعتراف، وإنما الأشياء مذكرات ﴿**أو أراد شكوراً**﴾ أي أراد شكر النعمة فإنهما نعمتان عظيمتان ومن أهم ما يوجب الشكر.

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

[٦٤] وبعد الإلفات إلى هذه الآيات نرى عباد الله العقلاء يخضعون لله سبحانه، ويعتدلون في سلوكهم، وينتهجون المنهج المقرر لهم ﴿**وعباد الرحمن**﴾ في مقابل الذين كانوا ينفرون من اسم الرحمن ﴿**الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾ هذا خبر «عباد الرحمن» والمعنى مشيهم مشية المتواضع، فيمشون هيناً بسكينة ووقار، ولا يمشون بكبرياء وتجبّر، فإن «هون» مصدر «هين» ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون**﴾ بخطاب يُكره ويُثقل على الإنسان ﴿**قالوا**﴾ في جواب الجهال ﴿**سلاماً**﴾ أي سداداً من القول، وما يوجب السلامة، لا ما يوجب الخصام والنزاع، فليس المراد هذه اللفظة بالذات، بل المعنى الدفع بالتي هي أحسن، كما قال سبحانه (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[١].

[٦٥] ﴿**والذين يبيتون**﴾ من بات بمعنى أوصل الليل بالصباح ﴿**لربهم سجداً وقياماً**﴾ جمع ساجد وقائم، وإنما خص الليل، لأن العبادة فيه أشق وأبعد من الرياء وأقرب إلى فراغ القلب، ولعلّ تخصيص هذين الأمرين، لأنهما الأكثر في العبادة دون الركوع والجلوس.

[٦٦] ﴿**والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم**﴾ بمعنى عدم الوقوع

---

(١) فصلت: ٣٥ .

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٦﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

فيها، وكأن التعبير بلفظ الصرف، لأجل استحقاق الناس للنار بأعمالهم، فالمطلوب صرفها ﴿**إن عذابها**﴾ أي عذاب جهنم، فإنها مؤنثة سماعية ﴿**كان غراماً**﴾ أي غرامة تلحق الإنسان أو لازماً دائماً، وإنما سمي الغريم غريماً لملازمته وإلحاحه، وفلان مغرم بفلان أي ملازم له عاشق.

[٦٧] ﴿**إنها ساءت مستقراً ومقاماً**﴾ أي أن جهنم بئس موضع قرار وإقامة.

[٦٨] ﴿**والذين إذا أنفقوا**﴾ في سبيل الله ﴿ **لم يسرفوا**﴾ بأن يكون إنفاقهم في غير محله، أو زيادة لا يعترف بها الشرع ﴿**ولم يقتروا**﴾ من القتر، بمعنى البخس وعدم الإعطاء بقدر الحق الذي أمر به الشرع ﴿**وكان**﴾ إنفاقهم ﴿**بين ذلك**﴾ الذي ذكر من الإسراف والإقتار ﴿**قواماً**﴾ وهو ما أقام الإنسان، أي إنفاقاً يقيم الإنسان، فلا يدخله في المبذرين ولا في البخلاء، أو كان إنفاقاً ذا قوام، وسطاً بدون إسراف وتقتير.

[٦٩] ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر**﴾ أي لا يجعلون له سبحانه شريكاً، بل يوحّدونه، ويوجهون عبارتهم إليه ﴿**ولا يقتلون النفس**﴾ أي الإنسان ﴿**التي حرم الله**﴾ قتلها، وإتيان الضمير المؤنث، لأن النفس مؤنث سماعي ﴿**إلا بالحق**﴾ لأجل كونه كافراً حربياً، أو لأجل

وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٩﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٧٠﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ

القصاص، أو الحد، أو ما أشبه ذلك، والاستثناء من الأصل، وقوله «حرم الله» تلميح إلى وجه عدم إقدامهم على القتل ﴿**ولا يزنون**﴾ وهو الفجور بالمرأة ﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ الذي ذكره من الشرك والقتل والزنى، وإنما خص هذه الأمور، ليشرعها عند الجاهليين، بل وحتى الآن، وكونها من أعظم المعاصي الموجبة للفساد، في العقيدة، أو في الحياة ﴿**يلق أثاماً**﴾ أي عقوبة وجزاءً على ما عمل يقال: أثمه الله أي جازاه جزاء الإثم.

[٧٠] ﴿**يضاعف له العذاب يوم القيامة**﴾ ولعلّ المراد المضاعفة بالنسبة إلى سائر المعاصي، يعني إن عذاب هؤلاء أكثر من عذاب غيرهم، وإن كان بقدر استحقاقهم ﴿**ويخلد**﴾ أي يبقى دائماً ﴿**فيه**﴾ أي في العذاب ﴿**مهاناً**﴾ في حال كون ذاك العذاب على وجه الإهانة، ومن المعلوم أنّ الخلود بالنسبة إلى الكفار لا بالنسبة إلى المؤمن فإنه تدركه الشفاعة.

[٧١] ﴿**إلا من تاب**﴾ أي رجع إلى الله سبحانه عما اقترفه من الآثام ﴿**وآمن**﴾ فإن الإيمان في أثر التوبة؟ ولذا ذكر بعقبها ﴿**وعمل عملاً صالحاً**﴾ المراد به الجنس، أي أتى بجنس العمل الصالح، الذي يصلح لإسعاد الإنسان ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾ أي يمحي عنهم السيئات ويكتب مكانها حسنات، ومن المحتمل أن يراد إعطاء

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧١﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٣﴾

الثواب على نفس السيئة التي ارتكبها، بعد أن آمن وعمل صالحاً وتاب، فمثلاً كان قد زنى، فإنه إذا تاب توبة نصوحاً، أعطاه سبحانه ثواب النكاح لزناه ذلك ـ كما قال بذلك بعض ـ **﴿وكان الله غفوراً﴾** يغفر الذنب لمن أذنب **﴿رحيماً﴾** يتفضّل عليهم، فليس غفراناً مجرداً، بل مغفرة وفضلاً.

[٧٢] **﴿ومن تاب﴾** مما سلف عنه من المعاصي **﴿وعمل﴾** عملاً **﴿صالحاً﴾** بأن صحت عقيدته وعمله **﴿فإنه يتوب إلى الله﴾** أي أنه هو الذي يرجع إلى الله **﴿متاباً﴾** أي رجوعاً حقيقياً، أما من آمن ولم يعمل صالحاً، أو عمل صالحاً ولم يؤمن فإنه لم يرجع إليه حقيقة، إذ لو اعترف الإنسان بالله اعترافاً عميقاً لا بد وأن يؤمن ويعمل صالحاً أو المراد أنه يرجع إليه مرجعاً عظيماً من قبيل (فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)[١] و«المتاب» مصدر ميمي، من تاب بمعنى رجع.

[٧٣] **﴿والذين لا يشهدون﴾** شهادة **﴿الزور﴾** أي الكذب، وأصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنّه حق، من «زوّره تزويراً» **﴿وإذا مرّوا باللغو﴾** أي الباطل، أو الشامل له ولما لا فائدة فيه ـ كما هو الظاهر ـ **﴿مرّوا كراماً﴾** جمع كريم، أي يفعلون عند مشاهدة الباطل، ما يفعله الإنسان الكريم الرفيع النفس، ففي مقام النهي ينهون، وفي مقام السكوت

(١) طه: ٧٩.

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

يسكتون، وفي مقام التأديب يتأدبون، وهكذا، يقال: تكرم فلان عما يشينه أي تنزه، وأكرم فلان نفسه، أي لم يهوِ بها في مهوى المهانة والانحطاط.

[٧٤] ﴿**والذين إذا ذكروا**﴾ أي ذكرهم الناس، أو ذكرتهم الحياة، بأن رأوا صاعقة تلْفت الأنظار، أو زرعاً جميلاً يذكّر خالقه، وهكذا ﴿**بآيات ربهم**﴾ الدالة على وجوده وصفاته وسائر الشؤون المتعلقة به ﴿**لم يخروا عليها**﴾ أي لم يقعوا على تلك الآيات ﴿**صماً**﴾ جمع أصم ﴿**وعمياناً**﴾ جمع أعمى، أي لم يطلعوا عليها إطلاع الأصم الأعمى الذي لا يرتب الأثر إذ لا يسمع ولا يبصر، فإن الإنسان إنما يرتب الأثر على الأشياء من جهة السماع أو الإبصار، وكأن الإنسان الأصم الأعمى يقع على الشيء المرغوب فيه بلا استفادة منه، أو المنفور منه بلا فرار عنه، يخر على الأوراد، وعلى الكنيف، وهذا كناية عن عدم الاستفادة، بخلاف السميع البصير، فإن السميع يجلبه الترغيب وينفّره الإنذار، والبصير يرى فيقدم أو يحجم، والمؤمن يسمع الآيات، ويشاهد الآثار، فيرتب الأثر، بخلاف الكافر.

[٧٥] ﴿**والذين يقولون**﴾ من دعائهم، يا ﴿**ربنا هب لنا**﴾ أي اعطنا ﴿**من أزواجنا وذرّياتنا**﴾ أي أولادنا ﴿**قرة أعين**﴾ أي أولاد تقرّ بهم العين، وهو كناية عن الولد الصالح، فإن الإنسان إذا صلح ولده أو سُرّ بشيء آخر، قرّت عينه، بخلاف الإنسان المحزون الذي أصيب ببؤس أو ولد

وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٧﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ

سيئ، فإنه يقلّب طرفه هنا وهناك ليجد ملجأً أو حيلة للتخلص، وقوله «من أزواجنا» يراد الأولاد الصلبيين، و«ذرياتنا» الأحفاد **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** أي نكون أئمة أهل التقى، وذلك لا للاستعلاء، بل لأن ينالوا تلك الدرجات الرفيعة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة، إذا أرشد وأفاد إرشاده التقوى، إذ معنى الإمامة للمتقي أن يكون مصدراً للتقوى.

[٧٦] **﴿أولئك﴾** الذين هذه صفاتهم **﴿يجزون الغرفة﴾** أي يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة، فاللام في الغرفة، للعهد الذهني **﴿بما صبروا﴾** أي بسبب صبرهم على طاعة الله سبحانه، وثباتهم على أوامره ونواهيه **﴿ويلقّون فيها تحية وسلاماً﴾** أي تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية والسلام، كأن يقال لهم «حياكم الله حياة طيبة، وسلام عليكم» أو كناية عن الترحيب بهم.

[٧٧] في حال كونهم **﴿خالدين فيها﴾** أي في الغرفة ـ أي الجنة ـ فهم دائمون لايزالون هناك في نعيم جسمي وروحي **﴿حسنت﴾** تلك الغرفة **﴿مستقراً ومقاماً﴾** أي محل استقرار وإقامة، فالإنسان فيها مستقر غير متزلزل، باق غير متحول.

[٧٨] وإذ بيّن سبحانه أدعية المؤمنين، بعد ما بين أنهم آمنوا وعملوا صالحاً، قال **﴿قل﴾** يا رسول الله، للناس **﴿ما يعبأ**

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٨﴾

بكم ربي﴾ أي ما يبالي بكم الله، يقال لم يعبأ به أي لم يبالِ به، فكان وجوده وعدمه سواء ﴿**لولا دعاؤكم**﴾ أي توجّهكم إلى الله سبحانه فإن البشر هيّن في جنب الله لا شأن له لولا أن يتوجه إليه سبحانه فتكون له قيمة بهذا الترفع الذي يحصّله من جراء توجهه إلى الله تعالى ﴿**فقد كذبتم**﴾ أيها الكفار ما أخبرتكم به من المبدأ والعقيدة والمعاد ﴿**فسوف يكون**﴾ التكذيب، أي جزائه المترتب عليه من النار والنكال ﴿**لزاماً**﴾ أي ملازماً لكم لا يفارقكم، ولا يخفى أن من مصاديق «دعاؤكم» هو الدعاء المعتاد الذي ندعو الله به لقضاء حوائجنا، ولذا جيء بهذه الآية هنا، حيث تقدم دعاء المؤمنين، وإن كان الظاهر أن قوله: «لولا دعاؤكم» يراد به التوجه إلى الله سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والدعاء وغيرها ـ بصورة عامة ـ كما يناسب ذلك «فقد كذبتم»، ومن هذا يعرف ما للدعاء من الأهمية، فقول بعض المنحرفين: إن الدعاء لا ثمره له إذ لو قُدّر شيء يكون، ولو لم يقدّر لا يفيد الدّعاء، هو غلط، إذ التقدير: أن يكون ذلك الشيء بالدعاء كما أن التقدير أن يأكل الإنسان الشيء ويحصّل على الشيء بالعمل والطلب، والله الهادي.

٢٦

سورة الشعراء

مكية/ آياتها (٢٢٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «الشعراء» وما يتعلق بهم. وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، قالوا: إنها مكية إلا من قوله « والشعراء . . إلى آخر السورة». وحيث ختمت سورة الفرقان بقصة تكذيب الكفار للرسول، جاء مفتتح هذه السورة تسليةً للرسول أن لا يهتم بهم بعد الإنذار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ شروع بذكر اسم الإله الذي له كل شيء، ومن أبرز صفاته الرحم، مما يحتاج إليه الإنسان في كل خطوة من خطى الحياة، فإن الإنسان مجموعة نواقص، فلولا رحمه سبحانه لتكميله من آنات الحياة، لذهب عاطلاً لا ينتفع ولا يُنتفع به.

طسٓمٓ ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٥﴾

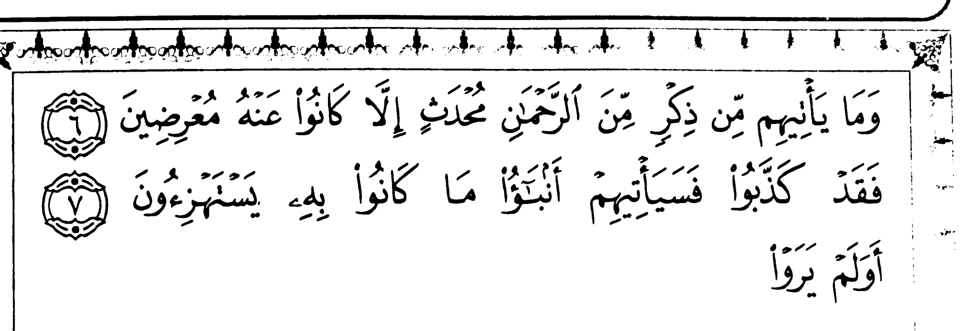
---

[٢] ﴿**طسم**﴾ «طاء» و «سين» و «ميم».

[٣] ﴿**تلك**﴾ الحروف وما يجانسها من حروف الهجاء ﴿**آيات الكتاب المبين**﴾ الواضح الظاهر الذي لا ريب فيه ولا غموض، فإن كان مكذوباً، فأتوا بمثله إذ هو مركب من لغتكم وحروفكم التي تلهجون بها طيلة أعماركم، وقد ذكرنا سابقاً، إن الإتيان بحروف خاصة كـ «طاء» ونحوها من باب الإشارة إلى حروف الهجاء وإن «تلك» وما أشبه مما يقع بعد هذه «المقطعات» خبر لمبتدأ هو تلك الحروف المقطعة، هذا على أحد الأقوال في معنى «الحروف المقطعة» وفي إعرابها، وهناك أقوال أُخر.

[٤] ﴿**لعلك**﴾ يا رسول الله ﴿**باخع نفسك**﴾ من بخع بمعنى أهلك، أي مهلك نفسك حزناً وأسفاً، بـ ﴿**أن لا يكونوا**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**مؤمنين**﴾ فقد كان النبي ﷺ يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، فسلاّه الله سبحانه بذلك و «لعل» بمعنى «الاحتمال» وإنما يستعمل للترجّي، لأنه «احتمال المطلوب» والجملة يراد بها النهي الإرشادي الإشفاقي، كما لا يخفى.

[٥] ﴿**إن نشأ**﴾ جبر الناس على الهدى ﴿**ننزل عليهم من السماء آية**﴾ أي معجزة مجبرة لهم على الإيمان ﴿**فظلت**﴾ أي صارت ﴿**أعناقهم**﴾ أي أعناق هؤلاء الكفار ﴿**لها**﴾ لتلك الآية ﴿**خاضعين**﴾ وإنما نسب



الخضوع إلى الأعناق لأنها أول مايظهر عليها الخضوع تميل نحو الأرض، لكن الله سبحانه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لكون الدنيا دار اختبار وامتحان، نعم وردت بعض الروايات الدالة على أنها تكون في زمان المهدي عليه السلام[1].

[٦] ﴿**وما يأتيهم**﴾ أي البشر ﴿**من ذكر من الرحمن**﴾ «من» زائد لتأكيد العموم، ولعل الإتيان بلفظة «الرحمن» للدلالة على أن المراد بذلك الذكر ما يسبب لهم الرحمة ﴿**محدث**﴾ أي جديد، كالقرآن ﴿**إلا كانوا عنه معرضين**﴾ يعرضون عنه، فقد اعتاد الناس على أن لا يخضعوا إلا للتقاليد وإن رأوا الحق والصدق في الشيء الجديد، فقد كانوا يتعاملون مع كل كتاب جديد هذه المعاملة، من غير فرق بين التوراة والإنجيل والقرآن، وسائر الكتب.

[٧] ﴿**فقد كذبوا**﴾ بالقرآن، والمراد كفار مكة، ﴿**فسيأتيهم**﴾ أي عند الموت، أو في يوم القيامة ﴿**أنباء**﴾ أخبار ﴿**ما كانوا به يستهزئون**﴾ والمراد عاقبة أعمالهم، وهذا كما تقول لمن تريد تهديده، سأخبرك بما كنت تعمل.

[٨] ﴿**أو لم يروا**﴾ أي ألم ينظر هؤلاء الكفار إلى الآيات الكونية؟ فلينظروا

---

(١) تأويل الآيات: ص٣٨٣ .

إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾

﴿**إلى الأرض**﴾ ليروا ﴿**كم أنبتنا فيها من كل زوج**﴾ أي كل صنف من أصناف النبات ﴿**كريم**﴾ حسن نافع جميل، والمعنى ذي كرامة ورفعة.

[٩] ﴿**إن في ذلك**﴾ الإنبات ﴿**لآية**﴾ دلالة على الإله وعلى صفاته ﴿**وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾ بالله وبما يجب الإيمان به، عناداً وتقليداً لآبائهم.

[١٠] ﴿**وإن ربك**﴾ يارسول الله لا يضره إعراض هؤلاء فإنه ﴿**لهو العزيز**﴾ له العزة والغلبة ﴿**الرحيم**﴾ فإنه يرحمهم مع قدرته كيما يندموا ويعودوا عن غيهم.

[١١] ثم بدأ السياق ليذكر فصلاً من قصة موسى عليه السلام فيها العبرة والذكر والتسلية للرسول والتبشير للمؤمنين بغلبتهم على أعدائهم ولو بعد حين ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين**﴾أي اذهب إليهم.

[١٢] ثم بين المراد بالقوم الظالمين بقوله ﴿**قوم فرعون**﴾ والمراد هو وقومه، كما هو الشائع في مثل هذا التعبير ﴿**ألا يتقون**﴾ أي أما آن لهم أن يتقوا الكفر والعصيان؟ وهذا تعجب في لفظ الاستفهام، حكاية لما قاله سبحانه لموسى عليه السلام.

[١٣] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام يا ﴿**رب إني أخاف أن يكذبون**﴾ أي يكذبني

وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾

فرعون وقومه فيما أدعوهم إليه، وقد قال موسى ذلك تمهيداً لطلبه مؤازرته هارون له، وإلا لم يكن موسى عليه السلام يريد بذلك الفرار عن حمل التبليغ.

[١٤] ﴿**ويضيق صدري**﴾ بتكذيبهم المتوقع، والسبب أن الإنسان إذا كذب، هاج، وغلبته الحرارة فتنتفخ الرئة لجذب الهواء المبرّد للقلب، وبذلك يضيق الصدر الذي هو مكان الرئة ﴿**ولا ينطلق لساني**﴾ بالكلام، فقد كان في لسان موسى عليه السلام عقدة قبل أن يرسله الله تعالى ثم حل العقدة من لسانه ﴿**فأرسل**﴾ يا رب ﴿**إلى هارون**﴾ أخي ليكون رسولاً معي يؤازرني في الرسالة.

[١٥] ﴿**ولهم**﴾ أي لقوم فرعون ﴿**عليّ ذنب**﴾ هم يعتبرونه ذنباً، وإن لم يكن ذنب حقيقي، فقد سبق أن قتل موسى قبطياً حين تشاجر مع إسرائيلي، فعده آل فرعون ذنباً، وإن كان قتل موسى له بحق ﴿**فأخاف أن يقتلون**﴾ أي يقتلني آل فرعون بمجرد ما يروني، قصاصاً على قتيلهم.

[١٦] ﴿**قال**﴾ الله تعالى في جواب موسى ﴿**كلاّ**﴾ لا تخف، فإنهم لا يتمكنون من إيذائك وقتلك، أما دعاءك بإطلاق لسانك فقد استجيب، وأما دعاءك أن نجعل هارون نبياً لك فقد قبلناه ﴿**فاذهبا**﴾ أنت وأخوك إلى فرعون وملأه ﴿**بآياتنا**﴾ أي الأدلة والمعاجز الدالة على التوحيد والرسالة والمعاد ﴿**إنّا معكم**﴾ أي مع الجميع، أنتما وآل فرعون ﴿**مستمعون**﴾ فيكون ما يدار بينكم من الحديث بمسمع منّا،

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ

وهذا تشجيع لهما، إذ الإنسان إذا علم أنه بمنظر ومسمع الملك كان أربط جأشاً وأقوى احتجاجاً.

[١٧] ﴿**فأتيا فرعون**﴾ أي اذهبا إليه ﴿**فقولا إنّا رسول رب العالمين**﴾ إفراد لفظ «الرسول» باعتبار كل واحد واحد، أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته وطاعته والإيمان بنا.

[١٨] وقد أمرك الله بـ ﴿**أن أرسل معنا بني إسرائيل**﴾ فإن فرعون كان قد سجن جمعاً من بني إسرائيل وهم أحفاد يعقوب عليه السلام، كما قد استعبد جماعة آخرين منهم، وكان هؤلاء لهم صبغة التوحيد، وعدم عبادة فرعون، ولذا أمر الله موسى عليه السلام أن يقول لفرعون، بإطلاق سراح بني إسرائيل، ليقودهم موسى عليه السلام إلى حيث خيرهم وصلاحهم، بعدما كانوا قلة مضطهدة.

[١٩] فأتى موسى وهارون فرعون، وبعد اللقاء، وبيان أنهما رسولان إليه، وأنّ الله يأمره بإطلاق سراح بني إسرائيل ﴿**قال**﴾ فرعون لموسى عليه السلام ﴿**ألم نربك**﴾ يا موسى ﴿**فينا**﴾ في منزلنا ومحلنا ﴿**وليداً**﴾ أي في حال كونك طفلاً صغيراً أخذناك من البحر وربيناك حتى صرت فتىً قوياً؟ ﴿**ولبثت فينا من عمرك سنين**﴾ أي كنت في بلاطنا سنوات متعددة من عمرك، وهي اثنتي عشرة سنة، عل حديث، أو ثمانية عشر على قول؟

[٢٠] ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت**﴾ أي قتلت ذلك القبطي ﴿**وأنت من**

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢١﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾

الكافرين﴾ بنا وبما أنعمنا عليك، فقد خالفت طريقتنا بعد تلك النعم وذلك الإجرام.

[٢١] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام في جواب فرعون: ﴿**فعلتها**﴾ أي فعلت تلك الفعلة وهي القتل ﴿**إذاً**﴾ في ذلك الزمان ﴿**وأنا من الضالين**﴾، يقال يضل لمن انحرف عن الطريق، سواء أريد بالطريق طريق الحق، أم طريق الباطل، كما قال سبحانه (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ)[1] يريدون: ضالون عن طريقنا الذي هو كفر، ولعل مراد موسى عليه السلام ذلك، أي أني ضال عن طريقتك يا فرعون، فلم يكن القتل إجراماً كما تزعم أنت، وإنما كان ضلالاً عن منهجك، وإلا فقد كان في موقعه حيث إنه قتل كافراً مهاجماً على مسلم.

[٢٢] ﴿**ففررت منكم**﴾ فإن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي، قرر فرعون وملأه أن يقتصوا من موسى، فجاءه رجل قائلاً (إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ)[2] فخرج منها خائفاً يترقب ﴿**لما خفتكم**﴾ على نفسي من القتل ﴿**فوهب لي ربي حكماً**﴾ بأن جعلني حاكماً في الأرض فإن الحكومة ليست إلا لله ولمن وهبها له ﴿**وجعلني من المرسلين**﴾ فقد أرسلني إليكم لأهديكم سبيل الرشاد.

(١) المطففين: ٣٣.

(٢) القصص: ٢١.

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٦﴾

[٢٣] قدّم موسى عليه السلام جواب قول فرعون «فعلت فعلتك» لأنه كان إلصاق تهمة القتل، ومن البلاغة أن يقدم الإنسان جواب الأهم من كلمات الخصم، لئلا يبقى ولو لمدة تعمل أثر الكلمات في أدمغة السامعين فيذهب بالموقف عن يد المتهم، ثم رجع عليه السلام ليجيب عن كلامه الأول وهو امتنانه عليه بأنه ربّاه في قصره، فقال ﴿**و**﴾ هل ﴿**تلك**﴾ التربية ﴿**نعمة تمنّها عليّ**﴾؟ فإن تربيتك كانت من جهة ﴿**أن عبّدت بني إسرائيل**﴾ أي جعلتهم عبيداً مضطهدين، حتى اضطرت أمي لإلقائي في البحر لنجاتي من السفاكين الذين جعلتهم لقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل، إنها، بالأحرى، عليك لا لك، فلو لم تكن عبّدت بني إسرائيل لكفّلوني، ولم يكون لك سبيل إليّ.

[٢٤] ﴿**قال فرعون**﴾ بعد أن انقطع عن المحاورة مع موسى حول التربية والجريمة ﴿**وما رب العالمين**﴾ أيّ شيء هذا الذي تدعوني إلى عبادته، وكأنه لم يقل «من» استخفافاً.

[٢٥] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام في جواب فرعون: ﴿**رب السماوات والأرض**﴾ أي خالقهما ومبدعهما ﴿**وما بينهما**﴾ من الإنسان والملك والحيوان والجماد وغيرها ﴿**إن كنتم موقنين**﴾ أي إن كنتم أصحاب يقين لعلمتم أن لهذه الأشياء ربّاً، وكأن في مقابل ذلك، من لا يبالي ولايهتم حتى لا يعلم الارتباط وأن لكل شيء مؤثراً، ككثير من الجهال.

[٢٦] ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**لمن حوله**﴾ من الوزراء والحكام ﴿**ألا تستمعون**﴾

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

إلى مقالة موسى؟ إني أسأله ما جنس الإله؟ وهو يجيب بما فعل وأبدع، وهذا الجواب ليس مرتبطاً بالسؤال، لكن موسى عليه السلام أراد بذلك أن يلقم فرعون الحجة، فهل يتمكن أحد أن ينكر أن للكون إلهاً؟ أما جنسه فهو غير مرتبط بهذا المقام.

[٢٧] لكن موسى عليه السلام لم يأبه لاستخفاف فرعون، وأخذ يسرد الحجج الدالة على وجوده سبحانه، كي يركّز الألوهية في الأذهان، ويتم الحجة فـ ﴿**قال**﴾ ثانياً إن الله الذي أدعوا إليه ﴿**ربكم**﴾ أيها الملأ ﴿**ورب آبائكم الأولين**﴾ وفي هذا كان رداً على فرعون إذ كان يدعي أنه الرب، فمن كان رب آبائكم هل هو فرعون؟ وهذا ما لا يقول به، أم غيره؟ إذا ثبت بطلان ربوبية فرعون.

[٢٨] ولما رأى فرعون أن موسى غلبه في الحجة، رماه بما يرمى به كل مصلح حين لا يقدر خصمه من إقامة المنطق فـ ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**إن رسولكم**﴾ والإضافة للاستهزاء ﴿**الذي أرسل إليكم لمجنون**﴾ وما يدعيه من الرسالة دعوى جنونية.

[٢٩] لكن موسى عليه السلام لم يهتم باتهام فرعون، بل أخذ يفيض في الكلام، مستدلاً بالآيات الكونية على الله، موجهاً أنظار الملأ إليها فـ ﴿**قال**﴾ موسى إن الله هو ﴿**رب المشرق والمغرب وما بينهما**﴾ من أصناف الخلق ﴿**إن كنتم تعقلون**﴾ أي إن أعملتم عقولكم لعلمتم أن لهذه الأشياء ربّاً وخالقاً.

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

[٣٠] وهنا التجأ فرعون إلى التهديد فـ ﴿**قال**﴾ مهدداً لموسى عليه السلام ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري**﴾ بأن اعتقدت بإله آخر ودعوت إلى ذلك الإله ﴿**لأجعلنك من المسجونين**﴾ أي أسجنك جزاءً لهذه العقيدة.

[٣١] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام ﴿**أولو جئتك بشيء مبين**﴾ أي هل تحبسني حتى إذا جئتك بدليل واضح دال على نبوّتي؟.

[٣٢] ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**فأت به**﴾ أي جيء بما تدعيه من الحجة والمعجزة ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾في دعواك النبوة.

[٣٣] ﴿**فألقى**﴾حينئذ موسى عليه السلام على الأرض ﴿**عصاه فإذا هي ثعبان**﴾ أي حية عظيمة ﴿**مبين**﴾ ظاهر واضح أنه ثعبان وليس شعوذة وسحراً.

[٣٤] ﴿**و**﴾أدخل يده في جيبه، أو تحت إبطه ثم ﴿**نزع يده**﴾ أي أخرجها من ذلك المكان ﴿**فإذا هي**﴾ اليد ﴿**بيضاء**﴾ منيرة كنور الشمس ﴿**للناظرين**﴾ إليها، ولم يكن حديثاً يسمع، وإنما رأوها رأي العين.

[٣٥] ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**للملأ**﴾ أي الأشراف وسموا ملأً لأنهم يملؤون العيون هيبة ﴿**حوله**﴾ أي الذين كانوا حوله ﴿**إن هذا**﴾ الرجل، يعني موسى عليه السلام ﴿**لساحر عليم**﴾ بالسحر والحيلة.

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٩﴾

[٣٦] وإنه إنما يدعي النبوة ويظهر السحر ﴿**يريد أن يخرجكم من أرضكم**﴾ أي مصر، لأنه لو سيطر، اضطر فرعون والملأ أن يفروا منه، كما هي عادة الملوك لدى الانهزام ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**سحره**﴾ وهنا أراد فرعون أن يجلب انتباه الأشراف لئلا يميلوا إلى موسى، أليس يريد إخراجهم من أرضهم؟ فاللازم أن يقفوا صفاً واحداً ضده ﴿**فماذا تأمرون**﴾ أيها الأشراف، أن نفعل ضد موسى؟

[٣٧] ﴿**قالوا**﴾ وقد خانوا موسى، وصدقوا مقالة فرعون ﴿**أرجه**﴾ أخره، ﴿**وأخاه**﴾ أي أبقهما عندك ﴿**وابعث**﴾ أرسل ﴿**في المدائن**﴾ أي المدن المرتبطة بك جماعة ﴿**حاشرين**﴾ يحشرون ويجمعون لك السحرة، من «حشر» بمعنى جمع.

[٣٨] ﴿**يأتوك**﴾ أي الرسل الذين أرسلتهم لجمع السحرة، يأتون إليك ﴿**بكل سحار**﴾ أي كثير السحر ﴿**عليم**﴾ في علم السحر، حتى يقابلوا موسى في سحره فإذا جاءوا وأظهروا تفوقاً عليه بطل سحر موسى، و انفضح أمام الناس، وبطلت حجته، فلم يتبعه أحد حتى يُخشى منه.

[٣٩] وذهبت الرسل إلى البلاد وأخبروا السحرة بأن فرعون يطلبهم ويدعوهم إلى أن يحضروا أرض مصر ﴿**فجمع السحرة**﴾ جمع ساحر ﴿**لميقات يوم معلوم**﴾ أي لوقت يوم خاص، فإن «ميقات» اسم للزمان

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٣﴾

وللمكان، والمراد باليوم المعلوم، يوم الزينة، فقد كان لهم يوم عيد يخرج فيه الجميع خارج المدينة، للمعايدة.

[٤٠] ﴿**وقيل**﴾ أي قال فرعون وملأه ﴿**للناس**﴾ وهم أهل مصر ﴿**هل أنتم مجتمعون**﴾ هذا طلب بصورة الاستفهام؟ نحو قوله (هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى)[1].

[٤١] ﴿**لعلنا نتبع السحرة**﴾ أي السحرة المعارضين لموسى، والمراد باتباعهم عدم ترك دينهم إلى دين موسى، فكنى عن ذلك باتباع السحرة، لتقابله مع أتباع موسى عليه السلام ﴿**إن كانوا هم الغالبين**﴾ على موسى وهارون.

[٤٢] ﴿**فلما جاء السحرة**﴾ وحضروا بين يدي فرعون ﴿**قالوا لفرعون أئِنَّ لنا لأجراً**﴾، هل لنا أجر وجزاء عندك ﴿**إن كنا نحن الغالبين**﴾ على موسى وهارون؟

[٤٣] ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**نعم**﴾ لكم الأجر والجزاء ﴿**وإنكم**﴾ بالإضافة إلى ما تعطون من الجزاء ﴿**إذاً**﴾ أي إذا غلبتم عليهم ﴿**لمن المقربين**﴾ عندي أقربكم إلى نفسي، حتى تكونوا من خواصي، فلكم المال والجاه معاً.

---

(١) النازعات: ١٩.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٦﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٧﴾

---

[٤٤] واجتمع الجميع في يوم الزينة، واصطف الطرفان، فهنا موسى وهارون، وهناك فرعون بملَئه والسحرة وسائر النظارة ﴿**قال لهم**﴾ أي للسحرة ﴿**موسى ألقوا ما أنتم ملقون**﴾ تحداهم عليه السلام بذلك، بأن يأتوا بما عندهم من أنواع السحر حتى يبطلها، وليس هذا طلباً حتى يقال: كيف يطلب النبي السحر وهو حرام؟

[٤٥] ﴿**فألقوا**﴾ أي السحرة ﴿**حبالهم**﴾ جمع حبل ﴿**وعصيهم**﴾ جمع عصا، فقد صوروا الحبال والعصي بصورة الحيّات ولونوها وطلوها بالزئبق وغيره، بحيث تتحرك فيظن الناس أنها حيات وثعابين ﴿**وقالوا بعزة فرعون**﴾ حلفوا بذلك، وأصل الحلف أن الإنسان يبدي ما في ضميره مبيناً أنه مؤكد عنده بسبب ربط كلامه بشيء عظيم واقعاً، أو عند الاجتماع، وكأنه يريد أن يبين أن مسلمية ما يقول كمسلمية ذلك الشيء العظيم، والعزة هي القوة والغلبة ﴿**إنا لنحن الغالبون**﴾ زعماً منهم أن موسى لايقدر على ما قدروا عليه.

[٤٦] ﴿**فألقى موسى عصاه**﴾ أي ألقاها من يده ﴿ **فإذا هي**﴾ تنقلب حية عظيمة ﴿**تلقف**﴾ أي تأكل بالتهام ﴿**ما يأفكون**﴾ أي إفكهم وهو الكذب، لأن حياتهم كانت مكذوبة لا حقيقة لها.

[٤٧] ﴿**فألقى السحرة ساجدين**﴾ فإنهم قد رأوا الحق في موسى عليه السلام

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٨﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ

وعصاه، إذ هم أهل خبرة بالسحر، وعلموا أن عصاه ليست بسحر، فاندهشوا بحيث ملكهم الأمر وألقوا أنفسهم للسجود لله سبحانه إظهاراً لاستسلامهم وخضوعهم، والإتيان بـ «أُلقي» مجهولاً، للدلالة على دهشتهم حتى كأنهم لم يسجدوا اختياراً، وإنما اضطراراً من أنفسهم، فقد حدث في حالة ألقتهم إلى السجود.

[٤٨] ﴿**قالوا**﴾ أي السحرة ﴿**آمنا برب العالمين**﴾ صدقنا بأنه الإله، لا فرعون والأصنام.

[٤٩] ﴿**رب موسى وهارون**﴾ وإنما عطفوا بذلك، لئلا يتوهم أن مرادهم برب العالمين هو «فرعون» إذ فرعون كان يقول أنا ربكم الأعلى.

[٥٠] وعند ذلك سقط فرعون في يده، إذ ظهرت غلبة موسى أمام الجماهير فتوجه إلى السحرة مهدداً لهم ﴿**قال**﴾ كيف ﴿**آمنتم له**﴾ أي لرب العالمين، أو لموسى ﴿**قبل أن آذن لكم**﴾ وقد كان فرعون يرى نفسه فوق الكل حتى أنه لو أراد أحد الإيمان كان اللازم أن يستأذنه، ثم أراد أن يموه الأمر على السذج فقال ﴿**إنه**﴾ أي موسى ﴿**لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ فهو أستاذكم ومعلمكم وقد تواطأتم أنتم وموسى على هذا الأمر، بأن يأتي هو بسحر فوق سحركم حتى تظهروا للناس أنه نبي وتسيطروا على الأمر ﴿**فلسوف تعلمون**﴾ العقاب الذي يحل عليكم، ثم فسر ما هدده بقوله: ﴿**لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾ أي اليد من جانب والرجل من جانب، وهذا أبلغ في التنكيل

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾

من قطعها من طرف واحد ﴿**ولأصلبنكم أجمعين**﴾ والصلب هو أن يعلق الجسم بعمود طويل إما بدق الجسم عليه بالأوتاد، أو بربطه بالحبل ونحوه، فيموت فوراً أو بعد زمان.

[٥١] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت السحرة المؤمنون في جواب فرعون ﴿**لا ضير**﴾ أي لاضرر علينا مما تفعله بنا، يقال: ضاره يضيره ضيراً، بمعنى يضره ضرراً، فـ ﴿**إنا إلى ربنا**﴾ الله ﴿**منقلبون**﴾ راجعون إلى ثوابه ولطفه فيجازينا على إيماننا وصبرنا بما هو خير لنا من الدنيا، ومن المعلوم أن الإنسان لا يعد الألم القليل لفوائد كثيرة ضرراً، قال بعض المفسرين: إن فرعون لم يقدر على قتل أحد من السحرة، وقد ورد أن جمعاً آمنوا بموسى فحبسهم مع السحرة، حتى أرسل الله على آل فرعون الجراد والقمل والضفادع، فأطلق سراحهم.

[٥٢] ﴿**إنا نطمع**﴾ أي نرجو ﴿**أن يغفر لنا ربنا خطايانا**﴾ السالفة من الكفر والسحر والعصيان، حيث ﴿**أن كنا أول المؤمنين**﴾ بموسى عليه السلام وبما دعانا إليه، فإن أول الناس إيماناً أعظم أجراً، لما يتوجه إليه من الخطر والضرر الذين لا يتوجهان إلى سائر المؤمنين من بعده.

[٥٣] ﴿**وأوحينا إلى موسى**﴾ بعدما أطلق فرعون عن بني إسرائيل وسائر المؤمنين ﴿**أن أسر**﴾ أي سر ليلاً إلى خارج مصر ﴿**بعبادي**﴾ أي مع عبادي المؤمنين ﴿**إنكم متبعون**﴾ أي أن وجه الأمر بالسير ليلاً، إنكم

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إن سرتم نهاراً يتبعكم الطلب ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر، أو هذا إخبارٌ بأن فرعون يتبعهم فليعلموا ذلك سلفاً.

[٥٤] وحيث تقابل قومي موسى وفرعون من حيث المؤمنين بالطرفين، تفكر فرعون لصد الناس عن الإيمان بجمع الجيش لمحاربة موسى ﴿**فأرسل فرعون في المدائن**﴾ جمع مدينة، أي البلاد التي كانت تحت سلطته ﴿**حاشرين**﴾ أي أناساً حاشرين، من حشر بمعنى جمع، أي جماعة يجمعون المال والعسكر، لتهيئة حرب تبيد موسى والمؤمنين به معاً.

[٥٥] قال فرعون لمن حوله ﴿**إن هؤلاء**﴾ أي موسى والمؤمنين به﴿**لشرذمة قليلون**﴾ أي عصابة من الناس قليلة، فإن شرذمة كل شيء بقيته القليلة، وفي بعض التفاسير أنهم كانوا ستمائة ألف، فقد أراد التقليل لهم والتنقيص من شأنهم.

[٥٦] ﴿**وإنهم لنا لغائظون**﴾ يقال غاظه أي أغضبه، أي أغضبونا حيث خالفوا معنا في الطريقة، وهكذا يقول المتكبرون دائماً وكأنهم هم المحور حتى أن إغضابهم يوجب النكال والتدمير.

[٥٧] ﴿**وإنا لجميع**﴾ أي جماعة ﴿**حاذرون**﴾ أي خائفون شرهم، من «حذر» بمعنى خاف واستعمل الحزم في الأمور.

[٥٨] وخرج موسى عليه السلام وقومه ليلاً من مصر، واتبعهم فرعون بعد ما عرف خروجهم بجيشه الجرار، يريد حربهم أو إرجاعهم، وهكذا أخرج الله

فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٨) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٩) كَذَالِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ (٦٠) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦١) فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦٢)

فرعون من البلاد كما قال ﴿**فأخرجناهم**﴾ أي فرعون وآله ﴿**من جنات**﴾ أي بساتين ﴿**وعيون**﴾ جمع عين، أي: العيون الجارية في أراضيهم وبساتينهم.

[٥٩] ﴿**وكنوز**﴾ جمع كنز، وهو المال المخبأ، أي عن أموالهم الثمينة التي اختزنوها ﴿**ومقام كريم**﴾ مقامهم المتصف بالكرامة، لأنهم كانوا يكرمون في ذلك المقام.

[٦٠] ﴿**كذلك**﴾ الأمر قد كان ﴿**وأورثناها**﴾ أي تلك النعم من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿**بني إسرائيل**﴾ المؤمنين بالله، فإن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر وصاروا فيها سادة.

[٦١] وبعد بيان تلك الخاتمة ـ فوراً ـ يأتي السياق لبيان القصة كيف صار الطرفان، وهل تلاقيا ﴿**فأتبعوهم**﴾ أي أتبع فرعون وآله، لموسى والمؤمنين ﴿**مشرقين**﴾ أي حين شروق الشمس وظهور ضوئها، بعد أن خرج موسى والمؤمنون، ليلاً، وساروا مسافة طويلة، ووصل موسى والمؤمنون إلى البحر، وهاهم يرون فرعون بجيشه يتبعهم، فماذا يصنعون؟

[٦٢] ﴿**فلما تراءى الجمعان**﴾ أي تقابل جمع موسى مع جمع فرعون، بحيث رأى كلٌّ صاحبه ﴿**قال أصحاب موسى**﴾ في خوف واضطراب ﴿**إنا لمدركون**﴾ أي سيدركنا جماعة فرعون ولا طاقة لنا بهم، فإنهم لم

قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٦﴾

يكونوا حملوا السلاح للمقاتلة.

[٦٣] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام ﴿**كلا**﴾ لايدركونا، ثقة منه عليه السلام بنصر الله تعالى ﴿**إن معي ربي**﴾ أي معي نصرته ولطفه ﴿**سيهدين**﴾ أي سيرشدني إلى طريق النجاة.

[٦٤] ﴿**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر**﴾ وهو البحر الأحمر الذي وصلوا إليه، فضرب موسى عصاه على البحر كما أمر الله سبحانه ﴿**فانفلق**﴾ البحر أي انشق، وظهر فيه اثني عشر طريقاً بين كل طريقين حاجز من الماء، وظهر القعر يابساً ﴿**فكان كل فرق**﴾ أي كل قطعة من البحر، التي كانت حاجزة بين طريق وطريق ﴿**كالطود**﴾ أي الجبل ﴿**العظيم**﴾ جبل من الماء ممتد عبر البحر، وطريق، ثم جبل وطريق، وهكذا إلى اثني عشر طريقاً وسيعاً جافاً في قلب البحر.

[٦٥] ﴿**وأزلفنا**﴾ أي قربنا، من زلف بمعنى قرب ﴿ **ثم**﴾ أي هناك، نحو البحر ﴿**الآخرين**﴾ أي فرعون وقومه، قربناهم إلى البحر، فإنهم اقتربوا ليحاربوا موسى ومن معه، ونسبة الإزلاف إليه سبحانه، لأنه هو الذي أمر موسى بالخروج، فهو السبب الأول لإخراج فرعون.

[٦٦] ولما وصل فرعون إلى البحر، ورأى أن موسى وأصحابه في وسطه، دخل البحر ليدرك موسى ﴿**وأنجينا موسى ومن معه أجمعين**﴾ حيث

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾

وصلوا إلى ساحل البحر سالمين، حين وصل فرعون بجيشه منتصف البحر.

[٦٧] **﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾** بأن أمرنا ماء البحر أن يرجع إلى محله، فتلاطم الماء وانصبّ على فرعون وجيشه فغرقوا.

[٦٨] **﴿إن في ذلك﴾** الذي تقدم من نصرة موسى على فرعون **﴿لآية﴾** أي دلالة على نصرة الله للمؤمنين على الكافرين، أو دلالة على الله وصفاته وسائر شؤونه **﴿وما كان أكثرهم﴾** أي أكثر الناس **﴿مؤمنين﴾** مصدقين بهذه الآيات، أو أن آل فرعون رأوا تلك الآية فما آمنوا، فلا تستوحش يا رسول الله من عدم إيمان قومك.

[٦٩] **﴿وإن ربك﴾** يا رسول الله **﴿لهو العزيز﴾** في سلطانه الغالب، كما غلب على فرعون وقومه **﴿الرحيم﴾** بخلقه، ومن رحمته سبحانه أنه، يمهلهم، مع كفرهم ومعاصيهم، حتى إذا لم يبق أمل في إيمانهم أهلكهم، أو المراد أنه عزيز غالب على الأعداء، رحيم عطوف بالمؤمنين.

[٧٠] **﴿واتل﴾** يا رسول الله، أي اقرأ **﴿عليهم﴾** أي على الناس **﴿نبأ إبراهيم﴾** أي خبره، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وعظة للعرب الذين كانوا من نسله، حتى ينظروا إلى جدهم، ويتبعوا طريقته.

[٧١] **﴿إذ قال﴾** أي في زمان، والمراد تلاوة هذه القطعة من قصته **﴿لأبيه﴾** آزر، والمراد عمه، فإن العرب تسمي العمّ أباً، لأنه بمنزلة الأب

وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٣﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾

﴿**وقومه ما تعبدون**﴾ أي أيّ شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله؟ قال ذلك على وجه الإنكار.

[٧٢] ﴿**قالوا**﴾ في جواب إبراهيم عليه السلام ﴿**نعبد أصناماً**﴾ جمع صنم ﴿**فنظل لها**﴾ لتلك الأصنام ﴿**عاكفين**﴾ نعكف عليها ونقيم في عبادتها.

[٧٣] ﴿**قال**﴾ ابراهيم عليه السلام يريد إبطال عملهم، وأن عبادتهم لها في غير موقعها ﴿**هل يسمعونكم**﴾ أي هل تسمع هذه الأصنام كلامكم ودعاءكم؟ ﴿**إذ تدعون**﴾ إياهم.

[٧٤] ﴿**أو ينفعونكم**﴾ بجلب خير لكم؟ ﴿**أو يضرون**﴾ بإيقاع ضرر عليكم؟ وإذ كان الجواب على ذلك بالسلب والنفي، فلماذا تعبدون ما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع؟.

أقول: ولم يكن للقوم أن يقولوا: نعم، في الجواب، إذ ذلك يحتاج إلى دليل، كما أنه ليس للقوم النقض على إبراهيم بأن الله أيضاً كذلك ويطلبوا الدليل، إذ الآثار تدل على المؤثر فهناك مالا يحصى من الأدلّة على أن في الكون قوة خارقة تضر وتنفع وتخلق وتميت وتعطي وتمنع، وما ذاك إلا الله سبحانه.

[٧٥] ﴿**قالوا**﴾ في جواب إبراهيم، إنما ليس لنا دليل على ألوهية هؤلاء، وإنما نعبدها تقليداً ﴿**بل وجدنا آباءنا**﴾ وأجدادنا ﴿**كذلك**﴾ الذي نفعل من عبادة الأصنام ﴿**يفعلون**﴾ فقلدناهم الأمر.

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى

[٧٦] ﴿**قال**﴾ إبراهيم عليه السلام معلناً براءته من الأصنام بعد أن اعترف القوم بأنهم لادليل لهم ﴿**أفرأيتم ما كنتم تعبدون**﴾ من الأصنام.

[٧٧] ﴿**أنتم وآباؤكم الأقدمون**﴾ المقدمون عليكم، «وأنتم» للماضي، أي الأصنام التي تعبدونها أنتم وكان آباؤكم يعبدونها.

[٧٨] ﴿**فإنهم عدو لي**﴾ فقد جعل الأصنام كالأعداء، لأنه كما يضر العدو، تضر الأصنام، فإن عبادتها تورث النار والخزي، والإتيان بضمير العاقل للأصنام بقوله «فإنهم» جرياً على ما يراه القوم من عقلها، وتنسيقاً للكلام الدائر بينه وبينهم ﴿**إلا رب العالمين**﴾ حيث إن قوله «ما كنتم» عام يشمل جميع معبوداتهم، وقد كانوا يعترفون بالإله، استثنى عليه السلام عن قوله «عدو» الله سبحانه، فإنه الرحيم الخليل لإبراهيم دون سائر الأصنام.

[٧٩] ثم أخذ عليه السلام يصف الله سبحانه بالصفات التي هي له، وفيه تعريض بالقوم، بأنّ أصنامكم لا تضر ولا تنفع ﴿**الذي خلقني**﴾ أخرجني من العدم إلى الوجود ﴿**فهو يهدين**﴾ أي يهديني طريق السعادة، كما خلقني، كما قال سبحانه (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[١]

[٨٠] ﴿**والذي هو**﴾ لا غيره ﴿**يطعمني**﴾ أي يعطيني الطعام، وسائر الناس

---

(١) طه: ٥١.

﴿وَيَسْقِينِ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٣﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وسائط، وإلا فالمطعم الحقيقي هو الله الذي خلق الطعام ﴿**ويسقين**﴾ الماء إذا عطشت.

[٨١] ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ أي يشفيني من المرض فهو الشافي حقيقة، وإنما الطبيب وسيلة.

[٨٢] ﴿**والذي يميتني**﴾ إذا انقضى أجلي ﴿**ثم يحيين**﴾ يوم القيامة للبعث والحساب وسقوط ياء المتكلم في هذه الأفعال تخفيفاً، لوضوحها بالإضافة إلى حصول التناسق بحذفها.

[٨٣] ﴿**والذي أطمع**﴾ أي أوجد ﴿**أن يغفر لي خطيئتي**﴾ والأنبياء معصومون، إلا أنهم يعدون حتى عملهم بالمباحات خطايا، إذا ما يعرفون من مقام الله وعظمته يقتضي أن يكونوا دائماً في خدمته، حتى لا يشتغلوا بنوم أو أكل أو مباشرة، أرأيت لو جاءك إنسان كبير، وأنت وسخ الثياب تعتذر منه وتخجل، وإن لم يكن ذلك سيئة، وكنت مضطراً إلى هذه الثياب؟ ﴿**يوم الدين**﴾ أي في يوم الجزاء.

[٨٤] ثم توجه إبراهيم عليه السلام إلى الله بالدعاء قائلاً ﴿**رب هب لي حكماً**﴾ فإن كون الإنسان حاكماً في الأرض حكومة مشروعة لا يكون إلاّ لله سبحانه، فإذا منحه لأحد كان حاكماً شرعياً، وإن لم يمنحه كان غاصباً لا حق له فيه ﴿**وألحقني بالصالحين**﴾ أي اجعلني في زمرتهم ومعهم.

وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٦﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٨﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٩٠﴾

[٨٥] ﴿**واجعل لي لسان صدق**﴾ أي ثناءً جميلاً صادقاً ﴿**في الآخرين**﴾ أي الأمم التي تأتي من بعدي، فيثنون عليّ ثناءً صادقاً، بأن أكون قدوة لهم، فالمراد باللسان الثناء، بعلاقة الحال والمحل، والمراد بالصدق أن يكون الثناء صدقاً، في مقابل الثناء الكاذب وقد أجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم، فقد مرت عشرات القرون، والأمم كلهم يثنون على إبراهيم، ويذكرونه بتجلة وإكبار.

[٨٦] ﴿**واجعلني من ورثة جنة النعيم**﴾ أي الذين يرثونها كالإرث الذي ينتقل إلى الإنسان.

[٨٧] ﴿**واغفر لأبي**﴾ بأن تهديه إلى الحق حتى يستحق الغفران ﴿**إنه كان من الضالين**﴾ المنحرفين الذي ضلوا الطريق، والمراد «بأبي» عمه آزر، وإلاّ فقد كان أبوه عليه السلام مؤمناً راشداً.

[٨٨] ﴿**ولا تخزني**﴾ من الخزي، وهو أن يترك الإنسان لشأنه حتى يذل ﴿**يوم يبعثون**﴾ أي يوم القيامة، وهذا أيضاً كما تقدم في قوله عليه السلام «خطيئتي».

[٨٩] ﴿**يوم لا ينفع مال**﴾ لإنجاء الإنسان من الهلكة، وإسعاده بالجنة ﴿**ولا بنون**﴾ يدافعون عن الإنسان، ويهيئون له المكان الحسن الوثير.

[٩٠] ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ أي لا ينفع شيء إلا القلب السليم،

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٤﴾ فَكُبْكِبُوا۟

وهذا استثناء منقطع، وقد ذكرنا وجهه سابقاً، وأنه استثناء عن أصل المطلب، لا عن المطلب بقيوده، والمراد بالقلب السليم، القلب السالم عن المعاصي والآثام، وإنما نسب إلى القلب لأنه مبعث الخيرات والشرور.

[٩١] ﴿**و**﴾ يوم ﴿**أزلفت الجنة**﴾ أي قربت، إما قرباً زمانياً، لأن أيام الدنيا انقضت، وجاء دور الآخرة، وإما قرباً مكانياً، فإنّ الأرض تكون ساحة الحشر، والجحيم تظهر في أطباقها، والجنة ـ التي لا تبعد أن تكون في أعالي الفضاء ـ تقرّب إلى الأرض ليراها المؤمنون ﴿**للمتقين**﴾ الذين كانوا يتقون المحارم في الدنيا.

[٩٢] ﴿**وبرزت**﴾ أي أظهرت، والمظهر هو الله سبحانه ﴿**الجحيم**﴾ وهي جهنم ـ مؤنثة سماعاً ـ ﴿**للغاوين**﴾ من غوى، بمعنى ضل، أي الضالين الذين أغواهم الشيطان، فعملوا الكفر والعصيان.

[٩٣] ﴿**وقيل لهم**﴾ أي للغاوين ﴿**أين ما كنتم تعبدون**﴾ أي أين ذهبت الأصنام التي كنتم تعبدونها؟

[٩٤] ﴿**من دون الله**﴾ أي عوض عبادة الله ﴿**هل ينصرونكم**﴾ بدفع العذاب عنكم، في هذا اليوم ﴿**أو ينتصرون**﴾ هم لأنفسهم بأن لا يكونوا حصب جهنم.

[٩٥] ﴿**فكبكبوا**﴾ أي جمعوا، بمعنى دفعوا وطرح فيها بعضهم فوق بعض

فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٨﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٠٠﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠١﴾

﴿**فيها**﴾ أي في الجحيم ﴿**هم**﴾ أي الآلهة ﴿**والغاوون**﴾ أي الكفار الضالون الذين كانوا يعبدونها، أو المراد بـ «هم» هؤلاء عبدة الأصنام وسائر الغاوين كالطبيعيين ومن إليهم.

[٩٦] ﴿**و**﴾ كبكب فيها ﴿**جنود إبليس**﴾ من اتبعه من وُلده وولد آدم وعصاة الجن ﴿**أجمعون**﴾ حتى لا يبقى منهم أحد خارج النار.

[٩٧] ﴿**قالوا**﴾ أي قال هؤلاء الذين في النار ﴿**و**﴾ الحال أن ﴿**هم فيها يختصمون**﴾ يخاصم بعضهم بعضاً.

[٩٨] ﴿**تالله**﴾ قسم بالله، والتاء تأتي غالباً لأمر مستنكر أو غريب ﴿**إن**﴾ أي إنه، فـ «إن» مخففة حذف اسمها ﴿**كنا لفي ضلال مبين**﴾ أي واضح ظاهر.

[٩٩] ﴿**إذ نسويكم**﴾ الخطاب للأصنام، والإتيان بضمير العاقل، باعتبار جعلهم مخاطبين ﴿**برب العالمين**﴾ بمعنى إذ سويناكم بالله، وجعلناكم عدلاً له، فعبدناكم من دونه، وهكذا يتبرّأ المشركون هناك من الأصنام.

[١٠٠] ﴿**وما أضلنا**﴾ عن طريق الحق، إلى عبادتكم ﴿**إلاّ المجرمون**﴾ أي كبرائنا الذين أجرموا فأغرونا عن الحق.

[١٠١] ثم يتضرع المشركون إلى الناس كي ينقذوهم من العذاب قائلين في صورة استفهام واستعطاف ﴿**فما لنا من شافعين**﴾ يشفعون لنا كي

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾

ننجو من العذاب؟

[١٠٢] ﴿**ولا صديق**﴾ أي ولا من صديق ﴿**حميم**﴾ أي ذي قرابة فإن الحميم هو القريب الذي ترده ويردك؟ والمعنى هل ليس لنا شافع من الأباعد أو صديق من الأقارب؟

[١٠٣] ﴿**فلو أن لنا كرة**﴾ يتمنون أن يكون لهم رجوع إلى الدنيا، من «كرّ» إذا رجع ﴿**فنكون من المؤمنين**﴾ حتى إذا متنا ثانياً فزنا بالنعيم وتخلصنا من الجحيم.

[١٠٤] ﴿**إنّ في ذلك**﴾ الذي ذكرناه من قصة إبراهيم عليه السلام ﴿**لآية**﴾ أي دلالة على وحدة الله سبحانه وسائر صفاته وشؤونه والمعاد، أو حجة على هؤلاء القوم الذين يتمسكون بإبراهيم ويعتبرونه نبياً وجداً لهم ﴿**وما كان أكثرهم**﴾ أي أكثر هؤلاء الذين عاصروك يا رسول الله، أو أكثر أولئك الكفار في زمن إبراهيم ﴿**مؤمنين**﴾ مصدقين، وإنما راكبون رؤوسهم يعاندون في الأمر.

[١٠٥] ﴿**وإن ربّك**﴾ يا رسول الله ﴿**لهو العزيز**﴾ في سلطانه الغالب على أمره، وبعزته يأخذ الكفّار وينتقم منهم ﴿**الرحيم**﴾ بعباده المؤمنين فينصرهم، أو رحيم بالكفار فلا يعاجلهم بالعقوبة.

[١٠٦] ثم انتقل السياق من قصة إبراهيم عليه السلام إلى قصة نوح شيخ المرسلين فقال سبحانه: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ وإنما دخلت التاء في

إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١١﴾

كذبت، باعتبار الجماعة، كما قال ابن مالك:

والتاء مع جمع سوى السالم من
مذكر كالتاء مع إحدى اللبن

ففي غير الجمع السالم يجوز إدخال التاء باعتبار الجماعة، وإنما قال «المرسلين» لأنّ تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الأنبياء.

[١٠٧] **﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾** وسماه أخاً، لأنه كان من قبيلتهم **﴿ألا تتقون﴾** عذاب الله؟ أي أفلا تخافون من العذاب في تكذيبي وإصراركم على الكفر والعصيان؟

[١٠٨] **﴿إنّي لكم رسول﴾** من قبل الله سبحانه **﴿أمين﴾** على الرسالة فيما أقول لكم.

[١٠٩] **﴿فاتقوا الله﴾** بتوحيده، وإطاعته **﴿وأطيعون﴾** أي أطيعوني فيما آمركم وأنهاكم.

[١١٠] **﴿وما أسألكم عليه﴾** أي على البلاغ والإرشاد **﴿من أجر﴾** «من» زائدة دخلت لتعميم النفي أي لا أطلب منكم أجراً وجزاءً على الرسالة **﴿إن أجري﴾** أي ما أجري **﴿إلا على رب العالمين﴾** فهو الذي يعطيني جزائي وأجري.

[١١١] **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾** كرّر تأكيداً.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾

[١١٢] ﴿**قالوا**﴾ أي قال الكفار في جواب نوح عليه السلام ﴿**أنؤمن لك**﴾ أي كيف نصدقك ﴿**و**﴾ الحال أنه ﴿**اتبعك الأرذلون**﴾؟ أي سفلة الناس، وهو الحقير السافل، والمعنى أنا لا نستعد أن نردف أنفسنا بهؤلاء السفلة.

[١١٣] ﴿**قال**﴾ نوح عليه السلام في جوابهم ﴿**وما علمي بما كانوا يعملون**﴾ أي لاأعلم أعمالهم مايصنعون، وهذا كناية عن عدم الارتباط بين إيمانهم وبين صنائعهم وأعمالهم، يقال: لا أعلم ماذا يقول فلان، ويراد لا أرتبط بقوله، فقد كان الأنبياء مكلّفين بالبلاغ والإرشاد، أما أعمال الناس وما كانوا في زمان كفرهم، فليس ذلك من مهمة الأنبياء.

[١١٤] ﴿**إن حسابهم**﴾ أي ما حساب هؤلاء ﴿**إلاّ على ربّي**﴾ فهو الذي يحاسبهم على مهنهم وأعمالهم ﴿**لو تشعرون**﴾ أي لو كنتم تشعرون ذلك وتعلمون إن حساب الناس على الله، لما عبتموني بأن أتباعي أراذل.

[١١٥] ﴿**وما أنا بطارد المؤمنين**﴾ أي لا أطردهم لإرضائكم، وقد كان دأب الكبراء دائماً ذلك، حيث يأنفون أن يكونوا في صف الضعفاء، ولذا كانوا يشترطون على الأنبياء طرد أولئك حتى يؤمنوا، وهكذا قالوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[١١٦] ﴿**إن أنا**﴾ أي ما أنا ﴿**إلاّ نذير مبين**﴾ أي منذر لكم عن عذاب الله ونكاله، واضح الإنذار والتخويف وهذا شأني أما أن أطرد بعضاً لأقبل

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾

آخرين فلست بعامل ذلك.

[١١٧] ﴿**قالوا**﴾ أي القوم، لما انقطعوا عن الحجة ﴿**لئن لم تنته يا نوح**﴾ عن هذه الدعوة التي تدعونا بها ﴿**لتكوننّ من المرجومين**﴾ أي الذين يرجمون بالحجارة.

[١١٨] هناك دعا نوح ربّه ﴿ **قال**﴾ يا ﴿ **رب إن قومي كذبون**﴾ أي كذبوني فيما دعوتهم إليه.

[١١٩] ﴿**فافتح بيني وبينهم فتحاً**﴾ والمراد النصر له عليهم، وقيل للنصر فتح، لأنه يفتح الطريق المسدود أمام الإنسان ﴿**ونجّني ومن معي من المؤمنين**﴾ من هؤلاء الكفار، الذين لا يفيد فيهم النصح.

[١٢٠] ﴿**فأنجيناه ومن معه في الفلك**﴾ أي السفينة ﴿**المشحون**﴾ من شحنه إذا ملأه، أي السفينة المملوءة من الإنسان والحيوان، فقد أمر عليه السلام بصنع سفينة وركوبها وسائر المؤمنين ومن كل حيوان يحمل زوجين اثنين ـ كما تقدم ـ .

[١٢١] ﴿**ثم أغرقنا بعد**﴾ أي بعد أن ركب نوح وسائر المؤمنين السفينة ﴿**الباقين**﴾ الذين بقوا على الأرض ولم يركبوا السفينة، وهم الكفار الذين لم يؤمنوا، فقد أخذ الماء وجه الأرض حتى غرق كل شيء.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

[١٢٢] ﴿**إنّ في ذلك**﴾ الحوار بين نوح وقومه حول التوحيد وسائر المعارف ﴿**لآية**﴾ دلالة واضحة على وجوده سبحانه، أو في ذلك الغرق دلالة على نكال الله بالكافر ﴿**وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾ بالله، أو المراد ما كان أكثر الكفار المعاصرين للرسول مؤمنين بهذه الآية التي هي غرق أعداء نوح عليه السلام

[١٢٣] ﴿**وإن ربّك**﴾ يا رسول الله ﴿**لهو العزيز**﴾ الغالب في سلطانه القاهر، وبعزته أخذ أولئك بالغرق ﴿**الرحيم**﴾ بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم بالآخرة أو يمهلهم رحمة منه حتى إذا سدوا أبواب الهدى على أنفسهم فلا رجاء فيهم أخذهم.

[١٢٤] وبعد تمام قصة نوح يأتي السياق لينقل قصة عاد قوم هود النبي عليه السلام ﴿**كذبت عاد**﴾ أي قبيلة عاد ﴿**المرسلين**﴾ فإن تكذيب هؤلاء كان تكذيب لسائر الأنبياء عليهم السلام ، فمن لم يقبل نبياً فكأنه لم يقبل جميع الأنبياء.

[١٢٥] ﴿**إذ قال**﴾ أي كان التكذيب في زمان قال ﴿**لهم أخوهم**﴾ في النسب ﴿**هود**﴾ النبي ﴿**ألا تتقون**﴾ الله باجتناب المعاصي، وهل تخافون عقابه ونكاله؟

[١٢٦] ﴿**إني لكم رسول**﴾ من قبل الله ﴿**أمين**﴾ على تبليغ الرسالة.

[١٢٧] ﴿**فاتقوا الله**﴾ خافوا عقابه ونكاله

وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٧﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٨﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿**وأطيعون**﴾ أي أطيعوني فيما آتيكم به من قبل الله سبحانه.

[١٢٨] ﴿**وما أسألكم عليه**﴾ أي على البلاغ والإرشاد ﴿**من أجر**﴾ فإني لا أريد الأجرة منكم حتى تخافون ذلك، فتعرضون عن رسالتي ﴿**إن أجري**﴾ أي ما أجري وجزائي ﴿**إلاّ على ربّ العالمين**﴾ فإنّه يجازيني على أتعابي وما تحملته في سبيل الرسالة من المشاق.

[١٢٩] ثم ذكر المعصية البارزة من معاصيهم، كما هو عادة الأنبياء، أن يكثر من النهي عن المعصية البارزة من المعاصي، فقال ﴿**أتبنون بكل ريع**﴾ الريع هو الارتفاع من الأرض، وجمعه أرياع وريعة أي تبنون في المحلات المرتفعة من الصحراء ﴿**آية**﴾ أي ما يبدوا كأنها علامة للمارة، ولكنها ليست يعلامة، أو ما من شأنها أن تكون علامة لهداية المارة، ولكنكم لا تبنونها لذلك وإنما ﴿**تعبثون**﴾ أي عبثاً وترفاً، فإن من عادة المترفين أن يصرفوا المال فيما هو مستغنى عنه وكذلك الحكومات المترفة.

[١٣٠] ﴿**وتتخذون مصانع**﴾ وهي جمع مصنع، وكأنّ المراد مواضع صنع الآلات والأسباب للأبنية والقصور، وسائر مرافق الحياة، فإن القوم يكونون دائماً هكذا، لهم مصانع، وليسوا كالبدائيين الذين يكون بناؤهم بسيطاً، فلا يحتاج إلى معامل ومصانع ﴿**لعلكم تخلدون**﴾ أي تظنون خلودكم بهذه الاستحكامات والتصنيعات، ولم يكن القوم يرجون البقاء الأبدي، وإنما كان حالهم حال من يرجو البقاء، لأنهم

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٥﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾

كانوا يعملون أعمال الباقين إلى الأبد.

[١٣١] ﴿**وإذا بطشتم**﴾ أصل البطش هو الأخذ الأليم باليد، ثم استعمل في كل إنزال عقوبة، يعني إذا عاقبتم أحداً ﴿**بطشتم جبارين**﴾ أي عاقبتم عقوبة الجبابرة الذين يتعدون عن الحدّ، بلا رأفة وحساب، وكل هذه الثلاثة من مظاهر البذخ والكبر ونسيان الآخرة، وإذا رقت الحضارة ولم يرافقها الإيمان كانت كذلك، كما نرى هذه الأمور الثلاثة في زماننا جلية، وكانت عاد تسكن الأحقاف، وهي الجبال قرب حضرموت، من ناحية اليمن، وكانت ذات حضارة قديمة.

[١٣٢] ﴿**فاتقوا الله**﴾ ولا ترتكبوا معاصيه ﴿**وأطيعون**﴾ أي أطيعوني فيما آمركم به، وحذفت الياء تخفيفاً.

[١٣٣] ﴿**واتقوا الذي**﴾ أي الله الذي ﴿**أمدكم بما تعلمون**﴾ أي أعطاكم مدداً، باستمرار، ما تعلمون من أنواع الخير والرفاه ومرافق العيش.

[١٣٤] ﴿**أمدكم بأنعام وبنين**﴾ فأكثر لكم من الأولاد والأنعام، وهي جمع نعم هو الحيوان ذو الأربع.

[١٣٥] ﴿**وجنّات**﴾ أي بساتين ﴿**وعيون**﴾ جمع عين.

[١٣٦] ﴿**إنّي أخاف عليكم**﴾ إن تماديتم في الغي والطغيان ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾

قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٧) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٨) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٩) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ

والمراد إما العذاب الذي يأخذهم في الدنيا إن استمروا على كفرهم وشقاقهم، وإما عذاب يوم القيامة.

[١٣٧] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت عاد في جواب نبيهم هود ﴿**سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين**﴾ فإنّ وعظك وعدم الوعظ متساويان عندنا، لايؤثر الوعظ فينا شيئاً.

[١٣٨] ﴿**إن هذا**﴾ أي ما هذا الذي تقول ﴿**إلا خلق الأولين**﴾ أي كذب السابقين أو عادة السابقين، فإن خلق يأتي بمعنى الكذب وبمعنى العادة، وهكذا المجرمون في كل زمان ينسبون المصلحين إلى القدم، ففي زماننا يقولون «رجعية» و «ارتجاع» وبالفارسية «كُهنه پرستى»، وفي زمان الرسول صلى الله عليه وآله كانوا يقولون «أساطير الأولين» وفي زمان هود قالوا «خلق الأولين»، ولعلّ المراد أن ما نبينه ونفعله عادة آبائنا، فلا نتركه لأجلك.

[١٣٩] ﴿**وما نحن بمعذّبين**﴾ فمن يقدر على عذابنا؟ أما ما تقولون من عذاب الله، فهو يحبنا، أليس قد أنعم علينا بهذه النعم؟ كما قال ذلك الكافر (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً)[1].

[١٤٠] ﴿**فكذبوه**﴾ أي كذب عاد هوداً ﴿**فأهلكناهم**﴾ بريح سخرت عليهم

---

(١) الكهف: ٣٧.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ

فأماتتهم جميعاً ﴿**إن في ذلك**﴾ التبليغ لهم، أو الإهلاك ﴿**لآية**﴾ لأولئك، أو لقوم الرسول ﴿**وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾ بذلك البلاغ، بالنسبة إلى أولئك، أو بذلك الإهلاك بالنسبة إلى هؤلاء.

[١٤١] ﴿**وإنّ ربّك**﴾ يا رسول الله ﴿**لهو العزيز**﴾ الغالب على الكفّار ﴿**الرحيم**﴾ بالمؤمنين، وقد تقدم تفصيله.

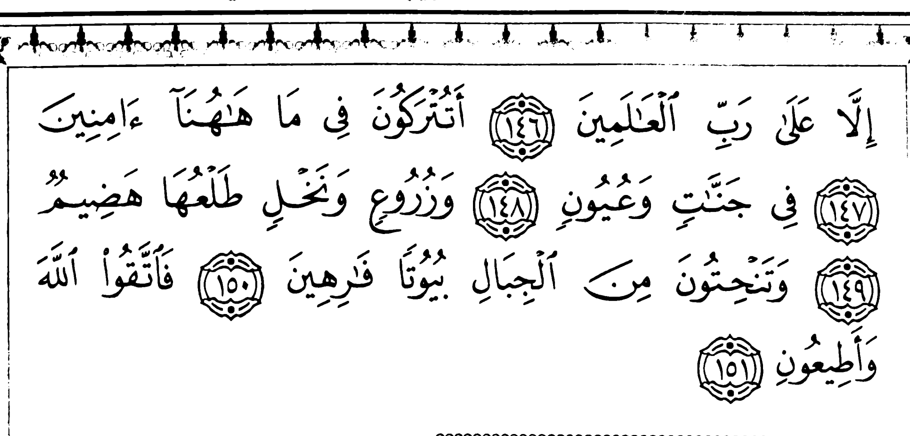
[١٤٢] ﴿**كذبت ثمود**﴾ أي قبيلة ثمود ﴿**المرسلين**﴾ فإنهم بتكذيبهم صالحاً، كأنهم كذبوا جميع الأنبياء.

[١٤٣] ﴿**إذ قال لهم أخوهم صالح**﴾ أي أن التكذيب كان في زمان قال لهم أخوهم في النسب صالح النبي عليه السلام ﴿**ألا تتقون**﴾ الله باجتناب الكفر والمعاصي.

[١٤٤] ﴿**إنّي لكم**﴾ أيها القوم ﴿**رسول**﴾ من قبل الله ﴿**أمين**﴾ على أداء الرسالة.

[١٤٥] ﴿**فاتقوا الله**﴾ وخافوا عقابه، واتركوا معاصيه ﴿**و أطيعون**﴾ أي أطيعوني فيما آمركم به.

[١٤٦] ﴿**وما أسألكم عليه**﴾ أي على الإرشاد والتبليغ ﴿**من أجر**﴾ وجزاء، و «من» لتعميم النفي ﴿**إن أجري**﴾ أي ما أجري


إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٩﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٥٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥١﴾

﴿**إلا على ربّ العالمين**﴾ فإنه هو الذي يجزيني.

[١٤٧] ﴿**أتتركون**﴾ أي هل تظنون أنتم أنكم تُتركون ﴿**فيما ها هنا**﴾ أي في الأرض، وفي هذه النعم الموجودة لديكم ﴿**آمنين**﴾ من الموت، والتغير؟ وهو استفهام استنكاري إلفاتي.

[١٤٨] ﴿**في جنّات وعيون**﴾ في بساتينكم وقرب عيون الماء الجارية.

[١٤٩] ﴿**و زروع**﴾ جمع زرع، وكأنه النبات الذي لا ساق له ﴿**ونخل طلعها هضيم**﴾ الطلع هو الشيء الذي يخرج من النخل، وفي وسطه صغار التمر، سمي طلعاً لطلوعه، و «هضيم» بمعنى اللطيف الناضج الحسن.

[١٥٠] ﴿**وتنحتون من الجبال بيوتاً**﴾ في حال كونكم ﴿**فارهين**﴾ بسهولة، ويسر، من فره، أي هل تظنون أنكم تبقون في هذه النعم، فالجنات ملتفة، والعيون جارية، والنخيل في ثمر وطلع، والبيوت الفارهة المنحوتة، وكل الحياة تنحو نحو الخير والتقدم لكم، وأنتم آمنون؟ كلا! لا يكون هذا.

[١٥١] ﴿**فاتقوا الله**﴾ ولا تخالفوا أوامره ﴿**وأطيعون**﴾ أي أطيعوني في رسالتي.

وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٣﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٦﴾

[١٥٢] ﴿**ولا تطيعوا أمر المسرفين**﴾ الذين يسرفون في أعمالهم وحركاتهم، فإن لكل عمل مقياس وحد إذا جاوزه كان سرفاً، وكان فاعله مسرفاً.

[١٥٣] ﴿**الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون**﴾ وكأنه جيء بهذا العطف لإفادة أنهم لا يأتي منهم إلا الفساد في العقيدة والمنهج والأخلاق، لاكمن يأتي منه الصلاح والفساد معاً.

[١٥٤] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت ثمود في جواب صالح ﴿**إنما أنت من المسحرين**﴾ فقد سحروك وذهب عقلك ـ فإنّ الإنسان المسحور يختل عقله وإدراكه ـ ولذا تدعي النبوة وتقول هذه الكلمات، ولعلّ المراد أنك قد سُحرت مرة بعد أخرى، ولذا جيء من باب التفعيل الدال على التكثير.

[١٥٥] ﴿**ما أنت**﴾ يا صالح ﴿**إلاّ بشرٌ مثلنا**﴾ فكيف تدعي النبوة؟ ﴿**فأت بآية**﴾ أي معجزة دالة على صدقك في دعواك ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ في أنك نبي مبعوث من قبل الله تعالى.

[١٥٦] ﴿**قال**﴾ صالح عليه السلام آتي بالآية، فماذا تريدون؟ قالوا نريد أن تُخرج من هذا الجبل ناقة كبيرة، فسأل الله صالح ذلك، فأخرج لهم من الجبل ناقة كبيرة فقال لهم ﴿**هذه ناقة**﴾ كما طلبتم ﴿**لها شرب**﴾ أي حصة من الماء ﴿**ولكم شرب يوم معلوم**﴾ فليس لكم شرب كل يوم،

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ

وإنما تشرب هذه الناقة ماء النهر كاملاً، في يوم، وتعطيكم الحليب عوض الماء، ولكم ماء النهر في اليوم الآخر، لا تزاحمكم الناقة في الشرب.

[١٥٧] ﴿**ولا تمسوها**﴾ أي لا تمسوا الناقة ﴿**بسوء**﴾ بشيء سيئ كأن تؤذوها، أو تضربوها، أو تنحروها ﴿**فـ**﴾ إنكم إذا فعلتم ذلك ﴿**يأخذكم عذاب يوم عظيم**﴾ عليكم، وإنما كان اليوم عظيماً بعلاقة الحال والمحل، وإلا فإن العذاب الذي يحل فيه هو العظيم.

[١٥٨] لكن القوم عتوا، وقالوا لا نريد أن تشرب الناقة كل ماء النهر يوماً بين كل يومين ولا نريد لبنها، فاللازم أن نقتلها لكي نتخلص منها ﴿**فعقروها**﴾ أي أهلكوها، بالنحر، أو ضرب القوائم، وقسموا لحمها بينهم وإنما أسند العقر إليهم مع أن عاقرها كان واحداً لرضى كلهم بذلك ﴿**فأصبحوا نادمين**﴾ حين شاهدوا العذاب، فقد ندموا على كفرهم ومعاصيهم وعقرهم للناقة.

[١٥٩] ﴿**فأخذهم العذاب**﴾ الذي خوفهم صالح عليه السلام منه فقد خسفت أرضهم - كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - ﴿**إن في ذلك**﴾ البلاغ، أو العذاب ﴿**لآية**﴾ لهم، أو لقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**وما كان أكثرهم**﴾ من أولئك، أو هؤلاء - على تفصيل مضى - ﴿**مؤمنين**﴾.

[١٦٠] ﴿**وإنّ ربّك**﴾ يا رسول الله ﴿**لهو العزيز**﴾ الغالب في سلطانه القاهر

ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ

للأعداء ﴿**الرحيم**﴾ بهم يمهلهم، لعلهم يرجعون، أو الرحيم بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم.

[١٦١] ﴿**كذبت قوم لوط**﴾ النبي عليه السلام ﴿**المرسلين**﴾ فإن تكذيب لوط كان تكذيباً لجميع الأنبياء عليهم السلام، أو المراد بالجمع الجنس ـ فقد ذكرنا سابقاً ـ إن كلاً من الجمع والجنس يحل محل الآخر، تقول: هكذا قال المفسرون، وتريد أن هذا الجنس قالوا كذلك، ولا تريد الجمع، بل الكلام صادق وإن كان واحد منهم تكلم بذلك الكلام، فإنه في قبال قال النحويون، وقال المتكلمون، لا في قبال قال مفسر واحد.

[١٦٢] ﴿**إذ قال لهم**﴾ أي كان التكذيب في زمان قال للقوم ﴿**أخوهم**﴾ في النسب ﴿**لوط ألا تتقون**﴾ الله باجتناب الكفر والعصيان.

[١٦٣] ﴿**إني لكم**﴾ أيها القوم ﴿**رسول**﴾ من عند الله ﴿**أمين**﴾ على أداء الرسالة لا أزيد فيها ولا أنقص.

[١٦٤] ﴿**فاتقوا الله**﴾ باجتناب الكفر والمعاصي ﴿**وأطيعون**﴾ أطيعوا أوامري، أو أطيعوا أوامر الله، فالمراد بالتقوى عدم الإتيان بالمنكرات وبالإطاعة الإتيان بالواجبات.

[١٦٥] ﴿**وما أسألكم**﴾ أيها القوم ﴿**عليه**﴾ أي على الإرشاد والبلاغ ﴿**من أجر**﴾ وجزاء، فلا تخافون إن آمنتم بي أن أرهقكم بالضرائب والجزاء، ﴿**إن أجري**﴾ أي ما أجري ﴿**إلاّ على**

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٨﴾

رب العالمين﴾ فهو يعطيني الجزاء.

[١٦٦] ثم بين المعصية الظاهرة فيهم، ناهياً لهم عنها فقال **﴿أتأتون الذكران﴾** على نحو الاستفهام الإنكاري أي كيف تصيبون الذكر، باللواط معهم **﴿من العالمين﴾** أي من جملة خلائق العالم، ولعلّ هذا التعبير لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بكل من وجدوه من أهل المدينة أو المسافرين.

[١٦٧] **﴿وتذرون﴾** أي تتركون **﴿ما خلق لكم ربكم﴾** لأجل قضاء الوطر **﴿من أزواجكم﴾** ونسائكم، فقد عطلوا إتيان الأزواج، وتعاطوا إتيان الذكور، حتى إضطرت النساء إلى المساحقة لقضاء وطرهن، فإذن فليس ذلك لأجل أنكم تريدون قضاء الشهوة **﴿ بل أنتم قوم عادون﴾** ظالمون تتعدون الحلال إلى الحرام، وإلا فلو كنتم تريدون قضاء الوطر كانت أزواجكم حاضرة، والإنسان المعتدي يكون هكذا، يضرب عن الحق الذي يكفيه الى الباطل، تجاوزاً واعتداءً.

[١٦٨] **﴿قالو﴾** أي قال القوم في جواب لوط عليه السلام **﴿لئن لم تنته يالوط﴾** وذلك بأن لا تستمر في تبليغك ونصحك **﴿ لتكونن من المخرجين﴾** أي نخرجك من بلادنا، كما في آية آخرى (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)[1].

(١) الأعراف: ٨٣.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ

[١٦٩] ﴿**قال**﴾ لهم لوط عليه السلام ﴿**إني لعملكم**﴾ هذا، والمراد به اللواط ﴿**من القالين**﴾ يقال «قلى» أي كره وأبغض، أي فإني أعلمكم أني أكره وأبغض عملكم، فإن إظهار التنفر من الحرام، مرتبة من مراتب النهي عن المنكر.

[١٧٠] ولما استيأس منهم دعا الله سبحانه فقال، يا ﴿ **ربّ نجّني وأهلي**﴾ أي ونجّ أهلي، والمراد بناته ﴿**مما يعملون**﴾ أي من عاقبة عملهم، أي العذاب الذي يحل بهم، أو المراد أن يبعده عنهم حتى لا يرى عملهم، فوضع «مما يعملون» مكان «منهم» لإفادة العلة في الدعاء.

[١٧١] ﴿**فنجيناه**﴾ أي نجينا لوطاً ﴿**وأهله أجمعين**﴾ بأجمعهم بحيث لم يبق منهم أحد.

[١٧٢] ﴿**إلا عجوزاً**﴾ هي زوجته السيئة ﴿**في الغابرين**﴾ كانت مع الباقين في المدينة ليأخذها العذاب معهم، فقد أمر لوط أن يسرى في المدينة بأهله ليلاً، حتى لا يشمله العذاب الذي ينزل بالقوم.

[١٧٣] ﴿**ثم**﴾ من بعد خروج لوط وآله عن القرية ﴿**دمرنا الآخرين**﴾ أهلكناهم بالخسف وتقليب الأرض، بأن رفع أرضهم جبرائيل ثم قلبها.

[١٧٤] ﴿**وأمطرنا عليهم مطراً**﴾ من الحجارة، ولعلّه كان قبل تقليبهم ﴿**فساء**

مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٩﴾

مطر المنذرين﴾ أي بئس مطر الحجارة الذي أمطر على الأشخاص الذين أنذروا فلم يقبلوا.

[١٧٥] **﴿إنّ في ذلك﴾** البلاغ لهم **﴿لآية﴾** دالة على صدق لوط **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** بلوط وما جاء به من عند الله، أو المراد أن في ذلك التعذيب لهم لدلالة على مصير الكفّار، ولكن أكثر كفّار مكة لا يؤمنون ولا ينفع فيهم النذر.

[١٧٦] **﴿وإنّ ربّك﴾** يا رسول الله **﴿لهو العزيز﴾** القاهر للكفّار **﴿الرحيم﴾** بالمؤمنين.

[١٧٧] **﴿كذّب أصحاب الأيكة﴾** هي الغيطة، مجتمع الشجر في مفيض ماء **﴿المرسلين﴾** والمراد به شعيب عليه السلام، فقد أرسل إلى قبيلة «مدين» ولعلّ أنّ هناك بالقرب من مدينتهم كانت أيكة ذات أشجار فكانوا يعرفون بها، أو كما ورد أن شعيباً أرسل إلى أصحاب الأيكة، وإلى مدين.

[١٧٨] **﴿إذ قال لهم شعيب﴾** قال بعض المفسرين: لم يقل «أخوهم شعيب» كالسياق السابق، لأنّ شعيباً لم يكن من قبيلتهم، وإنما كان من قبيلة مدين **﴿ألا تتقون﴾** الله بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه؟

[١٧٩] **﴿إني لكم﴾** أيها القوم **﴿رسول﴾** من قبل الله سبحانه **﴿أمين﴾** على

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨٠﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨١﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ

أداء الرسالة.

[١٨٠] ﴿**فاتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه في مخالفته ﴿**وأطيعون**﴾ أي: أطيعوني فيما أبلغكم.

[١٨١] ﴿**وما أسألكم**﴾ أيها القوم ﴿**عليه**﴾ أي على البلاغ والإرشاد ﴿**من أجر**﴾ أطلبه منكم ﴿**إن أجري**﴾ أي ما أجري وجزائي ﴿**إلاّ على ربّ العالمين**﴾ فإنه يتفضّل عليّ بالجزاء على تحمل المشاق، في سبيل التبليغ والإرشاد.

[١٨٢] ثم أخذ ينبههم على العصيان الشائع بينهم، فقد كان من دأب الأنبياء ـ كما مرّ بنا جملة من ذلك ـ أن يركزوا اهتمامهم على نقطة الضعف في المجتمع ﴿**أوفوا الكيل**﴾ أي أعطوا الكيل ـ في المعاملات ـ وافياً غير ناقص ﴿**ولا تكونوا من المخسرين**﴾ أي ممن ينقص الكيل، ويدخل في الكيل جميع ما يحسب كالوزن والعدد والزرع.

[١٨٣] ﴿**وزنوا**﴾ أمر من «وزن» حذف واوه بالإعلال، فالأمر منه «زن» والواو عاطفة ﴿**بالقسطاس**﴾ أي الميزان ﴿**المستقيم**﴾ العدل الذي لا حيف فيه، لا بالميزان الناقص.

[١٨٤] ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ البخس هو النقص فيما يجب على

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٤﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

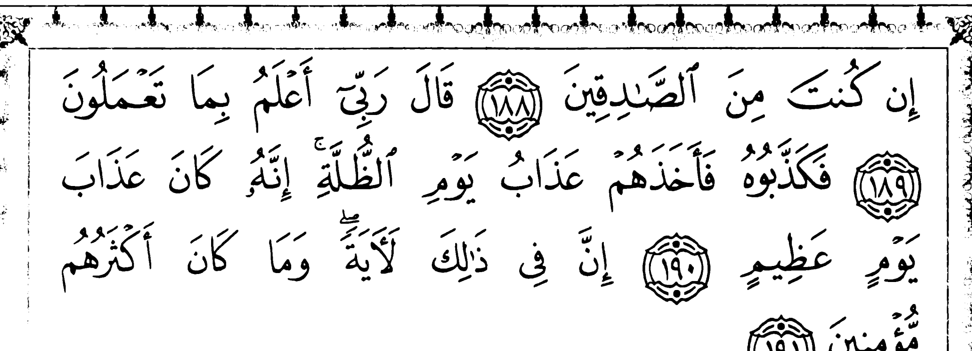
الإنسان إعطائه، والمراد لا تعطوا للناس ناقصاً، وإنما قال «أشياءهم» لأن المقدار المسروق لدى الكيل والوزن، للغير وهو المشتري ـ مثلاً ـ ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ أي لا تسعوا في الأرض بالفساد، فإن العثي أشد الفساد، والإتيان بالمفسدين إما للتأكيد، وإما بمعنى عازمين الفساد قاصدين له.

[١٨٥] ﴿**واتقوا**﴾ أي خافوا الله ﴿**الذي خلقكم و**﴾ خلق ﴿**الجبلة**﴾ أي الخليقة ﴿**الأولين**﴾ فلا تخالفوا أوامره، ولا تأتوا بنواهيه.

[١٨٦] ﴿**قالوا**﴾ في جواب شعيب ﴿**إنما أنت من المسحرين**﴾ فقد سحروك مرة بعد مرة، حتى ذهب عقلك، فما دعواك النبوة إلا من جراء ذهاب عقلك ونقص إدراكك.

[١٨٧] ﴿**وما أنت إلا بشر مثلنا**﴾ في جميع المزايا فكيف تدّعي النبوة؟ ﴿**وإن**﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنّا ﴿**نظنك لمن الكاذبين**﴾ فتكذب في دعواك النبوة، والمعنى أنّا نظنك كاذباً، في جملة من يكذب، والإتيان بالظن، لعله لأن القوم أرادوا أن يظهروا أنفسهم بمظهر المنصف البريء عن الكذب، حتى أنهم لا يقولون «نتيقن» بل «نظن».

[١٨٨] ﴿**فـ**﴾ إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿**أسقط علينا كسفاً**﴾ أي قطعاً، جمع كسفة بمعنى القطعة ﴿**من السماء**﴾ فإن النبي بيده أزمة الكون



﴿إن كنت من الصادقين﴾ في ادعائك.

[١٨٩] ﴿قال﴾ شعيب عليه السلام في جوابهم ﴿ربّي أعلم بما تعملون﴾ فقد كان عليّ البلاغ، فعملت بما هو تكليفي، أما أنتم ـ بعد ذلك ـ فحسابكم على من يعلم أعمالكم، وفي هذا القول تهديد لهم، وتخويف من عذاب الله.

[١٩٠] ﴿فكذبوه﴾ أخيراً، ولم ينجح فيهم الإرشاد والنصح ﴿فأخذهم﴾ جزاءً لتكذيبهم ﴿عذاب يوم الظلة﴾ سمي بذلك، لأنه جللتهم سحابة، وأظلتهم، وفي المجمع: أصابهم حرّ شديد سبعة أيام وحبس عنهم الريح ثم غشيتهم سحابة فلما خرجوا إليها طلباً للبرد من شدة الحر الذي أصابهم، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم فكان من أعظم الأيام في الدنيا عذاباً[1]، ذلك ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ وصف للعذاب، أو لليوم باعتبار علاقة الحال والمحل.

[١٩١] ﴿إنّ في ذلك﴾ العذاب ﴿لآية﴾ لكفار مكة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ إذ لا يتدبرون الآيات، أو أن في بلاغ شعيب كان آية ولم يكن أكثر قومه مؤمنين به.

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٣٥٠.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٧﴾

[١٩٢] ﴿**وإن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**لهو العزيز**﴾ الغالب القاهر المنتقم من الأعداء ﴿**الرحيم**﴾ بالمؤمنين.

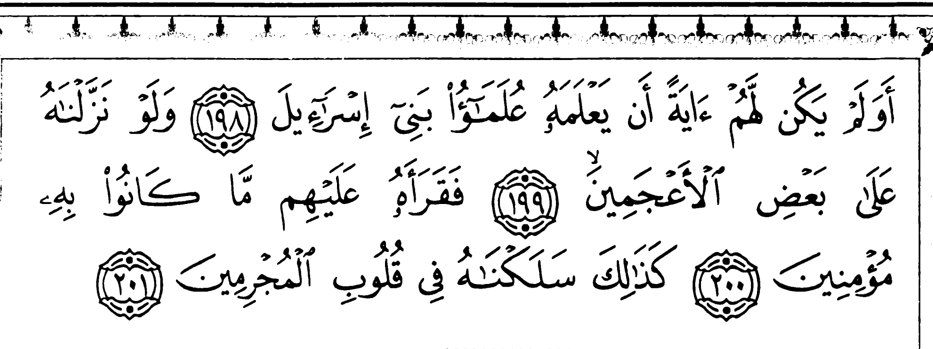
[١٩٣] ﴿**وإنه**﴾ أي أن هذا القرآن ﴿**لتنزيل رب العالمين**﴾ كما أنزل على من قبلك من الرسل.

[١٩٤] ﴿**نزل به**﴾ أي بالقرآن ﴿**الروح**﴾ أي جبرائيل، ولعلّه إنما سمي روحاً، لعدم وجود آثار الجسم فيه ﴿**الأمين**﴾ في تبليغ الرسالة والوحي.

[١٩٥] ﴿**على قلبك**﴾ يا رسول الله، وإنما جيء بهذا اللفظ، لأن الشيء يدخل القلب عن طريق الحواس ﴿**لتكون**﴾ يا رسول الله ﴿**من**﴾ جملة الأنبياء ﴿**المنذرين**﴾ للكفار والعصاة المنحرفين الذين لهم بأس الله وعذابه.

[١٩٦] وقد نزل ﴿**بلسان عربي**﴾ أي بلغة عربية هي لغة الجزيرة ﴿**مبين**﴾ أي موضح للناس المعارف، أو ظاهر واضح، ليس فيه عجمة وغلط.

[١٩٧] ﴿**وإنه**﴾ أي ذكر القرآن النازل عليك ﴿**لفى زبر**﴾ جمع زبور، وهو الكتاب، من «زَبَرَ» بمعنى كتب ﴿**الأولين**﴾ أي أن البشارة بالقرآن مذكورة في كتب الأنبياء السابقين.

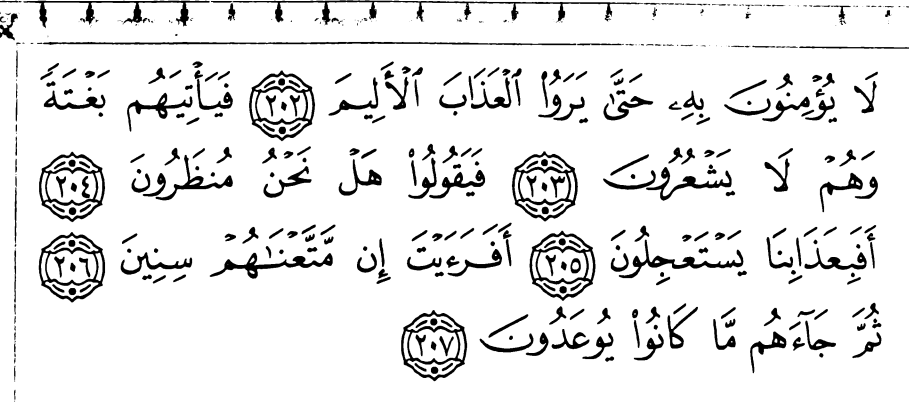


[١٩٨] ﴿أَوَ لم يكن لهم﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿آية﴾ ودليل على صدق القرآن، متصفة ﴿أن يعلمه﴾ أي يعلم القرآن ﴿علماء بني إسرائيل﴾؟ أليس التبشير بالقرآن موجوداً في كتب بني إسرائيل حتى يعلموه ويصدقوا به؟ وفي هذا تعريض بهم، أنهم كيف أنكروا والحال أن الأدلة موجودة في كتبهم، وهي تدل على صدق القرآن.

[١٩٩] ثم سلى الله سبحانه نبيه بأن لا يغتم لإعراض هؤلاء فإنهم معاندون حتى لو أنزل الله القرآن على رجل أعجمي فقرأه عليهم لم يؤمنوا، لما في قلوبهم من الكبر والعناد ﴿ولو نزلناه﴾ أي القرآن ﴿على بعض الأعجمين﴾ جمع أعجم، والمراد به إما البهيمة، لأنها تسمى بالأعجم، وإما الرجل الأعجمي الذي لا يعرف التكلم بالعربية إطلاقاً.

[٢٠٠] ﴿فقرأه﴾ أي قرأ القرآن ﴿عليهم﴾ أي على هؤلاء الكفار ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ مع ما في قراءة البهيمة أو الأعجمي من دلالة واضحة على أنه خارق، إن أناساً مثل هؤلاء معاندون، فلا يحزن الإنسان إذا رأى إعراضهم عن الحق.

[٢٠١] ﴿كذلك﴾ الذي ذكر من أن القرآن بلسان عربي مبين ﴿سلكناه﴾ وأدخلناه ﴿في قلوب المجرمين﴾ العاصين حتى تتم عليهم الحجة ولكنهم.



[٢٠٢] ﴿لا يؤمنون﴾ ولا يصدقون ﴿به﴾ بالقرآن ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ المؤلم الموجع، بالموت، أو المراد عذاب الآخرة.

[٢٠٣] ﴿فيأتيهم﴾ العذاب ﴿بغتة﴾ فجأة فلا مجال لهم للإيمان والعمل الصالح ﴿وهم لا يشعرون﴾ لا يدركون وقت نزول العذاب.

[٢٠٤] ﴿فيقولوا﴾ حينذاك في طلب واستعطاف ﴿هل نحن منظرون﴾؟ أي مؤخرون لنؤمن ونصدق ونعمل صالحاً، لكنهم يجابون (كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)(١).

[٢٠٥] وقد كان الكفار يطلبون من الرسول أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً، فيأتي إليهم الاستفهام الإنكاري بقوله سبحانه ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أي كيف يستعجل هؤلاء عذابنا؟ أفلا يعلمون أن العذاب أليم شديد؟

[٢٠٦] ﴿أفرأيت﴾ يا رسول الله ﴿إن متعناهم﴾ في الدنيا ﴿سنين﴾ أي سنوات متعددة طويلة.

[٢٠٧] ﴿ثم جاءهم﴾ لدى انقضاء مدتهم ﴿ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٢﴾

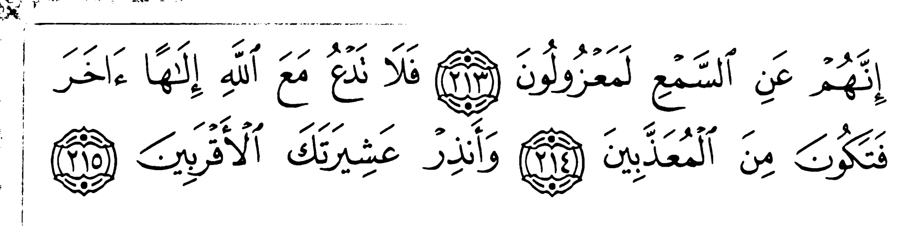
[٢٠٨] ﴿**ما أغنى عنهم**﴾ أي ما أفادهم ﴿**ما كانوا يمتعون**﴾ أي مدة متعتهم وبقائهم في الحياة، وفي هذا تنبيه على أنهم وإن أخرّ عنهم العذاب لكن إذا أتاهم، لم يكونوا يأبهون بما متعوا به في الحياة، فإن النعيم إذا زال، كان كأن لم يكن، ولم تنفع تلك المدة الطويلة من التنعم في التخفيف من العذاب.

[٢٠٩] ﴿**وما أهلكنا من قرية**﴾ «من» لزيادة التعميم ﴿**إلا**﴾ و﴿**لها منذرون**﴾ فليخف هؤلاء أن يهلكهم الله سبحانه، إذ أرسلت إليهم النذر فلم يؤمنوا.

[٢١٠] فقد أرسلنا المنذرين ﴿**ذكرى**﴾ أي لأجل تذكرهم بفساد عقيدتهم وعصيانهم فلما أبوا الإطاعة أهلكناهم ﴿**وما كنا ظالمين**﴾ لهم في عقابهم، بل لقوا جزاء كفرهم وظلمهم.

[٢١١] وقد كان المشركون يجعلون القرآن من قسم الكهانة التي تنزل بها الشياطين، فجاءت الآية في مقام ردّهم، إذ لو كانت كهانة لقدر على مثلها سائر الكهان ﴿**وما تنزلت به**﴾ أي بالقرآن ﴿**الشياطين**﴾ يقال تنزل به إذا نزل معه.

[٢١٢] ﴿**وما ينبغي لهم**﴾ أي إنزال القرآن، إذ الشيطان يأمر بالفساد والكفر والمنكر، فلا يلائمه الإصلاح والإيمان والمعروف ﴿**وما يستطيعون**﴾ لأنه خارج عن قدرة المخلوق، والله سبحانه يحرس الإعجاز عن قدرة



غيره تعالى، نعم يتمكن الشيطان أن يأتي بالخارقة المفضوحة كونها ليست آية، كما تفل مسيلمة في بئر ـ لينبع الماء ـ فجف.

[٢١٣] ﴿**إنهم**﴾ إن الشياطين ﴿**عن السمع**﴾ أي استماع القرآن وتلقيه من قبل الله سبحانه ﴿**لمعزولون**﴾ فلا يتمكنون أن يتلقوه من الله ليأتوا به إلى الرسول ﷺ بل الذي يسمعه هو جبرائيل، أو المراد أن الشيطان لايسمح له باستماع ما في الملأ الأعلى، إذ يرصد هناك بالشهب، فكيف يتمكنون من تلقي القرآن والإتيان به.

[٢١٤] وإذ قد تبين لك الحق ﴿**فلا تدع**﴾ يا رسول الله، ولا بدع في توجه هذا الكلام إلى الرسول ﷺ، فإن جميع الأوامر والنواهي متوجهة إليه بلا إشكال وفي جملتها هذا النهي ﴿**مع الله إلهاً آخر**﴾ كما يفعله المشركون ﴿**فتكون من المعذبين**﴾ أي تعذب بهذا العمل، وتكون في جملة من عذبوا.

[٢١٥] ﴿**وأنذر**﴾ يا رسول الله ﴿**عشيرتك الأقربين**﴾ إليك، وإنما خصوا بالذكر، لأجل لزوم الاهتمام بالعشيرة أكثر من سائر الناس، فإنهم إن آمنوا كانوا عوناً ومساعدين، وإن لم يؤمنوا كانوا أقوى الأعداء، وأشد الألداء، وقد ورد أن هذه الآية نزلت بمكة فجمع رسول الله ﷺ بني هاشم وهم أربعون رجلاً كل واحد منهم يأكل كثيراً ويشرب القربة فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنى القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا باسم الله، فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال هذا

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٦﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٨﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٩﴾

ما سحركم به الرجل فسكت ﷺ يومئذ ولم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب إني نذير إليكم من الله عز وجل والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يؤازرني ويكون وصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟فسكت القوم فأعادها ثلاثاً؟ كل ذلك يسكت القوم، ويقول عليّ عليه السلام أنا، فقال في المرة الثالثة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطع ابنك، فقد أمّر عليك[1].

[٢١٦] ﴿**واخفض جناحك**﴾ أصل خفض الجناح، أن يسفل الطائر جناحه أمام والديه تواضعاً واستعطافاً. ثم استعمل بمعنى التواضع واللين وحسن الخلق ﴿**لمن اتبعك من المؤمنين**﴾ فتواضع لهم، وألِن جانبك نحوهم.

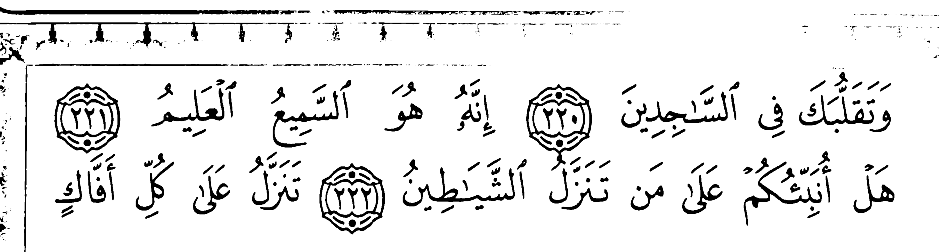
[٢١٧] ﴿**فإن عصوك**﴾ أي خالفوك أقاربك ولم يؤمنوا ﴿**فقل إني بريء مما تعملون**﴾ من عبادة الأصنام وإتيانكم لسائر المعاصي والآثام.

[٢١٨] ﴿**وتوكل**﴾ يا رسول الله، أي فوض أمرك ﴿**على العزيز**﴾ الغالب بعزته على الكفار ﴿**الرحيم**﴾ بالمؤمنين، فلا يهونك إعراض قومك وعشيرتك عن الإيمان.

[٢١٩] ﴿**الذي يراك**﴾ أي يحيط علمه بك، أو ينظر إليك ﴿**حين تقوم**﴾

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٣٨ ص٢٢٠ .



بالدعوة وتصدع بالبلاغ، فإنك على عينه، ومن رعته عين الله سبحانه لابد وأن ينجح في مرامه.

[٢٢٠] ﴿و﴾ يرى ﴿**تقلبك في الساجدين**﴾ أي تصرفك بالذهاب والمجيء، والتنظيم والتحريض والتعليم في جماعة المؤمنين الذين يسجدون لله، وأتى بالسجود لأنه غاية الخضوع، وهو من سمات المؤمنين، وقد روي في تفسير هذه الآية عن الباقر عليه السلام: الذي يراك حتى تقوم بالنبوة وتقلبك في الساجدين أي في أصلاب النبيين[١].

وروي عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا: في أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام[٢].

[٢٢١] ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**هو السميع**﴾ لأقوالك ﴿**العليم**﴾ بأحوالك فتوكل عليه يكفيك كل مهمة.

[٢٢٢] وحيث نفى سبحانه أن ينزل على الرسول الشيطان، أراد إثبات ذلك بالنسبة إلى الكفار المفترين عليه ﴿**هل أنبئكم**﴾ أي هل أخبركم أيها الناس ﴿**على من تنزل الشياطين**﴾؟ للوسوسة وإلقاء الباطل.

[٢٢٣] ﴿**تنزل**﴾ أصله «تتنزل» حذفت إحدى تاءيه للقاعدة في باب المضارع إذا اجتمع عليه تاءان ﴿**على كل أفاك**﴾ مبالغة من الإفك، وهو

---

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص٢٢٩ .

(٢) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢٠٣ .

أَثِيمٍ ﴿٢٢٣﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٦﴾

الكذب، أي كل إنسان يكذب كثيراً ﴿**أثيم**﴾ آثم آت بالمعصية.

[٢٢٤] ﴿**يلقون السمع**﴾ أي أن الشياطين يلقون ما يسمعونه من هنا وهناك إلى الكهنة والأفاكين ﴿**وأكثرهم**﴾ أي أكثر الشياطين ﴿**كاذبون**﴾ لأنهم يكذبون عمداً، بالإضافة إلى أنهم يتلقون كلما وصل إليهم من صدق الأخبار وكذبها، فمثلاً يسمع الشيطان من قصّاص في الروم قصة حول خلقة آدم، فيلقيها على الكاهن، وهكذا.

[٢٢٥] وقد كان بعض الكفار يرمون الرسول بأنه شاعر، ولما أبطل السياق كونه ﷺ كاهناً ـ كما كان يقول بعض ـ جاء لإبطال كونه ﷺ شاعراً ﴿**و**﴾ الرسول ليس بشاعر إذ ﴿**الشعراء يتبعهم الغاوون**﴾ من غوى بمعنى ضل، أي أن المنحرفين هم الذين يتبعون الشعراء، ولا يتبع الرسول إلا كل مؤمن مهتدي، فكيف يمكن أن يقال عنه: إنه شاعر؟ وهذا أبلغ من أن يقال: إن الشعراء أهل الغواية والفساد والهوى، إذ تبعية الغاوي لأحد، يدل على شدة الغواية في المتبوع.

[٢٢٦] ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية ﴿**أنهم**﴾ أي الشعراء ﴿**في كل واد**﴾ أي في كل طريق من طرق الضلال والهوى والفسق والفحش ﴿**يهيمون**﴾ أي يذهبون هائمين، كالهائم الحيران في الصحراء الذي لا يعلم أين يذهب وماذا يريد؟ وهكذا الشعراء، فمرة يمدحون، ومرة يذمون، ومرة يشببون، ومرة يكذبون في بطولاتهم،

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾

وفسقهم ومجونهم وهكذا.

[٢٢٧] ﴿**وأنهم يقولون**﴾ حول بطولات وفسوق وترغيب وتحريض وتنفير وإنذار ﴿**ما لا يفعلون**﴾ من تلك الأمور التي ينسبونها إلى أنفسهم، والرسول بالعكس من ذلك كله فهو يمشي وفق منهج مستقيم ذي فضيلة وعدل وإحسان، وإنه لا يكذب وإنما يفعل ما يؤمر به، وينتهي عما يزجر عنه.

[٢٢٨] ثم استثنى سبحانه عن هذا العموم الشاعر الذي ليس كذلك، فإن الشعر ليس مذموماً لذاته، وإنما هو مذموم لهذه الاعتبارات المذكورة في الآية السابقة، ولذا قال سبحانه ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ من الشعراء ﴿**وذكروا الله كثيراً**﴾ حتى لم يشغلهم الشعر إلى نسيان الله سبحانه، حتى يكذبوا ويفعلوا ما لا يليق بالمؤمنين ﴿**وانتصروا**﴾ من المشركين، للرسول والمؤمنين ﴿**من بعدما ظلموا**﴾ أي ظلمهم الكفار بسبهم وهجائهم في الشعر ونحوه ﴿**وسيعلم الذين ظلموا**﴾ عند الموت، أو في القيامة ﴿**أيّ منقلب**﴾ أي مرجع ويسمى المرجع والمصير المنقلب، لانقلاب الإنسان من حاله إلى ذلك المحل ﴿**ينقلبون**﴾ ويصيرون إليه، وهذا تهديدٌ لهم، ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام وكثير من أولاد المعصومين عليهم السلام يقولون الشعر، كما وردت بذلك متواتر الروايات.



سورة النمل

مكيّة/ آياتها (٩٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «النمل» وقصة منهم، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وإذ كان موضوع القرآن، من أخريات مواضيع سورة الشعراء، افتتحت هذه السورة بذكر القرآن.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ استعين، أو نستعين باسم الإله، وتخصيص «الله» بالذكر، بأنه علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، وما أجدر أن يجعله الإنسان أول عمله، وأن يستعين به في أموره، فإنه هو الرحمن الرحيم، المتفضل بالرحم، وقد ذكر أهل المعنى أن التكرار في ذكر اسم من أسماء الله سبحانه، ليستعطف فضله في توصفه الإنسان بذلك القبيل من الوصف، فالمكرر لإسم«الغنيّ» يثرى، ولإسم العطوف يعطف، وهكذا، وهذا صحيح فإن علم النفس يقر إن للتكرار إيحاءً على النفس.

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ

[٢] ﴿**طس**﴾ «طاء» و «سين» وهما نموذج من حروف الهجاء ﴿**تلك آيات القرآن**﴾ فـ «طس» مبتدأ، و «تلك» خبره، وهذا أحد الأقوال في المسألة، أو هي رموز بين الله وبين خاتم الأنبياء، كما ورد على قول آخر، أو غير ذلك مما تقدمت الإشارة إلى بعضها ﴿**وكتاب مبين**﴾ أي واضح ظاهر لا غموض فيه ولا التواء، وإنما أتى بوصفين للدلالة على أنه يقرأ ويكتب، ولعلّه إشارة إلى لزوم الاحتفاء بالقرآن من جميع النواحي، فإنه للكتابة والقراءة.

[٣] ﴿**هدى**﴾ أي في حال كونه هداية إلى طريق الحق ﴿**وبشرى**﴾ أي بشارة بالثواب والسعادة ﴿**للمؤمنين**﴾ به فإنهم هم الهادون المبشرون أما غيرهم فإنهم ضالون منذَرون.

[٤] ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ بإتيانها في أوقاتها مع شرائطها وآدابها ويداومون عليها ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ يعطونها، والمراد الزكاة المستحبة أي الصِلاة والصدقات، لأن السورة مكية ولم تفرض هناك الزكاة، أو المراد الأعم باعتبار التشريع مستقبلاً ﴿**وهم بالآخرة**﴾ أي بالنشأة الآخرة من سؤال القبر والبعث والجزاء وغيرها ﴿**هم يوقنون**﴾ أي لايشكون، فهم معترفون بالمعاد، وتكرار «هم» لعلّه لإفادة أن غير مقيم الصلاة ومؤتي الزكاة لا يوقن بالآخرة، وإن اعترف لساناً بها.

[٥] ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ وأعرضوا عن قبول الإيمان، فإن الإيمان

زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّكَ

بالآخرة يلازم الإيمان بسائر أصول الاعتقاد ﴿**زينا لهم أعمالهم**﴾ بأن جعلنا الإنسان بحيث إذا تكرر منه شيء زُيّن في نظره للملكة الحاصلة له من التكرار، فإنهم لما وقفوا في الصف المقابل للمؤمنين وعملوا بالكفر والمعاصي وتمادوا فيها، حصلت لهم ملكة حسب أعمالهم تدريجياً، حتى ترسخت الرغبة قلوبهم، ومن المعلوم أن الله خلق البشر هكذا، فيصبح نسبة التزيين إليه تعالى، باعتبار أنه الخالق والسبب الأول، أو باعتبار عدم الضرب على أيديهم، كما يقال أفسد الملك اللص الفلاني، بمعنى أنّه لم يضرب على يده ولم ينتقم منه، ومن المعلوم أن التزين لأعمالهم في نظرهم لا ينافي أنهم يعلمون بطلان طريقتهم، كما نشاهد الفساق المنصفين يعترفون بأن أعمالهم باطلة، مع أن العمل مزين في نظرهم، حتى لا يتمكنون بسهولة من مفارقتها ﴿**فهم يعمهون**﴾ العمه عمى القلب، أي يمشون في المعاصي، كما يمشي الإنسان الأعمى في الطريق، لا يهتدي سبيلاً.

[٦] ﴿**أولئك الذين**﴾ لم يؤمنوا بالآخرة ﴿**لهم سوء العذاب**﴾ أي العذاب السيئ وهو عذاب النار ﴿**وهم في الآخرة**﴾ أي في الدار الآخرة ﴿**هم الأخسرون**﴾ إذ لم يربحوا شيئاً وقد خسروا أنفسهم، حيث ألقوها في العذاب والنار الأبدية، والمراد بـ «الأخسر» إما التفضيل باعتبار أنهم أكثر خسارة من العصاة، وإما منسلخ عن معنى التفضيل في مقابل أهل الجنة، فالمعنى هم الخاسرون.

[٧] ﴿**وإنك**﴾ يا رسول الله، لست كما يقولون إن قرآنك شعر أو كهانة، بل

لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٨﴾

﴿**لتلقى القرآن**﴾ أي لتعطى القرآن، والتلقي الأخذ ﴿**من لدن**﴾ أي من طرف إله ﴿**حكيم**﴾ في أمره يفعل الأشياء حسب المصالح ويضع الأمور في مواضعها ﴿**عليم**﴾ عالم بالأشياء، ولا تلازم بين الوصفين خارجاً، ولذا جيء بهما، إذ رب عالم لا حكمة له، أو رب حكيم لا علم له.

[٨] ثم يأتي السياق لينقل طرفاً من قصة موسى عليه السلام تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتنبيهاً للكفّار على عاقبة المجرمين، وقد تكررت هذه القصة في القرآن الحكيم، لكن بمزايا وخصوصيات وملامح مختلفة، فاذكر يا رسول الله ﴿**إذ قال موسى لأهله**﴾ أي زوجته بنت شعيب لما رجع من بلاده يقصد مصر، وقد كان وحيداً في الصحراء في ليلة مظلمة، وأخذ زوجته الطلق، وضل الطريق ﴿**إني آنست**﴾ أي أبصرت، ما يؤنس ويفرح فقد رأيت ﴿**ناراً**﴾ فقد رأى من بعيد ما يشبه النار في شجرة ﴿**سآتيكم منها بخبر**﴾ فالزموا مكانكم، حتى أذهب وأجيء بخبر النار هل يمكن الاستفادة منها أم لا؟ وإنها لمن؟ لعلنا نتمكن أن نذهب إلى أصحابها ليعاونونا في مشكلتنا ﴿**أو آتيكم بشهاب قبس**﴾ أي بشعلة منها، والشهاب قطعة منها وقبس بمعنى الشيء الذي يؤخذ ويقتبس ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ والاصطلاء الاستدفاء بالنار، من صلى، وأصله «اصتلى» بالتاء، قلبت «طاءً» على قاعدة باب التفعيل وإنما أتى بالضمائر جمعاً، مع أن المراد زوجته فقط، إما تعظيماً، أو لما سبق،

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

من أن كلا من الجمع والجنس يقوم مقام الآخر، فيراد من الجمع الواحد فما فوق، ومن الجنس، الجمع.

[٩] ﴿**فلما جاءها**﴾ أي جاء موسى عليه السلام نحو النار ووصل إليها ﴿**نودي**﴾ من قبل الله سبحانه، والمنادي إما هو الله سبحانه، بأن خلق صوتاً سمعه موسى عليه السلام، أو بعض الملائكة بإذنه سبحانه ﴿**أن بورك من في النار ومن حولها**﴾ ولم يكن ما رآه موسى عليه السلام ناراً، وإنما هو نور يتراءى كالنار، والذين كانوا فيها هم الملائكة والأرواح الطاهرة، والذين كانوا حولها هم موسى والملائكة الحافين بها وبه عليه السلام، والمراد بالبركة هي الخير الكثير، والمعنى أن موسى والملائكة أُنعموا ـ بتفضيل الله لهم ـ ومنحوا الخير الكثير الدائم، ولعلّ ظهور النار لأجل الإشارة إلى الهداية، فكما يهدي الضياء الحائر إلى الطريق، كذلك تهدي الرسالة الناس إلى السعادة، والظاهر أن قوله «أن بورك» دعاء بهذا اللفظ، وهو تبريك بالرسالة، كما يبارك الإنسان من يظفر بمنصب أو نعمة ﴿**وسبحان الله رب العالمين**﴾ سبحان منصوب على تقدير فعل محذوف أي أسبح وأنزه الله تنزيهاً، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا، لإفادة أن أول الإيمان هو تنزيه الله من الشرك، أو لأجل دفع أن يتوهم أن الله جسم موجود في تلك النار، وهو الذي يتكلم بفمه ولسانه.

[١٠] ﴿**يا موسى إنه**﴾ أي المتكلم ﴿**أنا الله العزيز**﴾ الغالب في سلطانه القاهر لأعدائه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل كل شيء بالحكمة والصلاح.

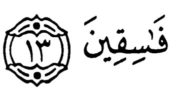
﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾

[١١] ﴿**وألق**﴾ أي اطرح من يدك ﴿**عصاك**﴾ فلقد كانت في يده عليه السلام عصا، فألقاها فصارت حية ﴿**فلما رآها**﴾ موسى عليه السلام، وإتيان الضمير مؤنثاً، لكون العصي مؤنث سماعي ﴿**تهتز**﴾ أي تتحرك بشدة، ﴿**كأنها جان**﴾ وهي الحية الصغيرة، والمراد أنها في خفة حركتها ـ مع عظم جثتها ـ كالحيّة الصغيرة التي تتحرك بكل سرعة وخفّة ﴿**ولّى**﴾ موسى عليه السلام ﴿**مدبراً**﴾ فجعل يركض إلى الوراء خوفاً منها ﴿**ولم يعقب**﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت، فكأنّ الراجع والملتفت يعقب الأمر السابق، بخلاف الماشي في طريقه الذي لا يلتفت، ولعلّ إلقاء هذا الخوف في قلب موسى عليه السلام كان لحكمة التدريب على تحمل المشاق فإن الإنسان ينضج بسبب المخاوف والأتعاب، فيكون أصلح لإدارة دفة الحياة.

وهناك خوطب بقوله سبحانه ﴿**يا موسى لا تخف**﴾ من هذه الحية ﴿**إني لا يخاف لديّ المرسلون**﴾ فإنهم بعين الله سبحانه، ومعنى «لديّ» لدى لطفي بهم وعنايتي لهم وهذا الكلام كان تمهيداً لتقوية قلب موسى حتى يلاقي المكذبين والمهددين برباطة جأش وقلب قوّي غير وجل.

[١٢] ﴿**إلا من ظلم**﴾ استثناء منقطع، وقد ذكرنا أن مثل هذا الاستثناء إنما يؤتى به بملاحظة انسلاخ المستثنى منه عن القيد، فكأنه قال «إني لايخاف لدي أحد» «إلاّ من ظلم» «أما المرسلون فلا يخافون» ﴿**ثم بدل حسناً بعد سوء**﴾ أي تاب ـ وهو حسن ـ بعد العصيان ـ وهو سوء ـ

فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٣﴾



فإنه يخاف أن لا يغفر ذنبه، وخصص الخوف بهؤلاء، لأن من لم يسيء، ومن أساء ولم يتب، لا يخافان فإن الأول لا موجب لخوفه، والثاني لا يعترف وإلاّ تاب، وغير المعترف لا يخاف، وفي الكلام انتقال من الخوف من الأسباب الخارجية ـ كالحيّة ـ إلى الخوف من عذاب الله وانتقامه ومن تاب بعد العصيان ﴿**فإنّي غفور رحيم**﴾ أغفر ذنبه، وأتفضل عليه وهو فوق الغفران، فإنك قد تغفر للمذنب ثم تعطيه فوق ذلك ديناراً، وكان هذا الكلام «إلا من ظلم . . إلى آخره» تمهيد لحال الكفار والعصاة الذين يُرسل إليهم موسى عليه السلام وتعليم لموسى بأنّ الله غفّار لمن تاب.

[١٣] ﴿**وأدخل**﴾ يا موسى ﴿**يدك في جيبك**﴾ وهو شق الثوب الأعلى طرف الحلق، فكان يُدخل يده من الشق، ويجعلها تحت إبطه ﴿**تخرج**﴾ اليد حين تُخرجها ﴿**بيضاء**﴾ مشرقة كالشمس ﴿**من غير سوء**﴾ أي من غير أن يكون البياض من أجل المرض والبرص، وهي آية أخرى زوّد بها موسى عليه السلام حجة على نبوته ﴿**في تسع آيات**﴾ أي إنا أرسلناك في تسع معجزات، والإتيان بـ «في» لتشبيه الإنسان الحائز لها، بالّذي في وسط الشيء، لأنها تحيط بها وتحرسها وكأنّها مشتملة عليه كما يقال جاء فلان في جلالة ﴿**إلى فرعون وقومه**﴾ القبط الكافرين بالله وباليوم الآخر ﴿**إنّهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ أي خارجين عن طاعة الله سبحانه، وأمره، من فسق بمعنى خرج.

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

[١٤] فذهب موسى إلى فرعون بتلك الآيات، وأظهرها له ﴿**فلما جاءتهم**﴾ أي جاءت فرعون وقومه ﴿**آياتنا**﴾ معاجزنا التي زودنا بها موسى عليه السلام ﴿**مبصرة**﴾ أي في حال كون تلك الآيات تُبصّر عن العمى، وتهدي السبيل ﴿**قالوا هذا**﴾ الذي جئت به يا موسى ﴿**سحر مبين**﴾ واضح ظاهر، فليس ما جئت به إعجازاً، وإنما هو سحر.

[١٥] ﴿**وجحدوا**﴾ أي أنكر آل فرعون ﴿**بها**﴾ أي بالآيات والباء في «بها» من قبيل «الباء» في (فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرا)[١] كما تقدم في تفسير الآية ﴿**واستيقنتها**﴾ أي علموا أنها معاجز علم يقين ﴿**أنفسهم**﴾ فاعل استيقنتها أي تيقنت نفوسهم بالآيات، وإنما جيء بلفظ «أنفسهم» للدلالة على رسوخ اليقين والاطمئنان في النفوس، وإنّما جحدوا بعد اليقين ﴿**ظلماً**﴾ على أنفسهم بالكفر، وعلى بني إسرائيل الذين اضطهدوهم ﴿**وعلواً**﴾ أي طلباً للعلو والرفعة وتكبراً ﴿**فانظر**﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتّى منه الرؤية، والمراد رؤية القلب ﴿**كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ أي فرعون وقومه الذين أفسدوا بالكفر والعصيان فقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله سبحانه في البحر، حتى لم تبق منهم باقية، وأورث أرض مصر بني إسرائيل، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

---

(١) الفرقان: ٦٠ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ

[١٦] ثم يأتي السياق لبيان قصة داود وسليمان وهما من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وإذ شاهدنا بعض قصص موسى فلنشاهد بعض قصص هذين النبيين العظيمين، مع الارتباط لما ذكر هنا بموضوع العقيدة ارتباطاً وثيقاً ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**داود وسليمان**﴾ وهو ابن داود عليه السلام ﴿**علماً**﴾ أي علماً عظيماً، ومن جملة علومهم كان علم الحكومة والفصل في القضايا ﴿**وقالا الحمد لله الذي فضلنا**﴾ بالرسالة والعلم وسائر الأمور ﴿**على كثير من عباده المؤمنين**﴾ وإنما قالوا «على كثير» لأن جملة من عباد الله المؤمنين ـ وهم جماعة من الأنبياء ـ مساوون لهما أو أفضل منهما.

[١٧] ﴿**وورث سليمان داود**﴾ في الأمور المعنوية والمادية، وبهذه الآية استدلت الصديقة الطاهرة عليها السلام، على أن الأنبياء عليهم السلام يورثون في مقابل الحديث المختلف الذي نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذباً وزوراً بـ «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» ﴿**وقال**﴾ سليمان عليه السلام على وجه الشكر والإعلام ﴿**يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير**﴾ أي نطقها، فإن الطيور تتكلم بعضها مع بعض، وقد منح الله سبحانه فهم نطقها لسليمان عليه السلام والمنطق مصدر ميمي بمعنى النطق ﴿**وأوتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**من كل شيء**﴾ ما يحتاج إليه الأنبياء عليهم السلام والملوك، من العلم والقدرة والمال والجاه وغيرها ﴿**إن هذا**﴾ الذي منحنا الله سبحانه ﴿**لهو الفضل**

ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

المبين﴾ الظاهر الذي تفضل علينا به.

[١٨] ﴿**وحشر**﴾ أي جُمع ﴿**لسليمان**﴾ عليه السلام، في ذات يوم ﴿**جنوده**﴾ فقد أُحضر الجميع بخدمته ﴿**من الجن والإنس والطير**﴾ فقد كان الجميع مسخرين له بأمر الله سبحانه وقدرته ﴿**فهم يوزعون**﴾ أي يمنعون، ويحبس أولهم عن المضي ليلحقه الأخير من الجيش فيجتمعون، من وزع بمعنى منع، يقال ليس لفلان وازع، أي مانع يمنعه عن العمل الفاسد.

[١٩] ﴿**حتى إذا أتوا**﴾ سليمان مع الجنود ﴿**على واد النمل**﴾ إضافة إلى النمل لكثرة النمل في ذلك الوادي ﴿**قالت نملة**﴾ والتاء للوحدة كتمرة وتمر، وشجرة وشجر ﴿**يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم**﴾ وجحوركم ﴿**لا يحطمنكم**﴾ التحطيم التكسير والتهشيم أي لا يكسرنكم ولا يدوسكم بالأقدام ﴿**سليمان وجنوده وهم لا يشعرون**﴾ ولا يلتفتون إلى تحطمكم فإن الإنسان لا يبالي بتحطيم النمل وصغار الحيوان، ويظهر من هذا أنهم كانوا ركباناً ومشاةً، لا محمولين على الريح في الهواء.

[٢٠] وشاء الله سبحانه أن يسمع سليمان كلام النملة ﴿**فتبسم**﴾ سليمان ﴿**ضاحكاً من قولها**﴾ التبسم هو مقدمة الضحك، فإنه ضحك خفيف، والإتيان بضاحكاً، لإفادة أنه عليه السلام ضحك ضحكاً كثيراً لكن على نحو

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٠﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ

التبسم لا على نحو القهقهة، وإنما ضحك عليه السلام أن الإنسان إذا سمع أو رأى ما لا عهد له به أخذه التعجب ثم الضحك، ثم توجه إلى الله سبحانه شاكراً لهذه النعمة التي أنعمها عليه بتعريفه منطق الحيوانات ﴿**وقال رب أوزعني**﴾ أي ألهمني من وزع بمعنى كفّ والمعنى اجعلني أزع شكر نعمتك أي أكفّه وامنعه أن يذهب عني فلا أنفك عنه ﴿**أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ**﴾ والمراد بالنعمة الجنس فإن سماع كلام النملة ذكّره بنعم الله عليه، كما إن الإنسان إذا رأى نعمة تذكر سائر النعم ﴿**وعلى والديّ**﴾ فقد أكرمت أبي بالنبوة والحكمة وفصل الخطاب وأن الحديد كان يُلان في يده وأكرمت أمي بأن جعلتها زوجة نبي ووالدة نبي بما كان لها من الطهارة والنزاهة ﴿**و**﴾ ألهمني ﴿**أن أعمل صالحاً**﴾ أي عملاً صالحاً، والمراد به الجنس، نحو ربنا آتنا في الدنيا حسنة، والسرّ في ذلك أن لفظ المفرد له جهتان جهة المادة وجهة الأفراد، فقد يراد الأولى فيفيد الجنس، وقد يراد الثانية مع الأولى فيفيد الفرد ﴿**ترضاه**﴾ بأن يكون صلاحه من هذا النوع الذي أنت ترضاه، لا صلاحاً ـ بنظر الناس ـ ولكنك لا ترضاه ﴿**وأدخلني برحمتك**﴾ يا رب ﴿**في عبادك**﴾ أي في جملة ﴿**الصالحين**﴾ بأن أكون في جملتهم في الدنيا والآخرة.

[٢١] ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى من قصص سليمان عليه السلام ﴿**و**﴾ في ذات يوم ﴿**تفقد**﴾ سليمان عليه السلام ﴿**الطير**﴾ أي تعرّف على أحوال

فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

الطيور ليرى أيها حاضر وأيها مفقود، فلم يجد الهدهد من بينها ﴿**فقال ما لي لا أرى الهدهد**﴾ أي ما للهدهد لا أراه، وكان هذا تعبير مؤدّب، حتى كأن الإنسان أصابه شيء ـ كغفلة أو ذهول أو جهل ـ حتى لا يرى ما يطلبه، وإن كان المطلوب حاضراً ﴿**أم كان من الغائبين**﴾ فهو غائب حتى لم أره، والمعنى أني لا أراه مع حضوره، أم إنه غائب ولذا لا أراه؟

[٢٢] ﴿**لأعذّبنه**﴾ أي أعذبن الهدهد ﴿**عذاباً شديداً**﴾ كنتف ريشة ﴿**أو لأذبحنه**﴾ جزاءً لغيبته بدون رخصة، فيعتبر بذلك أبناء جنسه ﴿**أو ليأتيني**﴾ أي يجيء إليّ ﴿**بسلطان مبين**﴾ أي بحجة واضحة ظاهرة تبين عذره في غيبته بدون رخصة، وإنما تسمى الحجة، سلطاناً، لأنها تسيطر على الخصم فلا مفلت له منها.

[٢٣] ﴿**فمكث**﴾ أي لبث سليمان مكثاً ﴿**غير بعيد**﴾ في المدة، أي إنتظر زماناً يسيراً قليلاً، وقد رأى الهدهد راجعاً، ﴿**فقال**﴾ لسليمان ﴿**أحطت**﴾ أي علمت، ويقال للعلم إحاطة، لأنه يحيط بالمعلوم، ونسبة الإحاطة إلى الشخص من باب علاقة الحال والمحل، إذ الإنسان وعاء العلم ﴿**بما لم تحط به**﴾ أنت يا سليمان، وكأنّه أراد بذلك أن يُبدي عذره في غيبته وأنه لم يشتغل بأمر نفسه، وإنما كانت غيبته لأجل الفحص والبحث في أطراف ملك سليمان، كجولة استطلاعية يريد بها خير سليمان عليه السلام لا خير نفسه

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ

﴿**وجئتك من سبإ**﴾ وهي مدينة في اليمن، سميت باسم رجل كان يسمى «سبأ» لسكونة أولاده فيها «بنبإ» أي بخبر ـ متعلق بـ «جئتك» ﴿**يقين**﴾ لا كذب فيه.

[٢٤] ﴿**إني وجدت**﴾ في ذلك البلد ﴿**امرأة تملكهم**﴾ أي أنها ملكة عليهم، ومراده بالمرأة «بلقيس» ومعنى تملكهم تتصرف فيهم تصرف الملاّك في أملاكهم ﴿**وأوتيت**﴾ أي أعطيت ﴿**من كل شيء**﴾ يحتاج إليه الملوك، من المال والجلال والجاه ونفوذ الكلمة وما أشبهها ﴿**ولها عرش**﴾ أي كرسي تجلس عليه ﴿**عظيم**﴾ وبعدما ذكر الهدهد ملكها بين دينها.

[٢٥] قال ﴿**وجدتها وقومها**﴾ أي أتباعها ﴿**يسجدون للشمس من دون الله**﴾ فلا يسجدون لله سبحانه، وإنما سجدتهم للشمس ﴿**وزين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ حيث أن الشيطان هو الذي يوحي ويوسوس إلى الكفار والعصاة بكفرهم وعصيانهم ﴿**فصدهم**﴾ أي منعهم ﴿**عن السبيل**﴾ الحق، وهو سبيل الدين، وسبيل الله سبحانه ﴿**فهم لا يهتدون**﴾ إلى السبيل حيث إن الشيطان منعهم عنه.

[٢٦] فقد منعهم عن السبيل لكي ﴿**أن لا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء**﴾

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ

أي المخفي من الأشياء ﴿**في السماوات والأرض**﴾ فإن المخلوقات كلها مخفية في كتم العدم وإنما يخرجها الله سبحانه إلى الوجود، ولعلّ توصيف الهدهد، لله سبحانه بهذا الوصف، لأجل أنه سبحانه زوده بنظر حادّ يرى به الماء تحت الأرض كما يرى الإنسان الماء في القارورة ﴿**ويعلم ما تخفون**﴾ في أنفسكم، وفي أسراركم، ومن مخابئ في الأرض ﴿**وما تعلنون**﴾ من الكلام ومن سائر الأشياء.

[٢٧] ﴿**الله لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له، من شمس أو غيرها ﴿**رب العرش العظيم**﴾ أي الملك العظيم، الذي وسع كُرسيّه السماوات والأرض، فما ذكرته من كون عرش بلقيس عظيم، إنما هو عظيم بالنسبة إلى عروش الدنيا، أما العرش العظيم الذي هو أعظم من كل شيء فهو عرش الله سبحانه، وقد يحتمل أن يكون هذا من كلام سليمان، أو من كلامه تعالى في القرآن.

[٢٨] ولما أخبر الهدهد سليمان عليه السلام بهذا الخبر ﴿**قال**﴾ سليمان ﴿**سننظر**﴾ في قولك ونبحث عن خبرك لنرى ﴿**أصدقت**﴾ في مقالك ﴿**أم كنت من الكاذبين**﴾؟ أي في جملتهم ومنهم.

[٢٩] ثم كتب سليمان عليه السلام كتاباً يأمر فيه بلقيس بالإيمان وبأن تسافر إليه وأعطاه إلى الهدهد ليوصله إليها وقال له ﴿**اذهب**﴾ يا هدهد ﴿**بكتابي هذا**﴾ الذي كتبته ﴿**فألقه**﴾ أي اطرحه

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا

﴿**إليهم**﴾ أي إلى أهل سبأ، والمراد إلى الملكة وقومها ﴿**ثم تول عنهم**﴾ أي أعرض كأنك راجع، واستتر في محل تسمع كلامهم ﴿**فانظر ماذا يرجعون**﴾ أي ماذا يردون في جواب الكتاب، ويقولون بينهم عنه؟

[٣٠] فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه في مجلس بلقيس، فأخذته وفضته وقرأته ثم ﴿**قالت**﴾ لمن حضرها من الوزراء والأشراف ﴿**يا أيها الملأ**﴾ ويسمى الأشراف ملأً لأنهم يملؤون العيون جلالاً والصدور هيبة ﴿**إني ألقي إليّ كتاب كريم**﴾ أي رفيع، فإن الكتاب الرفيع يُكرم ويحترم.

[٣١] ﴿**إنه**﴾ أي الكتاب ﴿**من سليمان**﴾ النبي ﴿**وإنه**﴾ أي الشيء المكتوب فيه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾.

[٣٢] ﴿**ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين**﴾ هاتان الجملتان كانتا كل مافي الكتاب الذي أرسله سليمان إلى بلقيس، ومعناها، آمركم أن لا تظهروا الكبر والعلو عليّ، بعدم إطاعة أمري، وآمركم أن تسيروا ـ أي الملكة ومن في حاشيتها ـ نحوي في حال كونكم مسلمين منقادين لي، أو مسلمين لله تعالى.

[٣٣] ولما قرأت بلقيس الكتاب عليهم ﴿**قالت**﴾ للأشراف والوزراء ﴿**يا أيها**

ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٣﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿الملأ﴾ أي الجماعة **﴿أفتوني﴾** أي أشيروا عليّ **﴿في أمري﴾** أي الأمر المرتبط بي من التسليم لسليمان أو الحرب معه، والفتوى الحكم بالصواب أي احكموا بالصواب في هذه القضية **﴿ماكنت﴾** أنا **﴿قاطعةً أمراً﴾** أجزم فيه برأيي وحدي **﴿حتى تشهدون﴾** أي تحضرون وتشيرون فعن رأيكم ومشورتكم أمضى في الأمر.

[٣٤] **﴿قالوا﴾** في جوابها **﴿نحن أولوا قوّة﴾** أي أصحاب قوة وقدرة وسلاح وجيش **﴿وأولوا بأس﴾** أي شجاعة **﴿شديد﴾** لا يغالبنا أحد فإن شئت أن لا تسلمي حاربنا وإن شئت أن تسلمي صالحنا **﴿والأمر إليك﴾** أي مفوض إليك في القتال وعدمه **﴿فانظري﴾** وفكري في أمرك **﴿ماذا تأمرين﴾** أي ما الذي تأمريننا به لنمتثله؟

[٣٥] **﴿قالت﴾** في جوابهم، إن الأصلح أن لا نحاربهم، فإنا إذا حاربناهم وغلبوا علينا أذلّونا فـ **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾** أي مدينة، والمراد دخلوها بالعنوة والغلبة **﴿أفسدوها﴾** بالإهلاك والتدمير والسلب والنهب **﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾** أي أهانوا أشرافها وكبراءها، لأن الأشراف لايخضعون لهم، فلا بدّ لهم أن يذلوهم حتى يستقيم لهم الأمر **﴿وكذلك يفعلون﴾** الظاهر إن هذا من تتمة كلام بلقيس، فإن الإنسان غالباً يؤكد الكلام بالتصديق الإجمالي، فإنك بعد أن تقص قصة تقول

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

«هكذا كان» وبعد أن تأمر أمراً «هكذا فأفعل».

وقد أراد بعض الذين بهرتهم الديمقراطية الغربية أن يطبق هذه الآية عليها، بتقريب أن اللازم أن يكون للرئيس مجلس يراجعهم في شؤون الدول، وهم يظهرون ما لديهم من قوة ومال وفكر ويكون المرجع الأخير هو الرئيس، ولكن لا ربط لهذه الآية بذلك، إذ إنما استشارت بلقيس الوزراء والأشراف، وهذا هو المعتاد في كل حكومة ملكية وإن لم يكن لهم مجلس وبرلمان بالإضافة إلى ذلك حكاية عن عمل جماعة من عبّاد الشمس الكافرين، ولا يدل على تقرير الله لهم.

[٣٦] ﴿**وإني مرسلة إليهم**﴾ أي إلى سليمان وقومه ﴿**بهدية**﴾ لأصانعهم وأليّن جانبهم حتى لا يطمعوا في ملكي ﴿**فناظرة**﴾ أي أنظر وأنتظر ﴿**بم يرجع المرسلون**﴾ أي بقبولٍ أو ردٍّ ـ من جانب سليمان ـ يرجعون رُسلي الذين أرسلهم مع الهدية.

[٣٧] ثم أرسلت رسولاً بهدية ﴿**فلما جاء**﴾ الرسول ﴿**سليمان**﴾ عليه السلام ﴿**قال**﴾ سليمان للرسول ﴿**أتمدونن بمال**﴾ على نحو الاستفهام الإنكاري؟ فإني لا أحتاج إلى مالكم، و«تمدون» جمع المخاطب من فعل المضارع، من باب الأفعال والهمزة للاستفهام والنون الثانية للوقاية، وقد حذفت ياء المتكلم تخفيفاً ﴿**فما آتانيَ الله**﴾ أي أعطانيه من أنواع النبوة والملك والجاه ﴿**خير مما آتاكم**﴾ أي أعطاكم من أموال الدنيا ﴿**بل أنتم**﴾ أي من لا حظ له كحظي ﴿**بهديتكم**﴾ أي هدية

نَفۡرَحُونَ ﴿٣٧﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ

بعضكم إلى بعض ﴿**تفرحون**﴾ أما مثلي فلا يفرح بالهدية.

[٣٨] ﴿**ارجع**﴾ أيها الرسول ﴿**إليهم**﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿**فـ**﴾ قل لهم إن لم يسلموا ﴿**لنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها**﴾ أي لا طاقة لهم ولا قدرة لهم على دفعها ﴿**ولنخرجنهم منها**﴾ من مدينتهم، إن بقوا مصرين على الكفر ﴿**أذلة**﴾ جمع ذليل، أي في حال كونهم أذلاء ﴿**وهم صاغرون**﴾ أي صغيروا القدر.

[٣٩] ورجع الرسول إلى بلقيس يخبرها بأمر سليمان عليه السلام، وقد ذكر لها علائم كونه نبيّاً، لا ملكاً فقط ولذا تجهزت بلقيس للمسير إليه حسب أمره «وأتوني مسلمين»، وأخبر سليمان بأنها خرجت من اليمن مستعدة للسفر إليه حينذاك ﴿**قال**﴾ سليمان عليه السلام ﴿**يا أيها الملأ**﴾ لمن حضر عنده من الأشراف والعظماء ﴿**أيّكم يأتيني بعرشها**﴾ أي كرسي بلقيس، فلقد كان لها كرسي عظيم تجلس عليه ﴿**قبل أن يأتوني**﴾ أي تأتي بلقيس وأشراف قومها إليّ، لأنها سافرت في عدّتها ﴿**مسلمين**﴾ أي في حال كونهم مسلمين، ولعلّ وجه طلب سليمان عرشها أنه أراد أن يريها مقدرته على مثل ذلك الأمر الخارق، حتى تذعن بنبوته، وتصدق دعوته، فكان من قبيل معاجز الأنبياء لإثبات الرسالة.

[٤٠] ﴿**قال**﴾ في جواب سليمان عليه السلام ﴿**عفريت**﴾ أي قوّي ﴿**من الجن**﴾

أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا

الذين كانوا بحضرة سليمان ﴿**أنا آتيك به**﴾ أي أجيء إليك بالعرش ﴿**قبل أن تقوم من مقامك**﴾ أي مجلسك، فإنه من الطبيعي أن يمتد جلوس الملوك إلى وقت الظهر ثم يقومون من محلهم للصلاة والراحة والغذاء ـ مثلاً ـ.

ولقد كان ذلك العفريت يريد أن يطير فيأتي بالعرش بالطريق العادي لدى الجن ﴿**وإني عليه**﴾ أي على إتيان العرش ﴿**لقوي**﴾ قادر على حمله ﴿**أمين**﴾ آتيك به بدون خيانة.

[٤١] قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك ﴿**قال**﴾ آصف بن برخيا وكان وزير سليمان وابن أخته ويعرف الاسم الأعظم لله سبحانه الذي إذا دعي به أجاب ﴿**الذي عنده علم من الكتاب**﴾ والمراد الكتاب المخزون المكنون عند الله سبحانه، الذي لا يطلع عليه إلا من شاء من الأنبياء والأئمة والصالحين ﴿**أنا آتيك به**﴾ بالطلب من الله سبحانه باسمه الأعظم ﴿**قبل أن يرتدّ إليك طرفك**﴾ ارتداد الطرف رجوعه بعد النظر إلى مكان ما، فإن الإنسان إذا نظر إلى مكان ثم أراد أن يأخذ نظره منه إلى أمام رجله، يقال ارتد إليه طرفه، لأن الطرف رجع إلى نفسه بعد أن كان إلى محل آخر، قال آصف هذا الكلام ودعا باسم الله الأعظم، وإذا يرى سليمان أن عرش بلقيس حاضر أمامه.

﴿**فلما رآه**﴾ أي رأى سليمان العرش ﴿**مستقراً**﴾ في حال استقرار وثبات ﴿**عنده**﴾ بعد أن ارتد طرفه إلى قرب محلّه ﴿**قال هذا**﴾ الإحضار

مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ

﴿**من فضل ربي**﴾ ونعمه إليّ حيث وهب لي خليفة كآصف يتمكن من هذا العمل العجيب وقد كان سليمان قادراً على أن يحضره هو بالذات، لكنه أراد إظهار فضل آصف على قومه، وقد فضلني بهذا ﴿**ليبلوني**﴾ البلاء الامتحان والاختبار، أي ليمتحنني ﴿ **أأشكر أم أكفر**﴾ أي هل أشكره سبحانه على النعمة، أم أكفر نعمته ولا أشكره؟ فإن الله سبحانه إذا منح أحداً نعمةً كان اختباراً ليظهر هل أنه يشكر أم يكفر بالنعمة ـ لا ليعلم الله، فإنه عالم، بل ـ ليستحق المحسن الثواب والمسيء العقاب ﴿**ومن شكر**﴾ لله تعالى ﴿**فإنما يشكر لنفسه**﴾ إذ فائدة الشكر تعود إليه بالذات ﴿**ومن كفر**﴾ ولم يشكر النعمة ﴿**فإن ربي غني**﴾ عن شكر الشاكرين ﴿**كريم**﴾ متفضل على عباده شاكرهم وكافرهم.

[٤٢] ﴿**قال**﴾ سليمان عليه السلام ﴿**نكروا لها عرشها**﴾ أي غيروا سريرها إلى حالة تنكرها ولا تعرفها، إذا رأته، وقد قيل أنه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها وإنها هل تعرف أم لا، لـ ﴿**ننظر اتهتدي**﴾ إلى معرفة عرشها بفطنتها ﴿**أم تكون من الذين لا يهتدون**﴾ قيل فنزع ما كان على العرش من الفصوص والجوهر وغيرت ألوان مواضعه الملونة، فجعل ما كان أحمرَ أخضرَ وهكذا.

[٤٣] ﴿**فلما جاءت**﴾ بلقيس إلى محلّ سليمان ﴿**قيل**﴾ لها ﴿**أهكذا عرشك**﴾

قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٤﴾

أي هل أن عرشك مثل هذا العرش الموضوع ها هنا؟ ﴿**قالت**﴾ وقد أدركت بفطنتها الحقيقة ﴿**كأنه**﴾ أي كأن هذا العرش الموضوع ﴿**هو**﴾ العرش الذي لي وخلفته ورائي جئتم به إلى هنا ثم قالت ﴿**وأوتينا العلم**﴾ بقدرة الله سبحانه، وصحبة نبوة سليمان ﴿**من قبلها**﴾ أي من قبل هذه الخارقة التي نشاهدها بالنسبة إلى العرش ﴿**وكنا مسلمين**﴾ بسليمان، فلا نعجب من إتيان العرش إلى هنا.

[٤٤] ثم ذكر سبحانه، إنها إنما أسلمت بعد كتاب سليمان، وإلا فإنها كانت تعبد الشمس، كما قال «الهدهد» ﴿**وصدها**﴾ أي منعها ـ سابقاً ـ عن الإسلام ﴿**ما كانت تعبد من دون الله**﴾ أي عبادتها للشمس، وإنما عبدت الشمس لـ ﴿**إنها كانت من قوم كافرين**﴾ أي نشأت فيهم وكانت منهم، ولذا اعتقدت كما كان يعتقد قومها، فإن للمحيط أثراً قاهراً على النساء.

[٤٥] وقد أمر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبني لها «صرح» أي موضع منبسط من قوارير كالقصر، وقد أجرى الماء تحت أرض الصرح بحيث كان يبدو أنه ماء واقف على الأرض، ولعلّه أراد بذلك اختبار عقلها أيضاً، هل تعرف إنه صرح أم تظن أنه ماء، وقيل أن الشياطين خافت أن يكون لها ولد منه، فنفروا سليمان منها، قائلين إن رجلها كرجل حمار، فأراد سليمان أن يعرف صدق ذلك، أقول: وإن صدق هذا، لم يكن فيه دليل على إن سليمان أو بعض الرجال نظروا إلى ساقها، فلعلّ سليمان كان قد أحضر نساءً للنظر إلى ساقيها، بدون أن يقلن لها اكشفي عن ساقك، كما أنه ليس دليل على إن قول الشياطين أثّر في سليمان، إذ هو عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم منهم، وإنما أراد الكشف للناس عن كذبهم بما تشهده النساء.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ

ولما جاءت بلقيس ﴿**قيل لها**﴾ والقائل بعض الخدم ﴿**ادخلي الصرح**﴾ وهو المحلّ المعدّ لاستقبالها ﴿**فلما رأته**﴾ أي رأت بلقيس الصرح ﴿**حسبته**﴾ أي ظنته ﴿**لجة**﴾ من الماء، واللجة معظم الماء، فاستعدت لخوضها بأرجلها ﴿**وكشفت عن ساقيها**﴾ أي رفعت ثوبها عن رجليها، لتدخل الماء، ولا يبلل ثوبها ﴿**قال**﴾ سليمان، أو بعض الخدم ﴿**إنه**﴾ أي ما ترين ليس ماءً، ولعلهم أعلموا سليمان بأنها أخذت في كشف قدميها لخوض الماء ـ بظنها ـ ﴿**صرح**﴾ أي قصر ﴿**ممرد**﴾ قد مُرّد ومُلّس، ومنه يقال لمن لا شعر له، أي هو مُملّس ﴿**من قوارير**﴾ جمع قارورة، والمراد بها الزجاج، وإذ دهشت الملكة من هذا الحادث جعلت تستغفر عن ذنبها، فإن من عادة الإنسان طلب الغفران حين يُدهش ويصاب بكارثة، إذ يزول الكبرياء، حينذاك ﴿**قالت**﴾ مناجية، يا ﴿**رب إني ظلمت نفسي**﴾ بعبادتي للشمس في سالف الزمان ﴿**وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين**﴾ فالإسلام لله تعالى، لكنه مع سليمان النبي، ولعلّ الإتيان بهذه اللفظة، للاعتراف برسالته، وأرادت أن تُبدي اعترافها بالمبدأ والرسالة.

[٤٦] وبعد تمام قصة سليمان، يأتي السياق ليبين طرفاً من قصص سائر الأنبياء ﴿**ولقد أرسلنا إلى ثمود**﴾ أي قبيلة ثمود ﴿**أخاهم**﴾ في النسب ﴿**صالحاً**﴾ فقال لهم ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ وحده لا شريك له ﴿**فإذا هم**﴾

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ

أي ثمود ﴿**فريقان يختصمون**﴾ مؤمنون، وكافرون، وكل يخاصم الفريق الآخر يقول أنت على باطل وأنا على حق.

[٤٧] ﴿**قال**﴾ صالح عليه السلام لمن بقي في الكفر ﴿**يا قوم لم تستعجلون بالسيئة**﴾ فقد كانوا يقولون لصالح عجّل علينا بالعذاب الذي وعدتنا إن بقينا على الكفر، ـ على وجه الاستهزاء ـ فقال لهم صالح لم تطلبون عجلة العذاب ﴿**قبل الحسنة**﴾ أي قبل التوبة، وسمي العذاب سيئة لأنه يسيء إلى الإنسان، والمراد بـ «قبل الحسنة»، عوض طلبكم الحسنة، فإنه كثير ما يأتي قبل لا بمعنى الزمان، بل بمعنى العوض ﴿**لولا**﴾ أي هلاّ ﴿**تستغفرون الله**﴾ تطلبون غفرانه بسبب الإيمان والعمل الصالح؟ ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ لكي ترحموا بسبب الاستغفار.

[٤٨] ﴿**قالوا**﴾ في جواب صالح عليه السلام ﴿**أطيرنا بك وبمن معك**﴾ أي تشأمنا بك وبمن على دينك من المؤمنين فأنتم شؤم علينا تجلبون لنا الفقر والقحط والمشاكل، وأصل «اطير» تطير، أدغمت التاء في الطاء، وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ﴿**قال**﴾ لهم صالح ﴿**طائركم عند الله**﴾ أي أن الشؤم أتاكم من عند الله حيث كفرتم وللكفر نكبة ومشاكل كما قال سبحانه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)[١] وقد كانت الأمم تتشاءم بالطائر الخاص، كالبوم، والغراب، لما كان عندهم

---

(١) طه: ١٢٥ .

بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ

مشهوراً أن الإنسان إذا وقع نظره على الطائر الفلاني عند حاجة له فإنها لا تقتضى تأثّراً من ذلك الطائر، ثم سمى كل تشاؤم بالشر طائراً، وإن كان تشاؤماً من الشخص أو حيوان بري، واشتق منه «التطير» ﴿**بل أنتم قوم تفتنون**﴾ أي تختبرون بالخير والشر، فإن الفتنة بمعنى الاختبار، كما قال تعالى (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ)[1] يعني ليس هذا الذي يصيبكم من المشاكل بسببي وإنما هي فتنة وامتحان لكم.

[٤٩] ﴿**وكان في المدينة**﴾ التي بها صالح، وهي «الحجر» ﴿**تسعة رهط**﴾ أي تسعة أشخاص ﴿**يفسدون في الأرض**﴾ بإلقاء الفتن وتدبير المكر ﴿**ولا يصلحون**﴾ لعلّ الإتيان بهذه الجملة لإفادة أنه لم يكن في عملهم إصلاح، وإنما فساد محض.

[٥٠] ﴿**قالوا**﴾ أي قال بعض هؤلاء الرهط المفسدون لبعضهم الآخر ﴿**تقاسموا بالله**﴾ أي ليحلف بعضكم لبعض، فـ «تقاسموا» فعل أمر، من باب التفاعل ﴿**لنبيتنه**﴾ أي لنقتلن صالحاً ﴿**وأهله**﴾ بياتاً أي بالليل ﴿**ثم لنقولن**﴾ صباحاً إذا ظهر قتله ورُمينا بذلك ـ وإنما قالوا هذا لأنهم كانوا معروفين بالفساد فإذا حدث حادث رُموا به فلا بد لهم من إحضار الجواب ـ ﴿**لوليه**﴾ أي ولي صالح الذي يطالب بدمه، والمراد إما الحكومة أو ذووا رحمه أو من أشبههما ﴿**ما شهدها مهلك**

(١) الأنفال: ٢٩ .

أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٥٠﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ

أهله﴾ أي هلاك أهل صالح، ويطلق الأهل على العائلة حتى الرئيس، ومهلك مصدر ميمي، أو اسم زمان أي زمان هلاكهم أو اسم مكان أي مكان الهلاك **﴿وإنّا لصادقون﴾** فيما نقول، هكذا دبروا حيلة أن يفعلوا الفعلة ثم يقولوا لوليه هذه الجملة ليبرّءوا ساحتهم من القتل.

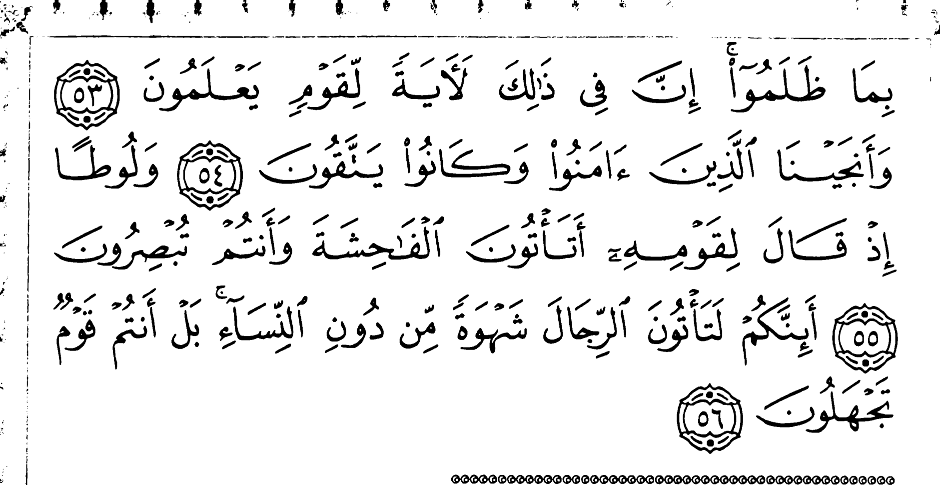
[٥١] **﴿ومكروا﴾** هؤلاء **﴿مكراً﴾** بتدبير هذه الخطة **﴿ومكرنا مكراً﴾** أي دبّرنا تدبيراً خفياً بحيث لم يعلموا به ـ فإن المكر هو التدبير الخفي لإلقاء الخصم إلى الهلاك ـ فقد أمر الله سبحانه بعذاب ثمود **﴿وهم لا يشعرون﴾** بمكر الله لهم، فقد روي أنهم لمّا أرادوا قتل صالح وقعت عليهم قطعة من الجبل فهلكوا جميعاً وأنجى الله صالح من أيديهم[١].

[٥٢] **﴿فانظر﴾** يا رسول الله أو كل من يتأتى منه النظر، والمراد اعلم واعتبر **﴿كيف كان عاقبة مكرهم﴾**؟ فهل مكرهم نفذ أم رُدَّ إلى نحرهم؟ **﴿أنّا دمرناهم﴾** أي أهلكناهم **﴿وقومهم﴾** بأن صاح عليهم جبرائيل صيحة صاروا كهشيم المحتضر **﴿أجمعين﴾** حتى لم ينجح منهم أحد، وبقي صالح، والمؤمنون في سلامة وعافية.

[٥٣] **﴿فتلك﴾** التي يراها الرائي في طريقه من الحجاز إلى الشام وقد مرّ بها النبي ﷺ، في غزوة تبوك **﴿بيوتهم﴾** وآثارها الباقية **﴿خاوية﴾** أي في

---

(١) راجع مجمع البيان: ج٧ ص٣٩٢ .



حال كونها خاوية، أي خالية منهدمة ﴿**بما ظلموا**﴾ أي بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿**إنّ في ذلك**﴾ الإهلاك ﴿**لآية**﴾ على بأس الله سبحانه ﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي يعلمون الأمور، أما الجهّال فإنهم لايدركون العبر والعظات.

[٥٤] أهلكنا الكفار ﴿**وأنجينا**﴾ من العذاب ﴿**الذين آمنوا**﴾ بصالح ﴿**وكانوا يتقون**﴾ المعاصي والآثام.

[٥٥] ثم يأتي السياق لبيان قصة لوط ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**لوطاً إذ قال لقومه**﴾ منكراً عليهم العصيان ﴿**أتأتون الفاحشة**﴾ والمراد بها اللواط؟ أي كيف تلوطون، والفاحشة، صفة لمقدر، أي الفعلة الفاحشة وسميت فاحشة لأنها تفحش وتتجاوز الحد، من فحش بمعنى تجاوز الحد ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ أي و الحال أنكم تعلمون أنها فاحشة.

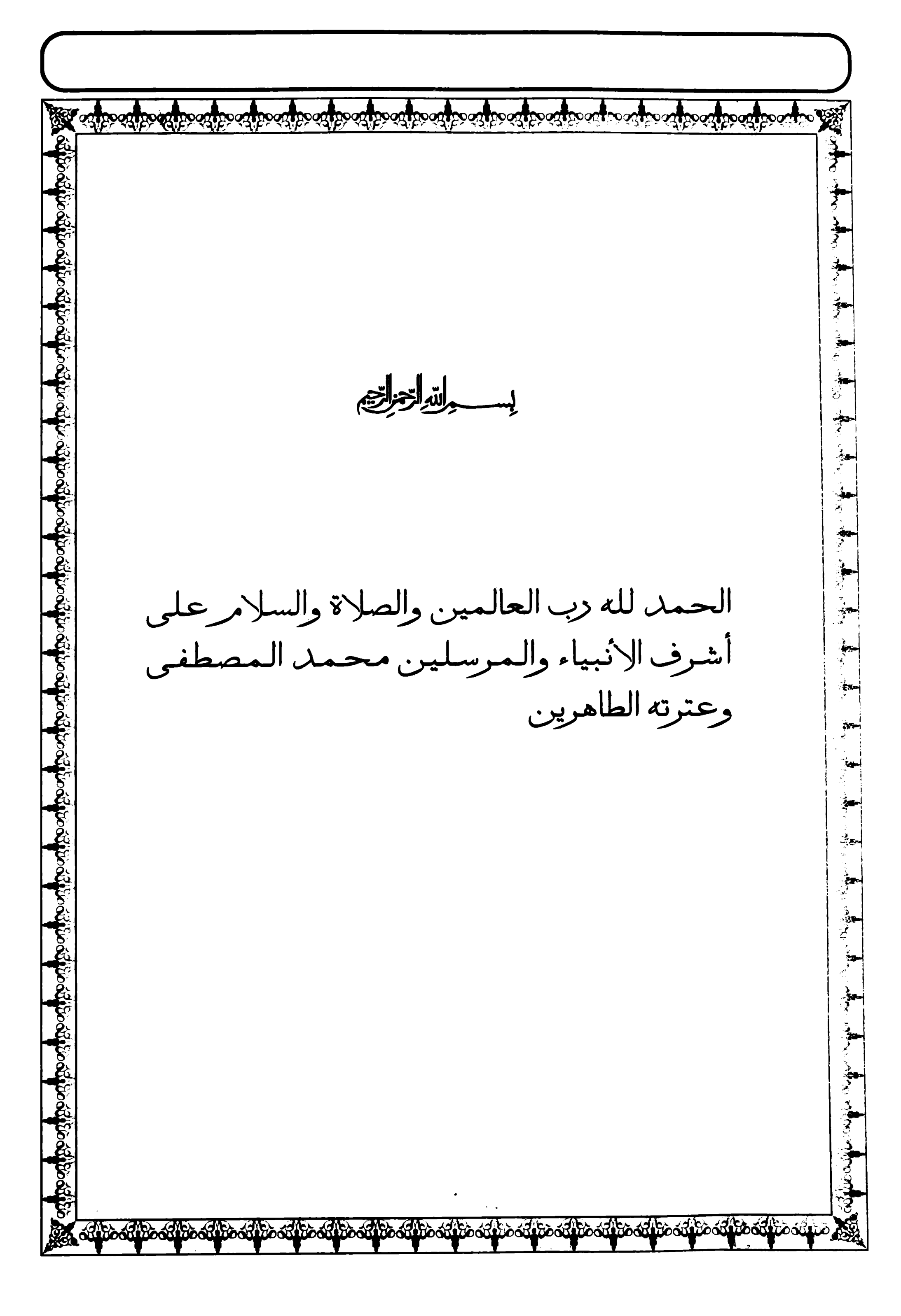
[٥٦] ﴿**أئنكم**﴾ أيها القوم ﴿**لتأتون الرجال**﴾ أي تعملون مع الرجال ﴿**شهوة**﴾ إما مفعول أو تمييز، وأصلها ما تشتهيه النفس ﴿**من دون النساء**﴾ فقد تركوا نساءهم، واشتغلوا بالرجال، إن ذلك ليس لقضاء الشهوة، وإلا كانت النساء أحسن ﴿**بل أنتم قوم تجهلون**﴾ ما في هذا العمل من الإثم والعقاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان

الجزء العشرون

من آية (٥٧) سورة النمل

إلى آية (٤٦) سورة العنكبوت



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٩﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ

---

[٥٧] ﴿**فما كان جواب قومه**﴾ للوط ﴿**إلا أن قالوا**﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿**أخرجوا آل لوط**﴾ أي لوط وآله ـ وقد مرّإن «آل فلان» يطلق عليه وعلى آله، تغليباً ـ ﴿**من قريتكم**﴾ أي مدينتكم ﴿**إنهم أناس**﴾ أي جماعة ﴿**يتطهرون**﴾ عن إتيان أعمالنا، وكان هذا على وجه السخرية.

[٥٨] ﴿**فأنجيناه**﴾ أي أنجينا لوطاً ﴿**وأهله**﴾ بناته اللاتي كنّ معه ﴿**إلاّ امرأته**﴾ التي كانت تساعد القوم على أعمالهم الفاسدة ﴿**قدرناها**﴾ أي هكذا جرى تقديرنا بالنسبة إليها إنها ﴿**من الغابرين**﴾ أي الباقين في القرية لتعذب بعذابها.

[٥٩] ﴿**وأمطرنا عليهم**﴾ أي على أهل القرية ﴿**مطراً**﴾ من الحجارة ﴿**فساء مطر المنذرين**﴾ أي بئس المطر مطر الذين أنذروا فلم ينفع فيهم الإنذار.

[٦٠] وبعد ذكر جملة من أحوال الأمم السالفة وكيف أن الله عذبهم لما تمردوا عن الأوامر يرجع السياق إلى الرسول وحاله مع قومه وكيفية تبليغهم ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**الحمد لله**﴾ الذي وفقنا للإيمان، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ﴿**وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾ أي تحية

ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ

على الرسل المتقدمين الذين اصطفاهم الله سبحانه واختارهم لوحيه، ومعنى «السلام» أن يكونوا سالمين في تلك الدار من الأخطار، وإن غلب معنى التحية عليه، عند العرف ﴿ **ءآلله خير** ﴾ هنا همزتان، أحدهما للاستفهام، والثانية همزة «أل» وإذا اجتمعت همزتان جاز أن تخفف أحدهما في صورة مدّ، أي: هل الله خير ﴿**أم ما يشركون**﴾ أي الأصنام التي يشركونها بالله تعالى؟ وقد تقدم أن الله كيف نجى المؤمنين، وأهلك من كان يعبد الأصنام، وعلى هذا فالجواب ـ الطبيعي ـ بعد تلك المشاهدات: أنّ الله خير.

[٦١] ﴿**أمّن**﴾ أصله «أم» «من» فأدغمت إحدى الميمين في الثانية ﴿**خلق السماوات والأرض**﴾ أي ما تشركون خير أم خالق السماوات والأرض ﴿**وأنزل لكم من السماء**﴾ أي جهة العلو ﴿**ماءً**﴾ وهو المطر ﴿**فأنبتنا به**﴾ بذلك الماء، وهذا من الالتفات من الغيبة إلى التكلم وهو فن من فنون البلاغة ﴿**حدائق**﴾ جمع حديقة، وهي مجتمع الورود والأشجار ﴿**ذات بهجة**﴾ أي منظر حسن يبتهج به من رآه ويسر ويفرح ﴿**ما كان لكم**﴾ أيها الناس ﴿**أن تنبتوا شجرها**﴾ أي أنتم لا تتمكنون من إنبات أشجارها، لولا أن الله أنبتها فلا يزعم زاعم أنه هو الذي ينبت حيث يحرث ويكدّ ويسقي، إنه سبب ضعيف، وإنما الذي ينبت هو الله سبحانه ﴿**ءإله مع الله**﴾ أي هل هنالك في الكون إله آخر مع الله سبحانه؟ وهذا استفهام إنكاري، يأتي بعد الإلفات إلى صنع الله

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

سبحانه ﴿**بل**﴾ ليس معه إله وإنما هؤلاء المشركون ﴿**هم قوم يعدلون**﴾ يجعلون غير الله عِدلاً لله تعالى.

[٦٢] ﴿**أم من جعل الأرض قراراً**﴾ أي مستقراً لا تميل ولا تضطرب وتصلح للسكنى لما هيّئ فيها من الوسائل ﴿**وجعل خلالها**﴾ أي وسطها وفي مسالكها ﴿**أنهاراً**﴾ من الماء تجري لسقي الأرض والإنسان والحيوان ﴿**وجعل لها**﴾ أي للأرض ﴿**رواسي**﴾ جمع راسية، وهي الجبال التي حفظت الأرض من التفكك والاضطراب، فإن الأرض كرة تسبح في الجو، ولولا الجبال التي هي كالأوتاد الحافظة للخشبات المتعددة من التفكك، لتفككت الأرض وانتشرت في الفضاء ﴿**وجعل بين البحرين**﴾ أي بحر الملح والمراد به بحار الدنيا، وبحر العذب المراد به المياه الجارية العذبة ﴿**حاجزاً**﴾ أي مانعاً من شقوق الأرض حتى لايختلط بعضها ببعض ـ كما تقدم في سورة الفرقان ـ ﴿**ءإله مع الله**﴾؟ صنع ذلك أو بعض ذلك، أم هو الله وحده؟ فلماذا تشركون؟ ﴿**بل**﴾ ليس إله مع الله وإنما ﴿**أكثرهم**﴾ أي أكثر الناس ﴿**لا يعلمون**﴾ إنه ليس إله مع الله ولذا يشركون به.

[٦٣] ﴿**أم من يجيب المضطر**﴾ اضطرّ فعل متعد، يقال اضطر زيد خالداً، فخالد مضطر بصيغة المفعول ﴿**إذا دعاه**﴾ وإنما جيء باسم «المضطر»

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

مع إنه سبحانه يجيب كل من دعاه، لأن إجابة المضطر أوقع وألزم حيث إنه لا علاج له ولا ملجأ يلجأ إليه، والمراد إجابة دعائه وكشف ضره وحاجته ﴿**ويكشف السوء**﴾ النازل بالشخص من فقر ومرض وسجن وغيرها، ثم إما المراد كشف سوء المضطر، فيكون كعطف بيان، أو كشف مطلق الأسواء، فيكون تأسيساً لا تأكيداً، وهنا نكتة لا بأس بالتنبيه عليها، وهي أن بعض الأخيار، سلكوا هذه الجملة من الآية سلك الختوم تفؤلاً، واتباعاً لما ورد من «خذ القرآن ما شئت لما شئت» فقراءتها من باب التعريض، لا من باب الطلب، حتى يقال، إنها عِدل لما يشركون، ولا دعائية لها، فليست مثل «رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً»[١] فهذا من قبيل ما لو قال أحد الكرماء: أنا الذي أطعم الجائع، فجاء جائع يريد إشباعه، فإنه يقول: «أنا الذي أطعم الجائع» يريد التعريض به حيث إن هذا الكلام صدر منه ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾ أي تخلفون آباءكم في ديارهم وأعمالهم، فمن غير الله سبحانه يهلك قرناً ويخلف قرناً آخر مكانه، ويُفني جيلاً ويجعل جيلاً آخر خلفاً له؟ ﴿**ءإله مع الله**﴾ يفعل ذلك؟ كلا! ولكن ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ أي قليل تذكركم واتعاظكم، لأنكم لا تتفكرون ولا تعتبرون، و«ما» زائدة، لتأكيد القلة.

[٦٤] ﴿**أم من يهديكم**﴾ أي يرشدكم إلى طرقكم ومقاصدكم ﴿**في ظلمات البر والبحر**﴾ حيث تقطعون الصحراء أو البحار في الليالي المظلمة. إنه

---

(١) البقرة: ٢٠٢.

وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٥﴾

هو الله الذي يهديكم بما جعل للطرق من علائم بالكواكب، والقمر، ومهب الرياح، ومعالم الجبال، وغيرها، وإنما خصّ الظلمات بالذكر، مع أن الهادي في النهار هو الله أيضاً، لشدة الحاجة في الليل المظلم إلى الهادي، وهناك يدرك الإنسان حاجته إلى الاهتداء أكثر من إدراكه في النهار ﴿**ومن يرسل الرياح**﴾ الجامعة للسحاب والمثيرة له من أطراف السماء ﴿**بشراً**﴾ أي لأجل البشارة ﴿**بين يدي رحمته**﴾ أي أمام رحمته التي هي المطر؟ ﴿**ءإله مع الله**﴾ يفعل ذلك بالاستقلال أو بالإشراك؟ كلا! ﴿**تعالى الله**﴾ أي أن الله أعلى ـ وليس في الفعل معنى الماضوية، وإنما يفيد معنى المادة فقط ـ ﴿**عما يشركون**﴾ أي عن الأصنام التي يشركونها بالله، أو تنزّه عن شركهم، على أن «ما» مصدرية.

[٦٥] ﴿**أم من يبدأ الخلق**﴾ أي ينشأ الخلق ويوجده من كتم العدم ﴿**ثم**﴾ يميته ثم ﴿**يعيده**﴾ حيّاً يوم القيامة للحساب والجزاء؟ وقسم من الكفار وإن لم يكونوا يعترفون بالإعادة، لكن قسماً آخر منهم كاليهود والنصارى يعترفون بذلك مع أنهم مشركون ﴿**ومن يرزقكم من السماء**﴾ بإدرار المطر ﴿**والأرض**﴾ بإنبات النبات؟ ﴿**ءإله مع الله**﴾ يفعل ذلك؟ ﴿**قل**﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿**هاتوا برهانكم**﴾ أي هاتوا حجتكم على الشرك، وإن هناك إلهاً مع الله ﴿**إن كنتم صادقين**﴾

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٦﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ

في دعواكم تعدد الآلهة وإن الأصنام شريكة لله سبحانه في الألوهية.

[٦٦] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء، إن كان هناك شريك مع الله لزم أن يعلم الغيب إذ لا يكون الإله جاهلاً، لكن ﴿**لا يعلم من في السماوات**﴾ من الملائكة ﴿**والأرض**﴾ من البشر ﴿**الغيب**﴾ الذي غاب عن الحواس ﴿**إلا الله**﴾ وحده، وإنما يعلم الأنبياء والأئمة ومن إليهم بعض الغيب بإرادة الله وتعليم الله لهم، كما قال سبحانه (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ❊ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)[1] ولا منافاة بين الأمرين بأن لا يعلم الغيب أحد إلا الله، وأن يعلم غير الله الغيب بدلالة الله، أو يقال: إن المراد بالغيب في الآية مطلق الغيب ـ كما هو مقتضى كون «الغيب» جنساً محلى باللام ـ وهذا لا يعلمه أحد ﴿**وما يشعرون**﴾ هذه المعبودات ﴿**أيّان يبعثون**﴾ أيّ وقت بعثهم، فكيف يمكن أن يكون إلهاً ما لا يعلم الغيب، وما لا يعلم وقت بعثه؟

[٦٧] وبمناسبة الحديث عن عدم شعور المعبودات بالآخرة ووقت بعثها يأتي الكلام حول إنكار الكفار لها، كما ينكرون التوحيد، والرسالة ﴿**بل**﴾ إضراب عن الكلام الماضي الذي كان يدور حول الشرك وتعدد الآلهة إلى كلام مستأنف حول القيامة ﴿**ادّارك**﴾ أصله «تدارك» من باب «التفاعل» أدغمت «التاء» في «الدال» وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، والتدارك هو متابعة الشيء للشيء، يقال: تدارك

---

(١) الجن: ٢٧ و٢٨ .

عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾

القوم أي تلاحقوا وجاء بعضهم إثر بعض، والمعنى تلاحق ﴿**علمهم**﴾ وتتابع ﴿**في**﴾ باب ﴿**الآخرة**﴾ فانتهى علو حدودها، وقصر عن الوصول إليها يقال هذا ما أدركه علمي أي بلغه ولم يلج فيه فهو منتهى العلم ﴿**بل هم في شك منها**﴾ أي من الآخرة، فكيف يعرفوا موعدها وخصوصياتها؟ ﴿**بل هم منها**﴾ أي من الآخرة ومعرفتها ﴿**عمون**﴾ جمع عمى، وهو أعمى القلب لتركه التدبر والنظر، وهذه مراتب ثلاث متدرجة في الشدة، فالأولى أن لا يعلمها إطلاقاً، والثانية أن يشك فيها، والثالثة أن يكون أعمى عنها حتى لا يكون قابلاً لتعلمها، وحيث إن كل مرتبة أشد من سابقتها صحت الرتبة والإضراب ـ وهذا هو الذي نستظهره من الآية، والله العالم ـ.

[٦٨] ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ بالله واليوم الآخر ﴿**أإذا كنا تراباً**﴾ بأن متنا وتحولنا إلى التراب ﴿**وآباؤنا**﴾ كانوا تراباً ﴿**أئنا لمخرجون**﴾ من القبور للبعث والحساب؟ قالوا ذلك على وجه التعجب والإنكار، لأنهم أنكروا أن يتحول التراب إنساناً كما كان.

[٦٩] ﴿**لقد وعدنا هذا**﴾ أي البعث ﴿**نحن وآباؤنا من قبل**﴾ فيما مضى على لسانك ولسان الأنبياء، ولم يظهر أثر لذلك ﴿**إن هذا**﴾ أي ما هذا الوعد والإخبار بالبعث ﴿**إلا أساطير الأولين**﴾ أي إخباراتهم الخالية

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم

عن الصحة، جمع أسطورة، وهي القصة الخيالية.

[٧٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المكذبين، إن تماديتم في تكذيبكم وإنكاركم أصابكم مثل ما أصاب المكذبون السابقون و ﴿**سيروا في الأرض**﴾ حتى تصلوا إلى بلاد الأقوام الذين أهلكوا بتكذيبهم الأنبياء ﴿**فانظروا**﴾ بأعينكم ﴿**كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ الذين أجرموا وعصوا، فإنكم ستشاهدون آثارهم الدارسة وبلادهم الخربة ولا ترون من نسلهم أحداً.

[٧١] ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ يا رسول الله كيف أنهم يعصون حتى تكون النار مصيرهم ﴿**ولا تكن في ضيق**﴾ نفسي ﴿**مما يمكرون**﴾ أي يدبرون في أمرك، لإبطال دينك وقتلك، فإن مكرهم سيرد إلى نحورهم، والحزن على المعاند مما لا ينبغي.

[٧٢] ﴿**ويقولون**﴾ أي هؤلاء الكفار المنكرون للبعث ﴿**متى هذا الوعد**﴾ أي في أي زمان يكون العذاب أو بعث الأموات؟ ﴿**إن كنتم**﴾ أيها المؤمنون القائلون به ﴿**صادقين**﴾ بأنه يكون.

[٧٣] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**عسى**﴾ أي لعل ﴿**أن يكون**﴾ هذا الوعد بالبعث أو العذاب ﴿**ردف لكم**﴾ أي وراءكم رديفاً لكم يلحقكم عن قريب، من الرديف الذي هو الإنسان الراكب على دابة ردف الآخر وخلفه

بَعۡضُ ٱلَّذِى تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

﴿**بعض الذي تستعجلون**﴾ من العذاب والبعث.

[٧٤] ﴿**وإن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**لذو فضل على الناس**﴾ ومن فضله أنه يؤخّر عذاب هؤلاء، لعلهم يرجعون ويندمون فلا يلاقوا العذاب والمهانة ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ أي أكثر الناس ﴿**لا يشكرون**﴾ نعمه وفضله.

[٧٥] ﴿**وإن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**ليعلم ما تكنّ صدورهم**﴾ أي ما تخفيه صدورهم من الكفر والمكر والرذيلة ﴿**وما يعلنون**﴾ من أنواع الشرك والمعاصي، ومع ذلك يتفضل عليهم ويمهلهم.

[٧٦] وليس علمه سبحانه خاصاً بما يفعله هؤلاء من الأسرار والإعلان بل ﴿**وما من غائبة**﴾ أي خصلة، أو عين غائبة عن الحواس ﴿**في السماء والأرض إلا في كتاب مبين**﴾ أي كتاب ظاهر لدينا، فإنّا نعلم كل شيء غاب عن الحواس.

[٧٧] ثم عطف السياق ـ بعد الألوهية والمعاد ـ إلى ذكر القرآن فقال سبحانه ﴿**إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل**﴾ وتخصيصهم بالذكر هنا، لأن هذه السورة تعرضت إلى ذكر جملة من قصصهم كقصة سليمان

أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٩﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ

وموسى وداود عليهما السلام ومعنى القصة نقل الخبر ﴿**أكثر الذي هم فيه يختلفون**﴾ من القصص والأحكام، فقد حُرفت كتبهم ولذا اختلفوا في القصص، والقرآن يبين الحق الواقع، ولذا ورد في وصفه قوله (وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ)[1].

[٧٨] ﴿**وإنه**﴾ أي القرآن ﴿**لهدىً**﴾ هداية ترشد الطريق الذي يوجب سعادة الإنسان في دنياه وعقباه ﴿**ورحمة**﴾ أي سبباً لتفضل الله على البشر ورحمته بهم ﴿**للمؤمنين**﴾ وإنما خصتهم، لأنهم هم المنتفعون به الفائزون بجزاء عمله على طبقه.

[٧٩] ﴿**إن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**يقضي بينهم**﴾ أي بين المختلفين من بني إسرائيل في قصص الأنبياء عليهم السلام وجهات المبدأ ومزايا المعاد ﴿**بحكمه**﴾ أي على طبق حكمه الواقعي، لا على ما في كتبهم المحرفة، والمراد القضاء بينهم يوم القيامة ليجزي كلاً حسب ما عمل، كما يقول الحاكم: سأفصل بينكم، يريد الفصل مع الجزاء ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب على أمره فيفعل ما يشاء ﴿**العليم**﴾ بما فعل كل أحد، فيكون الجزاء طبق العمل بلا زيادة أو نقصان.

[٨٠] وإذ كان الله سبحانه عزيزاً عليماً ﴿**فتوكل**﴾ يا رسول الله ﴿**على الله**﴾ وفوض أمورك إليه، فإنه غالب عالم ﴿**إنك على الحق**

---

(١) المائدة: ٤٩ .

ٱلْمُبِينِ ﴿٨٠﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾

المبين﴾ أي الواضح، إنك على الحق، وتحت سيطرة إله غالب فلا يتمكن أحد من السوء بك، عالم فيجازيك بما لقيت من الأتعاب في سبيل التبليغ.

[٨١] أما هؤلاء الذين يعاندون، فلا تغتم لهم، ولا يلقون اليأس في نفسك، فإنهم كالأموات وكالأصم **﴿إنك لا تسمع الموتى﴾** أي سماعاً نافعاً، فإن الميت لا يتحرك ولا يتجه حسب ما وجهه الإنسان وهؤلاء المعاندون كالأموات في عدم تأثير الكلام فيهم و«موتى» جمع ميت **﴿ولا تسمع الصم﴾** جمع «أصم» وهو الفاقد لحاسة السمع **﴿الدعاء﴾** أي الدعوة والكلام الذي تناديه به **﴿إذا ولّوا﴾** أي أعرضوا عنك **﴿مدبرين﴾** أي بحيث كان دبرهم نحو الإنسان، وهذا للمبالغة في عدم السماع، فإنه لا مطمع في إفهام الأصم المدبر، وإن كان كل أصم لايسمع الكلام وإنما لو كان وجهه مقابلاً أمكن إفهامه وإلاّ لم يمكن.

[٨٢] **﴿وما أنت﴾** يا رسول الله **﴿بهادي العمي﴾** أي لا يمكنك يا رسول الله أن تهدي الأعمى من هؤلاء والمراد المعاند الأعمى القلب، شُبّه بالأعمى بصراً الذي لا يهتدي إلى الطريق، إذ درك المعارف يتوقف على بصر القلب، كما أن درك الطريق يتوقف على بصر العين **﴿عن ضلالتهم﴾** بأن تصرفهم عن ضلالتهم وانحرافهم إلى طريق الرشاد، **﴿إن تسمع﴾** أي ما تسمع سماعاً مفيداً **﴿إلاّ من يؤمن بآياتنا﴾** أي ليس معانداً إذا سمع الحق قلبه **﴿فهم مسلمون﴾** أي يسلمون أنفسهم لله

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٣﴾

والدين وينقادون لأوامرك.

[٨٣] ومن علامات الساعة التي كان الكفار يكذبون بها إن الله سبحانه يظهر للناس «دابة» أي حيواناً مهولاً يكلم الناس بلسان يفهمونه ولعل هذا من أهوال الساعة ﴿**وإذا وقع القول عليهم**﴾ أي وجب العذاب لهم، وثبت وقت ما قلنا من أنهم يعذبون ﴿**أخرجنا لهم دابة من الأرض**﴾، وهل المراد بالإخراج أنها تخرج من الأرض كما يخرج النبات منها، أو المراد به ظهورها؟ ولفظة «من الأرض» في مقابل من السماء، وقد ورد في بعض الروايات، إن المراد بدابة الأرض حيوان مدهش[١]، كما ورد في روايات أخرى إن المراد بها الإمام المرتضى عليه السلام[٢] ـ والدابة تطلق على كل ما يدب على وجه الأرض ـ كما أن خروج الدابة في بعض الروايات من أشراط الساعة، وفي بعضها من علائم ظهور المهدي عليه السلام[٣] ولا منافات بين الأمرين، في الموضعين، لتعدد الدابة وكون كل واحدة مصداقاً، ولكون ظهور المهدي «عجل الله فرجه الشريف» أيضاً من أشراط الساعة، بل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أيضاً، من علائم الساعة ﴿**تكلمهم**﴾ أي تتكلم تلك الدابة مع الناس، ومن كلامها معهم ﴿**أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾ أي بأدلتنا الدالة على وجودنا وسائر شؤوننا، وقد لاءمت هذه الآية جو السورة التي تعالج العقيدة، كما لاءمت مع تكلم الحيوانات والجن مع البشر، في قصة الهدهد،

(١) راجع بحار الأنوار: ج٦ ص٣٠٠ .

(٢) تأويل الآيات: ص٣٩٩ .

(٣) راجع تأويل الآيات: ص٤٠٠ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم

والنملة، وعفريت الجن، وها هنا دابة تتكلم.

[٨٤] ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله لهؤلاء ﴿**يوم نحشر**﴾ أي نجمع ﴿**من كل أمة فوجاً ممّن يكذب بآياتنا**﴾، وإذ تقدم بعض علائم القيامة من خروج دابة الأرض، جاء السياق ليتم مشهد القيامة، وجاء ذكر المكذبين فقط لأنهم محل الكلام ومحور البحث في تكذيب المعاد، فلننظر ماذا يكون مصيرهم؟ وقوله «ممن» بيان «فوجاً» أي نجمع من كل أمة فوجاً هم من الذين يكذبون بالآيات ﴿**فهم يوزعون**﴾ أي يحبسون، حتى يجتمعوا جميعاً من «وزع» بمعنى «حبس» فإن أول الفوج يحبسون لآخر الفوج، حتى يجتمع الجميع.

[٨٥] ﴿**حتى إذا جاءوا**﴾ إلى موقف الحساب ﴿**قال**﴾ الله تعالى لهم ﴿**أكذّبتم بآياتي و**﴾ الحال أنكم ﴿**لم تحيطوا بها علماً**﴾؟ أي كيف كذبتم وليس لكم علم بكذبها؟ وحيث إن المقام مقام أن يكذب الكفار قائلين لم نكذب بها، يأتي السياق ليقول لهم ثانياً ـ ساداً عليهم طريق الإنكار ـ ﴿**أم ماذا كنتم تعملون**﴾؟ إن لم تكونوا كذبتم بالآيات فماذا كان عملكم؟ لكنهم لا يقدرون أن يقولوا كنا نعمل صالحاً، وبهذا ينقطعوا عن الجواب، ولا يتمكنون من الإنكار.

[٨٦] ﴿**ووقع القول**﴾ أي ثبت القول الذي قلنا: إنهم يعذبون جزاء كفرهم ﴿**عليهم**﴾ فالعذاب يأخذهم بعد ذلك الحوار

بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي

﴿**بما ظلموا**﴾ أي بسبب ظلمهم ﴿**فهم لا ينطقون**﴾ في هذا الموقف، وإن نطقوا في المواقف الأخر، وفي جملة من الأحاديث تفسير «يوم نحشر» ـ إلى آخره ـ بزمان ظهور المهدي عليه السلام، وذلك من باب المصداق، فإن اللفظ عام مستعمل في الأمرين، القيامة، وظهور الإمام عليه السلام وإن لم نقل بالعموم والمصداق، نقول إنه من باب البطن، أو من باب استعمال اللفظ في أكثر من معنى وذلك جائز لدى وجود القرينة، والقرينة هي الروايات المفسرة.

[٨٧] ﴿**ألم يروا**﴾ هؤلاء المنكرون للمبدأ والمعاد، آياتنا الدالة على وجودنا، والتي تدل على إله عليم حكيم، وتدل على القدرة الكاملة، التي لا يمتنع لديها إحياء الأموات؟ ﴿**أنا جعلنا الليل**﴾ أي أوجدناه ﴿**ليسكنوا فيه**﴾ عن الحركة والتعب ﴿**و**﴾ جعلنا ﴿**النهار مبصراً**﴾ أي موجباً لبصر الإنسان، وهو من المجاز بنسبة ما للحال إلى الزمان، نحو «يا سارق الليلة»، كما أن جري النهر، من نسبة ما للحال إلى المكان ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي ذكر ﴿**لآيات**﴾ دلالات ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ فإنهم يستدلون منها على وجود الله العليم القدير، والاختصاص بهم لأنهم هم الذي يستدلون، أما غيرهم، فإنهم معرضون غافلون.

[٨٨] ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ هو البوق الذي يشبه قرن الحيوان ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام لإحياء الأموات ﴿**ففزع من في**

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا

السماوات ومن في الأرض﴾ أي خافوا جميعاً من هول قيام الساعة **﴿إلا من شاء الله﴾** أن لا يفزع وهم بعض الأنبياء وبعض الملائكة **﴿وكلٌّ﴾** من الأموات الذين أحيوا من النفخ **﴿أتوه﴾** أي يأتون المحشر، أو يأتون الله سبحانه ـ والمراد من إتيان الله الإتيان إلى الموضع المعد لهم، نحو إني ذاهب إلى ربي ـ **﴿داخرين﴾** أي أذلاء صاغرين، من دخر بمعنى ذل.

[٨٩] **﴿وترى الجبال﴾** أيها الرائي، في ذلك اليوم، في حال كونك **﴿تحسبها﴾** وتظنها **﴿جامدة﴾** في مكانها، كالسابق، واقفة غير متحركة، والحال أنها **﴿وهي تمر﴾** وتسير **﴿مر السحاب﴾** أي مثل مرور السحاب سيراً حثيثاً سريعاً، وقد صار الكل كالقطن المندوف، إن قلع الجبال وتسييرها إنما هو **﴿صنع الله﴾** منصوب على المصدر أي صنع الله ذلك صنعاً **﴿الذي أتقن كل شيء﴾** فأتقن أهوال المعاد بقلع الجبال وتسييرها، كما أحيى الأموات وجعلهم هائمين يسيرون في فزع وخوف **﴿إنه خبير﴾** أي عالم **﴿بما تفعلون﴾** فيجازيكم عليها.

[٩٠] **﴿من جاء بالحسنة﴾** المراد بها الجنس وهو الإيمان والعمل الصالح، نحو «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فإن المراد بهما الجنس أيضاً **﴿فله خير منها﴾** أي يضاعف ثوابها عشرة أضعاف أو أكثر

وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٩٠﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ

﴿**وهم**﴾ أي الذين جاءوا بالحسنة ﴿**من فزع**﴾ وخوف ﴿**يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**آمنون**﴾ فلا يفزع المؤمن حيث يفزع الناس.

[٩١] ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ والمراد السيئة الكاملة التي لا حسنة معها، وهي الكفر والمعاصي، حتى صحّ أن يقال: إنه جاء بالسيئة ﴿**فكبّت**﴾ الكب هو الإلقاء منكوساً ﴿**وجوههم في النار**﴾ أي ألقوا على وجوههم في النار، ويقال لهم ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾؟ استفهام في معنى النفي، أي ليس هذا إلا جزاء أعمالكم من الكفر والعصيان.

[٩٢] قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار بعد تهديدهم بالعذاب ﴿**إنما أمرت**﴾ أنا بأمر الله سبحانه ﴿**أن أعبد رب هذه البلدة**﴾ أي رب مكة، لا الأصنام التي نحتّموها بأيديكم ﴿**الذي حرمها**﴾ أي الله الذي حرم هذه البلدة بأن جعلها محترمة لا يحل فيها القتال، أو الدخول بدون الإحرام، أو الإتيان ببعض الأعمال كتنفير الصيد وقلع الشجر ونحوهما ﴿**وله**﴾ أي لله ﴿**كل شيء**﴾ بيده ﴿**وأمرت**﴾ من قبله سبحانه ﴿**أن أكون من المسلمين**﴾ وهذا لا يدل على عدم كونه ﷺ مسلماً فيما قبل، إذ الأمر قد يكون للابتداء، وقد يكون للاستدامة نحو: «اهدنا الصراط المستقيم».

[٩٣] ﴿**و**﴾ أمرت ﴿**أن أتلو القرآن**﴾ أقرأه على مسامعكم وأدعوكم لما فيه

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿**فمن اهتدى**﴾ إلى الحق وعمل بما فيه ﴿**فإنما يهتدي لنفسه**﴾ فإن فائدة هدايته تعود إلى نفسه حيث تسعد في الدنيا والآخرة ﴿**ومن ضل**﴾ عن القرآن وانحرف عن أحكامه وأوامره ﴿**فقل**﴾ له يا رسول الله إن ضلالك لا يعود إليّ فـ ﴿**إنما أنا من المنذرين**﴾ الذين يخُوّفون من عذاب الله، وقد خوفتك، فعدم عملك إنما يعود سيئه عليك.

[٩٤] ﴿**وقل**﴾ يا رسول الله ﴿**الحمد لله**﴾ الذي هداني وجعلني منذراً ﴿**سيريكم**﴾ أيها الناس ﴿**آياته**﴾ بإلفاتكم إليها، أو إيجادها لترونها ﴿**فتعرفونها**﴾ بأنها آيات الله والأدلة على وجوده وسائر شؤونه ﴿**وما ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**بغافل عما تعملون**﴾ أيها الناس، وفي هذا التفات من المخاطب إلى غيره من سائر الناس لأن «كاف» تعود إلى الرسول و«تعملون» إلى الناس.



سورة القصص

مكيّة/آياتها (٨٩)

سميت السورة بهذا لإسم لاشتمالها على قصص موسى عليه السلام مع فرعون، وشعيب عليه السلام وقارون وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة ولما ختمت سورة النمل بتلاوة الرسول للقرآن، جاءت هذه السورة مفتتحة بتلاوة بعض قصص القرآن، وهي قصة موسى وفرعون.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله الذي يستعان به في كل حاجة، وهو الرحمن المتفضل بالرحم، الرحيم الذي يرحم العباد، بل كل شيء، كما قال سبحانه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)(١) فإن الرحم هو التفضل، وقد تفضل سبحانه على الأشياء حيث خلقها من غير استحقاق وإن كان فضله على الإنسان أكثر حيث إنه كلما زيدت النعم زيد الفضل.

---

(١) الأعراف: ١٥٧ .

﴿طسٓمٓ ۝٢ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٣ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٤ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ

[٢] ﴿**طسم**﴾ «طاء» و «سين» و «ميم».

[٣] ﴿**تلك**﴾ أي من هذه الحروف الهجائية التي تركبون منها كلماتكم أيها العرب العاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ﴿**آيات الكتاب المبين**﴾ أي الظاهر الواضح الذي لا غموض فيه، فإن الكتاب قد يكون سرياً، غير واضح، وقد يكون غامضاً غير ظاهر المعنى والمراد، وقد يكون غير معلوم الانتساب، وكل ذلك مفقود في القرآن الحكيم، وفي مقطعات السور، وإعرابها أقوال أخر تقدم بعضها.

[٤] ﴿**نتلو**﴾ أي نقرأ ﴿**عليك**﴾ يا رسول الله ﴿**من نبأ**﴾ أي خبر﴿**موسى وفرعون**﴾ أي بعض أطراف خبرهما، ولذا دخلت «من» ﴿**بالحق**﴾ أي بالصدق، فإن خبر الله سبحانه عنهما حق لا كذب فيه ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ أي أن ما نتلو عليك إنما هو لقوم مؤمنين أما غيرهم فلا يعتبرون بالقرآن، ولا يصدقون ما فيه من القصص والأحكام.

[٥] ﴿**إن فرعون علا**﴾ أي ترفع وتكبر ﴿**في الأرض**﴾ والمراد بها أرض مصر ﴿**وجعل أهلها**﴾ أهل أرض مصر ﴿**شيعا**﴾ أي طوائف، جمع شيعة، وهي الطائفة التي تتبع مسلكاً خاصاً، من شايعه إذا تابعه، وهذا دأب الطغاة دائماً، إذ لو لم يجعلوا الناس طوائف متناحرة، حتى يشتغل بعضهم ببعض، خافوا من أن يتحدوا ضدهم في حال كونه ﴿**يستضعف**

طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٥﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٦﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

طائفة منهم﴾ والمراد بهم بني إسرائيل، فقد كان بعضهم ضعيفاً في مصر، ولذا يؤذيهم ويسخرهم في الأعمال الشاقة، ويفعل بهم ما ذكره سبحانه ﴿**يذبح أبناءهم**﴾ إنما جيء من باب التفعيل للدلالة على التكثير، فإن هذا الباب يدل على ذلك، فإن فرعون كان يكثر القتل في أبناء إسرائيل، حينما سمع بأن زوال ملكه على يد رجل منهم يولد في ملكه، فقد وكّل بكل حامل إسرائيلية قابلة حتى إذا ولدت أخبرت الجلادين فيأتون ويقتلون الولد ﴿**ويستحيي نساءهم**﴾ أي يبقيهن أحياء، كأنه يطلب حياتهن لاستخدامهن في البيوت ﴿**إنه**﴾ أي فرعون ﴿**كان من المفسدين**﴾ الذين يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي والظلم.

[٦] إن فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفنائهم ﴿**ونريد**﴾ نحن بعكس ذلك، وجيء بفعل المضارع لأنه حكاية عن ذلك الوقت ﴿**أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض**﴾ أي نمن على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون ﴿**ونجعلهم أئمة**﴾ في الحق، بأن يكونوا مقتدى الناس وملوكهم ﴿**ونجعلهم الوارثين**﴾ لفرعون بأن يرثوا الأرض، ويكونوا خلفاً لهم.

[٧] ﴿**ونمكن لهم في الأرض**﴾ أي نجعل بني إسرائيل قادرين على أن

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٧﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ

يتصرفوا في أرضي كيفما شاءوا ﴿**ونري فرعون وهامان**﴾ وزيره ﴿**وجنودهما**﴾ من سائر الذين تعاونوا معهما على إيذاء بني إسرائيل ﴿**منهم ما كانوا يحذرون**﴾ أي من طرف بني إسرائيل وعلى أيديهم، ما كانوا يخافون من الإفناء والإبادة، وقد أصدق الله وعده فأهلك فرعون وهامان وجنودهما، وجعل بني إسرائيل ملوك الدنيا وسادتها، وبعث فيهم الأنبياء.

وقد ورد في جملة من الأحاديث تطبيق الآيتين الكريمتين على الشيعة والأئمة عليهم السلام، وأعدائهم[1]، وهذا مما لا مجال للشك فيه، فإن آيات القرآن الحكيم دائماً مدى الدهر، تجري في اللاحقين كما جرت في السابقين، كما دل على ذلك العقل، وورد به روايات كثيرة.

[٨] ثم بين سبحانه كيف نصر بني إسرائيل وكيف أهلك فرعون وجنوده ﴿**وأوحينا إلى أم موسى**﴾ والإيحاء هو الإلقاء في القلب، ونحوه قوله سبحانه (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً)[2] وقوله (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)[3] ﴿**أن أرضعيه**﴾ أي أعطيه اللبن في الفترة التي لم تخافي على موسى ﴿**فإذا خفت عليه**﴾ من القتل، وفي بعض التفاسير، المراد بذلك أن ذلك إذا أظهر الصوت ﴿**فألقيه في اليم**﴾ أي اطرحيه في البحر، بجعله في

(١) مشكات الأنوار: ص٩٥ فصل٥.
(٢) المائدة: ٣٢.
(٣) النحل: ٦٩.

وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٩﴾

صندوق وإلقائه فيه ﴿**ولا تخافي**﴾ عليه الغرق والهلاك ﴿**ولا تحزني**﴾ لمفارقته ﴿**إنّا رادوه**﴾ أي نرد موسى ﴿**إليك وجاعلوه**﴾ أي نجعله فيما بعد ﴿**من المرسلين**﴾ قال في المجمع: وفي هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، وحكي إن بعضهم سمع بدرية تنشد أبياتاً فقال لها ما أفصحك؟ فقالت الفصاحة لله تعالى وذكرت هذه الآية وما فيها[1].

[٩] فولدت أم موسى بموسى عليه السلام، وجعلته في صندوق وألقته في البحر، وقالت لأخت موسى اذهبي في أثره حتى ترين ماذا يصنع به، وجاء الصندوق تحمله الأمواج حتى ألقته في شط يمر بدار فرعون، ﴿**فالتقطه**﴾ أي أخذه ﴿**آل فرعون**﴾ أي حاشيته ﴿**ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ هذه «اللام» تسمى لام العاقبة، لأنها بمعنى «كي تكون العاقبة» وليست للعلة، نحو قوله «للقتل ما ولدوا للنهب ما جمعوا» أي كانت عاقبة الالتقاط أن يكون موسى لهم عدواً، وموجباً للحزن، لما كان الكلام موهماً تعدي موسى عليهم، قال سبحانه ﴿**إن فرعون وهامان وجنودهما**﴾ الذين تصافقوا على إذلال بني إسرائيل ﴿**كانوا خاطئين**﴾ قد أخطأوا حيث اختاروا الكفر والعصيان، على الإطاعة والإيمان، ولهذه الخطأ صار موسى عدواً لهم، وأهلكهم الله سبحانه

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٤١٦ .

وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ

[١٠] ولما جيء بموسى من الصندوق إلى فرعون وكان جالساً مع زوجته «آسية» أمر بفتح الصندوق، وإذ ما رأيا فيه غلاماً ألقى الله محبته في قلبهما، كما قال سبحانه (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي)(١) ثم أراد فرعون قتله لأنه علم أنه إسرائيلي، ولكن «آسية» حالت دون ذلك ﴿**وقالت امرأة فرعون**﴾ أيها الملك إنه ﴿**قرة عين لي ولك**﴾ أي يوجب هذا الولد قرار عيوننا، فإن الإنسان المسرور تقر عينه في مكانها، فلا تطير هنا وهناك طالبة المفزع والملجأ، بخلاف الإنسان الواله والخائف، ولم يكن لهما ولد ولذا طمعت في أن يكون موسى كالولد لهما. ﴿**لا تقتلوه عسى أن ينفعنا**﴾ أي لعله ينفعنا في المستقبل، بأن نستخدمه ﴿**أو نتخذه ولداً**﴾ أي نجعله بمنزلة ولدنا ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ إن هلاكهم على يده، وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنه لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها.

[١١] فلنرجع إلى أم موسى كيف صنعت بعد ما ألقت طفلها في البحر ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً**﴾ أي خالياً من الاتزان كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه، لما دهمتهما من المصيبة والغم بفقد ولدها، كيف ألقت به في اليم؟ وكيف صنعت به هذا الصنع العجيب؟ وهل الولد في حضن الأم يخشى عليه، أما في اليم فلا يخشى عليه؟ ﴿**إن كادت**

---

(١) طه: ٤٠.

لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

لتبدي به﴾ و«إن» مخففة، واسمها محذوف، أي أنها ـ والمراد أم موسى ـ كادت وقربت أن تظهر للمجتمع قصة ابنها، كما هو شأن النساء، إذا فجعن بفقد عزيز ينقلن الأمر للناس، ليجدن من يساعدهن في الغم والمصيبة **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** بأن حفظناه حتى لايظهر ما فيه من الهم والألم، ولاتنتقل القصة إلى اللسان لتذيعه في الناس، وقد شبه قلبها بشيء لا يستقر، فإذا ربط عليه برباط، استقر ولم يتحرك **﴿لتكون من المؤمنين﴾** فإن إخبارها كان خلاف تصديقها بوعد الله «إنا رادوه إليك» فربطنا على قلبها، لتكون من المصدقين بوعدنا، فإن ربط القلب بالثبات والصبر كان سبباً لإيمانها، وإلا فلو اضطرب قلبها وأبدى ما فيه لم تكون مصدقة بالوعد.

[١٢] **﴿وقالت﴾** الأم **﴿لأخته﴾** أي أخت موسى، وكانت صغيرة **﴿قصيه﴾** أي اتبعي أثر موسى لنرى ماذا يصنع به البحر؟ من قص إذا اتبع الأثر، ومنه سميت القصة قصةً، لأنها تتبع المقصوص عنهم، وجاءت الأخت حتى دخلت دار فرعون، وكان كبلاط الملوك في السابق يدخل فيها كل أحد **﴿فبصرت﴾** الأخت **﴿به﴾** أي بموسى **﴿عن جنب﴾** أي عن بعد، فإنها لم تدن، لئلا تُعرف **﴿وهم﴾** أي فرعون وأهله **﴿لا يشعرون﴾** بأنها أخت موسى، وجاءت لاستقاء الأخبار.

[١٣] ولما كان موسى طفلاً، لم يصبر عن الثدي، وأخذ يطلب اللبن، فأمر فرعون بأن تؤجر له مرضعة، وجاءت النساء لتحوز هذا الفخر ولكن

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ ﴿١٣﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

موسى أبى أن يقبل ثدي امرأة إطلاقاً ﴿**وحرمنا عليه المراضع**﴾ جمع مرضعة، أي منعنا موسى عن الارتضاع من ثديهن، فلم يكن يميل إليهن، بل تأبى نفسه من الارتضاع منهن ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل أن يؤتى بهن، وذلك بجعل نفسه أبيّة عنها.

﴿**فقالت**﴾ الأخت وكانت تشاهد القصة ﴿**هل أدلكم**﴾ أرشدكم ﴿**على أهل بيت**﴾ عائلة ﴿**يكفلونه لكم**﴾ يقبلون أن يرضعوا موسى ويقوموا بخدماته لأجلكم ﴿**وهم له ناصحون**﴾ أي تلك العائلة ناصحة لموسى لاتدّخر جهداً في القيام بخدماته؟

[١٤] وقد قبل فرعون ذلك وذهبت الأخت إلى الأم وحكت لها القصة وجاءت الأم إلى بيت فرعون ولما أرضعت موسى قبل موسى الثدي بكل إصرار وشوق وسر فرعون وأهله بقبول موسى ﴿**فرددناه**﴾ أي أرجعنا موسى ﴿**إلى أمه**﴾ حسب ما وعدناها «إنا رادوه إليك» ﴿**كي تقر عينها**﴾ أي لأجل أن تسر وتفرح فتقر عينها عن الحركة والاضطراب ـ كما تقدم ـ ﴿**ولا تحزن**﴾ عليه في مقابل ما سبق منها حيث قال سبحانه «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» ﴿**ولتعلم أن وعد الله حق**﴾ فقد وفى سبحانه بوعده حيث أرجع إليها ابنها ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ أي أكثر الناس ﴿**لا يعلمون**﴾ أن وعد الله حق، ويظنون أن مواعيده تُخلف، وليس

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ

هكذا، فإن الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

[١٥] وكبر موسى عليه السلام في بيت فرعون يختلف إلى أمه فتفرح به ﴿**ولما بلغ أشده**﴾ وقد ورد عن الصادق عليه السلام: إن المراد بلوغه ثمانية عشر سنة[١] ﴿**واستوى**﴾ أي اعتدل قوامه ﴿**آتيناه**﴾ أي أعطيناه ﴿**حكماً**﴾ بأن يحكم الناس، فإن منصب الحكم خاص بالله سبحانه لا يجوز لأحد أن يستقل به إلا بإذنه سبحانه ﴿**وعلماً**﴾ أي علمناه علم الأشياء مما يليق بمقام النبوة ﴿**وكذلك**﴾ أي وكما جازينا موسى لصلاحه بهذا المنصب الخطير كذلك ﴿**نجزي المحسنين**﴾ الذين يحسنون في عقيدتهم وعملهم، بإعطائهم أجورهم.

[١٦] ﴿**ودخل المدينة**﴾ أي مدينة من مدائن مصر ﴿**على حين غفلة من أهلها**﴾ أي في وقت غفلة الناس عن تتبع الأمور وقد ورد أنه كان بين المغرب والعشاء، فإن في هذه الساعة حيث يسدل الظلام ستاره والناس من حال إلى حال يكونون غافلين، غير ملتفتين إلى ما يقع ﴿**فوجد**﴾ موسى عليه السلام ﴿**فيها**﴾ أي في تلك المدينة ﴿**رجلين يقتتلان**﴾ أي يختصمان، ولعل المراد القسم الخاص من الاختصام، وهو ما يؤدي إلى القتل ﴿**هذا**﴾ أي أحدهما ﴿**من شيعته**﴾ شيعة موسى، وقد كان إسرائيلياً ﴿**وهذا من عدوه**﴾ أي من جملة أعدائه ـ والمراد بالعدو

---

(١) بحار الأنوار: ج١٢ ص٢٨٤ .

فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ

الجنس ـ فإنه كان قبطياً ﴿**فاستغاثه**﴾ أي استغاث واستجار بموسى ﴿**الذي من شيعته**﴾ وهو الإسرائيلي ﴿**على الذي من عدوه**﴾ بأن ينصره عليه ويُعينه ﴿**فوكزه موسى**﴾ أي دفع القبطي بالوكز وهو اللكم، بجمع الكف ﴿**فقضى**﴾ موسى ﴿**عليه**﴾ أي أهلكه وأماته، ثم ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام غاضباً على القبطي المقتول ﴿**هذا**﴾ الاختصام منه للإسرائيلي ﴿**من عمل الشيطان**﴾ فإنه هو الذي أمره بالاختصام فيما لم يكن له الحق، حتى يؤدي به إلى هذه الحالة ﴿**إنه**﴾ أي الشيطان ﴿**عدو**﴾ للإنسان ﴿**مضل مبين**﴾ واضح العداء والإضلال، وقد أضل القبطي حتى سبب له القتل.

[١٧] ولما قتل القبطي خاف من مكر فرعون وأن يقتص منه، ولذا تضرع إلى الله سبحانه في أن يستر له هذا الامر حتى لا يؤخذ به عند فرعون ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام، مناجياً، يا ﴿**رب إني ظلمت نفسي**﴾ والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه يسمى التعدي ظلماً، إذ هو أن يعمل الإنسان ما لا ينبغي، والمعنى إني وضعت نفسي في غير موضعها حيث جئت إلى هذه المدينة التي سببت لي هذه المشكلة ﴿**فاغفر لي**﴾ الغفران هو الستر، ومنه تسمى المغفرة مغفرة لأنها تستر الذنب، والمعنى فاسترني من كيد فرعون ﴿**فغفر**﴾ الله ﴿**له**﴾ بأن ستره عن كيد فرعون، وإن اطلع عليه، لكنه لم يتمكن أن يقتص منه ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**هو**

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

الغفور الساتر كثيراً **﴿الرحيم﴾** الذي يرحم الناس ويتفضل عليهم.

[١٨] وهناك شكى موسى ربه و**﴿قال﴾** يا **﴿رب بما أنعمت علي﴾** أي بما تفضلت علي من القوة حتى تمكنت من قتل بعض أعدائك **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** وناصراً **﴿للمجرمين﴾** وإنما سمي الناصر ظهيراً لأنه يأخذ ظهره في مقابل الأعداء والمعنى أني أشكر نعمة قوتك لي بأن لا أصرفها في مناصرة المجرمين.

[١٩] وشاع قتل موسى للقبطي **﴿فأصبح﴾** موسى **﴿في المدينة﴾** التي قتل فيها القبطي **﴿خائفاً﴾** من كيد فرعون **﴿يترقب﴾** أي ينتظر الأخبار حتى يعرف إلى أي مدى أثر هذا القتل، وماذا يفعله القوم من عقاب موسى، ومرّ على مكان في المدينة **﴿فإذا﴾** به يرى **﴿الذي استنصره﴾** أي الاسرائيلي الذي طلب نصرة موسى **﴿بالأمس﴾** في حين كان يختصم مع القبطي **﴿يستصرخه﴾** أي يطلب من موسى أن ينصره على قبطي آخر تخاصم معه، والمعنى أن الاسرئيلي يختصم مع شخص آخر ويطلب من موسى أن ينصره على عدوه كما نصره بالأمس على ذلك القبطي المقتول **﴿قال له﴾** أي للاسرائيلي **﴿موسى﴾** عليه السلام محذراً له عن المخاصمة مع القبط الذين هم من الكثرة بمكان **﴿إنك﴾** أيها الاسرئيلي **﴿لغوي﴾** أي ظاهر الغواية والخسران إذ من يقاتل كل يوم قبطياً في حكومتهم يخسر - بالآخرة - ويقع في كيدهم، والغواية كما تطلق على العاصي لأنه خسر الآخرة، كذلك تطلق على من يأتي بما

مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ

لا يحمد عقباه، لأنه يخسر الدنيا ﴿**مبين**﴾ أي ظاهر الغواية.

[٢٠] واستعد موسى لتلبية الطلب وأن ينصر الاسرائيلي على القبطي ﴿**فلما أن أراد**﴾ موسى عليه السلام ﴿**أن يبطش**﴾ بالضرب ﴿**بالذي هو عدو لهما**﴾ أي بالقبطي الذي هو عدو لموسى وللاسرائيلي، ظن الاسرائيلي أن موسى يريد أن يبطش به، لا بالقبطي، حيث سبق منه أن قال «إنك لغوي» ﴿**قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس**﴾ حيث قتلت ذلك القبطي؟ قاله على نحو الاستفهام الإنكاري، ومن المحتمل إن هذا قول القبطي حيث اشتهر الخبر وعرف أن موسى هو قاتل القبطي ﴿**إن تريد**﴾ أي ما تريد ﴿**إلا أن تكون جباراً**﴾ وهو الظالم، وسمي جباراً، لأنه يجبر الناس على المكروه ﴿**في الارض**﴾ كأن الإتيان بهذا اللفظ هنا لزيادة التشنيع، فليس جباراً في مدينة، أو محل خاص، وإنما جباراً في الأرض ﴿**وما تريد أن تكون**﴾ يا موسى ﴿**من المصلحين**﴾ الذين يصلحون بين الناس، وهذا تأكيد للجملة السابقة، فتلك عقد إيجابي وهذا عقد سلبي.

[٢١] وإذ قد انتشر خبر قتل موسى رجلاً من القبط ائتمر فرعون برجاله وقرروا قتل موسى قصاصاً لما فعل ﴿**وجاء رجل**﴾ قد ورد أنه كان خازن فرعون وكان مؤمناً بموسى يكتم إيمانه تقية ﴿**من أقصى المدينة**﴾

يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٣﴾

أي آخرها ﴿**يسعى**﴾ أي يسرع ليصل إلى موسى لئلاّ يلحقه القبض قبل إعلامه بالواقعة ﴿**قال يا موسى إن الملأ**﴾ أي الأشراف، وهم فرعون وحاشيته ﴿**يأتمرون بك**﴾ أي يتشاورون فيك، ويأمر بعضهم بعضاً ﴿**ليقتلوك**﴾ قصاصاً ﴿**فاخرج**﴾ من هذه المدينة ﴿**إني لك من الناصحين**﴾ وكأن الله سبحانه شاء ذلك لموسى حتى ينضج، فإن الرئيس يحتاج إلى أكبر قدر من النضج حتى يتمكن من إدارة الأمة.

[٢٢] ﴿**فخرج**﴾ موسى عليه السلام ﴿**منها**﴾ من مصر ﴿**خائفاً**﴾ عن أن يلحقه الطلب ﴿**يترقب**﴾ خلفه هل يأتي ورائه أحد أم لا، من المراقبة وهي ملاحظة الأمر لئلا يقع ما يحذره الإنسان ﴿**قال**﴾ ضارعاً إلى الله سبحانه يا ﴿**رب نجني من القوم الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، وهم فرعون وآله.

[٢٣] ﴿**ولما توجه**﴾ موسى عليه السلام ﴿**تلقاء**﴾ أي حذاء ومقابل ﴿**مدين**﴾ أي صرف وجهه نحو «مدين» شعيب وهي مدينة سميت باسم أول من مدّنها وهو «مدين بن إبراهيم» ولم تكن تلك المدينة تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر ثلاثة أيام - كما ورد - ﴿**قال عسى ربي**﴾ أي لعل الله سبحانه ﴿**أن يهديني**﴾ ويرشدني ﴿**سواء السبيل**﴾ أي الطريق المستوي الموصل إلى المقصد، بأن لا أضل حيث المتاهة

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا

والهلاك، وكان هذا دعاءً منه بلفظ الخبر.

[٢٤] وطوي الليل والنهار حتى اقترب من المدينة ﴿**ولما ورد**﴾ وصل موسى عليه السلام ﴿**ماء مدين**﴾ بئر كانت لهم يستقون منها أنعامهم ومواشيهم ﴿**وجد عليه**﴾ أي على الماء ﴿**أمة**﴾ جماعة ﴿**من الناس يسقون**﴾ أنعامهم ومواشيهم، وحذف مفعول السقي لأنه لا حاجة إليه في موضوع الكلام ﴿**ووجد**﴾ موسى عليه السلام ﴿**من دونهم**﴾ أي من خلفهم ﴿**امرأتين تذودان**﴾ ذاد بمعنى منع، أي تمنعان أغنامهما عن الورود على الحوض فقد كرهتا الاشتراك مع الرجال، وأن تختلط مواشيهما بمواشي القوم، فكانتا تنتظران أن يذهب القوم ثم تسقيان الأغنام ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام لهما ﴿**ما خطبكما**﴾ أي ما شأنكما وما العلة في عدم إسقاء أغنامكما مع القوم؟ ﴿**قالتا لا نسقي**﴾ عند المزاحمة مع الرجال ﴿**حتى يصدر**﴾ من أصدر إذا رجعت عن الماء ماشيتهم ﴿**الرعاء**﴾ جمع راع، وهو الذي يرعى الماشية، أي ننتظر حتى يرجع الرعاة مواشيهم، فيبقى فضول الماء في الحوض، فنسقي أغنامنا، ثم اعتذرتا عن إتيانهما وهما امرأتان قائلتين ﴿**وأبونا شيخ كبير**﴾ لا يطيق أن يخرج ويتولى السقي بنفسه، ولذا نحن نقوم مقامه.

[٢٥] ﴿**فسقى**﴾ موسى عليه السلام الغنم ﴿**لهما**﴾ أي لأجلهما، بأن ساق الغنم

ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ

حتى شربت من الحوض، مع مواشي الناس ﴿**ثم تولى**﴾ أي أعرض ورجع ﴿**إلى الظل**﴾ من حر الشمس، وجلس تحته وهو متعب جائع ﴿**فقال**﴾ يا ﴿**رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير**﴾ أي إني فقير محتاج لما تنزله إلي من أقسام الخير، الطعام والمأوى والكنف المطمئن، فقوله، «لما» متعلق بقوله «فقير» و «من خير» للعموم، لأن الإنسان الغريب الفقير الخائف يريد كل شيء ليهنأ ويستريح.

[٢٦] وقد كانت البنتان ترجعان كل يوم بعد مدة، وقد رجعتا اليوم قبل الموعد المقرر، فتعجب أبوهما من ذلك وسأل السبب؟ فأخبرتاه بقصة موسى عليه السلام فقال لأحداهما علي به ﴿**فجاءته**﴾ أي جاءت إلى موسى ﴿**إحداهما**﴾ وفي بعض التفاسير أنها الكبرى ﴿**تمشي على استحياء**﴾ أي مستحية كما هي عادة النساء الخفرات إذا أردن الذهاب إلى رجل أجنبي للتكلم معه أو معاملته أو نحوهما، ولما وصلت إلى موسى ﴿**قالت**﴾ له ﴿**إن أبي**﴾ شعيب ﴿**يدعوك**﴾ أن تأتي إليه ﴿**ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ أي ليعطيك جزاء سقيك لأغنامنا، وذهب موسى معهما ﴿**فلما جاءه**﴾ أي جاء موسى إلى شعيب ﴿**وقص**﴾ موسى عليه السلام ﴿**عليه**﴾ أي على شعيب ﴿**القصص**﴾ التي سبقت له من قتل القبطي وفراره من القوم لما أرادوا قتله وسائر أحواله في مصر ﴿**قال**﴾ شعيب له ﴿**لا تخف**﴾ بعد هذا، فقد ﴿**نجوت**﴾ وتخلصت ﴿**من القوم**

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن

الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، يريد فرعون وآله.

[٢٧] **﴿قالت إحداهما﴾** أي أحدى البنتين، وقد ورد إن اسمهما «صفوراء»[1] **﴿يا أبت﴾** التاء عوض عن الياء، كما قال ابن مالك:

وفي النداء أبت أمت عرض
بعد النداء ومن اليا، التا عوض

﴿استأجره﴾ أي اتخذه أجيراً، ولعلها أرادت إيجاره ليكفي عنهما شأن السقي **﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾** أي أن خير الأجراء الذي يكون قوياً يتمكن من العمل، أميناً لا يخون المستأجر، وهذا تعريض بأن موسى قوي أمين، كقولك: قبّل يد زيد إن خير يد تقبل يد العالم الورع، تريد العريض بأن زيداً عالم ورع، قال الإمام الكاظم عليه السلام: قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفته برفع الصخرة، والأمين من أين عرفتيه؟ قالت: يا أبت إني مشيت قدامه فقال: امشي من خلفي فإن ضللت فأرشديني إلى الطريق فإنا من قوم لا ننظر في أدبار النساء[2].

[٢٨] **﴿قال﴾** شعيب عليه السلام لما عرف موسى **﴿إني أريد أن أنكحك﴾** أي أزوجك **﴿إحدى ابنتي هاتين﴾** اللتين رأيت سوادهما **﴿على أن**

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص٥٨.

(٢) من لايحضره الفقيه: ج٤ ص١٩.

تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَٰلِكَ

تأجرني﴾ أي تكون أجيري، فإن الإجير يؤجر نفسه للمستأجر في مقابل ثمن يأخذه، والثمن هنا كان تزويج البنت، فقد جعل شعيبعليه السلام مهر بنته عمل موسىعليه السلام له **﴿ثماني حجج﴾** جمع حجة، وهي العام أي تعمل لي ثمان سنوات، وثمان حجج ظرف زمان، أي تكون إجيري في هذه المدة **﴿فإن أتممت عشراً﴾** بأن عملت لي عشر سنوات، مقابل تزويجي لك ابنتي **﴿فمن عندك﴾** أي أن السنتين الزائدتين تفضل من عندك، لاواجب عليك، وإن كنت راغباً في ذلك، والمعنى من عندك تفضلا لامن عندي إلزاماً **﴿وما أري أن أشق عليك﴾** في هذه السنوات الثمان، بأن أكلفك ما يشق عليك من الخدمة **﴿ستجدني﴾** يا موسى لدى معاشرتك لي **﴿إن شاء الله من الصالحين﴾** في السيرة والمعاشرة، وقيل للصالح صالح، لأنه يصلح للدنيا والآخرة، ثم إن الظاهر من الآية كون ذلك كان جائزاً في شريعة شعيب، بأن يكون المهر للأب، ويحتمل أن يكون «على» بمعنى الشرط، وإنما كان المهر شيئاً آخر، وعلى أي حال فقد كان ذلك لموسىعليه السلام نعمة كبرى حيث يجد الزوجة، والأهل والمأوى، والمعيشة، وقد ورد أن موسى وفى بأبعد الأجلين، وإنها كانت هي التي ذهبت تدعوه إلى أبيها[١].

[٢٩] **﴿قال﴾** موسىعليه السلام في جواب شعيب **﴿ذلك﴾** التزويج، بمقابل عشر

(١) راجع بحار الأنوار: ج١٣ ص٣٧ .

﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾

سنوات ﴿**بيني**﴾ بأن أعمل أنّا ﴿**وبينك**﴾ بأن تزوج أنت، وكأن هذه الجملة لإبرام العهد، بمعنى أنّا لا نخرج عن ذلك الذي قلنا، إذ لو خرج أحدهما عن الشرط فكأنه لم يصر بين الطرفين، وإنما طرف مربوط بالموفى، وطرف آخر مقطوع لا يرتبط بأحد ﴿**أيما الأجلين**﴾ أي المدتين وهما ثمان، وعشر سنوات ﴿**قضيت**﴾ وعملت بطبقه ﴿**فلا عدوان علي**﴾ أي ليس ظلم علي بأن أكلف أكثر من ذلك الذي أريد، ولا أطالب بالزيادة ﴿**والله على ما نقول وكيل**﴾ أي نكله في أن يشهد المعاقدة بيننا، حتى نعلم أنه وسط وشاهد، فمن أراد الخلف كان خلفاً مع الله، إذ هو الموكّل في الأمر، حسب توكيلنا له.

[٣٠] وتزوج موسى عليه السلام بالبنت، وخدم شعيب عشر سنوات ﴿**فلما قضى موسى الأجل**﴾ ووفى بما وعد من خدمة شعيب، هاجت به العاطفة نحو أمه التي خلفها في مصر، فاستأذن شعيباً أن يزور أمه، فأذن له، فخرج من «مدين» ﴿**وسار بأهله**﴾ أي مع زوجته، ولعلهما كانا يسيران في اختفاء لئلا يظفر بهما فرعون، وفي ذات ليلة إذ الهواء بارد، والليلة مظلمة، أخذ زوجته الطلق، فاحتاج إلى الغذاء والتدفئة وحينذاك ﴿**آنس**﴾ أي رأى ما يوجب الأنس، وهو اطمئنان النفس وفرحها ﴿**من جانب الطور**﴾ وهو صحراء في الشام ﴿**ناراً**﴾ تشتعل، فسر بذلك لأنه قصد أن يذهب إليها، ظاناً إن لها أهلاً، فيستعين بهم في حل مشكلته ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام ﴿**لأهله**﴾ أي لزوجته ﴿**امكثوا**﴾ أي الزموا

إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ

مكانكم لا تسيروا منه، حتى إذا رجعت لا أضل محلكم، والإتيان بضمير الجمع لقصد الاحترام، كما هو الشائع في كلام المتأدبين. ﴿**إني آنست ناراً**﴾ أرى هناك ناراً تشتعل، أذهب إليها ﴿**لعلي آتيكم منها**﴾ أي من النار ﴿**بخبر**﴾ لنذهب إلى أهلها، ونستعين بهم في أمرنا، أو نسترشدهم الطريق ﴿**أو**﴾ آتيكم بـ ﴿**جذوة**﴾ أي قطعة ﴿**من النار**﴾ إذا لم يمكن السير إليها، لمحذور كعدم حسن الطريق أو ما أشبه ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ أي تستدفئون بها.

[٣١] ﴿**فلما أتاها**﴾ أي وصل موسى قرب النار ﴿**نودي**﴾ والمنادي هو الله سبحانه، بأن خلق الصوت فسمعه موسى عليه السلام ﴿**من شاطئ**﴾ أي جانب ﴿**الوادي الأيمن**﴾ صفة للشاطئ، أي الجانب الأيمن من وادي سيناء ﴿**في البقعة المباركة**﴾ أي القطعة من الأرض التي بوركت بنزول الوحي فيها ﴿**من الشجرة**﴾ التي كانت ثابتة هناك ﴿**أن يا موسى**﴾ بيان لـ «نودي» أي كان النداء هو: يا موسى ﴿**إني**﴾ المتكلم معك ﴿**أنا الله رب العالمين**﴾ أي خالقهم ومربيهم.

[٣٢] ﴿**وأن ألق عصاك**﴾ أي اطرحها على الأرض من يدك، وقد ورد أن عصاه كانت من الجنة، وأعطاها شعيب له حينما أراد السفر، فألقاها موسى من يده، وإذا بها انقلبت حية عظيمة تسرع في الحركة والقفز

فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣٢﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ

﴿**فلما رآها**﴾ موسى عليه السلام ﴿**تهتز**﴾ وتتحرك ﴿**كأنها جان**﴾ وهي الحية السريعة الحركة، وقد كان التشبيه بها ـ مع إنها كانت كبيرة ـ لأجل سرعة حركتها، فإن الحية الصغيرة أسرع حركة من الكبيرة ـ كما قالوا ـ ﴿**ولّى**﴾ أي أعرض عن الحية، وأخذ يسرع في الهرب منها ﴿**مدبراً**﴾ فقد أعطاها قفاه ووجهه إلى جانب الصحراء، راكضاً للفرار منها ﴿**ولم يعقب**﴾ لم يرجع إليها، ولم ينظر، كما هو شأن الخائف الفار، إنه لايرجع ولا ينظر عقبه، لئلا يلحقه ـ في هذه الفترة ـ الطلب وحينذاك نودي ﴿**يا موسى أقبل**﴾ إلى نحو الحية ﴿**ولا تخف**﴾ من ضررها ﴿**إنك من الآمنين**﴾ من شرها، فإنها معجزة لك وليست حية تؤذي.

[٣٣] ثم نودي ثانياً ﴿**اسلك**﴾ أي أدخل يا موسى ﴿**يدك في جيبك**﴾ أي في شق ثوبك الأعلى من طرف النحر ﴿**تخرج**﴾ اليد حين تخرجها ﴿**بيضاء**﴾ مشرقة كالشمس ﴿**من غير سوء**﴾ أي بدون أن يكون ذلك البياض من قبيل بياض البرص، وإنما قيد بهذا القيد لاعتياد أن بياض اليد، أو سائر الجسم إنما هو من البرص، وقد ورد إنه إذا أراد إرجاع الحية عصا، أخذها، وإذا أراد إرجاع اليد إلى حالتها السابقة، أدخلها ثانياً في جيبه، فإذا أخرجها صارت كالسابق ﴿**واضمم**﴾ يا موسى ﴿**إليك جناحك من الرهب**﴾ وقد أخذ يرتعد ويرتعش من خوف

فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا

الموقف، فنودي أن يضم يديه إلى نفسه كالطائر الذي يضم جناحيه، فإن ذلك موجب لشدة الأعصاب فلا يرتعش الإنسان فالمراد من «جناحك» يدك، ومعنى «من الرهب» لأجل الخوف الذي عرض عليك.

﴿**فذانك**﴾ أي العصا، واليد البيضاء، وإنما جيء بالمذكر باعتبار المشار إليه، وهو «برهان» ﴿**برهانان**﴾ اثنان، وخارقتان تدلان على نبوتك، والكاف في «ذانك» للخطاب ﴿**من ربك**﴾ أي من طرفه سبحانه ﴿**إلى فرعون وملإيه**﴾ أي جماعته ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ خارجين عن طاعة الله، ولذا احتيج إلى بعث الرسول إليهم، وتزويده بالخارقة ليكون أقرب إلى التصديق.

[٣٤] ﴿**قال**﴾ موسى عليه السلام يا ﴿**رب إني قتلت منهم نفساً**﴾ وهو القبطي الذي قتله حينما تخاصم مع الإسرائيلي ﴿**فأخاف**﴾ إن ذهبت إليهم لأدعوهم ﴿**أن يقتلون**﴾ أي يقتلونني قصاصاً.

[٣٥] ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً**﴾ فقد كانت في لسان موسى عقدة، من جراء أن جعل الجمر على لسانه في صغره ـ في قصة تقدمت ـ وقد دعا موسى عليه السلام أن يزيلها بقوله: «واحلل عقدة من لساني» فأزالها سبحانه ﴿**فأرسله معي**﴾ رسولاً ﴿**ردءاً**﴾ أي معينا لي

يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا

على تبليغ رسالتك، يقال فلان ردء فلان، أي ظهره ومعينه وناصره ﴿**يصدقني**﴾ فيما أؤديه من الرسالة ﴿**إني أخاف أن يكذبون**﴾ أي يكذبونني فيما أدعيه من الرسالة، والخوف يطلق على المقطوع، كما يطلق على المشكوك والمظنون.

[٣٦] ﴿**قال**﴾ الله سبحانه، في جواب طلبه ﴿**سنشد عضدك**﴾ أي نقويك ﴿**بأخيك**﴾ فنجعله نبياً معك، وهذه استعارة تشبيها بشد بعض الأشياء إلى بعض الموجب لتقوية الجمع حتى لا يؤثر فيها الكسر، ونسبة الشدّ إلى العضد لأن الإنسان يعمل بيده، والعضد مظهر القوة في اليد، ولو قيل سنشد يدك، كان بعيداً عن الذوق ﴿**ونجعل لكما سلطاناً**﴾ أي سلطة وسيطرة على فرعون وقومه، بالحجة والبرهان، ﴿**فلا يصلون**﴾ أي فرعون وقومه ﴿**إليكما**﴾ بالإيذاء ﴿**بـ**﴾ سبب ما تزودان به من ﴿**آياتنا**﴾ الخارقة كالعصا، واليد، وغيرهما، وهذا في جواب قول موسى «أخاف أن يقتلون» ﴿**أنتما**﴾ يا موسى وهارون ﴿**ومن اتبعكما**﴾ من المؤمنين ﴿**الغالبون**﴾ على فرعون وأتباعه.

[٣٧] ورجع موسى عليه السلام إلى أهله يخبرهم بما كان من أمر النار، وقد سهل الله لهم الأمر، حتى سارا ووصلا إلى مصر، وأُخبر هارون بقدوم موسى، إذ كان في ذلك الوقت في مصر، فأوحى الله إليه وجعله نبيّاً، ثم جاءا إلى فرعون ﴿**فلما جاءهم**﴾ أي فرعون وقومه ﴿**موسى**﴾ وأخوه ﴿**بآياتنا**﴾

بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا

الدالة على نبوته ﴿**بينات**﴾ أي واضحات ظاهرات ﴿**قالوا**﴾ عن الآيات ﴿**ما هذا**﴾ الذي أتيت به من أنواع الخارقة ﴿**إلا سحر مفترى**﴾ أي أنت اختلقته ونسبته إلى الله سبحانه، وليس هناك إله أعطاك هذه الأمور ﴿**وما سمعنا بهذا**﴾ الذي تقوله من وجود الإله، وما أُعطيته دليلاً على نبوتك ﴿**في آبائنا الأولين**﴾ أي لم يظهر فيهم بمثل هذا، حتى ينقل إلينا، ونسمعه، فهو أمر جديد مختلق.

[٣٨] ﴿**وقال موسى**﴾ في جواب تكذيبهم ﴿**ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده**﴾ فإن هذا من عند الله، وليس افتراءً، وهو هداية لا سحر، والله يعلم ذلك، ولو كان افتراءً وضلالاً حال بيني وبينه حتى لا أكون سبباً للإضلال ﴿**و**﴾ ربي أعلم بـ ﴿**من تكون له عاقبة الدار**﴾ وهذا تعريض بهم بأن العاقبة الحسنة لنا لا لكم ﴿**إنه لا يفلح الظالمون**﴾ أي لايفوزوا بعاقبة الدار، وقوله عليه السلام «ومن تكون» تهديد، يعني إنكم إن لم تؤمنوا تكون عاقبتكم سيئة، ونسبة العاقبة إلى الدار من باب النسبة إلى المكان مجازاً، والمراد عاقبة الإنسان في الدار، أو المراد آخر الدار، فالنسبة حقيقة.

[٣٩] ولما انقطع فرعون عن الاحتجاج مع موسى التفت إلى قومه يحفظهم عن السير مع موسى ويقويهم ليبقوا على باطلهم ﴿**وقال فرعون يا أيها**

ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

الملأ﴾ الأشراف من قومي ﴿ **ماعلمت لكم من إله غيري﴾** فلا إله إلا أنا، ثم توجه إلى وزيره هامان فقال ﴿**فأوقد لي يا هامان على الطين﴾** أي أجج النار واصنع الآجر، فإن الطين سواء أوقد تحته أو فوقه طبخ وصار أقوى في البنيان ﴿**فاجعل لي﴾** أي ابن لي ﴿**صرحاً﴾** أي قصراً عظيماً مشيداً من الآجر، ليكون أقوى استحكاماً ﴿**لعلي﴾** اصعد عليه و ﴿**أطلع﴾** أي أشرف من فوق القصر ﴿**إلى إله موسى﴾** فقد أراد أن يلبس على العوام أن إله موسى في الأرض فإذا صعد الإنسان السطح العالي أشرف عليه حتى يراه ويعرف مزاياه ﴿**وإني لأظنه﴾** أي أظن موسى ﴿**من الكاذبين﴾** في مقاله أن للكون إلهاً، وأنه رسوله، والإتيان بلفظ «لأظنه»، للتلبيس على الناس بأنه منصف حتى أنه لا يقول الكلام الخشن، بل الكلام المنصف المريد العثور على الواقع.

[٤٠] ﴿**واستكبر هو﴾** أي فرعون ﴿**وجنوده في الأرض﴾** أي ترفعوا أنفسهم فوق مقدارها ﴿**بغير الحق﴾** أي ترفعاً بالباطل، في مقابل ترفع الإنسان عن الدنايا، فإنه ترفع بالحق ﴿**وظنوا﴾** بأن لم يكونوا متيقنين بل ظانين ﴿**أنهم إلينا لا يرجعون﴾** في الحشر حتى نحاسبهم على أعمالهم.

فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾

[٤١] ﴿**فأخذناه**﴾ تعظيم للعذاب، وتحقير له حتى كأنه يؤخذ باليد ﴿**وجنوده**﴾ الذين ظاهروه على الكفر والطغيان ﴿**فنبذناهم**﴾ أي طرحناهم ـ بكل مهانة كمن يأخذ جرادة ويطرحها في مهلكة ـ ﴿**في اليم**﴾ أي في البحر، وهو البحر الأحمر في مصر الموجود إلى الآن ﴿**فانظر**﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه النظر، والمراد بالنظر الاعتبار والعلم ﴿**كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، وهذا تصديق لقوله تعالى (مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)[١].

[٤٢] ﴿**وجعلناهم أئمة**﴾ جمع إمام، أي مقتدون للناس، ونسبة الجعل إليه سبحانه باعتبار أنه خلقهم وهيئ الأشياء والأسباب لهم، ولم يمنعهم منعاً تكوينياً عن أعمالهم ﴿**يدعون**﴾ الناس ﴿**إلى النار**﴾ فإن الدعوة إلى الكفر والمعاصي دعوة إلى النار، وهذا كما يقول الملك «جعلت فلاناً مثالاً للعصيان ومحلاً للمتمردين» يريد أنه لم يضرب على يده ولم يأخذه ﴿**ويوم القيامة لا ينصرون**﴾ عن النار، فإنهم يدخلونها أذلاء، كما لم يُنصروا هنا عن الغرق، بل أغرقوا في اليم، فليعلم أتباعهم إنهم معذبون في الدنيا والآخرة.

(١) الأنعام: ١٣٦ .

وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

[٤٣] ﴿**وأتبعناهم**﴾ أي أردفنا بعقبهم ﴿**في هذه الدنيا لعنة**﴾ بأن أمرنا المؤمنين بلعنهم والبراءة منهم، وجعلناهم بعداء عن الخير والسعادة طرداء عن الرحمة ﴿**ويوم القيامة هم من المقبوحين**﴾ فهنالك لهم القبح والخزي والعار والمقت والنار.

[٤٤] ثم يأتي السياق ليؤكد سنّة الله في إهلاك الكافرين، كما أهلك فرعون ومن قبله ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**موسى الكتاب**﴾ أي التوارة ﴿**من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**﴾ حيث كذبوا أنبياءهم، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم والمراد بإتيان الكتاب: الإرسال، أي كان إرسال موسى بعد إهلاك المجموع المكذبين ﴿**بصائر للناس**﴾ أي في حال كون الكتاب براهين تبصر الناس أمور دينهم ودنياهم، وإنما أوتي بلفظ الجمع، باعتبار الجمل التي في الكتاب ﴿**وهدىً**﴾ يهدي إلى الحق ﴿**ورحمة**﴾ موجباً لرحمة الناس، فإن من عمل بالكتاب يرحمه الله سبحانه ﴿**لعلهم**﴾ أي لعل قوم موسى ﴿**يتذكرون**﴾ ما أودع فيهم من الفطرة حول الأصول والآداب، فقد أودع في فطرة الإنسان المبدأ والمعاد والرسالة ـ إجمالاً ـ كما أودع فيه حسن الأشياء الحسنة وقبح الأشياء القبيحة.

[٤٥] وإنك يا رسول الله إنما تنقل هذه القصص بوحي من الله، وإلا لم

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟

تكن حاضراً في تلك الأزمنة حتى تشاهدها بعينك، ثم تحكيها، وإنما هي دالة على أنك نبي، وإلا فمن أين يعلم من لم يقرأ ولم يكتب ولم يشهد وقت القصة، التفاصيل والمزايا؟ ﴿**وما كنت**﴾ يا رسول الله ﴿**بجانب الغربي**﴾ أي بجانب الجبل الواقع في طرف الغرب وهو جبل طور الذي كلم الله فيه موسى وأعطاه التوراة ﴿**إذ قضينا**﴾ أي أرسلنا وعهدنا ﴿**إلى موسى الأمر**﴾ بإعطائه الكتاب والشريعة ﴿**وما كنت من الشاهدين**﴾ الحاضرين في ذلك الزمان مع بني إسرائيل لتعرف عن مشاهدة قضايا موسى عليه السلام التي تنقلها في القرآن.

[٤٦] ولكن إخبارك إنما هو عن الوحي، وإنما أوحينا إليك لأن الرسل قد انقطعوا، ورجعت الناس إلى الضلالة، فأرسلناك وأوحينا إليك بهذه الأخبار ﴿**ولكنا أنشأنا قروناً**﴾ وأجيالاً جديدة بعد عهد النبوات السابقة ﴿**فتطاول عليهم العمر**﴾ أي ابتعد عنهم قضايا تلك الأزمنة السابقة، لأن تطاول عمر الأجيال يستلزم نسيان الأنباء القديمة التي تدل على نصرة الله للأنبياء وإهلاكه للظالمين، فقوله «تطاول» من باب إقامة السبب مقام المسبب، لأن المراد به «نسيان الأمور السابقة».

وحيث أن هذا الجيل المعاصر لك، لا يعلمون الأمور، وينكرون الألوهية الصحيحة والمعاد وأرسلناك إليهم لتذكرهم، وتذكرتك عن الوحي، وإلا لم تكن أنت مع موسى، ولا مع قومه ﴿**وما كنت**﴾ يا رسول الله ﴿**ثاوياً**﴾ أي مقيماً ﴿**في أهل مدين**﴾ شعيب، حتى ﴿**تتلو**

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾

عليهم﴾ على أهل مكة **﴿آياتنا﴾** التي سبقت في أهل مدين، حتى تكون أخبارك عن قضايا مدين لأنك شاهدتها بعينك وكنت مقيماً في تلك المدينة في زمان شعيب **﴿ولكنا كنا مرسلين﴾** لك وبالوحي نعلمك تلك القضايا حتى تقرأها على قومك حجة على صدقك، ولقائل أن يقول فمن أين يعلم أهل مكة صدق الرسول؟ والجواب إنهم يعلمون ذلك باستحضار الأخبار من أهل الكتاب، كما قال (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)[1].

[٤٧] **﴿وما كنت﴾** يا رسول الله **﴿بجانب الطور﴾** الذي صار موسى فيه نبياً **﴿إذ نادينا﴾** موسى فقد كان لموسى ميقاتان، الأول حين أرسل رسولاً إلى فرعون والثاني حين أرسل إليه الكتاب بعد إهلاك فرعون وخروجهم من مصر **﴿ولكن﴾** كان إخبارك عن تلك الأحوال **﴿رحمة من ربك﴾** تفضل بها عليك حيث جعلك رسولاً، وعلى أمتك حيث أرسلك إليهم **﴿لتنذر قوماً﴾** هم أهل مكة، تخوفهم من الكفر والمعاصي **﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾** فإن جيل الرسول ﷺ لم يبعث فيهم نبي قبل الرسول ﷺ **﴿لعلهم يتذكرون﴾** ما أودع فيهم من الفطرة فيرجعوا عن غيّهم وضلالهم، بسبب القرآن الهادي لهم إلى ما

---

(١) النحل: ٤٤ .

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ

أودع في فطرتهم.

[٤٨] ثم قال سبحانه إنه لولا عدم إتمام الحجة على هؤلاء من قومك لما أرسلناك إليهم، أما حيث إنهم ابتعدوا عن النبوات السابقة، وغمرهم الجهل، أرسلناك إليهم **﴿ولولا أن تصيبهم﴾** أي تصيب قومك **﴿مصيبة﴾** من العقاب **﴿بـ﴾** سبب **﴿ما قدمت أيديهم﴾** من الكفر والمعاصي **﴿فيقولوا﴾** محتجين على الله في أن عاقبهم بدون إتمام الحجة: يا **﴿ربنا لولا﴾** أي هلا **﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾** يدعونا إلى الحق حتى لا نعصي فنستحق العقاب **﴿فنتبع آياتك﴾** وما أنزلت وأمرت **﴿ونكون من المؤمنين﴾** وجواب «لولا» محذوف أي لولا عدم تمام الحجة عليهم، لم نرسلك، أما وإنهم لم تتم الحجة عليهم لبعدهم عن الأنبياء، فقد أرسلناك وها هم يعاندون ولا يؤمنون، وهناك قول آخر بأن جواب «لولا» «لجعلنا لهم العقاب» إنهم كانوا يقولون هكذا لو لم نرسل، وعذبناهم، فها نحن قد أرسلنا، ولم يؤمنوا.

[٤٩] **﴿فلما جاءهم﴾** أي جاء أهل مكة **﴿الحق﴾** الذي هو الرسول والقرآن **﴿من عندنا﴾** حيث أرسلنا الرسول وأنزلنا القرآن **﴿قالوا﴾** تبريراً لموقفهم ضد الرسول **﴿لولا﴾** أي هلا **﴿أوتي﴾** محمد ﷺ **﴿مثل ما أوتي موسى﴾**؟ لو كان هذا نبياً لأتى بمثل معاجز موسى من فلق البحر

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٥٠﴾

والعصا واليد وغيرها.

فهل إنا لو أعطيناك مثل ما أعطينا موسى أكانوا يقبلون؟ كلا! والشاهد على ذلك إن الناس الذين هم من جنس هؤلاء كفروا بمعاجز موسى ﴿**أوَلم يكفروا بما أوتي موسى**﴾ من الخوارق والمعاجز؟ ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل إرسالك ﴿**قالوا سحران**﴾ مبالغة في كونهما ساحرين، مثل زيد عدل، أي قالوا إن موسى وهارون ساحران ﴿**تظاهرا**﴾ صار أحدهما ظهر الآخر وعونه ﴿**وقالوا إنّا بكلٍّ**﴾ منهما ﴿**كافرون**﴾ ولو فرض أن النبي جاء بمثل تلك المعاجز قالوا فيها ما قالوا لموسى وهارون، بالإضافة إلى أنهم لم يدركوا أن المعجزة يجب أن تلائم أهل الزمان، ولذا جاء موسى بتلك المعاجز حيث كثر في زمانه السحر، وجاء عيسى بالإحياء والإبراء، حيث كثر في زمانه الطب، وجاء الرسول بالقرآن حيث كثر في زمانه الفصاحة والبلاغة ـ كما ذكر مفصلاً في علم الكلام ـ.

[٥٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين لا يقبلون منك القرآن ويريدون إعجازاً مثل عصا موسى ﴿**فأتوا**﴾ أي هاتوا ﴿**بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**﴾ أي أكثر هداية من التوارة والقرآن حتى ﴿**أتبعه**﴾ وآخذ بأحكامه ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في أن القرآن لا يكفي للهداية، وإنما يجب أن يكون خارق حتى نهتدي بك.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

[٥١] ﴿**فإن لم يستجيبوا**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**لك**﴾ يارسول الله، بأن لم يتمكنوا من إتيان كتاب هو أهدى من القرآن ﴿**فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**﴾ فإنهم يكفرون بالقرآن عن هوى وميل نفس لا عن حجة وبرهان، فقد انسد عليهم باب البرهان ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله**﴾ أي لا أحد أكثر ضلالاً منه، حيث يترك أحكام الإله ويتبع الهوى، وقوله «بغير هدى» تأكيد، فهو جانب السلب من القصة وإذا أريد بالتأكيد جيء بالجانبين، فيقال: زيد يسمع كلام الشيطان ولا يسمع كلام الرحمن ـ مثلاً ـ واعلم: ﴿**إن الله لا يهدي**﴾ إلى الإيمان ﴿**القوم الظالمين**﴾ الذين عاندوا الحق بعد ما رأوه، فإنه لا يلطف بهم الألطاف الخفية بل يتركهم وشأنهم.

[٥٢] ﴿**ولقد وصلنا لهم القول**﴾ أي جئنا بآية بعد أخرى، متصلة الآيات ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ ما أودع فيهم من الفطرة، فإن لدوام الوعظ والإنذار أثراً في التذكير والإيقاظ.

[٥٣] ﴿**الذين آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم ﴿**الكتاب**﴾ إعطاءً بسبب الأنبياء عليهم السلام، وقد أخذوه حق الأخذ ﴿**من قبله**﴾ أي من قبل الرسول، أو من قبل القرآن ﴿**هم به**﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿**يؤمنون**﴾ لأنهم يعرفون

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٥﴾

الرسول، وقد تهيأت نفوسهم للإيمان حيث لا يتبعون الأهواء، أما من لا يؤمن من أهل الكتاب فكأنه لم يُعط الكتاب، إذ غير العامل به والذي لم يُعط على حد سواء، وقد ورد أن الآية نزلت في جماعة من مؤمني أهل الكتاب[١].

[٥٤] ﴿**وإذا يتلى**﴾ القرآن ﴿**عليهم**﴾ أي على أهل الكتاب المؤمنين ﴿**قالوا آمنا به**﴾ أي بالقرآن ﴿**إنه الحق من ربنا**﴾ ليس باطلاً اختلقه الرسول كما يقول المشركون ﴿**إنا كنا من قبله**﴾ أي قبل نزوله ﴿**مسلمين**﴾ حيث رأينا صفات النبي في التوراة والإنجيل.

[٥٥] ﴿**أولئك يؤتون**﴾ أي يعطيهم الله ﴿**أجرهم مرتين**﴾ مرة لتمسكهم بدينهم حتى جاء الرسول، ومرة لإيمانهم بالرسول ﷺ ﴿**بما صبروا**﴾ أي بسبب صبرهم على الإيمان بالكتاب الأول، وبالقرآن ﴿**ويدرءون بالحسنة السيئة**﴾ أي يدفعون بالأعمال الحسنة السيئات، إن هذا فوق الصبر فإنهم إذا رأوا سيئة، لم يصبروا عليها فحسب، بل دفعوها بالحسنة، كما قال سبحانه (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[٢]﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ في سبيل الله سبحانه، والرزق أعم من المال والعلم والجاه وسائر ما أعطى الله الإنسان ـ وإن كان المنصرف هو المال ـ.

---

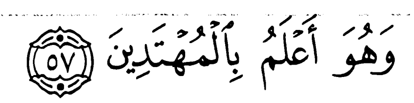
(١) بحار الأنوار: ج٦٤ ص٢٦٤ .

(٢) المؤمنون: ٩٧ .

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ

[٥٦] ﴿**وإذا سمعوا اللغو**﴾ أي الهزء والسفه من الكلام واللغو الذي لافائدة منه ﴿**أعرضوا عنه**﴾ أي عن ذلك الكلام، ولم يقابلوه بالمثل، ولم يخوضوا مع اللاغين في اللغو ﴿**وقالوا**﴾ لأولئك اللاغين ﴿**لنا أعمالنا**﴾ ودينا ﴿**ولكم أعمالكم**﴾ ودينكم فكل منا يجازى على أعماله ﴿**سلام عليكم**﴾ فأنتم في سلام وأمن من ناحيتنا لا نقابلكم بالمثل ولا نقصد لكم سوءً ﴿**لا نبتغي الجاهلين**﴾ أي لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم والتخاصم معهم، وإنما هم فئة، ونحن فئة.

[٥٧] وبعد ما بين السياق إن أهل الكتاب يؤمنون بهذا القرآن، بين إن الكفار الذين لا يؤمنون ليس على الرسول حسابهم، حتى يجهد نفسه لكي يهديهم، بل إنما عليه البلاغ ﴿**إنك**﴾ يا رسول الله ﴿**لا تهدي من أحببت**﴾ أي لا تتمكن من هداية من تحب أن يهتدي من الناس، فإن الرسول كان يحب هداية عمه أبي لهب وغيره من أشراف قريش، بل الناس أجمعين، ولكنه لم يكن يتمكن من ذلك، والمراد بالهداية العمل الذي يجبرهم على الإسلام، لا مجرد إرائة الطريق، ﴿**ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ بأن يلطف به الألطاف الخفية حيث يراه مستعداً للإيمان مهيأً نفسه للإذعان، فإرائة الطريق من الله والرسول، عامة لكل أحد أما الألطاف الخفية فالرسول لا يقدر عليها، والله قادر عليها لكنه إنما يلطف بها على من أعد نفسه وأخذ يأتي في الطريق. وممن تنطبق هذه الآية الكريمة عليه هو«سيد قطب» صاحب كتاب «في ظلال



القرآن» الذي لم يهتد بنور الإيمان إذ ملأ قلبه بالحقد والغل للرسول وآله وذويه، فتراه في عرض تفسير وطوله، ينتقص من الرسول وعمه وسائر ذوي قرابته، في لفائف من الكلام المزيف، بالتقليد الأعمى عن الأمويين أعداء الله والرسول، والشجرة الملعونة في القرآن، فقد أخذ يطبق هذه الآية الكريمة على أبي طالب، مع أنه قد ورد من طرق العامة والخاصة أن أبي طالب من أول المؤمنين بالرسول، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا

ولو كان أبو طالب أباً لأحد كبرائهم لأهالوه بمقام الملائكة المكرمين، لكن ذنبه الوحيد أنه أبو علي أمير المؤمنين، وماذا يقال في من يطبق آية «عبس وتولى» على رسول الله، ليبرئ ساحة عثمان الذي وردت فيه الآية عن التولي؟ وهكذا وهلم جرا، وقد صدق الله سبحانه حيث يقول «إنك لا تهدي من أحببت» وهل من محمل لعمل من يخوض دقائق الأمور، فيعرف الشعرة في الليل المظلم، ثم لايرى الشمس الضاحية في وسط السماء، إلاالعناد، وانه استحق عليه كلمة العذاب؟. وقد كنت أريد أن أنزه هذا السفر عن مثل هذه الأمور لكن غلو «قطب» جرني إلى ذلك فإنه أتى بكل ما لفقته الأموية النكراء، ولكن في لفائف حريرية، وقفازات براقة، فيظن الغير أنه بريئ عن العصبية الجاهلية (وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[1][2] ﴿**وهوأعلم بالمهتدين**﴾ أي القابلين للهداية، أو الذين

(١) الشعراء: ٢٢٨.

(٢) راجع كتاب «مؤمن قريش» للاستاذ الخنيزي.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ

اهتدوا فيجازيهم حسب علمه.

[٥٨] ولقد كان من أعذار كفار مكة، في عدم إيمانهم، أنهم إن آمنوا بالرسول، يسلب مقامهم، لأن القبائل المجاورة، لا تخضع لهم بعد ذلك، فيكونون مجبورين أن يخرجوا من هناك إلى حيث يتمكنون من العيش، وهذا هو الخطف، فإن الخاطف قد يكون إنساناً، وقد يكون تقديراً، كذا ذكر بعضهم، وذكر بعض أنهم خافوا أن يختطفهم فارس والروم إن علموا باختراع العرب ديناً جديداً ومنهجاً جديداً، وقد روي عن السجاد عليه السلام إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال، ولجج البحار ولأدعون إليه فارس والروم، فتجبّرت قريش واستكبرت وقالت لأبي طالب: أما تسمع إلى ابن أخيك ما يقول؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا ولقلعت الكعبة حجراً حجراً فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك**﴾ يا رسول الله بأن نؤمن كما تقول ﴿**نتخطف من أرضنا**﴾ أي نستلب من أرض مكة، فيأخذوننا الناس أسراء ولا طاقة لنا بهم ﴿**أو لم نمكن لهم حرماً آمنا**﴾؟ أي ألم نجعل لهم مكاناً آمنا هو الحرم، وهم كافرون، فمن يقدر على هذا يقدر على ان يأمنهم إذا أسلموا ﴿**يجبى إليه**﴾ أي يؤتى إليه ويجلب نحو محلهم ﴿**ثمرات كل شيء**﴾ من الفواكه، والصنائع، وأنواع الأقمشة، وغيرها، فإن مكة حيث كانت مطافاً للعرب، كانت تروج

---

(١) روضة الواعظين: ج١ ص٥٤ .

﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾

أسواقها بثمرات الجزيرة، وثمرات الشام واليمن، التي كانت ثمارها أيضاً تجبى ـ بدورها ـ من الهند والصين والروم وغيرها ﴿**رزقاً من لدنا**﴾ نرزق به أهل مكة ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أنا قدّرنا لهم هذا التقدير بأن جعلنا محلهم أمناً، ورزقهم وفراً. فإذا آمنوا كانوا أحق بذلك، وقد صدق الله سبحانه، فقد دل التاريخ ـ والذي نشاهده الآن ـ إن أهل مكة منذ أن آمنوا قويت مكانتهم أكثر وصار الأمن والرزق فيهم أوفر.

[٥٩] أما إن بقوا على هذه الحالة ففي ذلك الوقت يختطفون بالهلاك والعذاب، وتقل أرزاقهم، كما كان كذلك القرى التي لم تؤمن، وانحرفت عن جادة الصواب ﴿**وكم أهلكنا من قرية**﴾ أي أهل قرية، بعلاقة الحالة والمحل، ولأن إهلاك الأهل مستلزم لإهلاك نفس القرية بخرابها ﴿**بطرت معيشتها**﴾ البطر هو الطغيان عند النعمة، أي طغت في المعيشة، فالمعيشة منصوبة بنزع الخفض والمعنى أعطيناهم المعيشة الواسعة، فجرتهم تلك إلى أن يكفروا من باب (إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى)[١] ﴿**فتلك مساكنهم**﴾ التي يمر عليها المارة في طرف الشام، وطرف اليمن، كأراضي لوط، وشعيب، وصالح ﴿**لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً**﴾ فقد انقرضوا بالهلاك، وباءت قراهم بالخراب، فلم يسكن في بلادهم إلا نفر قليل من الناس الذين جاءوا من بعدهم

---

(١) العلق: ٧ و٨ .

وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿**وكنا نحن الوارثين**﴾ لديارهم فلم يكن وارث يرث الأرض منهم، ولذا بقيت كسائر الأراضي لا مالك لها إلا الله سبحانه.

[٦٠] ﴿**وما كان ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**مهلك القرى**﴾ التي تكفر وتعصي الله ﴿**حتى يبعث في أمها**﴾ المركز لها ﴿**رسولاً**﴾ يقيم الحجة عليهم ﴿**يتلو عليهم آياتنا**﴾ الدالة على المعارف وأصول الدين، فإذا أعرضوا عن الرسول، ولم يؤمنوا استحقوا الهلاك والنكال ﴿**وما كنا مهلكي القرى**﴾ أصله «مهلكين» حذف النون للإضافة ﴿**إلا وأهلها ظالمون**﴾ أنفسهم بالكفر والعصيان فالهلاك معلول لأمرين، الأول ظلم أهل القرية، والثاني إتمام الحجة عليهم ببعث الرسول.

[٦١] فلا تغترّوا أيها الناس بالحياة الدنيا التي تصدكم عن الإيمان، لأجل المال والمنصب والتقليد وما اشبه ﴿**و**﴾ ذلك لأن ﴿**ما أوتيتم**﴾ أي أعطيتم ﴿**من شيء**﴾ من الزخارف ﴿**فـ**﴾ هو ﴿**متاع الحياة الدنيا وزينتها**﴾ أي هو شيء تتمتعون به في هذه الحياة القريبة وتتزينون به ﴿**وما عند الله**﴾ أي الجنة، والمراد بكونها عند الله، إن الله هيّأها للصالحين ﴿**خير**﴾ من هذه النعم ﴿**وأبقى**﴾ أي هي أكثر بقاءً ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ألا تتفكرون بعقولكم حتى تميزوا بين الآخرة الباقية، والدنيا الفانية؟.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾

---

[٦٢] ﴿**أفمن وعدناه وعداً حسناً**﴾ أي الذي وعدناه بالجنة، وهو المؤمن ﴿**فهو لاقيه**﴾ أي نفي له بالوعد، فيلاقي الشيء الحسن الموعود به ﴿**كمن متعناه متاع الحياة الدنيا**﴾ أي كالذي متع بمتع هذه الحياة فقط ﴿**ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ أي يحضر للعقاب والجزاء، فهل هذا وذاك متساويان؟ فكما أن متع الحياة لا تتساوى مع ما عند الله كذلك لايتساوى المؤمن الذي وعد بالخير، وغيره الذي يحضر لأجل العذاب، وإنما يطلق «المحضر» على من حاله سيء إذ الذي علم أن حاله حسن لا يحتاج إلى الإحضار، بل يحضر هو بنفسه.

[٦٣] ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم يناديهم**﴾ أي ينادي الله الكفار والمراد يوم القيامة ﴿**فيقول**﴾ الله لهم على نحو استفهام تقريعي ﴿**أين شركائي**﴾ أي من جعلتموهم شركاء لي ﴿**الذين كنتم تزعمون**﴾ إنهم شركاء لي؟ لقد ذهب الشركاء، فلا شريك هناك، وعنت الوجوه للحي القيوم.

[٦٤] وإذ يرى قادة الكفار إن ذنب أتباعهم يلقى على عواتقهم، يتبرؤون منهم، قائلين إنهم لم يقسروهم على الكفر، وإنما هم تبعوهم في الغواية ﴿**قال**﴾ الكفار ﴿**الذين حق عليهم القول**﴾ أي ثبت عليهم قول الله سبحانه الذي وعد الكفار بالنار، والمراد بـ «الذين» الرؤساء، يا

رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٦﴾

﴿**ربنا هؤلاء**﴾ أتباعنا ﴿**الذين أغوينا**﴾ هم عن الطريق وأضللناهم ﴿**أغويناهم**﴾ لا بقسر منا، بل ﴿**كما غوينا**﴾ نحن بلا قسر أحد فليس تبعة أعمالهم علينا ﴿**تبرأنا إليك**﴾ منهم ومن أفعالهم ﴿**ما كانوا إيانا يعبدون**﴾ فهؤلاء ليسوا عبّاداً لنا، وعلينا تبعتهم، بل عبدوا الشياطين وأطاعوهم فلا قسرناهم، ولا عبدونا، ولذا لانتحمل تبعة أعمالهم.

[٦٥] ﴿**وقيل**﴾ والقائل من جانب الله سبحانه ﴿**ادعوا**﴾ أيها الأتباع ﴿**شركاءكم**﴾ أي الأصنام والقادة الذين جعلتموهم لله سبحانه شركاء، حتى ينجوكم من العذاب، وإنما أضيف الشركاء إليهم، لما تقرر من أنه يكفي في الإضافة أدنى ملابسة ﴿**فدعوهم**﴾ وتضرعوا إليهم حتى ينجوهم من العذاب ﴿**فلم يستجيبوا**﴾ أي المتبوعين ﴿**لهم**﴾ أي للأتباع ﴿**ورأوا العذاب**﴾ بعد ما لم يجدوا ناصراً وشافعاً ﴿**لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ في الدنيا، لم يروا العذاب، أو هو حكاية كلامهم هناك، فإن المستلزم من عمل وقد فات الأوان يقول: لو إني فعلت كذا، أي لم أقع في هذا المحذور.

[٦٦] ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم يناديهم**﴾ أي ينادي الله الكفار ﴿**فيقول**﴾ لهم ﴿**ماذا أجبتم المرسلين**﴾ أي ما كان جوابكم للذين أرسلوا إليكم من النبيين؟.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾

[٦٧] ﴿**فعميت**﴾ أي اختفت كالأعمى الذي يختفي عليه الطريق ﴿**عليهم الأنباء**﴾ أي الأخبار، يعني صارت الأخبار كالعميان الذين لا يهتدون ﴿**يومئذ**﴾ أي يوم القيامة، حتى أنهم لا يدرون ماذا يقولون في جوابه سبحانه إن قالوا الصدق عوقبوا، وإن قالوا الكذب فضحوا؟ ﴿**فهم لا يتساءلون**﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب المنجي، إذ الإنسان المحسن يأتي بالجواب، والشاك يتسائل، أما المجرم الذي يعلم أن جرمه لا يخفى، وأن إقراره فضيحة، فهو لا يجيب ولا يتسائل عن زملائه كيف يجيب؟.

[٦٨] هكذا حال المكذبين، رؤساءً وأتباعاً ﴿**فأما**﴾ غيرهم فـ ﴿**من تاب**﴾ عن الكفر والعصيان ﴿**وآمن وعمل صالحاً**﴾ أي عملاً صالحاً، بأن أطاع ﴿**فعسى أن يكون من المفلحين**﴾ أي لعله يكون فائزاً، وإنما جيء بـ «عسى» لأن المؤمن العامل بالصالحات، لا يدري هل يبقى على الإيمان، أم تكون عاقبة أمره خسراً.

[٦٩] وقد تقدم أن الكفار كانوا يقولون إن نتبع الهدى نتخطف من أرضنا، فهل لهم أن يختاروا طريق الأمن والسعادة، في الدنيا أو في الآخرة؟ كلا! إن الاختيار لله وحده، كما أنه ليس للكفار أن يختاروا قادة ضلالاً، فإن اختيار القادة بيد الله، وبأمره تنصب الرؤساء للدين والدنيا، كما أن جميع النعم منه، فله كل حمد ﴿**وربك**﴾ يا رسول الله ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ وهذا تمهيد لقوله ﴿**ويختار**﴾ فإن من له الخلق هو

مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

الذي له الاختيار، إذ كيف يمكن أن يخلق ويملك شخص، ويكون الاختيار بيد غيره؟ ﴿**ما كان لهم الخيرة**﴾ أي ليس للكفار أن يختاروا لأنفسهم، كما كانوا يختارون الكفر خوفاً من الاختطاف، والخيرة، اسم من الاختيار، أقيم مقام المصدر ﴿**سبحان الله**﴾ أي أنزه الله تنزيهاً عن أن يكون أعطى الاختيار بيد الناس، حتى يعملوا كيفما يشاءون ﴿**وتعالى**﴾ أي ترفع، والمعنى أنه أرفع ﴿**عما يشركون**﴾ فليست الأصنام شركاء له سبحانه، وليس لهم أن يختاروها آلهة.

[٧٠] ﴿**وربك**﴾ يا رسول الله ﴿**يعلم ما تكن صدورهم**﴾ فهو الخالق الذي يختار العالم بالضمائر ﴿**وما يعلنون**﴾ أي ما يخفون وما يعلنون.

[٧١] ﴿**وهو الله لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له في خلق أو اختيار أو علم بما في الكون ﴿**له الحمد**﴾ أي أنه هو المستحق الوحيد للحمد، إذ جميع النعم منه ﴿**في الأولى**﴾ أي الدنيا ﴿**والآخرة**﴾ لأن خيراتهما بيده لا بيد من سواه فيستحق بعض الحمد ﴿**وله الحكم**﴾ أن يحكم ويشرع ما يشاء ﴿**وإليه**﴾ أي إلى جزائه ﴿**ترجعون**﴾ أيها البشر، بعد الموت، فكيف يُتخذ غيره مما لا ميزة من هذه الميزات له إلهاً يعبد، وشريكاً له في الألوهية؟.

[٧٢] ثم ألفت السياق إلى جملة من الآيات الكونية التي يذعن الكفار أنها

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ليست مربوطة بالأصنام، ليبرهن بذلك لزوم التوحيد في العبادة، وبطلان الشرك ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار المشركين ﴿**أرأيتم**﴾ أي أخبروني ﴿**إن جعل الله عليكم الليل سرمداً**﴾ أي دائماً أبداً، بحيث لم تطلع الشمس أبداً ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ بأن وقفت الأفلاك عن الحركة ﴿**من إله غير الله يأتيكم بضياء**﴾؟ أي بنور يضيء لكم الأرض كضوء الشمس ﴿**أفلا تسمعون**﴾ أيها الكفار إلى هذا الأمر؟ وماذا جوابكم؟ وبالطبع يقولون لا إله سواه يأتي بالنهار، فلماذا يجعلون غيره شريكاً له؟.

[٧٣] ثم ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**أرأيتم**﴾ أي أخبروني ﴿**إن جعل الله عليكم النهار سرمداً**﴾ أي باقياً دائماً ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ بأن بقيت الشمس على أفقكم فلم تزل ﴿**من إله غير الله يأتيكم بليل**﴾ بأن يزحزح الشمس حتى يأتي الليل ﴿**تسكنون فيه**﴾ أي تستريحون فيه وتجعلونه وقتاً لمنامكم وراحتكم ﴿**أفلا تبصرون**﴾ أيها الكفار المشركون إلى هذه الآية العظيمة، ليل ونهار وكلاهما بيد الله؟ وهل من شركائكم من يقدر على ذلك؟ وإذ كان الجواب الطبيعي عدم قدرة أحد على ذلك فلماذا اتخذتم شركاء لله، وهم لا يقدرون على شيء؟.

وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٥﴾

[٧٤] ثم من جعل الليل والنهار؟ ﴿**ومن رحمته**﴾ تعالى، لا من أثر غيره من الآلهة الباطلة ﴿**جعل لكم الليل والنهار**﴾ بأن خلقهما، فإن الظلمة كسائر الأشياء مخلوقة، إلا أن يقال أنها عدم والعدم غير مخلوق، وإنما جعله بجعل ضده وهو النهار ـ بأن يكونا من باب العدم والملكة ـ ﴿**لتسكنوا فيه**﴾ أي في الليل ﴿**ولتبتغوا**﴾ أي تطلبوا الرزق والمعاش ﴿**من فضله**﴾ تعالى، في النهار، أو أن «فيه» يرجع إليهما باعتبار كل واحد، وكذلك «لتبتغوا»، فإن الإنسان ينام بعض النهار، كما يكتسب في بعض الليل ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ نعم الله سبحانه التي أعطاها لكم منّاً وفضلاً، ولا يخفى أن جعل الليل والنهار، غير تصريفهما بهذا الشكل المنظم، ففي الآية الأولى تذكير بالأمر الثاني، وفي هذه تذكير بالأمر الأول.

[٧٥] وإذ ذكر السياق جملة من النعم التي لا مناص للكفار من الإذعان بأنها من الله وحده، رجع إلى الكلام السابق حول شركهم ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم يناديهم**﴾ الله تعالى، والمراد به يوم القيامة ﴿**فيقول**﴾ لهم ﴿**أين شركائي الذين كنتم تزعمون**﴾ أنهم شركاء معي؟ لكن الشركاء هناك لا أثر لهم ولا عين، وهذا الاستفهام إنما هو للتقريع والتبكيت.

[٧٦] وليس لهم أن يقولوا إنا لم نكن نعلم وحدة الاله فهناك الشهداء ـ من

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾

الأنبياء والأئمة والمرشدين ـ الذين يشهدون عليهم بأنهم بُلّغوا لكنهم عصوا إلا الشرك والكفر ﴿**ونزعنا**﴾ أي أخرجنا وأظهرنا ﴿**من كل أمة**﴾ من الأمم ﴿**شهيداً**﴾ يشهد عليكم بالتبليغ والإرشاد ﴿**فقلنا**﴾ للكفار ﴿**هاتوا برهانكم**﴾ أي ائتوا بحجتكم التي تدل على تعدد الآلهة ﴿**فعلموا**﴾ هناك ﴿**أن الحق لله**﴾ وحده لا لشركائهم، لكن حيث لم ينفعهم العلم ﴿**وضل عنهم**﴾ أي ذهب وتاه ﴿**ما كانوا يفترون**﴾ من الكذب على الله حيث كانوا يقولون إن الله اتخذ لنفسه شريكاً، إن آلهتهم بطلت، ولا برهان لهم، والشهداء، شهدوا عليهم بالإنذار وعلموا صحة قولهم، فما هو جزاؤهم؟ ليس إلا النار والخزي، حيث لا منجى ولا مهرب.

[٧٧] وبعد إتمام قصة موسى مع فرعون، وتعقيب القصة بجملة من المشاهد في القيامة وبعض تعقيبات القصة، يأتي السياق لينقل حلقة أخرى من حياة موسى عليه السلام، وهي حياته مع قارون الذي كان قريباً لموسى عليه السلام وكان عالماً حافظاً للتوراة كثير المال، لكنه لما ظلم لم ينفعه علمه وماله وقرابته وحفظه للكتاب، وفيه تنبيه لأهل الكتاب، كما في الآيات السابقة وتنبيه للكفار كي يعتبروا بما أصاب فرعون حيث قابل موسى بالكفر ﴿**إن قارون**﴾ وهو ابن خالة موسى عليه السلام، كما ورد عن الصادق عليه السلام[1] ﴿**كان من قوم موسى**﴾ من بني إسرائيل المؤمنين به

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٤٥٩ .

فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فبغى﴾ أي استطال وتكبر ﴿عليهم﴾ أي على قوم موسى حيث اغتر بماله وكماله وقرابته ﴿وآتيناه﴾ أي أعطيناه ﴿من الكنوز﴾ جمع كنز وهو المال المدخور في خابية أو صندوق أو نحوهما ﴿ما﴾ أي مقداراً كثيراً حتى ﴿إن مفاتحه﴾ جمع مفتح، بمعنى المفتاح، يعني مفاتيح بيوت أمواله وصناديق ذهبه وفضته ﴿لتنوء﴾ أي تثقل ﴿بالعصبة﴾ أي جماعة الرجال ﴿أولي القوة﴾ فما كانوا يتمكنون أن يحملوها إلا بمشقة، يقال: ناء بحمله إذا نهض به مع ثقله، وقد ورد أن العصبة ما بين العشرة إلى تسعة عشر[1]، وكان يحمل مفاتيح خزائنه بين هذين العددين من الرجال الأقوياء إذا أراد نقل المفاتيح من مكان إلى مكان، ولا بعد في ذلك، فإن المفتاح غالباً يصنع من الحديد ولو قدرنا أن عشرة مفاتيح تعادل الـ «كيلو» وإن عشرة كيلوات تثقل الإنسان، وإن الأموال كانت في صندوق ثم في غرفة، ثم في بيت، ولكلٍّ مفتاح خاص، لم يتجاوز المال من بضع ملايين، وفي عصرنا في العراق من قدر ماله بـ «ملايين الدنانير» ﴿إذ قال له قومه﴾ المؤمنون من بني إسرائيل، ﴿لا تفرح﴾ بهذا المال فرحاً يؤدي إلى البطر ﴿إن الله لايحب الفرحين﴾ جمع «فرح» وهو الذي يفرح من البطر والكبرياء، والمراد بـ «لا يحب» إنه يكرههم، إذا لا وساطة بين حب الله وكراهته، فإن الإنسان إذا كان طائعاً أحبه الله، وإن كان عاصياً كرهه،

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٤٤ .

وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ

ولعل الإتيان بـ «لا يحب» للتأدب.

[٧٨] ﴿**وابتغ**﴾ أي اطلب يا قارون ﴿**فيما آتاك الله**﴾ أي ما أعطاك من الأموال ﴿**الدار الآخرة**﴾ بأن تنفق منها في الخيرات وعلى الفقراء حتى تشتري الآخرة بها ﴿**ولا تنسَ نصيبك من الدنيا**﴾ إما بمعنى أطلب الدنيا بمالك كما تطلب الآخرة، وكان ذلك نهياً عن بذل جميع الأموال، كما قال سبحانه (وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ)[1] أو المراد لا تنس نصيبك من الدنيا التي أقبلت عليك لتحصّل بها الآخرة، فتكون الجملة تأكيداً للجملة السابقة، وإنما الفرق أنها للجانب السلبي، والجملة الأولى للجانب الإيجابي ﴿**وأحسن**﴾ إلى الناس، أو إلى نفسك بفعل الطاعات ﴿**كما أحسن الله إليك**﴾ بإعطائك المال والجاه وسائر النعم ﴿**ولا تبغ**﴾ أي لاتطلب ﴿**الفساد في الأرض**﴾ إما بمنع الحقوق والإنفاق، فإنه فساد وموجب لحرمان جماعة من الناس، وإما بصرف المال في المصارف المحرمة ﴿**إن الله لا يحب المفسدين**﴾ الذين يفسدون في الأرض، بمنع الحقوق، أو بتعاطي الفساد.

[٧٩] ﴿**قال**﴾ قارون في جواب نصيحة القوم ﴿**إنما أوتيته**﴾ أي أعطيت هذا المال ﴿**على علم عندي**﴾ فما للناس يتحكمون بي فأنا حصّلته

(١) الإسراء: ٣٠ .

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

بعلمي؟، وهو إما بمعنى إن الله أعطاني ذلك بسبب علمي وفضلي، وإما بمعنى إن ذكائي وفطنتي هما ورّثاني هذا المال، فلا حق لأحد فيه، وحيث إني قد جمعته بفضلي فلي أن أعمل فيه بما أشاء، وإما بمعنى علمي بالكيمياء، كما قيل إنه كان يعلم بالكيمياء، وقد جمع ماله من تبديل الصفر ذهباً **﴿أو لم يعلم﴾** قارون **﴿أن الله قد أهلك من قبله من القرون﴾** وسمي القرن قرناً، لتقارن أعمار الأشخاص فيه بعضهم مع بعض **﴿من هو أشد منه﴾** أي من قارون **﴿قوة وأكثر جمعاً﴾** للمال، فليس المعيار أن يكون الإنسان جمع المال لعلمه وفضله وإنما المعيار كيفية التصرف في المال، فإن تصرف الإنسان في المال تصرفاً حسناً بقي له، وإن تصرف تصرفاً سيئاً، فنى المال وأهلكه معه. إن قارون كان ينبغي أن يعلم هذا، لا ما تكبر به حيث قال «أوتيته على علم عندي».

فمن تكبر وعتى، وتصرف في المال تصرفاً سيئاً، فإنه مجرم، مصيره الهلاك، والمجرم يؤخذ بغتة **﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾** فلا يقال لهم ماذا فعلتم؟ إذا أريد إهلاكهم في الدنيا، وإن كان في الآخرة يسألون عن ذنوبهم لزيادة التقريع والتأنيب كما قال سبحانه: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)[1] وقال (وَقِفُوهُمْ

---

(١) الحجر: ٩٣.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ)[١].

[٨٠] إن قارون لم ينفع فيه النصح، بل بقي على تطاوله وكبريائه ﴿**فخرج**﴾ ذات يوم ﴿**على قومه**﴾ مستعرضاً ماله وترفه ﴿**في زينته**﴾ وفي أبّهة وجلال، يريد أن يري بني إسرائيل ثروته وعزته ﴿**قال الذين يريدون الحياة الدنيا**﴾ أي الحياة القريبة، من ضعفاء الإيمان ـ وهم كثيرون في المؤمنين دائماً ـ ﴿**ياليت لنا مثل ما أوتي قارون**﴾ من الأموال والثروة والزينة ﴿**إنه لذو حظ عظيم**﴾ أي نصيب وافر من الدنيا، فقد تمنوا مثل ماله ومنزلته.

[٨١] ﴿**وقال الذين أوتوا العلم**﴾ علم الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب للمؤمنين المتقين ﴿**ويلكم**﴾ أيها المتمنون ثروة قارون وجلاله، و «ويل» كلمة تستعمل بمعنى الدعاء على المقصود به، يعني «الهلاك لكم» أو «سوء الحال لكم» ﴿**ثواب الله**﴾ المعد للأخيار ﴿**خير**﴾ مما أوتي قارون ﴿**لمن آمن وعمل**﴾ عملاً ﴿**صالحاً**﴾ فلا تتمنوا مثل أمواله، كي تبتلون بطغيانه ويفوتكم الثواب ﴿**ولا يلقاها**﴾ أي لا تعطى الجنة ـ المشار إليها بقوله «ثواب الله» ـ ﴿**إلا الصابرون**﴾ الذين

---

(١) الصافات: ٢٥ .

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ

يصبرون في الحياة الدنيا عن الثروة إذا لم يجدوها فلا يحصلون عليها من الحرام.

[٨٢] وقد صار مال قارون وبالاً عليه ﴿**فخسفنا به**﴾ أي بقارون ﴿**وبداره**﴾ التي فيها الأموال ﴿**الأرض**﴾ أي انخسفت الأرض معهما، فذهب قارون هالكاً، وذهبت أمواله ضياعاً. قال القمي: وكان سبب هلاك قارون أنه لما أخرج موسى بني إسرائيل من مصر وأنزلهم البادية أنزل الله عليهم المن والسلوى ففرض الله عليهم دخول مصر وحرمها عليهم أربعين سنة وكانوا يقومون من أول الليل ويأخذون في قراءة التوارة والدعاء والبكاء وكان قارون منهم وكان يقرأ التوراة ولم يكن فيهم أحسن صوتاً منه وكان يسمى «المنون» لحسن قراءته وكان يعمل الكيمياء، فلما طال الأمر على بني إسرائيل في التيه والتوبة وكان قارون قد امتنع من الدخول معهم في التوبة وكان موسى عليه السلام يحبه فدخل عليه موسى فقال له: يا قارون قومك في التوبة وأنت قاعد ها هنا؟ ادخل معهم وإلا ينزل بك العذاب فاستهان به واستهزأ بقوله فخرج موسى من عنده مغتماً فجلس في فناء قصره وعليه جبة شعر وفي رجله نعلان من جلد حمار شراكهما من خيوط شعر وبيده العصا فأمر قارون أن يصب عليه رماد قد خلط بالماء فصب عليه فغضب موسى غضباً شديداً وكان في كتفه شعرات كان إذا غضب خرجت من ثيابه وقطر منها الدم فناجى موسى ربه فأوحى الله عز وجل إليه قد أمرت الأرض أن تعطيك فمرها بما شئت وقد كان قارون قد أمر أن يغلق باب القصر فأقبل موسى فأومأ إلى الأبواب فانفرجت ودخل عليه فلما نظر إليه قارون علم أنه قد أوتي بالعذاب فقال: يا موسى أسالك بالرحم الذي بيني وبينك فقال له موسى: يا بن لاوى

فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

لاتزدني من كلامك. وقال عليه السلام: يا أرض خذيه فدخل القصر بما فيه في الأرض، ودخل قارون في الأرض إلى ركبتيه فبكى وحلفه بالرحم فقال له موسى: يا بن لاوي لا تزدني من كلامك يا أرض خذيه فابتلعته بقصره وخزائنه[1]، أقول: لقد كان موسى عليه السلام في منتهى الحلم والرقة ولكن انحراف بني إسرائيل الشديد، كان يسبب له في بعض الأحيان أن يغضب لله سبحانه، والغضب لله تعالى من أفضل صفات الأنبياء، كما قال تعالى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[2].

﴿**فما كان له**﴾ أي لقارون ﴿**من فئة**﴾ أي جماعة، وسميت الجماعة فئة، لأن الإنسان يعود ويرجع إليها كلما دهمه أمر، من «فاء» بمعنى: رجع ﴿**ينصرونه**﴾ أي ينصرون قارون ﴿**من دون الله**﴾ أي سوى الله، يعني أن الله وحده كان قادراً على دفع العذاب عنه أما غيره فلا أحد كان يقدر على ذلك. وهذا من قبيل الاستثناء المنقطع الذي مرَّ الكلام في وجهه مكرراً ﴿**وما كان**﴾ قارون بنفسه ﴿**من المنتصرين**﴾ أي يقدر على أن ينصر نفسه.

[٨٣] ﴿**وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس**﴾ حين خرج عليهم في زينته فقالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴿**يقولون**﴾ متعجبين مما نزل بقارون من

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص٢٥١ .

(٢) الفتح: ٣٠ .

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ

العذاب ﴿**وي**﴾ اسم فعل بمعنى «أعجب» ﴿**كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده**﴾ بأن يوسعه عليه ﴿**ويقدر**﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء من عباده، فإنهما تابعان لمصالح خفية لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب النقص ﴿**لولا أن منّ الله علينا**﴾ حيث لم يوسع علينا حتى نطغى ﴿**لخسف**﴾ الأرض ﴿**بنا**﴾ كما خسف بقارون ﴿**وي**﴾ اعجب من هذه القصة ﴿**كأنه لا يفلح الكافرون**﴾ فلا يفوزوا بثواب الله ولا ينجوا من عقابه، فالحمد لله الذي لم يعطنا ما أعطاه حتى نبتلي بما ابتلى به. وقارون لم يظهر الكفر، وإنما قالوا ذلك لأن فعله كان فعل الكافرين ولذا جوزي بجزائهم، والإتيان بـ «كأن» تعبير عرفي لمن يريد أن يتراجع عن كلامه السابق، فإذا قلت: إن فلاناً زيد، ثم أردت أن ترجع عن كلامك بعد ما تبينته فرأيته عمرواً تقول: كأنه عمرو، وذلك للتدرج الحاصل للنفس من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر.

[٨٤] ثم بين سبحانه أن الآخرة إنما هي لمن لا يريد الاستكبار والفساد، في مقابل قارون الذي استكبر وطلب الفساد في الأرض، حتى يعلم المؤمن، أن الاستكبار والفساد يباينان الإيمان بالعالم الآخر ﴿**تلك الدار الآخرة**﴾ يعني الجنة ﴿**نجعلها**﴾ ونقدرها ﴿**للذين لا يريدون علوّاً في الأرض**﴾ أي استكباراً وتجبراً ﴿**ولا فساداً**﴾ أي لا يريدون عملاً

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٤﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾

بالمعاصي ﴿**والعاقبة**﴾ الجميلة المحمودة ﴿**للمتقين**﴾ الذين يتقون عقاب الله، فلا يعصونه.

[٨٥] ﴿**من جاء بالحسنة**﴾ أي بالصفة الحسنة، من الإيمان، والعمل الصالح ﴿**فله خير منها**﴾ عند الله، فإنه يعطي عشرة أضعاف جزائه، فمثلاً من تصدق بدينار أعطي عشرة دنانير ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ وتسمى سيئة لأنها تسيء إلى الإنسان ﴿**فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون**﴾ أي بمقدارالسيئة لا أزيد منها، وإنما أعد العذاب الشديد للسيئات لأنه بقدر جزائها حسب العقل والمنطق كما يجزي الساب للملك ـ مثلاً ـ بالقتل.

[٨٦] وإذ انتهت قصص موسى مع فرعون وبني إسرائيل وقارون، يتوجه السياق إلى الرسول، الذي كانت تلك القصص تسلية له، بقدر ما كانت تهديداً لكفار قريش فيقول ﴿**إن**﴾ الله ﴿**الذي فرض عليك القرآن**﴾ أي أوجب عليك العمل بأحكامه ﴿**لرادك**﴾ أي يردك ويرجعك ﴿**إلى معاد**﴾ أي محل العود والمراد به مكة، فلا تُشرّد عن بلادك بدون أن ترجع إليها ظافراً منتصراً، كما رجع موسى إلى أرض مصر ـ التي خرج منها خائفاً يترقب ـ ظافراً منتصراً، وقد قالوا: إنها نزلت حين خروج الرسول ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، حينما أراد الكفار

قُلْ رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٦﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ

قتله ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿**ربي أعلم من جاء بالهدى**﴾ منا، ومنكم، فقد كان الكفار يرون أنفسهم على حق وهدى، ويرون الرسول على باطل ﴿**ومن هو في ضلال مبين**﴾ إنه يعلم ذلك وسينصر الهادي، ويخذل الضال، وهذا كلام من يرى أن لا أثر في الجدال مع المعاند يسلي نفسه ويهدد طرفه، بالعاقبة.

[٨٧] إنك لا بد وأن ترجع إلى مدينتك، وإنك لا بد وأن تنتصر على الكفار، فإن رحمة الله لم تزل معك، ألم يلقي إليك الكتاب، وما كنت ترجو ذلك لولا رحمته؟ فإن رحمته التي أوجبت إلقاء الكتاب عليك هي التي تنصرك وتردك إلى وطنك ﴿**وما كنت**﴾ يا رسول الله ﴿**ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربك**﴾ يعني إنه لم يكن رجاء لولا الرحمة، وهذا صحيح، فلا يقال كيف لم يرج الرسول إلقاء الكتاب، وقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين؟ ﴿**فلا تكونن**﴾ يا رسول الله ﴿**ظهيراً للكافرين**﴾ أي معيناً لهم، بل جانبهم وباعدهم وحاربهم، فإن الذي رحمك في إلقاء الكتاب إليك، سيرحمك بنصرتك عليهم وإرجاعك إلى بلادك سيداً منتصراً.

[٨٨] ﴿**ولا يصدنك**﴾ أي لا يمنعنك الكفار ﴿**عن آيات الله**﴾ أي اتباع آيات الله، وإبلاغها للناس ﴿**بعد إذ أنزلت إليك**﴾ لا يمنعنّك عن تنفيذ

وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾

رسالتك خوفك منهم، فإن الله ناصرك ﴿**وادع إلى ربك**﴾ بالإيمان به واتباع أوامره ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ الذين يجعلون لله شريكاً.

[٨٩] ﴿**ولا تدع مع الله إلهاً آخر**﴾ وكان الفرق بين «ولا تكونن من المشركين» وبين هذا أن الأول نهي عن مجرد الشرك ولو القلبي منه، والثاني نهي عن الدعوة والدعاء إلى إله آخر، والرسول ﷺ كان منتهياً عن ذلك بدون نهي، وإنما جيء تعريضاً على المشركين، كما تقول لولدك المطيع: بني أطعني، تريد التعريض بخادمك الذي لا يطيعك ﴿**لا إله إلا هو**﴾ الله وحده لا شريك له، فهو الإله الأزلي ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ فهو الإله الأبدي، والمراد بالوجه «الذات» يقال هذا وجه الرأي أو وجه الطريق، ويراد الرأي والطريق، ولعل التعبير بالوجه للتنبيه على بقاء جهة الاتجاه إليه سبحانه، فليتوجه الإنسان إليه تعالى لأن وجهه باق أبدي، كلما أراد الإنسان أن يتجه إليه ويطلب منه الحاجة، قابله تعالى بوجهه، وهذا مجاز، وإلا فليس لله سبحانه وجه وسائر الأمور الجسمية والعرضية، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ﴿**له الحكم**﴾ فهو الحاكم في الكون، ولا يصدر شيء إلاّ عن حكمه وإرادته ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أيها البشر، في القيامة ليجزي كل إنسان بما عمل من شر أو خير، فهو واحد أزلي أبدي، بيده الحكم وإليه المرجع.



سورة العنكبوت

مكية أو مدنية/آياتها (٧٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «عنكبوت» وهي كسائر السور المكية تبين موضوع العقيدة الدائرة بين المبدأ والمعاد والرسالة، ولما ختمت سورة القصص بالوعد والوعيد، افتتحت هذه السورة بذكر الامتحان الذي من خرج منه ناجحاً نال الوعد، ومن خرج منه ساقطاً نال الوعيد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي هو بدأ التكوين والتشريع، فمن الجدير أن يُجعل اسمه الكريم بدء كل حركة وسكون، والتوصيف له بالرحم ـ مكرراً ـ للنيل من فيض رحمته الواسعة الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فلولا رحمة الله سبحانه لهلك الإنسان جسداً وروحاً، وبعد فإنه لولا رحمته ابتداءً لم يوجد.

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤﴾

---

[٢] ﴿**الم**﴾ «ألف» و «لام» و «ميم» من أمثالها تُركّب سور القرآن، تركيباً يوجب الإعجاز حتى لا يتمكن البشر من الإتيان بمثلها، أو التقدير: هذه «الم» فهو خبر مبتدأ محذوف، وقد تقدم التلميح إلى بعض الأقوال في «مقطعات السور» معنىً، وإعراباً.

[٣] ﴿**أحسب الناس**﴾ أي هل ظن الناس ﴿**أن يتركوا**﴾ في أمن وراحة، مجرد ﴿**أن يقولوا: آمنا**﴾ ثم تُدرّ عليهم الخيرات والبركات ويسعدوا في الآخرة والأولى ﴿**وهم لا يفتنون**﴾ أي لا يمتحنون بأنواع الشدائد، في طريق الإيمان، حتى يميز بين الصادق والكاذب، والمجاهد والقاعد؟ هل ظنوا ذلك؟ إنهم أخطأوا إن ظنوا إن مجرد التلفظ بالإيمان كاف في نيل السعادة.

[٤] وكيف يقتنع عنهم بمجرد التلفظ بالإيمان ﴿**و**﴾ الحال إنا ﴿**لقد فتنا**﴾ وامتحنا ﴿**الذين من قبلهم**﴾ من المؤمنين الذين أظهروا الإيمان، في الأمم السابقة، امتحانهم بأنواع الشدائد والمحن، فكيف نترك هؤلاء بلا امتحان؟ ﴿**فليعلمن الله**﴾ أي يمتحن ليعلم بالتأكيد ﴿**الذين صدقوا**﴾ في إيمانهم حتى أنه لا يزول بالمصائب والمحن ﴿**وليعلمن الكاذبين**﴾ الذين كذبوا في دعوى الإيمان، بل كان لقلقة لسان، والمراد بالعلم تعلق العلم بالمعلوم بوقوعه في الخارج، فإنه يقال «علم» لمن جهل ثم علم، كما يقال: «علم» لمن علم ولكن لم يكن معلومه خارجياً ثم أوجد المعلوم في الخارج، فإنّ العلم الفعلي إنما

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَمَن جَٰهَدَ

يتحقق بتحقق المعلوم الفعلي.

[٥] لقد كان ذلك للمؤمنين، أما الكافرون، فإن موقفنا معهم أشدّ ﴿**أم حسب الذين يعملون السيئات**﴾ «أم» منقطعة، أي: هل حسب وظن العاملون بالمحرمات ﴿**أن يسبقونا**﴾ أي يفوتوننا، فلا نلحقهم تشبيه بمن يلحق المجرم الذي فرّ، وقد سبقه في الفرار حتى لم يلحق به، إن من أجرم بالنسبة إلى أوامر الله، لا يفوت الله، بل يدركه الطلب وإن فرّ إلى كهوف الجبال ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ أي ساء الحكم حكمهم، الذي حكموا حسب ظنهم بأنّا لا ندركهم ولا ننتقم منهم، فالله سبحانه يمتحن، ومن رسب في الامتحان يدركه وينتقم منه، فليخش الناس مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم من عقاب الله سبحانه.

[٦] أما من آمن ونجح في الامتحان فليطمئن بنصر الله ﴿**من كان يرجو لقاء الله**﴾ أي يأمل ثوابه سبحانه، بأن آمن وعمل صالحاً، فإنه هو الذي يرجو، أما غيره فقوله أنا راج، كذب، لأنه من قبيل من لم يبذر ويقول أنا راج ريع زرعي ﴿**فإن أجل الله**﴾ أي الوقت الذي وقّته الله للقائه وثوابه ـ والإضافة لأدنى مناسبة ـ ﴿**لآت**﴾ أي يأتي قطعاً، فلا خلف في وعده ﴿**وهو السميع**﴾ لأقوال عباده ﴿**العليم**﴾ بأعمالهم ونياتهم، فيكون جزائه عادلاً لا ظلم فيه.

[٧] ﴿**ومن جاهد**﴾ الشيطان ونفسه والأعداء، وهو مشتق من «جهد» بمعنى

فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ

أتعب نفسه في دفاعه لأجل الإيمان ﴿**فإنما يجاهد لنفسه**﴾ إذ فائدة الجهاد تعود إليه ﴿**إنّ الله لغني عن العالمين**﴾ فهو لا يحتاج إلى جهاد المؤمنين، وإنما المؤمنون يحتاجون إلى الجهاد لنيل السعادة لأنفسهم.

[٨] ﴿**والذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر وما جاء به الرسول ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ الملازم لعدم السيئات ﴿**لنكفرن**﴾ أي نبطلنّ ونمحون ﴿**عنهم سيئاتهم**﴾ التي اقترفوها حتى يبقون بلا سيئة ﴿**ولنجزينّهم**﴾ أي نعطيهم الجزاء بـ ﴿**أحسن الذي كانوا يعملون**﴾ إما المراد أحسن جزاء أعمالهم، كأن يكون الجزاء مثلاً للعمل الفلاني درجة واحدة فنعطيهم درجتين، وإما المراد يعطون جزاء أحسن أعمالهم، أما الأعمال السيئة التي توجب النكال، والأعمال التي توجب خفة الإنسان ونزول رتبته في أعين الناس، فلا نجزيهم عليها.

[٩] وحيث ذكر سبحانه جزاء من عمل الصالحات أشار إلى ما هو من أهمّ الأعمال الصالحة، الذي هو بر الوالدين فقال ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه**﴾ أي أمرناه أن يعاشر والديه ﴿**حسناً**﴾ بإطاعتهما، والنزول عند رغبتهما.

﴿**وإن جاهداك**﴾ أيها الإنسان، وألزماك ﴿**لتشرك بي**﴾ بأن تجعل لي شريكاً، حيث كانا مشركين ﴿**ما ليس لك به علم**﴾ «ما» مفعول

فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ

«تشرك» أي تجعل شيئاً شريكاً لي، وليس لك بذلك الشريك علم، من باب السالبة بانتفاء الموضوع، إذ تعلم إنه ليس لي شريك، فلا شريك حتى تعلمه، كما يقال: لا يعلم الله لنفسه شريكاً، يعني إنه لا شريك له حتى يعلمه ﴿**فلا تطعهما**﴾ في الإشراك بي ﴿**إليّ**﴾ أي إلى حسابي وجزائي ﴿**مرجعكم**﴾ أي رجوعكم أيها البشر، و«مرجع» مصدر ميمي فلا تخالفوا أوامره حتى تُبتلوا بالعقاب والنكال ﴿**فأنبئكم**﴾ أي أخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ والمراد بالإخبار الجزاء على العمل، كما تقول لمن تريد وعده أو إيعاده: سأخبرك بعملك.

[١٠] ﴿**والذين آمنوا**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ رجوع إلى ما سبق ليرتب عليه قوله ﴿**لندخلنهم في الصالحين**﴾ أي في جملتهم وزمرتهم.

[١١] وإذ قد سبق امتحان الله للمؤمنين ولزوم الجهاد في سبيله ذكر السياق من ليس كذلك ممن يظهر الإيمان ولا يجاهد ويرسب عند الامتحان ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله**﴾ بمجرد قولة اللسان ﴿**فإذا أوذي**﴾ آذاه الكفار ﴿**في الله**﴾ أي في جهة علاقته بالله وإيمانه به ﴿**جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ ويظن أنه إن ترك الإيمان لا يُعذّب بعذاب الله أكثر من هذا العذاب الذي يلقاه بواسطة إيمانه، ولذا يفكر في الرجوع عن

وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ

الدين، لأنّ عذاب الله آجل، وعذاب الناس له ـ المساوي في زعمه لعذاب الله ـ عاجل، ولم يُعذّب نفسه عاجلاً خوفاً من عذاب آجل؟ هذا هو مقدار إيمانه في البلاء، فإنه لا يطيق ويسقط عند الامتحان، وإذ ذهب الإيذاء وجاء النصر، بسط ادعائه في وجه المؤمنين قائلاً أنه كان معهم في ساعة الشدة ليجعل نفسه في مقدمة القافلة فيحوز الجاه العريض، بعد تلك الانتكاسة ﴿**ولئن جاء نصر من ربك**﴾ يا رسول الله، لك وللمؤمنين، وذهب أذى الكفار ﴿**ليقولن**﴾ ذلك الساقط في الامتحان المتراجع عند الإيذاء ﴿**إنّا كنا معكم**﴾ أيها المؤمنون في ساعة العسرة ﴿**أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾؟ من الإيمان والنفاق، وألم يعلم سبحانه أن هذا كيف انتكس عند البلاء؟ فهيهات أن يُجعل كالصابرين القانتين الصامدين أمام الإغراء والإيذاء.

[١٢] ﴿**وليعلمنّ الله الذين آمنوا**﴾ بحقيقة الإيمان فدخل الإيمان قلوبهم حتى أن الافتتان لا يصرفهم عن حقيقة إيمانهم ﴿**وليعلمن**﴾ الله ﴿**المنافقين**﴾ الذين آمنوا ظاهراً، فإذا فتنوا جعلوا فتنة الناس كعذاب الله.

[١٣] ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ بالله ورسوله ﴿**للذين آمنوا**﴾ بحقيقة الإيمان ﴿**اتبعوا سبيلنا**﴾ في الكفر والطغيان ﴿**ولنحمل خطاياكم**﴾فنحن نحمل

وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ

آثامكم عنكم، ومرادهم بذلك أن لا إثم حقيقي في اتباع الكفر والعصيان، وإنما هو إثم خيالي، إذ لا بعث ولا نشور، ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله ﴿**وما هم بحاملين من خطاياهم**﴾ إن كفروا وكذبوا ﴿**من شيء**﴾ قليل أو كثير، فإن الله سبحانه لا يعذب أحداً بذنب آخر، نعم إن على هؤلاء عقاب الإضلال، لكن ذلك لا يخفف من عقاب الأتباع شيئاً، بل للمضل عقاب إضلاله، ولمن ضل عقاب ضلاله ﴿**إنهم لكاذبون**﴾ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

[١٤] ﴿**وليحملنّ**﴾ هؤلاء الذين أضلوا ﴿**أثقالهم**﴾ أي أوزار أعمال أنفسهم ﴿**وأثقالاً مع أثقالهم**﴾ أي أوزار إضلالهم للناس ﴿**وليسألن**﴾ يسألهم الله سبحانه ﴿**يوم القيامة عما كانوا يفترون**﴾ من أنه لا ذنب للكفر والعصيان كما يقولون للمؤمنين يريدون إغواءهم، والمراد بسؤالهم منهم أنهم يسألون مقدمة للعقاب، فإن المجرم يُسأل عنه سؤال تقرير ليّعذب حسب جوابه.

[١٥] ثم ينتقل السياق إلى بعض قصص الأنبياء لإنذار كفار مكة بأنهم إن لم يؤمنوا كان مصيرهم مصير الأقوام من قبلهم حيث كذبوا الرسل فأخذهم الله بعقاب كفرهم وعصيانهم ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾ ليدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿**فلبث فيهم**﴾ أي مكث داعياً لهم إلى

﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

الإيمان ﴿**ألف سنة إلا خمسين عاماً**﴾ أي تسعمائة وخمسين سنة فلم يجيبوه، ولم يؤمن إلا نفر قليل منهم، ومثل هذا العمر ممكن فقد وصل العلم الحديث إلى إمكان تمديد العمر بواسطة الأغذية والأدوية ﴿**فأخذهم الطوفان**﴾ وهو أن نزل من السماء المطر وتفجرت الأرض عيوناً، حتى علا الماء وأغرق الكل، والطوفان الماء الكثير الغامر سُمي طوفاناً لأنه يطوف ـ بكثرته ـ في نواحي الأرض، أو في النواحي التي يقع الكلام فيها ﴿**وهم ظالمون**﴾ قد ظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان.

[١٦] ﴿**فأنجيناه**﴾ أي خلصنا نوحاً منهم ومن الطوفان ﴿**وأصحاب السفينة**﴾ فقد أُمر نوح أن يصنع سفينة ويركبها هو والمؤمنون وركبها ونجا من الغرق ﴿**وجعلناها**﴾ أي السفينة، أو هذه القصة بكاملها ﴿**آية**﴾ دالة على التوحيد، أو على عذاب المكذبين ﴿**للعالمين**﴾ أي الخلائق الذين يأتون بعد ذلك.

[١٧] ﴿**و**﴾ لقد أرسلنا ﴿**إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله**﴾ ولا تعبدوا سائر الآلهة الباطلة ﴿**واتقوه**﴾ بإتيان أوامره واجتناب نواهيه ﴿**ذلكم**﴾ «ذلك» إشارة إلى ما ذكره من العبادة لله والتقوى و«كم» خطاب ﴿**خير لكم**﴾ من الكفر والعصيان، والتفصيل هنا منسلخ عن معنى الفضل، أو المراد

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ

بالنسبة إلى الخير الذي هم فيه مع الكفر ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أي إن كان لكم علم بالواقع لعلمتم أنّ الإيمان والتقوى خير.

[١٨] ﴿**إنما تعبدون**﴾ أنتم ﴿**من دون الله**﴾ أي من غير الله ﴿**أوثاناً**﴾ جمع «وثن» والمراد به الصنم أي أنكم تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿**وتخلقون إفكاً**﴾ أي تقولون كذباً، في قولكم إنّ هذه الأوثان آلهة، والكذب يسمى خلقاً باعتبار أن الكاذب يخلقه ويأتي به من العدم إلى الوجود مع أنه لا حقيقة له، بخلاف الصدق الذي هو حكاية من الواقع والخارج ﴿**إن الذين تعبدون من دون الله**﴾ أي الأصنام، وإنما أتى بضمير العاقل، جرياً على كلام القوم عند الحوار، كما قال الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخة
قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

﴿**لا يملكون لكم رزقاً**﴾ فليست أرزاقكم التي تُرزقونها مملوكة لهذه الأصنام حتى تقولوا إنا نعبدها لما تُهيئ لنا من الرزق، أو تقولوا إنما نعبدها لتدر علينا الأرزاق ﴿**فابتغوا**﴾ واطلبوا ﴿**عند الله الرزق**﴾ فإنه هو المالك للرزق والمعطي له. وكم يقبح أن يتصرف الإنسان في رزق الله، ويعبد غيره، ويطلب من لا يكون بيده الرزق ويترك الطلب ممن بيده الرزق؟ ﴿**واعبدوه**﴾ وحده ﴿**واشكروا له**﴾ على ما أنعم

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

عليكم، فهو الإله وهو المتنعم ﴿**إليه**﴾ تعالى ﴿**ترجعون**﴾ أي إلى حسابه وجزائه مرجعكم إذا متم وإذا قامت القيامة، فهو المُبدئ، وهو المعيد، وهو المعطي لكم الرزق الآن.

[١٩] ثم قال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿**وإن تكذبوا**﴾ قولي ولم تؤمنوا بي ﴿**فقد كذب أمم من قبلكم**﴾ أنبياءهم، فلم يضر التكذيب الأنبياء ﴿**و**﴾ إنما ضر المكذبين إذ ﴿**ما على الرسول**﴾ أي ليس عليه شيء ﴿**إلا البلاغ المبين**﴾ أي أن يبلغ بلاغاً ظاهراً واضحاً، فإذا أنجز عمله فقد ترى من عهدة ما كُلف ويلقى جزائه الحسن.

[٢٠] ﴿**أولم يروا**﴾ هؤلاء الكفار، وهذا إما من تتمة كلام إبراهيم، أو هذه الآية والسابقة واللواحق، معترضة بين أثناء الكلام، جيء بها للإيقاظ والتنبيه ﴿**كيف يبدئ الله الخلق**﴾ من العدم إلى الوجود ﴿**ثم يعيده**﴾ بعد الإماتة، كما أنشأه من العدم، فإن من يقدر على الابتداء قادر على الإعادة ﴿**إنّ ذلك**﴾ الإرجاع والإعادة بعد الموت ﴿**على الله يسير**﴾ سهل هيّن، فكيف ينكرون البعث وهم يرون النشأة الأولى؟ كما أنهم كيف ينكرون وجود الله وهم يرون آثاره؟ وكيف ينكرون الرسالة وقد رأوا المكذبين كيف أهلكوا؟.

[٢١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، للكفار ﴿**سيروا في الأرض**﴾ بالسفر إلى البلاد،

فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

والمرور على الصحارى والقفار ﴿**فانظروا كيف بدأ**﴾ الله ﴿**الخلق**﴾ فإنّ الإنسان يألف الجو الذي ينشأ فيه ولذا يتفتح قلبه إلى مشاهد الخلقة الخارجية التي تظهر في الأولاد إذا ولدوا، والنبات إذا نبت، وهكذا أما إذا سار لفت نظره إلى رؤية البلاد، وتقلب الأحوال ﴿**ثم الله**﴾ بعد إهلاك الناس أجمع ﴿**ينشأ النشأة الآخرة**﴾ فإنه كما أنشأها ابتداءً ينشؤها ثانياً، ومعنى الإنشاء الإيجاد ﴿**إنّ الله على كل شيء قدير**﴾ فإنه سبحانه على الإنشاء والإفناء والإعادة قادر، فكيف ينكر هؤلاء المعاد؟.

[٢٢] إنه يعيد الخلق ليجازيهم حسب أعمالهم فـ ﴿**يعذب من يشاء**﴾ ممن كفر وعصى، فإنّ الله سبحانه حكيم لا يفعل عبثاً أو خلاف العدل ﴿**ويرحم من يشاء**﴾ من آمن وأطاع ﴿**وإليه**﴾ أي إلى جزائه وحسابه ﴿**تقلبون**﴾ أيها البشر، ومعنى تقلبون: ترجعون، لأن الرجوع هو انقلاب الإنسان من حال إلى حال.

[٢٣] وإنكم أيّها الكفار لا تقدرون على الإفلات من عقاب الله سبحانه، فإن الإنسان تحت قدرة الله، يقلبه كيف يشاء، ويفعل به ما يشاء، سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿**وما أنتم**﴾ أيّها الكفار ﴿**بمعجزين**﴾ الله تعالى بأن تصنعوا صنعاً يمنع من أخذكم والعذاب على أعمالكم، سواء كنتم ﴿**في الأرض ولا في السماء**﴾ على تقدير إن

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٣) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي

تمكنتم من الذهاب إليها، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم
غلب الرجال فلم تنفعهم القلل[1]

﴿**وما لكم من دون الله**﴾ أي سواه ﴿**من ولي**﴾ يلي أموركم ﴿**ولا نصير**﴾ ينصركم، فلا أحد يتولى شؤونكم، ولا أحد ينصركم، فما تظنون من أن الأصنام تنفع فهو ظن باطل، إذن فأنتم بذاتكم لاتتمكنون من إعجازه سبحانه، ولا ناصر لكم حتى يقف ذلك الناصر دون بأس الله.

[٢٤] ﴿**والذين كفروا بآيات الله**﴾ بأن كذبوا الآيات التكوينية ولم يعترفوا بدلالتها على وجود الله، وكذبوا بآيات الله المنزلة بأن قالوا إنّها ليست من قبل الله تعالى ﴿**ولقائه**﴾ فقالوا أن لا بعث ولا نشور، والمراد لقاء ثوابه وجزائه ﴿**أولئك يئسوا من رحمتي**﴾ فإنه لا عمل لهم حتى يستحقّوا الثواب، فيكون لهم رجاء، والمعنى إنهم يائسون حقيقة، وإن كان فيهم من لا يأس له، وهذا كقوله «لا ريب فيه» حيث يراد فيه أنه ليس محلاً للريب، وإن ارتاب فيه المبطلون، وهذا من تتمة قوله «ويرحم من يشاء» حتى لا يزعم الكفار أنهم يدخلون في زمرة من يرحمهم الله، كما قال ذلك الكافر: (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص٣٢١.

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ

خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً)[١] ﴿**وأولئك لهم عذاب أليم**﴾ مؤلم موجع في النار، وهذا بالتأكيد، فهو طرف الإيجاب، ويئسوا، طرف السلب.

[٢٥] لقد كان إبراهيم عليه السلام يحتج على قوله بأنواع الاحتجاج، كما سبق بعضه ﴿**فما كان جواب قومه**﴾ أي قوم إبراهيم عليه السلام وهم نمرود وسائر الكفار المعاصرون له ﴿**إلا أن قالوا اقتلوه**﴾ أي اقتلوا إبراهيم جزاءً على دعوته إلى التوحيد وتعييبه الأصنام ﴿**أو حرقوه**﴾ بالنار وأخيراً استقر رأيهم على إحراقه، وألقوه في النار ﴿**فأنجاه الله من النار**﴾ إذ قال سبحانه للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿**إنّ في ذلك**﴾ الذي ذكر من قصة إبراهيم: دعوته، وكيد الأعداء، وإنجائه ﴿**لآيات**﴾ دالة على أنه كيف ينصر الله أوليائه، ويخذل أعدائه ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ أن الله ينصر أولياءه، و يخذل أعداءه أما غيرهم فلا يعتبرون بهذه القصص، ولذا لاينتفعون بهذه الآيات.

[٢٦] ﴿**وقال**﴾ إبراهيم عليه السلام لقومه، إما بعد نجاته من النار، وإما قبل إلقائه في النار، وآخر السياق هذه الجملة، لاستعجال المخاطب أن يعرف كيف صارت النتيجة ـ كما هو الطبيعي في أمثال هذه القصص ـ ﴿**إنما اتخذتم**﴾ أيها القوم ﴿**من دون الله أوثاناً**﴾ أي أصناماً، لأجل ﴿**مودة**

---

(١) الكهف: ٣٧ .

بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٦﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

بينكم في الحياة الدنيا﴾ فإنّ الأصنام كانت تجمعهم على العقيدة الواحدة، فإذا أراد أحدهم الخروج عن عبادتها انفصمت مودته عن سائر أقربائه وأصدقائه، ولذا كان يحافظ على هذه المودة بالاستمرار في عبادتها، فاتخاذكم للأصنام للمجاملة لا للعقيدة، لكن هذه المودة تنقلب عداوة يوم القيامة **﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾** أي يتبرأ بعض الكفار من بعض، القادة من الأتباع والأتباع من القادة **﴿ويلعن﴾** ويسب **﴿بعضكم بعضاً﴾** فيلعن الأتباع القادة الذين أضلوهم، ويلعن القادة الأتباع لئلاّ يحملوا إثم الأتباع **﴿ومأواكم﴾** أي مرجعكم ومصيركم **﴿النار﴾** جزاءً لشرككم **﴿وما لكم من ناصرين﴾** ينصرونكم ويدفعون العذاب عنكم.

[٢٧] إنّ القوم لم يؤمنوا بإبراهيم، **﴿فآمن له﴾** أي لإبراهيم **﴿لوط﴾** النبي عليه السلام، وهو ابن أخت إبراهيم ومعنى آمن أنه صدقه في دعوته، وإن كان هو أيضاً نبياً **﴿و﴾** لما أن رأي إبراهيم أنهم لا تنفع فيهم الدعوة **﴿قال إني مهاجر﴾** من بلادكم وقد كان قرب الكوفة **﴿إلى ربي﴾** أي إلى المكان الذي يختاره ربّي **﴿إنه هو العزيز﴾** الغالب سلطانه، فلا يذل من نصره **﴿الحكيم﴾** الذي يفعل الأشياء بالحكمة والصواب.

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٨﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

---

[٢٨] ﴿**ووهبنا له**﴾ أي لإبراهيم ﴿**إسحاق**﴾ من سارة زوجته العقيمة، فقد كان إعطائه الولد منها خارقاً، أما إسماعيل عليه السلام، فقد كان من الطريق المألوف ﴿**ويعقوب**﴾ ابن إسحاق، جد بني إسرائيل ﴿**وجعلنا في ذريته**﴾ أي في ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿**النبوة والكتاب**﴾ فقد بعث الله منهم أنبياء كثيرين وما موسى وعيسى ومحمد «صلوات الله عليهم أجمعين» إلا من ذريته عليه السلام، وقد أعطي التوراة والإنجيل والقرآن ﴿**وآتيناه**﴾ أي أعطينا إبراهيم ﴿**أجره**﴾ أي جزاء بلاغه وصموده في الدعوة ﴿**في الدنيا**﴾ حيث رفعنا مقامه، وجعلنا له الذكر الحسن، وجعلنا السيادة والملك والنبوة في أولاده وأحفاده ﴿**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ بأن يكون في زمرة الأنبياء العظام.

[٢٩] ﴿**و**﴾ أرسلنا ﴿**لوطاً**﴾ إلى قومه ﴿**إذ قال لقومه**﴾ ويجوز أن يكون التقدير، واذكر لوطاً حين تكلمه مع قومه ﴿**إنكم لتأتون الفاحشة**﴾ أي لتعملون الخلة الفاحشة في الإثم، فإن فحش بمعنى تجاوز الحدّ، واللواط إذ كان كبيرة جداً، يسمى بالفاحشة ﴿**ما سبقكم بها**﴾ أي بهذه الفاحشة ﴿**من أحد من العالمين**﴾ فإنكم اخترعتموها، ومن المعلوم أن البادئ في العمل القبيح أظلم، لأنه يعلّم غيره ويمهد السبيل لغيره.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾

---

[٣٠] ﴿**أإنكم**﴾ أيها القوم ﴿**لتأتون الرجال**﴾ أي تفعلون معهم ﴿**وتقطعون السبيل**﴾ فقد اشتهر عملهم الفاحش في القرى المجاورة، وإن من يمر بهم يفعلون به، ولذا ترك الناس المرور بمدنهم، خوف الفضيحة ﴿**وتأتون في ناديكم المنكر**﴾؟ النادي هو محل الاجتماع، مشتق من النداء، لأن بعض الناس ينادي بعضاً آخر للاجتماع والذهاب إليه، فقد كانوا يتحابقون في النادي بغير حشمة واحترام، ولعلّ أن نواديهم كانت مركزاً لأنواع الفسوق، كما هو الطبيعي في مثل تلك الأمة، ونشاهد مثلها في زماننا هذا، ومن المعلوم أن الاستفهام إنكاري ﴿**فما كان جواب قومه**﴾ أي قوم لوط ﴿**إلا أن قالو ائتنا**﴾ وجيء إلينا ﴿**بعذاب الله**﴾ الذي تعدنا على كفرنا ومنكرنا ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ في دعواك وما تقول بأن البقاء على الكفر والعصيان موجب للعذاب.

[٣١] عند ذاك ﴿**قال**﴾ لوط عليه السلام مناجياً ربه، يا ﴿**رب انصرني على القوم المفسدين**﴾ بتعذيبهم، ونجاتي منهم، وقد دعا بذلك بعد ما يأس من اهتدائهم.

[٣٢] وقد استجاب الله دعاء لوط، فأرسل جبرائيل ومعه ملكين آخرين لتعذيب أهل القرية، وفي طريقهم إلى بلاد لوط مرت الملائكة على

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ

إبراهيم عليه السلام ﴿**ولما جاءت رسلنا إبراهيم**﴾ جلسوا عنده في زيٍّ لم يعرفهم، ثم عرفهم، وزفّوا إليه ﴿**بالبشرى**﴾ أي البشارة بإسحاق، وإن الله يرزقه ولداً من زوجته «سارة» بعد ذلك ﴿**قالوا**﴾ أي الملائكة ﴿**إنا مهلكوا أهل هذه القرية**﴾ أي قرية قوم لوط، وقد كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام ﴿**إن أهلها كانوا ظالمين**﴾ كافرين مرتكبين للفواحش والمنكرات.

[٣٣] ﴿**قال**﴾ إبراهيم عليه السلام للرسل ﴿**إنّ فيها**﴾ أي في القرية ﴿**لوطاً**﴾ وهو عبد صالح، فكيف تهلكون القرية وهو فيها؟ ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الملائكة في جواب إبراهيم ﴿**نحن أعلم**﴾ من غيرنا ﴿**بمن فيها**﴾ فلا نريد إهلاك الجميع حتى لوط عليه السلام ﴿**لننجينه**﴾ أي نخلص لوط ﴿**وأهله**﴾ المؤمنين بإخراجهم من القرية ﴿**إلا امرأته**﴾ فإنها تبقى لتعذب فيمن يُعذّب لأنها فاسدة ظالمة كسائر القوم ﴿**كانت**﴾ المرأة ﴿**من الغابرين**﴾ أي الباقين لتعذب مع القوم، من «غبر» بمعنى مضى، كأنها تمضي فيمن يمضي.

[٣٤] ﴿**و**﴾ تحركت الملائكة من عند إبراهيم قاصدين قرى لوط و ﴿**لما أن جاءت رسلنا**﴾ أي الملائكة ﴿**لوطاً**﴾ عليه السلام ﴿**سئ بهم**﴾ أي ساء لوط

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً

مجيء الرسل، فإنه لم يعرفهم ابتداءً وظنهم ضيوفاً آدميين، وقد كانوا أصحاب جمال، فخاف لوط إن اطلع القوم أن يعملوا معهم الفاحشة ﴿**وضاق**﴾ لوط ﴿**بهم**﴾ أي بسبب الرسل ﴿**ذرعاً**﴾ هذا تمييز لـ «ضاق» أي ضاق من حيث الذرع، وهو الطاقة، وقد عرف القوم بمكان الضيوف، وجاءوا لأخذهم وعمل الفاحشة، فخاف لوط من الفضيحة، وهناك أظهر الرسل حقيقة أمرهم ﴿**وقالوا**﴾ للوط ﴿**لا تخف**﴾ علينا ولا على نفسك ﴿**ولا تحزن**﴾ بما نفعله بالقوم من العذاب، أو لا تحزن علينا، فإنهم لن يصلوا إلينا ولا إليك ﴿**إنا منجوك وأهلك**﴾ أي ننجيك من العذاب الذي يشملهم ﴿**إلا امرأتك**﴾ الكافرة فإنا لا ننجيها بل نذرها مع القوم ﴿**كانت من الغابرين**﴾ من جملة الباقين لتعذب بعذابهم.

[٣٥] ﴿**إنا منزلون على أهل هذه القرية**﴾ التي أنت بها، وهي «سدوم» ﴿**رجزاً**﴾ أي عذاباً ﴿**من السماء بما كانوا يفسقون**﴾ أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله بالكفر والعصيان.

[٣٦] ثم خرج لوط والمؤمنون ليلاً، ونزل العذاب على أهل القرية ﴿**ولقد تركنا منها**﴾ أي أبقينا من القرية ﴿**آية بينة**﴾ أي علامة واضحة، وهي آثار منازلهم الخربة، وأرضهم التي لا تنبت

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَعَادًا

﴿**لقوم يعقلون**﴾ فإذا ذهب الإنسان من الحجاز إلى الشام، أو رجع رأى أرضهم اليباب في الطريق.

[٣٧] ﴿**و**﴾ أرسلنا ﴿**إلى مدين**﴾ اسم قبيلة سميت باسم جدهم الأعلى «مدين» ﴿**أخاهم شعيباً**﴾ فإن شعيب كان من نفس تلك القبيلة ﴿**فقال**﴾ لهم ﴿**يا قوم اعبدوا الله**﴾ وحده لا شريك له ولا تتخذوا الأصنام آلهة شركاء مع الله ﴿**وارجوا اليوم الآخر**﴾ أي اعتقدوا به، راجين لثوابه، وذلك كناية عن طلبه لهم ـ فوق الاعتقاد بالقيامة ـ العمل الصالح لأجل لقائه ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ يقال «عثى» إذا أفسد فساداً كثيراً، ولعل التأكيد بـ «مفسدين» لإفادة أن لا يكون فسادهم عن قصد وتعمد، أي لا تفسدوا في الأرض عامدين.

[٣٨] ﴿**فكذبوه**﴾ وقالوا له أنت تكذب في وحدة الإله، ووجود اليوم الآخر، وإنك رسول من قبل الله ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ صاح بهم جبرائيل صيحة رجفت واضطربت منها أجسامهم ﴿**فأصبحوا في دارهم**﴾ التي ينبغي أن يكونوا في أمن وسلام فيها، فإن الإنسان يصاب بالمكروه في الأسفار لافي الديار ﴿**جاثمين**﴾ من جثم، بمعنى بقي بدون حركة، وهو كناية عن موتهم من تلك الصيحة.

[٣٩] ﴿**و**﴾ أهلكنا أيضاً ﴿**عاداً**﴾ بعد ما أنذرهم النبي هود عليه السلام، فلم يقبلوا

وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٤٠﴾

قوله ﴿**وثموداً**﴾ بعد ما أنذرهم النبي صالح فكذبوه ﴿**وقد تبين لكم**﴾ يا كفار قريش، بعض ﴿**من مساكنهم**﴾ الباقية في أطراف بلادكم، فكان «حجر» بلاد ثمود في طرف الشام، والأحقاف بالقرب من حضرموت يمن بلاد عاد ﴿**وزين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ فكانت أعمالهم العصيانية مزينة في أعينهم، والمزين هو الشيطان، لأنه الذي يوسوس بالقبائح إلى الإنسان ﴿**فصدهم**﴾ أي منعهم ﴿**عن السبيل**﴾ أي سبيل الله ﴿**وكانوا مستبصرين**﴾ يبصرون الأمور ويميزون بين الحق والباطل، ومع ذلك ارتكبوا المعاصي فأهلكوا، والمراد بهذا أنهم، قد تمت عليهم الحجة.

[٤٠] ﴿**و**﴾ أهلكنا ﴿**قارون**﴾ الذي كان من قوم موسى، ومرت قصته في السورة السابقة ﴿**وفرعون**﴾ الذي كان يقول أنا ربكم الأعلى ﴿**وهامان**﴾ وزير فرعون ﴿**ولقد جاءهم**﴾ أي جاء إلى هؤلاء الثلاثة ﴿**موسى**﴾ النبي عليه السلام ﴿**بالبينات**﴾ أي بالحجج الواضحات من العصا واليد، وفلق البحر وغيرها ﴿**فاستكبروا**﴾ أي طلبوا الكبرياء ﴿**في الأرض**﴾ ولم يخضعوا لأوامر موسى، لما قد ظنوا أن في ذلك منافاةً لمقامهم وعظمتهم ﴿**وما كانوا سابقين**﴾ أي لم يفوتنا، تشبيه بمن يسبق الطالب في الفرار، فلا يتمكن من اللحاق به ليعاقبه.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ

[٤١] ﴿**فكلاً**﴾ من تلك الأقوام، وأولئك الأفراد الذين عتوا عن الحق، ولم يطيعوا الأنبياء ﴿**أخذنا بذنبه**﴾ أي عذبناه حسب معصيته ﴿**فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً**﴾ وهي الحجارة، وهم قوم لوط الذين أمطروا بالحجارة ﴿**ومنهم من أخذته الصيحة**﴾ وهم ثمود، وأهل مدين، حيث صاح بهم جبرائيل فأهلكوا من شدة وقع الصيحة في قلوبهم وعلى أرواحهم ﴿**ومنهم من خسفنا به الأرض**﴾ فذهب في الأعماق، وهو قارون ﴿**ومنهم من أغرقنا**﴾ في البحر، وهو فرعون وهامان وقومهما ﴿**وما كان الله ليظلمهم**﴾ في تعذيبهم بهذه الأنواع من العذاب من غير ذنب، وبدون إتمام الحجة ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان فرأوا جزاء أعمالهم.

[٤٢] ألا فليعتبر كفار قريش بهذه العبر، وإلا أصابهم ما أصاب أولئك، وماذا يتخذ الكفار من الآلهة؟ فهل هؤلاء الأولياء يقاسون بالله؟ كلا إنها أوهن من بيت العنكبوت، ومثل هؤلاء الذين يتخذون الأصنام آلهة كمثل العنكبوت التي تبقى وتحرز نفسها بالبيت الضعيف الذي صنعته من خيوط واهية لا بقاء له، ولا يقيها من شر الأعداء ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء**﴾ وهي الأصنام التي كان المشركون

﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٣﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾

يتولونها، ويجعلونها أولياء لهم عوض أن يتخذوا الله ولياً ﴿**كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً**﴾ لنفسها لتأوي إليه، ويقيها الكوارث، فكما أن بيت العنكبوت لا يفيدها شيئاً، كذلك أولياء هؤلاء لا يفيدونهم شيئاً ولا يضرونهم في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿**وإن أوهن البيوت**﴾ التي تصنعها الحيوانات ﴿**لبيت العنكبوت**﴾ فإن بيتها يطير بنفح من وهنه وضعفه ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي لو كان هؤلاء يدركون الواقع، لعلموا أن أولياءهم كبيت العنكبوت الذي لا يغني شيئاً.

[٤٣] فليعملوا ماشاءوا، وليتخذوا من شاءوا أولياء، فهم بعلم الله، وسيجزيهم بما اقترفوا ﴿**إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء**﴾ أي أنه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفار من الأصنام، فهو يعلم دعوتهم، كما يعلم معبوداتهم، وهذا تهديد لهم، كما تقول: أنا أعلم من تجالس، تريد تهديده في هذه المجالسة ﴿**وهو العزيز**﴾ سلطانه، فإذا أراد شيئاً تمكن عليه ﴿**الحكيم**﴾ لا يفعل شيئاً إلا حسب المصلحة، فتأخير إهلاك هؤلاء، ليس عجزاً، بل عن حكمة وصلاح.

[٤٤] ﴿**وتلك الأمثال**﴾ الأشباه والنظائر التي نشبه بها بعض الأمور، كتشبيه أولياء الكفار ببيت العنكبوت ﴿**نضربها للناس**﴾ أي نذكرها لهم، وقد سبق أنه يسمى «ضرباً» باعتبار أنه يوجد اصطداماً في الذهن، مما

وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٤﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ

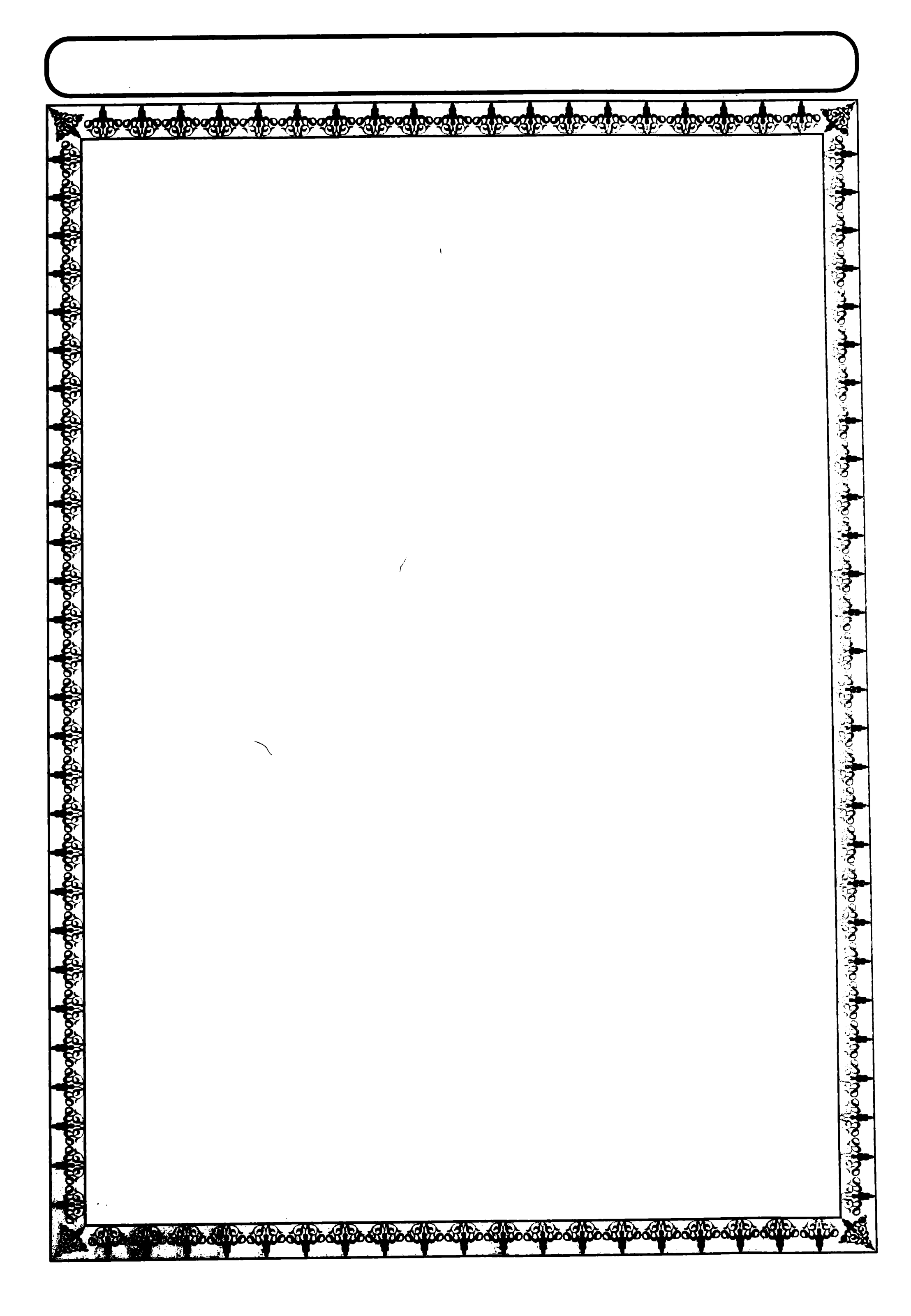
يسبب تركيز المطلب وبقائه ﴿**وما يعقلها**﴾ أي ما يفهم الأمثال ﴿**إلا العالمون**﴾ فإن العلماء هم الذين تهز مشاعرهم الأمثال، أما من سواهم، مما لا فكر له ولا تدبير، فيبقى جامداً لا حراك لذهنه.

[٤٥] إن كل ما يذكره سبحانه للحق لا للهو، ومنه ضرب المثل، فقد ﴿**خلق الله السماوات والأرض بالحق**﴾ فلم يكن خلقهما لأجل اللعب واللهو، فكيف من يخلق الأشياء بالحق يأتي بالمثل لعباً؟ إذ فعل الواحد بعضه يشبه بعضاً؟ ﴿**إن في ذلك**﴾ أي في خلق الكون ﴿**لآية**﴾ دالة على وجود الله وصفاته ﴿**للمؤمنين**﴾ لأنهم المنتفعون بهذه الآية، وإن كان كونه علامة عامة لجميع العقلاء، فكيف يتخذ الكفار من دونه أولياء؟

[٤٦] ﴿**اتل**﴾ أي أقرأ يا رسول الله ﴿**ما أوحى إليك من الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**وأقم الصلاة**﴾ أي أدّها بحدودها وآدابها ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ الفحشاء صفة للمعصية المقدرة، وهي أعظم من المنكر لاعتبار كونها فاحشة في الحرمة متعدية للحدود تعدياً كثيراً، من فحش بمعنى تعدى، والمنكر كل عصيان ينكره العقل والشرع، وإنما كانت الصلاة ناهية عن المنكرات، لأنها ـ باستمرارها ـ تولد في الإنسان ملكة الخوف من الله الموجب لاجتناب المعاصي ﴿**ولذكر**

ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٦﴾

الله﴾ بأن يكون الإنسان متذكر لله سبحانه دائم الأوقات، حتى لا يصدر منه عصيان إطلاقاً، لخوفه منه تعالى **﴿أكبر﴾** من الصلاة، لأن الصلاة من إحدى مصاديق الذكر ولوازمه **﴿والله يعلم ما تصنعون﴾** أيها البشر، فاعملوا الطاعات، ولا تعملوا المعاصي، فإنكم تحت إطلاعه وعلمه، لا يفوته شيء من أعمالكم، ولعل المراد بهذه الآية، إعلام النبي، بأنه يستمر في عمله ودعوته، فلا يهتم بما يفعله المشركون والعصاة، إنه مأمور بالسير فمن شاء تبعه، ومن لم يشأ بقى في كفره وضلاله.

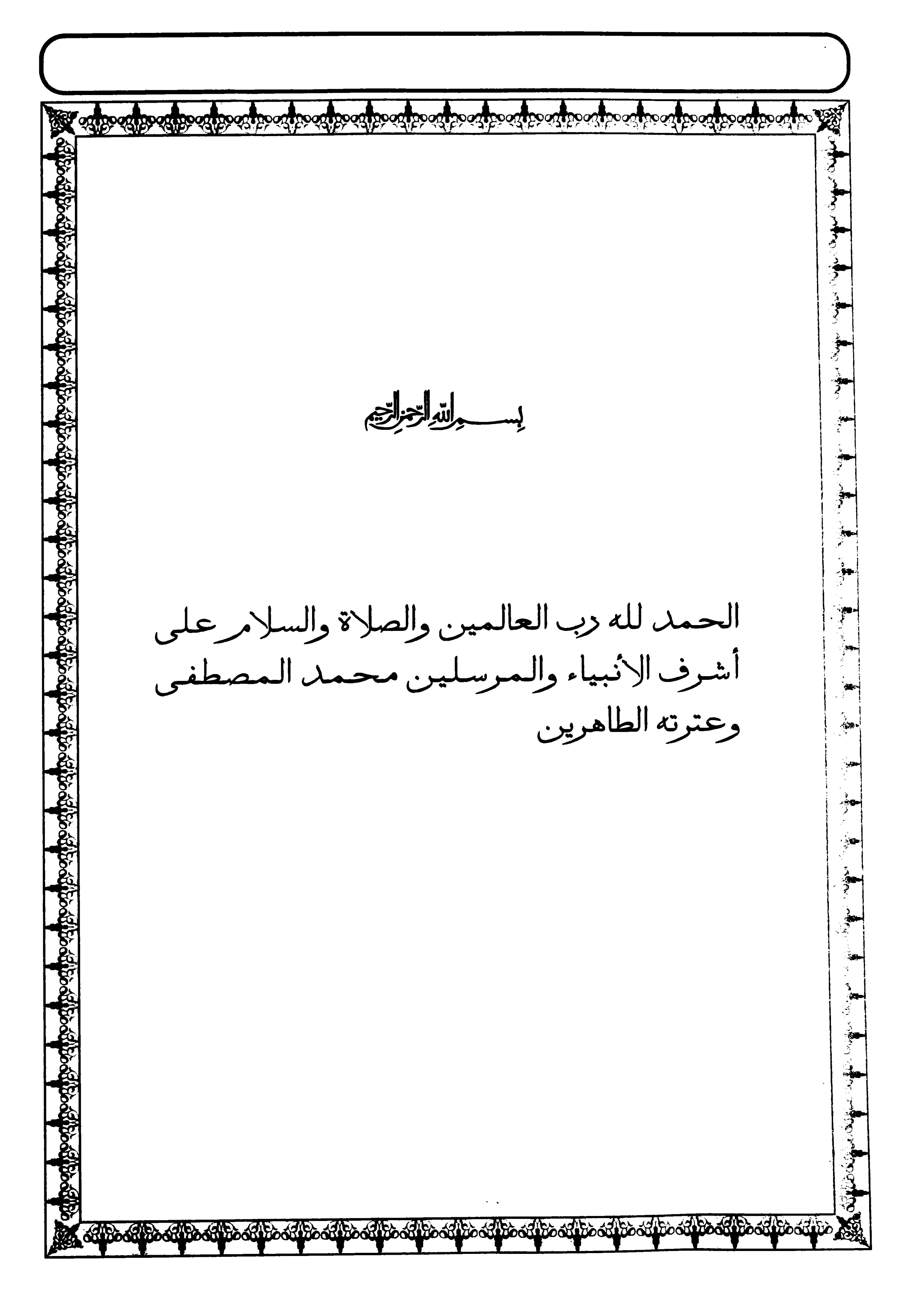




الجزء الحادي والعشرون

من آية (٤٧) سورة العنكبوت

إلى آية (٣١) سورة الأحزاب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٧﴾

[٤٧] ولما ذكر سبحانه لزوم الدعوة إليه سبحانه، وتقدم قسم من الاحتجاجات مع المشركين، بين كيفية دعوة أهل الكتاب، وخصهم بالذكر لأنهم أكثر خطراً على الدعوة الإسلامية من المشركين، فإنهم إن ثارت حفيظتهم عملوا عملهم في هدم الإسلام، فقال سبحانه ﴿**ولا تجادلوا**﴾ أيها المسلمون، والجدال الاحتجاج مع الخصم في مطلب مختلف فيه ﴿**أهل الكتاب**﴾ وهم اليهود والنصارى والمجوس ﴿**إلا بالتي هي أحسن**﴾ أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق، بأن تكون بعيدة عن آثار الغضب، قريبة إلى النصفة، قوية في الحجة، برفق ولين ﴿**إلا الذين ظلموا منهم**﴾ بالاعتداء في البحث والإفراط، فإن أخذ طرف اللين، وجانب الرفق، يوجب تقوية جانبهم، فإنه مباح أن تكون المجادلة حينئذ بالمثل ﴿**وقولوا**﴾ لهم عند الجدل ﴿**آمنا**﴾ نحن المسلمين ﴿**بالذي أنزل إلينا**﴾ وهو القرآن ﴿**وأنزل إليكم**﴾ وهو التوراة أو الإنجيل ـ مثلاً ـ ﴿**وإلهنا**﴾ نحن المسلمين ﴿**وإلهكم**﴾ أنتم أهل الكتاب ﴿**واحد**﴾ فلا نعبد إلهاً لاتعبدونه ﴿**ونحن له**﴾ لذلك الإله ﴿**مسلمون**﴾ قد خضعنا وأنقذنا، وإذ كان لنا ولكم أمور مشتركة، فلنجتمع عليها، وندع الأمور المفرقة، ككون البشر الفلاني ابن الله، ونحو ذلك وهذا مثل قوله سبحانه (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)[١]

---

(١) آل عمران: ٦٥ .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ

[٤٨] ﴿**وكذلك**﴾ أي كما أنزلنا على موسى وعيسى عليهما السلام الكتاب ﴿**أنزلنا إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**الكتاب**﴾ الذي هو القرآن، فالكتب كلها منزلة من عند إله واحد، لغاية واحدة، وإنما التحريف حصل من أهواء قوم قد ضلوا أو أضلوا ﴿**فالذين آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم ﴿**الكتاب**﴾ بأن كانوا حقيقة من أهل الكتاب لا من أهل الأهواء والتعصب ﴿**يؤمنون به**﴾ أي بهذا الكتاب الذي أنزل إليك ﴿**ومن هؤلاء**﴾ الكفار الذين في مكة ﴿**من يؤمن به**﴾ أي بالقرآن ﴿**وما يجحد بآياتنا**﴾ ينكرها، ولا يعترف بها ﴿**إلا الكافرون**﴾ الذين كفروا بالله، ولا يريدون الحق، سواء كانوا في زي أهل الكتاب، أو في زي المشركين وإلا فالأدلة الدالة على صدق هذا الكتاب متوفرة، فما يمنعهم عن الإيمان، إلا بالكفر والجحود؟

[٤٩] وقد حفظنا هذا القرآن عن كل شبهة، لمن أراد الحق والإنصاف، فقد جعلنا الرسول أمياً لم يختلف إلى معلم قط، فلم يكن القرآن محل شبهة أن يكون الرسول تعلم قبلاً ثم جاء به ﴿**وما كنت**﴾ يا رسول الله ﴿**تتلو**﴾ وتقرأ ﴿**من قبله**﴾ أي من قبل القرآن ﴿**من كتاب**﴾ فلم يكن الرسول قارئ حسب الموازين الاجتماعية، وإن كان يعرف القراءة بإلهام الله تعالى ﴿**ولا تخطه**﴾ أي لم تكن تكتب الكتاب ﴿**بيمينك**﴾

إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٩﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا

أي بيدك، وإنما خصّ اليمين، لأنه الغالب في الكتابة ﴿**إذاً**﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب ﴿**لارتاب المبطلون**﴾ أي لوجد المبطلون طريقاً للتشكيك في القرآن، ولقالوا إنما جمعه مما تعلمه سابقاً، وإنما قال «المبطلون» لأن الارتياب أيضاً في ذلك الوقت كان في غير محله إذ إن الكاتب القارئ، لا يتمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن.

[٥٠] إذن لم يكن القرآن مجموعاً من علوم سابقة تعلمها الرسول، ثم جاء بها بهذه الصورة ﴿**بل هو**﴾ أي القرآن ﴿**آيات بينات**﴾ واضحات في كونها خارقة من عند الله سبحانه، لا من صنع بشر، وتأليف إنسان ﴿**في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ فمن كان عالماً، يعلم أن هذا القرآن، لايمكن أن يأتي به بشر، فقوله «في صدور» متعلق بـ «بينات» أي أنها واضحة عند أهل العلم، أما الجهّال، فإنهم لا يميزون بين المعجز، وبين المؤلف، كما لم يميزوا بين عصا موسى، وسحر السحرة، وبين إحياء عيسى وطب الأطباء ﴿**وما يجحد بآياتنا**﴾ وينكرها، بل يقول إنها مختلقة اختلقها الرسول ﴿**إلا الظالمون**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف عن منهج الحق، فتمسكوا بالافتراء لإطفاء نور الإسلام.

[٥١] ﴿**وقالوا**﴾ أي الكفار ﴿**لولا**﴾ أي هلاّ، ولماذا ما ﴿**أنزل عليه آيات من ربه**﴾ خارقة، كخارقة العصا، واليد البيضاء؟ فإنه لو كان نبياً لأتى بمثل ما أتى موسى، فقد أعرضوا عن القرآن المعجز الباقي، إلى طلب معجزة مادية مؤقتة ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، في جوابهم ﴿**إنما**

ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الآيات عند الله﴾ فإذا شاء أنزلها، وإن لم يشأ لم ينزلها، أما ما يكفي للحجة، فقد أتيتكم به، وأما للمعاند، فلا تكفي حتى تلك الآيات المادية ﴿**وإنما أنا نذير مبين**﴾ أي منذر واضح إني من قبل الله تعالى، أما كيفية المعجزة، فهو سبحانه أعلم بمصالح العباد، وقد كان هؤلاء معاندون، وإلا ألم يكفر الناس بموسى (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)[1] ثم إن الله خصّ كل نبي بآية تناسب زمانه، وزمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان زمن الفصاحة والبلاغة، كان المناسب له الإتيان بهذا الجنس من الإعجاز ـ كما قرر ذلك في علم الكلام مفصلاً ـ.

[٥٢] ﴿**أولم يكفهم**﴾ أي ألا يكفي هؤلاء الكفار، دليلاً على صدقك ونبوتك ﴿**أنا أنزلنا عليك**﴾ يا رسول الله ﴿**الكتاب**﴾ الذي هو القرآن ﴿**يتلى عليهم**﴾ ويقرأ لديهم، فلا يتمكنون من الإتيان بأقصر سورة منه، مع أنهم فصحاء بلغاء؟ ﴿**إن في ذلك**﴾ الإنزال للكتاب ﴿**لرحمة**﴾ حيث يقرر القرآن مناهج السعادة للبشر ﴿**وذكرى**﴾ تذكر البشر، بما أودع فيهم من الفطرة بالنسبة إلى المعارف والآداب، وأصول الاجتماع ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ وإنما خصهم، لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، وإلا فالقرآن ذكرى لجميع البشر، وهل بعد هذا الكتاب العظيم، يطلب

---

(١) القصص: ٤٩ .

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾

منك الكفار أن تأتيهم بآية مادية، لا تقرر للحياة منهجاً، ولا تذكر الإنسان تذكيراً؟

[٥٣] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين يناقشون في نبوتك ويطلبون الخوارق المادية للإيمان برسالتك ﴿**كفى بالله**﴾ أي كفى الله، وإنما جيء بالباء، لأنه بمعنى اكتفى فلان بالله ﴿**بيني وبينكم شهيداً**﴾ فالنزاع الذي بيني وبينكم حول رسالتي، يشهد الله لي، وذلك لأنه أجرى هذه الخارقة ـ وهو القرآن ـ على لساني، ولو كنت كاذباً لتمكن كل فصيح أن يأتي بمثله، ولا مجال، لأن تقولوا إن الله لا يعلم بادعائك هذا، حتى يرد عليك ويمنعك، فإنه ﴿**يعلم ما في السماوات والأرض**﴾ فكيف لا يعلم بي، وبادعائي ﴿**والذين آمنوا بالباطل**﴾ بأن عبدوا الأصنام، وجعلوها آلهة ﴿**وكفروا بالله**﴾ بأن أنكروه أو أشركوا به ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ الذين خسروا أنفسهم، فعوض أن يعطوا النفوس، ليحصلوا على الجنة، أعطوا النفوس فحصلوا على النار، حتى ابتليت نفوسهم، كالخاسر الذي يذهب رأس ماله، وحيث إن طرف كلام الرسول كان المشركين الذين ينكرون التوحيد، والرسالة، والمعاد، جاءت الآيات معترضة لكل ذلك، فلا يقال أي ربط بإنكارهم للرسالة التي كان التعرض عليها في أول الآية، مع الذين آمنوا بالباطل؟

[٥٤] ﴿**ويستعجلونك**﴾ يا رسول الله ﴿**بالعذاب**﴾ أي يطلبون عجلة العذاب

وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٤﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٥﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ

لأنفسهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول، إن كان حقاً، فادع ربك أن ينزل علينا العذاب ـ استهزاءً ـ لأن يقولوا، حيث لم تقدر على إنزال العذاب، فأنت كاذب، لا اتصال لك بالله ﴿**ولولا أجل**﴾ ووقت قدّره الله لهم ﴿**مسمى**﴾ قد سمّي ذلك الوقت في اللوح المحفوظ ﴿**لجاءهم العذاب**﴾ الذي استحقوه، فإنه سبحانه قدّر لهم أجلاً، للامتحان، ولإيمان بعض الكافرين، لذا ترى أنه لو عجل على كفار مكة العقاب، فات إيمان جماعة منهم آمنوا بعد ذلك ﴿**و**﴾ لا يستبطئ الكفار العذاب، فإنهم إن بقوا على كفرهم ﴿**ليأتينهم**﴾ العذاب ﴿**بغتة**﴾ أي فجأة بدون سابق إنذار، وذلك عند مماتهم، أو عند حرب الرسول لهم، وقتلهم وأسرهم، أو ما أشبه، كما ابتلى جماعة منهم بأنواع الأمراض المهلكة ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ بوقت إتيان العذاب حتى يأخذوا حذرهم.

[٥٥] ﴿**يستعجلونك بالعذاب**﴾ أي إن هؤلاء، إنما يطلبونك يا رسول الله، بأن تجعل لهم العذاب في الدنيا، فلنأخذ أنهم لم يعذبوا هنا ـ لبعض المصالح ـ فهل لهم إفلات عن عذاب جهنم؟ كلا ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ مشتملة عليهم بحيث لا مفرّ لأحد منهم، منها، وسيلاقونها ويعذبون فيها بأنواع العذاب.

[٥٦] إن عذاب جهنم ليحيط بهم في ﴿**يوم يغشاهم العذاب**﴾ ويسترهم

مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿**من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ فهم في وسط النار المحيطة بهم ﴿**ويقول**﴾ الله لهم ﴿**ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ أي جزاء أعمالكم فقد أسند ما للمسبب إلى السبب، إذ العمل سبب العذاب.

[٥٧] وإذ رأينا جزاء الكافرين فلننظر إلى المؤمنين كيف يجازون، وقد كان الكفار يؤذونهم وهم في مكة، ويخاف المؤمنون إن بقوا هناك أن يقتلوهم ـ كما قتلوا ياسراً وسمية ـ وإن خرجوا أن يقتلوهم، لئلا ينشروا الدعوة خارج البلاد، ولذا عقّبوا جعفراً حين ذهب إلى الحبشة، فخاطبهم سبحانه بقوله ﴿**يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة**﴾ فأنتم عبادي، وهذه أرضي واسعة أمامكم ﴿**فإياي فاعبدون**﴾ ولا تشركوا بي شيئاً، فإن تمكنتم من عبادتي في بلادكم، فهو، وإلا فاخرجوا منها إلى حيث تتمكنون من عبادتي فيها.

[٥٨] وإن خفتم من القتل والموت عند الهجرة؟ فهوّنوا على أنفسكم ذلك، أليس مصير كل إنسان إلى الفناء؟ ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ أي تذوق الموت حتماً «من فاته اليوم سهم لم يفته غداً» فلا تخافوا من الموت، إن احتملتم لقائه في هجرتكم ﴿**ثم إلينا ترجعون**﴾ فنجازيكم على حسن أعمالكم، وهذان سببان محفّزان لعدم مبالاة المؤمن بالموت، الأول، أن الموت يدرك الإنسان لا محالة، والثاني، أنه يرجع إلى الله الذي أعد له كل ثواب وجزاء حسن.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ

[٥٩] وهناك الجنة التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين **﴿والذين آمنوا﴾** بالله ورسوله وما جاء به **﴿وعملوا﴾** الأعمال **﴿الصالحات﴾** بأن عملوا بالأوامر، واجتنبوا النواهي **﴿لنبوئنهم﴾** أي لننزلنهم **﴿من الجنة غرفاً﴾** يتخذونها مبوّءً، ومحلاً لسكناهم، وغرف جمع غرفة، وهي العالية من البناء المشرفة على الأرض **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** فإنها جارية على الأرض، فهم فوقها **﴿خالدين فيها﴾** أي في حال كونهم دائمين في تلك الجنة والنعمة **﴿نعم﴾** ذلك **﴿أجر العاملين﴾** الذين عملوا بالطاعة، واجتنبوا المعصية، أي أنه أجر حسن.

[٦٠] ثم وصف العاملين بأهم الصفات التي يحتاج إليها الإنسان الذي وقع في فتنة واختبار **﴿الذين صبروا﴾** على دينهم، وإن لاقوا صنوف الأذى **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** يفوضون أمورهم إليه، ويوكلونه في مهامهم.

[٦١] وإذ أمر المسلمين بالهجرة، وذكر لهم أن خوفهم من الموت ـ المحتمل للمهاجر ـ لا ينبغي أن يعبأ به، بيّن أن ما يخافه المهاجر، من اختلال أمر معيشته ـ حيث إن الإنسان في غربته عن وطنه، لا يتمكن من تحصيل المعاش ـ أيضاً مما لا ينبغي أن يعتنى به، أليس الله هو الرازق للدواب التي لا تعرف تحصيل الرزق؟ فهو قادر على أن يرزق المهاجرين، حينما ينقطعون عن موارد أرزاقهم، التي كانت مهيأة في أوطانهم **﴿وكأين﴾** هي بمعنى «كم» الخبرية، أي وكم **﴿من دابة﴾**

لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ

تدب على وجه الأرض ﴿**لا تحمل رزقها**﴾ أي لا تقدر على حمل وتحصيل رزقها لضعفها، وعدم شعورها على التحمل والطلب ﴿**الله يرزقها وإياكم**﴾ أي يرزق تلك الدابة الضعيفة ويرزقكم ﴿**وهو السميع**﴾ لأقوالكم ﴿**العليم**﴾ بنياتكم، فلا تقولوا ولا تنووا شيئاً ينافي إيمانكم.

[٦٢] ثم يرجع السياق إلى المحاورة مع الكفار المنكرين للتوحيد والرسالة والمعاد، فيقول سبحانه ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي سألت الكفار، يا رسول الله، أو أيها السائل ﴿**من خلق السماوات والأرض**﴾ بأن أنشأها وأخرجهما من العدم إلى الوجود ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ ذللهما حتى يسيران بهذا السير المنظّم لمنافع العباد ﴿**ليقولن**﴾ في جواب ذلك ﴿**الله**﴾ هو الخالق المسخّر، إذ لا يتمكنون أن يقولوا صنع كل ذلك الصنم ﴿**فأنى يؤفكون**﴾؟ أي بعد هذا الاعتراف، كيف يصرفون من عبادة الإله، إلى عبادة الأصنام؟ من أفك بمعنى صرف، ويسمى الكذب إفكاً، لأنه صرف الكلام عن الحقيقة نحو خلاف الواقع.

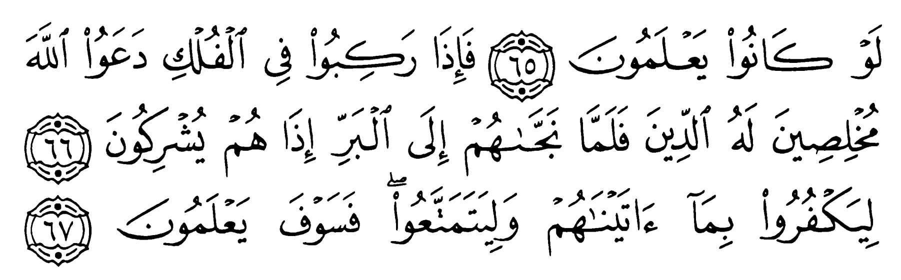
[٦٣] ﴿**الله**﴾ هو الخالق المسخر، وهو الرازق المقدر، فلماذا يعبدون الأصنام؟ الله ﴿**يبسط الرزق**﴾ أي يوسعه ﴿**لمن يشاء من عباده**﴾ أن يوّسع عليه ﴿**ويقدر له**﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء من عباده، من

إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ

«قدر» بمعنى ضيق، والظاهر أن لفظ «له» عائد إلى لفظ «من يشاء» لا إلى معناه حتى يستلزم التناقص، ويحتاج في جوابه إلى التزام تعدد الوقت ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ فيعلم مصالح العباد، وطبق ذلك العلم الواسع يوسع في الرزق لبعض، ويضيق فيه لبعض.

[٦٤] ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي سألت الكفار العابدين للأصنام ﴿**من نزل من السماء ماءً**﴾ أي المطر ﴿**فأحيا به**﴾ أي بذلك الماء ﴿**الأرض**﴾ بأن أوجد فيها حركة تقتضي إنبات النبات ﴿**من بعد موتها**﴾ حيث لا حركة لها ولا إنماء ـ أو إن الإحياء للنبات، ونسب إلى الأرض بعلاقة الحال والمحل ـ ﴿**ليقولن**﴾ في الجواب ﴿**الله**﴾ يحيي الأرض بعد موتها ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، بعد ما سمعت هذا الاعتراف منهم ﴿**الحمد لله**﴾ فقد اعترفتم بأن الله هو الوحيد في إدارة الكون، كما اعترفتم من قبل بأنه هو الوحيد في الخلق والرزق ﴿**بل أكثرهم لا يعقلون**﴾ توحيد الإله مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق المصرف.

[٦٥] إنهم بعد أن اعترفوا بالإله، يلفتهم السياق إلى المعاد ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو**﴾ موجبة لأن يلهو الإنسان، وينسى الحقائق والغرض الأصلي من الخلقة ﴿**ولعب**﴾ كلعب الأطفال يشغل الإنسان مدة ثم يزول وينصرم ﴿**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان**﴾ أي الحياة الحقيقية



التي يصح أن يقال لها حياة، وحياة وحيوان، بمعنى واحد، يقال حيى حياة وحيواناً ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي لو علموا الفرق بين الحياتين لرغبوا في تلك، وزهدوا في هذه.

[٦٦] إن هؤلاء الذين يشركون بالله، قد دلت فطرتهم على وحدة الإله، حتى أنهم ليتوسلون في المشاكل إليه وحده، أما إذا انحلت المشكلة، رجعوا إلى كفرهم، جرياً حسب المألوف عندهم، والتقليد ﴿**فإذا ركبوا**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**في الفلك**﴾ أي السفينة، واضطربت بهم الأمواج ﴿**دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ أي توسلوا إليه في حال كونهم يخلصون له الطريقة والدعوة، فلم يدعوا الشركاء لأنهم يعلمون أن لا منجي إلا الله سبحانه ﴿**فلما نجاهم إلى البر**﴾ بأن لم يهلكوا وأتوا إلى البر سالمين بفضله سبحانه ﴿**إذا هم يشركون**﴾ أي عادوا إلى شركهم، كما كانوا سابقاً، وكان الإتيان بلفظة «إذا» لإفادة المبالغة، فإنه كان من التوقع منهم أن يبقوا موحدين بعد تلك الكارثة، فإذا بهم يفاجئون الناس بالشرك.

[٦٧] ﴿**ليكفروا**﴾ لعل اللام لام الأمر، جيء للتهديد نحو «إفعل ما شئت» أي فليكفر هؤلاء ﴿**بما آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم من الحياة، والصحة والغنى وسائر الخيرات ﴿**وليتمتعوا**﴾ بمتع الحياة من مأكل ومشرب، وملبس ومنكح ومركب ﴿**فسوف يعلمون**﴾ عاقبة كفرهم، وهي النار والعذاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٩﴾

[٦٨] ومن عجيب أمر هؤلاء، أن الله قد أنعم عليهم، وهم يبدلون نعمة الله كفراً، فقد أعطاهم حرماً آمناً، ثم هم يجعلون الحرم مركزاً للأصنام، فمن يا ترى جعل الحرم آمنا غير الله؟ ﴿**أولم يروا**﴾ أي ألم يعلم هؤلاء الكفار ﴿**أنا جعلنا**﴾ لهم ﴿**حرماً آمناً**﴾ يحترم فيه دماءهم وأموالهم من القتل والغارة ﴿**ويتخطف الناس من حولهم**﴾ يختطفهم أعداءهم، فالقبائل تغير بعضها على بعض، فيقتلوا ويأسروا، أليس هذا يقتضي أن يشكروا الله على هذه النعمة ويوحدوه؟ ﴿**أفبالباطل**﴾ وهي الأصنام ﴿**يؤمنون**﴾ فيجعلونها آلهة؟ ﴿**وبنعمة الله**﴾ التي أنعمها عليهم ﴿**يكفرون**﴾ فيجعلون الحرم الذي هو نعمة الله عليهم، محلاً للأصنام والأوثان، فإن كفران النعمة أن تصرف في معصية الله.

[٦٩] ﴿**ومن أظلم**﴾ أي لا أظلم من هكذا إنسان ـ والحصر إضافي ـ ﴿**ممن افترى على الله كذباً**﴾ ككفار مكة الذين جعلوا لله شركاء افتراءً وكذباً ﴿**أو كذب بالحق**﴾ أي كذّب بالرسول ﷺ والقرآن ﴿**لما جاءه**﴾ يريد إرشاده وهدايته ﴿**أليس في جهنم مثوىً**﴾ أي محل ثوى وإقامة ﴿**للكافرين**﴾ فليعملوا ما يشاءون، فإن مصيرهم إلى النار، وهل هناك كفر أعظم من الشرك وتكذيب الرسل؟

[٧٠] إن في وسط هذا الزحام الخانق، والجو الكافر، من يجاهد في الله

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٠﴾

بالإيمان، والأعمال الصالحة، فإنه يهتدي إلى طريق الحق، الموصل له إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿**والذين جاهدوا فينا**﴾ أي من أجلنا، وابتغاء مرضاتنا وطاعتنا ﴿**لنهدينهم سبلنا**﴾ جمع سبيل وهو الطريق الذي قررنا لأجل الرشاد والصلاح والخير والسعادة، وهذا عام، فكل من جاهد في طريق فتح أمامه باب الحق والصدق ﴿**وإن الله لمع المحسنين**﴾ الذين يحسنون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم، فإنه تعالى معهم بالنصرة والغلبة والسعادة في الدارين.



سورة الروم

مكيّة/ آياتها (٦١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الروم» وإشارة إلى قصة لهم مع الفرس، وهي كسائر السور المكية، تطرق طرفاً من العقيدة والتوحيد والرسالة والمعاد، قال في المجمع: أجمل في آخر العنكبوت ذكر المجاهدين، ثم فصل في هذه السورة، فقال.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء، كان الشيء مطبوعاً بطابع الإيمان، فله سمة المؤمنين في الظاهر، وعليه رعاية الله في الباطن، فإن من هتف باسم شخص جعله ظهيراً لنفسه، أليس أبدى إنه من جمعه وحزبه؟ واستمداد من الرحمة المطلقة والفيض العميم الذي وسع كل شيء، لتشمله الرحمة الخاصة، واللطف المخصوص.

الٓمٓ ﴿٢﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٣﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٤﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ

[٢] ﴿**الم**﴾ رمز بين الله ورسوله ﷺ، أو المراد، إن هذا الكتاب من جنس «ألف» «لام» «ميم» أو غير ذلك من الأقوال البالغة نيفاً وعشرين، وهو خبر مبتدأ محذوف، أي «هذا: الم» حذف خبره، أي «الم: هذا الكتاب».

[٣] ﴿**غلبت الروم**﴾ فقد كان بين الروم، وهم المسيحيون، وكانوا في طرف غرب الجزيرة، تقريباً، وبين الفرس، وهم المجوس، وكانوا في شرق الجزيرة، تقريباً حروب دامية على طول الخط، فتارة يغلب هؤلاء على هؤلاء، وأخرى بالعكس، واتفقت إحدى حروبهم في بدء الإسلام حين الرسول ﷺ كان بمكة، فغلبت الفرس على الروم، حتى أخذت الفرس مركز المسيحيين «بيت المقدس» وفرح الكفار بذلك، لأن الفرس كانت مثلهم في عدم الاعتقاد بالإله، كما حزن المسلمون، لأن الروم كانت ذات دين وكتاب واعتقاد، وكانت بينهم وبين المسلمين جهات مشتركة، ولذا سلّى الله سبحانه المسلمين، بأن مغلوبية الروم لا تدوم، وإنما هم يغلبون بعد سنوات قلائل.

[٤] ﴿**في أدنى الأرض**﴾ أي أقرب أرضهم من أرض الجزيرة في بيت المقدس ﴿**وهم**﴾ أي الروم ﴿**من بعد غلبهم**﴾ أي غلبة الفرس عليهم، في هذه الحادثة ﴿**سيغلبون**﴾ وينتصرون عليهم بإرجاع بلادهم منهم.

[٥] وإنما يغلب الروم الفرس ﴿**في بضع سنين**﴾ بضع القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، يقال بضع وعشرون، أي أن فوق عشرين عدد، هو ما بين الثلاثة إلى العشرة، وهذا من أخبار القرآن الغيبية، وما

لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

أكثرها، فقد كان كذلك، إذ وقعت حرب أخرى بين الطرفين، فغلبت روم الفرس، واستردت ما أخذوا منها من البلاد **﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾** أي من قبل الغلب، ومن بعد الغلب، فلا يقع شيء إلا بإذنه، وفي هذا تسلية للمؤمنين، بأنه إن غلبت فارس، فليس ذلك موجباً لحزنهم، إذ الأمور بيد الله الذي هو وليهم وناصرهم، كما تقول لابنك: إن رأيت غلبة بعض أعدائك، فلا يهمك، إني أريد ذلك، والحاصل أن غلبة الفرس، ليست انتصار للكفر على الإيمان، وإنما شيء مؤقت بقضاء الله وقدره، والله لا يترك الإيمان حتى يغلبه الكفر **﴿ويومئذ﴾** أي يوم غلبة الروم على الفرس **﴿يفرح المؤمنون﴾** المعتقدون بالرسول.

[٦] **﴿بنصر الله﴾** للإيمان على الكفر ـ وإن كان نصر الله إنما هو للإيمان المسيحي ـ فإن كل مرتبة من مراتب الإيمان خير مما يقابلها من الكفر **﴿ينصر﴾** الله **﴿من يشاء﴾** فيمن توفرت فيه شروط النصرة، كما أمر، وكما أجرى أسباب الكون **﴿وهو العزيز﴾** الغالب سلطانه، فلا يغلبه أحد **﴿الرحيم﴾** بعباده المؤمنين، فلا يتركهم نهب الكفار يفعلون بهم ما يشاءون.

[٧] **﴿وعد الله﴾** أي وعد الله ذلك وعداً، فهو مصدر تأكيدي **﴿لا يخلف الله وعده﴾** الذي وعد بغلبة الروم على الفرس **﴿ولكن أكثر**

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

الناس﴾ الذين لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون كلامه **﴿لا يعلمون﴾** صحة وعد الله، وإنه لاخلف فيه، فإن الذي يخلف وعده إما لعجز أو لجهل أو لخبث، والله سبحانه منزه عن ذلك كله.

[٨] إنهم لا يقدرون الأشياء حق قدرها، فيزعمون أن لا قوة خارقة غيبية تسير الكون، بل يظنون أن كل الأمر كائن فيما يشاهد من القوى الظاهرة **﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾** من قواها وأسبابها ومسبباتها، وسائر الخصوصيات الظاهرة **﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** وبهذه الغفلة تختل مقاييسهم للأمور، فلا يصدقون بوعد الله ولا يرقبون جزاءه، ولا يقدرون قوته الغيبية، الخاضعة لها الأشياء، وكان إقامة هذه الجملة مقام «وهم عن الله غافلون» لأجل إفادة، أن منكر المعاد، منكر الله سبحانه، فهو من إقامة المسبب مقام السبب، فإن سبب الغفلة عن المعاد، هو الغفلة عن الله تعالى، والإتيان بلفظ «هم» مكرراً، للتأكيد في غفلة هؤلاء.

[٩] **﴿أولم يتفكروا﴾** أي هؤلاء الغافلون عن الآخرة، الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا **﴿في أنفسهم﴾** أي في حالة خلوتهم بأنفسهم حيث لا جدال ولا إنكار ـ لو ظهر الحق ـ فإن الإنسان بينه، وبين نفسه يعترف، بما لايعترف به عند الملأ خوفاً، أو استكباراً **﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما﴾** من الإنسان والحيوان والنبات والهواء وغيرها **﴿إلا بالحق﴾** فلو لم يكن هناك إله، كما يزعمون، فمن يا ترى

وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٩﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ

خلق كل هذه الأمور؟ ومعنى «بالحق» إن الخلق لغاية وغرض، مما يدل على الإله العليم الحكيم القدير المريد ﴿**وأجل مسمىً**﴾ أي ولمدة محدودة، قد سميت تلك المدة عنده، فليست الأشياء بقاؤها اعتباطاً، بل تبقى بمقدار قدر الله لها من المدة، فإن الإنسان إذا علم إن جملة من الأشياء، لغاية ومقصود علم بذلك إن سائر الأشياء كذلك، ألا ترى إنك إذا نظرت إلى «الساعة» فعلمت إن بعض آلاتها لماذا، تعتقد إن كل الآلات لها إنما حكمت وصنعت عن قصد، وإن كنت لا تعلم الحكمة فيها، وإما عرفان الأجل المسمى، فلما يرى الإنسان أن الأشياء تحدد بحدود معنية، حتى أن كل محاولة لنفيها قبل المدة عبث، كما أن كل محاولة لإبقائها بعد المدة لغو ﴿**و**﴾ مع ذلك ﴿**إن كثيراً من الناس بلقاء ربهم**﴾ أي لقاء جزائه وحسابه ﴿**لكافرون**﴾ غير معترفين، مع أن إحكام الصنع، يدل على أنه، لا بد أن يكون هناك حساب وجزاء، وإلا كان الخلق لغواً، وتمكين الظالم من الظلم خلاف الحكمة.

[١٠] ﴿**أولم يسيروا**﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿**في الأرض**﴾ فإن السير يوجب إطلاع الإنسان على مساكن الذين ظلموا، فأهلكوا، كمدائن عاد وثمود، وقوم لوط، وقوم نوح ﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ أي يعلموا ذلك بالاستخبار عمن في أطراف تلك البلاد، فإن كل أمة تحفظ أطراف تلك البلاد، وإن كل أمة تحفظ أخبار أسلافها

كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

﴿**كانوا أشد منهم قوة**﴾ فقد وصلت حضارتهم إلى حدود مدهشة، كما يحدث التاريخ بذلك ﴿**وأثاروا الأرض**﴾ من الإثارة بمعنى التقليب، لأجل الزرع والإنبات ﴿**وعمروها**﴾ بالبيوت وما أشبه ﴿**أكثر مما عمروها**﴾ هؤلاء، فقد كانت وسائلهم، أكثر، ولذا كانت عمارتهم أجمل وأكثر ﴿**وجاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالأدلة البينة الواضحة، فجحدوا الرسل، وكذبوا بما قالوا، فأهلكهم الله سبحانه ﴿**فما كان الله ليظلمهم**﴾ حين أهلكهم ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ بالكفر والعصيان، فأخذهم وبال أعمالهم، وهؤلاء الكفار المعاصرون للرسول، إن كذبوا أهلكوا، فإنهم أقل قوة، وأقل عمارة وزراعة من أولئك.

[١١] ﴿**ثم**﴾ بعد تلك الحضارة والعمار ﴿**كان عاقبة الذين أساءوا**﴾ بالكفر والعصيان ﴿**السُّوءى**﴾ اسم كان، أي كانت الخلة، والعاقبة السوء ـ أي السيئة ـ عاقبة الذين أساءوا، فإنهم بالكفر، فعوقبوا بما أساءهم من الهلاك والدمار: على ﴿**أن كذبوا بآيات الله**﴾ فلم يقبلوها ﴿**وكانوا بها يستهزئون**﴾ ومنها يضحكون، ويحتمل أن يكون «أن كذبوا» اسم «كان» ومعنى أساءوا السُّوءى، عملوا السُّوءى من باب

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٤﴾

المصدر التأكيدي، نحو ضرب الضرب، فيكون المعنى: كان التكذيب بآيات الله عاقبة الذين عملوا بالمعاصي، فإن الإنسان يتدرج من المعاصي إلى الكفر، وعلى هذا المعنى، فـ «ثم» للعطف لفظاً، لا معنى.

[١٢] وكيف يكذب الكافر بآيات الله، وبالمعاد، وهو يرى أن الخلق كيف يبتدأ مما يدل على إله عليم قدير، قادر على الإعادة، كما قدر على الإنشاء ﴿**الله يبدأ الخلق**﴾ أي يخلقهم ابتداءً ﴿**ثم يعيده**﴾ بعد الموت، ليحيى من جديد للحساب والجزاء ﴿**ثم إليه**﴾ أي إلى جزائه وحسابه ﴿**ترجعون**﴾ أيها البشر.

[١٣] ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أي القيامة ﴿**يبلس المجرمون**﴾ من بلس بمعنى يئس من الخير، فإنهم ييأسون من الرحمة، وينقطعون من الجواب.

[١٤] ﴿**ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء**﴾ أي لا يشفع لهم الأصنام، التي جعلوها شركاء الله سبحانه، وأضيف الشركاء إليهم، لأنهم اخترعوها ﴿**وكانوا بشركائهم كافرين**﴾ إذ يظهر الحق هناك، وقد كانوا عبدوها في الدنيا قائلين (مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[١]، وهناك يتبين إنها لا تنقذ أنفسها، فإنها تصبح حصب جهنم، فكيف تتمكن من شفاعتهم.

---

(١) الزمر: ٤ .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

---

[١٥] ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ وتأتي القيامة ﴿**يومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم ﴿**يتفرقون**﴾ أي يتميز المؤمنون عن الكفار، فالمؤمنون واقفون في طرف اليمين، بالبشر والسرور، والكفار في طرف الشمال بالحزن والتقطيب.

[١٦] ﴿**فأما الذين آمنوا**﴾ بما يجب الإيمان به من التوحيد والرسالة والمعاد، وسائر ما جاء به النبي ﷺ ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ الملازم لترك السيئات ﴿**فهم في روضة**﴾ وهي الجنة ﴿**يحبرون**﴾ الحبرة المسرة، أي يسرون سروراً يظهر أثره على وجوههم، من النعيم الذي هم فيه.

[١٧] ﴿**وأما الذين كفروا**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**وكذبوا بآياتنا**﴾ أي بدلائلنا التي نصبناها للدلالة علينا، وعلى الرسالة ﴿**ولقاء الآخرة**﴾ بأن ينكروا البعث والمعاد ﴿**فأولئك في العذاب محضرون**﴾ أي يحضرون إلى العذاب، كالمجرم الذي يحضر إلى السجن والتعذيب، ولا يأتي هو برجله.

[١٨] ثم ينتقل السياق من العالم الآخر إلى هذا العالم ليشهد الإنسان، دلائل الكون، التي كان الكفار بها يكذبون حتى صاروا إلى ذلك المصير الهائل ﴿**فسبحان الله**﴾ مصدر منصوب بفعل مقدر من سبّح، أي أنزه الله تنزيهاً، والفاء للتعقيب على تلك الخاتمة، أي وإذا كان لله

﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾﴾

تلك الخاتمة أسبحه تسبيحاً ﴿**حين تمسون**﴾ أي تدخلون المساء، وهو الليل ﴿**وحين تصبحون**﴾ أي تدخلون الصباح، فهو منزه دائم الأوقات، لا كالملوك الذين لا يستحقون الحمد والثناء، في بعض أحوالهم لعدم رعايتهم الأمور في تلك الأوقات.

[١٩] ﴿**وله الحمد**﴾ الثناء الجميل، لما عمله من الجميل ﴿**في السماوات والأرض**﴾ فهو المستحق للحمد في جميع الكون ﴿**وعشياً**﴾ أي له الحمد في وقت العصر ﴿**وحين تظهرون**﴾ أي تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الظهر، فإنه المحمود المنزّه في جميع الأكوان، وكافة الأوقات، وهذا من بلاغة القرآن العجيب، حيث ذكر هذا الموضوع، في هذه الجملات الحية النديّة، التي تفتح الذهن، وتسير بالنفس إلى الآثار الكونية، والأوقات الزمنية.

[٢٠] ﴿**يخرج الحي من الميت**﴾ كالنبات من النوات الميتة، والطير من البيضة الميتة، والإنسان من الأرض الميتة، بواسطة النبات ﴿**ويخرج الميت من الحي**﴾ كالفضلات الميتة من الإنسان والحيوان الحي، والبيضة الميتة من الطير الحيّ وهكذا ﴿**ويحيي الأرض**﴾ بنمو النبت ﴿**بعد موتها**﴾ حيث تكون غبراء قاحلة لا نمو فيها ولا نبات ﴿**وكذلك**﴾ أي تحيى الأرض ﴿**تخرجون**﴾ أنتم أيها البشر من قبوركم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾

بعد الموت للحساب والجزاء.

[٢١] ﴿**ومن آياته**﴾ أي أدلته الدالة على وجوده، وسائر صفاته ﴿**أن خلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**من تراب**﴾ فالتراب ينقلب نباتاً، وحيواناً، يأكلهما الإنسان، فيصيران منياً، ثم جنيناً إنساناً ﴿**ثم**﴾ بعد أن كنتم تراباً ﴿**إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾ في الأرض تسيرون وتتّجرون، وتعملون، وإذا للمفاجآت، فكيف صار التراب اليابس الراكد، بشراً سميعاً بصيراً، ينتشر ويتصرف في مختلف الشؤون؟

[٢٢] ﴿**ومن آياته**﴾ أي أدلة الله سبحانه الدالة على وجوده، وسائر أوصافه ﴿**أن خلق لكم**﴾ أيها البشر ﴿**من أنفسكم**﴾ أي من هذا الجنس ﴿**أزواجاً**﴾ للرجال نساءً، وللنساء رجالاً، فإن كون الزوجين من جنس واحد أكثر هنأةً ولطفاً ﴿**لتسكنوا**﴾ أي لتطمئنوا، ولتألفوا ﴿**إليها**﴾ أي إلى تلك الأزواج ـ وهذه قرينة ـ على أن المراد بالأزواج: الزوجات. ﴿**وجعل بينكم**﴾ أيها البشر، أي بين الرجال والنساء ﴿**مودة**﴾ يود بها بعضكم بعضاً، ويحب أحدكم الآخر ﴿**ورحمة**﴾ فيرحم بها أحدكم الآخر، مما يهنيء العيش ويسعد الحياة ﴿**إن في ذلك**﴾ الخلق للأزواج، وجعل المودة والرقة ﴿**لآيات**﴾ أي أدلة على وجود الله تعالى، وسائر صفاته ﴿**لقوم يتفكرون**﴾ في هذه الأمور، وإنما

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ

خصهم، لأنهم هم الذين يدركون هذه الآيات، وإلا فهي آيات لكل أحد، وقد يزعم البعض، إن الصفات النفسية، من قبيل المودة والرحمة، والشجاعة والجبن والسخاء، وما إليها، ليست أموراً مخلوقة، لكنها نظر سطحي، وإلا فمن أين هذه الظواهر؟ إنها ألوان للنفس، لا تدرك إلا بآثارها، وإلا فكيف هذا يكون مقداماً سخياً، وكيف ذاك الذي على شكله يكون جباناً بخيلاً؟ وقد ذكر في أول كتاب «البحار» جنود العقل والجهل، وإنها مخلوقات له سبحانه.

[٢٣] **﴿ومن آياته﴾** الدالة على وجوده، وسائر صفاته **﴿خلق السماوات والأرض﴾** فمن خلق المدارات والكواكب؟ ومن خلق الأرض، وما فيها؟ إن الخالق هو الله العليم القدير الحكيم **﴿واختلاف ألسنتكم﴾** جمع لسان، والمراد به اللغة فإنه تعالى، لو لم يفعل ذلك، من كان يقدر على منح هذا الاختلاف من عربي، وفارسي، وتركي، وهندي، وغيرها؟ بالإضافة إلى الاختلاف، في النغمة والصوت والخشونة والنعومة وغيرها **﴿و﴾** اختلاف **﴿ألوانكم﴾** من أبيض وأحمر وأسود، وبنّي وحنطي، وغيرها، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ بالإضافة إلى مزايا كل إنسان في لونه وشكله، حتى يعرف كل أحد من غيره **﴿إن في ذلك﴾** الاختلاف **﴿لآيات﴾** لأن كل لون، وكل نعمة آية **﴿للعالمين﴾** أي العلماء، فإنهم هم الذين يتدبرون في هذه الآيات، وينشغلون منها، إلى من أوجدها وصنعها.

[٢٤] **﴿ومن آياته﴾** الدالة على توحيده، وسائر أوصافه تعالى

مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ

﴿**منامكم**﴾ مصدر ميمي، بمعنى نومكم ﴿**بالليل والنهار**﴾ فما هو النوم؟ ومن خلفه؟ إنه من خلق الله سبحانه، سواء كان عدماً بإخراج بعض الأرواح عن الإنسان موقتاً، أم وجوداً بإضافة شيء على بدنه يوجب له هذه الحالة ﴿**وابتغاؤكم من فضله**﴾ فقد جعل فيكم صفات أوجبت، أن تطلبوا الرزق فمن يا ترى جعل هذه الصفات في الإنسان؟ ﴿**إن في ذلك**﴾ المنام والابتغاء ﴿**لآيات**﴾ أي أدلة دالة على الله سبحانه، وسائر صفاته ﴿**لقوم يسمعون**﴾ والمراد أنهم يسمعون الآيات، فيتدبرونها، ويتفكرون فيها، لا أن يعرضوا عنها، كما قال سبحانه (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(١).

[٢٥] ﴿**ومن آياته**﴾ الدالة على وجوده، وسائر صفاته، أن ﴿**يريكم البرق**﴾ في خلال السحاب، وهو كما قالوا: يحدث من اصطكاك السحب بعضها ببعض، فيتولد فيها الكهرباء، ولا ينافي هذا كونه، صوت ملك، كما لايخفى ﴿**خوفاً**﴾ من الصاعقة، وإنزال المطر المضر ﴿**وطمعاً**﴾ في إنزال المطر المفيد، ونصب هذين، بتقدير اللام، أي لتخافوا خوفاً، ولتطمعوا طمعاً ﴿**وينزل من السماء**﴾ أي جهة العلو ﴿**ماءً**﴾ هو المطر ﴿**فيحيي به**﴾ أي بذلك الماء ﴿**الأرض**

(١) يوسف: ١٠٦ .

بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٧﴾

بعد موتها﴾ بالجدب، وعدم النبات **﴿إن في ذلك﴾** المذكور سابقاً **﴿لآيات﴾** لأن كل واحد من الأمور المذكورة، آية دالة على الله وعلى صفاته **﴿لقوم يعقلون﴾** أي يعملون عقولهم، فينتقلون من الأثر إلى المؤثر.

[٢٦] **﴿ومن آياته﴾** الدالة على وجوده تعالى، وسائر أوصافه **﴿أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾** فإن بقاء السماء بهذه الكيفية المنظمة، وبقاء الأرض بهذا الترتيب العجيب الدائم، لا يكون إلا بقدرة الله سبحانه، وأمره التكويني، وإلا فمن يدير الكون، بهذا النحو المنظم المدهش؟ **﴿ثم﴾** إن الله سبحانه الذي رأيتم قدرته وآياته **﴿إذا﴾** متم ثم **﴿دعاكم دعوة﴾** وطلبكم طلباً **﴿من الأرض﴾** التي دفنتم فيها **﴿إذا أنتم تخرجون﴾** أحياء كما كنتم سابقاً، وذكر هذا للتركيز على المعاد، بعد بيان آياته الدالة على عمله وقدرته، ونفوذ إرادته، فمن يقدر على تلك، يقدر على هذا.

[٢٧] **﴿وله﴾** أي لله سبحانه بالملكية المطلقة **﴿من في السماوات و﴾** من في **﴿الأرض﴾** من العقلاء، وغيرهم، وغلب العقلاء، ولذا، جيء بـ «من» **﴿كل له قانتون﴾** أي خاضعون مطيعون، فهل يتمكن أعظم الملوك، أن يخالف أوامر الله التكوينية، بأن لا يموت، أو لا يشيب أو

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

يبقى إلى أمد يحبه؟ كلا، نعم قد أعطى الله سبحانه، زمام الإرادة بيد الإنسان ليختبره، أما الأزمة التكوينية، حتى دورة الدم، في بدن الإنسان، وحركة الأجهزة الباطنية، والقوى الظاهرة، فهي كلها تحت قدرته وإرادته.

[٢٨] ﴿**وهو**﴾ الله سبحانه ﴿**الذي يبدأ الخلق**﴾ بإنشائه بعد العدم ﴿**ثم يعيده**﴾ إلى الحياة ـ بعد الموت ـ للجزاء والحساب ﴿**وهو**﴾ أي «أن يعيد» ﴿**أهون**﴾ وأسهل في قياس البشر ﴿**عليه**﴾ أي على الله سبحانه، فإن الإنسان في مقاييسه، يرى إن إعادة الشيء، أسهل من ابتدائه، ومع ذلك فكيف يظن، إن الإعادة عسيرة عليه تعالى، وإنما قلنا «في قياس البشر» لأن الله سبحانه كل شيء لديه سواء فـ (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1] لا يقال: كلا! إن الإعادة ليست أهون، فإن من يصنع شيئاً، قد يكون لا يقدر على إعادته إذا هدم، قلنا: إن عدم القدرة منه، لعدم علمه، أو لتعبه، أو أشباه ذلك، أما من توفرت فيه الشروط، فالإعادة عليه أيسر من جهة أن في ذهنه مثالاً لذلك المصنوع، مما يسهل صنعه ثانياً ﴿**وله**﴾ سبحانه ﴿**المثل الأعلى**﴾ المثل هو الشبيه للشيء الذي يؤتى به لمعرفة ذلك الشيء، والله سبحانه لا يمثل له، فلا مثل له، من جميع الجهات، كما قال: (فلا تَضْرِبُوا للّهِ الأَمثالَ)[2]، وإنما قد يمثل له بأمثلة تقريبية، لاستيناس

(١) يس: ٨٣.
(٢) النحل: ٧٥.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن

الذهن، كما قال تعالى (مَثَلُ نُورِهِ)[1] وإذا أريد المثل، فله أعلى الأمثلة وأحسنها، كأن يمثل لنوره بالمصباح النيّر، أو يمثل بملكه بملك أعظم الملوك، وهكذا ﴿**في السماوات والأرض**﴾ ففي كل مكان أريد أن يضرب له المثل، لا بد وأن يكون له المثل الأعلى، وليس كالملك، في قطر خاص، الذي له أعلى الأمثلة في قطره، أما في خارج قطره، فليس له أعلى الأمثلة، ففي قطره يقال إن مثله، كمثل أعظم الناس ملكاً، أما في خارج قطره يقال، إنه كمثل الملك الآخر، أو المالك الكذائي ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب على كل شيء لا يغلبه أحد ﴿**الحكيم**﴾ فكل ما يفعل، إنما هو بالحكمة والصواب.

[٢٩] ثم ضرب سبحانه مثلاً لعدم الشريك له، وذلك بالاستفهام، عن هؤلاء المشركين، أنهم هل يقارنون بين السيد والعبد، وإذا قالوا: لا قبل لهم، فلم تقارنون ـ في الألوهية ـ بين الله، وبين الأصنام؟ مع أن البون بينهما أبعد من البون بين السادة والعبيد ﴿**ضرب لكم**﴾ أيها المشركون، والذي ضرب المثل هو الله سبحانه ﴿**مثلاً من أنفسكم**﴾ بيّن لكم شبهاً في حال كونه من أنفسكم، فليس مثلاً، من الملائكة، أو الجن، والنبات، والحيوان، والجماد ﴿**هل لكم**﴾ أيها المشركون ﴿**مما ملكت أيمانكم**﴾ أي عبيدكم، وإمائكم، وإنما نسبت الملكية إلى اليد، لأنها العاملة المحصلة للمال الذي به يشتري العبد ﴿**من**

(١) النور: ٣٦ .

شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٩﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ

شركاء فيما رزقناكم﴾ بأن يشترك العبيد معكم في أموالكم التي هي لكم، ورزقكم الله إياها **﴿فـ﴾** تكونون **﴿أنتم﴾** والعبيد **﴿فيه﴾** أي فيما رزقناكم **﴿سواء﴾** بأن تكون الأموال لكم ولهم على حد سواء **﴿تخافونهم﴾** أي تخافون عبيدكم، إذا أردتم التصرف في أموالكم، لأنهم شركاؤكم، والشريك يخاف من شريكه، إذا أراد أن يستقل في التصرف بالمال المشترك **﴿كخيفتكم أنفسكم﴾** أي كما تخافون سائر شركاؤكم الأحرار، هل عبيدكم شركاء لكم؟ وإذا أجبتم بالنفي، وإن العبيد لا يشتركون معنا في أموالنا، حتى نخافهم خوف الحر شريكه الحر، قيل لكم، فكيف جعلتم الأصنام التي هي مملوكة لله، ومخلوقة له شركاء لله في الألوهية؟ **﴿كذلك﴾** أي كما بينا هذا المثل، لأن يردعكم عن عبادة الأصنام **﴿نفصل الآيات﴾** نذكرها مفصلة حتى تظهر، لا مجملة حتى تكون غامضة، لا تعرف **﴿لقوم يعقلون﴾** أي يعملون عقولهم، ليدركوا، وإنما خص هؤلاء بالذكر، لأنهم المنتفعون بالمثل والآية، أما من لا يعتني فهو لا يدرك، ولا يعلم.

[٣٠] إن إشراك هؤلاء، ليس لأنهم لا يعلمون **﴿بل﴾** لأنهم يتبعون الهوى وإن علموا ببطلان أعمالهم، فقد **﴿اتبع الذين ظلموا﴾** بالشرك بالله، وأتى بهذا الوصف مكان الضمير، لبيان أنهم بشركهم، قد ظلموا أنفسهم **﴿أهواءهم﴾** التقليدية **﴿بغير علم﴾** فليس عملهم مستنداً إلى العلم، وإنما هو مستند إلى الهوى، ولذا ابتعدوا عن الهدى

فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

﴿**فمن يهدي من أضل الله؟**﴾ أي تركه يعمل ما يشاء، بعد أن رأى الهدى، فأعرض عنه، وقد ذكرنا سابقاً إن نسبة الإضلال إليه سبحانه، باعتبار، أنه تركه حتى يضل، ولم يلطف به اللطف الخفي ﴿**وما لهم**﴾ أي لهؤلاء المشركين الضالين ﴿**من ناصرين**﴾ ينصرونهم من عذاب الله ونكاله في يوم القيامة، وهذا في مقابل زعمهم إن الأصنام تنصرهم وتشفع لهم.

[٣١] وإذ انحرفت نفوس عن هذا الدين ﴿**فأقم**﴾ أنت يا رسول الله، أو أيها الإنسان العاقل ﴿**وجهك**﴾ ونسبة الإقامة إلى الوجه، لأنه العضو الذي يبين اتجاه الإنسان، وميله الكامن في نفسه ﴿**للدين**﴾ فتوجه نحو دين الإسلام، لا إلى سائر المبادئ والأديان ﴿**حنيفاً**﴾ في حال كونك مستقيماً، غير مائلاً إلى هنا أو هناك، أو في حال كون الدين مستقيماً، لايزيغ نحو الباطل والانحراف، واتبع ﴿**فطرة الله**﴾ أي الكيفية التي خلقها الله سبحانه، فإنه خلق الإنسان بحيث لا يصلحه، إلاّ الدين ﴿**التي فطر الناس عليها**﴾ أي خلق الناس على تلك الفطرة، فالدين، كالمنهاج للبشر الذين خلقوا على نحو لا تستقيم أمورهم، إلا إذا ساروا على هذا المنهاج، وهكذا كما لو صنع شخص «جهازاً» ثم كتب «كتاباً» فيه كيفية عمل الجهاز، فإنه يقول: اتبع هذا الكتاب، فإن الجهاز رُكِّبَ هكذا ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ أي لا يتغير الخلق عن تلك الفطرة، حتى يلائمهم منهاج آخر، غير منهاج الإسلام والدين ﴿**ذلك الدين القيم**﴾ أي

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣٢﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا

إن الدين الذي يلائم الفطرة، هو الدين صاحب القوام، الذي به قوام البشر وسعادتهم، أما سائر الأديان، فإنها لا تلائم الفطرة، مثلاً إن الإنسان ركب بحيث، إذا اغتسل من الجنابة، سلم بدنه من الأمراض، أما إذا لم يغتسل، ابتلى بمختلف العاهات، فالدين الذي يأمر به، هو الدين الذي به قوام الإنسان، وسواه لا يتمكن من التحفظ على صحة الإنسان، وهكذا سائر التشريعات ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ صحة ذلك، ويظنون الدين، إنما هو منهج من بين مئات المناهج، فأيها اتبعها الإنسان، كان كافياً في إقامة الحياة.

[٣٢] وحيث إن قوله «أقم» عام لكل المكلفين، إما من باب الأسوة بالرسول المخاطب بـ «أقم» وإما من باب كون الخطاب عاماً ـ ابتداءً ـ جاء الحال لفاعل «أقم» بلفظ الجمع، فقال سبحانه ﴿**منيبين**﴾ أناب، بمعنى رجع، أي في حال كونكم أيها البشر راجعين ﴿**إليه**﴾ أي إلى الله، عن الطرق التي كنتم تسيرون فيها، مما تخالف الدين ﴿**واتقوه**﴾ أي خافوا عقابه ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ بالاستمرار في إتيانها بآدابها وشرائطها، فإنها توجب التقوى والاستقامة ﴿**ولا تكونوا من المشركين**﴾ الذي يجعلون لله سبحانه شريكاً.

[٣٣] ﴿**من الذين فرقوا دينهم**﴾ فلم يتبعوا ديناً واحداً، أنزله الله سبحانه، بل اتبع كل فئة ديناً، وهكذا تكون التفرقة، إذا عملت الأهواء في الناس ﴿**وكانوا شيعاً**﴾ جمع شيعة، وهي الفئة التابعة لمسلك خاص، أي

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

كان كل طائفة منهم، شيعة لمسلك ومبدأ ﴿**كل حزب**﴾ وشيعة ﴿**بما لديهم**﴾ من الدين والمسلك ﴿**فرحون**﴾ إذ يعتبرون دينهم، أحسن الأديان، وطريقتهم خير الطرق.

[٣٤] ومن متناقضات المشركين ما بينه سبحانه بقوله ﴿**وإذا مس الناس ضر**﴾ أي لامسهم ونزل بهم ضرر مالي أو جسمي، أو ما أشبه ﴿**دعوا ربهم**﴾ لكشف ذلك الضر، ولا يدعون الشركاء، لأنهم يعلمون إن الكاشف للضر، هو الله وحده دون شركائهم ﴿**منيبين**﴾ أي راجعين ﴿**إليه**﴾ وحده، بدون الرجوع إلى الشركاء معه ﴿**ثم إذا**﴾ لبّى دعاءهم، وكشف ضرّهم و ﴿**أذاقهم منه**﴾ أي من قبله تعالى ﴿**رحمة**﴾ وفضلاً كأن يغنيهم من فقرهم، أو يأمنهم من خوفهم، أو ما أشبه ذلك ﴿**إذا فريق منهم**﴾ أي جماعة من أولئك الذين مسهم الضرّ، فأنابوا إلى ربهم، فأذاقهم منه رحمة ﴿**بربهم يشركون**﴾ فيجعلون له شريكاً، والإتيان بـ «إذا» لبيان المفاجآت، وإن هذا الإشراك لم يكن مترقباً، بعد تلك الأمور.

[٣٥] فقد أشركوا بقصد الكفران لنعم الله ﴿**ليكفروا بما آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم من النعم، أو أن اللام للعاقبة، أي كانت عاقبة إذاقة هؤلاء الرحمة، كفرانهم، أو كفرهم ﴿**فتمتعوا**﴾ أيها المشركون، وهذا أمر للتهديد، أي تلذذوا، وخذوا متع الحياة مدة يسيرة ﴿**فسوف تعلمون**﴾

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ

عاقبة كفركم، وهذا تهديد لهم، بأنهم سيجازون بالعذاب، والنكال.

[٣٦] ثم يأتي السياق للتفهيم منهم استفهام عارف، ليعرفهم خطأهم، فهل كفر هؤلاء بلا حجة وبرهان ﴿**أم أنزلنا عليهم سلطاناً**﴾ أي حجة، ودليلاً، يدل على تعدد الآلهة؟ ﴿**فهو**﴾ أي فذلك البرهان ﴿**يتكلم**﴾ المراد يُظهر ويبين ذلك البرهان ﴿**بما كانوا به يشركون**﴾؟ كلا: لم ينزل سلطان عليهم، وإنما كفروا وأشركوا، بلا حجة وبرهان.

[٣٧] إن المؤمن لا ييأس عند الشدة، ولا يبطر عند النعمة، أما الكافر، ومن ضعف إيمانه، فإنه ـ لخفة نفسه وعدم اتزان روحه ـ إن أعطي بطر، وإن منع يئس ﴿**وإذا أذقنا الناس رحمة**﴾ أي أتيناهم نعمة وفضلاً ﴿**فرحوا بها**﴾ أي بتلك الرحمة بطروا ﴿**وإن تصبهم سيئة**﴾ أي بلاء ومصيبة، وسمي ذلك سيئة لأنها تُسيء إلى الإنسان ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ أي بسبب بعض أعمالهم التي عملوها، وإنما نسب التقديم إلى اليد، لأنها الغالبة في مزاولة الأعمال ﴿**إذا هم يقنطون**﴾ وييأسون عن روح الله المفرّج لهذه السيئة.

[٣٨] ﴿**أولم يروا**﴾ هؤلاء الذين يبطرون بالنعمة، ويقنطون بالسيئة ﴿**أن الله يبسط الرزق**﴾ أي يوسعه ﴿**لمن يشاء**﴾ مما اقتضت المصلحة توسعته ﴿**ويقدر**﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء من «قدر» بمعنى«ضيّق» فليست

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٨﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ

التوسعة دليلاً على إكرام الله، حتى تسبب البطر، ولا التضييق دليلاً على إذلال الله، حتى يسبب اليأس، كما أنهم إن وسّع عليهم لزم أن يشكروا، وإن ضُيق عليهم، وجب أن يصبروا، ويدعوا، لا أن يقنطوا، فـ (إِنَّهُ لا يَيْأَسْ من رَّوْحِ الله إلاّ القومُ الكافرونَ)[1] ﴿**إن في ذلك**﴾ البسط والتضييق ﴿**لآيات**﴾ دلالات على أن ذلك من الله ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ بالله إذ:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً.

[٣٩] وإذ تقدم الكلام، في أن توسعة الرزق منه سبحانه، كما أن تضييقه منه تعالى، فلينفق الإنسان حسب المستطاع، فإن الإنفاق لا يضر، كما أن الإمساك لا ينفع، كما قال:

إذا قبل الدنيا عليك فجد بها
على الناس طراً قبل أن تتفلت

فلا الجود مفنيها إذا هي أقبلت
ولا البخل مبقيها إذا هي ولت

﴿**فآت**﴾ أي أعط يا رسول الله ﴿**ذا القربى**﴾ أي صاحب القرابة ﴿**حقه**﴾ أي حقه الذي قرره الله له، من الصلة والإنفاق وغيرها، وهذه الآية، وإن كانت عامة تشمل إعطاء كل أحد قرابته، ما جعل الله له من حق، إما بأن يكون «آت» خطاباً لكل مسلم، أو خطاباً للرسول

(١) يوسف: ٨٨ .

وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ

وعمومه من باب الأسوة إلا أنه وردت روايات خاصة صحيحة في أنها نزلت بالنسبة إلى إعطاء فاطمة عليها السلام «فدكاً»[1] ولا منافات، فإن ذلك من باب المصداق ﴿و﴾ آت ﴿**المسكين**﴾ وهو الفقير ﴿**وابن السبيل**﴾ وهو الذي سافر، ثم لا نفقة له لمصرفه، أو لعوده، وذلك بأن يعطيهما الإنسان حقهما الواجب من الزكاة والخمس، أو الأعم حتى يشمل كل مساعدة لهما، ولو من غير الزكاة والخمس ﴿**ذلك**﴾ الإعطاء لهؤلاء حقوقهم ﴿**خير**﴾ من عدم الإعطاء ﴿**للذين يريدون وجه الله**﴾ أي يعطون قربة إلى الله، لا رياءً وسمعة، فإن المنع يوفر على الإنسان المال، والإعطاء يوفر على الإنسان السعادة في الدارين، والسعادة خير من ذلك المال القليل ﴿**وأولئك**﴾ الذين يعطون هذه الحقوق ﴿**هم المفلحون**﴾ الفائزون بثواب الله تعالى، في الدنيا والآخرة، فإنهم يقوّمون بذلك الاجتماع، وتقوية الاجتماع عائدة إلى تقوية نفس الشخص أيضاً، كما أن ذلك موجب لجزيل الأجر في الآخرة.

[٤٠] وقد كان بعض أصحاب الأموال يعطي الهدية أو نحوها لغيره، ليعوض عنها بالأزيد، فبين سبحانه، أن هذه الكيفية لا تسبب الزيادة والنمو، وإنما تسبب الزيادة والنمو، الزكاة والصلاة ﴿**وما آتيتم**﴾ أي أعطيتم ﴿**من ربا**﴾ «الربا» هو الزيادة من «ربى» بمعنى زاد، ومنه «الرابية» بمعنى الأرض العالية، وسمي ما يعطي الإنسان «ربا» لأنه زيادة في الإعطاء، وليس حقاً واجباً ﴿**ليربوا**﴾ ذلك الربا ﴿**في**

---

(١) راجع الكافي: ج١ ص٥٤٣ .

أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٤٠﴾

أموال الناس﴾ أي ينمو ذلك الذي أعطيتموه في أموال المُهدى إليهم، والمعنى يُجعل عليه، ويُرّد إليكم، فكأنه زاد في أموالهم، حيث إنه إنما ضوعف، حين اختلط بمالهم، وهذا النحو من الإعطاء ليس حراماً، ولكنه لا أجر له **﴿فلا يربوا عند الله﴾** ولا يعطي الله أجراً على هذه الهدية المراد بها أن تزاد وتُرد، هكذا وردت الروايات في تفسير الآية، وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون هذا منعاً لإعطاء المقترض الربا، والمعنى إن الربا الذي تعطونه بزعم إنه يُزاد، في أموال المقترضين، إنما هو مجرد زعم، وإلا فالله سبحانه لا يجعله سبباً للزيادة، من قبيل (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)[١] وإنما توجه النهي نحو المقترض، لأنه إن أبى لم يجد المقرض وسيلة لاقتراف هذا الحرام، من قبيل قوله عليه السلام: لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً[٢]، وعلى هذا، فلام «ليربوا» لام العاقبة **﴿وما آتيتم﴾** أي أعطيتم **﴿من زكاة﴾** واجبة أو مندوبة، وإن كان الأنسب - بكون السورة مكية - إرادة المندوبة **﴿تريدون﴾** بإعطائها **﴿وجه الله﴾** لا الرياء والسمعة، وإنما قال «وجه الله» لأن إرضاء شخص يوجب أن يوجّه وجهه إلى المرضي، فالمعنى من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، للتقريب إلى الذهن **﴿فأولئك﴾** المزكون **﴿هم المضعفون﴾** أي الذين يضعفون أموالهم، كما قال سبحانه (وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)[٣] وقد دلّ العلم، على أن إعطاء الصدقات،

---

(١) البقرة: ٢٧٧ .

(٢) تحف العقول: ص٧٦ .

(٣) البقرة: ٢٧٧ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ

توجب زيادة المال، بالإضافة إلى دلالة العقل على ذلك.

[٤١] وبعد ذكر بعض الأمور المرتبطة بالإنفاق، وما إليه ـ بالمناسبة ـ يرتد السياق إلى ذكر ما صيغ لأجله الكلام، وهو نفي الشرك ﴿**الله**﴾ هو ﴿**الذي خلقكم**﴾ أوجدكم من العدم ﴿**ثم رزقكم**﴾ أعطاكم أنواع الرزق ﴿**ثم يميتكم**﴾ لدى انقضاء أجلكم ﴿**ثم يحييكم**﴾ لأجل الحساب والجزاء ﴿**هل من شركائكم**﴾ أيها المشركون أي الذين جعلتموهم شركاء لله ﴿**من يفعل من ذلكم**﴾ الأمور، و«كم» للخطاب ﴿**من شيء**﴾؟ وطبعاً يكون جوابهم بالنفي ﴿**سبحانه**﴾ أي أن الله منزه عن الشريك ﴿**وتعالى**﴾ أي أنه أرفع من أن يمكن أن يكون له شريك ﴿**عما يشركون**﴾ عن الأصنام التي يشركونها مع الله.

[٤٢] إن شرك هؤلاء لم يسبب انحرافاً في عقيدتهم فحسب، بل انحرافاً في جميع مرافق الحياة إذ إنّ الشرك لا يتخذ المنهج من الله سبحانه، وإنما يسير على نهج منحرف، وذلك يوجب الفساد ﴿**ظهر الفساد**﴾ من القتل، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، وسائر المشاكل ﴿**في البر**﴾ والمراد به الأعمّ من البلد والصحراء ﴿**والبحر**﴾ فإن السفن السائرة في البحر، يظهر عليها أثر الفساد، بالحروب فيما بينها والخوف الناشئ من الاضطراب في البلاد إلى غير ذلك ﴿**بما كسبت أيدي الناس**﴾

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ

فليس ذلك ظلماً منه سبحانه، بل تابعاً لما عملته الناس بأنفسهم، والنسبة إلى اليد من باب علاقة الكل بالجزء، لأنها العنصر الفعال في الحياة والاكتساب، وإنما ترك الله سبحانه الناس حتى يظهر فيهم الفساد ﴿**ليذيقهم بعض الذي عملوا**﴾ أي جزاء بعض أعمالهم، من باب علاقة السبب والمسبب، فإن الذي عملوا سبب للعقوبة ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ أي لكي يرجعوا عن غيهم وضلالهم ويتخذوا، منهج الله سبحانه، الملازم للتوحيد، وعدم الشرك.

[٤٣] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، مهدداً لهؤلاء المشركين، بأنهم إن بقوا على شركهم وانحرافهم، أصابهم مثل ما أصاب المشركين من قبل ﴿**سيروا في الأرض**﴾ لتصلوا إلى بلاد الأمم الهالكة، التي ترون آثارها في مسيركم إلى الشام، وإلى اليمن ﴿**فانظروا كيف كان عاقبة**﴾ العصاة ﴿**الذين من قبل**﴾ أي كانوا من قبلكم ﴿**كان أكثرهم مشركين**﴾ فجوزوا على شركهم بالنكال والدمار، فإن ذلك يسبب لهؤلاء الإقلاع عن الشرك والانحراف.

[٤٤] وإذ تبين لك ما يسببه الشرك والانحراف من المآسي، والويلات ﴿**فأقم**﴾ يا رسول الله، أو خطاب عام، إما لفظاً، أو للأسوة، بأن يكون من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» ﴿**وجهك للدين القيم**﴾ فلا تنحرف عنه، وقد سبق معنى الآية ﴿**من قبل**

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٤﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٥﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ

أن يأتي يوم لا مرد له﴾ المرد مصدر ميمي، أي لا رد له، والمراد بذلك اليوم وهو يوم نزول العذاب، أو الموت، أو القيامة، فإن الأمر بالاستقامة، إنما هو لأجل أن لا يقع الإنسان في مشكلة لا دفع لها **﴿من الله﴾** إي إن ذلك اليوم، من قبل الله، أو إنه لا رد لما يكون فيه، مما يأتى من قبل الله تعالى **﴿يومئذ﴾** في ذلك **﴿يصدعون﴾** أي يتفرقون، فالمؤمنون في الجنة والكفار في النار، من «اصدّع» أصله «تصدع» من باب «التفعل» أدغمت التاء في الصاد، فجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، ومعنى الصدع، هو الكسر والتفريق، كما قال (لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً)[1].

[٤٥] وهل يضر كفر أحد إلاّ نفسه؟ فمن كفر ليعلم إنه يضر بذلك نفسه **﴿من كفر فعليه كفره﴾** أي أن ضرر كفره، ليعود عليه، ولا يُعاقب أحد بسبب كفره **﴿ومن عمل﴾** عملاً **﴿صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾** من مهد، بمعنى وطئ منزله، ليكون مريحاً، أي أنهم يجعلون أنفسهم حسناً.

[٤٦] وإنما قرر سبحانه الجزاء الحسن للمؤمن، والجزاء السيئ للكافر **﴿ليجزي الذين آمنوا﴾** بالأصول **﴿وعملوا﴾** الأعمال **﴿الصالحات﴾** فإنما قرر للإنجاز، كما تقول: قررت ديناراً لزيد لأعطيه **﴿من فضله﴾** فليس الجزاء استحقاقاً، بل فضلاً وإحساناً، وإلا فما أعطاه الله

---

(١) الحشر: ٢٢ .

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ

للإنسان في دار الدنيا هو أكثر من استحقاقه بسبب أعماله، ولـ ﴿**إنه لايحب الكافرين**﴾ فقد قرر «من كفر فعليه كفره» والمراد بعدم الحب الكراهة، لأنه لا واسطة بينهما، بالنسبة إليه سبحانه، ويحتمل أن يكون، لام «ليجزي» للعاقبة، أي أن عاقبة الكفر عدم الحب وعاقبة الايمان الجزاء الحسن.

[٤٧] ثم يعطف السياق إلى الأدلة، الدالة على وجوده سبحانه، بعد ما أخذ شوطاً حول المعاد، وهكذا عادة القرآن، أن يفنن في الكلام، لئلا يورث الضجر والكسل من المطلب الرتيب الواحد، ﴿**ومن آياته**﴾ الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿**أن يرسل الرياح مبشرات**﴾ فإن الرياح في موسم المطر، تبشر بالسحاب والمطر، لأنها تجمع السحب من هنا، وهناك، حتى إذا اغتمت السماء أمطرت ﴿**وليذيقكم**﴾ الله ﴿**من رحمته**﴾ فإنه يرسل الرياح للبشارة والتفضل ﴿**ولتجري الفلك**﴾ أي السفينة في البحار بسبب الرياح ﴿**بأمره**﴾ تعالى، فإن جريان الفلك، يحتاج إلى أمر الله تعالى، بالإضافة إلى الرياح ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ بالتجارة في السفن وبالزراعة، وباستعمال المياه في الحوائج ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ أي لكي تشكروا فضله عليكم.

[٤٨] ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم**﴾ بالهداية والإرشاد

فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ

﴿**فجاءوهم بالبينات**﴾ إي الأدلة الواضحات الباهرات، وإذ لم يؤمن بهم المجرمون المعاندون ﴿**فانتقمنا من الذين أجرموا**﴾ بالبقاء على الكفر والعصيان، والمعنى عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم بالعذاب والنكال، وفيه تهديد لمعاصري الرسول ﷺ بأنهم إن بقوا على إجرامهم كان مصيرهم مصير أولئك ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ بدفع أعدائهم، وإعلاء كلمتهم.

[٤٩] وبمناسبة ما تقدم من إرسال الرياح، وإنزال المطر، يأتي السياق ليفصّل الأمر في صورة أخرى ﴿**الله**﴾ هو ﴿**الذي يرسل الرياح**﴾ وإرسالها، إما بخلقها، وإما بتحريكها من مكان إلى مكان، وقد ذكر علماء الفلك تفصيلاً، في كيفية خلق الرياح ﴿**فتثير**﴾ أي تهيج الرياح ﴿**سحاباً**﴾ المراد بالسحاب الجنس، فإن الرياح تأتي بالسحب، من هنا وهناك ﴿**فيبسطه**﴾ أي يبسط الله السحاب ﴿**في السماء**﴾ أي جهة العلو ﴿**كيف يشاء**﴾ عرضاً وطولاً وارتفاعاً، وفي أي موضع شاء، ﴿**ويجعله**﴾ يجعل الله السحاب ﴿**كسفاً**﴾ قطعاً متراكبة بعضها على بعض، حتى يغلظ، ويثخن ﴿**فترى الودق**﴾ أي المطر، والخطاب إما للرسول، و إما لكل من يرى ﴿**يخرج من خلاله**﴾ أي خلال السحاب وثناياه ﴿**فإذا أصاب**﴾ الله ﴿**به**﴾ أي بالودق ﴿**من يشاء من عباده**﴾ بأن

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾

نزل المطر في أرضهم ﴿**إذا هم يستبشرون**﴾ يفرحون ويبشر بعضهم بعضاً، حيث يوجب الرخص بكثرة النبات وتسمين الأنعام.

[٥٠] ﴿**وإن كانوا**﴾ أولئك الذين أصاب المطر أرضهم ﴿**من قبل أن ينزل**﴾ المطر ﴿**عليهم**﴾ وعلى بلادهم ﴿**من قبله**﴾ للتأكيد، أو المراد به، من قبل إثارة الرياح للسحاب ﴿**لمبلسين**﴾ أي قانطين آيسين متحيرين، لايدرون ماذا يصنعون بزرعهم وضرعهم.

[٥١] ﴿**فانظر**﴾ يا رسول الله، أو أيها الناظر ﴿**إلى آثار رحمة الله**﴾ والمراد بها النبات المتنوع، والأنهار الجارية، والأشجار النظرة، التي غسلها المطر، فإنها آثار المطر الذي هو رحمة الله ﴿**كيف يحيي الأرض بعد موتها**﴾ أي بعد أن كانت مواتاً يابسة، لا حركة فيها، ولا نبات، ولا ماء ﴿**إن ذلك**﴾ الله الذي أحيى الأرض بعد موتها ﴿**لـ**﴾ هو ﴿**محيي الموتى**﴾ يحييهم، بعد أن ماتوا، للحساب والجزاء ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ فكما قدر على إحياء الأرض، يقدر على إحياء الأموات، وهذا ردّ على منكري البعث، كيف ينكرون ذلك، وقد رأوا إحياء الأرض.

[٥٢] لكن هل هذا الإنسان الذي يستبشر بالرحمة، هو مؤمن بالله من أعماق نفسه، وراض بقضائه حتى أنه يصبر على بلائه كما يشكر على

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٣﴾

نعمائه؟ كلا! إنهم قد عبدوه على حرف، فإن أصابهم خيراً اطمئنوا به وإن أصابتهم فتنة، انقلبوا على أعقابهم ﴿**ولئن أرسلنا**﴾ عوض الريح المثيرة للسحاب ﴿**ريحاً**﴾ هوجاء ﴿**فرأوه**﴾ أي رأوا النبت ﴿**مصفراً لظلوا من بعده**﴾ أي بعد إرسال الريح الهوجاء الموجبة لاصفرار النبات، وهلاكه ﴿**يكفرون**﴾ بقضاء الله وقدره، قائلين: لماذا فعل الله بزرعنا هذا؟

[٥٣] وليس كون هؤلاء الناس، هكذا لا يصبرون عند البلاء، لعدم كمال البلاغ، وإنما لعدم لياقة أنفسهم ﴿**فإنك**﴾ يا رسول الله ﴿**لا تسمع الموتى**﴾ فكما أن الميت، لا يسمع سماعاً مفيداً يرتب الأثر عليه كذلك، إن هؤلاء الذين هم بمنزلة الأموات، في عدم حصول الخير منهم، لا يسمعون العظة سماعاً مفيداً، حتى إذا رأوا بلاءً صبروا ولم يكفروا ﴿**ولا تسمع الصم**﴾ جمع أصم، وهو الفاقد لحاسة السمع ﴿**الدعاء**﴾ أي إذا ما دعوته ليقبل إليك ﴿**إذا ولوا**﴾ أولئك الصم، بأن كانوا ﴿**مدبرين**﴾ فإن الأصم، وإن كان لا يسمع، وإن كان وجهه في طرف الداعي، إلا أنه يفهم الإشارة، فيرتب الأثر، أما إذا أدبر، فلا يسمع، ولا يرتب الأثر، وهو للمبالغة، في عدم إمكان إفهامه، وهذا تشبيه إثر تشبيه لحال الكفار الذين لا يؤثر فيهم البلاغ والإرشاد، وكأنه للترقي نزولاً عند رغبة المخاطب، إيهاماً بأن هناك مخاطباً، يستبعد أن يكونوا كالأموات فإنهم أحياء؟ فيأتي السياق ليقول: سلمنا إنهم ليسوا

وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً

بأحداث، إلا أنهم كالأصم الذي ولى دبره، حيث لا ينتفع بالعظة والإرشاد.

[٥٤] ﴿**وما أنت**﴾ يا رسول الله ﴿**بهاد العمي**﴾ أي بقادر على أن تهدي إلى الطريق الذين هم عميان البصيرة ﴿**عن ضلالتهم**﴾ متعلق بـ «هادي» أي لا تقدر على هدايتهم عن ضلالتهم، لأن مثلهم مثل الأعمى الذي كلما أراد الإنسان أن يريه الطريق، لا يهتدي ولا يعرف ﴿**إن تسمع**﴾ أي ما تسمع إسماعاً مفيداً أحدٌ من الناس ﴿**إلا من يؤمن بآياتنا**﴾ أي بأدلتنا الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا، فإن من سلك طريق الهداية، سمع أقوالك سماعاً نافعاً ﴿**فهم مسلمون**﴾ لك منقادون لأوامرك.

[٥٥] وكيف يكفر هؤلاء بالله، وقد علموا أنه هو الذي خلقهم، ويقلبهم من حال إلى حال ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف**﴾ من نُطف ضعيفة، أو أطفالاً ضعافاً، وهذا من باب المجاز، إذ جعل ذو الضعف، وكأنه قطعة من الضعف، مثل زيد عدل، و(إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)[١] ﴿**ثم جعل**﴾ لكم ﴿**من بعد ضعف**﴾ كان فيكم ﴿**قوة**﴾ الحياة، وقوة الشباب ﴿**ثم جعل**﴾ لكم ﴿**من بعد قوة ضعفاً وشيبة**﴾ حتى يرتد الإنسان إلى

(١) هود : ٤٧ .

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٥﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ

حالته الأولية، والمراد الشيبة، حالة الشيخوخة ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ من قوي وضعيف، وقوة وضعف، فهما خلقان من خلقه ﴿**وهو العليم**﴾ عليم بمصالح عباده، ولذا يصرفهم من حال إلى حال ﴿**القدير**﴾ على ما يريد.

[٥٦] إن هذا الإتقان في الخلق والتقليب في الخلقة، من عليم قدير، لا بد وأن تكون له نهاية متقنة، وغرض مقصود، هي القيامة، فليستعد الإنسان لها، أما من أجرم، فيذهب عمره هباءً، وكأنه لم يلبث في الدنيا، إلاّ يسيرا ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أي القيامة ﴿**يقسم المجرمون**﴾ يحلف الذين أجرموا في الدنيا بأنهم ﴿**ما لبثوا**﴾ ولم يبقوا في الدنيا ﴿**غير ساعة**﴾ واحدة، حيث يستضئلون أيام الدنيا، كما قال (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم)[1] ﴿**كذلك**﴾ أي كما صرفوا هناك عن الصدق، في مدة بقائهم كذلك ﴿**كانوا**﴾ في الدنيا ﴿**يؤفكون**﴾ يُصرفون عن الصدق، بالنسبة إلى الألوهية، والرسالة والمعاد.

[٥٧] وكان هذا الكلام من الكفار، إنما هو بحضور المؤمنين، فيقول لهم المؤمنون، وأية فائدة في هذا الكلام: هل طويل كان عمر الدنيا أم قصير، وإنما المقصود، كان العمل لأجل هذا اليوم، وقد فاتكم ﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان**﴾ أي أعطوا علماً بالمعارف، وإيماناً

---

(١) المؤمنون: ١١٤ .

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ

بالألوهية والرسالة والمعاد ـ فهم كما كانوا في الدنيا علماء مؤمنين، لايفارقهم هذان هناك ـ ﴿**لقد لبثتم**﴾ وبقيتم ﴿**في كتاب الله**﴾ أي في علم الله وقضائه، وما كتبه لكم ﴿**إلى يوم البعث**﴾ وهذا كما يقول الإنسان لمن ينازع في مدة بقائه في سفر سافره: إنك في ما سجلت، أنا بقيت عشرة أيام، فإن بقاءكم إلى يوم البعث، هو المهم، أما أنه طويل أو قصير، فليس بمهم، فقد أبقاكم الله في الدنيا للعمل الصالح، ولم تعملوا ﴿**فهذا يوم البعث**﴾ الذي كنتم تنكرونه ﴿**ولكنكم كنتم لا تعلمون**﴾ ذلك في الدنيا، ولذا وقعتم في العذاب هنا.

[٥٨] ﴿**فيومئذ**﴾ أي في القيامة ﴿**لا ينفع الذين ظلموا**﴾ أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿**معذرتهم**﴾ أي اعتذارهم، بما يظهرون من أنواع العذر، بأنهم ما علموا، أو أضلهم الرؤساء، أو أرجعونا نعمل صالحاً، أو ما أشبه ﴿**ولا هم يستعتبون**﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب والرجوع إلى الحق، كما كان يطلب منهم في الدنيا.

[٥٩] ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾ ينفع في إيقاظ الناس عن جهلهم وغيهم، كتمثيلهم بالأموات، والصم، وتمثيل آلهتهم ببيت العنكبوت، إلى غير ذلك ﴿**ولئن جئتهم**﴾ يارسول الله ﴿**بآية**﴾ لإرشادهم، مشتملة على مثل أو غير مثل

لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٩﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦١﴾

﴿ليقولن الذين كفروا﴾ للذين آمنوا **﴿إن أنتم﴾** أي ما أنتم **﴿إلا مبطلون﴾** أي أصحاب أباطيل، يقال أبطل، إذا جاء بالباطل.

[٦٠] **﴿كذلك﴾** أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء الكفار، بعد أن أعرضوا عن الحق، وقد سبق، أن معنى الطبع، هو أن يترك الله الإنسان حتى ينحرف ويقسو قلبه، بعد أن أرشده إلى الطريق فلم يقبل، وإنما نسب الطبع إليه، كما ينسب الإفساد إلى الوالد، فيقال أفسد فلان ابنه، إذا تركه «بعد أن أرشده، فلم يقبل» حتى فسد **﴿يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾** التوحيد والرسالة والمعاد، بأن تركوا التعلم حتى جهلوها.

[٦١] **﴿فاصبر﴾** يا رسول الله، على أذى هؤلاء الكفار، وكفرهم وعنادهم، فسيأتيك المدد **﴿إن وعد الله حق﴾** فسينصرك ويخذلهم **﴿ولا يستخفنك﴾** أي لا يستفزنك، يقال استخفه، إذا طلب خفته، بأن يستعتبه لنفسه **﴿الذين لا يوقنون﴾** بالله واليوم الآخر، بأن تترك مهمتك، أو تداهنهم.



سورة لقمان

مكية/آياتها (٣٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على ذكر «لقمان» الحكيم، وبعض وصاياه، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة بأصولها المختلفة، من توحيد، ورسالة، ومعاد، ولوازمها، وبعض الأمور الأخلاقية، ولما اختمت سورة الروم، بذكر القرآن، ابتدأت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الله، ولا منافات بين تقدير الابتداء والاستعانة معاً، بإشراب أحد الفعلين معنى الفعل الآخر، كما إن الاستعانة باسم الإله، تنافي التعظيم، كما قال بعض متوهماً لزوم أن يكون اسم الإله آلة من قبيل كتبت بالقلم، فقد قال سبحانه (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ)(١) وهو الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة المكثرة، لمن استعان به، وطلب رحمته.

---

(١) يوسف: ١٩.

الٓمٓ ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٣﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾

---

[٢] ﴿**الم**﴾ من جنس «ألف» و«لام» و «ميم» هذا القرآن المعجز الذي لايتمكن الجن والإنس على الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو إنها رموز بين الله ورسوله، وفائدته لنا، إن الرسول يسر به إلى من يعلمه أهلاً لذلك.

[٣] ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾ خبر لقوله «الم» وكون الكتاب حكيماً، بمعنى أنه قرر منهجاً محكماً، لا يدخله زيغ وفساد، فإن الحكمة، وضع الأشياء موضعها اللائق بها.

[٤] في حال كون هذا الكتاب ﴿**هدى**﴾ أي هداية وإرشاداً ﴿**ورحمة**﴾ موجبة للرحم والتفضل، فإن الله سبحانه، لم يُنزل هذا القرآن، إلا لأن يرحم العباد ﴿**للمحسنين**﴾ الذين يحسنون في عقيدتهم وعملهم، وتخصيصهم بالذكر، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كان في القرآن صلاحية الهداية والرحمة للجميع.

[٥] ثم وصف سبحانه المؤمنين بقوله ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ بإتيانها دائماً حسب آدابها وشرائطها ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ أي يعطون الأموال الموجبة لطهارة الأموال وتزكيتها، والظاهر أن المراد بها، الصدقة المستحبة، إذ لم تجب الزكاة المفروضة في مكة ﴿**وهم بالآخرة هم يوقنون**﴾ أي يعتقدون، والإتيان، بـ «هم» مكرراً للتأكيد، ولإفادة، إن المصلي المزكي، هو المعتقد بالآخرة، أما غيره ممن يدعي ذلك، ولا يقوم

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ

بهذين الأمرين، فإنما كلامه لقلقة لسان، لا خارج من أعماق الجنان.

[٦] ﴿**أولئك**﴾ المتصفون بتلك الأوصاف ﴿**على هدى من ربهم**﴾ كأنّ الهدى جادة، والضلال جادة، فمن عمل بما ذكر، كان سائراً على تلك الجادة المسماة بالهدى، وأن الهدى من ناحية إلههم وخالقهم ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ الفائزون بخير الدنيا والآخرة.

[٧] ثم ذكر سبحانه من يقابل طائفة المؤمنين، وهم طائفة الكفار والمنافقين ﴿**ومن الناس**﴾ أي بعضهم ﴿**من يشتري لهو الحديث**﴾ فإنه ينفق عمره في سبيل الأحاديث الملهية الباطلة، وهذا عام ليشمل كل الأحاديث الملهية ومن جملة ذلك «الغناء» ولذا ورد تفسير الآية به ﴿**ليضل عن سبيل الله**﴾ أي يضل الناس عن طريق الهداية فإنه يحدثهم ليجمعهم حوله، فلا يجتمعوا حول الهدى، وقد ورد، أنها نزلت في النضر بن حارث، كان يتّجر فيخرج إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار، وأخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه، ويتركون استماع القرآن[1] ﴿**بغير علم**﴾ فإن العاصي جاهل، وإن كان عالماً حسب الظاهر، إذ لو علم بحقيقة العلم ما يجره إلى نفسه من النار والنكال لم يقترب إلى المعصية أبداً، كما قال: (مَنْ

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٦٢ .

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ)[1] ﴿**ويتخذها**﴾ أي يتخذ سبيل الله ـ فإن السبيل مؤنث مجازي ـ ﴿**هزواً**﴾ آلة استهزاء وسخرية، فإن الإنسان، إذا أراد الاستهزاء، جعل شيئاً محور استهزائه ﴿**أولئك**﴾ الذين صفتهم ما تقدم ﴿**لهم عذاب مهين**﴾ أي يهينهم ذلك العذاب، ويذلهم في مقابل ما كانوا يستكبرون ويتعاظمون في الدنيا.

[٨] ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا**﴾ أي تقرأ عليه آيات القرآن الحكيم ﴿**ولى**﴾ وأعرض ﴿**مستكبراً**﴾ أي في حالة كبر واستعلاء يرى نفسه أكبر من أن يخضع لآيات القرآن ﴿**كأن لم يسمعها**﴾ وإلا فالإنسان العاقل إذا سمع الهدى والرشاد اتبعه واقترب منه وخضع له ﴿**كأن في أذنيه وقراً**﴾ «الوقر» الحمل الثقيل، أي كان في مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع، حتى يهتدي ﴿**فبشره**﴾ يا رسول الله، وتسميته التخويف بشارة، استهزاءً، كما كان يستهزأ بآيات القرآن ﴿**بعذاب أليم**﴾ مؤلم موجع في القيامة.

[٩] وفي مقابلهم المؤمنون ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بما يجب الإيمان به من المعارف والاعتقادات ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ بأن أتوا

---

(١) الأنعام: ٥٥ .

لَهُمْ جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

بالواجبات، وتركوا المحرمات، فإنه لا يقال، فلان يعمل صالحاً، إلا إذا كان آتياً بالواجب تاركاً للمحرم ﴿**لهم جنات النعيم**﴾ أي بساتين يتنعمون فيها في الآخرة، في مقابل العذاب الأليم الذي للكفار.

[١٠] في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي دائمين لا زوال لهم عنها ﴿**وعد الله حقاً**﴾ أي وعد الله ذلك وعداً حقاً يتحقق في الخارج، لا خلف فيه ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب على أمره، فما أراده، من تعذيب الكفار، وتنعيم المؤمنين عمله ﴿**الحكيم**﴾ يفعل الأشياء بالحكمة والمصلحة.

[١١] إن الكفار الذين لا يعترفون بالإله لينظروا إلى آثاره، والمشركون الذين يجعلون له شريكاً، فليأتوا بدليل من الخلق، يدل على شريكهم ﴿**خلق السماوات**﴾ وهي مدارات الكواكب، أو أجسام هنالك، لم يصل إليها العلم، وسير البشر المحدود في الفضاء ﴿**بغير عمد**﴾ جمع عمود، أي لاعماد للسماوات ﴿**ترونها**﴾ أي ترون أن لاعماد للسماوات، وإنما تدور الكواكب، وتسير بقدرته سبحانه، أو المراد، إن السماوات ثابتة بدون أعمدة مرئية، وإنما عمادها الجاذبية، التي خلقها الله فيها، مما لايراها الإنسان ﴿**وألقى في الأرض رواسي**﴾ أي جبالاً راسية ثابتة تمنع الأرض عن التحرك والاضطراب والتفكك، فهي كأوتاد الأخشاب، وإلا جذبتها جاذبية النيران، كما تجذب ماء البحار ـ فيحدث المد والجزر ـ أو تفككت في سيرها السريع، وانتثرت في الفضاء، وإنما ألقى في الأرض رواسي: كراهة ﴿**أن تميد بكم**﴾ من «ماد» بمعنى

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ

اضطرب، أي لئلا تضطرب الأرض معكم أيها البشر ﴿**وبث**﴾ أي نشر، وفرق ﴿**فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**من كل دابة**﴾ من جميع أنواع الدواب المختلفة الأشكال، والألوان والحجوم والمزايا ﴿**وأنزلنا**﴾ على قاعدة الالتفات من الغيبة إلى التكلم الذي هو من أقسام البلاغة ﴿**من السماء**﴾ من جهة العلو ﴿**ماءً**﴾ هو المطر ﴿**فأنبتنا فيها**﴾ في الأرض بسبب ذلك الماء ﴿**من كل زوج**﴾ أي من كل صنف من أصناف النبات ﴿**كريم**﴾ أي مكرّم محترم، لما فيه من الفوائد والخواص.

[١٢] ﴿**هذا**﴾ الذي ذكر من صنوف الخلق ﴿**خلق الله**﴾ فإنه سبحانه، هو الموجد لهذا كله ﴿**فأروني**﴾ أيها المشركون القائلون بأن لله شريكاً ﴿**ماذا خلق الذين من دونه**﴾ أي الآلهة الذين هم غير الله، والإتيان بـ «الذين» للمجاراة مع عبّاد تلك الأصنام، في المكالمة والمخاطبة ليتناسق التعبير أخذاً وعطاءً، وليس لأحد من المشركين، أن ينسب بعض تلك المخلوقات إلى آلهتهم، كما نسب الثنوية المضار إلى إله الشر، إذ توحيد النظام، والتنسيق دال على توحيد الخالق، فإن النظام الواحد لايصدر، إلا من المنظم الواحد، ثم ماذا يقيمون من الأدلة، على أن الشيء الفلاني من الله، والشيء الفلاني من الشركاء؟ إلا الادعاء، وإن شئت قلت: إن هناك مخلوقات، تدل على خالق واحد، فمن يقول بالأكثر، فعليه الدليل ﴿**بل الظالمون**﴾ الذين ظلموا أنفسهم

فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ

بالكفر والشرك والعصيان، لا دليل لهم على تعدد الآلهة، وإنما هم ﴿**في ضلال مبين**﴾ أي انحراف واضح.

[١٣] وإذ كان الكلام حول التوحيد والشرك، ينتقل السياق إلى قصة «لقمان» الحكيم الذي كان يأمر بالتوحيد، وينهى عن الشرك ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**لقمان الحكمة**﴾ وهو معرفة مواضع الأشياء، وعلم الارتباط بين الأسباب والمسببات، بحيث يعلم كيف ينهج الإنسان، حتى يسعد في الحياة، عن الصادق عليه السلام إنه سئل عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل فقال: أما والله، ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل، ولا بسط في جسم، ولا جمال، ولكنه، كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله ساكتاً سكّيتاً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغني بالعبر، لم ينم نهاراً قط، ولم يتك في مجلس قط، ولم يتفل في مجلس قط، ولم يعبث بشيء قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط، ولا اغتسال لشدة تستره، وعمق نظره، وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط، مخافة الإثم في دينه، ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بشيء، بما أتاه من الدينا، إن أتاه من أمرها، ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء، وولد له الأولاد الكثير، وقدم أكثرهم إفراطاً، فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمر برجلين يختصمان، أو يقتتلان إلا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحابا، ولم يسمع قولاً قط عن أحد استحسنه إلا سأله عن تفسيره، وعن من أخذه فكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشي للقضاة والملوك، والسلاطين، فيرثي القضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين، لعزتهم بالله

أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

وطمأنينتهم في ذلك، فيعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالتفكر، ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يصغي إلا فيما ينفعه، ولا ينظر إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، ومُنح العصمة - أي الاعتصام من الزلل - وإن الله تبارك وتعالى، أمر طوائف من الملائكة، حين انتصف النهار، وهدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان حيث يسمع، ولا يراهم، فقالوا: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني ربي بذلك، فالسمع والطاعة، لأنه إن فعل بي ذلك، أعانني عليه، وعلّمني وعصمني، وإن هو خيّرني قبلت العافية، فقالت الملائكة: يا لقمان لم قلت ذلك، قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل من الدين، وأكثر فتناً وبلاءً ما يخذل، ولا يعان، ويغشاه الظلم من كل مكان، وصاحبه منه بين أمرين، إن أصاب فيه الحق، فبالحري أن يسلم، وإن أخطأ أخطأه طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد، من أن يكون فيها حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار الدنيا على تلك الآخرة يخسرهما كلتيهما، تزول هذه، ولا يدرك تلك، قال: فعجبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقه، فلما أمسى، وأخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشاه بها من قرنه، إلى قدمه، وهو نائم، وغطاه بالحكمة غطاءً فاستيقظ، وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس، ينطق بالحكمة ويبثها فيهم[1]، وقلنا له ﴿**أن اشكر لله**﴾ فيما أعطاك، والشكر هو صرف النعمة، فيما أمر الله سبحانه ﴿**ومن يشكر فإنما**

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص٤٠٩ ـ ٤١١ .

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

يشكر لنفسه﴾ فإن فائدة شكره تعود على نفسه، فإن الشكر يوجب الزيادة في النعم والثواب في الآخرة ﴿**ومن كفر**﴾ بأن لم يشكر، وصرف النعم في معصية الله، كأن يصرف نفسه وماله في الكفر والشرك والفسوق والعصيان ﴿**فإن الله غني**﴾ عن شكر الشاكرين، والتقدير، ومن كفر فليعلم إنه لا يضر الله، لأنه سبحانه غني ﴿**حميد**﴾ محمود على أفعاله، فإن ترك هذا الإنسان للحمد والشكر، لا يخرج الله عن كونه محموداً في السماوات والأرض.

[١٤] ثم ذكر سبحانه جملة من حكمة لقمان، وما كان يبثه بين الناس، من المواعظ والنصائح ﴿**و**﴾ أذكر يا رسول الله ﴿**إذ قال لقمان لابنه و**﴾ والحال إنه كان ﴿**هو يعظه**﴾ أي يؤدبه بالأخلاق الحسنة ويعلمه الخير والرشد ﴿**يا بني لا تشرك بالله**﴾ أي لا تجعل له شريكاً فـ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم**﴾ وهل هناك ظلم أعظم، من أن يربط الإنسان أعمال الإله، بمخلوق له، ما يسبب فساد دينه ودنياه، وفساد دنيا ودين من اتبعه؟

[١٥] وبهذه المناسبة، يأتي السياق ليبين جملة من كلام الله سبحانه حول الإنسان، من جهة أبوية، فإن احترام الوالدين في طول إطاعة الله، فكما يجب امتثال أوامر الله، لأنه الخالق، كذلك يلزم الإحسان إليهما، لما تعباه في تكوين الأولاد وتربيتهما ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه**﴾ أي أمرناه، بإطاعة الوالدين وشكرهما، والإحسان إليهما، ثم

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ

ألمع السياق إلى بعض أسباب لزوم الاحترام للأم، فقد ﴿**حملته**﴾ أي حملت الإنسان ﴿**أمه وهناً على وهنٍ**﴾ أي في حال كون الإنسان الجنين، يوجب لها ضعفاً فوق ضعف، فلم تزل تضعف كل يوم أكثر من الضعف في اليوم السابق، حتى تلد، فقد أطلق «وهن» على «الموهن» كأنه قطعة، من قبيل «زيد عدل» ﴿**وفصاله**﴾ أي أن مدة فصال الإنسان عن الرضاع، بعد الولادة ﴿**في عامين**﴾ فإن الرضاع الكامل، إنما هو عامان، ويفصل عن اللبن عند تمامها، كما قال سبحانه، (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)[1] ﴿**أن اشكر لي ولوالديك**﴾ هذا تفسير قوله «ووصينا» مع الزيادة، وهو لفظة «لي» أي كانت وصيتنا للإنسان، أن يشكر لله ولوالديه، وكان الإتيان بـ «لي» لإفادة كون شكر الوالدين، في عرض شكره سبحانه ﴿**إليّ المصير**﴾ فمن تكاسل في الشكر، عوقب بالنكال، كما أن من عمل بالأمر جُوزي بالجنة.

[١٦] ﴿**وإن جاهداك**﴾ أي جاهد معك الأبوان، بأن أتعبا أنفسهما مع الولد ﴿**على أن تشرك**﴾ أيها الإنسان ﴿**بي**﴾ بأن تجعل لي شريكاً، فيما كان هما مشركين، وأرادا جرّ الأولاد إلى دينهما وطريقتهما ﴿**ما ليس لك به علم**﴾ أي تجعل الصنم الذي ليس علم لك بكون ذلك الصنم شريكاً

(١) البقرة: ٢٣٤ .

فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

لي، وهذا لأجل أن ما لا يكون، لا يتعلق به علم، وإن تعلق به القطع، فهو جهل مركب ﴿**فلا تطعهما**﴾ في الإشراك بي ﴿**و**﴾ لكن ﴿**صاحبهما في الدنيا معروفاً**﴾ أي أحسن إليهما، وأرفق بهما، في سائر الأمور مادامت في الدنيا، فإن شركهما لا يسبب قطع الصلة عنهما، ومعروفاً منصوب لكونه صفة، لمصدر محذوف، أي مصاحبة معروفة، مقابل المصاحبة المنكرة ﴿**و**﴾ أما في الأمور الدينية، فـ ﴿**اتبع سبيل من أناب إليّ**﴾ أي رجع إليّ بالإطاعة والامتثال، وإنما سمي الامتثال إنابة، باعتبار أن الكفار قد أعرضوا عن الله، فإذا جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجع جماعة منهم، ومن أولادهم إلى الله بعد الإعراض منهم، أو من آبائهم ﴿**ثم إليّ**﴾ أي إلى جزائي وحسابي ﴿**مرجعكم**﴾ جميعاً الأبوين المشركين، والأولاد المؤمنين، والمرجع مصدر ميمي، بمعنى الرجوع ﴿**فأنبئكم**﴾ أي أخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ في دار الدنيا، لأجازيكم عليه، والإخبار إنما هو للتذكير، حيث لا يحسب الإنسان الجزاء ظلماً أو عبثاً.

[١٧] ثم رجع السياق إلى كلام لقمان مع أبيه، وقد كان من دأب القرآن الحكيم، أن يأتي بالجمل المعترضة، في أواسط الكلام، مما لها ربط به، لتنشيط الذهن بالتفنن في الكلام ﴿**يا بني إنها**﴾ أي فعلة الإنسان المفهوم من قوله «بما كنتم تعملون» ﴿**إن تك مثقال حبة من خردل**﴾ أي كان ثقل النمل في عالم المعنويات، مقدار ثقل حبة خردل من عالم

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

الماديات ﴿**فتكن**﴾ تلك الخردلة، أو تلك الفعلة ﴿**في صخرة**﴾ حيث إن الحبة المخفية في صخرة صماء صعب الاطلاع عليها واستخراجها من الصخرة ﴿**أو في السماوات**﴾، فإن الحبة إذا أضيفت في السماوات الوسيعة، لا يقدر على العثور عليها أحد لسعة السماوات ﴿**أو في الأرض**﴾ وهل توجد حبة ضاعت في الأرض، فهل يعلم أنها في أي مكان منها؟ ﴿**يأت بها الله**﴾ أي بتلك الفعلة، وهذا لإيقاظ الإنسان، أن لايترك خيراً صغيراً بعيداً عن الأنظار بزعم أنه لا يطلع عليه أحد، فلماذا يعمله؟ أو يفعل شراً صغيراً بعيداً عن الأنظار، بزعم أنه لا يراه أحد، فيجتنب عنه؟ إن العمل مهما كان صغيراً، في أرض كان أو سماء، أو في كهف جبل، أو في أعماق البحار، فإن الله مطلع عليه، ويأتي بحسابه يوم القيامة، أو يأتي بنفسه - إن قيل بتجسيم الأعمال - ﴿**إن الله لطيف**﴾ فيعلم الأشياء اللطيفة الدقيقة ﴿**خبير**﴾ عالم بالأشياء، واللطيف أخص من الخبير، وجيء به هنا للمناسبة مع كون العمل صغيراً مضاعاً في السماوات أو الأرض، أو مخفياً في جوف صخرة صماء.

[١٨] ﴿**يا بني**﴾ هو تصغير «ابن» وقد أضيف إلى ياء المتكلم، وجيء بالتصغير لطفاً وشفقة، لا تحقيراً وإهانة ﴿**أقم الصلاة**﴾ بآدابها وأركانها ﴿**وأمر بالمعروف**﴾ وهو كل شيء حسن عقلاً، أو شرعاً، وسمي معروفاً، لأنهم يعرفونه، ولا ينكرونه ﴿**وانه عن المنكر**﴾ وهو كل قبيح

وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٩﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ

يستقل به عقل أو شرع، وسمي منكراً لأن الناس ينكرونه ﴿**واصبر على ما أصابك**﴾ من الأذى في سبيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو كل ما أصابك من مكاره الدنيا، فلا تجزع ولا تخرج عن نطاق الأدب والشريعة في المكاره ﴿**إن ذلك**﴾ الصبر على ما أصابك، أو كل ما سبق ﴿**من عزم الأمور**﴾ العزم، هو عقد القلب على شيء، أصله بمعنى القطع، كأن من نوى شيئاً، فقد قطع هذا الطرف من الأمر ليسير عليه، ومن يتصف، بأنه يتمكن أن يقطع الأمور، ويبنى على الطرف منها، فقد اتصف بصفة كبرى، حيث لم يعط للشك مجالاً لتهديم استقامته، وصبره وصموده فيما يريد.

[١٩] ﴿**ولا تصعر**﴾ من «صعر» بمعنى أمال ﴿**خدك**﴾ أي صفحة وجهك ﴿**للناس**﴾ بأن تتكبّر عليهم، فتعرض عنهم بوجهك حين يطلبون منك حاجة، أو يواجهونك بكلام ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾ أي مشياً مرحاً، وهو مشي الكبر والخيلاء ﴿**إن الله لا يحب كل مختال**﴾ من اختال بمعنى تكبر ﴿**فخور**﴾ يفخر على الناس، ومعنى لا يحب يكره، لما سبق من التلازم بين عدم حب الله لشيء، وكراهته له، ولعل التعبير بـ «لايحب» لإفادة أن مجرد عدم محبة الله، كاف في ترك الإنسان لشيء، فكيف إذا كرهه؟.

[٢٠] ﴿**واقصد في مشيك**﴾ القصد في كل شيء هو حد الوسط فيه بدون إفراط أو تفريط، أي ليكن مشياً متوسطاً، لا بسرعة تذهب بالبهاء،

وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ

ولا ببطء من الخيلاء، أو المراد من المشي الأعم من الحركة، يقال فلان حسن المشي، فيما كانت سيرته حسنة، فيكون المراد بالآية، القصد في كل شيء من إنفاق، ومأكل، وسيرة، وعشرة، وغيرها ﴿**واغضض من صوتك**﴾ أي اخفض بعض صوتك، بأن لا تظهر كل الصوت عند التكلم، بل تنقّص بعضه، فإن الأدب في التكلم، أن يتكلم الإنسان كلاماً هادئاً، بدون جهر شديد، وصياح، ثم استدل لقمان لقبح الصوت الرفيع، بقوله ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ حين ينهق، فإن صوته يزعج السامع، وليس ذلك إلا لأجل رفعه، والجهر الشديد به، فإذا أزعج الإنسان صوت الحمار، فليتأدب عند إخراج صوت نفسه، كما روي إنه قيل لأحد الحكماء: ممن تعلمت الأدب؟ قال: ممن لا أدب له، حيث رأيت قبح عمله، فتركته.

[٢١] ثم انتقل السياق للحوار مع المنكرين لله، والجاعلين له شريكاً، الذين من أجلهم سيق قصة لقمان ﴿**ألم تروا**﴾ أيها المنكرون له، أو المعترفون به الجاعلون معه شريكاً ﴿**أن الله سخر لكم ما في السماوات**﴾ من الشمس والقمر والنجوم، فإنها تسير لمصالحكم، ومنافعكم، وكذلك الهواء والحساب وغيرها ﴿**وما في الأرض**﴾ من الحيوان، والنبات، والمياه، والمعادن، وغيرها فقد جعلها تحت اختياركم، ولمنافعكم ﴿**وأسبغ عليكم**﴾ أي أوسع عليكم ﴿**نعمه**﴾ جمع نعمة كالغنى، والصحة، والأمن، وغيرها ﴿**ظاهرة وباطنة**﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ

فالظاهرة كالخلق والحياة، وما ينتفع منها الإنسان، في حياته وعيشه، والباطنة، ما وهب الله للإنسان من الإدراك، والعقل، الذي به يسيّر حياته حسب المصلحة والخير، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ ومن النعم الباطنة، الرسل، والأئمة والإسلام، ومن الناس من ينسب كل هذه النعم إلى الصدفة أو الطبيعة، فلنسأل: هل لهاتين من عقل وتدبير؟ فإن قال: نعم، قلنا: ما تسميه الصدفة والطبيعة مما له إدراك وتدبير، وتقدير، وعلم، وحكمة ـ إلى غيرها مما يستلزمها هذه المخلوقات ـ هو ما نسميه نحن «الله» إذن فالنزاع في اللفظ، وإن قال: لا، قلنا من ذلك يلزم، ما لا عقل له عقل، فكيف لا يقدر جميع الأقوياء من الأطباء أن يصنعوا عيناً لأعمى، أو عقلاً لمجنون، والطبيعة الجاهلة العاجزة، تصنع ملايين العيون والعقول؟ ﴿**و**﴾ بعد هذه الأدلة القاطعة ﴿**من الناس من يجادل في الله**﴾ أي في أصل وجوده سبحانه، أو وحدته، بأن يعطل الكون عن الإله، أو يجعل له شريكاً ﴿**بغير علم**﴾ فلا علم له قطعي بما يقول، وإنما هو ظن وتقليد ﴿**ولا هدىً**﴾ أدلة قطعية عقلية ﴿**ولا كتاب منير**﴾ أي كتاب واضح، ظاهر يوجب تنوير الفكر بالبراهين، والحجج، والحاصل إنه لادليل عقلي لهم، ولا دليل نقلي، ولا لهم علم، بما يقولون، وإنما ظنون وأهواء وتقاليد.

[٢٢] ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**﴾ فهذا كتاب منير عوض العلم، والدليل العقلي، الذين يفقدونهما في باب المبدأ والمعاد ﴿**قالوا**﴾ في

بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢٢﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٣﴾

جواب ذلك ﴿**بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ فإنا نقلدهم، فيما كانوا يقولون من أمر المبدأ والإله، والمعاد، وسائر هذه الشؤون الأصولية ﴿**أو لو كان الشيطان يدعوهم**﴾ بسبب هذا التقليد ﴿**إلى عذاب السعير**﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، والاستفهام إنكاري، أي إنهم يقلدون آباءهم، حتى إذا كان التقليد من دعوة الشيطان الموجبة، لأن يدخل الإنسان النار في خاتمة المطاف، والسعير اسم من أسامي جهنم، سميت به لاستعارها واشتعالها.

[٢٣] هذا حال الكفار المجادلون المقلدون لآبائهم، أما ﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله**﴾ بأن يخضع له، ونسبة التسليم إلى الوجه، باعتبار أن الإنسان الخاضع نفسه، يظهر آثار الخضوع على وجهه ﴿**وهو محسن**﴾ في عمله، بأن كانت عقيدته، وعمله صحيحتين ﴿**فقد استمسك**﴾ أي تمسك وأخذ ﴿**بالعروة الوثقى**﴾ فقد شبهت الحياة، بمحل مهول لاينجو منه، إلا من تمسك بشيء، كالعروة، فمن الناس من يتمسك بعروة واهية تنقطع، وتنفصل، ومنهم من تمسك بعروة وثقى ـ مؤنث أوثق ـ التي لا تنفصم، حتى ينجو الإنسان عن الأهوال ﴿**وإلى الله عاقبة الأمور**﴾ فهو في الحياة مستمسك بأقوى العرى، ومصيره إلى الله، الذي عمل لأجله، وحسب أمره في الحياة، ولا بد أن تكون

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٥﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم

عاقبته حسنة، فأواخر الأمور وهي جزاؤها مربوطة بالله، فمن أحسن، جزاه بالخير، ومن أساء أخزاه بالشر، فكان كل أمر له ابتداء هو ما يعمله الإنسان، وانتهاء هو جزاءه الذي يحصّله من جراء عمله.

[٢٤] وإذ تبين الحق، فلا يحزن الإنسان لمن عاند، حتى وصل إلى العذاب ﴿**ومن كفر فلا يحزنك**﴾ يا رسول الله ﴿**كفره**﴾ فإن الإنسان لا يحزن للمعاند ﴿**إلينا مرجعهم**﴾ أي إلى جزائنا رجوعهم، وهناك ﴿**فننبئهم**﴾ أي نخبرهم ﴿**بما عملوا**﴾ من الكفر والعصيان، ومعنى الإخبار، بيان ما عملوا، حتى يعرفوا، أنهم استحقوا العذاب، الذي يراد بهم ﴿**إن الله عليم بذات الصدور**﴾ أي بما يجول فيها من الكفر والعصيان، فلا يفوته شيء، ويكون إخباره إخبار عالم، وجزائه جزاء عادل، لا ينقص من عذابهم شيئاً، ولا يزيد فيه شيئاً.

[٢٥] وإنما نمهلهم في الدنيا للاختبار والامتحان ﴿**نمتعهم**﴾ أي نعطيهم من متع الحياة الدنيا ﴿**قليلاً**﴾ فإن أيام الدنيا قليلة، وإن طالت عشرات السنوات، بالنسبة إلى الآخرة الباقية، التي لا فناء لها ﴿**ثم نضطرهم**﴾ أي ندخلهم في الآخرة بكُرهٍ منهم واضطرار، واضطر فعل متعد، ولذا يأخذ المفعول بلا واسطة، أصله «اضتر» من باب الافتعال، قلبت التاء «طاء» على القاعدة ﴿**إلى عذاب غليظ**﴾ أي شديد، يغلظ عليهم ويصعب.

[٢٦] ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي سألت هؤلاء المشركين الذين يشركون بالله

﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

الأصنام ﴿**من خلق السماوات والأرض**﴾؟ هل الله خلقها، أم الأصنام، ﴿**ليقولن الله**﴾ خلقها، إذ لا يتجرأ أحدهم، أن ينسب هذا الخلق العظيم، إلى أصنام من الطين والحجارة، أو سائر المعادن والأشجار ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، إذا قالوا ذلك، وتمت عليهم الحجة، في أصنام هي باطلة ﴿**الحمد لله**﴾ إذ اعترفوا بوحدة الخالق، وأقروا بما يلزم بطلان آلهتهم ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ إن اعترافهم بوحدة الخالق، موجب لوحدة الإله، إذ لو لم يكن لأصنامهم شراكة في الخلق، فماذا أوجب أن تكون آلهة؟

[٢٧] وإذن فباعتراف الطرفين ﴿**لله ما في السماوات والأرض**﴾ فهو المتفرد بالخلق والملك، إذ الخالق هو المالك ﴿**إن الله هو الغني**﴾ عما سواه من الشركاء، إذ له كل شيء إلى من ليس له شيء؟ ﴿**الحميد**﴾ المستحق للحمد، وحده بدون شريك، إذ من يعطي كل شيء، هو المستحق للحمد دون من لا يعطي.

[٢٨] ولا يظن ظان، أن ما في السماوات والأرض، أمور معدودة تحيط بها الكتابة والتسجيل، ليستدل بذلك على محدودية خلق الله، إن ما خلقه الله سبحانه، لا يحيط به كتاب، وإن كانت الأشجار أقلاماً ، والبحار وأصفافها مداداً، وهذا هو الإله الحق، أما الأصنام، فمن المضحك أن يتفوه الإنسان، بأنها في عداد الإله؟ ﴿**ولو أنما في الأرض من**

شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ مَّا خَلْقُكُمْ

شجرة﴾ على كثرتها المدهشة **﴿أقلام﴾** للكتابة، والبحار كلها مداد وحبر ـ لا هذه البحار فحسب ـ بل **﴿والبحر﴾** والمراد به الجنس **﴿يمده من بعده﴾** أي سواه **﴿سبعة أبحر﴾** أخرى، والإتيان بلفظ السبعة، لا للخصوصية، بل هذا العدد، كان كناية عن الكثرة، نحو «السبعين» كما قال (إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[1] ثم أخذ الكتّاب، يكتبون بتلك الأقلام، وذلك المداد الهائلين ـ كثرة ـ نعم الله سبحانه ومخلوقاته **﴿ما نفدت كلمات الله﴾** أي لم تخلص بحيث تحيط بها الكتابة، والكلمة تطلق على المخلوق، باعتبار، أنه يخرج، بالإرادة الأزلية من العدم إلى الوجود، كما يخرج اللفظ من الفم إلى الخارج، فإن الله سبحانه، حيث كان لا يتناهى، كانت مخلوقاته الطويلة أيضاً، لا تتناهى، فلا يحيط ما يتناهى بما لايتناهى، وهذا لا يدل على أن الكلمات المخلوقة فعلاً، لا تتناهى، حتى يقال: قد دلت الأدلة على استحالة ما لا يتناهى في عالم الماديات؟ **﴿ إن الله عزيز﴾** غالب على أمره، يفعل ما يشاء **﴿حكيم﴾** فكل ما يخلق، إنما هو حسب الحكمة والمصلحة.

[٢٩] ولا يظن ظان أن هذه الخلقة المدهشة، توجب تعباً على الخالق، فإن الله يخلق ملايين العوالم بالإرادة، ولا فرق لديه بين خلق شيء واحد وملايين العوالم **﴿ما خلقكم﴾** أيها البشر

(١) التوبة: ٨٠ .

وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٠﴾

﴿**ولابعثكم**﴾ بعد الموت ﴿**إلا كـ**﴾ خلق وبعث ﴿**نفس واحدة**﴾ فالأمران: خلق الواحد، أو الجميع، وبعثه، عنده سبحانه سيّان ﴿**إن الله سميع**﴾ لأقوالكم ﴿**بصير**﴾ بنياتكم، فقد كانت قريش تقول: إن الله خلقنا أطواراً نطفة فعلقة فمضغة، فلحماً، فكيف يعيدنا جميعاً، في ساعة واحدة؟ وكانت هذه الآية تدمغهم.

[٣٠] ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو كل من منه الرؤية، قدرة الله العظيمة، فكيف يقول أناس: إنه لا يقدر على البعث، أو ينكرون وجوده؟ ﴿**أن الله يولج الليل في النهار**﴾ بأن ينقص من النهار، ليزيد على الليل، أو يدخل ليلة كل يوم نهارها، حتى إن غابت الشمس، توجه جند الليل من ناحية المشرق، ليغزوا النهار المنتشر في السماء، والإيلاج هو الإدخال ﴿**ويولج النهار في الليل**﴾ على أحد المعنيين السابقين ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ ذللهما حتى أنهما يسيران طوع أمره وإرادته ﴿**كل يجري**﴾ في فلكه بصورة مستمرة دائمة لينتهي ﴿**إلى أجل**﴾ ومدة ﴿**مسمىً**﴾ قد سمي ذلك عنده سبحانه، فليس سيرهما اعتباطاً، بلا تحديد وتقدير ﴿**وأن الله بما تعملون خبير**﴾ وقد أدرج هذا الأمر المعنوي إلى ذينك الأمرين الحسيين لإفادة من يخلق ويتصرف بما تقدم، لا بد وأن يعلم أعمال الخلائق، ولذا صح عطفه على قوله «أن

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣١﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ

الله يولج» وعلى هذا، فالمراد بالرؤية المعنى الجامع بين البصر والبصيرة.

[٣١] ﴿**ذلك**﴾ الذي تقدم من التصرف في الليل والنهار، والشمس والقمر، والعلم بأعمال العباد، إنما كان من شأن الله ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أن الله هو**﴾ الإله ﴿**الحق**﴾ والإله الحق يتأتى منه كل ذلك ﴿**و**﴾ لازم كون الله حقاً ﴿**أن ما يدعون من دونه**﴾ من الأصنام ﴿**الباطل**﴾ فليست تلك بآلهة ﴿**وأن الله هو العلي**﴾ الرفيع ﴿**الكبير**﴾ العظيم، وإن التصرفات الكونية، والعلم الشامل، إنما هي من شأن الإله العلي الكبير، فهل يتمكن أحد، أن ينسب إلى الأصنام هذه الصفات، أو تلك الأمور التكوينية؟

[٣٢] ثم ينتقل السياق إلى إلفات هؤلاء نحو خارقة كونية أخرى، لا ميحص لهم عن الاعتراف، بأنها لله، لا لأصنامهم ﴿**ألم ترَ**﴾ يا رسول الله، أو لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿**أن الفلك**﴾ أي السفينة ﴿**تجري في البحر بنعمة الله**﴾ فقد أنعم على البشر بإجراء السفينة في البحار لتقلهم من هنا إلى هناك، وتسهيل تجارتهم بسببها، و ﴿**ليريكم**﴾ الله في هذا المسير ﴿**من آياته**﴾ أي بعض آياته الدالة على عظم قدره، وجلالة شأنه، فإن في البحار عجائب صنع الله سبحانه، مما يراها من ركب البحر، وقوله «ليريكم» بيان لإحدى علل إجراء السفينة في البحر،

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

فإن إجراءها للسفر والتجارة، ورؤية الآيات ﴿**إن في ذلك**﴾ الإجراء في البحر ﴿**لآيات**﴾ دالة على الله وصفاته ﴿**لكل صبار**﴾ يصبر عند البلاء ﴿**شكور**﴾ يشكر عند الرخاء، وكان الإتيان بهاتين الصفتين هنا، لما يطرأ على الإنسان، من هاتين الحالتين، عند ركوب البحر من الأهوال المحتاجة إلى الصبر، والإنجاء المحتاج إلى الشكر، فإن الصابر الشاكر ـ وهو المعترف بالله ـ هو الذي يدرك الآيات، أما الجاهل المضطرب النفس، فلا يدرك الآيات، ولا يعيرها أهمية.

[٣٣] ﴿**وإذا**﴾ ركب الناس السفينة و ﴿**غشيهم موج كالضلل**﴾ فإن الموج أحياناً يركب على السفينة، كالظلة التي تلقى عليها، فيدخل فيها قسم من ماء الموج، وإنما جاء بالجمع في قوله «كالظلل» وهو جمع ظلة، لأن للموج طبقات، تعلو طبقة على طبقة ﴿**دعوا الله**﴾ أي الركاب، في حال خوفهم من الموج أن يغرق السفينة بمن فيها، في حال كونهم ﴿**مخلصين له الدين**﴾ أي قد أخلصوا له الطريقة، بأن صار توجههم إليه وحده، وانصرف المشركون من الراكبين عن آلهتهم ﴿**فلما**﴾ ذهب الموج، وأمنوا الخطر، و ﴿**نجاهم**﴾ الله ﴿**إلى البر**﴾ بأن خرجوا من السفينة بسلام ﴿**فمنهم**﴾ أي بعض أولئك الراكبين ﴿**مقتصد**﴾، أخذ طريق القصد والعدل، فيبقى على إيمانه بالله ﴿**و**﴾ منهم راجع إلى كفره وشركه، و﴿**ما يجحد بآياتنا**﴾ الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا، ومن تلك الآيات الإنجاء، من أهوال البحر ﴿**إلا كلّ ختار**﴾

كَفُورٍ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ

من ختر، بمعنى غدر بالعهد﴿**كفور**﴾ لله سبحانه، في المجمع: قيل إن هذا كان سبب إسلام عِكرمة بن أبي جهل، وهو إخلاصهم الدعاء في البحر، فقد روى السدّي عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله، الناس، إلا أربعة نفر، قال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أخطل، وقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأما عكرمة، فركب البحر، فأصابته ريح عاصفة، فقال أهل السفينة أخلصوا، فإن آلهتكم، لا تغني عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر، إلا الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره؟ اللهم إن لك علي عهداً، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم(١) . . . وقد قبل النبي إسلامه، ومن طريف الأمر إن الإنسان كلما وقع في مشكلة، لا بد وأن يعرف ما ينجيه، وما لاينجيه، ثم إذا ارتفعت المشكلة، رجع إلى تقاليده البالية، وما يفرضه العرف والاجتماع عليه.

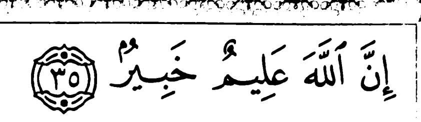
[٣٤] وإذا أتم الاحتجاج مع الناس حول الألوهية والمعاد، جاء السياق لتخويفهم عاقبة أمرهم، بقوله ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم**﴾ أي خافوا عقابه ﴿**واخشوا يوماً**﴾ هو يوم القيامة ﴿**لا يجزي والد عن ولده**﴾ أي لايغني أحد أحداً، حتى أن الأب الرؤوف بأولاده لا يتمكن من

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٩٥ .

وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ

خلاصهم ﴿**ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**﴾ والابن لا يغني عن أباه، حتى الشيء القليل ﴿**إن وعد الله**﴾ بالبعث والجزاء ﴿**حق**﴾ آت لا ريب فيه ﴿**فلا تغرنكم الحياة الدنيا**﴾ بأن تصرفكم زهرتها عن الإيمان حتى تذوقوا العذاب يوم القيامة ﴿**ولا يغرنكم بالله**﴾ أي لا يجرأنكم على عصيان الله، الشيطان ﴿**الغرور**﴾ الذي يغر كثيراً.

[٣٥] ﴿**إن الله**﴾ هو العالم القادر، هو عالم بما تعملون، وقادر على البعث والجزاء، ألا ترون إلى آثار علمه وقدرته عندكم، فإنه سبحانه ﴿**عنده علم الساعة**﴾ بمعنى، في أي وقت تقوم القيامة ﴿**وينزل الغيث**﴾ أي المطر الدال على كمال قدرته ﴿**ويعلم ما في الأرحام**﴾ أي أرحام النساء، من ذكر وأنثى، صحيح أو سقيم، جميل أو قبيح، وهكذا، ولو لم يعلم ذلك لم يتمكن من صنعه بهذه الدقة المدهشة، أما أنتم أيها البشر، فأسرعوا في التوبة والرجوع، إلى هذا الإله العالم القادر، والعمل الصالح ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً**﴾ من خير أو شر، فلا تسوّفوا التوبة والعمل لغد، فلعلّ ما أردتم فيه، لم تتمكنوا من إنجازه ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ فلعله مات في نفس مكانه، لم يقدر على الجري، ليصلح شأنه، إن سوّف التوبة، والعمل



الصالح، فيبادر الإنسان في زمانه، ومكانه إلى الرجوع إليه سبحانه، قبل أن يتحسر ويندم، ولات ساعة مندم ﴿**إن الله عليم**﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿**خبير**﴾ ولعل الفرق بين الوصفين، إن الثاني أدق من الأول، في إفادة المراد، لدى اجتماعهما، فالخبير، من يعلم كنه الأشياء، وجميع مزاياها.



سورة السجدة

مكيّة/آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على مادة السجدة، في قوله «خروا سجداً» وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة بشعبها المختلفة، قال في المجمع: ختم الله سبحانه السورة التي قبلها بدلائل الربوبية، وافتتح هذه السورة أيضاً بها.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ باسم الإله الذي يرحم العباد، نبتدأ السورة، لكي نجعله عنواناً لنا، وشعاراً لأمورنا، ونسترحم لطفه، وعنايته، بتذكر اسمه الرحمن الرحيم.

الٓمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ

[٢] ﴿الم﴾ «ألف» و «لام» و «ميم» جنس لحروف هذه السور، التي عجز البشر من الإتيان بمثلها، أو إنها رموز بين الله والرسول، أو لأن المشركين، كانوا يصيحون حين يبدأ الرسول بالقرآن، ليمنعوا الناس عن سماع صوته وإيقاعه في الغلط، فكانت تنزل المقطعات لتوجب الدهشة فيهم فيصنتوا استغراباً وهناك يُلقّنوا القرآن، أو غيرها من الأقوال.

[٣] ﴿تنزيل الكتاب﴾ خبر، لـ «الم» واللام في «الكتاب» للعهد، أي أن «الم» أو هذه الآيات، تنزيل الكتاب الذي وعدتم به من قبل، على لسان الأنبياء، أو لسان الرسول ﷺ، وقد وضع المصدر، وهو «تنزيل» موضع المفعول، فهذه الآيات، هو الكتاب المنزل، أو «الم» هو الكتاب المنزل، كما وضع المصدر موضع الفاعل في «زيد عدل» أي عادل ﴿لا ريب فيه﴾ أي ليس الكتاب محل ارتياب، وإن ارتاب فيه المبطلون، كما تقول: لا ريب في أن وقت طلوع الشمس أو الصبح، يعني ليس محل ارتياب، وإن كان هناك «سوفسطائيون» ينكرون ذلك، أو يشكون فيه ﴿من رب العالمين﴾، وإلا فلو لم يكن من رب العالمين، فلماذا لا يتمكن البشر من الإتيان كمثله.

[٤] ﴿أم يقولون﴾ أي بل يقول هؤلاء الكفار ﴿افتراه﴾ أي نسب الرسول القرآن إلى الله كذباً، وليس الأمر كما يقولون ﴿بل هو الحق﴾ المطابق للواقع ﴿من ربك﴾ أي من طرفه سبحانه، وليس مفترى على الله تعالى، كما زعموا، وقد أنزله سبحانه ﴿لتنذر﴾ يا رسول الله

قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ

﴿**قوماً**﴾ بأنهم إن بقوا على الكفر، وعملوا بالمعاصي، كان مصيرهم إلى النار ﴿**ما أتاهم من نذير من قبلك**﴾ فإن كفار مكة، لم يأتهم رسول ينذرهم قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿**لعلهم يهتدون**﴾ أي لكي يهتدوا إلى طريق الله سبحانه.

[٥] ثم بين سبحانه «رب العالمين» بقوله أنه هو ﴿**الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما**﴾ من أنواع الحيوان، والإنسان والنبات، والهواء، والملائكة، وغيرها ﴿**في ستة أيام**﴾ وقد جرت عادته سبحانه على التدريج في الخلق، كما نشاهد في خلق الإنسان، والنبات، والحيوان، وعلى هذا الناموس العام، كان خلق الكون تدريجياً في ستة أيام والسر في هذا العدد الخاص، هو السر، في أي عدد كان، وهو السر في تسعة أشهر للحمل، والمدة الفلانية في النبات، والحيوان، وهكذا، فهو أحد مصاديق التدريج، والظاهر، أن المراد مقدار ستة أيام، وإلا فقبل الشمس، لم يكن نهار وليل ﴿**ثم استوى**﴾ سبحانه ﴿**على العرش**﴾ أي استولى عليه، وهذا معنى كنائي، كما يقال: استوى الملك على سرير الملك، يراد أنه، أخذ زمام السلطة بيده، وإن لم يكن هناك سرير، والإتيان بثم مع أنه سبحانه، كان قائماً على كل شيء، لأنه لم يكن قبل خلق الكون شيء، حتى يقال: استولى عليه، فتحقق الاستيلاء، إنما هو بتحقق المستولى عليه ﴿**مالكم**﴾ أي ليس لكم أيها البشر ﴿**من دونه**﴾ أي سواه سبحانه ﴿**من ولى**﴾ يلي

وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ

أموركم، ويقدر ويدبر شؤونكم، فإن الأصنام مخلوقة، لا تملك لنفسها شيئاً، فكيف تملك لكم؟ ﴿**ولا شفيع**﴾ في إنجائكم من الهلكات الدنيوية، والأخروية، فإن الخلق، والولاية، والشفاعة، كلها له وحده، فإن أراد إنقاذ أحد أشار هو بشفاعة نبي أو عظيم ليشفع له، كما قال (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى)[1] ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ أيها البشر، ما أودع فيكم من الفطرة الدالة على أن للكون إلهاً قوياً يسيّره، وليس ذلك لهذه الأصنام، أو ما أشبهها؟

[٦] وهو سبحانه ﴿**يدبر الأمر**﴾ أي جنس الأمر المرتبط بهذا العالم، فيأتي ﴿**من السماء**﴾ وإنما جعل سبحانه تدبير أمر الأرض في السماء، حسب حكمته البالغة، كما قال (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)[2] وإلا لم يكن له حاجة إلى ذلك، وليس ذلك، لأنه تعالى أقرب إلى السماء منه إلى الأرض، بل الجميع لدى عظمته سواء، ولا مكان له ولا جسمية، حتى يكون أقرب إلى بعض من بعض ﴿**إلى الأرض**﴾ أي تدبيراً ينتهي إلى الأرض ﴿**ثم يعرج**﴾ أي يصعد الأمر ﴿**إليه**﴾ تعالى، والظاهر، أن التعبير، بـ «يعرج» باعتبار ارتفاع مقام الله سبحانه، كما إذا سألت أحداً من أعضاء الحكومة أمراً، يقول: «أراجع فوقي» يريد فوقه في الرتبة، لافي المكان، ومعنى صعود الأمر إليه، أن النتائج والآثار التي ظهرت من الأمر، يكون بنظره سبحانه، أو أن العروج،

---

(١) الأنبياء: ٢٩ .

(٢) الذاريات: ٢٣ .

فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٦﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٧﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٨﴾

والنزول، باعتبار، أن تقديرات الأرض تكون في السماء، ثم تصعد الآثار إلى السماء ﴿**في يوم**﴾ أي أن النزول والعروج منسوبان إلى يوم، فإن «في» بمعنى النسبة ﴿**كان مقداره ألف سنة مما تعدون**﴾ فهما في زمان يسير، لكن المسافة الحقيقة، هي تقطع في ألف سنة، خمسمائة سنة نزولاً، وخمسمائة سنة صعوداً، أو أن المراد، أن نتائج الأعمال، إنما ترفع إلى مقام جلال الله سبحانه، في يوم القيامة، الذي يعادل ألف سنة.

[٧] ﴿**ذلك**﴾ الذي خلق السماوات والأرض بتلك الأوصاف ﴿**عالم الغيب**﴾ أي يعلم ما غاب عن الحواس ﴿**والشهادة**﴾ الأشياء، التي يشاهدها الإنسان بإحدى حواسه ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الرحيم**﴾ الذي يرحم الخلق، ويتفضل عليهم بأنواع النعم.

[٨] ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾ بأن أتى بأحسن المزايا والخصوصيات، التي يمكن أن يكون الخلق عليها، على نحو يقتضي الحكمة والصلاح، فحتى الإنسان الأعمى أحسن الله في خلقه غاية الإحسان، فإن العمى، وإن كان نقصاً في ذاته، إلا أنه جعله عبرة وعظة، وما أعدّ له من الثواب، إن صبر وعمل صالحاً، يردفه في جملة ما حسّن خلقه ﴿**وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾ فإن آدم خلق من الطين، الذي هو تراب مخلوط بالماء.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٩﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ

[٩] ﴿**ثم جعل**﴾ الله سبحانه ﴿**نسله**﴾ أي ولده وذريته ﴿**من سلالة**﴾ أي صفوة، قد سلّت من غيرها، ويسمى ماء الرجل سلالة، لانسلاله من صلبه ﴿**من ماء مهين**﴾ أي حقير، من هان، بمعنى حقر، والمراد به «المني» فإنه حقير مهان لرائحته وقذارته.

[١٠] ﴿**ثم سواه**﴾ أي جعله بشراً سوياً، بإعطائه الآلات والحواس والأعضاء ﴿**ونفخ فيه**﴾ أي في ذلك الماء الذي سواه ﴿**من روحه**﴾ أي الروح الذي خلقه، والإضافة تشريفية، كإضافة البيت إلى الله سبحانه في قولنا «بيت الله» للكعبة والمسجد، وحيث أن الروح جوهر لطيف عبر بالنفخ، كما ينفخ الهواء في الزق ﴿**وجعل**﴾ الله ﴿**لكم**﴾ أيها البشر ﴿**السمع والأبصار والأفئدة**﴾ جمع فؤاد، وهو القلب، وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر، لما يشاهد لها من الفوائد الجمة، كما أن الإتيان بالسمع مفرداً مراداً به الجنس، بخلاف الأبصار والأفئدة، جمعاً للتفنن في الكلام، الذي هو من أبواب البلاغة ﴿**قليلاً ما**﴾ «ما» زائدة لتأكيد «قليلاً» ﴿**تشكرون**﴾ نعم الله سبحانه.

[١١] وبعد ذكر المبدأ، أتى السياق، لذكر المعاد ﴿**وقالوا**﴾ أي من أنكروا البعث ﴿**أإذا ضللنا في الأرض**﴾ بأن صرنا تراباً، وتفرقت أجزاؤنا، بحيث لا يقدر على تميزها من غيرها، من أراد التمييز ﴿**أإنا لفي خلق جديد**﴾؟

بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا

بأن نرجع إلى الحياة؟ إن هذا لا يمكن أبداً، فإن تمييز أجزائنا عن غيرها، لا يمكن، فكيف بجمعها وصنعها إنساناً من جديد ﴿**بل هم**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**بلقاء ربهم**﴾ أي لقاء جزائه وحسابه ﴿**كافرون**﴾ وإلا فلم يدل دليل على امتناع ذلك، والمعنى أن قولهم هذا ناشئ من كفرهم، لا عن دليل دلّهم على استحالة الإعادة.

[١٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**يتوفاكم**﴾ أي يميتكم ﴿**ملك الموت**﴾ أي الملك الموكل بإماتة الناس، وهو عزرائيل عليه السلام ﴿**الذي وكّل بكم**﴾ وكله الله سبحانه، لوفاتكم، فالوفات هكذا، وليست اعتباطاً، كما يزعم الجاهلون، فإنهم حيث لا يرون أحداً يظنون أن الأسباب الظاهرة، هي العلة التامة للوفاة ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ إلى حسابه وجزائه رجوعكم.

[١٣] وهناك يأتي المجرمون نادمين على ما فرطوا في دار الدنيا من الكفر والعصيان ﴿**ولو ترى**﴾ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية، وجواب «لو» محذوف، والتقدير «لرأيت أمراً فظيعاً» ﴿**إذ المجرمون**﴾ الذين أذنبوا ﴿**ناكسوا رؤوسهم**﴾ قد طأطؤوها حياءً، وندماً، وذلاً ﴿**عند ربهم**﴾ أي في موقف الحساب، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وعند ذلك يقولون: يا ﴿**ربنا أبصرنا**﴾ ما كنا نعمى عنه، في دار الدنيا ﴿**وسمعنا**﴾ ما كنا نصم عنه في الحياة ﴿**فارجعنا**﴾ إلى

نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ

الدنيا ﴿**نعمل صالحاً**﴾ كما تأمر ﴿**إنا موقنون**﴾ قد تيقنا صدق كلامك ووعدك، ولكن هل يرجعون؟ كلا! وهل يصدقون في أنهم لو رجعوا عملوا صالحاً؟ كلا! إنها كلمة هو قائلها.

[١٤] ﴿**ولو شئنا**﴾ أن نجبر الناس على الهداية ﴿**لأتينا كل نفس هداها**﴾ أي أعطيناهم الهداية بالجبر، بأن نُلجأهم إلى الإيمان، والعمل الصالح، ولكن ذلك يبطل التكليف، كما يبطل الثواب والعقاب، ويكون الناس حينئذ، كالحجارة، التي لا مدح لها ولا ذم، فإنما تفعل، ما تفعل بالطبع والقسوة لا بالاختيار والرغبة ﴿**ولكن**﴾ لأن شاء ذلك، وقد ﴿**حق القول مني**﴾ أي ثبت ولزم ما قلته سابقاً، من إعطاء الاختيار للناس، حتى يذهب بعض إلى الجنة، ممن أطاع وآمن، و﴿**لأ ملأن**﴾ من ملأ بمعنى الإكثار من المظروف حتى يمتلئَ الظرف، ولا يكون له بعد مجال لأخذ الزائد ﴿**جهنم من الجنة**﴾ أي الجن ﴿**والناس**﴾ الكفار والعصاة ﴿**أجمعين**﴾ وإنما ذكر هذا الشق، من شقي الناس والجان، لأنه محل الكلام، فإن الحديث بالنسبة إلى المجرمين.

[١٥] وإذ يدخل النار الكفار، من الصنفين يخاطبون من قبل الله سبحانه ﴿**فذوقوا**﴾ العذاب، والمذوق هو الإدراك بحاسة اللسان، أو حاسة اللمس، أو مطلق الحواس ﴿**بما نسيتم**﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿**لقاء يومكم**

هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾

هذا﴾ والتعبير بالنسيان، باعتبار جعل الإنذار مهملاً غير معتنى به، كالناسي للشيء، والمراد باليوم القيامة **﴿إنا نسيناكم﴾** أي أهملناكم، ولم نعتن بكم، لننقذكم من العذاب، وإنما استعمل النسيان في الإهمال، لعلاقة المشابهة **﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾** أي العذاب الذي هو خالد، لا زوال له **﴿بـ﴾** سبب **﴿ما كنتم تعملون﴾** من أنواع الكفر والعصيان.

[١٦] لقد رأينا الكفار، وما صاروا إليه من العذاب الدائم، فلنعطف النظر إلى المؤمنين ومصيرهم الكريم، فمن هو المؤمن، وما مصيره؟ **﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾** يصدق بها، ويتفكّر فيها، ليستدل بها على الصانع وصفاته **﴿الذين إذا ذكروا بها﴾** بأن ذكرهم الرسول، أو بعض المؤمنين بتلك الآيات، بأن أروهم الآيات الكونية، أو الآيات القرآنية، ثارت فيهم غريزة الإيمان فـ **﴿خروا سجداً﴾** جمع ساجد، أي ألقوا بأنفسهم على الأرض، في هيئة الساجد بوضع جباههم على التراب تعظيماً لله سبحانه، وشكراً لنعمه **﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾** أي نزهوه عن النقائص، بنحو الحمد والثناء الجميل، فإن التنزيه، قد يؤدى بالنحو السلبي، كأن يقال: «فلان ليس بجبان»، وقد يؤدى بالنحو الإيجابي، كأن يقال: «فلان شجاع» فإنه تنزيه وحمد، والأول، لا يلازم الثاني، بخلاف الثاني، فإنه حمد وتسبيح **﴿وهم لا يستكبرون﴾** عن التواضع لله، عملاً بالسجود، ولساناً بالحمد والثناء.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٧﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

---

[١٧] ومن صفاتهم أنهم ﴿**تتجافى**﴾ من التجافي، وهو الابتعاد، أي تبتعد وترتفع ﴿**جنوبهم**﴾ جمع جنب﴿**عن المضاجع**﴾ جمع مضجع، وهو محل النوم، أي أنهم يقومون بالليل لأداء الصلاة ﴿**يدعون ربهم**﴾ ويناجونه ﴿**خوفاً**﴾ أي لأجل الخوف من عذابه ﴿**وطمعاً**﴾ في ثوابه ﴿**و**﴾ هم ﴿**مما رزقناهم ينفقون**﴾ في سبيل الله، و«مما رزقنا» عام يشمل العلم، والمال، والجاه، وغيرها. وهاتان الآيتان، مشتملتان على السجدة الواجبة، فإذا تلاهما الإنسان، أو سمعها، وجب أن يسجد.

[١٨] إن المؤمنين هم أولئك الذين ذكرت أوصافهم، فلننظر إلى مصيرهم ﴿**فلا تعلم نفس**﴾ مؤمنة بالله، عاملة للصالحات ﴿**ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ أي ما خبأ الله لهم من النعيم، الذي يسبب قرة أعينهم، الموجب لاستقرار العين، رضاً وطمأنينة، في مقابل الإنسان الخائف الذي تتحرك عينه هنا وهناك، ليجد ملجأً وملاذاً، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إن الله يقول أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإنما أخفي للمؤمنين هذا النعيم العظيم ﴿**جزاءً بما كانوا يعملون**﴾ من الإيمان بالأصول، والصالحات فإن الإيمان أيضاً عمل، أو على تغليب العمل على العقيدة، لأنه أكثر منها عدداً.

[١٩] ثم بين سبحانه، إن التفاوت في الجزاء، إنما هو للتفاوت بين الأعمال

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٩﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟**﴾ وهذا استفهام للتقرير، أي ليس المؤمن كالفاسق، والمراد به أعم من الفسق في العقيدة، أو في العمل ﴿**لا يستوون**﴾ أي لا يعادل أحدهما مع الآخر، ولذا اختلف جزاءهما.

[٢٠] ﴿**أما الذين آمنوا**﴾ بالله وبرسوله، وبما جاء به ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ التي هي الإتيان بالفرائض، واجتناب الرذائل ﴿**فلهم جنات المأوى**﴾ «ومأوى» اسم مكان من آوى، بمعنى اتخذ المنزل، والمسكن، والمراد الجنات، التي هي مسكن للمؤمنين ﴿**نزلاً**﴾ هو ما يعد للضيف، أو ينزلهم الله فيها نزلاً ﴿**بما كانوا يعملون**﴾ أي بسبب أعمالهم، التي عملوها في دار الدنيا.

[٢١] ﴿**وأما الذين فسقوا**﴾ أي خرجوا عن طاعة الله، إما بالكفر أو العصيان ﴿**فمأواهم**﴾، أي مصيرهم، الذي يأوون إليه ﴿**النار**﴾ في جهنم ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها**﴾ أي كلما هموا بالخروج من شدة العذاب وألم النار ﴿**أعيدوا**﴾ أي ردتهم الملائكة الموكلة بهم ﴿**فيها**﴾ فلا مخلص لهم من العذاب ﴿**وقيل لهم**﴾ إهانة وازدراءً بهم ﴿**ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**﴾ فقد كانوا يكذبون بالنار تكذيباً عقيدياً كالكفار،

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٣﴾

أو عملياً كالفساق.

[٢٢] ﴿**ولنذيقنهم**﴾ أي الفساق ﴿**من العذاب الأدنى**﴾ وهو ضنك العيش في الدنيا، وعذاب القبر، ومن مصاديق العذاب الأدنى، ما يلاقيه المجرمون زمن ظهور الإمام الثاني عشر، كما ورد في الحديث[1] ﴿**دون العذاب الأكبر**﴾ أي قبل أن نذيقهم من العذاب الأكبر في الآخرة، وهي جهنم ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ أي لكي يرجعوا عن كفرهم وعصيانهم، فإن الإنسان، إذا رأى الأذى، والعذاب جاش في نفسه حب الخير، والعمل الصالح.

[٢٣] ﴿**ومن أظلم**﴾ أي أيّ شخص أكثر ظلماً ﴿**ممن ذكر بآيات ربه**﴾ أي ذكره الأنبياء والأوصياء والمرشدون ﴿**ثم أعرض عنها**﴾ ولم يقبلها؟ والمعنى لا أحد أظلم من هذا الشخص ـ وذلك إضافي، كما مر غير مرة ـ ولا يظن مثل هذا الشخص، إنه لا يرى وبال إعراضه، فـ ﴿**إنا من المجرمين**﴾ الذين أجرموا بالكفر والعصيان ﴿**منتقمون**﴾ بإحلال العقاب بهم.

[٢٤] ثم يأتي السياق ليسلّي الرسول فيما يتحمله من الأذى، ويسلي المؤمنين بأن لهم العاقبة المحمودة، فإن حال الرسول حال موسى ـ

(١) راجع مجمع البيان: ج٨ ص١١٠ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾

فإنهما يتلاقيان في الأصول والفروع، إلا في اختلافات، لا ترجع إلى جوهر الدين ـ وحال المؤمنين بالرسول، حال بني إسرائيل، فكما نصرنا موسى عليه السلام وبني إسرائيل على أعدائهم، ننصر الرسول والمؤمنين به على أعدائهم ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**موسى الكتاب**﴾ أي التوراة، وهذا كناية عن إرساله إلى القوم لهدايتهم ﴿**فلا تكن**﴾ يا رسول الله ﴿**في مرية**﴾ أي في شك ﴿**من لقائه**﴾ أي من الالتقاء بموسى في العقيدة والشريعة. وهذا كما يقال يتلاقى فلان وفلان في العقيدة، وهذه الجملة كناية عن أول طريق الرسول طريق موسى، فمصيره كمصيره، في النصرة والغلبة على الأعداء ﴿**وجعلناه**﴾ أي الكتاب ﴿**هدىً**﴾ أي هداية وإرشاداً ﴿**لبني إسرائيل**﴾ فإنهم اهتدوا بالتوراة عن الضلالة والانحراف.

[٢٥] ﴿**وجعلنا منهم**﴾ أي من بني إسرائيل ﴿**أئمة**﴾ جمع إمام، وهو المقدم في الدين ﴿**يهدون بأمرنا**﴾ وإذننا لهم في الهداية، فإنه لا يحق لأحد أن ينصب نفسه علماً للهداية، إلاّ بإذنٍ ﴿**لما صبروا**﴾ أي أن جعلهم أئمة، بسبب صبرهم على المكاره وأذى الجهال، وصمودهم في تطبيق أوامرنا ﴿**وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ لا يشكون فيها، اللازم لو أن يعملوا على طبقها، فإن صاحب اليقين يعمل صالحاً، ويترك السيئ، وهذا تعريض بالمؤمنين بالرسول، بأنهم إن صبروا وجعلناهم أئمة، كما تقول لأحد ولدك: لقد أمرت ابني فلاناً بكذا، وأنت في نفس طريقه،

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾

وأعطيته المال وجعلت جماعة يتبعونه، تريد التعريض بهذا الولد المخاطب، بأن عاقبته كعاقبة ذلك الابن الأول.

[٢٦] وحيث ينتهي الكلام إلى هنا يختلج في ذهن السامع، أن يسأل، فما بال هؤلاء اليهود الذين نراهم ليسوا كذلك؟ ويأتي الجواب، ﴿**إن ربك هو يفصل بينهم**﴾ أي بين بني إسرائيل الصالحين منهم، والطالحين ﴿**يوم القيامة**﴾ فصلاً يؤدي إلى إعطاء كلٍّ ما يستحق من النعيم أو الجحيم ﴿**فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ فإن بعضهم غيّروا شريعة موسى، ولعبت أهواؤهم بها، وبعضهم بقوا على الشريعة، بلا تغيير أو تحوير.

[٢٧] ثم يرجع السياق إلى قصة الكفار﴿**أو لم يهدِ لهم**﴾ استفهام إنكاري، أي كيف لم يبصرهم ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من القرون**﴾ والأجيال، التي كانت تكذب بآيات الله، وتعصي أحكام الله ﴿**يمشون**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**في مساكنهم**﴾ أي في مساكن أولئك، فإنهم في رحلتهم الشتائية، إلى اليمن، والصيفية إلى الشام، كانوا يمرون بمساكن عاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ﴿**إن في ذلك**﴾ الإهلاك لأولئك الكفار ﴿**لآيات**﴾ دلالات دالة على وجود الله، وعلمه وقدرته، وانتقامه من الظالمين ﴿**أفلا يسمعون**﴾ أي ألا يسمع هؤلاء الكفار تلك الآيات سماعاً يؤدي إلى رجوعهم، عن غيّهم إلى الحق.

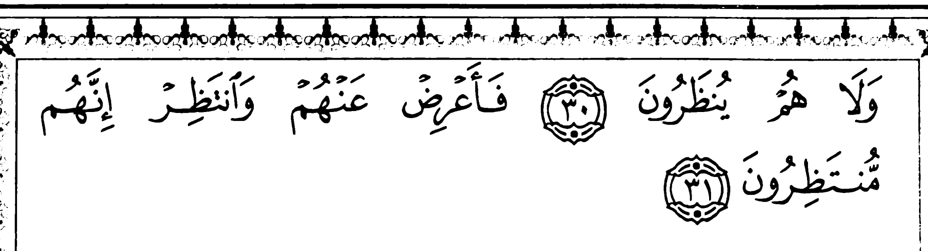
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ

---

[٢٨] وكيف يكفر هؤلاء الكفار بالله، مع أنهم يرون آياته، وآثاره؟ وحيث هددهم في الآية السابقة بالعذاب، ذكر لهم نعم الله عليهم، لعلهم يشكرونه، فالعذاب والرحمة، كلاهما ماثلان أمام أعينهم، ليؤمنوا رهبةً أو رغبة ﴿**أولم يروا**﴾ استفهام إنكاري، أي كيف لا يرون هذه النعمة، ليؤدوا شكرها؟ ﴿**أنا نسوق الماء**﴾ بواسطة المطر أو الأنهار ﴿**إلى الأرض الجرز**﴾ وهي الأرض اليابسة، التي ليس فيها نبات، من قولهم سيف جراز، أي قطاع لا يبقي شيئاً إلا قطعه، فالأرض قد جرز نباتها، أي قطع وأزيل، فلا نبات لها ﴿**فنخرج به**﴾ أي بالماء ﴿**زرعاً تأكل منه**﴾ أي من ذلك الزرع ﴿**أنعامهم وأنفسهم**﴾ مما يعود بالخير إليهم ﴿**أفلا يبصرون**﴾ نعم الله عليهم؟ ليشكرون.

[٢٩] ﴿**ويقولون**﴾ أي يقول الكفار ﴿**متى هذا الفتح**﴾ الذي تقول يا محمد، أنت تفتح البلاد ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أيها المسلمون في ادعائكم، إنكم ستفتحون البلاد؟ ففي أي وقت يكون؟ ولماذا لم يتحقق إلى الآن؟.

[٣٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**يوم الفتح**﴾ الذي نفتح فيه ﴿**لا ينفع الذين كفروا إيمانهم**﴾ بعد الفتح، ووقوعهم أسرى في أيدي المسلمين، فإن ذلك لا يفك أسرهم، أو المراد بالفتح، يوم مدتهم، حيث يقولون للملائكة، أمهلونا، حتى نؤمن، فلا يمهلونهم، كما قال سبحانه



(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)[1] ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ أي يمهلون.

[٣١] ﴿**فأعرض**﴾ يا رسول الله ﴿**عنهم**﴾ اتركهم وشأنهم بعد ما لم يؤثر النصح، والتهديد، والترغيب فيهم ﴿**وانتظر**﴾ موعد الفتح ﴿**إنهم منتظرون**﴾ وهذا تسلية للرسول ووعيد لهم، والمراد ينتظر الفريقان، حتى يرون الجميع لمن العاقبة الحسنة؟ ولمن العاقبة السيئة؟ وقد كان كما أخبر الرسول ﷺ، فقد انتصر المسلمون، وفتح الله لهم.

(١) النساء: ١٩ .



سورة الأحزاب

مدنيّة/آياتها (٧٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظة «الأحزاب» وطرفاً من قصتهم، وهي كسائر السور المدنية، تشتمل على الأحكام والنظام، والحرب، وغيرها، وإذا ختمت تلك السورة، بانتظار الرسول يوم الفتح، جاءت السورة مفتتحة لسير النبي في طريقه المرسوم له، بلا أن يحرفه الكفار والمنافقين، حتى يصل العاقبة المحمودة؟



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء باركه وأتمه، كما ورد كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله، فهو أبتر ـ المفهوم منه، إنه إن بدأ بالبسملة كان غير أبترـ وهو الرحمن الرحيم، المتصف بالرحمة المتزائدة، فإن تكثير الوصف يوجب تكثير الصفة، كيف لا، ولو لم تدرك الرحمة الإنسان (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ)[١]

(١) فاطر: ٤٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢﴾

[٢] ﴿**يا أيها النبي اتق الله**﴾ بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، والرسول، إنما كان مؤدباً بتعليم الله، الذي منه هذا الأمر، فلا يقال إنه ﷺ كان متقياً، فكان الأمر لغواً؟ وبالإضافة إلى أن معنى ذلك أدم على تقواك نحو اهدنا الصراط المستقيم ﴿**ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ والمنافق هو الذي يظهر الإيمان، و يبطن الكفر ﴿**إن الله كان عليماً**﴾ بالحكم والمصالح ﴿**حكيماً**﴾ فلا يأمر إلا بالصالح، ولا ينهي إلا عن الضار، فإن بين العلم والحكمة عموماً وجه، كما هو واضح، فمن الممكن أن يكون العالم غير حكيم، أو الحكيم غير عالم، قال في مجمع البيان: إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور السلمي، قدموا المدينة، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه، فقاموا، وقام معهم عبد الله ابن أبيّ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد، أرفض ذكر آلهتنا، اللات، والعزى، ومنات، وقل أن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان، وأصر ﷺ، فأخرجوا من المدينة، ونزلت الآية، «ولا تطع الكافرين» من أهل مكة، أبا سفيان، وأبا الأعور، وعكرمة، والمنافقين، ابن أبيّ، وابن سعد، وطعمة(١)، وقيل: نزلت في أناس من ثقيف، قدموا على رسول الله ﷺ، فطلبوا

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٤٩ .

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤﴾

منه أن يمتعهم باللات، والعزى سنة، قالوا لتعلم قريش منزلتنا منك.

[٣] ﴿**واتبع**﴾ يا رسول الله ﴿**ما يوحى إليك من ربك**﴾ من الأحكام والشرائع ﴿**إن الله كان بما تعملون**﴾ أي أنت وأمتك، ويأتي خطاب الرجل العظيم بالجمع، باعتبار أتباعه معه ﴿**خبيراً**﴾ فيعلم من اتبع أمره ليجازيه عليه.

[٤] ﴿**وتوكل**﴾ يا رسول الله ﴿**على الله**﴾ أي فوض أمرك إليه، حتى لايتمكن الأعداء من الوصول إليك، ولا تخاف أحداً، ولا ترجو أحداً ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ فإنه قائم بأمرك وحفظك، وحيث إن معنى «كفى» «اكتف» جاء متعدياً إلى الفاعل بالباء.

[٥] وبمناسبة لزوم اتباع الوحي، وعدم اتباع الكفار، يأتي السياق ليقرر، أنه لايمكن للإنسان اتجاهان، فليس له قلبان حتى يتجه بكل قلب إلى وجهة مضادة للوجهة الأخرى، ولهذه العلة التي تقرر عدم إمكان اتجاهين يقرر السياق، أن لا يمكن الجمع بين كون امرأة زوجة وأماً، أو كون رجل أجنبياً وولداً، وبهذا يبطل أقوال وعادات جاهلية، قال في المجمع: وقوله: «ما جعل الله لرجل من قلبين» نزلت في أبي معمر جميل بن معمر بن حبيب النهري، وكان لبيباً حافظاً لما يسمع، وكان يقول: إن في جوفي لقلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، وكانت قريش تسميه ذا القلبين، فلما كان يوم بدر، وهزم المشركون، وفيهم أبو معمر، وتلقاه أبو سفيان بن حرث، وهو آخذ بيده إحدى نعليه، والأخرى في رجله، فقال له يا أبا معمر: ما حال

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ

الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك، فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنها في رجلي، فعرفوا يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد، لما نسي نعله في يده [1] **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾** فإن كل إنسان له قلب واحد، وذكر الرجل من باب المثال، وإلا فالمرأة والطفل كذلك فلا يمكن أن يكون للإنسان اتجاهان، اتجاه نحو الإيمان، واتجاه نحو الكفر، فيطيع الكفار ويطيع الله في آن واحد **﴿وما جعل أزواجكم اللائي﴾** جمع التي، والمراد بالأزواج الزوجات، فإن زوج يطلق على الرجل، والمرأة **﴿تظاهرون منهن﴾** أي تقولون لهن «أنت عليّ كظهر أمي» فقد كانت العرب تطلق نساءها بهذا اللفظ، فلما جاء الإسلام أبطل الطلاق به، وإنما جعله موجباً للكفارة كما سيأتي تفصيله، وكأنهم كانوا يقصدون أن الزوجة صارت كالأم، فكما تحرم الأم تحرم الزوجة، التي قيل لها هذا اللفظ **﴿أمهاتكم﴾** فالزوجة لاتكون أماً، وإن قيل لها ألف لفظ **﴿وما جعل أدعياءكم﴾** جمع دعي، وهو ما كان مرسوماً عند العرب، أن يتخذ الرجل الرجل ابناً له فكان له ما للأب والابن في جميع المزايا الاجتماعية **﴿أبناءكم﴾** فإن التبني لايجعل الأجنبي إبناً، وإن تعارف الاجتماع على ذلك، وقد أبطلت هذه الآية الكريمة عادتين، كانتا عند العرب لم يرتض بهما الإسلام، في أنظمته

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١١٧ .

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ

وتشريعاته، قال في المجمع: نزلت في زيد بن شراحيل الكلبي من بني عبد ود، تبناه النبي قبل الوحي، وكان قد وقع عليه السبي، فاشتراه رسول الله ﷺ بسوق عكاظ، فلما نُبيء رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام، فأسلم وقدم أبو حارثة مكة، وأتى أبا طالب، وقال سل ابن أخيك، فإما أن يبيعه، وإما أن يعتقه، فلما قال ذلك أبو طالب، لرسول الله. قال: هو حر، فليذهب حيث شاء، فأبى زيد أن يفارق رسول الله، فقال حارثة: يا معشر قريش اشهدوا إنه ليس ابني، فقال رسول الله: اشهدوا إنه ابني فكان يدعى زيداً بن محمد، فلما تزوج النبي زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهي الناس عنها؟ فقال رسول الله: ما جعل الله من تدعونه ولداً، وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم.[1] ﴿**ذلكم**﴾ «كم» خطاب، و«ذلك» إما إشارة إلى كل واحد من الأمرين «الظهار» و «التبني» أو إلى الأمر الثاني فقط ﴿**قولكم بأفواهكم**﴾ فهو لفظ تقولونه، لا يوجب حقيقة وواقعاً ﴿**والله يقول الحق**﴾ في أنه لاتصبح الزوجة أمّاً، والأجنبي ولداً بمجرد هذا اللفظ، ولم يكن تبني الرسول ﷺ لزيد بمعناه الجاهلي، حتى يقال: كيف يمكن أن يعمل الرسول شيئاً غير ممضي من قبل الله سبحانه؟ بل للتشريف، كما قال الإمام المرتضى: «محمد ابني من صلب أبي بكر»[2] وهذا كان في مقابل طرد أبيه، وسلبه شرفه الإنتسابي، فشرفه الرسول بالنسبة إلى نفسه من قبيل «سلمان منا أهل البيت»[3] ﴿**وهو**﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص١٧٢ .

(٢) بحار الأنوار: ج٤٢ ص١٦٢ .

(٣) بحار الأنوار: ج١١ ص٣١٣ .

يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

سبحانه ﴿**يهدي السبيل**﴾ أي يرشد إلى الطريق الحق، ويدل عليه.

[٦] ﴿**ادعوهم**﴾ أي ادعوا الأولاد ﴿**لآبائهم**﴾ فقولوا «زيد بن حارثة» لا «زيد ابن محمد» ﴿**هو أقسط**﴾ أي أقرب إلى العدل، وأفعل منسلخ عن معنى التفضيل، وإنما يأتي بهذه الصورة، لما يزعم البعض من أن طرفه الثاني، عدل أيضاً ﴿**عند الله**﴾ وإن كان عندكم لاقسط فيه، أو العكس هو الأقسط ﴿**فإن لم تعلموا**﴾ أي تعرفوا ﴿**آباءهم**﴾ بأعيانهم وأسمائهم، حتى تنسبوهم إليهم، فقولوا يا أخ ﴿**فـ**﴾ إنهم ﴿**إخوانكم في الدين**﴾ إذ الآخرة هي العلقة الحاصلة بين طرفين، بقرابة، أو لسان، أو وطن، أو دين، أو ما أشبه ﴿**ومواليكم**﴾ أي عبيدكم، إذا كانوا في الرق، فقولوا يا مولاي، وهذا مولى فلان ﴿**وليس عليكم جناح**﴾ وحرج، إذا قلتم «فلان ابني» للدعي ﴿**فيما أخطأتم به**﴾ سهواً وخطأً، بعد النهي عن ذلك ﴿**ولكن**﴾ الجناح إنما يكون في ﴿**ما تعمدت قلوبكم**﴾ بأن قصدتم هذا القول قصداً، بعد أن نهى الله سبحانه عنه ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ لمن عصى، ثم ندم وتاب ﴿**رحيماً**﴾ بكم يتفضل عليكم بالرحم مضافاً إلى الغفران.

[٧] ثم يأتي السياق ليقرر الولاية العامة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويحيط أزواجه بهالة من الأمومة الروحية ومن ثم يقرر ولاية بعض الأقرباء لبعض، بمناسبة

ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ

ما تقدم من ذكر بعض الروابط الاجتماعية، التي كانت قبل الإسلام بالنسبة إلى بنوّة الدعي، وأمومة المظاهر منها، فالدعي ليس ابناً، وإنما الأمة أبناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والمظاهر منها ليست أمّاً، وإنما زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمهات ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ فكما يحق للإنسان أن يتصرف في شؤون نفسه المباحة، كأن يبقى، ويذهب، ويعمل، وغيرها، كذلك للرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحق، بل أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولى فإذا أمر الرسول بشيء، وأراد الإنسان شيئاً آخر لزم تنفيذ أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن هذه الآية الكريمة، استنبط الفقهاء القاعدة الفقهية «الناس مسلطون على أنفسهم» ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ فما للأم من الاحترام والإكرام ثابت لزوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن تلك حرمة نكاحهن بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن المعلوم أن هذه الشرافة تتبع طاعة الله سبحانه فإذا خرجت بعضهن إلى معصيته تعالى لم يبق لها ذلك الشرف، ولذا ورد إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن، إن هذا الشرف باق ما دمن على الطاعة، فأيتهن عصت الله بعدي بالخروج عليك، فأطلقها في الأزواج، وأسقطها من تشريف الأمهات، ومن شرف أمومة المؤمنين. . ثم إن من المعلوم، إن ذلك شرف خاص، فلا يتعدى إلى أقربائهن، حتى يكون هناك جد المؤمنين وعم المؤمنين، وخال المؤمنين، وخالة المؤمنين، وهكذا ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ أي أن فيما كتبه الله سبحانه على المؤمنين، أن أصحاب الرحم، وهم الأقرباء بعضهم أولى ببعض، في الإرث والولاية، وسائر الأمور، فلا توارث، ولا ولاية، إلا للأرحام،

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٧﴾ وَإِذْ

إلا بقدر ما بيّنه الشارع، كولاية السادة، والإمام، وضامن الجريرة ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ فلا ولاية غير النصرة الإسلامية، بين المؤمنين، بأن يرث بعضهم بعضاً، سواء كانوا مهاجرين أم لا، قال بعض المفسرين: إن المهاجرين لما ذهبوا إلى المدينة، كان بعضهم، إذا مات قسمت تركته بين سائر المؤمنين وهذه الآية جاءت لتمنع عن ذلك، أقول: لم يعلم أن ذلك كان من باب الإرث، بل يحتمل أنه كان من باب ولاية الرسول ﷺ العامة، وإلا فلم يدل دليل، على أن الوارث المسلم، لم يكن يرث ليرث المهاجر المسلم، حتى تكون هذه الآية ناسخة قوله «من المؤمنين» والله العالم، ﴿إلا أن تفعلوا﴾ أيها المؤمنين ﴿إلى أوليائكم معروفاً﴾ وهذا استثناء منقطع، والمعنى، إن الولاية للأقرباء، إلا أن يفعل بعض المؤمنين بأصدقائه المؤمنين معروفاً، بأن يوصي لهم بشيء من ماله، أو يوصي إلى أحدهم بأيتامه، فإنه تنفذ هذه الوصية في الحدود المقررة في الشريعة ﴿كان ذلك﴾ الحكم بأن أولي الأرحام، أولى إلا أن يفعل الإنسان إلى أوليائه معروفاً ﴿في الكتاب﴾ المحفوظ عند الله سبحانه ﴿مسطوراً﴾ قد كتب وقرر.

[٨] وبمناسبة ما كتب في الكتاب من حكم الولاية بين أولي الأرحام، يأتي ما سطر فيه من أخذ الميثاق عن النبيين، وعن المؤمنين، فإن هذا الحكم ـ وهو أولوية أولي الأرحام ـ من مصاديق ذلك الميثاق العام، فمن أعطى ذلك الميثاق العام، لزم عليه الوفاء بهذا الميثاق ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ

أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٨﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ

أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ والمراد به العهد الأكيد بالقيام بالدعوة والتبليغ، وبعد ذكر هذا العموم يأتي ذكر بعض الأنبياء المعروفين **﴿ومنك﴾** يا رسول الله **﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾** وهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الأنبياء الذين بعثوا إلى شرق الأرض وغربها، وقد خصصوا بالذكر، ليعلم أنهم مع جلالة قدرهم وعظم شأنهم، قد أخذ منهم الميثاق في العمل بما يأمر الله سبحانه، وأخذ الميثاق، إنما كان قبل تحميلهم حمل الرسالة في عالم الذر **﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾** شديداً بالوفاء والقيام، وذلك لأهمية هذا المنصب الخطير، الذي لا يساويه منصب مهما عظم.

[٩] وقد فعل الله ذلك، ليكون الناس مقطوعي العذر، قد تمت عليهم الحجة، حتى يكون الصادق من الناس، معرضاً للثواب، والكافر معرضاً للعقاب، وهذا كما تقول: قد أخذت من المعاون العهد الأكيد بالقيام على مهمة المدرسة، لأنجح الطلاب العاملين، وأطرد الخاملين منهم، تريد أن هذا العهد، إنما كان ليقوم المعاون بالمهمة، فتتم الحجة على الطلاب **﴿ليسأل﴾** الله **﴿الصادقين﴾** في الإيمان والمنهج، فإن المؤمن صادق، والمطيع صادق إذ من يجعل مع الله شريكاً، أو يكفر به، فقد كذب في عقيدته، وقوله، كما أن من يعصي، قد كذب في عمله ـ فإن الكذب هو الخروج عن الحقيقة، في قول أو عمل ـ **﴿عن صدقهم﴾** أي عن عقيدتهم، وقولهم وعملهم، فيجازيهم

وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

بالجنات، فإن السؤال، إنما هو للجزاء ﴿**وأعد للكافرين**﴾ بعد أن يسأل عنهم ﴿**عذاباً أليماً**﴾ أي مؤلماً موجعاً، وقد تفنن السياق، بذكر السؤال عن المؤمن والعقاب للكافر، وحذف في الأول النتيجة، وفي الثاني السؤال.

[١٠] ثم يذكّر الله سبحانه المؤمنين ببعض نعمه عليهم، مما يقوي فيهم روح الإيمان ويستمروا على الصدق ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إما خاص بمن كان في الواقعة، وإما عام شامل لكل المؤمنين باعتبار، أن ذلك النصر عاد على الجميع بالخير ﴿**اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ في قصة غزوة الأحزاب ﴿**إذا جاءتكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**جنود**﴾ من الكفار لتدميرهم ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً**﴾ هبت عليهم حتى أكفأت قدورهم، ونزعت فساطيطهم، ورمت بالرمل والحصباء في وجوههم ﴿**و**﴾ أرسلنا ﴿**جنوداً**﴾ من الملائكة لإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿**لم تروها**﴾ بأعينكم ﴿**وكان الله بما تعملون بصيراً**﴾ فإنه سبحانه أبصر أتعابكم وأعمالكم في حفر الخندق، وتنظيم الجيش والعمل لأجل إنجاح المؤمنين، وغير ذلك.

[١١] واذكروا ﴿**إذ جاءوكم**﴾ أي جاءكم جنود الكافرين ﴿**من فوقكم**﴾ أي فوق الوادي قبل المشرق، وهم قريظة ونضير وغطفان ﴿**ومن أسفل**

مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾

منكم﴾ من قبل المغرب من ناحية مكة، أبو سفيان في قريش، ومن تبعه **﴿وإذ زاغت الأبصار﴾** من المؤمنين خوفاً، وزيغ البصر ميله عن كل اتجاه نحو اتجاه العدو، فلا يكون كالبصر العادي يتحرك هنا وهناك **﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾** جمع حنجرة، وهي منتهى الحلق، وذلك لأن الإنسان الخائف تنفتح رئته فتضغط على قلبه، فيصعد قلبه نحو الحنجرة **﴿وتظنون بالله الظنونا﴾** أي الظنون السيئة، أو المراد الظنون المختلفة، فظن المؤمنون النصر، والمنافقون الهزيمة.

[١٢] **﴿هنالك﴾** في تلك الوقعة **﴿ابتلي المؤمنون﴾** امتحنوا واختبروا ليظهر الصادق منهم من الكاذب، والصابر والجازع **﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾** أي حركوا بسبب الخوف تحريكاً عنيفاً، في معتقدهم وأقوالهم، وأعمالهم، فكما أن الزلزلة تحرك الأجسام، فالحوادث تحرك الأشخاص، ومختصر القصة[١] في غزوة الأحزاب وتسمى الخندق يئس المشركون واليهود والقبائل من إمكان القضاء على الإسلام بانفرادهم فتفكروا في تجميع قواهم لضرب الإسلام فتجمعت عشرة آلاف مقاتل من قريش، وبني سليم وأسد، وفزارة، وأشجع، وغطفان، عدا يهود بني قريظة، ولما علم الرسول ﷺ بالأمر استشار أصحابه في الأمر؟ فإن هذه القوة الهائلة، لا يمكن الصمود أمامها،

---

(١) قادة الإسلام للمؤلف.

. . . .

وأخيراً قرر الرسول عدم الخروج من المدينة ـ بإشارة سلمان الفارسي ـ بأن يحفر خندق حولها، ويجعل للخندق جهة خاصة للقتال، لئلا يحيط العسكر بالمسلمين، فيبيدوهم عن آخرهم، وقد كان الرسول ﷺ، عهد بحسن الجوار، مع بني قريضة، وهم يهود قرب المدينة، لكن «الأحزاب» تمكنت من استمالة بني قريظة، لنقض العهد، وبذلك دخل في قلوب المسلمين رعب عظيم، وبعد أن فرغ المسلمين من حفر الخندق، أتتهم الجيوش كالسيل، كما وصفها الله سبحانه«إذ جاءوكم . . إلى آخره» وبعد ما تم حفر الخندق، خرج الرسول في ثلاثة آلاف من المسلمين، ليواجهون الأحزاب وبينهما الخندق، وطال الأمر بين الطرفين بضعاً وعشرين ليلة، لم يكن بينهما إلا الرمي، فإن الأحزاب لم يقدروا على العبور، والمسلمين لم يشاءوا ذلك وبعدها، جاء عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وجماعة آخرون، من أقوى شجعان الأحزاب، فعبروا الخندق من مضيق كان فيه، ثم أخذوا يجولون، ويصولون، يطلبون المبارزة من المسلمين، لكن المسلمين قد أخذتهم الرهبة فلم يجرؤ أحد منهم على الإقدام، فأنشأ عمرو بن عبد ود،

ولقد بححت من النداء
بجمعكم هل من مبارز

إلى آخر الأبيات، وهنا قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، يستأذن الرسول ﷺ لمبارزته، ولكن الرسول ﷺ لا يأذن له ليمتحن بعض المسلمين، وأخيراً أذن الرسول ﷺ للإمام، فخرج الإمام من معسكر المسلمين، يريد مبارزة عمرو وأنشد يقول في جوابه:

. . . .

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة، والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

ولما تقابل الإمام، وعمرو، قال له الإمام: إنك كنت تقول في الجاهلية، لايدعوني أحد إلى ثلاث، إلا قبلت واحدة منها؟ قال عمرو: أجل، قال الإمام، فإني أدعوك إلى الشهادتين، قال عمرو: يا ابن أخي أخر هذه عني، قال الإمام: والثاني، أن ترجع من حيث أتيت «أي تترك الحرب وترجع إلى أهلك» قال عمرو: ولا تحدث قريش بهذا أبداً، قال الإمام: والثالثة أن تنزل من على فرسك، فتقاتلني، فقبل عمرو ذلك، لكن امتلأ عمرو رعباً من الإمام وتبادلا السيف، فأصاب سيف عمرو رأس الإمام فشجه، فغضب الإمام، وضرب عمرو ضربة أسقط رجليه، فخر على الأرض، وعلت الغبرة، ومّد الطرفان أعناقهما، ليروا الغالب من المغلوب ولما انجلت الغبرة، رأوا الإمام جالساً على صدر عمرو، وكبّر الإمام تكبيرة عالية، وبهذا المنظر والتكبير، قويت قلوب المسلمين، وتزلزلت قلوب الكافرين، ثم قطع الإمام رأس عمرو، وأقبل به إلى النبي ﷺ، وقتل بعض آخر ممن اقتحم الخندق، وفرّ الباقون، وتشتت كلمة الأحزاب، وألقي الرعب في قلوبهم، ولم يطيقوا إدامة الحصار، وتخلت عنهم الأعراب، وبنو قريظة، ولذا تفرقوا من أطراف المدينة إلى مكة، وسائر محالهم، وقد كان قتلى المسلمين ستة، وقتلى الكفار دون العشرة، ومرّ الأمر بسلام، وزادت قوة المسلمين المعنوية، إلى حد هائل مما يئس

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

الكفار، من النيل منهم بعد ذلك.

[١٣] ﴿**وإذ يقول المنافقون**﴾ الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر ﴿**والذين في قلوبهم مرض**﴾ والمراد بهم ضعاف الإيمان، وإن لم يصلوا إلى حد النفاق، والمراد بالقلوب «النفوس» فإن الأخلاق المنحرفة، ضعف ومرض في القلب، كما أن أنواع العاهات ضعف ومرض في البدن ﴿**ما وعدنا الله ورسوله**﴾ من النصرة على الأعداء ﴿**إلا غروراً**﴾ من «غار» وإنما سمي غروراً مبالغة، كأن الوعد قطعة من الغرور، من قبيل «زيد عدل»، قال ابن عباس: إن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء هذا والله الغرور[1].

[١٤] وإذ قد اشتد الخوف بالمسلمين، قال عبد الله بن أبيّ المنافق لأصحابه: ليس لكم هنا محل، فقوموا نرجع إلى المدينة، وجاء بعضهم إلى الرسول يستأذنوه معتذرين، بأن بيوتهم في المدينة ، ليست بحريزة، فيخافون عليها اللصوص ﴿**وإذ قالت طائفة**﴾ أي جماعة ﴿**منهم**﴾ أي من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض ﴿**يا أهل يثرب**﴾ فقد كانت المدينة تسمى«يثرباً» قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سميت بمدينة الرسول، ثم «المدينة» ﴿**لا مقام لكم**﴾ أي لا محل لإقامتكم هنا

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص١٩٣ .

﴿فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٤ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾

خارج المدينة بتوقع الظفر على الكفار ﴿**فارجعوا**﴾ إلى المدينة، حتى لا يصيبكم ما يصيب محمداً والمسلمين من الكفار، فقد زعموا أن الكفار يغلبون المسلمين لا محالة ﴿**ويستأذن**﴾ أي يطلب الإذن، في الرجوع إلى المدينة ﴿**فريق منهم**﴾ أي من أولئك المنافقين ﴿**النبي**﴾ ﷺ، وهم بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿**يقولون**﴾ للرسول في عذرهم للانصراف ﴿**إن بيوتنا عورة**﴾ أي ليست حصينة، من عور إذا نقص، ومنه الأعور، ويقول الله سبحانه في تكذيب عذرهم ﴿**وما هي بعورة**﴾ أي كذبوا في عذرهم، إن بيوتهم لم تكن عورة يخشى عليها من اللصوص والأعداء، فقد كانت حريزة حصينة ﴿**إن يريدون**﴾ أي ما يريد هؤلاء المستأذنون ﴿**إلا فراراً**﴾ من الحرب وهرباً من القتال وأتعابه.

[١٥] ثم يمثل الله سبحانه نفسية هؤلاء المنافقين، بأنهم كانوا بحيث إذا دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من هؤلاء الشرك، وأن يكونوا معهم في صف واحد مقابل المسلمين، لأسرعوا في إجابتهم، فكيف لم تكن بيوتهم عورة، حينذاك، وبيوتهم عورة، حين كانوا مع المسلمين؟ ﴿**ولو دخلت**﴾ المدينة، أو البيوت ﴿**عليهم**﴾ أي على هؤلاء المنافقين ﴿**من أقطارها**﴾ أي من جوانبها، بأن ظفر الكفار، ودخلوا بيوت هؤلاء من جوانبها ﴿**ثم سئلوا الفتنة**﴾ أي سأل الكفار الغازون هؤلاء المنافقين، أن يشركوا ويكونوا معهم في صف قبال الرسول وأصحابه

لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾

﴿**لأتوها**﴾ أي لأعطوا هؤلاء المنافقون الكفار ما أرادوا من الفتنة، وانضموا تحت لوائهم ﴿**وما تلبثوا بها**﴾ أي ما مكثوا وتريثوا في قبول الفتنة، كأنهم باقون فيها، لم يرفضوا ولم يقبلوا كالإنسان الماكث بالمدينة، في مقابل من خرج من الفتنة بالجزم، إما بالقبول أو الرفض ﴿**إلا يسيراً**﴾ فإنهم لم يكونوا يترددون في قبول الفتنة، إلا في زمان قليل، ثم يفتتنون بقبول الشرك والدخول في صف الأحزاب المشركة.

[١٦] وكيف يولي هؤلاء الدبر، ويرون الفرار من الجهاد ﴿**و**﴾ الحال أنهم ﴿**لقد كانوا عاهدوا الله من قبل**﴾ أي من قبل الخندق ﴿**لا يولون الأدبار**﴾ فإنهم لما بايعوا النبي حلفوا أن ينصروه وأن يقفوا في صفه، وأن لا يسلموه لعدوه ﴿**وكان عهد الله مسؤولاً**﴾ أي يسأل عنه يوم القيامة، ماذا فعلوا بعهده، هل وفوا أم نقضوا؟

[١٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين يريدون الفرار خوف القتل ﴿**لن ينفعكم الفرار**﴾ في تأخير آجالكم ﴿**إن فررتم من الموت**﴾ بأن خفتم الموت خوفاً ﴿**أو القتل**﴾ بأن يغلب الأعداء فيقتلوكم، فإن آجالكم إن حضرتم أخذتكم ولو في غير ساحة القتال، وإن لم تحضر لم يأخذكم الأجل، ولو في ساحة القتال ﴿**وإذاً**﴾ أي إذا فررتم من الموت أو القتل ﴿**لا تمتعون**﴾ في الدنيا ﴿**إلا قليلاً**﴾ فإن مدة الحياة

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا

قليلة تنقضي وتنصرم بسرعة.

[١٨] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين يريدون الفرار إن فراركم غير مفيد، فإن أراد الله بكم سوءاً جاءكم، ولو في بيوتكم، وإن أراد بكم رحمة جاءتكم الرحمة، ولو في ساحة القتال، فما فائدة الفرار؟ ﴿**من ذا الذي يعصمكم من الله**﴾ أي يحفظكم من أمره وبأسه ﴿**إن أراد بكم سوءاً**﴾ موتاً أو قتلاً أو عذاباً؟ ﴿**أو أراد بكم رحمة**﴾ من ذا الذي يتمكن أن يحول بينكم وبين الرحمة، التي يريدها الله بكم؟ فكل شيء من طرفه سبحانه، ولا يتمكن أحد من تغيير أمره ﴿**ولا يجدون**﴾ أي هؤلاء الذين يريدون الفرار ﴿**لهم من دون الله** ﴾ أي سواه ﴿**ولياً**﴾ يلي أمورهم ويتولى شؤونهم ﴿**ولا نصيراً**﴾ ينصرهم، ويغلبهم على أعدائهم.

[١٩] ثم هدد الله سبحانه الذين يثبطون غيرهم عن الجهاد بقوله ﴿**قد يعلم الله**﴾ وقد، إما للتحقيق، قالوا فإنها تدخل ـ أحياناً ـ على المضارع، بمعنى التحقيق، لا التقليل الذي هو الأصل فيه، وإما للتقليل للإشارة إلى أن احتمال علم الله بتعويقهم كافٍ، في أن ينتهوا، كما تقول لمن تريد تهديده: يمكن أن أعلم عملك، تريد أن الإمكان كاف في انقلاعه عن عمله السيئ ﴿**المعوقين منكم**﴾ والمعوق هو المثبط غيره عن الجهاد بتخويفه من الأعداء ﴿**والقائلين لإخوانهم**﴾ أحزابهم من المنافقين ﴿**هلم إلينا**﴾ أي أقبلوا إلينا نتنحى عن القتال ناحية، ولا نوقع

وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

أنفسنا في التهلكة ﴿**ولا يأتون البأس**﴾ أي يحضرون القتال ﴿**إلا قليلاً**﴾ فيما إذا أجبروا وخافوا على سمعتهم، أو حضروه، رياءً، بخلاف المؤمنين، فإنهم أسرع شيء إلى القتال، وكيف لا يحضرون، وهم يعلمون إن قتلوا أو قتلوا كان جزاءهم الجنة؟

[٢٠] وإن هؤلاء المنافقين الذين يعوقون الناس، ولا يحضرون الحرب، يكونون ﴿**أشحة عليكم**﴾ أيها المؤمنون الصادقون، وأشحة جمع شحيح، بمعنى البخيل، أي أنهم بالنسبة إليكم بخلاء، لا يبذلون مالاً ولا نفساً ﴿**فإذا جاء الخوف**﴾ بأن تجمعت الأعداء، ووجب الجهاد ﴿**رأيتهم**﴾ أيها الرسول، أو أيها الرائي ﴿**ينظرون إليك تدور أعينهم**﴾ أي تتقلب من هنا وهناك كما هي عادة الخائف، يدور بعينه ليجد ملجأً وملاذاً، وإنما يكفي النظر إلى الرسول، أو إلى المؤمنين، ليرى ماذا يأمر، ويقولون: هل ما ينفعهم حتى يستريحوا؟ أم ما يزيد خوفهم؟ حتى يفكروا في النجاة والخلاص، فيكثرون النظر، لئلا يفوتهم شيء ﴿**كالذي يغشى عليه من الموت**﴾ وهو الذي قرب موته وغشيته أسبابه، فإنه يكثر النظر هنا وهناك يتطلب علاجاً ومناصاً ﴿**فإذا ذهب الخوف**﴾ وجاء الأمن والغنيمة ﴿**سلقوكم**﴾ أيها المؤمنون، وسلق، بمعنى صاح ورفع صوته ﴿**بألسنة حداد**﴾ أي أنهم تكلموا معكم حول جهادهم المزعوم، وحول حصتهم من الغنائم، وحديد ضد الكليل أي ألسنة ذرية بليغة، في جهر وصياح وجرأة، كأنهم كانوا كل شيء، وهكذا

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ

دائماً الجبناء يعملون قليلاً ويقولون كثيراً ﴿**أشحة على الخير**﴾ أي الغنيمة، فهم بخلاء غاية البخل، أن يذهب ويفوتهم شيء من الغنيمة، التي ما اشتركوا فيها ﴿**أولئك**﴾ الذين تلك صفاتهم، وهم المنافقون في كل زمان ﴿**لم يؤمنوا**﴾ إيماناً من الأعماق، وإنما تظاهروا بالإيمان نفاقاً ﴿**فأحبط الله أعمالهم**﴾ أي أبطل ما عملوا من الأعمال الظاهرية، لأنها لم تصدر من الإيمان ﴿**وكان ذلك**﴾ الإحباط لأعمالهم ﴿**على الله يسيراً**﴾ فإنه لا يجازيهم، لا يتمكن أحد منهم من معارضته، كما كانوا يتمكنون من معارضة المؤمنين في الدنيا.

[٢١] إن هؤلاء المنافقين ﴿**يحسبون**﴾ أي يظنون ﴿**الأحزاب**﴾ التي جاءت لقتال المسلمين ﴿**لم يذهبوا**﴾ ولم يرجعوا، وقد ظنوا ذلك لجبنهم، فإن الإنسان الجبان يخيل إليه أن الخوف بعد باق لم ينكشف ﴿**وإن يأت الأحزاب**﴾ مرة ثانية، بأن يرجعوا إلى القتال ﴿**يودّوا**﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿**لو أنهم بادون في الأعراب**﴾ أي يكونون في البادية مع الأعراب، ومعنى «بادون» ظاهرون، فكأن الإنسان الذي في المدينة مستور أما في الصحراء، فهو ظاهر باد ﴿**يسألون عن أنبائكم**﴾ أي أخباركم هل غلب المؤمنون أم الكفار؟ وهكذا يكون الأناس الجبناء يحبون أن يكونوا بمعزل عن الحوادث، وإنما يجترون بالأخبار، لقتل

وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

الوقت، وإملاء فراغ حياتهم، بعكس الشجعان والعاملين الذين لايحبون إلا المعارك والمقام ﴿**ولو كانوا فيكم**﴾ حين رجوع الأحزاب، ويكونون هم ـ حسب رغبتهم ـ في البادية ﴿**ما قاتلوا إلا قليلاً**﴾ أي قتالاً قليلاً لمجرد الرياء والسمعة، لا عن إيمان وعقيدة.

[٢٢] واللازم على المؤمن أن يقتدي بالرسول، كيف يجاهد ويصبر في المعارك ﴿**لقد كان لكم**﴾ أيها المسلمون ﴿**في رسول الله**﴾ أي في سيرة الرسول ﷺ وصبره وعنائه في الله ﴿**أسوة حسنة**﴾ مقتدىً صالحاً، بحيث يراه الناس فيعملون كما يعمل، والأسوة من الاتساء «كما أن القدوة من الاقتداء» بمعنى الاقتداء، والمتابعة ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾ أي يرجو ثواب الله ونعيمه، ويرجو أن يكون في اليوم الآخر من الفائزين، و «لمن» بدل من «لكم» والرسول أسوة حسنة لمطلق الناس، وإنما من كان يرجو الله يتأسى، فكان أسوة له، إذ الانتفاع بهذا المقتدى عائداً إليه ﴿**وذكر الله كثيراً**﴾ فإن من ذكره سبحانه ترسخ في كيانه، الخوف من الله سبحانه، فيطيع أوامره، ويقتدي برسوله، فيما عمل وسار.

[٢٣] ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب**﴾ الذين تحزبوا لقتال الرسول، وإبادة الإسلام ﴿**قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله**﴾ فقد روي إن النبي ﷺ

وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾

قال: سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم[1]، وقال ﷺ: إنما سائرون إليكم بعد تسع أو عشر، ولذا لما رآهم المؤمنون، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله **﴿وصدق الله ورسوله﴾** فيما أخبرنا من المبدأ والعاقبة، والإتيان باسم الله، لأن الرسول كان ينقل ما يقول عن الله سبحانه **﴿وما زادهم﴾** لقاء عدوهم **﴿إلا إيماناً﴾** فإن الإنسان كلما كثر عنده شواهد الإيمان قويت ملكته، واشتدت حالته النفسية في العلاقة والانقياد **﴿وتسليماً﴾** لأوامر الرسول ﷺ.

[٢٤] **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** صدقوا في كلامهم وعهدهم مع الله، إن يصبروا ويثبتوا أمام الأعداء **﴿فمنهم من قضى نحبه﴾** النحب النذر، ويقال للموت، نحب، لأنه كنذر ثابت لازم في ذمة الإنسان وعلى رقبته، والمراد منهم من قد قتل واستشهد في سبيل إنجاز عهده **﴿ومنهم من ينتظر﴾** الاستشهاد **﴿وما بدلوا تبديلاً﴾** أي ما غيروا العهد الذي عاهدوا الله عليه، بأن يفروا من الميدان، كالمنافقين الذين ورد فيهم (ولقدْ كانوُا عاهَدُوا الله مِنْ قبلُ)[2] وقد ورد أن من قضى نحبه، حمزة وجعفر بن أبي طالب، ومن ينتظر علي عليه السلام[3]، وهذا من باب أظهر المصاديق، وإلا فالآية عامة، كما لا يخفى.

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١٤٤ .

(٢) الأحزاب: ١٦ .

(٣) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢٧٧ .

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٥﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ

[٢٥] وإنما ابتلى الله المؤمنين بهذا الابتلاء الذي زلزلوا فيه زلزالاً شديداً، لإظهار كوامن المسلمين ﴿**ليجزي الله الصادقين**﴾ من المؤمنين، في عهدهم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**صدقهم**﴾ في الثبات والصبر ﴿**ويعذب المنافقين**﴾ بنقض عهدهم وفرارهم وخذلانهم ﴿**إن شاء**﴾ إن بقوا على النفاق، فإن مشيئته سبحانه معلقة على ذلك ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ إن تابوا، وهذا ليس مما دخله «اللام» المقدر في «ليعذب» وإنما بيان لأمر خارجي ﴿**إن الله كان غفوراً**﴾ لمن استغفر وأناب ﴿**رحيماً**﴾ فيتفضل على التائب فوق الغفران بالفضل والإحسان.

[٢٦] ﴿**ورد الله الذين كفروا**﴾ أي أرجع الأحزاب، لما ألقى في قلوبهم من الرعب ﴿**بغيظهم**﴾ أي بدون أن ينالوا من المسلمين، ويستشفوا غيظ قلوبهم الكامن على المسلمين والإسلام، والباء بمعنى «مع» ﴿**لم ينالوا خيراً**﴾ أي مالاً، بأن يقتلوا المسلمين، وينهبوا أموالهم، والمال يسمى خيراً، لأنه سبب للخير والإحسان والضيافة، وغيرهما، كما قال سبحانه (إِن تَرَكَ خَيْراً)[١] وقال (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[٢] ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾ فلم يقع قتال يؤذي المسلمين وإنما كفاهم الله

---

(١) البقرة: ١٨١ .

(٢) العاديات: ٩ .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٦﴾﴾

سبحانه بواسطة الإمام أمير المؤمنين الذي قتل «عمروهم»، وبدد جمعهم بما ألقى في قلوبهم من الرعب ﴿**وكان الله قوياً**﴾ قادراً على ما يشاء من نصر المؤمنين، وهزيمة الكفار ﴿**عزيزاً**﴾ غالباً في سلطانه لا يغلبه أحد.

[٢٧] وقد كانت بين المسلمين وبين بني قريظة معاهدة حسن الجوار، ولما جاء الأحزاب ذهب بعضهم إلى بني قريظة، يستميلهم في حرب الرسول، حتى نقضوا العهد، وجاءوا مع الأحزاب للقتال، مما أوسع المجال للرسول، أن يعاقبهم بعد الفراغ من غزوة الأحزاب، حيث ابتدءوا بالاعتداء على المؤمنين، في أحرج الساعات، وقصتهم، كما في «قادة الإسلام»[1] إن هؤلاء اليهود غدروا بالمسلمين في أشد أحوالهم، في حال حرب الأحزاب، ولو فرض أن غدرهم كان ينجح، لكان معناه إبادة المسلمين جميعاً، ولذا نزل جبرائيل عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: وضعت السلاح، ولم يضعه أهل السماء؟ انهض إلى إخوانهم من أهل الكتاب، فوالله لأدقهم دق البيضة على الصخرة، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يصلي الناس العصر، إلا عند بني قريظة، وأعطى اللواء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومعه المهاجرون، وانهالت قطعات الجيش الإسلامي صوب قريظة، حتى اكتملت ثلاثة آلاف، ولم يظلم ليل ذلك اليوم، إلا والمسلمون قد طوقوا الحصون، وانهارت أعصاب اليهود رعباً وخوفاً، فها هم المسلمون الذين انتصروا يوم أمس على الأحزاب بكثرة عددها وعُددها، ولذا استشاروا فيما

---

(١) للمؤلف.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٧﴾

بينهم حول الأمر؟ قال قائل منهم: أسلموا، لكنهم أبوا، ولم يرضخوا للإسلام، فقالوا انزلوا للحرب، لكنهم خافوا بأس المسلمين مع توفر السلاح والعتاد والمال والطعام والماء لديهم، وأخيراً أرسلوا إلى الرسول ﷺ يستأذنونه الخروج، إلى «أذرعات» الشام؟ لكن الرسول ﷺ أبى، وبعد فكر واستشارة، وتداول رأى، أرسلوا إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يفوض أمرهم إلى «سعد» فما شاء فعل فيهم، وقبل الرسول ﷺ، وقام «سعد» بالتحكيم، بعد ما أخذ العهود على الجانبين، ثم أمر أن ينزل قريظة عن حصونهم، وأن يضعوا السلاح[1] . . .، ولما نزلوا، حكم بقتل رجالهم الذين تآمروا على سلالة الإسلام والمسلمين، جزاءً وفاقاً، وقسمت الغنائم بين المسلمين ﴿**وأنزل**﴾ الله ﴿**الذين ظاهروهم**﴾ أي اليهود الذين صاروا عوناً وظهراً للأحزاب ﴿**من أهل الكتاب**﴾ بيان الذين ـ وهم اليهود قبيلة بني قريظة ـ ﴿**من صياصيهم**﴾ أي من حصونهم، فقد أمر سعدُ أن ينزلوا من الحصون، والصياصي جمع «صيصيه» وهو الحصن الممتنع ﴿**وقذف**﴾ أي ألقى ﴿**في قلوبهم الرعب**﴾ أي الخوف من الرسول ﷺ حتى لم يتمكنوا من المحاربة ﴿**فريقاً**﴾ منهم ﴿**تقتلون**﴾ أنتم أيها المسلمون، وهم الرجال ﴿**وتأسرون فريقاً**﴾ وهم الأطفال والنساء.

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٢٠ ص١٥٩ ـ ١٦٠

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ

[٢٨] ﴿**وأورثكم**﴾ أي أعطاكم الله إرثاً ﴿**أرضهم وديارهم**﴾ أي حصونهم ﴿**وأموالهم و**﴾ أورثكم ﴿**أرضاً لم تطؤوها**﴾ أي لم تأخذونها بالقتال، فإن الوطء هو الذهاب في الأرض، ولعلها كانت أرضاً لبني قريظة خارج حصونهم، أو المراد أرض خيبر، أو مكة، أو غيرها، مما صارت بعد ذلك للمسلمين ولم يطأها بعد في هذا الحادث ﴿**وكان الله على كل شيء قديراً**﴾ وبقدرته أظفركم على هؤلاء اليهود بهذه السهولة واليسر.

[٢٩] وبمناسبة قصة الفتح والغنيمة يأتي السياق ليشير إلى قصة وقعت بعد فتح خيبر، قالوا لما رجع رسول الله من غزوة خيبر، أصاب كنز آل أبي الحقيق، فقلن أزواجه: اعطينا ما أصبت، فقال لهن رسول الله ﷺ: قسمة بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل، فغضبن من ذلك، وقالت بعضهن: لعلك ترى، إنك إن طلقتنا، أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟ فلم يقع هذا الكلام من الرسول موقعاً حسناً، فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً، ثم أنزل الله هذه الآية ـ وهي آية التخيير[١] ـ .

فقامت أم سلمة أول من قامت، فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمن كلهن، وقلن كما قالت أم سلمة ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك**﴾

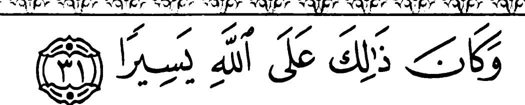
(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص١٨٩ .

إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٩﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ

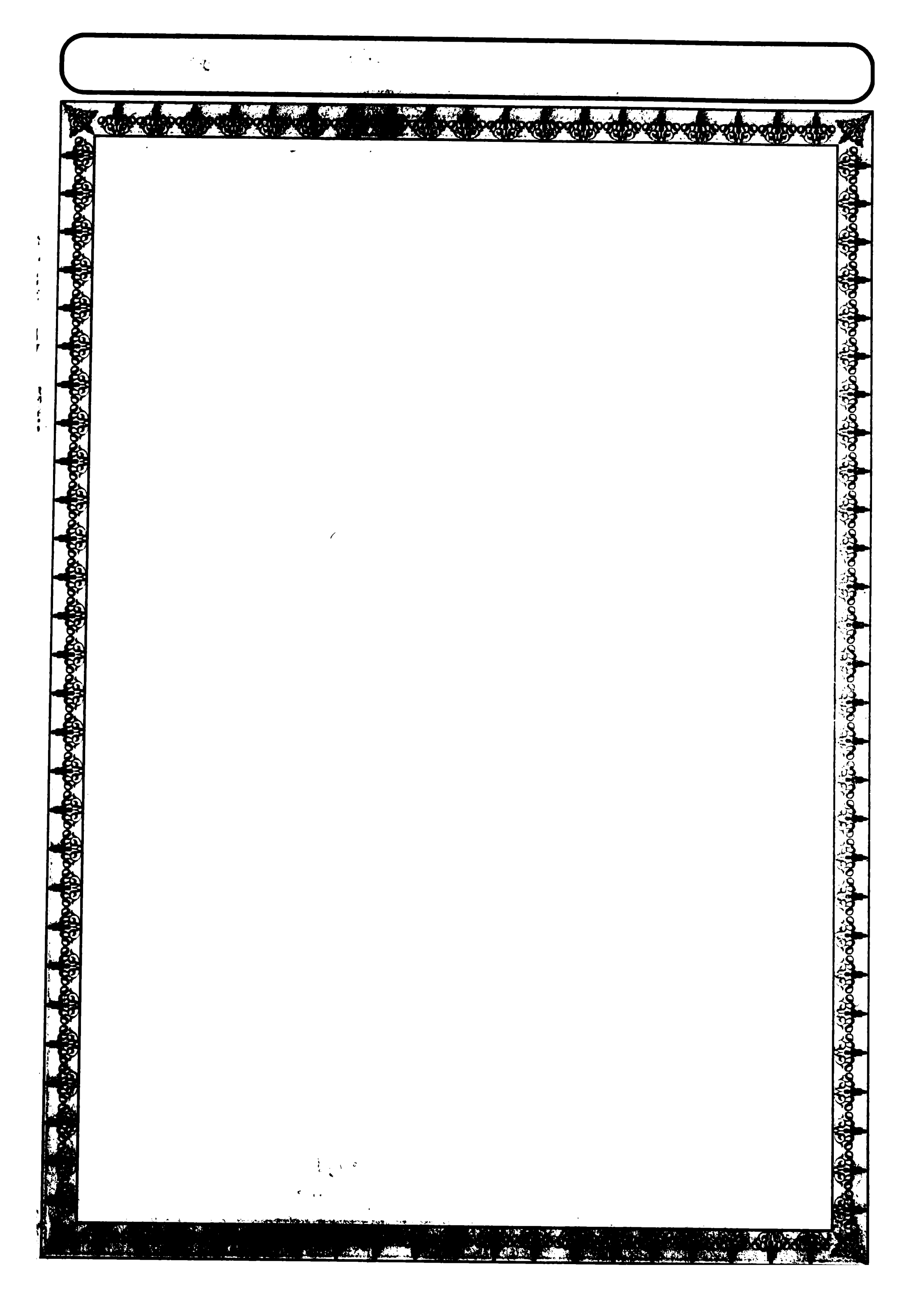
أي نساءك ﴿**إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها**﴾ أي سعة العيش، وكثر المال، وسائر زينة الدنيا ﴿**فتعالين**﴾ أي هلمن إلي، لـ ﴿**أمتعكن**﴾ وهي ما يعطى للمرأة عند طلاقها جبراً لكسر خاطرها بالطلاق ﴿**وأسرحكن**﴾ أي أطلقكن، فإن الطلاق تسريح للمرأة عن قيد الزواج ﴿**سراحاً جميلاً**﴾ والسراح الجميل، هو الطلاق من غير خصومة، ولا أكل حق لها.

[٣٠] ﴿**وإن كنتن تردن**﴾ ثواب ﴿**الله و**﴾ تردن عشرة ﴿**رسوله**﴾ بدون إرادتكن زينة الحياة الدنيا، زائدة على القدر اللائق بالرسول ﴿**والدار الآخرة**﴾ وإرادتها عبارة عن العمل الصالح لأجلها ﴿**فإن الله أعد للمحسنات منكن**﴾ وإنما جاء بهذا، لأن مجرد الإرادة، لا تكفي للثواب، وإنما تحتاج إلى العمل ﴿**أجراً عظيماً**﴾ يعطيه لكنّ في الآخرة.

[٣١] ﴿**يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة**﴾ أي معصية ظاهرة ﴿**يضاعف لها العذاب**﴾ في الآخرة ﴿**ضعفين**﴾ ضعف للعصيان، وضعف لأنها أسوة للنساء، ولمكانها من الرسول ﷺ، والمراد



بالضعف المثل ﴿**وكان ذلك**﴾ التعذيب ضعفين ﴿**على الله يسيراً**﴾ فإن الأمر بيده، ويفعل كيفما يشاء مما تقتضيه الحكمة والصلاح، وتقديم «الفاحشة» على «القنوت» لأن الكلام كان حول معصيتهن، بمخاشنة الكلام مع الرسول، كما أن الإتيان بلفظ «الفاحشة» التي هي المعصية المجاوزة للحد، وتأكيدها بـ «المبينة» بمناسبة الموضوع، فإن عصيان النساء للرسول، كان من أعظم المعاصي، وإلا فكل معصية، أتين بها ظاهرة تكون كذلك، أما المعصية الخفية، فهل عذابها مضاعف أم لا، احتمالان.

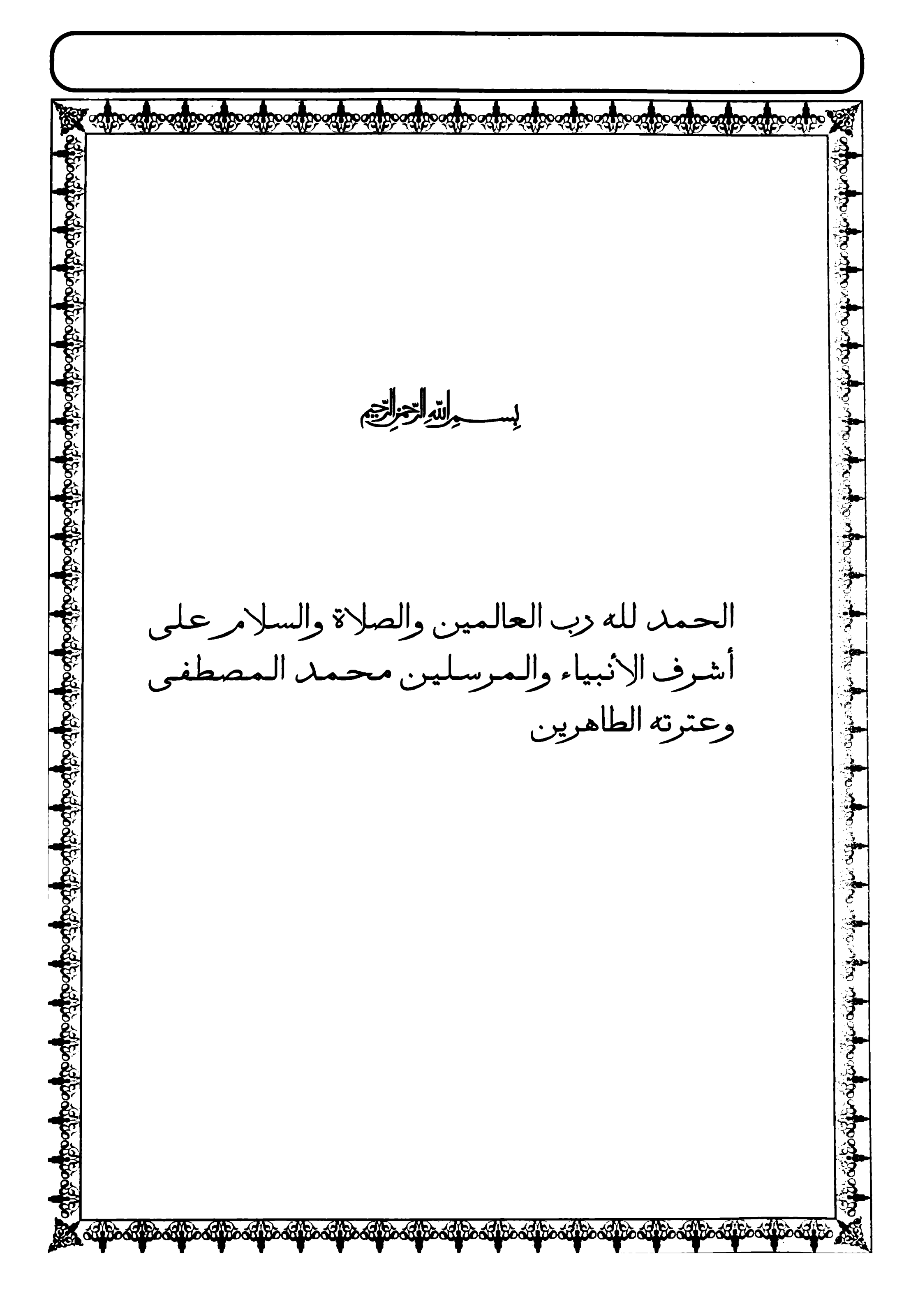




الجزء الثاني والعشرون

من آية (٣٢) سورة الأحزاب

إلى آية (٢٨) سورة يس



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾

---

[٣٢] ﴿**ومن يقنت**﴾ والقنوت هو الطاعة والخضوع ﴿**منكن**﴾ يا نساء النبي ﴿**لله ورسوله**﴾ بأن تطع أوامرهما ﴿**وتعمل صالحاً**﴾ أي تأتي بهذا النوع من العمل، وهو الصالح دون الطالح، وكأن القنوت مقدمة على العمل، إذ هو الخضوع ﴿**نؤتها أجرها مرتين**﴾ مرة في الدنيا بالإعظام والإكرام، ومرة بالآخرة بجنات النعيم، أو المراد نعطيها أجرين وثوابين في الآخرة بمقابلة «يضاعف لها العذاب ضعفين» ﴿**وأعتدنا**﴾ أي هيئنا في الآخرة ﴿**لها رزقاً كريماً**﴾ نرزقها بإكرام وإعظام، وقيل الكريم ما سلم من كل آفة ونقص.

[٣٣] ﴿**يا نساء النبي لستن**﴾ أنتنّ ﴿**كأحدٍ من النساء**﴾ أي كسائر النساء، فإنكن أعظم شأناً، وأعلى منزلة لمكانكن من الرسول ﷺ ﴿**إن اتقيتن**﴾ أي إن كنتن متقيات خائفات من الله سبحانه ﴿**فلا تخضعن بالقول**﴾ أي إذا أردتنّ الكلام في محضر حضره الأجنبي، فلا ترققن الكلام ولا تلن في الحديث، والخضوع عبارة عن الكيفية، وإن كان مفهوم الآية شامل لمادة الكلام أيضاً، بأن لا يكون مثيراً مهيجاً ﴿**فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾ وهو من انحرفت نفسه عن الجادة، حتى إذا سمع الكلام الرقيق، هاجت نفسه طمعاً، وإن لم يكن يريد شيئاً ﴿**وقلن قولاً معروفاً**﴾ جميلاً حسناً، لا غزلاً وتشبيباً، بريئاً من كل

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

التواء وانحراف.

ولا يخفى أن نساء النبي، حيث أنهن كن أسوة للنساء ـ أسوة طبيعية ـ كانت الآيات موجهة إليهن، وإلا فما اشتملت عليه هذه الآيات، عامة لكل النساء، وإن كان في حقهن أكثر إلا ما خرج بالدليل ككون نسائه ﷺ أمهات المؤمنين، أما قوله «لستن كأحد من النساء» فإنما هو للترغيب والتحريض، وبيان أن منزلتهن تقتضي التحفظ بهذه الوصايا أكثر، كما يقول العالم لولده: إنك لست كسائر الناس، فلا تقامر، ولا تشرب الخمر، وهكذا..

[٣٤] ﴿**وقرن**﴾ أي أقررن واستقرن ﴿**في بيوتكن**﴾ أي منازلكن، فلا تخرجن للحرب وما أشبه ﴿**ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى**﴾ أي لا تخرجن من البيوت باديات الزينة، كما كانت نساء الجاهلية تفعل، فإنّ برج، بمعنى ظهر، ومنه تسمى البارجة، وبرج السور، وبروج الكواكب، لبروجها أي ظهورها، ومن مصاديق التبرج، إلقاء المرأة عباءتها بين الرجال، كما كانت تفعله نساء الجاهلية ﴿**وأقمن الصلاة**﴾ بالمداومة عليها بآدابها وشرائطها ﴿**وآتين الزكاة**﴾ أي أعطين الزكاة المفروضة، أو مطلق الصلة ﴿**وأطعن الله ورسوله**﴾ فيما يأمران به ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ هذا من قبيل الالتفات المذكور في علم البلاغة، الذي هو من محاسن الكلام، فإن المراد بأهل البيت «الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين» عليهم السلام، بإجماع المفسرين

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٤﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾

المنصفين من العامة والخاصة، كما وردت بذلك روايات متواترة[1]، وقد مر بنا غير مرة، إن من فنون البلاغة في القرآن الكريم، أن يوسّط كلاماً جديداً، بين الجمل المتناسقة، اتقاءً عن ملالة السامع من كلام رتيب، والمراد بأهل البيت عليهم السلام، بيت الرسول، والذي يشهد أن المراد بالآية، ليست النساء، تغيير الأسلوب، فإن الخطاب كان بلفظ الجمع المؤنث «لستن» «اتقيتن» «لا تبرجن» وهكذا، وكذلك ما بعد الآية «واذكرن» «في بيوتكن» حتى إذا وصل إلى هذا قال «عنكم» «يطهركم» ولا يخفى أن الأئمة عليهم السلام داخلون في أهل البيت بالنصوص المتواترة ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ ومعنى الإرادة، الإرادة التكوينية، وهي الموجبة للعصمة، وهي المراد بالطهارة، وإلا فالإرادة التشريعية عامة للجميع، كما أن الطهارة عن القذارة الظاهرية عامة لا تختص حتى المسلمين، ولذا استدل علماؤنا بهذه الآية على عصمة الرسول والصديقة والأئمة الاثنى عشر (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومعنى العصمة أن يكون في الإنسان ـ بلطف الله سبحانه ـ وازع يمنعه عن العصيان مطلقاً بدون أن ينافي ذلك اختياره، كالأم الحنون التي فيها وازع يمنعها عن قتل ولدها، وهذا الوازع من قبله سبحانه، ولا ينافي اختيارها ومحل تفصيل الكلام في علم الكلام.

[٣٥] ﴿واذكرن﴾ يا نساء النبي﴿ ما يتلى في بيوتكن﴾ أي ما يقرأ، والقارئ هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والإتيان بلفظ في «بيوتكن» لعله للحث والتحريض، فإن ما يتلى في بيت الإنسان من القرآن يزيده شرفاً وعزاً،

---

(١) بحار الأنوار: ج١ ص٤٢٤ .

مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ

فمن الجدير أن يستمسك بعزه وفخره ﴿**من آيات الله**﴾ أي القرآن ﴿**والحكمة**﴾ لعل المراد بها كلمات الرسول وحكمه، والمراد بالذكر، إما التحفظ والقراءة، وإما التذكر ﴿**إن الله كان لطيفاً**﴾ ذا فضل ومن لطفه وفضله، خصكن بهذه الكرامة ﴿**خبيراً**﴾ يعلم ما تصنعن من الأمور، فيجازيكن على أعمالكن.

[٣٦] ثم ذكر الله سبحانه استواء الرجال والنساء في أحكام الإيمان ـ إلا ما خرج بالدليل.

روي في المجمع عن مقاتل بن حيان، أنه قال: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ، فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار، فقال ﷺ: ومم ذلك؟ فقالت: لأنهن لايذكرن بخير، كما يذكر الرجال، فانزل الله هذه الآية[1] ﴿**إن المسلمين والمسلمات**﴾ والمسلم هو الذي سلّم لأوامر الله والرسول، سواء دخل الإيمان قلبه أم لا، كما قال سبحانه: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[2] ﴿**والمؤمنين والمؤمنات**﴾ والمؤمن هو الذي دخل التصديق قلبه، والتزم بأحكام الإسلام ﴿**والقانتين**

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١٥٨ . (٢) الحجرات: ١٥ .

وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٦﴾

والقانتات﴾ والقنوت، هو الخضوع لله سبحانه، فإن الخضوع رتبة فوق الإيمان أو المراد بالقانت المداوم على الطاعة، أو الداعي **﴿والصادقين والصادقات﴾** والصادق هو الذي يصدق في عقيدة وقول وعمل، فالشرك كذب وقول لا إله للكون كذب، والعمل الريائي كذب **﴿والصابرين والصابرات﴾** والصبر إما على الطاعة، وإما عن المعصية، وإما في المصيبة، بأن يحفظ الإنسان نفسه، فلا يترك الطاعة، أو يعمل بالمعصية أو يلقي نفسه في الجزع **﴿والخاشعين والخاشعات﴾** الخشوع هو الخضوع أو الخوف **﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾** التصدق هو إخراج الصدقات والزكوات **﴿والصائمين والصائمات﴾** بالإمساك عن المفطرات، قربة إلى الله تعالى، بشرائطه وآدابه، ولعل عدم ذكر الصلاة والزكاة، لأنهما داخلات في الإسلام **﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾** عن الزنا واللواط والسحق والاستمناء، وما أشبه، **﴿والذاكرين الله كثيراً﴾** بدوام تذكر الله سبحانه حتى لا يصدر من الإنسان ما يخالف رضاه **﴿والذاكرات﴾** لله كثيراً، وقد حذف المتعلق لدلالة الكلام عليه، وكذا في «والحافظات» **﴿أعد الله لهم﴾** أي للمتصفين بهذه الصفات **﴿مغفرةً﴾** مصدر ميمي بمعنى الغفران، أي غفراناً لذنوبهم **﴿وأجراً عظيماً﴾** وثواباً جزيلاً في الآخرة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٧﴾

[٣٧] وإذ تقدمت قصة زوجات الرسول صلى الله عليه وآله حين أردن منه أموال خيبر، وامتنع الرسول صلى الله عليه وآله عن إعطائهن، جاء السياق ليذكر الناس عامة، بأنه ليس لأحد أن يحكم بخلاف حكم الرسول ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً**﴾ بأن أمرا بشيء، أو نهيا عن شيء ﴿**أن يكون لهم الخيرة**﴾ أي الاختيار ﴿**من أمرهم**﴾ أي من جهة أمر أنفسهم، بعد أوامر الله والرسول ﴿**ومن يعص الله ورسوله**﴾ بمخالفة أوامرهما، ﴿**فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾ أي انحرف عن طريق الهدى انحرافاً واضحاً، قال في المجمع: «نزلت في زينب بنت جحش الأسدية، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وآله فخطبها رسول الله على مولاه، زيد بن حارثة، ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد، أبت وأنكرت، وقالت: أنا ابنة عمتك، فلم أكن لأفعل، وكذلك قال أخوها، عبد الله بن جحش، فنزل، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة.. الآية، يعني عبد الله بن جحش وأخته زينب، فلما نزلت الآية، قالت: رضيت يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد رسول الله، وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله زيداً، فدخل بها، وساق إليها رسول الله عليه السلام عشرة دنانير وستين درهماً مهراً، وخماراً ملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مدّاً من الطعام، وثلاثين صاعاً من تمر»[١]، أقول وقد هدم النبي صلى الله عليه وآله

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١٦١ .

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾

بذلك، ما كان مرسوماً في الجاهلية من تكافؤ الدماء القبلي.

[٣٨] لقد تزوج زيد زينب، ثم أراد الله سبحانه، أن يزيل العقبة التي كانت بعدُ أمام المسلمين في أمر التزوج بنساء أدعيائهم، فقد كانوا يرون أن ذلك من قبيل نكاح الأب زوجة إبنه، ولذا لما طلق زيد زينباً ـ ولعله كان لما نقل أنها كانت حادة المزاج، فلم يتلائم الزوجان ـ نكحها رسول الله ﷺ تتميماً للتشريع الذي سبق في أول السورة «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» ومن غريب الأمر، أن جماعة من الناس اختلقوا حول هذه القصة روايات تنافي أصول الإسلام والعقيدة، حتى أن علي بن إبراهيم القمي، على جلالته لم يسلم من الوقوع ضحية ذلك الاختلاف، كما لم يسلم من الوقوع ضحية قول المعاندين في أن آية (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)[1] نزلت في أبي طالب عم الرسول ﷺ، فسبحان من لم يخلق الإنسان معصوماً إلا الأنبياء والأئمة، ومن إليهم ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ تقول لـ**﴾ زيد بن حارثة الذي دعوته ابناً لك قبل نزول آية «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» ﴿**الذي أنعم الله عليه**﴾ بالإسلام والإيمان، ومصاحبة الرسول ﴿**وأنعمت**﴾ أنت ﴿**عليه**﴾ بالكفاية والتربية والتحرير والتعليم، وتزويجه بزينب الشريفة الهاشمية ﴿**أمسك عليك زوجك**﴾ ولا تطلقها، فقد وقعت بينهما المشاجرة، فأراد زيد طلاقها ـ وقد تقدم أنها كانت ذات حدة في أخلاقها، كما ذكروا ـ والإتيان بلفظ عليك، لما في الإمساك من الثقل، حتى كأنه

(١) القصص: ٥٧ .

وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ

حمل على الإنسان ﴿واتق الله﴾ يا زيد في مفارقتها ومضارتها، ومعاشرتها، فلا تعاشرها إلا حسناً جميلاً ﴿و﴾ قد كان الله سبحانه أخبر الرسول أنه سيطلق زينباً، وأن الرسول ﷺ يتزوجها لرفع قاعدة «البنوة» الجاهلية، ولما كان الرسول ﷺ يعلم ما يحدثه هذا العمل من الضجة، في ذلك المجتمع الجديد العهد بالإسلام، خشى إظهاره، ولذا قال سبحانه له ﷺ و ﴿تخفي في نفسك﴾ يا رسول الله، إرادتك زواجها بأمر الله بعد طلاقها ﴿ما الله مبديه﴾ أي الشيء الذي يظهره الله بعد ذلك ﴿وتخشى الناس﴾ وقد قال بعض: كيف يخشى النبي الناس؟ فلنقل: هل كان النبي يخشى من العقرب أن تلدغه، أو السبع أن يفترسه؟ فإن قالوا نعم، قلنا: ما الفرق حتى أجزتم تلك الخشية، ولم تجوزوا هذه الخشية، من كلام الناس وطعنهم؟ وإن قالوا: لا، قلنا: فأيّ دليل على أن الخشية من المضر أو المؤذي ينافي مقام العصمة، فإن ما ثبت، أن الرسول ﷺ معصوم، لا إنه مسلوب عنه صفات البشرية من خشية واضطراب، وجوع وعطش، كما في قصة موسى عليه السلام (إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا)[١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً)[٢]، وفي قصة يعقوب (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ)[٣]، وأما قوله ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ فهو من باب الجناس المليح، نحو قوله (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ)[٤] وقول الرضا عليه السلام: «إن كنت باكياً لشيء، فابك للحسين عليه

---

(١) طه: ٤٦.
(٢) القصص: ٢٢.
(٣) يوسف: ١٤.
(٤) الروم ٥٦.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٨﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾

السلام»[١] فإن الإنسان إذا هاج به وصف نفسي، قيل له، وجّه هذا الوصف إلى جهة أصلح، فمن هاجت به العاطفة نحو جاره، قلنا له: اعطف على ولدك، أو نقول: إن ولدك أحق بالعطف، ولا نريد بذلك، أن العاطفة نحو الجار غير حسنة، وإنما نريد توجيهه نحو ما هو الأصلح بحاله ﴿**فلما قضى زيد منها**﴾ أي من زوجته زينب ﴿**وطراً**﴾ أي حاجة، بأن تم حاجته فيها، وطلقها، حيث لم يتلائما ﴿**زوجناكها**﴾ أي أمرنا بتزويج زينب ﴿**لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم**﴾ أي لتكون أنت أول من ينقض هذه العادة الجاهلية عملاً حتى لا يتحرج المؤمنون بعدك من الزواج بزوجة المتبنى لهم ﴿**إذا قضوا**﴾ أولئك الأدعياء ﴿**منهن**﴾ أي من زوجاتهم ﴿**وطراً**﴾ أي حاجة، بأن طلقوهن، فإن الطلاق لا يكون إلا بعد عدم الرغبة، والحاجة في الزوجة ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾ أي أن الشيء الذي يريده الله، لا بد وأن يُفعل ويُؤتى في الخارج، فتزوجها رسول الله وضمها إلى نسائه.

[٣٩] وإذ أثار هذا الأمر ضجة كبرى بين الناس، جاء السياق ليردها، فقال سبحانه ﴿**وما كان على النبي من حرج**﴾ أي عسر وضيق وغضاضة ﴿**فيما فرض الله له**﴾ أي في الحكم الذي أثبته الله للنبي ﷺ،

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٤ ص٥٠٢.

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ

والإتيان بلفظ «له» لأنه كان لنفع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا مثل سائر الواجبات، التي هي «عليه» فيها مشقة وكلفة ﴿**سنة الله**﴾ منصوب على المصدر، أي سنّ الله ذلك سنة، أي إن هذا التحليل، كان كسائر سنن الله في الأنبياء(عليهم السلام)، والأمم الماضين ﴿**في الذين خلوا**﴾ أي مضوا ﴿**من قبل**﴾ قبل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فقد كان سبحانه، يرفع الحرج عنهم، ويحل لهم ما فيه الصلاح ﴿**وكان أمر الله قدراً**﴾ أي بقدر وقضاء ﴿**مقدوراً**﴾ قد قُدّر وحكم به ان ينفذ، فليس اعتباطاً وارتجالاً، روى عن الإمام الباقر(عليه السلام)، أن زينب مكثت عند زيد ماشاء الله، ثم أنهما تشاجرا في شيء إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فاستأذن زيد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في طلاقها، وقال أن فيها كبراً، وأنها لتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «اتق الله، وأمسك عليك زوجك، وأحسن إليها، ثم أن زيداً طلقها، وانقضت عدتها، فأنزل الله سبحانه نكاحها على رسوله»(١).

[٤٠] ومن هم الذين خلوا من قبل؟ هم ﴿**الذين يبلغون رسالات الله**﴾ أي يؤدّونها إلى الناس كاملة، وباعتبار أن كل حكم رسالة، سميت الشريعة رسالات ﴿**ويخشونه**﴾ سبحانه، فيما أمر ونهى ﴿**ولا يخشون أحداً إلا الله**﴾ أي لا يتركون حكماً من أحكام الله خشية أحد، فإنهم لا يخشون إلا الله وحده، نعم من الممكن، أن يخشون الناس في أمر

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢١٨ .

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٤٠﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

آخر، كما قال (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً)[1] **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** أي حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً ومجازياً عليها.

[٤١] ولما تزوج الرسول ﷺ زينب، جعلت الألسنة المنافقة تلوك، بأن الرسول تزوج زوجة ابنه، فقال سبحانه **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾** فهو ليس أباً لزيد حتى يكون التزويج بزوجته تزويجاً بزوجة الإبن، وفي الآية أنه ﷺ، ليس أباً لرجالهم - وزيد من رجالهم - وليس فيها أنه ﷺ ليس أباً لأحد، فإن القاسم والطيب والطاهر، وإبراهيم، كانوا أبناءه الصلبين، والإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، كانوا أبناءه بواسطة سيدة نساء العالمين **﴿ولكن﴾** كان ﷺ **﴿رسول الله﴾** فينفّذ ما أمره الله سبحانه **﴿وخاتم النبيين﴾** أي آخرهم، قد ختمت به النبوة، ولذا يلزم عليه أن يُبطل كل ما يخالف الصلاح العام، وليس كالأنبياء الذين تقدموا، إن لم يمكن لهم إبطال أمر، جاء بعدهم نبي أخر ليبطله، ولذا كانت شرائعهم تتناسخ **﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾** لا يخفى عليه المصالح والمفاسد، فلذا يأمر بالصالح، ولا يخفى عليه قول المنافقين في الرسول ﷺ.

[٤٢] ويأتي السياق بعد ذلك يربط القلوب بالله سبحانه، حتى لا يتحرجوا من حكم يفرضه مهما كان خلاف المألوف لديهم **﴿يا أيها الذين آمنوا**

---

(١) الأنفال: ٥٩.

ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤٢﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٤﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ

اذكروا الله﴾ هو تذكرة عند الأعمال، حتى لا يزيغ الإنسان في قول، أو عمل، أو نيّة، ﴿ذكراً كثيراً﴾ في مختلف أحوالكم وشؤونكم.

[٤٣] ﴿وسبحوه﴾ والتسبيح هو التنزيه له سبحانه لفظاً أو قلباً أو عملاً ﴿بكرةً﴾ صباحاً ﴿وأصيلاً﴾ عصراً، ولعل ذلك كناية عن دوام التسبيح واستمراره.

[٤٤] إن الله سبحانه يلطف بكم ويهديكم السبيل، فمن اللازم أن تقابلوه بالمثل، تذكروه وتسبحوه ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ والصلاة في اللغة العطف والميل، كما قال الشاعر «صلى على جسم الحسين سيوفهم» ومن المعلوم، أن صلاته سبحانه، الرحمة بالناس، والمغفرة لهم ﴿وملائكته﴾ أي تصلي ملائكته عليكم ـ ولا يكون ذلك إلا بإذنه ـ فالفضل يعود إليه تعالى أيضاً، وصلاة الملائكة عطفهم نحو البشر بطلب المغفرة والرحمة لهم وحفظهم عن الأخطار، بقدر ما يأذن الله لهم ﴿ليخرجكم﴾ الله، أيها المؤمنون ﴿من الظلمات إلى النور﴾ فإن دروب الحياة مظلمة لا يراها الإنسان حتى يسير فيها بسلام، وإنما يقع في المشاكل والاضطرابات كالإنسان الذي يسير في الظلمة يقع في الحفيرة، ويصطدم بالجدران، وصلاته سبحانه، وصلاة ملائكته، توجب إنارة الطريق، لأنه يرحم وبرحمته يُحفظ الإنسان من الزلّة ﴿وكان﴾ الله ﴿بالمؤمنين رحيماً﴾ يرحمهم ويلطف بهم.

[٤٥] هذا للمؤمنين في الدنيا أما ﴿تحيتهم﴾ إذ يحييهم الله سبحانه ﴿يوم

يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٧﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾

يلقونه﴾ أي يلقون جزاءه وثوابه، فهو ﴿سلام﴾ لفظي إذ يسلم الملائكة عليهم، ويبعث الله من يقول للمؤمن، إن ربك يقرؤك السلام، ومعنوي فإن لهم السلامة من جميع الآفات والأخطاء، إلى الأبد ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ أي ثواباً جزيلاً يكرمهم.

[٤٦] ثم يخاطب القرآن النبي ﷺ ليلطف به في مقابل ذلك العمل الشاق الذي قام به من زواج زينب ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك﴾ على الناس ﴿شاهداً﴾ تشهد عليهم، ماذا صنعوا، وماذا يصنعون؟ فإن الإنسان المعتدل يمكن أن يكون شاهداً، لا الإنسان المنحرف ﴿ومبشراً﴾ بالجنة والثواب، لمن آمن وأطاع ﴿ونذيراً﴾ بالنار والعقاب لمن كفر أو عصى.

[٤٧] ﴿وداعياً إلى الله﴾ فأنت تدعو إلى الإذعان بالله، وإطاعته ﴿بإذنه﴾ فإن كل عمل يرتبط به سبحانه يحتاج إلى إذنه، حتى الدعوة إليه ﴿وسراجاً﴾ أي مصباحاً ﴿منيراً﴾ يهتدى بك في الحياة، كما يهتدى بالمصباح في ظلمة الليل.

[٤٨] ﴿وبشر﴾ يا رسول الله ﴿المؤمنين﴾ الذين آمنوا وأطاعوا ﴿بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ فإنه يتفضل عليهم بفضل عظيم، هو إعطائهم خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ

---

[٤٩] ﴿**ولا تطع**﴾ يا رسول الله ﴿**الكافرين والمنافقين**﴾ بأن تسمع بعض كلامهم ـ الذي يزعمون أنه في صالحك، أو صالح المؤمنين ـ ﴿**ودع أذاهم**﴾ أي اترك أن تؤذيهم فيما يفعلون ضدك، فإن كيدهم ضعيف يضمحل، أو المراد لا تعتن بأذيتهم لك، فإن أذاهم لا يضرك، فلا ينبغي أن تعير له أهمية، ولا يخفى أن هذا غير القتال، فإن ذلك بالنسبة إلى الأمور العادية، كالبذيء من القول، لا بالنسبة إلى المناهج والخطوط والأنظمة ﴿**وتوكل على الله**﴾ اجعله وكيلك في الأمور يجلب إليك الخير، ويدافع عنك الضر والشر ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ أي كافياً ومتكفلاً وحافظاً، وحيث أن الأصل «اكتف» جاء الباء في فاعل «كفى».

[٥٠] وبمناسبة قصة نكاح زينب وطلاق زيد لها، يأتي السياق ليبين بعض أحكام الطلاق ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات**﴾ أي زوجتموهن ﴿**ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن**﴾ أي من قبل الدخول بهن، فإن المس كناية عن ذلك، لا إنه بمعنى الإحساس ﴿**فما لكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**عليهن**﴾ أي على تلك المطلقات ﴿**من عدة تعتدونها**﴾ أي تستوفونها بالعدد، فإذا طلقت المرأة قبل الدخول جاز لها أن تتزوج من ساعتها، لعدم وجود حكمة العدة فيها، فإن الحكمة ـ كما ذكروا ـ

فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

استبراء رحمها۔ وإن كان هذا حكمة، لا علة تامة ـ ﴿**فمتعوهن**﴾ بما لهن عليكم من الحقوق الواجبة والمستحبة، ومنها إعطائها المتعة، فيما إذا لم يُفرض لها فريضة، وقد ورد عن الإمام الباقرعليه السلام، أنه قال: في هذه الآية « «متعوهن» أي جملوهنّ بما قدرتم عليه من معروف، فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة، وهمٌ عظيم وشماتة من أعدائهن، فإن الله كريم يستحي «أي يفعل فعل المستحي» ويحب أهل الحياء، إن أكرمكم، أشدكم إكراماً لحلائله»[1] ﴿**وسرحوهن**﴾ أي أطلقوهن وأخرجوهن من حبالتكم بعد الطلاق ﴿**سراحاً جميلاً**﴾ بلا إيذاء، وذكر معائب وإهانة ومنع حق ـ مما يعتاده الجهّال ـ وقد ذكروا، إن رجلاً أراد طلاق زوجته، فقيل له: لماذا، قال: هي زوجتي وإن الرجل لايذكر معائب زوجته، ثم طلقها، فقيل له: الآن، قل ما كان فيها من العيب، فقد خرجت عن زوجيتك، فقال: هي أجنبية، وإن الرجل لايذكر معائب النساء الأجنبيات.

[٥١] ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي**﴾ جمع التي ﴿**آتيت**﴾ أي أعطيت ﴿**أجورهن**﴾ أي مهورهن، فإن المهر أجر على البضع، ولقد كان الرسول أعطى نساءه الموجودات عنده وقت نزول الآية، مهورهن، فليس القيد احترازياً، بل توضيحياً، والآية، في مقام بيان النساء المحللات للرسول، فالمعنى أنه يحل لك طوائف من النساء، هؤلاء النسوة، الموجودات عندك والوصيفات، وبنات العم والعمة،

(١) من لايحضره الفقيه: ج٣ ص٥٠٦ .

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ

وبنات الخال والخالة، والمرأة التي تهب نفسها للنبي، ثم بيّن سبحانه أن للرسول الخيار في حفظ بعض زوجاته، وطلاقها، كما بيّن سبحانه، أن لا يحل له أن يأخذ فوق هذا العدد الموجود عنده من سائر النساء، أو تبدل بعضاً ببعض، بأن تطلق من زوجاته، ليأخذ مكانها امرأة أخرى، وقد خصه الله سبحانه بجواز التسع، حين كف عنده، ونزلت آية (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ)[1] فتفضل الله سبحانه بإحلاله للرسول، إبقاء جميع النسوة ﴿**و**﴾ أحللنا لك ﴿**ما ملكت يمينك**﴾ أي الأمة، وإنما سميت ملك اليمين، لأن اليد اليمنى هي أكثر الأعضاء اكتساباً، فيكون الثمن عليها والملك لها ـ مجازاً ـ ﴿**مما أفاء الله عليك**﴾ أي أعطاك الله من الغنيمة والأنفال، وسمي فيئاً لأنه يرجع إلى صاحبه الأصلي، وهو الرسول، وكأن المال في يد الكفار مغصوب، فإذا رجع بأمر الله إلى المؤمنين كان فيئاً ورجوعاً إلى أصحابه الأصليين، وقد كانت زوجة النبي، مما ملكت يمينه مارية القبطية أم إبراهيم ﴿**وبنات عمك**﴾ والمراد مطلق الأعمام ﴿**وبنات عماتك**﴾ والاختلاف بين العم والعمة بالإفراد والجمع للتفنن في الكلام، الذي هو من أبواب البلاغة ﴿**وبنات خالك وبنات خالاتك**﴾ في اختلاف اللفظين ما تقدم ﴿**اللاتي هاجرن معك**﴾ قال في المجمع: «إن المراد ببنات العمة، نساء قريش، وببنات الخالة نساء بني زهرة»[2]، ولعل التخصيص بهؤلاء النسوة،

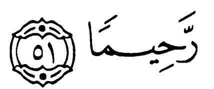
---

(١) النساء: ٤ .

(٢) مجمع البيان: ج٨ ص١٧٠ .

وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا

لعدم وجود غيرهن عند الهجرة، حتى تحل، كما إن تخصيصهن يهاجرن معك، لإفادة تحريم غير المهاجرات ـ ولم يعلم أن الحكم نسخ بعد ذلك ـ ﴿**و**﴾ أحللنا لك ﴿**امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي**﴾ بأن قالت، وهبت نفسي لك يا رسول الله، فإنه يجوز له نكاحها، والحلية بلفظ الهبة، تخلص ﴿**إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك**﴾ يا رسول الله ﴿**من دون**﴾ سائر ﴿**المؤمنين**﴾ فلا يحل لهم النساء، بلفظ الهبة ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم في**﴾ أمر ﴿**أزواجهم**﴾ فإن المفروض للمؤمنين أن لا يتزوجوا فوق الأربع، ولا أن ينكحوا بلفظ الهبة، تمشياً مع نظام الصالح العام، أما الرسول فقد استثنى له بعض الأحكام لظروف خاصة، أحاطت به، كما أنه وجب عليه أمور لتلك الظروف أيضاً ﴿**و**﴾ قد علمنا ما فرضنا في ﴿**ما ملكت أيمانهم**﴾ حيث أبحنا لك الصفوة من الغنائم، إذا كانت جارية، ولم تبحها للمؤمنين، ومعنى قد علمنا، أن هذا الحكم ليس اعتباطاً، وإنما صادر عن علم وحكمة بالمصالح والمفاسد العامة والخاصة، ثم بيّن ذلك بقوله ﴿**لكيلا يكون عليك حرج**﴾ وضيق في أمر الأزواج، فإن الرسول أكثر شغلاً من أن يحرج عليه بعض الأمور الخاصة، كما أنه يقع في ضيق، إن أُمر بطلاق، أو فك بعض نسائه التسع ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ لمن



خالف الأوامر، ثم تاب، كما وقع العصيان من بعض الأزواج، في قصة غنائم خيبر ﴿رحيماً﴾ يتفضل بالرحم والنعمة على رسوله والمؤمنين، روى عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو في منزل حفصة، والمرأة متلبسة متمشطة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت: يا رسول الله، إن المرأة لا تخطب الزوج، وأنا امرأة لا زوج لي منذ دهر، ولا ولد، فهل لك من حاجة؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك، إن قبلتني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: خيراً، ودعا لها، ثم قال: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً، فقد نصرني رجالكم، ورغبت فيّ نساؤكم، فقالت لها حفصة: ما أقل حياءك وأجرأك وأنهمك للرجال؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كُفي عنها يا حفصة، فإنها خير منك، رغبت في رسول الله، فلمتيها وعبتيها، ثم قال صلى الله عليه وآله للمرأة: انصرفي رحمك الله، فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فيّ، وتعرضك لمحبتي وسروري، وسيأتيك أمري إن شاء الله، فأنزل الله عز وجل، (وٱمرأةً مُّؤمِنَةً)[(١)(٢)]، وعن الصادق عليه السلام، قال: «تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة عشر امرأة، ودخل بثلاثة عشر منهن، وقبض عن تسع، فأما اللتان لم يدخل بهما، فـ «عمرة» و «السناة» وأما الثلاثة عشر اللواتي دخل فيهن، فأولهن «خديجة» بنت خويلد، ثم «سودة» بنت زمعة، ثم «أم سلمة» واسمها هند بنت أبي أمية، ثم «أم عبد الله» ثم «عائشة» بنت أبي بكر، ثم «حفصة» بنت عمر، ثم «زينب» بنت خزيمة بن

---

(١) الأحزاب: ٥١.

(٢) الكافي: ج٥ ص٥٦٨.

تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ

الحارث أم المساكين، ثم «زينب» بنت جحش، ثم «أم حبيب» أرملة بنت أبي سفيان، ثم «ميمونة» بنت الحارث، ثم «زينب» بنت عميس، ثم «جويرية» بنت الحارث، ثم «صفية» بنت حيّ بن أخطب، والتي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، و«خويلة» بنت حكيم السلمى، وكان له سريّتان يقسم لهما مع أزواجه «مارية القبطية» و «ريحانة الخندقية»، والتسع اللواتي قبض عنهن، ، عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وأم حبيب بنت أبي سفيان، وصفية، وجويرية، وسودة، وأفضلهن خديجة بنت خويلد، ثم أم سلمة، ثم ميمونة»[1].

[٥٢] ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الإرجاء، هو التأخير، والمراد تبعد عَن نفسك من تشاء من أزواجك ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي تجعل لها الإيواء، بأن تقربها إلى نفسك، قالوا: «وقد نزلت هذه الآية، إثر إعراض النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهن لما طالبن بغنائم خيبر، وأغلظن له في القول، فقد خيره الله سبحانه، بين الابتعاد عن بعضهن والاقتراب منهن»[2] ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ أي إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن ـ حسب اختيارك ـ وتضمها إليك فلا جناح عليك في ذلك ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتك في الإرجاء والإيواء ﴿أدنى أن تقرّ أعينهن﴾ أي يفرحن، فإن من فرح، قرت عينه،

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٤٤ .

(٢) راجع مستدرك الوسائل: ج١٥ ص٣١٠ .

وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٢﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ

ولم تضطرب هنا وهناك، ، ليجد ملجأً ومستقراً ﴿**ولا يحزن**﴾ تأكيد لتقر أعينهن ﴿**ويرضين بما آتيتهن كلهن**﴾ أي بالحكم الذي ساويت فيه جميعهن، لأنك إن رجحت بعضاً على بعض، كان ذلك مثار سخط المرجوحة، أما إذا سويت بينهن كلهن، في ذلك، وعلمن أنك تنظر إليهن بنظرة واحدة رضين جميعهن ﴿**والله يعلم ما في قلوبكم**﴾ خطاب عام، لكنه يراد به هنا الرسول وأزواجه، إذا وقع بينهما غضاضة، يوسوس الشيطان في قلوبهن ﴿**وكان الله عليماً**﴾ بما في قلوبكم، لأنه يعلم كل شيء ﴿**حليماً**﴾ يحلم عنكم فيما تنوون وتعملون مما لا يرضاه.

[٥٣] ﴿**لا يحل لك**﴾ يا رسول الله ﴿**النساء من بعد**﴾ هذه الأصناف المذكورة في الآيات المتقدمة ﴿**ولا أن تبدل بهن**﴾ أي بهذه النساء ﴿**من أزواج**﴾ بأن تطلق بعضهن، وتأخذ مكانها امرأة أخرى ـ كما هو ظاهر السياق، وقاله المفسرون ـ ووردت في بعض الروايات أن المراد أن يأخذ مما حرمته الآية في قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)[١][٢] وعلى هذا فالمراد تبديل نوع المحلل بنوع المحرم، لا تبديل الشخص بشخص آخر، وهناك قول آخر ذكره جوامع الجامع، قال: قيل أن

(١) النساء: ٢٤.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٣٦١ .

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٣﴾﴾

التبدل المحرم، هو ما كان يفعل في الجاهلية، يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك، وأبادلك بامرأتي، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه، ويُحكى «أن عيينة بن حصين، دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة من غير استئذان، فقال رسول الله ﷺ: يا عيينة أين الاستئذان؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل قط منذ أدركت، ثم قال: من هذه الجميلة إلى جنبك، فقال ﷺ: هذه عائشة بنت أبي بكر «ولعله قال الرسول ﷺ ذلك خوفاً، من أن يظن به الظنون» قال عيينة: أفلا أنزل لك من أحسن الخلق، فقال ﷺ: قد حرم ذلك، فلما خرج قالت عائشة: من هذا يا رسول الله؟ فقال أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه»[1]! ﴿**ولو أعجبك حسنهن**﴾ بأن توصف المرأة للرسول، فتقع في قلبه لما وصف له من حسنها، وهذا ليس غريباً، فقد جرت العادة أن الأباء، أو من إليهم، يصفون بناتهم أمام العظماء للمشاورة في أمر نكاحهن، أو نحو ذلك ﴿**إلا ما ملكت يمينك**﴾ بأن كانت أمة، فإنها تحل لك، ولعل إتيان هذه الجملة، مع أنها كانت مذكورة سابقاً، لئلا يتوهم، أن «لا يحل لك النساء» قد نسخ ذلك الحكم السابق ﴿**وكان الله على كل شيء رقيباً**﴾ مراقباً محافظاً، فمن خالف له أمراً عاقبه وجازاه بما عمل.

[٥٤] وبمناسبة ذكر الرسول، وبعض أحكامه العائلية، يأتي السياق ليبين بعض الأحكام الخاصة به، وإن كان ذلك أدباً عاماً بالنسبة إلى سائر

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢٣٨ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ

الناس ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم**﴾ ولعل هذا كان بمناسبة دخول عيينة دار الرسول ﷺ بدون الاستئذان، وعلى أي، فدخول دار الرسول بحاجة إلى أن يأذن الرسول ﷺ لكم ﴿**إلى طعام**﴾ أي دخولاً لطعام أضافكم الرسول ﷺ له ﴿**غير ناظرين إناه**﴾ يقال أنى الطعام يأني إذا بلغ النضج في الطبخ، أي غير منتظرين نضجه وطبخه، والمعنى لا تدخلوا بيت الرسول بغير إذن وقبل نضج الطعام انتظاراً لنضجه، فيطول لبثكم ومقامكم عنده ﴿**ولكن إذا دُعيتم فادخلوا**﴾ في وقت الدعوة، لا قبل الوقت، كأن يذهبوا من الصباح انتظاراً لطعام الظهر ﴿**فإذا طعمتم**﴾ أي أكلتم الطعام ﴿**فانتشروا**﴾ أي اخرجوا وتفرقوا، فلا تبقوا بعد الطعام في البيت اعتباطاً ﴿**ولا مستأنسين لحديث**﴾ عطف على «غير ناظرين إناه» أي في حال كونكم لا تبقون بعد الطعام تحدثون ليؤنس بعضكم بعضاً بحديثه ﴿**إن ذلكم**﴾ إشارة إلى ما نهى عنه في هذه الآية، من الدخول بغير استئذان، أو الإسراع في الذهاب قبل نضج الطعام، والجلوس بعد ذلك متحدثين، و «كم» للخطاب ﴿**كان يؤذي النبي**﴾ لأن له أعمالاً تنافي جلوسكم فيتأذى بجلوسكم، كما يتأذى بدخولكم داره بدون الإذن ﴿**فيستحي منكم**﴾ في أن يجابهكم بالإخراج، أو الزجر والنهي ﴿**والله**

لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ

﴿**لا يستحي من الحق**﴾ أي أنه سبحانه لا يترك إظهار الحق حياءً، نقل في المجمع في سبب نزول الآية: «أن رسول الله ﷺ بنى بزينب بنت جحش وأولم عليها، قال أنس: أوْلَم عليها بتمر وسويق، وذبح شاتاً، وبعث إلى أمي أم سليم بحيس في تور من حجارة، فأمرني رسول الله ﷺ، أن أدعوا أصحابه إلى الطعام، فدعوتهم فجعل القوم يجيئون ويأكلون ويخرجون، ثم يأتي القوم، فيأكلون ويخرجون، قلت: يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقال ارفعوا طعامكم، فرفعوا طعامهم، وخرج القوم وبقي ثلاث نفر يتحدثون في البيت، فأطالوا المكث، فقام ﷺ، وقمت معه لكي يخرجوا، فمشى حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية»[1]. أقول: وإن كانت الآية خاصة، إلا أنها عامة المفاد، إذ ما اشتملت عليه أدب رفيع، بالنسبة إلى عدم الدخول بلا استئذان، وعدم الدخول قبل الوقت، وعدم المكث بعد الطعام، ولذا قال بعض العلماء: هذا أدب أدّب الله به الثقلاء ﴿**وإذا سألتموهن**﴾ أي سألتم نساء النبي ﴿**متاعاً**﴾ أي شيئاً تحتاجون إليه ﴿**فاسألوهن من وراء حجاب**﴾ بأن يكون فاصلاً بين الرجل، وبين المرأة المسؤولة، وهذه الآية تفيد وجوب الحجاب، لعدم الخصوصية لنساء النبي ﷺ، وعدم الخصوصية في سؤال المتاع ﴿**ذلكم**﴾ أي السؤال من وراء الحجاب ﴿**أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾ إذ الرؤية مثار الخواطر الشيطانية

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١٧٣ .

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٥﴾

والوساوس النفسية، والمراد الطهارة من الريبة والشك والوسوسة ﴿**وما كان لكم**﴾ ايها المسلمون ﴿**أن تؤذوا رسول الله**﴾ أي لا يحق لكم أذاه بمخالفته أوامره، أو قصد سوءٍ بالنسبة إلى نسائه بعد وفاته، وهذا توطئة وتمهيد لقوله تعالى ﴿**ولا أنْ تنكحوا أزاوجه**﴾ أي زوجات الرسول ﷺ ﴿**من بعده**﴾ أي بعد وفاته ﴿**أبداً**﴾ إلى آخر العمر، فلسن كسائر النساء، إذا انقضت العدة جاز نكاحهن ﴿**إن ذلكم**﴾ أي الإيذاء ونكاح الأزواج بعد وفاته ﴿**كان عند الله عظيماً**﴾ في الإثم والعصيان، فقد ورد أنه لما نزل قوله تعالى (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)[١] غضب طلحة، فقال يحرم محمد علينا نساءه، ويتزوج هو بنسائنا، لئن أمات الله محمداً لنركضن ـ أي نتحركن ـ بين خلاخيل نسائه، كما ركض بين خلاخيل نسائنا، فأنزل الله عز وجل «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله».

[٥٥] ﴿**إن تبدوا**﴾ أي تظهروا أيها المسلمون ﴿**شيئاً**﴾ من هذه المنهيات على لسانكم، بأن تقولوا نتزوج نساء النبي ﷺ ﴿**أو تخفوه**﴾ بأن تقصدوه في صدوركم بدون إظهار ﴿**فإن الله كان بكل شيء عليماً**﴾ يعلم ظواهركم وبواطنكم، وسيجازيكم على ما اقترفتم من الآثام، وقد

---

(١) الأحزاب: ٧ .

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ٥٦﴾

روي أن حكم تحريم زوجات الرسول ﷺ، جرى بعده فيمن لم يمسها الرسول، ولم يدخل بها.

[٥٦] ولما نزل قوله تعالى، «إن سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» قال الآباء والآبناء والأقارب، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ـ يارسول الله؟ ـ فأنزل الله سبحانه ﴿**لا جناح عليهن**﴾ أي لا حرج على نساء النبي ﷺ ﴿**في**﴾ عدم التستر من ﴿**آبائهن ولا أبنائهن**﴾ ويشملان الأجداد والأحفاد ﴿**ولا إخوانهن**﴾ ولعله أعم من الأعمام والأخوال، لأنهم إخوان الآباء والأمهات ﴿**ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن**﴾ فلا بأس لهن أن يراهن هؤلاء الرجال، فيما تعارف رؤيته ﴿**ولا نسائهن**﴾ أي النساء المؤمنات، في قبال اليهودية والنصرانية، والمجوسية، والمشركة، فقد قالوا أنه لا يجوز التكشف لديهن، لأنهن يصفن لأزواجهن ﴿**ولا ما ملكت أيمانهن**﴾ أي الوصائف المملوكات لهن، وإن كن غير مسلمات، فإنهن تحت السيطرة، ولا مجال لهن لينقلن للكفار محاسن نساء النبي ﷺ ﴿**واتقين**﴾ يا نساء النبي ﴿**الله**﴾ بترك معاصيه، والإتيان بطاعته ﴿**إن الله كان على كل شيء شهيداً**﴾ أي شاهد لايغيب عنه شيء، فمن أطاع أو عصى علم بما فعل.

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ

[٥٧] ولما كان الكلام حول تعظيم النبي وتوقيره، وبعض أحكامه يأتي السياق ليبين تعظيم الله سبحانه له والذي هو فوق كل تعظيم ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾ والصلاة بمعنى العطف واللطف، ومن المعلوم أن صلاة الله على الرسول، رحمته ولطفه به، كما أن صلاة الملائكة عطفها وطلب رحمتها من الله له ﴿**يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه**﴾ باللفظ والعمل ﴿**وسلموا**﴾ عليه ﴿**تسليماً**﴾ بلفظ السلام، والتسليم لأوامره، سُئل الكاظم عليه السلام، ما معنى صلاة الله، وصلاة ملائكته، وصلاة المؤمن؟ قال: «صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له»[١]، وسُئل الصادق عليه السلام كيف نصلي على محمد وآله؟ قال: «تقولون صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»[٢]، أقول: والظاهر كفاية الصيغ المعهودة اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم عليهم أو صلى الله عليه وآله وسلم، أو الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وعلى آلك الطاهرين، وأمثالها.

[٥٨] الناس مأمورون بالصلاة والسلام على الرسول، فما هو حال من يؤذي الرسول؟ ﴿**إن الذين يؤذون الله**﴾ بترك أوامره، والسعي في إطفاء نوره، وهدم أحكامه، وإيذاء أوليائه، فإن الله سبحانه منزه عن أن

---

(١) تأويل الآيات: ص٤٥١ .

(٢) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٩٦ .

وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا

يؤذى ولكن هذا من باب التشبيه ﴿**ورسوله**﴾ وأذية الرسول، إما في جهة التشريع، كما لو سعى شخص في إبطال أحكام الرسول، وإما في جهته الشخصية كما يؤذي بعض الناس بعضاً ﴿**لعنهم الله في الدنيا والآخرة**﴾ بأن بعّدهم عن الخير، وعذّبهم؛ أما في الدنيا فإنه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)[١] وأما في الآخرة، فإنه سبحانه يظهر لعنهم والبراءة منهم ﴿**وأعدّ لهم**﴾ في الآخرة ﴿**عذاباً مهيناً**﴾ يهينه ويذله عوض ما كان يُؤذي، وقد ورد في علي وفاطمة عليهما السلام «إن من آذاهما فقد آذى الرسول، ومن آذى الرسول، فقد آذى الله»[٢].

[٥٩] ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات**﴾ باعتبار كل واحد، كما قالوا في البلاغة: إذا قيل باع القوم أمتعتهم بالقوم أريد به أن كل واحد باع متاعه بواحد منهم، والأذية أعم من اللسانية والعملية ﴿**بغير ما اكتسبوا**﴾ أي من غير أن يعمل المؤمنون والمؤمنات عملاً يستحقون به الأذى، كما لو عملوا ما يستحق الجلد، أو الاغتياب، أو الإرداع ﴿**فقد احتملوا**﴾ أي الذين يؤذون ﴿**بهتاناً**﴾ البهتان هو الكذب على الغير، ولعل تسمية الإيذاء بهتاناً باعتبار، أن الإيذاء يظهر منه

---

(١) طه: ١٢٥ .

(٢) راجع بحار الأنوار: ج١٧ ص٢٧ ،

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦٠﴾

الاستحقاق لمن يؤذي، والحال أنه غير مستحق ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ أي عصياناً ظاهراً، ومن هذا يظهر أنه كان في المدينة من يفعل ذلك بالنسبة إلى المؤمنين، وهذا غالباً في كل أمة نامية، فإن هناك أفراد يتولون أذاهم منهم ومن غيرهم.

[٦٠] وبمناسبة تقدم الحديث عن النساء والتنصيص على حجاب زوجات الرسول في قوله «وإن سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» يأتي السياق لنص عام على وجوب التحجب على كل امرأة ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك**﴾ أي نسائك ﴿**وبناتك**﴾ فقد كانت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام ولعل بعض بناته الأخر، كانت في الحياة ﴿**ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن**﴾ جمع جلباب، وهو ما كانت المرأة تجعل على رأسها، فقد أمرن، بأن يقرّبن الجلبات نحو أنفسهن، وهو الوجه والرقبة والصدر، فإن الجلباب، يُدنى من هذه المواضع ﴿**ذلك**﴾ الإدناء للجلباب ليكون لهن زيّ خاص ﴿**أدنى**﴾ أي أقرب إلى ﴿**أن يعرفن**﴾ بأنهن عفائف نجيبات ﴿**فلا يؤذين**﴾ فإن عادة الفساق، دائماً، حتى في زماننا هذا أن يتعرضوا إلى المرأة المتبذلة بظهور وجهها وشعرها، أما إذا كانت متسترة عُرفت بالستر والنجابة، ولم يتعرض لها الفساق ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ يغفر ما يصدر منهن، بدون تعهد وقصد، فإن المرأة مهما كانت محجبة، لا بد وأن يظهر بعض مفاتنها في نادر الأوقات ﴿**رحيماً**﴾ يتفضل بالرحمة ـ فوق

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ

الغفران ـ على المطيعات، وإنما قال «من جلابيبهن» لأن المرأة ترخي بعض جلبابها، أقول: قد ذكر بعض المفسرين كلاماً حول كون الآية، إنما هي بالنسبة إلى الحرائر، لا الإماء، لكن إطلاقها، وحكمة الإسلام في الحجاب، بأن لا تمازح المرأة مهما كانت، ينفيان هذا التفصيل الذي لم يعلم وجهه، ثم أن الظاهر من الآيات والروايات، لزوم الحجاب بستر الوجه، وقد كانت سيرة المسلمات، منذ زمانه ﷺ على هذا، ولذا استثنى وجه المرأة حالة الإحرام، إلى غير ذلك من الشواهد، حتى جاء الغربيون وانهزم أمامهم بعض المسلمين الأغراء، فقالوا: بأن الحجاب موجب لخنق المرأة، وعدم ازدهار الحياة، كل ذلك لإشباع الشهوات الدنيوية، وهناك وجدوا عملاء ينفذون الأوامر بالحديد والنار، حتى وقعت المرأة المسلمة ضحية هذه الأهواء، ولم تنج من هذه الكوارث، إلا زمرة قليلة من الصالحات، والله غالب على أمره.

[٦١] ثم هدد سبحانه الذين يؤذون الرسول والمؤمنين، والذين كانوا يتعرضون للمؤمنات بأنهم إن لم يتركوا أعمالهم، أمر الرسول بتأديبهم **﴿لئن لم ينته المنافقون﴾** أي لئن لم يمتنع المنافقون عن الإيذاء والتعرض **﴿والذين في قلوبهم مرض﴾** وهو ضعف إيمانٍ، يسبب أن يخالف بعض الأوامر، وإن لم يكن منافقاً، فمثلاً قد يكون الشخص يشرب الخمر، لأنه منافق، لا يعتقد بالرسول إطلاقاً، وقد يكون معتقداً بالرسول، لكنه يجد الشرب، فيشرب لا النفاق، بل لعدم مبالاة **﴿والمرجفون في المدينة﴾** يقال أرجف إذا دبّر المكائد، ونشر

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾

الأكاذيب، لأنه يوجب بعمله تزلزل الناس ورجفهم، والمرجف يمكن أن يكون غير الأولين، باعتبار أنه يحب نشر الأخبار، وتتبع الآثار، كما يشاهد الإنسان في كل مجتمع هذه الألوان الثلاثة من الناس ﴿**لنغرينك**﴾ يا رسول الله ﴿**بهم**﴾ والإغراء تسليط الشخص على غيره ليؤذيه ويهينه ويعاقبه، يقال أغرت الحكومة الشرطة على فلان وبفلان، إذا أمرتهم بمعاقبته ومطاردته، والمراد نسلطك يا رسول الله عليهم، ونأذن لك في عقابهم ﴿**ثم**﴾ إذا أغريناك بهم، لم يطيقوا العقاب، وصاروا مضطرين للهروب من المدينة ﴿**لا يجاورونك فيها**﴾ أي لايبقون بجوارك في المدينة ﴿**إلا قليلاً**﴾ أي زماناً قليلاً.

[٦٢] ثم بيّن بعض أنواع الإغراء بقوله ﴿**ملعونين**﴾ أي في حال كونهم يُلعنون ويُطردون ﴿**أينما ثقفوا**﴾ أي في كل مكان وجدوا ﴿**أخذوا وقتلوا تقتيلاً**﴾ فلا يبقى أحد منهم سالماً من الطرد والقتل، والإتيان بباب التفصيل ـ الدال على التكثير ـ باعتبار قتلهم جميعاً، وإبادتهم كل فرد فرد.

[٦٣] ﴿**سنة الله**﴾ منصوب على المصدر أي سن الله ذلك سنة، والمراد أن أخذ المنافقين المرجفين وأمثالهم من سنن الله وطرائقه ﴿**في الذين خلوا من قبل**﴾ أي مضوا سابقاً فقد كان سبحانه يأمر الأنبياء بمطاردة المنافقين والمرجفين ﴿**ولن تجد**﴾ يا رسول الله ﴿**لسنة الله تبديلاً**﴾ فإنه سبحانه

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٦﴾

يسنّ الطريقة الصالحة للناس، ويستمر عليها فلا يغيرها، ولا يبدلها.

[٦٤] وإذ بيّن سبحانه، ما أعد للكافرين والمنافقين، الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين في الدنيا من اللعنة والطرد والقتل، عطف السياق، نحو ما أُعدّ لهم في الآخرة، مع ذكر ما يرتبط بذلك من وقت القيامة، فإنها لما كانت بعيدة عن الأذهان، كانوا يكثرون السؤال عنها، فقال سبحانه ﴿**يسألك**﴾ يا رسول الله ﴿**الناس عن الساعة**﴾ أي القيامة؟ ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**إنما علمها**﴾ أي العلم بوقت وقوعها ﴿**عند الله**﴾ سبحانه، فهو وحده يعلم وقتها ﴿**وما يدريك**﴾ أيُّ شيء يدريك ويعلمك يا رسول الله عن وقت قيامها، وهذا كناية عن أنك لا تدري﴿**لعل الساعة تكون قريباً**﴾ فإن الشيء المجهول وقته يحتمل قربه وبعده، وهذا تسلية للرسول ﷺ كما هو تهديد للكفار.

[٦٥] ﴿**إن الله لعن الكافرين**﴾ أي بعدهم عن الخير، فإن اللعن بمعنى الطرد، والتبعيد عن الخير ﴿**وأعد لهم**﴾ في الآخرة ﴿**سعيراً**﴾ ناراً تسعر وتلتهب.

[٦٦] في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في النار، فلا يزولون عنها، ولا تزول عنهم ﴿**أبداً**﴾ دائم الزمان ﴿**لا يجدون ولياً**﴾ يلي أمورهم حتى يخلّصهم من النار ﴿**ولا نصيراً**﴾ ينصرهم على الله سبحانه وعلى عذابه.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (٦٧) وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٨) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٩)

[٦٧] ذلك الإعداد والخلود إنما هو، في ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار**﴾ التقليب، تصريف الشيء في الجهات، فإن أهل النار ينقلون وجوههم في الجهات الست، تخلصاً من الحرّ وتطلباً للنجاة، كالذي يقع في مشكلة كيف يقلب وجهه هنا وهناك ليجد ملاذاً ومعاذاً ﴿**يقولون**﴾ بتأسف وتمني ﴿**يا ليتنا أطعنا الله**﴾ فيما أمرنا ﴿**وأطعنا الرسولا**﴾ في الدنيا حتى لا نبتلي بهذا العذاب المقيم.

[٦٨] ﴿**وقالوا**﴾ أي الأتباع الذين اتبعوا رؤساءهم الكافرين، يا ﴿**ربنا إنا أطعنا**﴾ في الكفر والعصيان ﴿**سادتنا**﴾ جمع سيد، وهو كبير القوم ﴿**وكبراءنا**﴾ جمع كبير، وكأن السيّد أجلّ قدراً من الكبير، أو المراد بالكبير، الأكبر سناً، وبالسيد الأعلى رتبة ﴿**فأضلونا السبيلا**﴾ أي حرّفوا بنا عن الطريق.

[٦٩] ﴿**ربنا آتهم**﴾ أي اجعل لهم ﴿**ضعفين من العذاب**﴾ أي نصيبين نصيباً لضلالهم، ونصيباً لإضلالهم إيانا، وهم يريدون بذلك الانتقام منهم، حيث أوقعوهم في هذه المشكلة العظيمة ﴿**والعنهم لعناً كبيراً**﴾ أي اطردهم من رحمتك طرداً كبيراً حتى يبتعدوا عن رضاك بُعداً زائداً، وهذا بالنسبة إلى العذاب الروحي، والأول بالنسبة إلى العذاب الجسمي.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ

---

[٧٠] وحيث تقدم أذى بعض المسلمين للرسول كما قال سبحانه «إن ذلكم كان يؤذي النبي» ﷺ عطف السياق عليهم ناهياً وموذّباً في مثالٍ وقصة عن الأمم السابقة، ليكون أدخل في الذهن ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا**﴾ في إيذائكم للرسول ﷺ ﴿**كالذين آذوا موسى**﴾ النبي عليه السلام ﴿**فبرأه الله مما قالوا**﴾ أي أظهر الله براءته عليه السلام، مما قال فيه بنو إسرائيل على وجه الإيذاء له ﴿**وكان**﴾ موسى ﴿**عند الله وجيهاً**﴾ أي ذا جاه وعظمة، فلم يكن يتركه نهب أذى بني إسرائيل، فقد ورد عن علي عليه السلام «أن موسى وهارون صعدا الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل أنت قتلته، فأمر الله الملائكة فحملته، حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرفوا أنه قد مات، وبرأه الله من ذلك»[١].

[٧١] ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ خافوا عقابه، وامتثلوا أوامره ونواهيه ﴿**وقولوا قولاً سديداً**﴾ أي تكلموا بالصواب، لا بالإيذاء، والإفساد.

[٧٢] فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿**يصلح لكم**﴾ الله ﴿**أعمالكم**﴾ باللطف عليكم حتى تستقيموا، فإن الإنسان إذا واظب مدة على الطاعة، وضبط النفس، استقامت أعماله عن الانحراف والزيغ والفساد ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم**﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص٩ .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٣﴾

السابقة، فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ فيما يأمران به وينهيان عنه ﴿**فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ أي أفلح أعظم أقسام الفلاح، فإنه يفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

[٧٣] إن الإيمان أمانة في عنق الإنسان، يجب عليه أن يردّ هذه الأمانة سالمة، بلا أن يشوبها، بخيانة الكفر والعصيان، ولقد كانت هذه الأمانة ثقيلة، بحيث أن أضخم المخلوقات لا تتحمل أن تقبلها، أما الإنسان الضعيف، فقد قبلها، لكنه يخون بها لظلمه وجهله ﴿**إنا عرضنا الأمانة**﴾ أمانة الإيمان ﴿**على السماوات والأرض والجبال**﴾ ليقبلوها، بأن توضع عندها أمانة الإيمان فيتحفظون عليها ﴿**فأبَيْنَ**﴾ هذه الأشياء وامتنعن ﴿**أن يحملنها**﴾ أي يحملن الأمانة ويقبلنها ﴿**وأشفقن منها**﴾ أي خفن إن قبلوا الأمانة أن يخونوا فيها ﴿**وحملها الإنسان**﴾ قبلها لما عُرضت عليه لكنه هل يؤدي الأمانة كما قبل؟ كلا ﴿**إنه**﴾ أي أن الإنسان ﴿**كان ظلوماً**﴾ كثير الظلم ﴿**جهولاً**﴾ كثير الجهل، فتارة يخون فيها لجهله، وأخرى يخون فيها لعصيانه، وهذه الآية كناية عن صعوبة التحفظ على الإيمان، فقد اعتاد البلغاء أن يشبهوا الأشياء المعنوية بالأمور الحسية، للتقريب من الذهن، قالت فاطمة عليها السلام.

صبت عليّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا[1]

(١) بحار الأنوار: ج٧٩ ص١٠٦.

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ

وقال الشاعر:

ولـو أن مـا بـي مـن شـديـد رزيـة
علـى جبـل قـد سـاخ فـي الأرض ذاهـبـا

وقال:

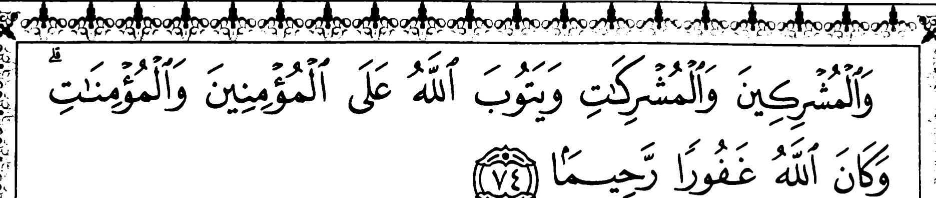
لـو كـان فـي الـجـبـل الأصـم سـروره
رقـصـت لـه أحـجـاره الـبُـرش

ويحتمل بعيداً أن يكون الكلام على الحقيقة ـ لا المجاز ـ بأن عرضت الأمانة على هذه الأشياء، هل يقبلنها؟ فأبين، قال في الصافي: المراد بالأمانة التكليف، وبعرضها عليهن النظر إلى استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً، لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية، وهو وصف للجنس باعتبار الأغلب[1]، أقول: وعلى هذا المعنى، فما ورد في الأحاديث من كونها ولاية علي عليه السلام، أو نحوها، فالمراد بيان بعض المصاديق.

[٧٤] وإنما عرض سبحانه على الإنسان ليقبلها ـ فإن حمل الإنسان لها ـ لم يكن إلا بعد العرض والقبول، و ﴿لـ﴾ يجري الامتحان، ويصح الثواب والعقاب، كما يقول مدير المدرسة: إنما جعلت الامتحان لأرفع الناجحين وأطرد الراسبين ﴿**يعذب الله المنافقين والمنافقات**﴾ وإنما قدمهم على المشركين، لأن الكلام فيهم، حيث كانوا يؤذون

---

(١) تفسير الصافي: ج٤ ص٢٠٦ .



الرسول ويرجفون ﴿والمشركين والمشركات﴾ الذين ضيعوا الأمانة بالكفر والعصيان ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ فإنهم حين كانوا كفاراً ـ قبل الإسلام ـ كان الله معرضاً عنهم، فإذا قبلوا الإيمان، وقاموا بشرائطه تاب الله ـ أي رجع سبحانه بلطفه ـ عليهم ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ للذنوب ﴿**رحيماً**﴾ يتفضل على المؤمنين بسابغ نعمه، علاوة على غفرانه ذنوبهم.



سورة سبأ

مكيّة/آياتها (٥٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «سبأ» وقصة القوم الذين كانوا ساكنين فيها، وهي بلدة في يمن، وهي كسائر السور المكية ـ غالباً ـ مشتملة على أصول العقيدة، وبعض القصص التي تقوي هذا الجانب، ولما ختم الله سبحانه سورة الأحزاب بعاقبة الكافر والمؤمن، بدأ هذه السورة، بأن له تعالى، ما في الكون ابتداءً وإعادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الله سبحانه المتجمع لجميع الكمالات، فإن الله علم للذات الواجب وجوده المتجمع لجميع الكمالات، وهذا هو سر تخصيص اسم الله بالتقديم، والاستعانة باسمه، لا به، تعظيماً وتأدباً، كأن الله سبحانه أجل من أن يستعان به، بل اللازم أن يستعان باسمه، وذكر صفة الرحمة لأنها أكثر الصفات احتياجاً، كما قال سبحانه «ولذلك ـ أي للرحم ـ خلقهم».

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٢﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

[٢] ﴿**الحمد لله**﴾ أي أن جنس الحمد له سبحانه، إذ جميع المحامد راجعة إليه ﴿**الذي له ما في السماوات وما في الأرض**﴾ «له» بالخلق، والملك والتربية، وغيرها، والمراد الظرف والمظروف، وإنما يذكر أحدهما تغليباً واختصاراً ﴿**وله الحمد في الآخرة**﴾ كما له الحمد في الأولى، والمعنى أنه يستحق الحمد هنا وهناك، لما يولي عباده من الجميل في الدارين، ولذا يقول أهل الجنة «الحمد لله الذي هدانا لهذا» و «الحمد لله الذي صدقنا وعده»[1] ﴿**وهو الحكيم**﴾ في جميع أفعاله، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها تكويناً وتشريعاً، فمن يصنع عبثاً أو يأمر عبثاً لم يكن حكيماً ﴿**الخبير**﴾ العالم المطلع على الأشياء، فكل ما يعمل إنما هو عن علم وحكمة.

[٣] ﴿**يعلم**﴾ سبحانه ﴿**ما يلج في الأرض**﴾ الولوج الدخول، أي يعلم ما يدخل في الأرض، من مطر، أو كنز أو ميت، أو حبة، أو ماء، أو مائع، أو غيرها ﴿**وما يخرج منها**﴾ من زرع، أو عين، أو نبات، أو جواهر، أو حيوان، أو غيرها ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ من مطر أو رزق، أو ملك أو شيطان، أو جسم كالنيازك أو طير، أو غيرها ﴿**وما يعرج**﴾ أي يصعد ﴿**فيها**﴾ أي في السماء من ملك، أو شيطان، أو طير، أو عمل، أو نحوها، فإن المراد بالسماء جهة العلو ﴿**وهو**

(١) مجمع البيان: ج٨ ص١٩٢ .

ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾

الرحيم﴾ بعباده، وسائر خلقه ﴿**الغفور﴾** يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم.

[٤] فالكون إذن كله بيده، ورهن إشارته، وبقدرته سبحانه، جعل المعاد، كما بقدرته خلق الخلق ﴿**و**﴾ مع ذلك يرى الناس من ابتداء الخلقة ﴿**قال الذين كفروا**﴾ وأنكروا البعث ﴿**لا تأتينا الساعة**﴾ من باب السالبة بانتفاء الموضوع، يعني لا قيامة أصلاً حتى تأتينا ﴿**قل**﴾ لهم يا رسول الله ﴿**بلى**﴾ تأتيكم ﴿**وربي**﴾ أي وحق الله الذي أوجدني وخلقني ﴿**لتأتينكم**﴾ القيامة بكل تأكيد، وليس الحاكم هناك كالحكام هنا أناساً لايعلمون ما صدر من المحكومين، بل الحاكم هناك ﴿**عالم الغيب**﴾ يعلم كل ما غاب عن الحواس، فكيف بالأشياء الظاهرة البارزة؟ ﴿**لايعزب عنه**﴾ الغروب، كالغروب لفظاً ومعنى، أي لا يفوته ﴿**مثقال ذرة**﴾ أي ما كان في الثقل بقدر الذرة، وهي الهباءة، التي ترى إذا دخلت الشمس في مكان مظلم من كوّةٍ صغيرة ﴿**في السماوات ولا في الأرض**﴾ فإنه عالم بكل ذلك ﴿**ولا أصغر من ذلك**﴾ من مثقال ذرة ﴿**ولا أكبر**﴾ منه ﴿**إلا في كتاب مبين**﴾ أي كتاب واضح لديه سبحانه، وهذا كناية عن علمه بذلك كله مع تفنن في تعبير العلم بـ ـ لا يغرب ـ مرة، وبـ ـ في كتاب ـ أخرى، والمراد بالكتاب إما اللوح، أو علمه سبحانه تشبيهاً، أو ما يكتبه الملائكة الحفظة.

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ

[٥] وإنما تأتي الساعة، وتقوم القيامة ﴿**ليجزي**﴾ الله ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ بما يستحقونه من الإيمان بالله، والعمل الصالح حسب أمره ﴿**أولئك لهم مغفرة**﴾ لذنوبهم، و «مغفرة» مصدر ميمي بمعنى الغفران ﴿**ورزق كريم**﴾ والمراد بالرزق كل نعمة يُنعَم الإنسان بها من جنة، ومأكل وغيرها، والمراد بالكريم كونه خالياً عن الفساد، والأذية، أو أنه مع كرامة وتعظيم.

[٦] وليجزي الذين كفروا وعملوا السيئات بما يستحقونه من العذاب ﴿**والذين سعوا في آياتنا**﴾ أي عملوا بجهدهم في إبطال آياتنا وحججنا ﴿**معاجزين**﴾ في حال كونهم مريدين أن يعجزونا، فلا نتمكن من إظهار الدين ونشره في الآفاق، وإنما جيء من باب المفاعلة، لأن كلاً من الطرفين، يريد تعجيز الآخر عن تنفيذ مبدئه ومرامه ﴿**أولئك لهم عذاب من رجز**﴾ وهو العذاب السيئ ﴿**أليم**﴾ مؤلم موجع.

[٧] إن الكفار يرون أن القرآن باطل وأن الرسول ليس بحق، ولذا يسعون لإحباط عمله وتعجيزه عن القيام بمهمته ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم**﴾ أي أُعطوا العلم بالله، وبالحقائق، والمراد العلماء الذين يدركون الأشياء ﴿**الذي أنزل إليك**﴾ مفعول «يرى» والمراد به «القرآن» ﴿**من ربك**﴾ متعلق بالذي، ومن تتمة المفعول الأول ﴿**هو الحق**﴾ مفعول

وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٨﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ

ثان، ليرى أي أنهم يرون ويعلمون، أن القرآن حق من جانب الله سبحانه، وليس مختلفاً، كما يقول الكفار ﴿و﴾ يرون أنه ﴿**يهدي**﴾ ويرشد ﴿**إلى صراط**﴾ الله ﴿**العزيز**﴾ الغالب سلطانه ﴿**الحميد**﴾ الذي هو محمود في جميع أفعاله، فهو من قبل مالك السماوات والأرض، وإنه للصلاح والرشاد، إذ منزله الله الحميد الذي يستحق الحمد بكل ما يفعل ـ لحسنه وكونه صلاحاً ـ .

[٨] لقد ألمع إلى التوحيد والرسالة والقرآن، ثم جاء دور المعاد ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ بالله وأنكروا المعاد، قال بعضهم لبعض ﴿**هل ندلكم**﴾ ونرشدكم ونُريكم ﴿**على رجل**﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿**ينبئكم**﴾ ويخبركم أنه ﴿**إذا مزقتم كل ممزق**﴾ أي متم وصرتم أجزاءً ممزقة مقطعة بعضها عن بعض، بجميع أنواع التمزيق ﴿**إنكم لفي خلق جديد**﴾ أي يقول لكم إنكم تخلقون بهذه الصورة من جديد، حتى تكونوا كما كنتم؟ وقد كان هذا استفهاماً استهزائياً، يريدون بذلك استبعاد الأمر.

[٩] ثم أخذوا يرددون بين أنفسهم، وينسبون الرسول ﷺ إلى هذه الأمور ﴿**أفترى على الله كذباً**﴾ أي هل أنه في كلامه هذا مفتري على الله، فالله سبحانه لم يبعثه، ولم يقل له ذلك، وإنما هو ينسب إلى الله ذلك كذباً؟ ﴿**أم به جنة**﴾ أي جنون، ويسمى زوال العقل جنوناً لأن المرض يستر العقل؟ ومرادهم أنه لا يخلو أن يكون إما عاقل كاذب، أو مجنون

بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

لا يشعر ما يقول، ثم رد الله سبحانه عليهم بأنه صادق عاقل، فليس الأمر كما قالوا ﴿**بل الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ المتعجبون من قول الرسول ﴿**في العذاب**﴾ هناك ﴿**والضلال البعيد**﴾ هنا، فقد أثبت لهم أمرين، كما أنهم أثبتوا للرسول أحد أمرين، والمراد أن ضلالهم وانحرافهم عن الطريق بعيداً جداً، لا كالعاصي الذي هو ضال، ولكنه قريب إلى الطريق.

[١٠] إنهم كيف يستبعدون المعاد، وهم يرون الخلق العظيم أمامهم من قدرة الله، وهم يعلمون أنه سبحانه إن يشأ أن يعذبهم لتمكن من ذلك؟ فمن له قدرة على ذلك، كيف لا يكون له اقتدار على إعادة الأجساد؟ ﴿**أفلم يروا**﴾ هؤلاء الكفار، والاستفهام إنكاري ﴿**إلى ما بين أيديهم**﴾ أي ما في قدامهم ﴿**وما خلفهم من السماء والأرض**﴾ المحيطة بهم، والإتيان بهذين الجانبين كناية عن الإحاطة، فإن الإنسان مهما نظر أمامه، أو خلفه رأى السماء الرفيعة، والأرض المنبسطة ﴿**إن نشأ نخسف بهم الأرض**﴾ بأن تفور الأرض، وهم عليها في الأعماق ﴿**أو نسقط عليهم كسفاً**﴾ أي قطعاً، جمع كسفة بمعنى القطعة، أي نسقط عليهم قطعات ﴿**من السماء**﴾ لتهلكهم، فإن الأنجم أراضي كبيرة وسيعة ربما بلغت بعضها أكثر من مليون مرة

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾﴾

كبراً من الأرض، فإذا شاء سبحانه أسقط على البشر قطعاً منها حتى تهلكهم ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي يرون من السماء والأرض، وما يعلمون من قدرتنا على إهلاكهم بالخسف أو الإسقاط ﴿**لآية**﴾ دليلاً واضحاً على قدرة الله سبحانه على بعث الإنسان بعد موته ﴿**لكل عبد منيب**﴾ قد أناب ـ أي رجع ـ إلى الله سبحانه عن كفره وعصيانه، فإنه هو الذي يستفيد بهذه الآية، أما الكافر العاصي، فلا يستفيد منها، بل يزداد عناداً وعتواً.

[١١] وكيف ينكر هؤلاء قدرتنا، وقد كان لبعض عبيدنا قدرة هائلة، فداود كان يتصرف في الجبال والحديد، وسليمان كان يتصرف في الهواء ويسخر الجن؟ ولعل الأمر كان معروفاً لدى كفار مكة، بواسطة إخبار أهل الكتاب لهم، فكان من الممكن الاستدلال لعظيم القدرة، بما يصدر من هؤلاء الأنبياء العظام ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**داود**﴾ النبي عليه السلام ﴿**منا**﴾ من طرفنا، لا بكسب كسبه أو علم يعلمه ﴿**فضلاً**﴾ زيادة على سائر الناس من الإنعام والإكرام، فقد قلنا للجبال ﴿**يا جبال أوبي معه**﴾ «آب» بمعنى رجع، أي ارجّعي صوت التسبيح مع داود، فكان إذا سبّح عليه السلام، سبّحت الجبال معه ﴿**والطير**﴾ أي يا طير أرجع مع داود في التسبيح، فقد كان داود عليه السلام، إذا مرّ بالبراري يقرأ الزبور، وتسبح الجبال والطير معه، والوحوش، وإنما قال «أوّبي» لأنها كانت كالطفل الذي يُرجع الصوت بعد سماعه ﴿**وألنا**﴾ من ألانه ﴿**له الحديد**﴾ أي كان الحديد ليّناً في يده كالشمع، فكان يعمل منه الدروع.

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ

[١٢] وقد قلنا لداود عليه السلام ﴿**أن اعمل**﴾ بالحديد دروعاً ﴿**سابغات**﴾ جمع سابغة، بمعنى التامة الوسيعة، ومنه سبوغ النعمة بمعنى وسعتها ﴿**وقدّر في السرد**﴾ أي عدّل في نسج الدروع، فإن السرد هو نسج الدرع مأخوذ من سرد في الكلام إذا تابع بعض جمله بعضاً، والمراد بالتقدير جعل حَلَق الدرع متناسبة بقدر وشبهٍ، فلا تكون بعضها وسيعة، وبعضها ضيقة، روي عن الصادق عليه السلام: «أن الله أوحى إلى داود، نعم العبد أنت، إلا أنك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً، فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة وستين درعاً، فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً، فاستغنى عن بيت المال»[1] ﴿**واعملوا**﴾ خطاب لداود وآله ﴿**صالحاً**﴾ أي عملاً صالحاً، والمراد به الجنس ﴿**إني بما تعملون بصير**﴾ أرى أعمالكم فأجازيكم عليها.

[١٣] ﴿**و**﴾ سخرنا ﴿**لسليمان**﴾ بن داود عليه السلام ﴿**الريح**﴾ فكان يجلس على بساط، فتحمله الريح، فإن الشيء إنما يسقط، لأن الهواء والريح تنخرق من تحته، أما كبت الهواء بعضه في بعض كالهواء المكبوس في الزق، لم تنخرق حتى يسقط ما يعلوها ﴿**غدوها**﴾ أي حركه الريح في الغدوة، وهو الصباح ﴿**شهر**﴾ فإذا تحركت بسليمان صباحاً، سارت به مقدار ما يسير الإنسان في مدة شهر هلالي ﴿**ورواحها شهر**﴾ أي

(١) تهذيب الأحكام: ج٦ ص٣٢٦ .

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ﴾

وكانت تسير بسليمان عصراً، مقدار شهر من الزمان، فكانت في كل يوم تسير مقدار شهرين ﴿**وأسلنا**﴾ من الإسالة بمعنى الإذابة، حتى يكون للشيء سيلان كالمائعات ﴿**له**﴾ أي لسليمان عليه السلام ﴿**عين القطر**﴾ أي أذبنا له عين النحاس، والمراد بالعين معدنه حتى يتمكن من استعماله في الظروف والأواني، وما أشبه من الأشياء النحاسية ﴿**و**﴾ سخرنا لسليمان عليه السلام ﴿**من الجن من يعمل بين يديه**﴾ كالعبد المطيع ﴿**بإذن ربه**﴾ فقد أمر الله سبحانه الجن، أن تكون مسخرة بأمر سليمان تعمل في حوائجه ﴿**ومن يزغ منهم**﴾ من زاغ إذا انحرف وعصى، أي من كان يعصي من الجن ﴿**عن أمرنا**﴾ الذي أمرناهم به من إطاعة سليمان، فلم يكن يطيعه فيما يأمر ﴿**نذقه**﴾ أي نذق ذلك الجن العاصي ﴿**من عذاب السعير**﴾ أي عذاب الدنيا، بأن كان سليمان يؤدبه، وسمي سعيراً تشبيهاً، أو من عذاب النار في الآخرة، وسمي سعيراً، لاستعار النار واشتعالها.

[١٤] ﴿**يعملون**﴾ أي الجن ﴿**له**﴾ أي لسليمان عليه السلام ﴿**ما يشاء**﴾ صنعه وعمله ﴿**من محاريب**﴾ جمع محراب، ولعل المراد بها المساجد، وإنما سمي محراباً، لأنه محل المحاربة مع الشيطان والنفس ﴿**وتماثيل**﴾ جمع تمثال، وهو الشيء المصنوع، من معدن، أو طين، أو حجر، أو خشب، شبه شيء آخر، كتماثيل القصور والأشجار والأنهار وغيرها، قال الصادق عليه السلام: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء، ولكنها

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٤﴾

الشجر وشبهه»[١] ﴿**وجفان**﴾ جمع جفنة، وهي جفنة الطعام ﴿**كالجواب**﴾ أصله «الجوابي» جمع «جابية» كالروابي جمع رابية، والمراد بها الحياض الكبار، وسمى الحوض جابية لأنها تجمع فيها الماء، ومنه يسمى الذي يجمع الضرائب والأموال «جابي» وإنما كانوا يصنعون له مثل هذه الظروف الكبار، حتى تصلح لطعام جيش سليمان عليه السلام، وقد قال بعض: أنه كان يجتمع حول كل جفنة ألف رجل يأكلون منها ﴿**وقدور**﴾ جمع قدر، وهو ما يطبخ فيه الطعام ﴿**راسيات**﴾ جمع راسية بمعنى الثابتة في الأرض، فإن القدر الكبير، الذي يراد دوام الطبخ فيه، يبنى في الأرض، حتى لا يزول، ولا يتحرك، وقلنا لسليمان، وسائر أهل بيته ﴿**اعملوا آل داود**﴾ أي يا آل داود ﴿**شكراً**﴾ فإن الشكر قد يكون بالقلب، وهو أن يعترف الإنسان في قلبه، بأن الإحسان من الله سبحانه، وقد يكون باللسان؛ كأن يقول «الشكر لله» وقد يكون بالعمل بأن يصلي ويصوم، ويأتي، بسائر الواجبات، ويترك سائر المحرمات، فإن الشكر هو المظهر للجميل الاختياري، الذي يأتي به أحد تجاه الإنسان ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ «الشكور» صفة مشبهة، بمعنى من تكرر منه الشكر، أي أن العباد الشاكرين لله، فيما أنعم عليهم قليلون، وكأن الإتيان بهذه الجملة لتأكيد أن يشكروا، فإن الإنسان إذا علم قلة من على شاكلته في أمر قوي عزمه للعمل أكثر ممن يعلم كثرة أعوانه وأمثاله.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٧٤ .

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٥﴾﴾

[١٥] وقد استمر سليمان في ذلك الجلال والملك، حتى جاءه الموت ﴿**فلما قضينا**﴾ أي حكمنا ﴿**عليه**﴾ أي على سليمان عليه السلام ﴿**الموت**﴾ كان قد اتكى على عصاه في قبة، وهو ينظر إلى الجن كيف يصنعون له، إذ حانت منه التفاتة، فإذا هو برجل معه في القبة، ففزع منه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا، ولا أهاب الملوك، أنا ملك الموت، فقبض روحه، وهو متكئ على عصاه، فمكثت الجن، تدأب في العمل، ولما كانوا رأوا من سليمان العجائب، ظنوا أنه واقف، ولكنه لا يتحرك لحكمة وعلة، حتى بعث الله عز وجل الأرضة، فـ ﴿**ما دلهم**﴾ أي أرشدهم وأعلمهم ﴿**على موته**﴾ أي موت سليمان عليه السلام ﴿**إلاّ دابة الأرض**﴾ أي الأرضة، فأخذت ﴿**تأكل منسأته**﴾ وتنخر فيها، فوقع سليمان على الأرض، وقد كان آصف وصيه يُدبّر أمر الملك في مدة موته واتكائه ﴿**فلما خر**﴾ أي فلما سقط سليمان، بعد ما وهت عصاه، بفعل الأرضة فتكسرت، لثقل جسم سليمان عليها ﴿**تبينت الجن**﴾ أي علمت الأجنة، وإنما أُوتي بالفعل مونثاً، باعتبار أن المراد بـ «الجن» الجنس، فهي بمعنى الجماعة ﴿**أن لو كانوا يعلمون الغيب**﴾ أي ما غاب عن الحواس ـ فقد كانت الجن تزعم، أنها تعلم الغيب، لما كانت تعلم بعض ما لا يعلمه الإنس من الأشياء البعيدة الخفية ـ ﴿**ما لبثوا**﴾ وبقوا تلك المدة التي مات فيها سليمان متكئاً على عصاه ﴿**في العذاب المهين**﴾ أي في شدة العمل وتعبه الذي يهينهم ويذلّهم فإن العمل كان عذاباً عليهم، وشدة لهم.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٦) فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ

[١٦] وإذ تمت قصة داود وسليمان عليهما السلام أتى السياق، لبيان قصة قوم سبأ، وما وصلت إليه حالتهم لأجل كفرانهم للنعمة، في مقابل ما سبق من قصة داود وسليمان، وآلهما، وما وصلت إليه حالتهم لأجل شكرهم للنعمة ﴿**لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية**﴾ أي لتلك القبيلة المسماة باسم سبأ، التي كانت تسكن في جنوبي اليمن، كان لهم في محل سكناهم آية دالة على لطف الله وفضله، فقد ارتقى القوم، في مراقي الحضارة، حتى تمكنوا أن يصنعوا من بعض الجبال، خزاناً كبيراً من الماء، بإقامة سدٍّ، يسمى «سد مأرب» أمام الماء، فكان يسقي أراضيهم، حتى أن المار إليهم، يرى في الطريق بساتين متصلة، وقد فسر سبحانه «آية» بقوله ﴿**جنتان عن يمين وشمال**﴾ أي يمين الماء وشماله، وقيل لهم ﴿**كلوا من رزق ربكم**﴾ الأمر للإباحة، أي أبحنا لكم هذا الرزق الطيب العميم ﴿**واشكروا له**﴾ أي لله سبحانه، فبلدتكم ﴿**بلدة طيبة**﴾ كثيرة الفواكه والأرزاق طيبة الماء والهواء ﴿**ورب غفور**﴾ أي أن إلهكم إله يغفر الذنوب، ويستر العيوب.

[١٧] ﴿**فأعرضوا**﴾ عن الدين، وانحرفوا في طرق الضلال ﴿**فأرسلنا عليهم سيل العرم**﴾ واحدهما عرمة مأخوذة من عرامة الماء، وهي ذهابه كل مذهب، أي السيل العظيم الشديد، وقد قال بعض المفسرين: «إن الماء كان يأتي أرض سبأ، من أودية اليمن، وكان هناك جبلان، يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدوا ما بين الجبلين، فإذا احتاجوا إلى الماء

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٨﴾﴾

نقبوا السدّ، بقدر الحاجة، فكانوا يسقون زروعهم وبساتينهم، فلما كذبوا رسلهم، وتركوا أمر الله، بعث الله جرذاً نقب ذلك الردم، وفاض الماء عليهم، فأغرقهم»[1] ﴿**وبدلناهم بجنتيهم**﴾ أي عوضاً عن الخصب الذي كان لهم المكنى عنه بالجنتين عن اليمين والشمال ﴿**جنتين**﴾ من شكل آخر، وهذا من باب الإزدواج في الكلام نحو، (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[2] ﴿**ذواتي**﴾ تثنية ذات ﴿**أكل خمط**﴾ «أكل» اسم للثمرة مهما كانت، و «خمط» كل شجر له شوك، والمراد مرّ بشع، وذلك شجرة أم غيلان، التي تنبت في الصحاري القاحلة ﴿**وأثل**﴾ الطرفاء ﴿**وشيء من سدر**﴾ هو النبق ﴿**قليل**﴾ فقد كان الخمط والأثل، أكثر منه، وهذا دليل على عدم الماء والزرع والحضارة، حتى بقيت الصحارى يباساً، لا تنبت، إلا نباتات الصحراء، التي لا ينتفع بها إلا قليلاً.

[١٨] ﴿**ذلك**﴾ السيل العرم والتبديل ﴿**جزيناهم بما كفروا**﴾ أي بسبب كفرهم ﴿**وهل نجازي**﴾ بمثل هذا الجزاء السيئ ﴿**إلا الكفور**﴾ استفهام معناه النفي، أي لا نجازي بمثل هذا الجزاء إلا لمن كفر النعمة، ولم يشكر.

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٢١٠ .

(٢) البقرة: ١٩٥ .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٩﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

[١٩] ﴿**و**﴾ قد كان من قصة قوم سبأ، قبل أن يكفروا النعم، أن ﴿**جعلنا بينهم**﴾ أي بين بلادهم في اليمن ﴿**وبين القرى التي باركنا**﴾ أي الشام التي باركنا ﴿**فيها**﴾ مبعث الأنبياء عليهم السلام، وطيب الهواء وكثرة الزراعة والفواكه ﴿**قرىً ظاهرة**﴾ أي متظاهرة متواصلة في عرض الطريق، فقد كان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية، ويقيلون بأخرى، حتى يرجعوا في أمن ودعة وسلام، وكانوا لايحتاجون إلى زاد من وادي سبأ إلى الشام، وكانت القرية ترى من القرية التي قبلها لظهور بعضها على بعض وقرب أحدها من الأخرى ﴿**وقدرنا فيها**﴾ أي في تلك القرى ﴿**السير**﴾ أي جعلناه مقدراً ممكناً للأمن والسلامة، وسهولة الطريق، أو المعنى كان بين كل قرية وقرية بقدر مسير نصف يوم، وقلنا لهم ﴿**سيروا فيها**﴾ أي في هذه الطريق أو في تلك القرى ﴿**ليالي وأياماً**﴾ فلا خوف، ولا صعوبة سواء سرتم ليلاً أو نهاراً ﴿**آمنين**﴾ من كل خطر ونصب، وجوع وعطش.

[٢٠] ولكنهم لم يشكروا هذه النعم العظيمة، ولم يسمعوا كلام الله وأوامره، بل بغوا وبطروا ﴿**فقالوا**﴾ يا ﴿**ربنا باعد بين أسفارنا**﴾ فقد مللنا من الأسفار القصيرة بين القرى المتقاربة التي لا يرى فيها الصحراء، ولا نتمكن من ركوب الرواحل، وتجهيز القوافل، فإنا نريد الصحاري القاحلة «لنلتذ لذة السفر»، وهذا كما بطرت اليهود النعمة فقالوا: (يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾

وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)[1] ﴿**وظلموا أنفسهم**﴾ بارتكاب الكفر والمعاصي، فأخذناهم بكفرهم ﴿**فجعلناهم أحاديث**﴾ لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ويضربون بهم المثل، فيقولون «تفرقوا أيادي سبأ» إذا أرادوا أن يبينوا تشتت جماعة أكبر تشتت ﴿**ومزقناهم**﴾ أي فرقناهم ﴿**كل ممزق**﴾ كل تفريق، وذلك تشبيه بالثوب الذي يُمزق في مختلف جوانبه، فقد تفرق أهل سبأ في مختلف البلاد، وذهبت نعمهم جميعاً ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي تقدم من قصة قوم نعمتهم وكفرهم ونقمتهم ﴿**لآيات**﴾ دالة على الأسباب والعلل، لتَرقي الأمم وانحطاطها ﴿**لكل صبار**﴾ كثير الصبر ﴿**شكور**﴾ كثير الشكر، فإن من يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء، يعرف سبب النعمة والنقمة، ويعرف كيف يعالج النعم للبقاء، وكيف يواجه بالصبر البلاء، أما غيره، فإنه يرى الآيات حتى يعرف المسببات من الأسباب.

[٢١] ﴿**ولقد صدق عليهم**﴾ أي على قوم سبأ ﴿**إبليس ظنه**﴾ أي جعلهم مورداً لظنه، الذي قال (فَوبِعِزَّتكَ لأُغوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ)[2] فصدّق الظن عليهم، حيث أغواهم وأبعدهم عن الطريق ﴿**فاتبعوه**﴾ أي اتبع قوم سبأ إبليس فيما أمرهم من الكفر والعصيان ﴿**إلا فريقاً من المؤمنين**﴾ «من» للتبين أي جماعة منهم فقط لم يتبعوه، وإلاّ فالباقون اتبعوا الشيطان.

(١) البقرة: ٦٢.
(٢) ص: ٨٣.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢٢﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ

---

[٢٢] ﴿**و**﴾ الحال أن الشيطان ﴿**ما كان له عليهم**﴾ أي على قوم سبأ ﴿**من سلطان**﴾ أي سلطة، وولاية يتمكن من جبرهم، وإنما كان يلقي إليهم، ويوسوس في صدورهم، وبهذا فقط باعوا دينهم ودنياهم، وحيث أن هنا يختلج سؤال أنه كيف مكّن الله إبليس عليهم؟ قال سبحانه ﴿**إلا لنعلم**﴾ أي لم يكن تمكينه منهم، إلا لأجل أن يقع معلومنا في الخارج، فقد سبق، أن العلم إنما يتحقق بكماله، إذا كان هناك معلوم خارجي، فقولنا: علم الله، بمعنى أن معلومه صار خارجياً، وإن كان يعلم الأشياء من الأزل ﴿**من يؤمن بالآخرة**﴾ عُبّر عن المؤمن بذلك، للتلازم بين الإيمان بالله والرسول، وبين الإيمان باليوم الآخر ﴿**ممن هو منها**﴾ أي من الآخرة ﴿**في شك**﴾ فلا يؤمن بالآخرة، والحاصل أن يتمكن الشيطان منهم، كان لأجل الاختبار والامتحان، ليستحق المؤمن الثواب، والكافر العقاب ﴿**وربك**﴾ يا رسول الله ﴿**على كل شيء حفيظ**﴾ يحفظ ما عملوا ليجازيهم بأعمالهم.

[٢٣] وإذ تمت قصة سبأ، يأتي السياق إلى المقصد الذي سيقت له تلك القصص من الإيمان بالله، وجاءت القصص لبيان عاقبة المؤمن والكافر ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**ادعوا**﴾ الأصنام ﴿**الذين زعمتم**﴾ أنهم آلهة ﴿**من دون الله**﴾ فانظروا، هل يستجيبون لكم، وهل يكشفون ضركم؟ كلا: إنهم ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾ أي مقدار

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ

ثقل هباءة ﴿**في السماوات ولا في الأرض**﴾ فمن لا يملك شيئاً كيف يتمكن أن يضر أو ينفع؟ والإتيان بضمير الجمع العاقل، مماشاة مع القوم، وتوحيداً للسياق في الرد والنقض، إذ كان الكفار يعتبرون الأصنام عاقلة عاملة ﴿**وما لهم**﴾ أي للأصنام ﴿**فيهما**﴾ أي في السماوات والأرض ﴿**من شرك**﴾ أي من اشتراك، بأن خلق الله بعضهما، وخلقت الأصنام بعضهما ﴿**وما له**﴾ أي لله سبحانه ﴿**منهم**﴾ أي من الأصنام ﴿**من ظهير**﴾ عاونه وعاضده على أمر، فهي ليست مالكة لشيء، ولا شريكة في خلق، ولا معاونة في أمر، ومن هذا شأنه، كيف يتمكن من دفع ضرٍّ، أو جلب نفع للمشركين الذين يعبدونه؟

[٢٤] وأما ما يزعم هؤلاء، بأن الأصنام تشفع يوم القيام لهم، قائلين (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ)[١] فإنه كذب، ووهم ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده**﴾ تعالى ﴿**إلا لمن أذن له**﴾ فمن أذن الله له في الشفاعة، شفع وقبلت شفاعته، ومن لم يأذن له لم يتمكن من الشفاعة أصلاً كما قال سبحانه (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى)[٢] فالأصنام، لا تشفع، والكفار ليسوا قابلين لأن يشفعهم أحد، فكلاً وهم المشركين، في الشافع والمشفوع

---

(١) يونس: ١٩ .

(٢) الأنبياء: ٢٩ .

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٤﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ

له هباء باطل، وقد ظن هؤلاء الكفار، أن الشفاعة، وموقف القيامة، أمر هيّن، حتى أن الأصنام لتشفع، كلا! إنهم يحشرون في موقف رهيب، ويأخذ الفزع منهم كل مأخذ، حتى إذ أسماعهم لا تسمع ـ كما يكون الإنسان عند الخوف الرهيب ـ إذ تُعطل حواسه ـ وكلهم منتظرون لإصدار الأوامر حتى يعرفوا ماذا مصيرهم؟ ويبقون في تلك الحالة ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم**﴾ أي كشف الله الفزع عن قلوبهم ورجعوا إلى حالتهم الأولية، من الوعي والإدراك «ويقال فزع عنه» أي كُشف عنه الفزع، وهناك يسأل بعضهم بعضاً إذ ﴿**قالوا ماذا قال ربكم**﴾ حول مصير الناس، كما يتساءل بعض المجرمين من بعضهم الآخر عن قرار المحكمة في حقهم ـ إذا لم يفهمه ـ؟ ﴿**قالوا**﴾ أما الملائكة، أو المسؤولون من أمثالهم ﴿**الحق**﴾ فإنه سبحانه لا ينطق إلا بالحق، وهذا ـ على الاحتمال الثاني ـ مثل ما إذا سأل بعض من بعض عن قرار المحكمة، فإنه يجيب بقوله «على طبق القانون» ﴿**وهو العلي الكبير**﴾ أي الرفيع العظيم، لا ينازع فيما قال، وهذا جواب يائس يستسلم للقضاء، فإن موقف القيامة، هكذا، فكيف تشفع الأصنام، في مثل ذلك الموقف المهول المدهش.

[٢٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين احتجاجاً عليهم لإبطال شركهم ﴿**من يرزقكم من السماوات**﴾ بإنزال المطر ﴿**والأرض**﴾ بإنبات النبات؟ فهل الرازق هو الله، أم آلهتكم؟. وطبيعي أن يسكت

قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٥) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٦)

المشركون عن الجواب إذ لو قالوا هو الله، كان حجة عليهم، ولا يملكون أن يقولوا هو الصنم، لوضوح كذب هذه المقالة وإذاً فليرد الرسول ﷺ، الجواب ﴿**قل**﴾ لهم إذا سكتوا ﴿**الله**﴾ هو الذي يرزقكم، لا الأصنام ﴿**وإنا أو إياكم**﴾ أيها المشركون ﴿**لعلى هدىً**﴾ في طريقتنا ﴿**أو في ضلال مبين**﴾ أي ضلال واضح، وهذا على وجه الإنصاف، وإلا فالرسول كان يعلم أنه على هدى، وإنهم على ضلالة، كما قال الإمام عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه:

قال المنجم والطبيب كلاهما
لن يحشر الأموات، قلت إليكما

إن كان قولكما، فلست بخاسر
أو كان قولي، فالخسار عليكما[1]

[٢٦] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، لهؤلاء الكفار ﴿**لا تسألون**﴾ أيها الكفار، أنتم ﴿**عما أجرمنا**﴾ أي اقترفنا من الذنوب ـ بنظركم ـ أو المراد مجموع المؤمنين، فلا ينافي عصمة الرسول ﴿**ولا نُسأل**﴾ نحن يوم القيامة ﴿**عما تعملون**﴾ أنتم أيها الكفار، وهذا كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[2] فإن لم تقبلوا مقالي، فذنبكم عليكم، لا يرتبط بنا، وجيء بقوله «لاتسألون عما أجرمنا» توطئة وتمهيداً.

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص٣٩٦.
(٢) الكافرون: ٧.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ

[٢٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**يجمع بيننا**﴾ نحن وأنتم ﴿**ربنا**﴾ يوم القيامة لنُحاسب، فيُعلم مَن المحق، وَمن المبطل؟ ﴿**ثم يفتح بيننا بالحق**﴾ أي يحكم بيننا حكماً حقاً، وكأن الأمر مسدود بين الخصمين، والحاكم يفتح بينهما، حين يعطي لكل حصته، لئلا يبقى الأمر بينهما مختلطاً متصلاً ﴿**وهو**﴾ سبحانه ﴿**الفتاح**﴾ كثير الفتح، والحكم بين المتخاصمين ﴿**العليم**﴾ العالم، بما صدر عن كل، وبما يستحق كل واحد، فيكون حكمه حقاً عدلاً.

[٢٨] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿**أروني**﴾ الأصنام ﴿**الذين ألحقتم**﴾ لهم ﴿**به**﴾ أي بالله ﴿**شركاء**﴾ أي في حال كونهم شركاء لله، في زعمكم؟ وهذا استفهام توضيحي، كما تقول لمن يساوي جاهلاً بعالم: أرني من هو المساوي لهذا العالم، تريد أن تبين له أن من تزعم مساواته، لا يتمكن الإنسان، حتى من التفوه بمساواته له، وإتيان اسمه عند ذكر اسم العالم ﴿**كلا**﴾ ليس كما تزعمون في كون الأصنام شركاء لله تعالى ﴿**بل**﴾ الإله واحد لا شريك له، و ﴿**هو الله العزيز**﴾ الغالب سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل كل شيء بحكمة وصواب، فهل للأصنام سلطان؟ أم هل لها من حكمة؟

[٢٩] ﴿**وما أرسلناك**﴾ يا رسول الله ﴿**إلا كافة للناس**﴾ أي للناس عامة،

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٠﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

وكان تقديم «كافة» لإفادة أن الغرض المسوق له الكلام، هو عموم الرسالة، وإنما كان كافة بمعنى عامة، لأنها إذا عمّتهم، فقد كفتهم ـ وصفتهم ـ أن يخرج منها أحد منهم ﴿**بشيراً**﴾ تبشر المؤمنين المطيعين بالجنة والثواب ﴿**ونذيراً**﴾ تنذر الكفار والعصاة، بالنار والنكال ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ رسالتك لإعراضهم عن الحق.

[٣٠] وإذ تقدم الكلام عن التوحيد والرسالة، جاء دور المعاد ﴿**ويقولون**﴾ أي الكفار المنكرون للبعث ﴿**متى هذا الوعد**﴾ أي في أي زمان تقوم القيامة التي تعدوننا بها؟ ﴿**إن كنتم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**صادقين**﴾ في دعواكم وجود القيامة، وحشر الأجساد بعد الموت؟

[٣١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في جوابهم ﴿**لكم**﴾ أيها الكفار ﴿**ميعاد يوم**﴾ أي ميقات يوم ينزل بكم ما وعدتم من العذاب والنكال، والمراد وقت وفاتهم، أو يوم القيامة عند بعثهم ﴿**لا تستأخرون عنه ساعة**﴾ أي لا تتأخرون عن ذلك اليوم مقدار ساعة ـ التي هي جزء الزمن ـ ﴿**ولا تستقدمون**﴾ أي لا تتقدمون عليه مقدار ساعة، وكان الإتيان من باب الاستفعال، لبيان، أن طلب التقديم والتأخير، لا ينفع فلكلٍّ أجل وكتاب.

[٣٢] ﴿**وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن**﴾ الذي نزل على

وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**ولا بالذي بين يديه**﴾ أي بالكتب التي أنزلت قبل القرآن، كالتوراة والإنجيل، فإن أهل الكتاب، كانوا يصدقون، بتلك الكتب، أما الكفار، فإنهم كانوا يفكرون بكل شيء ﴿**ولو ترى**﴾ يا رسول الله، أو كل من يأتي منه الرؤية ﴿**إذ الظالمون**﴾ في يوم القيامة ﴿**موقوفون**﴾ للحساب ﴿**عند ربهم**﴾ جزاءً لإنكارهم، وكفرهم ﴿**يرجع بعضهم إلى بعض القول**﴾ إما المراد ما سيأتي من المحاورة بينهم، وإما أنهم، كالمجرمين في الدنيا، إذا أحضروا للمحاكمة، فإن هذا يرد القول إلى ذاك، وذاك إلى هذا، كل يريد أن يتخلص من تبعة الجواب، ويؤمّن على نفسه فلا يجيب، حتى وإن علم بالأمر ﴿**يقول الذين استضعفوا**﴾ أي طلب ضعفهم الرؤساء، فاستغلوهم لضعف أفكارهم، وضعف إمكانياتهم ﴿**للذين استكبروا**﴾ من الأشراف والكبار المستكبرين عن قبول الحق ﴿**لولا أنتم**﴾ تضلونا عن السبيل ﴿**لكنا**﴾ نحن الأتباع ﴿**مؤمنين**﴾ بالله واليوم الآخر، في دار الدنيا، وإنما أنتم أضللتمونا عن طريق الهداية والإيمان.

[٣٣] ﴿**قال الذين استكبروا**﴾ في جواب المستضعفين ﴿**للذين استضعفوا أنحن صددناكم**﴾ أي هل نحن منعناكم ﴿**عن الهدى**﴾ والإيمان ﴿**بعد**

إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

إذ جاءكم﴾؟ يقولون ذلك، على نحو الاستفهام الإنكاري، أي إنّا لم نصدكم، ولم نمنعكم، إذ لم تكن سلطة لنا عليكم **﴿بل كنتم﴾** أنتم بأنفسكم **﴿مجرمين﴾** تبتّون الباطل، وترغبون عن الهدى والحق، فليس علينا تبعة ذنبكم، وإنما على أنفسكم.

[٣٤] **﴿وقال الذين استضعفوا﴾** أي الأتباع **﴿للذين استكبروا﴾** أي المتبوعين من الأشراف إنا لم نك بأنفسنا، وإنما أنتم صددتمونا عن الهدى **﴿بل مكر الليل والنهار﴾** أي ما كنتم تمكرونه، ليلاً ونهاراً هو الذي منعنا عن قبول الحق، أي تدبيراتكم الخفية، وإلقاءاتكم علينا هي التي وقفت دون إيماننا **﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾** جمع ند، وهو المثل والضد، أي كنتم تقولون لنا، اجعلوا لله شركاء **﴿وأسروا الندامة﴾** أي أخفوا ندمهم عن أعمالهم السابقة، فلم يظهروا أنهم نادمين خوف الفضيحة **﴿لما رأوا العذاب﴾** فإن الإنسان في حال الحزن الشديد، لايتكلم، وإنما تظهر عليه ملامح الندم، ساعة مندم **﴿و﴾** بعد ذلك، يُقدمون للعذاب، ف **﴿جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾** بأن يغلّون في النيران، كما قال سبحانه (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)[1] وهنا يأتي الاستفهام ليبين أن ذلك جزاء

(١) الحاقة: ٣٣.

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ

أعمالهم، وليس ظلماً عليهم ﴿**هل يجزون**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**إلا ما كانوا يعملون**﴾ أي لايجزون إلا جزاء أعمالهم.

[٣٥] وقد كان الانحراف عن الهداية، عادة عامة لجميع الأشراف، لدى مواجهة الرسل، فإن شرفهم المزعوم، كان يصدهم عن قبول الحق، وانخراطهم في سلك المؤمنين ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير**﴾ ينذر الناس من عاقبة أعمالهم، ووبال كفرهم وعصيانهم ﴿**إلا قال مترفوها**﴾ أي الأغنياء المتنعمون بالترف، والرفاه ﴿**إنا بما أرسلتم به**﴾ أيها الأنبياء ﴿**كافرون**﴾ لا نصدق به، ولا نقبله.

[٣٦] ﴿**وقالوا**﴾ للأنبياء عليهم السلام على وجه الكبر والتجبر ﴿**نحن أكثر أموالاً وأولاداً**﴾ نحن أكرم منكم على الله، إذ لولا كرامتنا لم يتفضل الله علينا، بهذا المال الكثير، والأولاد العديدين ﴿**وما نحن بمعذبين**﴾ يوم القيامة فإن الله سبحانه لا يعذبنا، كما تقولون أنتم الأنبياء، إن الله يعذب الكافر العاصي.

[٣٧] وهكذا كان يقول أشراف مكة في مقابل الرسول ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في جوابهم، إن كثرة الأموال والأولاد، ليست دليلاً على حب الله للشخص، وإنما التوسعة والتضييق حسب المصلحة والحكمة، فـ ﴿**إن ربي**﴾ الذي خلقني وأرسلني ﴿**يبسط الرزق لمن يشاء**﴾ من عبيده

وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿**ويقدر**﴾ أي يضيق حسب ما يراه حكمة وصلاحاً فالتوسعة على المؤمن للثواب والجزاء، وعلى الكافر للإملاء ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ ذلك، فيظنون أن كثرة المال والأولاد، لكرامة الشخص على الله تعالى.

[٣٨] ﴿**وما أموالكم**﴾ أيها البشر ﴿**ولا أولادكم**﴾ التي منحتموها ﴿**بـ**﴾ المكانة ﴿**التي تقربكم عندنا زلفى**﴾ مصدر زلف بمعنى قرب، وهو منصوب على المصدرية أي تقربكم تقرباً ﴿**إلا من آمن وعمل صالحاً**﴾ فإن الإيمان والعمل الصالح مقربا لله سبحانه، والاستثناء منقطع، والأصل لا تقرب إلا الإيمان، والعمل الصالح، لا الأموال والأولاد ـ كما سبق، في وجه الاستثناءات المنقطعة ـ ﴿**فأولئك**﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿**لهم جزاء الضعف**﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي إن جزاءهم مضاعف، فهو أضعاف أعمالهم، كما قال سبحانه (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)[1] ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ما عملوا**﴾ من الإيمان والصالحات ﴿**وهم في الغرفات**﴾ جمع غرفة وهي البيت فوق البناء، أي في غرف الجنة ﴿**آمنون**﴾ من الأهوال، والأحزان، والمصائب.

---

(١) الأنعام: ١٦١ .

وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ

---

[٣٩] ﴿**والذين يسعون في آياتنا**﴾ أي لإبطال آياتنا وأدلتنا ﴿**معاجزين**﴾ يريدون تعجيز الأنبياء عليهم السلام بأعمالهم، حتى لا يتمكنوا من الإرشاد والتبليغ، والإتيان من باب «المفاعلة» لأن كلاً من الطرفين يريد تعجيز الآخر عن تنفيذ مبدئه وصد الآخر عن التنفيذ، فالنبي يريد عجز الكفار، وهم يريدون عجز النبي ﴿**أولئك في العذاب محضرون**﴾ أي يحضرهم الله سبحانه في العذاب، بالقوة والقهر، كما يُحضر المجرم في السجن.

[٤٠] وإذ كان الرزق بتقدير الله سبحانه، فالذي يبقى منه، هو المنفق في سبيله، فليس سعة الرزق دليل حب الله سبحانه ـ كما زعم الكفار ـ وإنما الإنفاق منه، موجب لحب الله تعالى ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده**﴾ أي يعطيه الرزق الواسع المبسوط ﴿**ويقدر له**﴾ أي يقدر لمن يشاء، فالضمير يعود، إلى لفظ «من» لا إلى معناه، فالمبسوط له غير المقتر عليه، قال في المجمع: «وإنما كرره سبحانه لاختلاف الفائدة، فالأول توبيخ للكافرين، وهم المخاطبون به، والثاني، وعظ للمؤمنين»[1] ﴿**وما أنفقتم**﴾ أيها الناس ﴿**من شيء**﴾ قليل أو كثير، من مختلف أنواع الرزق ﴿**فهو**﴾ سبحانه ﴿**يخلفه**﴾ أي يعطيكم خلفه وعوضه، في الدنيا بزيادة الرزق، وفي الآخرة بالأجر والثواب

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٢٢٢ .

وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾

﴿**وهو خير الرازقين**﴾ لأنه يعطي بلا منٍّ، ولا توقع جزاء، ولا لغاية أخرى، بخلاف سائر الرازقين من الناس، الذين يقصدون بإنفاقهم غاية ومقصداً، أما الشكر فإنه سبحانه يطلبه لنفع الخلق، لا لنفعه.

[٤١] ﴿**ويوم يحشرهم**﴾ أي نحشر الكفار الذين كانوا يعبدون الملائكة ﴿**جميعاً**﴾ العابدين والمعبودين، والمراد بذلك اليوم، هو يوم القيامة ﴿**ثم يقول للملائكة**﴾ بقصد فضح العابدين لهم ﴿**أهؤلاء**﴾ الكفار ﴿**إياكم كانوا يعبدون**﴾؟ والقصد من هذا السؤال تبرؤ الملائكة منهم، حتى يبقوا بلا ناصر حتى من معبوديهم.

[٤٢] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الملائكة ﴿**سبحانك**﴾ أي ننزهك يا رب تنزيهاً عن الشريك، وسبحان منصوب على المصدر، أي نسبح سبحاناً ﴿**أنت ولينا من دونهم**﴾ أي من دون هؤلاء الكفار، والمعنى أنه لا ولاية بيننا وبينهم ﴿**بل كانوا**﴾ أي كان هؤلاء ﴿**يعبدون الجن**﴾ أي الشياطين، حيث أنهم أطاعوا الشياطين الذين يوحون إليهم بعبادة الملائكة، فإن الشياطين من الجن، كما قال سبحانه (إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ)[1] ﴿**أكثرهم**﴾ أي أكثر هؤلاء ﴿**بهم**﴾ أي بالجن ﴿**مؤمنون**﴾ مصدقون لما

(١) الكهف: ٥١ .

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾

يوسوسون إليهم، وكأن الملائكة يريدون بذلك التكثير من تبكيت الكفار بأن مرجع عبادتهم للملائكة كان إلى عبادتهم للشياطين، والإتيان بلفظ «الجن» لتسمية الشيطان في الجاهلية، بـ«الجن».

[٤٣] ﴿**فاليوم**﴾ يعني يوم القيامة الذي يقع فيه ذلك المشهد والحوار ﴿**لا يملك بعضكم لبعض**﴾ أي لايملك المعبودين للعابدين ﴿**نفعاً ولا ضراً**﴾ لا ثواباً ولا عقاباً، وإنما الثواب والعقاب بيد الله وحده، وهكذا يخسر العابدون، حتى من نصر المعبودين ﴿**ونقول للذين ظلموا**﴾ أنفسهم، بعبادة غير الله ﴿**ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها**﴾ أي بتلك النار ﴿**تكذبون**﴾ في الحياة الدنيا، حين أنكرتم البعث والنشور.

[٤٤] ثم يرجع السياق إلى حال الكفار في الدنيا، بعد أن بين لهم، أن حالهم هناك الخزي والعذاب، أن تمادوا في ضلالهم ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ أي يقرأ الرسول والمؤمنون على الكفار آيات القرآن، في حال كونها واضحات ﴿**قالوا**﴾ أي قال الكفار بعضهم لبعض ﴿**ما هذا**﴾ الذي يدعي الرسالة، ويأتي بهذه الآيات ﴿**إلاّ رجل يريد أن يصدكم**﴾ أي يمنعكم ﴿**عما كان يعبد آباؤكم**﴾ من الأصنام، والملائكة، والجن، وغيرها، فقد رأوا أن في عبادة الله هدماً

وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٤﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٥﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

لتقاليدهم ﴿**وقالوا**﴾ بعضهم لبعض ﴿**ما هذا**﴾ القرآن ﴿**إلا إفك**﴾ كذب ﴿**مفترى**﴾ نسبه الرسول إلى الله افتراءً، فإنه لم ينزل من عنده، وإنما اختلقه الرسول ﷺ ونسبه إليه سبحانه ﴿**وقال الذين كفروا للحق**﴾ أي للقرآن ﴿**لما جاءهم**﴾ لهدايتهم ﴿**إن هذا**﴾ أي ما هذا ﴿**إلا سحر مبين**﴾ واضح، إذ يؤثّر في الناس، فيجلب الأتباع، ولا يمكن للفصحاء الإتيان، بمثله، فالرسول كاذب مفتري، والقرآن سحر ـ في منطق الكفار الأعوج ـ .

[٤٥] إن هؤلاء الكفار الذين يقولون، إن القرآن كذب وسحر أميّون، لم يأتيهم قبل هذا كتاب ورسول حتى يميزوا بين الوحي وغيره، وبين الرسول والمفتري، فقولهم حول القرآن والرسول، قول الجاهل المأفون ﴿**وما آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم، وأنزلنا إليهم ﴿**من كتب يدرسونها**﴾ أي يقرؤنها درساً حتى يعرفوا ما هو الوحي؟ ويميزوا بين المنزل والمفترى ﴿**وما أرسلنا إليهم**﴾ أي إلى هؤلاء الكفار ﴿**قبلك**﴾ يا رسول الله ﴿**من نذير**﴾ حتى يميزوا بين الرسول والساحر، فقولهم، فيك وفي كتابك قول جاهل أمي، فهم معاندون متبعون للهوى في أقوالهم، لا إنها عن علم ودراية وخبرة.

[٤٦] ﴿**وكذب**﴾ الأمم ﴿**الذين من قبلهم**﴾ أي من قبل كفار قومك، رسلهم،

وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم

وما أتاهم الله من الكتب ﴿**وما بلغوا**﴾ أي ما بلغ هؤلاء الكفار ﴿**معشار ما آتيناهم**﴾ أي معشار القوة والمال، وطول العمر التي أعطيناها إلى تلك الأمم، ومعشار بمعنى عشر ﴿**فكذبوا**﴾ أولئك الأمم ﴿**رسلي**﴾ الذين أرسلوا إليهم ﴿**فكيف كان نكير**﴾؟ أي إنكاري وعقوبتي على المكذبين، فقد عاقبتهم، بأشد العقوبات مع تلك القوة والمال، فليحذر هؤلاء الضعفاء ـ من قوم الرسول ـ عقوبتي إن تمادوا في غيّهم وكفرهم؟.

[٤٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**إنما أعظكم**﴾ الوعظ هو النصيحة ﴿**بواجدة**﴾ أي أنصحكم بجملة واحدة، وهي ﴿**أن تقوموا**﴾ بهذا العمل، لا من القيام مقابل القعود ﴿**لله**﴾ بأن كان عملكم له، خالصاً عن التقليد والعصبية والأهواء ﴿**مثنى وفرادى**﴾ اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فمن كان له قدرة في التفكر حول الرسول بنفسه بلا معين، فليفكر في نفسه، ومن لا قدرة له في التفكر منفرداً، فليتخذ صديقاً ليداول معه الحديث حول الرسول، والقرآن والإسلام ﴿**ثم تتفكروا ما بصاحبكم**﴾ أي ليس بالرسول الذي هو صاحبكم ﴿**من جنة**﴾ أي شيئاً وأثراً من الجنون فإنكم إذا فعلتم ذلك، وخرجتم عن ضوضاء الجماعات إلى الانفراد والتثنية في تفكير هادئ «لله» لعلمتم ذلك ﴿**إن هو**﴾ أي ليس الرسول ﴿**إلا نذير لكم**﴾ ينذركم عن التمادي في الكفر

بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٩﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا

والعصيان ﴿**بين يدي عذاب شديد**﴾ فإنه يأتي من ورائه عذاب القيامة، إن بقيتم في الكفر والضلالة، فهو يريد إنقاذكم.

[٤٨] ﴿**قل**﴾ لهؤلاء الكفار يا رسول الله ﴿**ما سألتكم من أجر**﴾ أي كل أجر أسأله منكم على أدائي للرسالة ﴿**فهو لكم**﴾ وهذا تعبير آخر عن عدم سؤاله للأجر، فإن تزعمون أني أدعي الرسالة لتحصيل المال، فإني لا أريد منكم المال، وقيل إن معناه، أن كلّ ما سألته من أجر ـ من المودة في القربى ـ فإنما ذلك عائد إليكم، فإن قرباي يرشدونكم إلى الحق، فهذا ليس عائداً لي، بل عائد لكم، كمن يجمع المال من الناس، ليبني لهم دوراً وقصوراً، فإن ما يأخذه يعود إليهم ﴿**إن أجري**﴾ أي ما أجري على البلاغ والرشاد ﴿**إلاّ على الله**﴾ فهو يعطيني جزاء عملي وأتعابي ﴿**وهو**﴾ سبحانه ﴿**على كل شيء شهيد**﴾ حاضر، فيعلم مقدار أجري، ويعطيني كاملاً غير منقوص.

[٤٩] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿**إن ربي يقذف بالحق**﴾ أي يلقيه إلى أنبيائه، فهذا الإسلام والقرآن حق، قذفه الله إليّ، وليس سحراً أو إفكاً، كما تزعمون ﴿**علاّم الغيوب**﴾ أي الله سبحانه كثير العلم بالغيب، فلا يُلقي إلا ما يعلم أنه صالح للبشر، كما لا يُلقي إلا إلى من يصلح للقيام به.

[٥٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**جاء الحق**﴾ وهو الإسلام ﴿**وما**

يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٥٠﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ

يبدئ الباطل وما يعيد﴾ أي زهق الباطل، وذهب بحيث لم يبق له أثر فلا مبديء له، ولا معيد، فلا يأتي أحد يجدد الباطل من الابتداء أو يعيده بعد الإندثار، كما لو كتب إنسان كتاباً راقياً في بطلان عبادة الأصنام، يقول لا يأتي أحد يستدل بصحة عبادة سائر المعبودات الباطلة من جديد، ولا أحد يستدل بصحة عبادة الأصنام، والمراد عدم وجود باطل يتمكن أن يقوم مقابل هذا الحق الذي هو الإسلام، سواء كانت أباطيل تخترع جديدة، أو أباطيل سابقة، يراد إعادة جدتها ورونقها، وهذا كقوله تعالى (لاَ رَيْبَ فِيهِ)(١).

[٥١] **﴿قل﴾** يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يقولون عنك، إن محمداً قد ضل عن طريقة قومه **﴿إن ضللت﴾** عن الحق كما تدعون **﴿فإنما أضل على نفسي﴾** أي يرجع وبال ضرري عليّ، فإن رأيتم أني ضال، فلا تؤمنوا بي، ولماذا تتعرضون لي بالمنع والإيذاء؟ **﴿وإن اهتديت﴾** إلى الحق **﴿فبما يوحي إليّ ربي﴾** أي بفضل الله سبحانه، تكون هدايتي، حيث أوحى إليّ، وأرشدني إلى الطريق **﴿إنه﴾** سبحانه **﴿سميع﴾** لأقوالنا **﴿قريب﴾** منا، فلا يخفى عليه المحق من المبطل.

[٥٢] **﴿و لو ترى﴾** يا رسول الله، أو أيها الرائي **﴿إذ فزعوا﴾** أي خاف هؤلاء الكفار من أهوال القيامة **﴿فلا فوت﴾** أي فلا يفوت من عذاب

(١) البقرة: ٣ .

وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٢﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾

الله منهم أحد، ولا ينجو من بأسه كافر ﴿**وأخذوا من مكان قريب**﴾ وهو القبر، فمكانهم ليس بعيداً على الله يحتاج في أخذهم إلى صعوبة، وطول مدة، كما يكون كذلك بالنسبة إلى حكام العالم، حيث يبتعد منهم المجرمون، فيكون في أخذهم لهم صعوبة وطول مدة، وجواب «لو» محذوف، أي لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً.

[٥٣] ﴿**وقالوا**﴾ أي قال الكفار حين ذاك ﴿**آمنا به**﴾ أي آمنا بالله والرسول وما جاء به ﴿**وأنّى لهم التناوش**﴾ أي من أين يكون لهم الانتفاع بإيمانهم هناك، والتناوش بمعنى التناول، أي لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم ﴿**من مكان بعيد**﴾ فالدنيا قد ابتعدت عنهم، والإيمان المفيد كان في الدنيا لا في الآخرة، ومن أين لهؤلاء أن يتناولوا الإيمان النافع الذي خلّفوه وراءهم في الدنيا؟ وهذا على ضربٍ من الاستعارة اللطيفة.

[٥٤] ﴿**وقد كفروا**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**به**﴾ أي بالإسلام والدين ﴿**من قبل**﴾ في الدنيا ﴿**ويقذفون بالغيب من مكان بعيد**﴾ أي أنهم يقولون لا جنة ولا نار، وذلك غيب بعيد، وإنما قولهم ظن، والمعنى أنهم يرجمون الظن بالمكان الغائب عن حواسهم، وهم بعيدون عنه ـ والمراد بذلك المكان الآخرة ـ فكما أن الحجارة إذا رُجمت من البعيد في مكان غائب لا يراه الراجم، لا تصيب الهدف، كذلك ظن هؤلاء بالنسبة إلى الآخرة.

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٥﴾

[٥٥] ﴿**وحيل بينهم**﴾ أي فرق بين هؤلاء الكفار ـ يوم القيامة ـ ﴿**وبين ما يشتهون**﴾ من النعيم والكرامة، فلا يرون نعيماً، ولا كرامة، بعد ذلك ﴿**كما فُعل**﴾ مثل ذلك ﴿**بأشياعهم**﴾ أي بأمثالهم من الكفار السابقين، والأشياع هم المقتدون، مقابل الأتباع ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿**إنهم**﴾ إنما فُعل ذلك بهم لأنهم ﴿**كانوا**﴾ في الدنيا ﴿**في شك**﴾ من البعث والنشور ﴿**مريب**﴾ موجب للريب والانعزال عن الحق، فإن الإنسان إذا شك، ولم يُظهر أثراً، قيل له شك، فإذا أظهر أثر الشك، قيل له ريب وهذا إشارة إلى أنهم لم يكونوا يقطعون بعدم المعاد، ولكنهم كانوا شاكين، وإنما قادهم إلى الإنكار تقليدهم.



سُورة فاطر

مكية/ آياتها (٤٦)

وتسمى بسورة الملائكة أيضاً لاشتمالها على كلا اللفظين، وهي كسائر السور المكية ـ غالباً ـ تعالج قضايا العقيدة، وأصول الدين، وإذ ختمت سورة «سبأ» بالمحاورة مع الكفار والمنكرين للألوهية والمعاد، ابتدأت هذه السورة بشؤون الله تعالى، الدالة على توحيده، وتصرفه في الكون.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله، ليكون شعاراً لفظياً للمسلم، فإن لكل أمة واعية شعارات لفظية، عند القراءة وكتابية عند الكتابة، وإشارية عند الإشارة، واسم الله، أعظم من جميع الشعارات المتصورة، فإنه اسم من يرتبط به الخلق والأمر، والإتيان بوصفي الرحمن الرحيم، للإشارة إلى أن ما اتخذناه شعاراً متصف بالرحمة المكررة، وهو من أجلب الصفات للإنسان، فإن كل خير له مرتبط بالرحمة والفضل.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ

[٢] ﴿**الحمد لله**﴾ أي أن جنس الحمد، راجع إلى الله سبحانه، إذ جميع النعم منه، حتى ما يصل إلى الإنسان بواسطة أحد، فإنه منه سبحانه ابتداءً، وإنما يأتي بالواسطة ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾ أي خالقهما من «فطر» بمعنى خلق ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾ جمع رسول، وهو الآتي بالكلام من قبل شخص إلى غيره، فإن الملائكة يأتون بالرسالات من الله سبحانه إلى الأنبياء، في حال كونهم ﴿**أولي أجنحة**﴾ أي أصحاب أجنحة، كأجنحة الطير، ليتمكنوا بها من الهبوط والعروج، وإن كان جناحهم من شكل غير مدرك ـ إلا إذا شاء الله ذلك ـ ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾ فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة أجنحة، وهذا صفة لأجنحة، معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة ﴿**يزيد**﴾ الله سبحانه ﴿**في الخلق ما يشاء**﴾ أي أن الخلق بيد الله سبحانه، فلم يعجز تعالى عن خلق ما زاد عن السماوات والأرض والملائكة، بل إنه كلما شاء خلقاً خلقه ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ فلا يمتنع عليه شيء.

[٣] إن الله هو الخالق القادر، وإنه هو المعطي المانع فـ ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها**﴾ أي ما يفيضه عليهم من النعم والخير، لا أحد هناك يتمكن من المنع عنها، والإمساك لها حتى لا تصل إلى

وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ

الناس ﴿**وما يمسك**﴾ الله من رحمة ﴿**فلا مرسل له من بعده**﴾ أي من بعد الله سبحانه، فإنه إذا لم يرد إعطاء أحد شيئاً لم يكن هناك من يقدر على إعطائه ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب على أمره ﴿**الحكيم**﴾ في أفعاله يفعلها حسب الحكمة والصلاح، فكل شيء صنعه بحكمته ومصلحته، كما أن كل شيء أراده صار لأنه العزيز القادر.

[٤] وإذ تقدم التذكير ببعض نعم الله على البشر، وبعض آثار عظمته وجلاله، يتوجه السياق إلى المشركين ليوقظهم من غفلتهم ﴿**يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ وكأنّ الإنسان يعلم في باطنه نعم الله لكنه ينسى، فاللازم أن يتذكر ﴿**هل من خالق غير الله**﴾ والجواب كلا لا خالق إلا الله سبحانه، ثم هل من أحد غير الله ﴿**يرزقكم من السماء**﴾ بإنزال المطر ﴿**و**﴾ من ﴿**الأرض**﴾ بإنبات النبات؟ والجواب كلا، فلا رازق إلا الله ﴿**لا إله إلا هو**﴾ وإذ ثبت أن لا خالق ولا رازق إلا الله، ثبت أنه لا إله إلا هو ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ أي كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال؟ من أفك بمعنى انصرف، ومنه يسمى الإفك إفكاً، لأنه صرف للكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

[٥] وإذ تقدم الكلام حول التوحيد، يأتي الكلام حول الرسالة ﴿**وإن يكذبوك**﴾ هؤلاء الكفار، يا رسول الله، فيقولون، لست أنت، بنبي

فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بأنه ليس الوحيد الذي كذبه قومه، وإنما الرسل هكذا، فإن أقوامهم يكذبونهم **﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾** أي أمر تكذيب هؤلاء يعرض على الله سبحانه، فيجازيهم على تكذيبهم، وأمرك يعرض عليه، فيجازيك على صبرك، وصمودك.

[٦] ثم يأتي السياق لبيان المعاد ـ الذي هو الأصل الثالث من الأصول ـ **﴿يا أيها الناس إن وعد الله﴾** بالبعث والحساب والجزاء **﴿حق﴾** لا كذب فيه، فكلكم تحشرون للجزاء **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾** فتغترون بملاذها ورئاستها، فتعصون الله لأجلها حتى يكون مصيركم إلى النار **﴿ولا يغرنكم بالله﴾** أي بالنسبة إلى الله سبحانه **﴿الغرور﴾** الشيطان الكثير الخداع، فترون سكوته سبحانه، وعدم تعجيله العقاب، فتمادون في الغي والطغيان، فيأتيكم العذاب بغتة، وأنتم في غفلة.

[٧] **﴿إن الشيطان﴾** الذي يدعوكم إلى الكفر والعصيان **﴿لكم﴾** أيها البشر **﴿عدو﴾** يريد لكم الهلاك والعذاب **﴿فاتخذوه عدواً﴾** أي اعملوا معه، عمل العدو مع عدوه، بأن لا تطيعوه واجتنبوا عن مكره وخدعه **﴿إنما يدعوا﴾** الشيطان **﴿حزبه﴾** أي أنصاره وأعوانه من العصاة **﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾** أي النار المستعرة الملتهبة، فلا تتبعوه ليوردكم النار

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٨﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن

ذات اللهب والاشتعال.

[٨] ﴿**الذين كفروا**﴾ بالله، لاتباع الشيطان، وامتثال أمره ﴿**لهم عذاب شديد**﴾ في الآخرة ﴿**والذين آمنوا**﴾ بالله، وبما يجب الإيمان به ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ وذلك يلازم ترك السيئات ـ كما سبق ـ ﴿**لهم مغفرة**﴾ أي غفران لذنوبهم، فإن «مغفرة» مصدر ميمي ﴿**وأجر كبير**﴾ جزاءً على إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

[٩] ﴿**أفمن**﴾ الهمزة للاستفهام الانكاري، والفاء عاطفة، أي هل الذي ﴿**زين له سوء عمله**﴾ أي زين الشيطان في عينه عمله السيئ كالكفار والعصاة، الذين يبرّرون أعمالهم السيئة بألف مبرّر موهوم ﴿**فرآه حسناً**﴾ أي رأى عمله السيء حسناً وهذا بطبيعة الحال في سطح الذهن، أما في أعماقه، فإنه يعلم بقبح عمله، ولذا لو خلى بنفسه وتفكر، أو ذكّره بعض الناس، وكان منصفاً، اعترف بقبح عمله، وقد حذف عدل الهمزة، أي أفمن كان كذلك، كمن ليس هكذا؟ والجواب الطبيعي أنهما لا يتساويان، وإنما جيء بهذا العدل فقط لأن سوق الكلام كان حول الكفار، ثم يأتي السياق ليسلّي النبي ﷺ أن لا يأسف على هؤلاء الذين انحرفوا عن علم ودراية ﴿**فإن الله يضل من يشاء**﴾ ممن أرشده للطريق، وبلّغه فلم يقبل، فإنه سبحانه يتركه يضلّ وينحرف، ولا يلطف به الألطاف الخفية، وهذا كما يقال أفسد الملك شعبه، إذا تركهم يفسدون، ولم يجبرهم على الاستقامة ﴿**ويهدي من**

يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٩﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿١٠﴾

يشاء﴾ ممن قبل البلاغ والرشاد، فإنه سبحانه يلطف به الألطاف الخفية **﴿فلا تذهب نفسك﴾** يا رسول الله، ومعنى ذهاب النفس هلاكها، أو شدة حزنها وغمها، حتى تكون كالهالكة **﴿عليهم﴾** أي على هؤلاء الكفار **﴿حسرات﴾** منصوب على المصدر، أي لا تذهب نفسك تتحسر عليهم حسرات، والحسرة شدة الحزن على ما فات، أو يفوت من الأمر المرغوب فيه **﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾** من الكفر والعصيان، ومثل هذا الإنسان المعاند، لا يستحق أن يتحسر الرسول عليه.

[١٠] ثم يرجع السياق إلى أدلة الألوهية والتوحيد، في قبال الكفار والمشركين **﴿والله﴾** هو **﴿الذي أرسل الرياح﴾** بخلقها، أو تصريفها من هنا إلى هناك **﴿فتثير﴾** أي تهيج الرياح **﴿سحاباً﴾** المراد به الجنس، لا الفرد **﴿فسقناه﴾** أي سقنا السحاب **﴿إلى بلد ميت﴾** مات زرعه، وجفّت أنهاره **﴿فأحيينا به﴾** أي بسبب ذلك السحاب الماطر **﴿الأرض بعد موتها﴾** بالجدب، وعدم النبت، بأن أنبتنا فيها الكلأ، بعد أن لم يمكن **﴿كذلك النشور﴾** أي كما حييت هذه الأرض الجدبة الميتة كذلك نشور البشر وحياتهم بعد الموت، فإن الله القادر على إحياء الأرض، قادر على بعث الإنسان، ونشوره بعد أن مات.

[١١] إن الكفار لا يؤمنون خوفاً من ذهاب عزتهم الدنيوية، حيث يطردهم المجتمع الكافر، لكن اللازم أن لا يمنع الإنسان هذا عن الإيمان، فإن العزة لله سبحانه، وإذا أراد الإنسان ببقائه على الكفر، أن تسمع له

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

الكلمة، ويُقبل له العمل عند أصدقائه الكفار، فإن الكلام الإسلامي، والعمل الصالح، يقبلان عند الله سبحانه، الذي هو أعظم من مجتمع هؤلاء الكفار ﴿**من كان يريد العزة**﴾ الدنيوية، بأن يكون عزيزاً عند الناس، نافذاً الكلمة لديهم ﴿**فلله العزة جميعاً**﴾ أي فليطلبها من عند الله تعالى، إذ جميع أنواع العزة له، حتى أن العزة الموجودة لدى الكفار، هي منحة الله لهم، كما منحهم الرزق والحياة، وسائر الخيرات للإمتحان والاختبار ﴿**إليه**﴾ تعالى ﴿**يصعد الكلم الطيب**﴾ الكلم جمع كلمة، والطيب صفة مشبهة، أي أن الكلمات الطيبة، من كلمة الإيمان والإرشاد والنصيحة وغيرها، كلها تصعد إليه سبحانه، نافذة لديه، فإذا آمن الإنسان، كان مسموع الكلمة لديه تعالى، وهو خير من كونه مسموع الكلمة عند الكفار ﴿**والعمل الصالح**﴾ الذي هو الخير المأمور به في الشريعة كالصلاة والزكاة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وغيرها ﴿**يرفعه**﴾ سبحانه إلى نفسه، فمن يريد الكفر، ليكون عمله مقبولاً عند الكفار، فإن من آمن، رفع عمله إلى الله سبحانه خالق الكون، وهل تقاس المقبولية، عند الله بالمقبولية عند الناس؟ والمراد بالصعود والرفع الرتبي، باعتبار رفعة الله سبحانه، وسموه المعنوي، أو المراد الخارجي، فإن الأقوال والأعمال ترفع إلى السماء، حيث محل الملائكة، ومأوى أرواح الصالحين ﴿**والذين يمكرون السيئات**﴾ أي يدبرون دقّة الأعمال السيئة في خفية، فإن المجرمين دائماً يدبرون الإجرام والمعاصي في الليالي، وفي بُعد عن

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

عيون الناس ﴿**لهم عذاب شديد**﴾ في الآخرة ﴿**ومكر أولئك هو يبور**﴾ من «بار» إذا فسد، أي أن مكرهم يفسد، ولا يُنفّذ، فنهاية العمل والقول الصالحين، الرفعة والعزة، ونهاية عمل السيئات ومكرها لتحقيق العزة هي البوار والهلاك.

[١٢] ﴿**والله خلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**من تراب**﴾ فإن التراب ينقلب نباتاً، ويأكله الإنسان، أو يأكل الحيوان الذي تكون من النبات، فيصير مبدأ النطفة ﴿**ثم من نطفة**﴾ هي القطعة المائعة من المني، وأصل النطفة الماء القليل ﴿**ثم جعلكم أزواجاً**﴾ ذكراً وأنثى، أو المراد أصنافاً وأشكالاً ﴿**وما تحمل من أنثى**﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، أي لا تحمل أيّ أثر ﴿**ولا تضع**﴾ حملها ﴿**إلا بعلمه**﴾ فالله خالق الإنسان، والعالم بأطواره، حين حمله، ووضعه ﴿**وما يعمّر من معمّر**﴾ المعُمّر ـ بصيغة المفعول من باب التفعيل ـ هو الإنسان، الطويل العمر، أي لا يُمدّ في عمر واحد، وعبّر عنه بالمعمّر، باعتبار الأول، من باب «من قتل قتيلاً فله سلبه» ﴿**ولا ينقص من عمره**﴾ أي من عمر ذلك المعمّر، والمراد به كل أحد، والنقص، إنما هو باعتبار الأعمار العادية، فالعمر العادي إذا كان خمسين سنة، كان الموت قبل ذلك تنقيصاً بالنظر العرفي ﴿**إلا في كتاب**﴾ عند الله سبحانه، فقد كتب كل ذلك، وقدر الأعمار، كما

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٢﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ

قدر سائر الأشياء، ولا يتصور الإنسان كيف يمكن أن يحيط كتاب بهذا القدر الكبير من الأعمار المختلفة للأفراد المتشتتة في مشارق الأرض ومغاربها فـ ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ هيّن، فهو محيط بجميع الأشياء، أو المراد بـ «ذلك» كل ما تقدم من التقديرات، والعلم بها.

[١٣] ثم ينتقل السياق إلى بعض آخر من الآثار الكونية، الدالة على وجود الإله، وصفاته العظيمة ﴿**وما يستوي البحران**﴾ بحر المياه المالحة، وبحر المياه العذبة، فإن الأنهر غالباً تتصل بعضها ببعض، حتى أنها لتكون تحت الأرض، وفوقها بحاراً من المياه المتصلة، ثم أن المراد بالبحر الجنس، لا الشخص ﴿**هذا**﴾ أي أحدهما ﴿**عذب**﴾ أي طيب ﴿**فرات**﴾ صاف ﴿**سائغ شرابه**﴾ إذا شربه الإنسان، لا يلتوي في الحلق، ولا يؤذي اللهات ﴿**وهذا**﴾ الآخر ﴿**ملح**﴾ كأنه من كثرة ملوحته، قطعة ملح، نحو زيد عدل ﴿**أجاج**﴾ من ينشب في الحلق، فمن خلق هذين البحرين يا ترى؟ ﴿**ومن كل**﴾ من البحرين ﴿**تأكلون**﴾ أنتم أيها البشر ﴿**لحماً طرياً**﴾ جديداً، هو السمك، فمع اختلاف البحرين يأتيان بشيء متماثل لمنفعة الإنسان، وإنما سمي السمك، لحماً طرياً، لما اعتادوا ـ في زمن الجاهليين ـ من أكل القديد، بتجفيف لحوم الأنعام ﴿**وتستخرجون**﴾ أي تخرجون بالطلب والغوص، من البحر ﴿**حلية**﴾ أي زينة، هي اللؤلؤ ﴿**تلبسونها**﴾ للتزين ﴿**وترى**﴾ أيها الرائي ﴿**الفلك**﴾ بالضم على وزن أُسد، جمع فُلك على وزن قُفل ـ

فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ

فالمفرد والجمع متساويان وزناً، مختلفان ميزاناً ـ ﴿**فيه**﴾ أي في البحر ﴿**مواخر**﴾ جمع ماخرة، يقال مخرت السفينة الماء إذا شقته لتسير، فمن يا ترى أقدر السفينة على ذلك، وجعل الماء سهلاً، يقبل السير فيه؟ إنه هو الله تعالى، وإنما جعل ذلك ﴿**لتبتغوا**﴾ أي لتطلبوا أنتم أيها البشر ﴿**من فضله**﴾ سبحانه بالتجارة، والانتقال من هنا إلى هناك للإكتساب ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ نعمه عليكم فتسحتقون بذلك الثواب.

[١٤] ﴿**يولج الليل في النهار**﴾ أي يدخل الليل في النهار، إما بزيادة طول الليل وقصر طول النهار، حتى كأن الليل دخل فيه، وإما بإتيان الليل مكان النهار، فهو يدخل في محل النهار، من طرف المشرق، ويطرده رويداً رويداً، حتى يأخذ مكانه ﴿**ويولج النهار في الليل**﴾ بأحد المعنيين السابقين ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ فهما يجريان حسب تدبيره منظماً، بلا تفاوت أو اختلال ﴿**كل**﴾ منهما ﴿**يجري**﴾ باستمرار ﴿**لأجل مسمى**﴾ أي لوقت معلوم، هو يوم القيامة، كما قال سبحانه (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[١] وقال (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)[٢] ﴿**ذلكم الله**﴾ ذلك إشارة إليه سبحانه، و، «كم» خطاب، أي ذلك المتّصف بتلك الصفات، هو، أيها البشر ﴿**ربكم**﴾ الذي لا إله إلا

(١) التكوير: ٢ .

(٢) القيامة: ٩ .

لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٥﴾

هو ﴿**له الملك**﴾ فالمملكة الكونية كلها له بلا شريك ﴿**و**﴾ الأصنام ﴿**الذين تدعون**﴾ أي تدعونهم أيها المشركون ﴿**من دونه**﴾ أي من دون الله تعالى ﴿**ما يملكون**﴾ من الكون ﴿**من قطمير**﴾ هو قشر النواة، أي اللفافة التي فوقها، والمعنى أن الأصنام لا تملك من الكون، بهذا القدر، فكيف تجعلونها شركاء الله؟

[١٥] ﴿**إن تدعوهم**﴾ أي تدعون تلك الأصنام، والإتيان بضمير العاقل، لتوحيد السياق، بين كلام المشركين وردّهم، فإنهم كانوا يعتبرون الأصنام عقلاء مدركين ﴿**لا يسمعوا دعاءكم**﴾ في كشف ضر، أو جلب نفع، فإن قالوا: يسمعون، قلنا: ما الدليل؟ ﴿**ولو سمعوا**﴾ دعاءكم على فرض محال ﴿**ما استجابوا لكم**﴾ أي لا يمكنهم أن يجلبوا نفعاً، أو يدفعوا ضراً، إذ لا يقدرون على ذلك ﴿**ويوم القيامة**﴾ حين ترجون شفاعتهم لكم، حيث كانوا يقولون (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ)[1] ﴿**يكفرون بشرككم**﴾ أي يتبرءون منكم، ومن أنكم اشركتموهم مع الله في العبادة، فيقولون لم عبدتمونا؟ ونحن لا نستحق العبادة؟ وذلك بانطاق الله تعالى، للأصنام، لأن يفضحوا عَبَدتِهِم ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ أي لا يخبرك أيها المستفهم الجاهل أحد مثل ما يخبرك

---

(١) يونس: ١٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٦﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٨﴾

الخبير المطلع، فالله مطلع على أحوال الأصنام، فهو خير من يخبركم عن أحوالها، فاقبلوا كلامه، واتركوا عبادتها، لئلا تقعوا في العذاب والنكال.

[١٦] ﴿**يا أيها الناس**﴾ كيف تنحرفون عن إطاعة الله، أو تكفرون به؟ والحال ﴿**أنتم الفقراء**﴾ المحتاجون ﴿**إلى الله**﴾ سبحانه، في جميع شؤونكم ﴿**والله هو الغني**﴾ عنكم، والذي بإمكانه أن يسد جميع حوائجكم ﴿**الحميد**﴾ المستحق للحمد، بما له من الإنعام والإفضال، فكيف تتركون الله، لتأخذوا الأصنام الفقيرة التي لا تستحق حمداً ولا شكراً، إذ لا شيء لها إطلاقاً؟

[١٧] وهو القادر على أن يعاقبكم بأعمالكم ـ فهو الذي بيده العطية والعقوبة، فاعبدوه رغبة أو رهبة ـ ﴿**إن يشأ**﴾ الله ﴿**يذهبكم**﴾ أي يفنيكم ﴿**ويأت بخلق جديد**﴾ يخلقه من العدم، ويأتي به إلى الوجود، كما خلقكم بعد أن لم تكونوا.

[١٨] ﴿**وما ذلك**﴾ الإفناء لكم، والإتيان بخلق جديد ﴿**على الله**﴾ سبحانه ﴿**بعزيز**﴾ أي بممتنع، بل هو الغالب على أمره، إن شاء شيئاً كوّنه وأوجده.

[١٩] إن الإنسان إلى جنب فقره إلى الله تعالى، وإنه تحت سلطة الله سبحانه، حامل لتبعة أعماله بنفسه، فلا صديق يحمل من الإنسان

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٩﴾

ذنبه، ولا قريب يفيد الإنسان قربه في التخفيف من آثامه، فليعدل الإنسان سلوكه، نحو الله، الذي كان الإنسان بحاجة دائمة إليه، وإن عصى جازاه بنفسه ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أي لا تحمل نفس حاملة إثم نفس أخرى، بل كل امرء بما كسب رهين، فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا يُلقى ذنب أحد على أحد ﴿**وإن تدع**﴾ نفس ﴿**مثقلة**﴾ بالآثام، غيرها ﴿**إلى حملها**﴾ أي حمل آثامها، كأن يدعو العاصي صديقه، ليحمل بعض آثامه وخطاياه ﴿**لا يحمل**﴾ أي لا يحمل ذلك الغير ﴿**منه**﴾ أي من ذلك الحمل ﴿**شيء**﴾ قليل ﴿**ولو كان**﴾ ذلك الغير المدعو ﴿**ذا قربى**﴾ أي صاحب قرابة مع هذا العاصي الحامل لأوزار نفسه، قال ابن عباس: يقول الأب والأم، يا بُني احمل عني، فيقول حسبي عملي، ولا تيأس يا رسول الله، من عدم تأثير بلاغك في هؤلاء الكفار، فإن بلاغك يؤثر في المؤمنين، وذلك كاف لك ﴿**إنما تنذر**﴾ يا رسول الله الإنذار المؤثر ﴿**الذين يخشون ربهم بالغيب**﴾ أي أنهم يخافون من الله سبحانه، وهو غائب عن حواسهم ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ بإتيانها كاملة بشروطها وآدابها ﴿**ومن تزكى**﴾ أي تطهّر بعمل الطاعة، والاجتناب عن المعصية ﴿**فإنما يتزكى لنفسه**﴾ أي أن فائدة طهارته، تعود إلى نفسه ﴿**وإلى الله المصير**﴾ فمن آمن وتزكى، جزاه

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ

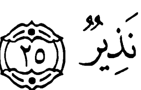
بجنات النعيم، ومن كفر وتولى، عاقبه بالنار والجحيم، ومعنى إلى الله: إلى ثواب الله وعقابه، تشبيهاً للصيرورة المعنوية، بالصيرورة الحسية.

[٢٠] ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير**﴾ فالكافر كالأعمى لأنه تعامى عن الحق، والمؤمن كالبصير، لأنه أبصر، ورأى الحق والحقيقة.

[٢١] ﴿**ولا**﴾ يستوي ﴿**الظلمات ولا النور**﴾ «لا» زائدة للتأكيد، والشرك كالظلمة، إذ لا يرى الإنسان الذي فيه الحقائق والإيمان، كالنور الذي يرى فيه الإنسان الأشياء، والإتيان بظلمات جمعاً، لأن الشرك مستلزم لأنواع المعاصي، وكل واحد منها ظلمة وحلوك.

[٢٢] ﴿**ولا**﴾ يستوي ﴿**الظل**﴾ الذي يستريح فيه الإنسان ﴿**ولا الحرور**﴾ وهي الريح الحارة السامة، التي تهب في الشمس، وتوجب الهلاك، أو المرض والأذية، وهما مثل الجنة والنار، أو الإيمان والكفر.

[٢٣] ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾ فالكافر كالميت، إذ لا يأتي منه الخير، كما لا يأتي من الميت خير، والمؤمن كالحي، إذ يتأتى منه جميع صنوف الخير لنفسه ولغيره، ولا تغتم يا رسول الله، إذا رأيت إعراض الكفار، فإنهم، حيث أعرضوا عن الهدى، لم يلطف الله بهم ألطافه الخفية، ولذا تاهوا في ظلمات الكفر والضلالة ﴿**إن الله يسمع من يشاء**﴾ أي إسماعاً نافعاً، وإنما يشاء سبحانه إسماع من إذا رأى

وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ 

الحق تبعه، أما من إذا رأى الحق ابتعد عنه وأعرض، فلا يسمعه الله ـ فوق أصل الإبلاغ ـ شيئاً آخر من قبيل الألطاف الخفية الموجبة للسعادة ﴿**وما أنت**﴾ يا رسول الله ﴿**بمسمع**﴾ أي بقادر على أن تسمع إسماعاً نافعاً ﴿**من في القبور**﴾ فإن هؤلاء الكفار كالأموات في المقابر، الذين لايتمكن الرسول من إسماعهم، فكما حال الموت بين أولئك، وبين السماع النافع، كذلك حال موت القلوب، وانحراف النفوس بين هؤلاء، وبين أن يسمعوا إنذار الرسول وإرشاده.

[٢٤] ﴿**إن أنت**﴾ أي ما أنت يا رسول الله ﴿**إلا نذير**﴾ تنذر وقد أنذرت هؤلاء، أما هدايتهم، فليست عليك، فلا تحزن عليهم.

[٢٥] ﴿**إنا أرسلناك**﴾ يا رسول الله ﴿**بالحق**﴾ أي إرسالاً بالحق، لا بالباطل، لأجل اللهو واللعب، والإفساد، وما أشبه، من الإرسالات الباطلة، فإذا أرسل أحد آخر للإفساد، كان إرسالاً باطلاً، وإذا أرسل أحد آخر للإصلاح، كان إرسالاً بالحق، في حال كونك ﴿**بشيراً**﴾ تبشر المؤمنين المطيعين بالجنان ﴿**ونذيراً**﴾ تنذر الكفار والعاصين بالنيران، فشأنك البشارة والإنذار، ولا يرتبط بك، من آمن، ومن لم يؤمن ﴿**وإن من أمة**﴾ ما من أمة من الأمم السابقة ﴿**إلا خلا**﴾ أي مضى ﴿**فيها**﴾ في تلك الأمة ﴿**نذير**﴾ ينذرهم إذا كفروا وعصوا، قوبلوا بالعقاب والنكال، فأنت مثل أولئك المنذرين، وكما أنه لم يضرهم عدم استجابة الأمم كذلك لا يضرك عدم إستجابة الناس لك.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ

[٢٦] ﴿**وإن يكذبوك**﴾ يا رسول الله، هؤلاء الكفار، بأن يقولوا، أنت كاذب، لست من قبل الله سبحانه ﴿**فـ**﴾ ليس شيئاً جديداً، إذ ﴿**قد كذب**﴾ الأمم ﴿**الذين من قبلهم**﴾ أنبياءهم، حين ﴿**جاءتهم رسلهم**﴾ جمع رسول، ويجوز الإتيان بالفعل، مذكراً ومؤنثاً، إذا كان الفاعل، جمع غير مذكر سالم، قال ابن مالك:

والتاء مع جمع سوى السالم
مذكر كالتاء مع إحدى اللبن

﴿**بالبينات**﴾ أي الحجج الواضحة الدالة على كونهم مرسلين، كالمعجزات، والخوارق ﴿**وبالزبر**﴾ كالكتب المتفرقة التي فيها الحكم والنصائح، كما جاء النبي ﷺ، بالأحاديث القدسية، وقِطعاً من حِكَم موسى وعيسى ﵉ ﴿**وبالكتاب المنير**﴾ أي النيّر الذي فيه تعاليم السماء، كان الأنبياء يأتون إلى الأمم بكل ذلك، ومع ذلك كانت الأمم تكذبهم.

[٢٧] ﴿**ثم أخذت**﴾ بالعذاب والنكال ﴿**الذين كفروا**﴾ بالله وأنبيائه، بعد إتمام الحجة ﴿**فكيف كان نكير**﴾ أي إنكاري، للمكذبين؟ وهذا استفهام استشفائي، فيه تسلية للرسول ﷺ، وإنذار لكفار مكة.

[٢٨] ثم يرتد السياق ليذكّر الكفار، بجملة من الآيات الكونية ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، والخطاب، وإن كان له لكن المراد به العموم، أو ألم تر

أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ

أيها الرائي ﴿**أن الله أنزل من السماء ماء**﴾ هو المطر ﴿**فأخرجنا**﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم الذي هو فن من فنون البلاغة ﴿**به**﴾ أي بذلك المطر ﴿**ثمرات**﴾ جمع ثمرة، وهي فاكهة الشجر التي تجتنى منها ﴿**مختلفاً ألوانها**﴾ أي ألوان تلك الثمرات، فأحمر، وأخضر، وأبيض، وأصفر، وأزرق، وغيرها، من سائر الألوان، وذو لونين، وذو ألوان، وهكذا، ويحتمل أن يراد باللون الأعم من جميع ما يدرك بسائر الحواس، من الأشكال والحجوم والطعوم، والروائح وغيرها، فإن اللون قد يطلق توسعاً على الجميع ﴿**و**﴾ كما أن الثمار، مختلفة الألوان كذلك ﴿**من الجبال جدد**﴾ مفردها جدة، كغرف، وغرفة، والمراد بها الطرق ﴿**بيض وحمر**﴾ أي طرق في الجبال ـ إما المراد طرق السير، وإما الامتدادات، فإن الإنسان يرى الجبل فيه قطعة ممتدة حمراء، وقطعة ممتدة بيضاء، وسميت طريقاً تشبيهاً ـ وبيض جمع أبيض، كما أن حمر جمع أحمر ﴿**مختلف ألوانها**﴾ أي ألوان تلك الطرق الموجودة في الجبال ﴿**وغرابيب سود**﴾ جمع غربيب، وهو الشديد السواد، الذي يشبه لون الغراب، وسود جمع أسود، أي ومن تلك الطرق مثل لون الغراب أسود، فسود عطف بيان لغرابيب.

[٢٩] ﴿**و**﴾ كما أن الثمار، والجبال مختلف ألوانها، كذلك ﴿**من الناس والدواب**﴾ جمع دابة، وهي الحيوانات التي تدب في الأرض ﴿**والأنعام**﴾ جمع نعم، وهي الإبل والبقر، والغنم، خلق ﴿**مختلف**

أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

ألوانه كذلك﴾ أي كالذي تقدم من الثمار والجبال، فهذا إنسان حبشي أسود، وهذا صيني أصفر، وهذا آسيوي أبيض وأحمر، وهذه هرة بيضاء، وهذه هرة سوداء، وهذه نعجة حمراء، وتلك صفراء، وهكذا، فمن يا ترى خلق هذه الألوان؟ ومن يا ترى خلط هذه الألوان، بأجسام هذه المخلوقات؟ وقد تقرر في العلم الحديث، أن أقسام الألوان «ثلاثمائة ألف» إنه هو الله الخالق المبدع المنشئ العظيم **﴿إنما يخشى الله﴾** مفعول يخشى **﴿من عباده العلماء﴾** فاعل يخشى، أي يخشى من الله، العلماء من أقسام عباده، فإن الإنسان، إنما يخاف من الأسد ـ مثلاً ـ إذا عرفه، أما الجاهل بوجوده، أو ببأسه، فإنه لايخاف منه، وكذلك الجاهل، بأصل وجود الله أو ببأسه وبطشه لايخشاه، وإنما العالم به وبعذابه، لمن عصاه يخشاه تعالى، ويخافه **﴿إن الله عزيز﴾** غالب في سلطانه، فاللازم أن يخشاه العصاة **﴿غفور﴾** لمن آب وأناب، فلا ييأس من عفوه، وغفرانه، العاصون.

[٣٠] **﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾** أي يقرءون حق قراءته للعمل والاتباع، والمراد بكتاب الله هو القرآن **﴿وأقاموا الصلاة﴾** بآدابها، وشرائطها، والاهتمام بالصلاة، في كل مكان، لأجل أنها خير وسيلة لتركيز الإيمان في القلب، بسبب استمرارها، وإيحائها بعظمة الله وارتفاعه، في النفوس، ولذا كان المصلون أقل الناس شراً وإثماً، وأكثرهم رحمة، وخيراً ونزاهةً **﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾** عام يشمل جميع أنواع

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝٣٠ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣١ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾

الرزق، من مال وجاه، وغيرهما ﴿**سراً وعلانية**﴾ أي في جميع أحوالهم، فلا يفرق عندهم، السر والعلانية، في البذل والإنفاق ﴿**يرجون**﴾ بهذه الأعمال ﴿**تجارة لن تبور**﴾ أي لن تفسد، ولن تهلك، والمراد بالتجارة، نتيجة التجارة، وهي الثواب العائد إليهم من جزاء أعمالهم الصالحة، فلا يريدون بأعمالهم الرياء والسمعة، وإنما وجه الله سبحانه وثوابه.

[٣١] وإنما يفعلون هذه الأعمال، ويرجون الثواب، ﴿**لـ**﴾ أن ﴿ **يوفيهم**﴾ الله ﴿**أجورهم**﴾، كما تقول عملت لزيد، ورجوته، ليعطيني أجري، ومعنى وفاء الأجور، إعطائها كاملة، غير منقوصة ﴿**ويزيدهم**﴾ على ما يستحقون ﴿**من فضله**﴾ وإحسانه، كما قال تعالى، (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)(١). . وخبر «إنّ» محذوف، أي إن الذين يعملون تلك الأعمال، للأجر والثواب، يعطيهم الله ما يترقبونه، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿**إنه غفور شكور**﴾ عليه، فمن عمل ذلك، غفر الله ذنبه، وشكر عمله، وشكر الله للعمل: إعطاء جزائه وثوابه لمن عَمل.

[٣٢] وبمناسبة الحديث، عن الذين يتلون الكتاب، يأتي السياق، لبيان حال الكتاب ﴿**والذي أوحينا إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**من الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**هو الحق**﴾ الصحيح لا يشوبه فساد، وباطل، كأن تكون قصصه

---

(١) الأنعام: ١٦١ .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ

كاذبة، أو أحكامه موجبة للفساد، في حال كونه ﴿**مصدقاً لما بين يديه**﴾ أي يصدق الكتب السابقة عليه من التوراة والإنجيل، وغيرهما، من سائر كتب الأنبياء ﴿**إن الله بعباده لخبير**﴾ مطلع على أحوالهم، يعلم ما يصلحهم، وما يفسدهم، كما يعلم من يؤمن، ممن لا يؤمن ﴿**بصير**﴾ ناظر إلى أعمالهم.

[٣٣] ﴿**ثم**﴾ بعد إنزال الكتاب عليك، يا رسول الله ﴿**أورثنا الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**الذين اصطفينا من عبادنا**﴾ أي أعطيناه للمسلمين بالإرث، والمراد بالإرث، انتقاله إليهم، كما ينتقل المال من المورث إلى الوارث، فقد انتقل القرآن من النبي ﷺ إلى المسلمين، وقد اصطفى الله المسلمين، لحمل هذه الرسالة، كما قال (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[١] ثم بين سبحانه، إن هؤلاء العباد، على ثلاثة أقسام ﴿**فمنهم**﴾ أي بعضهم، وهم الأغلب ﴿**ظالم لنفسه**﴾ يرتكب بعض المعاصي، وهذا لا ينافي الاصطفاء، فإن المراد، اصطفاء المجموع، من حيث المجموع، في مقابل الكفار والمشركين، وأهل الكتاب ﴿**ومنهم**﴾ أي بعضهم، وهم الأقل ﴿**مقتصد**﴾ متوسط، بين الطاعة والمعصية فليس من الظالمين، ولا من الصلحاء الأخيار ﴿**ومنهم**﴾ وهم الأقل ﴿**سابق بالخيرات**﴾ أي ليسبق الناس في عمل الأعمال

(١) آل عمران: ١١١ .

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٤﴾

الخيرية ﴿**بإذن الله**﴾ ومشيئته، وهذا من أظهر مصاديقه الأئمة الطاهرين، ثم الأصلح فالأصلح من الأمة، ولذا قال الباقر عليه السلام: «أما السابق بالخيرات، فعلي بن أبي طالب، والحسن والحسين عليهما السلام والشهيد منا، وأما المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل، وأما الظالم لنفسه، ففيه ما في الناس، وهو مغفور له»[1] ﴿**ذلك**﴾ التوريث، للكتاب لهذه الأمة ﴿**هو الفضل الكبير**﴾ إذ قد رآهم الله سبحانه، أهلاً لحمل هذه الأمانة الرفيعة، وإبلاغها للناس.

[٣٤] ولهؤلاء ﴿**جنات عدن**﴾ عدن بالمكان، بمعنى أقام فيه، أي البساتين التي يخلو فيها من يدخل ﴿**يدخلونها**﴾ أي يدخلون تلك الجنات «عبادنا» حتى الظالم منهم، بعد أن يكون من ورثة الكتاب بالإيمان الكامل، وإنما عصى جهلاً، كسائر العصاة، الذين صحت عقيدتهم، وإنما خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، أما من اختل إيمانه، فليس بمسلم مؤمن، حتى يشمل في عموم «عبادنا» ﴿**يحلون فيها**﴾ أي يلبسهم الله الحلو ﴿**من أساور**﴾ جمع أسورة، ومفردها سوار، وهو ما يجعل في اليد بين المرفق، والزند ﴿**من ذهب ولؤلؤاً**﴾ أي ويحلون فيها لؤلؤاً، وقد كان مرسوم الملوك والكبراء لبس الأساور ﴿**ولباسهم فيها**﴾ أي في تلك الجنات ﴿**حرير**﴾ وهو الابريسم المحض.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣ ص٢١٨ .

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٥﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ

[٣٥] وبالإضافة إلى هذه النعم الجسمية، يتنعّم أهل الجنة بالنعم الروحية ﴿**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ الأحزان، التي تنتاب الإنسان في الدنيا، فلا حزن هناك ولاغم، بل سرور وحبور ﴿**إن ربنا لغفور**﴾ لذنوبنا ومعاصينا ﴿**شكور**﴾ لطاعاتنا وعبادتنا، ومن شكره، أنه تفضل علينا بهذه النعم الجسام، فإن الشخص إنما يعطي العامل الجزاء، إذا شكر عمله، وقبله بقبول حسن.

[٣٦] الله ﴿**الذي أحلنا**﴾ أي أنزلنا ﴿**دار المقامة**﴾ أي دار الخلود، التي نقيم فيها إلى الأبد ﴿**من فضله**﴾ وكرمه، وإلا فليست أعمالنا بقدر تستحق به هذا الجزاء العظيم ﴿**لا يمسنا فيها نصب**﴾ أي لا يصيبنا في دار المقامة عناء ومشقة وتعب ﴿**ولا يمسنا فيها لغوب**﴾ وهو المشقة في طلب المعاش، أو نحو ذلك.

[٣٧] وفي مقابل هؤلاء، الكفار الذين لم يقبلوا هذا الكتاب، فلننظر ماذا لهم هناك؟ ﴿**والذين كفروا**﴾ بالله ورسوله، واليوم الآخر، وما يلزم الإيمان به ﴿**لهم نار جهنم**﴾ جزاءً على كفرهم ﴿**لا يقضى عليهم**﴾ بالموت أي لا يحكم الله عليهم بالموت ﴿**فيموتوا**﴾ ويستريحوا من العذاب ﴿**ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ أي لا يُقلل عذاب جهنم

كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٧﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٨﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ

﴿**كذلك**﴾ الذي ذكرنا من تعذيب هؤلاء الكفار بالنار ﴿**نجزي كل كفور**﴾ كثير الكفر المستمر عليه.

[٣٨] ﴿**وهم**﴾ أي الكفار ﴿**يصطرخون**﴾ أي يتصايحون من شدة العذاب، أصله «صرخ» بمعنى صاح، وهذا من باب الافتعال، قلبت تائه طاءً على القاعدة ﴿**فيها**﴾ أي في جهنم، يقولون ﴿**ربنا أخرجنا**﴾ من جهنم ﴿**نعمل**﴾ عملاً ﴿**صالحاً**﴾، بعد إخراجنا ﴿**غير الذي كنا نعمل**﴾ من الكفر والمعاصي، لكن يأتيهم التوبيخ والتقريع ﴿**أو لم نعمركم**﴾ أي نعطيكم العمر الكثير في الدنيا، بقدر ﴿**ما يتذكر فيه**﴾ أي في ذلك العمر ﴿**من تذكر**﴾ فلو كنتم تريدون التذكر والتوبة، كان لكم من العمر ما يكفي ذلك ﴿**وجاءكم النذير**﴾ وهو الرسول ﷺ؟ ومع ذلك لم تؤمنوا، ولم تطيعوا، وقد أخبر سبحانه في آية أخرى بقوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[1] ﴿**فذوقوا**﴾ العذاب ﴿**فما للظالمين من نصير**﴾ ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب.

[٣٩] ﴿**إن الله عالم غيب السماوات والأرض**﴾ فالله سبحانه، كما أنه

---

(١) الأنعام: ٢٩.

إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٩﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

خالقهما، عالم بما غاب عن الحواس، في السماوات والأرض ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ أي بالأشياء، التي تدور في صدور الناس، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا، باعتبار أنه يعلم ما في صدور الكفار، من أنهم، لا ينوون الإقلاع، صدقاً، إن رجعوا إلى الدنيا، كما هو شأن المعاند دائماً، ولذا قال سبحانه «وإنهم لكاذبون».

[٤٠] ﴿**هو الذي جعلكم خلائف**﴾ أي خلفاء للسابقين ﴿**في الأرض**﴾ تخلفونهم، في مكانهم، لتعتبروا بهم، وأنهم حين عصوا أُهلكوا ﴿**فمن كفر فعليه كفره**﴾ أي أن عاقبة كفره السيئة على نفسه، فإنه يتضرر بجزاء كفره ﴿**ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً**﴾ وهو أشد الغضب، فكلما بقوا في الكفر إزداد غضب الله عليهم ﴿**ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً**﴾ خسارة لخير الدنيا، وسعادة الآخرة، فلهم عذاب نفسي، هو مقت الله لهم، وعذاب جسمي هو الخسارة.

[٤١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿**أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله**﴾ أي أخبروني عن هؤلاء الشركاء ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض**﴾ فهل خلقوا بعض الأشياء الموجودة في الأرض؟ ﴿**أم لهم شرك في السماوات**﴾ أم هل اشتركوا في خلق بعض الأمور

أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ

الكائنة في السماء؟ حتى تقولون أنهم شركاء لله سبحانه، في العبادة، لأنهم اشتركوا معه، في خلق بعض الأشياء، في الكون ﴿**أم آتيناهم كتاباً**﴾ أي أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً يصدق عقيدتهم، بأن ينصر ذلك الكتاب على وجود شركاء لله سبحانه ﴿**فهم**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**على بينة**﴾ أي على حجة ظاهرة ﴿**منه**﴾ أي من الشرك، فلهم حجة ظاهرة عليه، أو من ذلك الكتاب؟ لكن لم يكن مستند شركهم، لا هذا، ولا ذاك، ولا ذلك ﴿**بل إن يعد**﴾ أي ما يعد ﴿**الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً**﴾ فيقول بعضهم لبعض أن طريقتنا أحسن وأن النصر لنا بالآخرة، والغرور هو الذي يُطمع فيه، ولكن لا حقيقة له.

[٤٢] إن السماوات والأرض، كلها مخلوقة لله سبحانه، وكما خلقهما يحفظهما عن الزوال، والتفكك، وليس لصنم شرك في خلقهما أو إبقائهما ﴿**إن الله**﴾ تعالى ﴿**يمسك**﴾ أي يحفظ ﴿**السماوات والأرض**﴾ بمن فيهما ﴿**أن تزولا**﴾ أي كراهية أن تزولا عن مواضعهما، فلو انقطعت عناية الله عنهما، وعن هذا النظام، لاضطربت أوضاع الكون، فزالت المدارات والأنجم من مواضعها، وهلك كثير من السكان، واضطربت الأرض، كما أنه لو انقطعت العناية، عن أصل وجودهما عدمتا في اللحظة والآن ﴿**ولئن زالتا**﴾ أي قُدّر زوالهما ﴿**إن أمسكهما**﴾ أي ما أمسكهما، وما قدر على حفظهما ﴿**من أحد من**

بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٣﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ

بعده﴾ أي من بعد الله سبحانه، فليس هناك أحد يتمكن أن يحفظ شيئاً منهما **﴿إنه كان حليماً﴾** ومن حلمه، لا يعجل بالعقوبة على الذين يجعلون لله شركاء **﴿غفوراً﴾** يغفر الذنب لمن أناب، وفي هذا فتح التوبة على المشركين، كي لا ييأسوا من روح الله، فإنه تعالى يقبلهم إن رجعوا عن شركهم.

[٤٣] إن الكفار بالإضافة إلى رذيلة الكفر، ارتكبوا رذيلة خلف الحلف والعهد **﴿و﴾** ذلك لأنهم **﴿أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾** أي بأيمان غليظة، حسب غاية قدرتهم وطاقتهم، و«جهد» مصدر، أي جهدوا في القسم جهداً، أو أقسموا هنا النوع من القسم **﴿لئن جاءهم نذير﴾** أي رسول ينذرهم **﴿ليكونن أهدى﴾** أي أقبل للهداية **﴿من إحدى الأمم﴾** الماضية، فقد كانوا يسمعون أنباء الأنبياء مع قومهم ـ من أهل الكتاب ـ فيقولون، إن جاءنا رسول، نقبل قوله فوراً، بلا معارضة، أو مناقشة، ويحلفون على ذلك بالأيمان المغلطة **﴿فلما جاءهم نذير﴾** هو الرسول ﷺ **﴿ما زادهم﴾** مجيئه **﴿إلا نفوراً﴾** أي تباعداً عن الحق، فقد كان قلبهم، يلين للحق سابقاً، أما إذا رأوه فقد ابتعدوا عنه، ابتعاداً كبيراً.

[٤٤] وإنما نفروا نفوراً **﴿استكباراً في الأرض﴾** أي لأنهم استكبروا وتجبروا عن أن يكونوا تبعاً للرسول، فقد طلبوا الكبرياء في الأرض لأنفسهم

وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿**ومكر السيئ**﴾ أي قصدوا أن يمكروا المكر السيئ بالمؤمنين والمكر حيث كان بمعنى التدبير الخفي ضد العدو، صح إضافته إلى السيئ، لأن من المكر، ما هو حسن، إذا كان ضد عدو الدين، كما قال «ومكر الله» ﴿**و**﴾ لكنهم غفلوا من أنه ﴿**لا يحيق المكر السيئ**﴾ صفة مكر، وفي ما تقدم، كان مضافاً إلى السيئ، والمعنى لا يحيط جزاء المكر السيئ ﴿**إلا بأهله**﴾ أي بأهل المكر، كما قالوا: «من حفر بئراً لأخيه، وقع فيه» فقد قرر سبحانه، أن يرجع المكر السيئ إلى من مكر، كما قال: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)[1] ﴿**فهل ينظرون**﴾ أي هل ينتظر هؤلاء الكفار المستكبرين الماكرون ﴿**إلا سنة الأولين**﴾ بأن تجري فيهم، عادة الله في الأمم السابقة، التي كانت تكذب أنبياءها عليهم السلام، والعادة هي أن يعمهم الله بعقاب يهلكهم أي هل ينتظر هؤلاء عقاب الله؟ وإلا فلماذا لايؤمنون، بعد أن رأوا الحق ظاهراً، فإن كانوا ينتظرون ذلك ﴿**فلن تجد**﴾ يا رسول الله ﴿**لسنة الله تبديلاً**﴾ والمعنى، فسيأتيهم العذاب، إذ لا تُبدّل سنة الله، التي سنّها للمكذبين، من أنه لما تمت عليهم الحجة، ولم يرتدعوا عمهم بالعقاب، والنكال ﴿**ولن تجد**﴾ يا رسول الله ﴿**لسنة الله تحويلاً**﴾ فالتبديل مثل أن يكون جزاء المكذب المرض، فيبدّله الله سبحانه، بأن

(١) الأنفال: ٣١ .

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٥﴾

يجعل جزاء المكذب الصحة، والتحويل مثل أن يكون جزاء المكذب المرض في الدنيا، فيحوله إلى المرض في الآخرة، أو أن يكون المرض في المكذبين، فيحوله إلى المرض في المؤمنين، وإنما جيء، بـ «ينظرون» مكان «ينتظرون» لأن المنتظر لشيء، ينظر ليرى، هل صار أم لا، وهذا لا يكون، إلا قرب وقت الشيء الذي ينتظره، فكأنه قرب العذاب إليهم، فهم ينظرون ليروه، بخلاف «ينتظرون» فإنه يلائم الأمر البعيد المرتقب.

[٤٥] ﴿**أو لم يسيروا**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**في الأرض**﴾ التي أُهلك أهلها، كأرض عاد وثمود، وأرض سدوم، وغيرها ﴿**فينظروا**﴾ بأعينهم ﴿**كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ من الأمم الذين كذبوا أنبياءهم، فأخذهم الله بالعقاب ﴿**وكانوا**﴾ أولئك الذين أُهلكوا ﴿**أشد منهم**﴾ أي من هؤلاء الكفار ﴿**قوة**﴾ في أبدانهم، وفي سائر مرافق حياتهم ﴿**و**﴾ إذ صار وقت هلاكهم، لم يقف دون إرادة الله قواهم الكثيرة، إذ ﴿**ما كان الله ليعجزه من شيء**﴾ بأن تكون القوة سبباً لعجز الله عن تنفيذ إرادته في هلاك القوم ﴿**في السماوات ولا في الأرض**﴾ أي ليس، في السماء ولا في الأرض، شيء يقف أمام إرادة الله، فإذ قد أُهلك أولئك الذين كانوا أشد من هؤلاء قوة، فهل يتمكن هؤلاء الأضعفون، إن يقفوا أمام العذاب؟ ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**كان عليماً**﴾ بجميع الأشياء يعلم ما يفعل كل إنسان ﴿**قديراً**﴾ بأن يجازيه حسب عمله، فليقلع هؤلاء

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٦﴾

الكفار، عن غيهم وكفرهم، وإلا كان مصيرهم، مصير الأمم الماضية.

[٤٦] ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا**﴾ من الكفر والعصيان ﴿**ما ترك على ظهرها**﴾ أي ظهر الأرض ﴿**من دابة**﴾ تدب على وجه الأرض، إذ قد خلقت الأشياء لأجل الإنسان، فإذا أُهلك الإنسان لكفره وعصيانه لزم فناء سائر الحيوانات، لأنه قد فنى ما لأجله خُلقت، أو أن المراد، أن العذاب، لو نزل لعمَّ الكل، فلا تبقى دابة في الأرض، فإنه إذا كان هناك جماعة بعضهم مجرم، وبعضهم صالح، وجاء السيل لأخذ المجرم، أخذ البريء معه، وهذا لا ينافي العدل، إذ يكون ذلك سبباً لرفع درجات البريء ـ كما قرر في علم الكلام ـ بأن الآفات إما للتأديب أو للتعذيب، أو لرفع الدرجة ﴿**ولكن يؤخرهم**﴾ الله سبحانه ﴿**إلى أجل مسمى**﴾ أي قد سماه في اللوح المحفوظ، فقد علّم على مدة بقاء زيد بسنة كذا ولبقاء عمرو بسنة كذا، وهكذا، والاسم في اللغة بمعنى العلامة، ومنه سمي علم الأشخاص إسماً ﴿**فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً**﴾ عارفاً بأحوالهم، فيجازيهم حسب ما عملوا، كما يقول الحاكم، مهدداً للمجرمين إذا جاء يوم المحاكمة، أنا أعرف الناس، أي لا أشتبه في الحكم على المجرم بالعقاب، وأميزه على الصالح البريء.



سُورة يس

مكيّة/ آياتها (٨٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لابتدائها، بـ «يس» وهو كما ورد من أسماء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما لا ينافي في أن يكون «رمزاً» أيضاً، وينطبق عليه بعض الأقوال الأخر، في المقطعات، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضية العقيدة، في أسلوب جذّاب، وإذ كان في أواخر سورة فاطر، أنهم لم يؤمنوا بالرسول، بعد إذ جاءهم، افتتحت هذه السورة، بالحلف الأكيد، على كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مرسلاً من قبل الله سبحانه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي من ابتدأ باسمه في أعماله، كان العمل قريباً بالخير، والتمام، وإن لم يبتدأ به، كان أبعد عن الخير، وإن تمّ في الظاهر، فإن طابع الله سبحانه، إذا لم يوضع على شيء فنى فيما يفني من زهرة الحياة الدنيا، والإتيان بوصفي الرحمن والرحيم، للتأكيد على هاتين الصفتين في الإله سبحانه، مقابل آلهة الكفار الذين يتصفون بالقساوة والغلظة.

يسٓ ﴿٢﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٦﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ

[٢] ﴿**يس**﴾ اسم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد عن الباقر عليه السلام، قال: «إن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أسماء في القرآن، محمد، وأحمد، وعبد الله، ويس، ونون»[1]، أو رمز بين الله وبين الرسول والأئمة عليهم السلام، أو غير ذلك من الأقوال، وعلى الأول يكون «منادى» أي «يا رسول الله».

[٣] ﴿**والقرآن الحكيم**﴾ حلف بالقرآن وإنما سمي القرآن حكيماً، لما فيه من الأحكام الحكيمة، التي جاءت حسب الصلاح، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها.

[٤] ﴿**إنك**﴾ يا رسول الله ﴿**لمن المرسلين**﴾، فلست كاذباً، كما يزعم هؤلاء بل قد أرسلك الله إلى الناس بشيراً ونذيراً.

[٥] في حال كونك ﴿**على صراط مستقيم**﴾ أي تسلك الطريق الذي لا انحراف له، في العقيدة والعمل، وإنما جيء بـ «على» تشبيهاً بمن كان يمشي على الطريق، لاستعلائه عليه.

[٦] في حال كون القرآن ﴿**تنزيل العزيز الرحيم**﴾ العزيز في سلطانه، فلا يريد شيئاً، إلا عمله، الرحيم بعباده.

[٧] ﴿**لتنذر قوماً**﴾ وهم كفار مكة ﴿**ما أنذر آباؤهم**﴾ أي لم يُنذر آباؤهم، لأنهم كانوا، بلا أنبياء، في زمن فترة بين المسيح والرسول عليهما السلام، أو

---

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص٩٦.

فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ

أن «ما» موصولة، أي تنذرهم، كما أنذر آباؤهم، لكن ظاهر «الفاء» تفيد الأول ﴿**فهم غافلون**﴾ عن الإصول والآداب، والنظام، وإنما عُبّر بالغفلة، لأن الإنسان يكمن في نفسه الأصول والآداب (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)(1) وإنما يغفل عنها، بسبب الأهواء، والشهوات، والتقاليد.

[٨] ﴿**لقد حق القول على أكثرهم**﴾ ثبت القول بالعذاب، على أكثر هؤلاء القوم، لعنادهم ولجاجهم في الأمر، بعد تبين الحق، ووضوح الحجة ﴿**فهم لا يؤمنون**﴾ فقد علم الله عدم إيمانهم، أو أن المراد، أنه ثبت القول، بعدم الإيمان عليهم، بما علم الله فيهم من العناد واللجاج، فهم لا يؤمنون.

[٩] إن هؤلاء الكفار في إعراضهم كالإنسان الذي غُلّت يديه مع عنقه، وغشي على بصره، فكيف أنه لا يتمكن أن يشرئب عنقه ليرى، ولا أن يلمس بيده ليعلم، ولا أن ينظر ببصره ليرى، فإن هذه الأعضاء الثلاثة تتعاون في فهم الشيء، وحيث أن الله سبحانه، يرى من إنسان الإعراض عن الحق واللجاج، يتركه حتى يضل ويتيه في أودية العماية، فكأنّه أضلّه لأنه تركه، كما يقال: الملك أفسد الناس إذ تركهم حتى فسدوا ﴿**إنا جعلنا في أعناقهم**﴾ أي أعناق هؤلاء الكفار المعاندين ﴿**أغلالاً**﴾ جمع غل، وهو السلسلة التي يربط بها المجرم في عنقه أو يده أو رجله ﴿**فهي**﴾ أي تلك الأغلال ﴿**إلى الأذقان**﴾ بأن

---

(١) الروم: ٣١ .

فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾

كانت كبيرة، حتى وصلت إلى أذقانهم، ليرفعها نحو الفوق، فلا يتمكنون من النظر بعيونهم أمامهم، فإن رؤوسهم بسبب تلك الأغلال مرفوعة نحو السماء، وقيل أن المراد أيديهم مغلولة إلى الأعناق، فـ «هي» عائدة إلى الأيدي المفهومة من السياق، وأذقان جمع ذقن، وهو النتو وسط الفك السفلي ﴿**فهم مقمحون**﴾ من قمح، بمعنى رفع رأسه إلى فوق، فإن الأغلال، لما امتدت إلى تحت أذقانهم، رفعت رؤوسهم إلى السماء، حتى لايتمكنون من النظر أمامهم.

[١٠] ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً**﴾ أي أمامهم سدّ عن قبول الحق ﴿**ومن خلفهم سداً**﴾ فكما أن الإنسان الذي حُصر بين سدين، لايتمكن من السير والحركة، كذلك هؤلاء لا يتمكنون من السير مع الحق، وإنما هم جامدون في مكانهم ﴿**فأغشيناهم**﴾ أي جعلنا على أبصارهم غشاوة، تمنعهم عن الإبصار ﴿**فهم لا يبصرون**﴾ الحق، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، ونفر من أهل بيته، وذلك «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قام يصلي، وقد حلف أبو جهل لعنه الله، لئن رآه يصلي ليدمغنّه فجاءه ومعه حجر والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، قائم يصلي، فجعل كلما رفع الحجر ليرميه، أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه، ولا يدور الحجر بيده، فلما رجع إلى أصحابه، سقط الحجر من يده، ثم قام رجل آخر، وهو من رهطه أيضاً، فقال: أنا أقتله، فلما دنا منه جعل يستمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأُرعب، ورأى كأن فحلاً حائلاً بينه وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فرجع إلى أصحابه، فقال: حال بيني وبينه، كهيئة الفحل يخطر بذنبه ـ أي يحرك ذنبه

وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ

غضباً ـ فخفت أن أتقدم»[1].

[١١] ﴿**وسواء عليهم**﴾ أي على هؤلاء الكفار ﴿**ءأنذرتهم**﴾ يا رسول الله ﴿**أم لم تنذرهم**﴾ عن العقاب والنار ﴿**لا يؤمنون**﴾ إذ قد عاندوا الحق، والمعاند يتساوى عند الإنذار وعدمه.

[١٢] ﴿**إنما تنذر**﴾ أي ينفع إنذارك، في ﴿**من اتبع الذكر**﴾ أي القرآن، فقد أنذر الرسول الجميع لكن الذين انتفعوا به هم المؤمنون ﴿**وخشي الرحمن بالغيب**﴾ أي في حال كون الرحمن غائباً عن الحواس، والمعنى آمن بالله، وإن لم يره ﴿**فبشره**﴾ يا رسول الله ﴿**بمغفرة**﴾ أي غفران لذنبه ﴿**وأجر كريم**﴾ لما أتي به من الإيمان والعمل الصالح، وإنما كان الأجر الكريم، لعدم شوبه بما يفسده وينقصه، أو لأنه يُقدم إلى المؤمن مع الإكرام والاحترام.

[١٣] ثم بعد الكلام، حول الألوهية والرسالة، يأتي دور المعاد، فقال سبحانه ﴿**إنا نحن**﴾ التكرار للتأكيد والإلفات إلى أن المتكلم ذو مقام عظيم ﴿**نحيي الموتى**﴾ جمع ميت، أي ليوم القيامة، لنجازيهم ﴿**ونكتب ما قدموا**﴾ أي قدم الناس لآخرتهم من الأعمال الصالحة، أو

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٥٢ .

وَءَاثَـٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ

الفاسدة **﴿وآثارهم﴾** أي الأعمال التي أبقوها بعدهم، كمن عمر مسجداً ومخمراً، فإنه يكتب له الثواب والعقاب، وهو في القبر **﴿وكل شيء﴾** من الأعمال الصالحة والطالحة، وسائر الأشياء **﴿أحصيناه﴾** من الإحصاء، وهو التعداد بالإثبات والكتابة **﴿في إمام مبين﴾** أي كتاب ظاهر، وإنما سمي الكتاب إماماً، لأنه يُجعل مصدر الأخذ، كما أن الإمام، مصدر الاقتداء والأخذ، ولعل المراد بذلك اللوح المحفوظ، وفي جملة من الأحاديث، «أن الإمام المبين، هو الإمام أمير المؤمنين»عليه السلام[1]، وذلك، إما تأويل أو مصداق، فإن الأعمال تعرض على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة عليهم السلام، حتى يكونوا شهداء عليها، فيعلمون أعمال الناس، ولا تنافي، بين أن يكون هناك كتاب صامت، وكتاب ناطق.

[١٤] **﴿واضرب لهم﴾** يا رسول الله **﴿مثلاً﴾** أي بيّن لهم مثالاً **﴿أصحاب القرية﴾** أي قرية أنطاكية، روي عن الباقر عليه السلام، أنه سئل عن تفسير هذه الآية، فقال: «بعث الله رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية، فجاءهم بما لا يعرفون، فغلظوا عليهما، فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام، فبعث الله الثالث، فدخل المدينة، فقال: أرشدوني إلى باب الملك، فلما وقف على الباب، قال: أنا رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض، وقد أحببت أن أعبد إله الملك، فأبلغوا كلامه الملك، فقال: أدخلوه إلى بيت الآلهة، فأدخلوه، فمكث سنة مع صاحبيه، فقال

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢١٢ .

. . . .

لهما: بهذا ينقل قوم من دين إلى دين؟ بالخرق، أفلا رفقتما؟ ثم قال لهما: لا تقرّان بمعرفتي، ثم أدخل على الملك، فقال له الملك: بلغني أنك كنت تعبد إلهي، فلم أزل وأنت أخي؟ فسلني حاجتك، فقال: ما لي من حاجة أيها الملك، ولكن رأيت رجلين في بيت الألهة فما حالهما؟ قال الملك: هذان رجلان أتياني ببطلان ديني، ويدعواني إلى إله سماوي، فقال: أيها الملك، فمناظرة جميلة، فإن يكن الحق لهما اتبعناهما، وإن يكن الحق لنا دخلا معاً في ديننا، وكان لهما ما لنا وعليهما ما علينا؟ فبعث الملك إليهما، فلما دخلا عليه، قال لهما صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالا: جئنا ندعوه إلى عبادة الله الذي خلق السماوات والأرض، ويخلق في الأرحام ما يشاء، ويصور كيف يشاء وأنبت الأشجار والثمار، وأنزل القطر من السماء، فقال لهما: إلهكما هذا الذي تدعوان إليه، وإلى عبادته، إن جئنا بأعمى أيقدر أن يرده صحيحاً؟ قالا: إن سألناه أن يفعل فعل إن شاء، قال أيها الملك: عليّ بأعمى لم يبصر شيئاً قط؟ فأتى به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا، فقاما وصليا ركعتين، فإذا عيناه مفتوحتان، وهو ينظر إلى السماء، فقال: أيها الملك، عليّ بأعمى آخر؟ فأتى به، فسجد سجدة، ثم رفع رأسه، فإذا الأعمى يبصر، فقال أيها الملك: حجة بحجة، عليّ بمقعد، فأتي به، فقال لهما مثل ذلك، فصليا، ودعوا الله، فإذا المُقعد، قد أطلقت رجلاه، وقام يمشي، فقال: أيها الملك علي بمُقعد آخر فأتي به فصنع به كما صنع أول مرة، فانطلق المقعد، فقال: أيها الملك قد أتيا بحجة آتينا بمثلها، ولكن بقي شيء واحد، فإن كانا هما فعلاه دخلت معهما في دينهما؟ ثم قال أيها الملك بلغني أنه كان للملك ابن واحد، ومات، فإن أحياه إلههما، دخلت معهما في

إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ

دينهما فقال له الملك: وأنا أيضاً معك، ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة، قد مات ابن الملك، فادعوا إلهكما أن يحييه، فخرا ساجدين لله عز وجل، وأطالا السجود، ثم رفعا رأسهما، وقالا للملك: ابعث إلى قبر ابنك تجده، قد قام من قبره إن شاء الله، فخرج الناس ينظرون، فوجدوه، قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب، قال: فأتى به الملك، فعرف أنه ابنه، فقال له: ما حالك يا بني، قال: كنت ميتاً، فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين، يسألانه أن يحييني، فأحياني قال: يا بني تعرفهما إذا رأيتهما، قال: نعم، فأخرج الناس جملة إلى الصحراء، يمرّ عليه رجل رجل، فيقول له أبوه انظر، فيقول لا، ثم مروا عليه بأحدهما بعد جمع كثير، فقال هذا أحدهما، وأشار بيده إليه، ثم مروا أيضاً بقوم كثيرين، حتى رأى صاحبه الآخر، فقال وهذا الآخر، فقال النبي عليه السلام، صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنت بإلهكما، وعلمت أن ما جئتما به هو الحق، فقال الملك: وأنا أيضاً آمنت بإلهكما، وآمن أهل مملكته كلهم»[١]، وفي بعض الروايات «أن عيسى عليه السلام، كان هو الذي بعث بالرسولين، أولاً ثم بعث وصيه شمعون ثانياً»[٢]، كأنّ الإتيان بهذا المثل للدلالة على قدرة الله على الإحياء، إرشاداً للمنكرين للبعث ﴿**إذ جاءها**﴾ أي جاء إلى أهل تلك القرية ﴿**المرسلون**﴾ الذين أرسلوا من قبلنا بتوسط عيسى المسيح عليه السلام.

[١٥] ﴿**إذ أرسلنا إليهم**﴾ أي إلى أهل تلك القرية ﴿**اثنين**﴾ أي رسولين

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٢٤٠ .

(٢) راجع بحار الأنوار: ج١٤ ص٢٦٦ .

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ قَالُوٓاْ

﴿**فكذبوهما**﴾ أهل القرية، وقالوا لستم أنتم رسلاً من قبله سبحانه، وإنما رجلين كاذبين ﴿**فعززنا**﴾ أي قويناهما ﴿**بـ**﴾ رسول ﴿**ثالث**﴾ هو شمعون ﴿**فقالوا**﴾ جميعاً لأهل القرية ﴿**إنا إليكم**﴾ أيها القوم ﴿**مرسلون**﴾ فقد كانوا هم أنبياء بأنفسهم ورسل عيسى عليه السلام.

[١٦] ﴿**قالوا**﴾ لهم أهل القرية ﴿**ما أنتم**﴾ أي لستم أنتم ﴿**إلا بشر مثلنا**﴾ فلا تصلحون للرسالة من قبل الله، كما لسنا نحن رسلاً، فكانوا يظنون أن الرسول يجب أن لا يكون بشراً ﴿**وما أنزل الرحمن من شيء**﴾ تدعوننا إليه ﴿**إن أنتم**﴾ أي ما أنتم أيها المدعون للرسالة ﴿**إلا تكذبون**﴾ أي كاذبون، فيما تدعون من أنكم أنبياء لله تعالى.

[١٧] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الرسل الثلاثة في جواب القوم ﴿**ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**﴾ والدليل على أن ربنا يعلم أنه أجرى الخوارق على أيدينا.

[١٨] ﴿**وما علينا**﴾ أي لا يجب علينا ﴿**إلا البلاغ**﴾ أي إبلاغ الدين ﴿**المبين**﴾ بأن نبلغكم بكل جلاء ووضوح، بلا اختفاء والتواء، فإن آمنتم نفعكم إيمانكم، وإن لم تؤمنوا ضركم، أما نحن، فقد أدينا الأمانة، وبلغنا الرسالة.

[١٩] ﴿**قالوا**﴾ أي قال أهل القرية للرسل ـ بعد أن لم يتمكنوا من

إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٢٠﴾

رد حجتهم ـ ﴿**إنا تطيرنا بكم**﴾ أي تشأءمنا بواسطتكم، فنخاف أن يصيبنا شؤمكم، فنقع في البلاء من طالعكم السيئ ﴿**لئن لم تنتهوا**﴾ عن دعوتكم هذه ﴿**لنرجمنكم**﴾ من الرجم، وهو الرمي بالحجارة، أي نرميكم بالحجارة، حتى نقتلكم، فقد كان الرجم، من أبشع أنواع القتل، يعاقبون به أخطر أنواع المجرمين ﴿**وليمسنكم منا**﴾ أي من طرفنا ﴿**عذاب أليم**﴾ مؤلم موجع.

[٢٠] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الرسل، في جواب الكفار وتهديدهم ﴿**طائركم معكم**﴾ أي إن شؤمكم معكم، حيث أقمتم على الكفر والعصيان، والإقامة على الكفر، موجب للشؤم، كما قال سبحانه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)[١] فليس بلاؤكم منا، بل من أنفسكم ﴿**أئن ذكرتم**﴾ أي هل تذكيرنا لكم بالله، واليوم الآخر، موجب لهذا القول لنا؟ وهذا استفهام إنكاري، كما تقول لمن هددك، حيث نصحته: هل نصيحتي توجب التهديد؟ ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ فلا تهددونا، لأنكم وجدتمونا كاذبين، وأسباب شؤم وبلاء، بل لأنكم قوم تجاوزون الحق تجاوزاً كثيراً، ولذا مع علمكم بصدقنا، وإننا أسباب خير ويمن تقولون لنا هذه الأقوال، وتهددونا بالرجم والعذاب.

---

(١) طه: ١٢٥.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾

[٢١] وقد كان رجل يسمى حبيب النجار آمن بالرسل عند ورودهم المدينة، وكان له بيت في آخر المدينة، فلما سمع بمحاورة القوم مع الرسل، أتى إلى القوم لينصحهم ﴿**وجاء من أقصى المدينة**﴾ أي آخرها ﴿**رجل يسعى**﴾ أي يركض ويسرع في المشي، لئلا يفوته الموقف، وقد قيل إن القوم أرادوا قتل الرسل، فجاء حبيب لإنقاذهم من القتل، فلما وصل إلى المجتمع ﴿**قال يا قوم اتبعوا المرسلين**﴾ الذين أرسلهم الله إليكم لهدايتكم وإنقاذكم من الكفر والعصيان.

[٢٢] ﴿**اتبعوا من لا يسألكم أجراً**﴾ فهم، لا يريدون جزاءً وثمناً على تبليغهم، وإنما يقصدون بذلك الثواب، عند الله سبحانه، فما لكم لا تتبعون الناصحين الذين ينصحون، بلا ثمن وجزاء؟ ﴿**وهم**﴾ في كلامهم ﴿**مهتدون**﴾ قد هداهم الله سبحانه، فليسوا ضُلاّلاً، ولا كاذبين، ولا طالبين للأجر.

[٢٣] ثم التفت حبيب من الخطاب إلى التكلم، فقال ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني**﴾ أيْ أيُّ شيء لي في عدم عبادتي لله الذي خلقني؟ فإن «فطر» بمعنى خلق، وكان هذا الكلام للقوم، بصورة مؤدبة لا تثيرهم، ولا تزعجهم ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أيها القوم، في يوم القيامة، فهو المُبديء والمعيد، فكونه خالقاً موجب للشكر والعبادة وكونه مرجعاً موجب للخوف والعبادة، فإن الإنسان إنما يطيع أحداً، إذا تفضل عليه، أو خاف عقابه، والأمران مجتمعان فيه سبحانه.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٤ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٥ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٦﴾

[٢٤] **﴿أأتخذ من دونه﴾** أي من دون الله **﴿آلهة﴾** بأن أعبد الأصنام، عوض عبادة الله تعالى؟ وهذا استفهام إنكاري، أراد التعريض بالقوم، كيف يعصون الخالق، ويعبدون الأصنام؟ **﴿إن يردن الرحمن بضر﴾** أصله «يردني»، فعل مضارع من «أراد» والنون للوقاية، وياء التكلم، محذوف، لدلالة الكلام عليه، أي إن أرادة الله أن يضرني **﴿لا تغن عني شفاعتهم﴾** أي شفاعة الأصنام ـ الآلهة ـ **﴿شيئاً﴾** فإنها لا تشفع، ولو شفعت لم تفد شفاعتها، أو المعنى لا شفاعة لهم، فتغني وتفيد، على طريق السالبة بانتفاء الموضوع **﴿ولا ينقذون﴾** أي لا ينقذونني عن الضرّ الذي أراده الله بي، وقد أراد بهذا تنبيه القوم على ما هم كانوا يعترفون به في قرارة أنفسهم، من أن الأصنام، لا شأن لها إطلاقاً، حتى إن أقل شيء لا يصدر منها، والإتيان بالجمع العاقل للأصنام، لملاحظة وحدة السياق، مع كلام القوم، واعتقادهم بأنها تسمع وتعقل.

[٢٥] **﴿إني إذاً﴾** أي إذا عبدت الأصنام، مع أنها لا تنفع **﴿لفي ضلال مبين﴾** أي انحراف واضح لا شك فيه.

[٢٦] **﴿إني آمنت بربكم﴾** أيها الرسل، أو أيها القوم **﴿فاسمعون﴾** سماعاً يفيدكم، بأن تفعلوا مثل فعلي، أو المراد، فاشهدوا لي بهذه الشهادة، فإني مؤمن بربكم الذي أوجدكم من العدم، لا الأصنام.

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٨﴾

[٢٧] قالوا، فاجتمع القوم، وقتلوا حبيباً، فنودي، حين أن قتل من قبله تعالى، و ﴿**قيل**﴾ له ﴿**ادخل الجنة**﴾ المعدة لك بسبب إيمانك ﴿**قال**﴾ وهو ميت بعد استشهاده، كما ورد ﴿**يا ليت قومي يعلمون**﴾.

[٢٨] ﴿**بما غفر لي ربي**﴾ أي بغفران ذنوبي، ليرغبوا في ثوابه، ويدخلوا في الدين، بترك الكفر والعصيان ﴿**وجعلني من المكرمين**﴾ الذين أكرمهم، بالإضافة إلى الغفران بالثواب والجنة.



الجزء الثالث والعشرون

من آية (٢٩) سورة يس

إلى آية (٣٢) سورة الزمر



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ

[٢٩] ثم إن الكفار يجب أن يعلموا أن الله سبحانه إذا أراد إهلاكهم، لايرسل إليهم جنوداً حتى يقاتلونهم، فيرجون احتمال غلبهم على جنود الله، حتى يقولوا إذا جاءت الجنود نتهيأ لها، بل إن الله إذا أراد الإهلاك، أرسل إليهم ملكاً يصيح بهم صيحة واحدة تدمرهم، حتى إنه ليس لهم مجال لحركة أو عمل، فليعتبروا من قوم حبيب النجار، فإن جماعة منهم بقوا على الكفر، بعد إيمان الملك وحاشيته، وأرسلنا عليهم جبرئيل، أو ملكاً آخر صاح بهم صيحة واحدة أو خلقنا صيحة في الفضاء، أهلكتهم جميعاً، حتى لم يبق منهم حيّ ﴿**وما أنزلنا على قومه**﴾ أي قوم الرجل الذي جاء، من أقصى المدينة يسعى ﴿**من بعده**﴾ أي بعد قتلهم له ﴿**من جند من السماء**﴾ من الملائكة، يحاربونهم، حتى تكون لهم فرصة المقاتلة، واحتمال الغلبة ﴿**وما كنا منزلين**﴾ أي ليس شأننا، إنزال الجند، إذا أردنا إهلاك قوم، أو كما ننزل فيما سبق، لا ننزل في المستقبل ـ وهذا تهديد لكفار مكة ـ.

[٣٠] ﴿**إن كانت**﴾ أي ما كانت كيفية إهلاك أولئك القوم ﴿**إلا صيحة واحدة**﴾ صاح بهم الملك، أو بخلق الصيحة في الفضاء ﴿**فإذا هم خامدون**﴾ أي ساكنون، قد ماتوا، من الخمود ضد الاشتعال، كأنهم قد أطفئوا في أثر الصيحة.

[٣١] ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ الحسرة هي الندامة، فالمعنى أيتها الندامة على العباد، احضري فهذا وقتك، كما قالوا في مثل «يا ويله» و«يا عجباً» أو

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٣﴾

المعنى، يا قوم أتحسر حسرة، ومن المعلوم إن الله سبحانه لا يتحسر بمعناها في البشر، وإنما المراد نتيجة الحسرة، كما في سائر الصفات، كالغضب والرضى، وما أشبه، ولذا قالوا خذ الغايات، واترك المبادئ ﴿**ما يأتيهم من رسول**﴾ «من» «لتعميمٍ» النفي ﴿**إلا كانوا به يستهزئون**﴾ يضحكون منه، ويجعلونه محلاً للسخرية، وحيث كان الكلام في السابق، حول مواجهة الأقوام للأنبياء، بالأذى والتكذيب، جاء السياق لبيان عموم الأذى، وإنه كان من شعبة السخرية.

[٣٢] ﴿**ألم يروا**﴾ هؤلاء الكفار المعاصرون للرسول، ومعنى الرؤية العلم، على نحو الاستفهام التقريري، أي ألم يصل علمهم ﴿**كم أهلكنا قبلهم**﴾ أي قبل هؤلاء ﴿**من القرون**﴾ كعاد وثمود، وقوم لوط، والقرن يسمى الجيل والأمة، باعتبار تقارن أعمارهم ﴿**أنهم إليهم**﴾ أي أن تلك القرون إلى هؤلاء ﴿**لا يرجعون**﴾ فقد أخذهم العذاب، فلم تبق منهم باقية؟ فليعتبروا بأولئك، وليعلموا أن مصير هؤلاء إن بقوا على كفرهم وتكذيبهم مصير أولئك.

[٣٣] ﴿**وإن كل**﴾ أي ما كل تلك الأقوام ﴿**لما جميع لدينا محضرون**﴾ «لما» بمعنى إلاّ، أي إلا أن الجميع يُحضرون لدينا يوم القيامة للحساب والجزاء، ولعل «كل» باعتبار كل قوم، و«جميع» باعتبار كل فرد من كل قوم.

[٣٤] ثم كيف يكفر هؤلاء بالله سبحانه، وأمام أعينهم، آثاره الظاهرة،

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ

وأعلامه الباهرة؟ ﴿وآية﴾ أي علامة دالة على وجود الله ﴿لهم﴾ أي لهؤلاء المنكرين وجود الله سبحانه ﴿الأرض الميتة﴾ التي لا نبات فيها، ولا حركة ﴿أحييناها﴾ بالإنبات بواسطة المطر، أو سائر المياه ﴿وأخرجنا منها﴾ من تلك الأرض الحبوب، فإن ﴿حباً﴾ يراد به الجنس، والحب، كالحنطة، والشعير، والأرز، وغيرها ﴿فمنه يأكلون﴾ أي من ذلك الحب، والمراد بعضه، لأن بعضه الآخر، يكون نصيب الحيوانات والطيور.

[٣٥] ﴿وجعلنا فيها﴾ أي في الأرض ﴿جنات﴾ أي بساتين ﴿من نخيل﴾ جمع نخل، وهو ما يعطي التمر ﴿وأعناب﴾ جمع عنب، وأطلق العنب على شجرته باعتبار السبب والمسبب، وإنما خُصّا بالذكر لكثرة أقسامهما خصوصاً في تلك البلاد ﴿وفجرنا﴾ أي أخرجنا ﴿فيها﴾ في تلك الأرض الميتة، أو في تلك الجنات ﴿من العيون﴾ جمع عين، وهي محل خروج الماء العذب من الأرض.

[٣٦] وإنما فعلنا ذلك ﴿ليأكلوا﴾ أي ليأكل البشر ﴿من ثمره﴾ أي من ثمر النخل وما أشبه، وتوحيد الضمير باعتبار كل واحد واحد ﴿وما عملته أيديهم﴾ أي لم تعمل كل عمل، من تلك الأعمال أيدي هؤلاء، فإنهم، وإن عملوا، ولكنهم أسباب ضعيفة ظاهرية، وإنما الخالق

أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ

المكون هو الله تعالى ﴿**أفلا يشكرون**﴾ الله، بإعطائهم هذه النعم المتواترة؟

[٣٧] ﴿**سبحان الذي**﴾ منصوب بفعل مقدر أي أنزهه تنزيهاً، وأسبحه تسبيحاً ﴿**خلق الأزواج كلها**﴾ المراد بالأزواج الأصناف، أي أن من خلق هذه الأصناف الكثيرة الموجودة في العالم، منزه عن الشريك والنقص، بل هو الواحد الذي لا نقص فيه ﴿**مما تنبت الأرض**﴾ بيان «الأزواج» أي خلق أزواج النبات وأصنافه ﴿**ومن أنفسهم**﴾ خلق الأزواج، ذكراً وأنثى ﴿**ومما لا يعلمون**﴾ من الجن والملائكة، وما في بطون الأرض، وقعر البحر، وأجواء السماء، وأصناف النجوم وغيرها.

وستأتي الإشارة إلى خلق الأنعام، ولعله لذا لم يُذكر هنا.

[٣٨] ﴿**وآية لهم**﴾ أي دلالة على وجود الله، وسائر صفاته، لهؤلاء المنكرين لله سبحانه ﴿**الليل نسلخ منه النهار**﴾ فكأنّ النهار كان جلداً على جسم الليل، فإذا جاء الليل، كأنّه سلخ النهار من الليل، حتى يبدو الليل، كما يسلخ جلد الشاة منها، فيبدو جسمها، فهو كقولنا «لحم الشاة نسلخ منه الجلد» ﴿**فإذا هم مظلمون**﴾ داخلون في الظلام.

[٣٩] ﴿**والشمس تجري**﴾ كل يوم، لأن يأتيهم بالنهار ﴿**لمستقر لها**﴾ أي

ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٩﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٤٠﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤١﴾

إلى محل قرار لها ـ عند الناس ـ وهو تحت الأرض، أو إلى وقت قرار لها، وهو يوم القيامة ﴿**ذلك**﴾ الإجراء ﴿**تقدير العزيز**﴾ في سلطانه، فما أراد كان ﴿**العليم**﴾ بالمصالح، فيعمل ما فيه صلاح البشر والكون.

[٤٠] ﴿**والقمر قدرناه**﴾ أي قدرنا له ﴿**منازل**﴾ ففي كل يوم في منزل، فإن للقمر ثمانية عشر منزلاً، كما ذكر علماء الفلك، أو المراد المنازل المرئية من هلال وقمر وبدر، في أحوالها المختلفة زيادة ونقيصة ﴿**حتى عاد**﴾ القمر في آخر الشهر ﴿**كالعرجون القديم**﴾ العرجون هو العذق اليابس المقوّس، فإن القمر في آخر الشهر يعود كما بدأ هلالاً ضعيفاً مقوساً.

[٤١] ﴿**لا الشمس ينبغي لها**﴾ أي لا تتمكن ﴿**أن تدرك القمر**﴾ في سيرها فإن الشمس تقطع دورة الفلك في سنة كاملة، والتي يقطعها في شهر، أو أن حركاتهما في أفلاكهما نُظّمتا بحيث لا يصطدم أحدهما بالآخر، وهذا بيان لحكمة الله سبحانه، في أنه نظمهما، بحيث لا يتلاقيان، ويسببا فساد الأنظمة الكونية ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ بأن يأتي الليل قبل تقضي وقت النهار، كالإنسان الذي يسبق الآخر الذي يأتي حتى يلحقه، ثم يترادفان في المسير حتى يتقدم ذلك المتأخر، فإن الليل لايزاحم النهار في أفق واحد، حتى يرى الإنسان ليلاً ونهاراً في حال واحد، ثم يتقدم الليل، ويتأخر النهار، وهذا كناية عن دقة التنظيم الذي لا يتزلزل ﴿**وكل**﴾ من الشمس والقمر ﴿**في فلك**﴾ ومدار خاص ﴿**يسبحون**﴾

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ

كالذي يسبح في الماء بكل سهولة ويسر، والإتيان بضمير العاقل، إما من باب أن لهما عقلاً ـ وذلك غير بعيد ـ ويؤيده ما ورد في الدعاء من خطاب القمر، بـ «أيها الخلق المطيع» وإما من جهة أنه حيث نسب إليهما السباحة، وهي من فعل العاقل، ناسب الإتيان بضمير العاقل.

[٤٢] ﴿**وآية**﴾ أي دلالة دالة على وجود الله سبحانه، وسائر صفاته ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الكفار، أو البشر عامة ﴿**إنا حملنا ذريتهم**﴾ أي نسلهم، ولعل نسبه الحمل إلى الذرية، مع أن الحمل عام للآباء والأبناء، إن الذرية أحوج إلى الحمل فإن الإنسان الكبير، يمكن أن يعبر مضايق البحار بالسباحة، وما أشبه، أما الذرية فلا علاج لسيرهم إلا بالسفينة ﴿**في الفلك**﴾ أي السفينة ﴿**المشحون**﴾ من «شحن» إذا ملأ، بمعنى السفينة المليئة بالناس والأثاث، ومعنى «حملنا» جعلنا الماء بحيث يمكن أن يُحمّل عليه، بمثل السفينة المملوءة، فمن جعل ذلك يا ترى؟ إنه هو الله تعالى القادر على كل شيء، فبينما القطعة الصغيرة من الحجر تعوم في الماء، لتسير على ظهره السفينة المحمّلة بالأثقال.

[٤٣] ﴿**وخلقنا لهم**﴾ أي للبشر، أو للذرية ﴿**من مثله**﴾ أي من مثل الفلك ﴿**ما يركبون**﴾ عليه في البر من الأنعام التي تحمل أثقالهم إلى البلاد النائية.

[٤٤] ﴿**وإن نشأ نغرقهم**﴾ في البحر، حين كانوا راكبين في السفينة، وذلك بتهييج الرياح والعواصف، أو ما أشبه ﴿**فلا صريخ لهم**﴾ أي فلا أحد

وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ

يغيثهم، إن أردنا إغراقهم ﴿**ولا هم ينقذون**﴾ أي لا يخلصون من الغرق، إذا أردناه، ولعل الفرق بين الأمرين، أن الصريخ أعم من المنقذ، فالصريخ من يترحم عليهم، سواء قدر على إنقاذهم أم لا.

[٤٥] ﴿**إلا رحمة منا**﴾ أي لا منقذ لهم، إلا رحمنا بهم وفضلنا عليهم، فإنه هو الذي بنجيهم من مخاطر البحر ﴿**ومتاعاً إلى حين**﴾ أي ولأجل أن يبقوا أحياء مدة عمرهم حسب تقديرنا، إلى حين يوافيهم الأجل، أي أنقذناهم رحمة وإمتاعاً.

[٤٦] ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ لهؤلاء الكفار الذين يشاهدون هذه الآيات الدالة على قدرتنا، وسائر صفاتنا ﴿**اتقوا ما بين أيديكم**﴾ أي ما أمامكم من الآخرة، فلا تعصوا حتى يحل عليكم عذاب ذلك اليوم ﴿**وما خلفكم**﴾ فإن الإنسان العاصي يعاقب في الدنيا في مستقبل عمره بالعيش الضنك، كما قد يبتلي أولاده بما صنع، وهذا هو «ما خلف الإنسان» لأن الإنسان يخلف الدنيا وراءه ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ أي لكي يرحمكم الله تعالى، فلا يؤاخذكم بسيئات أعمالكم، وجواب «إذا» محذوف تقديره «أعرضوا» ولم يقبلوا، وقد استدل لذلك بقوله.

[٤٧] ﴿**وما تأتيهم**﴾ أي تأتي هؤلاء الكفار ﴿**من آية من آيات ربهم**﴾ كالمعجزات التي يأتي بها الأنبياء، والآيات التي تظهر في الكون،

إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

وكالآيات المنزلة بقصد التشريع، وما أشبه ﴿**إلا كانوا عنها معرضين**﴾ يعرضون عن تدبرها، والعمل بموجبها، وإنما هم قد ركبوا أهواءهم، وعملوا بما توحي إليهم أنفسهم وتقاليدهم، وبهذا يخسرون الدنيا والآخرة، ويلقون في العذاب.

[٤٨] ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿**أنفقوا مما رزقكم الله**﴾ من المال ﴿**قال الذين كفروا للذين آمنوا**﴾ الذين يأمرونهم بالإنفاق ﴿**أنطعم من لو يشاء الله أطعمه**﴾؟ على نحو الاستفهام الاستنكاري، أي لماذا نطعم من لا يشاء الله إطعامه، إذ لو شاء إطعامه، تمكن من إطعامه؟ وقد أرادوا بذلك الفرار، عن بذل بعض أموالهم، ثم يقولون للمؤمنين مستهزئين ﴿**إن أنتم**﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون ﴿**إلا في ضلال مبين**﴾ أي انحراف واضح، حيث تأمروننا بالإنفاق لمن لا يريد الله إطعامه.

[٤٩] وقد كان المؤمنون ينذرون الكفار، بأنهم إن لم يؤمنوا، عاقبهم الله إما في الدنيا أو في الآخرة ﴿**و**﴾ لذا كان الكفار ﴿**يقولون**﴾ منكرين قولة المؤمنين ﴿**متى هذا الوعد**﴾ الذي تعدوننا به من نزول العذاب بنا إن بقينا على الكفر ﴿**إن كنتم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**صادقين**﴾ فيما تقولون؟

[٥٠] ﴿**ما ينظرون**﴾ أي ما ينتظر هؤلاء الكفار ﴿**إلا صيحة واحدة**﴾ تصاح

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥٢﴾

بهم بإذن الله، كما صيحت بالأقوام السابقين ﴿**تأخذهم**﴾ وتهلكهم، فهل يريد هؤلاء تلك الصيحة؟ وهذا الكلام من باب الإهانة لهم، وبيان أن أمرهم يسير جداً، حتى أن صيحة واحدة تكفي لإبادتهم ﴿**وهم يخصمون**﴾ أي تأخذهم الصيحة في حال كونهم، يختصمون في أمورهم، فتأخذهم على غرّةٍ وغفلة من أمرهم، من «خصّم» أصله «اختصم».

[٥١] ﴿**فلا يستطيعون توصية**﴾ فإذا أخذتهم الصيحة بغتة، لم يقدروا على الإيصاء ﴿**ولا إلى أهلهم يرجعون**﴾ إذا أخذتهم الصيحة خارج بيوتهم، فإن اختصامهم معناه أنهم في الأسواق، وفي محل أعمالهم وأشغالهم، ويحتمل، أن يراد بـ «الصيحة» النفخة الأولى، فإن إسرافيل ينفخ في الصور، فيهلك جميع البشر، دفعة واحدة، كما ورد في الأحاديث، أي أنهم لا يؤمنون، حتى تأخذهم الصيحة على نحو الاستفهام الإنكاري.

[٥٢] وبهذه المناسبة، يأتي السياق، لبيان بعثهم بعد موتهم، فقد رأينا، كيف ماتوا، بصيحة خارقة، أو بقبض روحهم، بواسطة عزرائيل، الذي هو شبيه بالصيحة، أو بنفخ إسرافيل، فلننظر إلى حشرهم ﴿**ونفخ في الصور**﴾ هو شبيه بالبوق، ينفخ فيه إسرافيل، حين يريد الله إحياء الناس للقيامة والمعاد ﴿**فإذا هم**﴾ أي فإذا بالكفار بغتة وفجأة ﴿**من الأجداث**﴾ جمع جدث، وهو القبر ﴿**إلى ربهم ينسلون**﴾ والمراد

قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا

الموضع الذي قرره الله سبحانه للحشر والحساب، وإلا فلا مكان له سبحانه، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، لتقريب الذهن، ومعنى ينسلون، يخرجون سراعاً إلى الموقف، فإن النسول هو الإسراع في الخروج.

[٥٣] ﴿**قالوا**﴾ لما رأوا أهوال القيامة ﴿**يا ويلنا**﴾ يا هلاكنا، احضر فهذا وقتك، أو يا قوم، ندعو على أنفسنا بالويل ﴿**من بعثنا**﴾ أي أقامنا ﴿**من مرقدنا**﴾ محل رقدتنا، والرقدة هي النوم، والمراد من قبورنا، ثم يقولون ﴿**هذا**﴾ البعث هو ﴿**ما وعد الرحمن**﴾ في دار الدنيا، فلم نك نصدّقه ﴿**وصدق المرسلون**﴾ أي الأنبياء عليهم السلام، الذين أخبروا بذلك، فلم نك نصدقهم، فالآن نشاهد صدقهم، وهم في القبر، لم يكونوا نياماً، وإنما قالوا ذلك، باعتبار، أن قبرهم قد خلص، وصاروا إلى حال آخر، إذ حيوا كما كانوا في الدنيا.

[٥٤] وليس أمر البعث صعباً على الله سبحانه ﴿**إن كانت**﴾ أي ما كانت بعثتهم ﴿**إلا صيحة واحدة**﴾ صاح بها إسرافيل في الصور النفخة الثانية ﴿**فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون**﴾ ترد أرواحهم إلى أجسادهم، ويُحضرون في موقف الحشر للحساب والجزاء.

[٥٥] ﴿**فاليوم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**لا تظلم نفس شيئاً**﴾ بأن يزاد في سيئاته،

وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٦﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٧﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٨﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٩﴾

أو ينقص من حسناته ﴿**ولا تجزون**﴾ أيها البشر ﴿**إلا ما كنتم تعملون**﴾ فجزاء كل حسب عمله، أو المراد إن الأعمال تُجسَّم فكل يرى عمله.

[٥٦] قد رأينا أحوال أصحاب النار، وأنهم يدعون بالويل، فلننظر إلى أحوال أهل الجنة ﴿**إن أصحاب الجنة**﴾ الذين صدقوا بالله، وبالرسول، وبالمعاد ﴿**اليوم**﴾ أي في ذلك اليوم ﴿**في شغل فاكهون**﴾ قد شغلهم النعيم، الذي لا عين رأت مثله، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومعنى فاكهون، فرحون، ناعمون، متنعمون.

[٥٧] ﴿**هم وأزواجهم**﴾ من حور العين، أو حلائلهم الدنيوية، أو أشكالهم من سائر صنوف المؤمنين ﴿**في ظلال**﴾ هي ظلال أشجار الجنة وقصورها ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أريكة، وهي السرير الذي يصنع للعروس ﴿**متكئون**﴾ فهم في كمال راحة، فإن الإتكاء أفضل أحوال الجالس.

[٥٨] ﴿**لهم فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**فاكهة**﴾ هي ثمر أشجار الجنة ﴿**ولهم ما يدعون**﴾ أي يتمنون ويشتهون، يقال ادّع عليَّ ما شئت أي تمنّ.

[٥٩] ولهم بالإضافة إلى كل ذلك النعيم الجسماني نعيم روحي، وهو ﴿**سلام قولاً من رب رحيم**﴾ أي يقول الرب الرحيم لهم قولاً، هو

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٠﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

سلام، فإنه سبحانه يحيّيهم بالسلام.

[٦٠] ﴿**و**﴾ في القيامة يقال للكفار ﴿**امتازوا**﴾ أي انفصلوا عن جماعة المؤمنين ﴿**اليوم**﴾ أي في هذا اليوم ﴿**أيها المجرمون**﴾ فكونوا على حدة، وذلك لإهانتهم، فإن المجرم إذا كان بين أناس آخرين لا تزدريه العيون، بخلاف ما إذا انفصل عنهم.

[٦١] ثم يقال لهم من قبله سبحانه ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم**﴾ أي ألم آمركم وأعاهدكم على لسان الأنبياء ﴿**أن لا تعبدوا الشيطان**﴾ أي لاتطيعوه فيما يأمركم ﴿**إنه**﴾ أي الشيطان ﴿**لكم عدو مبين**﴾ ظاهر العداوة، فلماذا عبدتموه، وأطعتموه، حتى تردوا هذا المورد؟.

[٦٢] ﴿**و**﴾ ألم أقل لكم ﴿**أن اعبدوني**﴾ وحدي ﴿**هذا**﴾ أي عبادتي ﴿**صراط مستقيم**﴾ لا انحراف فيه، ولا عوج، يوصلكم إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة، فلماذا تركتم عبادتي؟.

[٦٣] ﴿**ولقد**﴾ رأيتم في الدنيا، أن الشيطان قد ﴿**أضل منكم جبلاً**﴾ أي خلقاً ﴿**كثيراً**﴾ دعاهم إلى الضلالة، فقبلوا منه وانحرفوا ﴿**أفلم تكونوا تعقلون**﴾ إن الشيطان يضلكم إن اتبعتموه، كما أضل جماعات كثيرة من جنسكم؟ وهذا استفهام إنكاري، يعني أنكم بعد ما رأيتم إضلال الشيطان، لجماعات منكم، كيف اتبعتموه؟.

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٤﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٦﴾

[٦٤] وإذ قد انحرفتم، ولم تسمعوا العظة، والنصيحة، فـ ﴿**هذه**﴾ التي تشاهدونها ﴿**جهنم التي كنتم توعدون**﴾ في الدنيا، فلم تكونوا تصدقون بها.

[٦٥] ﴿**اصلوها**﴾ أي ادخلوها، لازمين لها، مِنْ صَلَى، بمعنى لَزم الشيء ﴿**اليوم**﴾ أي في هذا اليوم ﴿**بما كنتم تكفرون**﴾ أي بسبب كفركم.

[٦٦] وهناك يشرع الكفار في الجدال والكذب ظانين أن ذلك ينجيهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا، فيحلفون بالله كذباً، قائلين (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[١] ولكن كذبهم لا ينطلي هناك ﴿**اليوم نختم على أفواههم**﴾ أي نضع الختم على فمهم، لئلا يتمكنون من النطق ﴿**وتكلمنا أيديهم**﴾ بأن نقدر أيديهم على الكلام، فتشهد الأيدي بأعمالها التي اقترفتها جرماً وعصياناً ﴿**وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**﴾ أي بما كان يعمل هؤلاء المجرمون، فمثلاً تقول اليد «إني سرقت»، وتقول الرجل «إني مشيت إلى الزنى» وهكذا يفضحون هناك، حيث لا مخلص لهم، عن مثل هذه الشهادة الدامغة، وفي آية أخرى (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ)[٢].

[٦٧] ولا يظنن هؤلاء الكفار، أنا لا نتمكن من النكال بهم في الدنيا، فإنا

---

(١) الأنعام: ٢٤ .

(٢) فصلت: ٢٢ .

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ

إنما نمهلهم هنا، وإلا فنقدر على مسخهم، وإنزال مختلف صنوف العقاب بهم جزاءً على أعمالهم ﴿**ولو نشاء لطمسنا على أعينهم**﴾ أي لأعميانهم، يقال طمس على عينه إذا محاها حتى لم يبق منها أثر ﴿**فاستبقوا الصراط**﴾ تسابقوا على الصراط، أي الطريق، فإن العميان حين يتسابقون لسلوك الطريق، يرى الإنسان منظراً مضحكاً ﴿**فأنى يبصرون**﴾ أي كيف يبصرون الطريق بعد العمى، حتى لا يصطدم بعضهم ببعض، ولا يُسقط بعضهم بعضاً؟

[٦٨] ﴿**ولو نشاء لمسخناهم**﴾ والمسخ تبديل الإنسان حيواناً، كما مسخ اليهود قردة ﴿**على مكانتهم**﴾ التي هم فيها، في ذلك الطريق الذي تسابقوا فيه ﴿**فما استطاعوا مضياً**﴾ أي يمضون إلى مقصدهم ﴿**ولا يرجعون**﴾ أي لايتمكنون من الرجوع، فهم في قبضتنا، حتى إنّا نتمكن أن نعميهم أو نمسخهم في لحظة، ومع ذلك لا نفعل بهم ذلك رحمة وإمهالاً لهم لعلهم يرجعون.

[٦٩] وهل يظن هؤلاء أنّا لا نقدر على مسخهم، أو طمس عيونهم؟ فلينظروا إلى الشباب كيف نبدلهم إلى شيوخ لا يقدرون على شيء، بعد القوة والنضارة، فمن يقدر على ذلك، وهم يرونه كل يوم يقدر على المسخ والطمس ﴿**ومن نعمّره**﴾ أي نعطيه عمراً كثيراً ﴿**ننكسه في الخلق**﴾ أي

أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ

نكس قواه وخلقته، فيصير بعد القوة ضعيفاً، وبعد العقل خرفاً، وبعد النضارة ذابلاً، وبعد العلم جاهلاً، وهكذا، فهو راجع إلى حالة الطفولة ﴿**أفلا يعقلون**﴾ هؤلاء الكفار إن من يقدر على هذا التنكيس، قادر على ذلك التنكيس، بالطمس والمسخ؟

[٧٠] وقد كان الكفار يقولون، إن محمداً شاعر، وإن القرآن شعر، فرجع السياق إلى ما بدأ: حيث قال «إنك لمن المرسلين» قائلاً ﴿**وما علمناه**﴾ أي ما علمنا الرسول ﷺ ﴿**الشعر**﴾ فليس القرآن شعراً ﴿**وما ينبغي له**﴾ أن يقول الشعر من عند نفسه، ثم ينسبه إلى الله سبحانه، وقد رووا إنه ﷺ كان لا ينشد الشعر إطلاقاً، حتى أنه إذا أراد أن يقرأ شعراً، بدّله حتى يخرج عن كونه شعراً، فقال ذات يوم بدل «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً» بـ «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً» أما ما ورد من أنه ﷺ، قال: «أنا النبي لا كذب. . . أنا ابن عبد المطلب»[١]، فلم يثبت أنه قرأه على طريقة الشعر، فلعله لم يقف على «كذب» ﴿**إن هو**﴾ أي هذا الذي يقرأه من قبله تعالى ﴿**إلا ذكر**﴾ للناس ﴿**وقرآن مبين**﴾ واضح، وليس بشعر، والمراد بالذكر، إنه يذكّر الناس خالقهم الذي نسوه، بعد ما أودع في فطرتهم، ولعل الإتيان، بـ «الذكر» لأن الشعر كان في الغالب لهواً وتشبيباً، فالذكر مقابل له.

[٧١] ﴿**لينذر**﴾ الله بواسطته، أو لينذر الرسول، أو لينذر القرآن ﴿**من كان**

---

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص١٤٠ .

حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ

حياً﴾ في أنه يسمع ويعقل، مقابل الإنسان الميت، الذي لا ينفعه الإنذار، وإنما شُبّه بالميت، لأنه والميت سواء، في عدم الاجتناب عن الشيء المخوف **﴿ويحق القول﴾** أي يثبت القول بالعذاب **﴿على الكافرين﴾** بأن يتم عليهم الحجة، ففائدة القرآن، هداية العقلاء، وإتمام الحجة على الكفار.

[٧٢] **﴿أو لم يروا﴾** أي هؤلاء الكفار المنكرون لله تعالى **﴿أنا خلقنا لهم﴾** أي لمنافعهم **﴿مما عملت أيدينا﴾** كناية عن تفرده سبحانه بالخلق، والنسبة إلى «اليد» للتشبيه بالمحسوس تأكيداً لعدم الاشتراك في خلقها **﴿أنعاماً﴾** جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم **﴿فهم لها مالكون﴾** فهم أنها ملكوها، بفضلنا وإحساننا؟ فمن يا ترى خلق لهم هذه الأنعام غيرنا؟

[٧٣] **﴿وذللناها لهم﴾** أي سخرناها لهم، حتى صارت منقادة ذليلة تطيعهم، فلو كانت الأنعام، كسائر السباع، أو الحشرات ـ حتى مثل الفأر ـ فمن يا ترى كان يمكنه تسخيرها وتذليلها؟ **﴿فمنها ركوبهم﴾** أي من تلك الأنعام لفائدة الركوب كالإبل **﴿ومنها يأكلون﴾** أي ومنها لفائدة الأكل، كالبقر والغنم.

[٧٤] **﴿ولهم﴾** للبشر **﴿فيها﴾** في تلك الأنعام **﴿منافع﴾** كلبس أصوافها وأوبارها، وإشعال فضلاتها، وما أشبه ذلك **﴿ومشارب﴾** جمع

أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٦﴾

مشرب، وهو مصدر ميمي، والمراد لبنها ﴿**أفلا يشكرون**﴾؟ هذه النعم، التي منحناها لهم، بترك الكفر، والدخول في زمرة المؤمنين والمطيعين.

[٧٥] إنهم بعد أن علموا بجزيل إحساننا، وفضلنا عليهم، اتبعوا طريق الكفر والعصيان ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة**﴾ المراد الجنس، فيشمل الواحد أيضاً، فإن الجنس والجمع يقومان مقام الآخر ﴿**لعلهم ينصرون**﴾ أي لكي تنصرهم تلك الآلهة، من بأس الله سبحانه، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[١] وقالوا (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ)[٢].

[٧٦] ولكنهم أخطأوا في انتظار النصرة من الآلهة ﴿**لا يستطيعون**﴾ أي تلك الآلهة، والإتيان بضمير العاقل، لتوحيد السياق في الحوار، بين المؤمنين، والكفار، فإن الكفار كانوا يعبرون عن الأصنام، بألفاظ العقلاء زعماً منهم، إنها تعقل وتدرك ﴿**نصرهم**﴾ أن تنصر هؤلاء الكفار ﴿**وهم**﴾ أي الكفار ﴿**لهم**﴾ أي لتلك الآلهة ﴿**جند**﴾ كالجند، لأن الأتباع، كالجند ﴿**محضرون**﴾ جميعاً في النار، أو المراد إن هؤلاء هم جنود الآلهة المحامون عنها، فكيف يمكن أن تكون الآلهة هي المحامية عنهم؟

---

(١) الزمر: ٤ .

(٢) يونس: ١٩ .

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٨﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٩﴾

[٧٧] ﴿**فلا يحزنك**﴾ يا رسول الله ﴿**قولهم**﴾ قول هؤلاء الكفار فيك، إنك شاعر، أو ما أشبه ذلك ﴿**إنا نعلم ما يسرون**﴾ في ضمائرهم، وبينهم في مجالسهم الخاصة ﴿**وما يعلنون**﴾ في الملأ حولك، وحول رسالتك، من الوقيعة فيك، ونسبتك إلى الجنون والكهانة والسحر، وما أشبه.

[٧٨] وإذ ذكر السياق جملة حول الرسالة، رجع إلى الكلام حول المعاد، وقد كان من بلاغة القرآن الحكيم، إنه لا يأتي بكلام واحد في تفصيل، وإنما يقطع الكلام المختلف تقطيعاً، ويذكر بعض نوع في خلال نوع آخر، حذراً من الإسهاب، وملالة السامع ﴿**أولم يرَ الإنسان**﴾ المنكر للمعاد ﴿**أنا خلقناه من نطفة**﴾ أي قطرة من المني؟ والمراد بالرؤية العلم ﴿**فإذا هو**﴾ إنسان كبير ﴿**خصيم**﴾ لنا، أي يخاصمنا في أوامرنا وأخبارنا ﴿**مبين**﴾ ظاهر الخصومة، فإنه يخاصم في قدرتنا على البعث، وقد رأى كيف قدرنا على أن نصنع إنساناً، من قطرة مني؟

[٧٩] ﴿**وضرب لنا مثلاً**﴾ أي ضرب مثلاً لإنكاره المعاد بالعظم البالي ﴿**ونسي خلقه**﴾ أي ترك النظر في خلق نفسه، حيث إن تصيير المني إنساناً، أصعب في نظر العامة، من تصيير العظم البالي إنساناً ﴿**قال**﴾ وهذا هو مَثَله ﴿**من يحيي العظام وهي رميم**﴾ أي بالية؟ والاستفهام

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ  ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا

إنكاري تعجبي، أي لا يمكن أن تحيى العظام البالية، فقد ذكروا إن أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء إلى الرسول ﷺ بعظم بال متفتت، وقال: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال الرسول ﷺ: نعم، ونزلت الآية[1].

[٨٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، في جوابه ﴿**يحييها**﴾ أي العظام ﴿**الذي أنشأها**﴾ وأبدعها وخلقها ﴿**أول مرة**﴾ أي في ابتداء الأمر، فمن كان قادراً على الإيجاد، فهو قادر على الإعادة ﴿**وهو بكل خلق عليم**﴾ فليس لأحد أن يقول: هناك فرق بين الإيجاد والإعادة، فإن الإعادة بالإضافة إلى احتياجها إلى القدرة، تحتاج إلى علم واسع، لكي يعلم الشخص إن أجزاء الميت الفلاني أين تفرقت وتناثرت، حتى يجمعها بأعيانها، ليكون المعاد، هو الأول، لا غيره؟ فإن الجواب، إن الله سبحانه، كما هو قادر على كل شيء، عالم بكل شيء.

[٨١] ثم بيّن سبحانه، بعض آثار قدرته، دليلاً على قدرته على إحياء الأموات ﴿**الذي جعل لكم**﴾ أيها البشر ﴿**من الشجر الأخضر**﴾ أي الرطب، غير اليابس، وإنما يسمى الرطب بالأخضر، لأن الماء إذا كان داخلاً في الأعواد، كان لون الشجر أخضر، فإذا يبس، مال لونه إلى السواد والغبرة ﴿**ناراً**﴾، فـ «المرخ» و «العفار» شجرتان، إذا اصطكت بعض أحدهما ببعض الآخر، خرج النار من بينهما، فمن قدر على إخراج النار من الشجر الرطب المضاد للحرارة، قادر على إيجاد الحياة

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٢٠ .

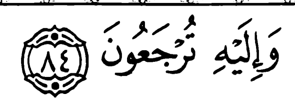
فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨١﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ

في العظم البالي ﴿**فإذا أنتم**﴾ أيها البشر ﴿**منه**﴾ أي من ذلك الشجر المُخرج للنار ﴿**توقدون**﴾ أي تشعلون الحطب، فمن يا ترى جعل النار في الشجر الريان بالماء؟ ومن يا ترى جعل الشجر، بحيث يختزن من شعاع الشمس، مقدار يخرج ويتقد بمجرد الحك والدلك؟ إنه هو الله القادر على كل شيء.

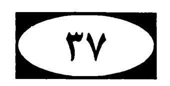
[٨٢] ثم ﴿**أوليس الذي خلق السماوات والأرض**﴾ هذين المخلوقين العظيمين ﴿**بقادر على أن يخلق مثلهم**﴾ بأن يصبّ أجزاءهم البالية في القالب، حتى يخرج إنسان مثل الإنسان الأول؟ ﴿**بلى**﴾ قادر على ذلك ﴿**وهو الخلاق العليم**﴾ إذ هذه العملية، تحتاج إلى قدرة وعلم، وكلاهما متوفران لديه سبحانه.

[٨٣] ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن**﴾ وبمجرد هذه اللفظة، أو معناها ـ وهي الإرادة ـ يُبدع ذلك الشيء، المراد ﴿**فيكون**﴾ أمراً موجوداً في الخارج، فلا يحتاج سبحانه، إلى آلات وأسباب وزمان، حتى يوجد شيئاً، وقد ذكرنا سابقاً إن «كن» إما حقيقة بأن يخلق سبحانه صوتاً، أو إشارة إلى إرادته تعالى حدوث ذلك الشيء.

[٨٤] ﴿**فسبحان**﴾ منصوب بفعل مقدر، أي أسبح سبحان ﴿**الذي بيده ملكوت كل شيء**﴾ والمعنى أنزهه تعالى عن عدم القدرة، أو عدم



العلم، والمعنى إن تمت قدرته ملك كل شيء، فهو قادر على الإيجاد والإعادة، فإن «ملكوت» هو الملك، وزيد فيه التاء للعظمة، نحو «جبروت» وملكوت كل شيء ما يقوم به ذلك الشيء، ولفظة «بيده» للكناية، فإن اليد هي الآخذة بالمملوكات، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وإلا فليس لله سبحانه يد كأيدينا، فإنه سبحانه منزه عن الجسمية، وعوارضها ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أي تردون إلى جزائه وحسابه، حيث لا يملك أحد شيئاً، إلا هو وحده فيجازيكم حسب أعمالكم الكافر والعاصي بالعقاب، والمؤمن والمطيع بالثواب.



سُورة الصافات

مكيّة/آياتها (١٨٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة في قوله «والصافات» وهي كغالب السور المكية، تعالج قضايا العقيدة، بأصولها الثلاث، التوحيد والرسالة والمعاد، في أسلوب قصصي رائع، ولما ختمت سورة «يس» بشؤون الإله سبحانه، ابتدأت هذه السورة بتلك، مع فصل آيات سيقت للحلف على ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله الواحد، الذي له كل شيء جميل، وهو منزه عن كل شيء قبيح، فإن لفظ «الله» بما هو علم للذات المستجمع لجميع الكمالات، يوحي إلى هذا المعنى، والرحمن الرحيم، وصفان مشتقان من الرحمة، يوحي مبدأ اشتقاقهما بالفضل والرحم، وتكرارهما، بقوة هذه الصفة في ذاته سبحانه، والرحمن صفة الفعل، وليس صفة الذات، فالمعنى أنه سبحانه يفعل ما يفعله الرحيم، لا إن له حالة نفسية، توجب ذلك ولذا قالوا في مثل هذه الصفات «خذ الغايات واترك المبادي».

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿٢﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ﴿٣﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٥﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٦﴾

[٢] ﴿**والصافات صفاً**﴾ «الصافات» جمع صافة، وهي الملائكة التي تصف أقدامها للصلاة والإطاعة، أو أجنحتها حال الصعود والهبوط و «صفاً» تأكيد له، أي قسماً بالملائكة الصافات، الذين يصطفون صفاً، وإنما جيء بالجمع المؤنث، باعتبار الجماعة.

[٣] ﴿**فالزاجرات**﴾ أي ثم قسماً بالملائكة التي تزجر الكفار حين قبض أرواحهم، أو تزجر من أمر الله، بزجره ﴿**زجراً**﴾ مصدر تأكيدي لفعل محذوف.

[٤] ﴿**فالتاليات ذكراً**﴾ أي ثم قسماً بالملائكة التي تتلو القرآن، أو سائر الكتب المنزلة، وحيث إن معنى التاليات يلازم الذكر جيء تأكيده بلفظ «ذكراً».

[٥] قسماً بهؤلاء الطوائف من الملائكة ﴿**إن إلهكم**﴾ أيها الناس ﴿**لواحد**﴾ لاشريك له، وقد نرى في القرآن الحكيم القسم من الله سبحانه، بأصناف وأنواع مختلفة من الخلق، دلالة لعظمتها في أنفسها، وإن لايصح لنا أن نحلف إلا باسمه الكريم، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من كان حالفاً، فليحلف بالله، أو ليسكت[1].

[٦] ﴿**رب السماوات والأرض**﴾ خالقهما ومربيهما ﴿**وما بينهما**﴾ من الهواء، والإنسان والملائكة، وغيرها ﴿**ورب المشارق**﴾ جمع مشرق،

(١) متشابه القرآن: ج٢ ص١٩٨ .

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٧﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٨﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ

وهو موضع طلوع الشمس، فإن الشمس في كل يوم تطلع من موضع جديد، فلمن هذا الموضع في كل يوم؟ إنه لله سبحانه.

[٧] ﴿**إنا زينا السماء الدنيا**﴾ أي السماء القريبة إلى الأرض، مؤنث «أدنى» وإنما خصها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة، ولعل المراد بالسماء الدنيا مدار الأرض ـ كما يقوله العلم الحديث ـ ﴿**بزينة الكواكب**﴾ فإن الكواكب تزين الأرض، والإضافة للنوع، أي بهذا النوع من الزينة، فإن السماء بجمالها تُمتّع الإنسان، مع ما فيها من الفوائد الأخر.

[٨] ﴿**و**﴾ حفظناها ﴿**حفظاً**﴾ فإن السماء محفوظة ﴿**من كل شيطان مارد**﴾ متجرد خبيث خال من الخير، فقد يظهر من الأحاديث، أن في أعالي الجو، يُقدر أمور الأرض، وكأنها مراكز للملائكة المدبرة للأمور ـ بإذن الله سبحانه ـ فالشياطين تريد الصعود إلى تلك المراكز، لاستراق بعض الكلمات، لتعلم ماذا يحدث في الأرض، لكن السماء محفوظة عن وصول الشياطين و «مارد» مشتق من «مرد» وهو المنجرد، ومنه يسمى بالأجرد، من لا شعر له، فكان الشيطان منجرد عن الخير لا يتأتى منه عمل حسن.

[٩] ﴿**لا يسمعون**﴾ من أسمع أصله من باب الافتعال «استمع» ثم قلبت التاء سيناً، على القاعدة، أي إنما حفظنا السماء من كل شيطان لكي لايستمعون ﴿**إلى الملأ الأعلى**﴾ وهم أشرف الملائكة الذين وُكِّلَ إليهم بعض أمور الأرض ولهم مراكز في تلك الطبقات الرفيعة في الفضاء ﴿**ويقذفون**﴾ أي يقذف الشيطان الذي تجرأ وذهب إلى هناك

مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٩﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١١﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ

للإستماع ﴿**من كل جانب**﴾ من جوانب السماء بالشهب، كاللص الذي يرميه الإنسان، إذ رآه يريد سرقته، فقد جعل الله سبحانه الكواكب محلات للإرصاد، فهناك ملائكة ينظرون إلى الملأ الأعلى، فمهما اقترب منه شيطان رموه بالشهب ـ وهي النيازك ـ ينحونه عن الاقتراب، وهذا لاينافي في تعليل النيازك، بعلل ظاهرة، فإنه سبحانه جعل للأشياء عللاً ظاهرة، وعللاً خفية، كالميت الذي إنما يموت بالسم ظاهراً، وبقبض ملك الموت لروحه باطناً، وكالكسوف الذي هو لكثرة المعاصي باطناً، ولحيلولة القمر بين الأرض والشمس ظاهراً.

[١٠] ﴿**دحوراً**﴾ أي دفعاً لهم بالعنف، وطرداً، يقال دحره، إذا طرده بالعنف ﴿**ولهم**﴾ أي لأولئك الشياطين ﴿**عذاب واصب**﴾ أي عذاب دائم ثابت إلى يوم القيامة.

[١١] ﴿**إلا من خطف الخطفة**﴾ الخطف هو سلب الشيء خلسة بسرعة، والمعنى إن الشياطين لا يسمعون إلى الملائكة، إلا من اقترب خفية، فاختلس بعض الكلمات، التي تدار بين الملائكة، بأن لقفها بسرعة ﴿**فأتبعه شهاب ثاقب**﴾ أي لحقته وأصابته جمرة من نار مضيئة تثقب وتحرق الشيطان من حرارتها وحدتها، وهذه هي النيازك التي نراها في الليالي، وذلك لا ينافي ما يعلله علم الفلك لها من أنها قذائف جوية.

[١٢] وبعد تذكير هؤلاء بما خلقنا من السماوات والكواكب، وغيرها من المخلوقات العظيمة ﴿**فاستفتهم**﴾ أي اسألهم يا رسول الله ﴿**أهم أشد**

خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١٢﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ

خلقاً﴾ أي أحكم صنعاً، وأصعب في نظرهم **﴿أم من خلقنا﴾** من الملائكة والسماوات والأجرام؟ فكيف أن هؤلاء مع ضحالتهم يتكبرون عن الانقياد، بينما إن ما هو أشد منهم خلقاً خاضعون منقادون؟ **﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾** أي طين يلصق باليد، وهو الطين الصافي، وهذا بالنسبة إلى كل أحد أحد، فإن أصل كل فرد هو الطين ـ كما تقدم ـ فكيف أنهم مع وهن أصلهم يستكبرون؟

[١٣] **﴿بل عجبت﴾** يا رسول الله من كفر هؤلاء، وشدة إنكارهم، مع وضوح الأمر **﴿ويسخرون﴾** بينما أنت ـ مع عِظَمِك ـ تعجب، كيف غفلوا وتمردوا؟ وهؤلاء يسخرون بك، وبما تقول من الحقائق الواضحة الظاهرة للعيان.

[١٤] **﴿وإذا ذكروا﴾** بآيات الله، أي ذكرتهم بالله والمعاد، مما هو كامن في فطرة كل أحد **﴿لا يذكرون﴾** أي لا ينتفعون بالتذكير، فقد أقيم عدم السبب مقام عدم المسبب، إذ التذكير علة الانتفاع، فهم حيث لم ينتفعوا كأنهم لم يذكروا.

[١٥] **﴿وإذا رأوا آية﴾** دالة على وجود الله، وسائر صفاته، أو على رسالتك، وصدق ما تقول **﴿يستسخرون﴾** أي يستهزئون بتلك الآية قائلين: إنها سحر، والآتي بها ساحر، وجعلوا يضحكون منك ومنها.

[١٦] **﴿وقالوا﴾** لتلك الآية **﴿إن هذا﴾** أي ما هذا الذي عمله الرسول من

إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٩﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢١﴾

الإعجاز ﴿**إلا سحر مبين**﴾ واضح ظاهر.

[١٧] ثم أخذوا يظهرون التعجب من قولك بأنهم يبعثون يوم القيامة قائلين ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً**﴾ بأن صارت لحومنا تراباً، وبقيت عظامنا ﴿**أإنا لمبعوثون**﴾ أي محيون بعد الموت؟

[١٨] ﴿**أو**﴾ يبعث ﴿**آباؤنا الأولون**﴾ الذين ماتوا، وصاروا تراباً، والهمزة للإستفهام، والواو عاطفة.

[١٩] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، في جواب استفهامهم الإنكاري ﴿**نعم**﴾ أنتم وآباؤكم تبعثون ﴿**و**﴾ الحال ﴿**أنتم داخرون**﴾ أي صاغرون أذلاء، من دخر، بمعنى صغر وذل.

[٢٠] وليس بعثكم أمراً مشكلاً ﴿**فإنما هي**﴾ أي بعثتكم بعد الممات ﴿**زجرة**﴾ أي صيحة ﴿**واحدة**﴾، هي نفخة إسرافيل في الصور، وإنما سمي النفخ زجراً لأنهم قد زجروا عن الحالة التي هم عليها إلى الحشر ﴿**فإذا هم ينظرون**﴾ إلى القيامة التي كذبوا بها.

[٢١] ﴿**وقالوا**﴾ حين يرون القيامة ﴿**يا**﴾ قوم ﴿**ويلنا**﴾ أو يا ويلنا احضر، فهذا وقتك، وويل كلمة يقولها الإنسان عند توجه مصيبة إليه، كأنه يتمنى الهلاك فراراً عن تلك المصيبة ﴿**هذا يوم الدين**﴾ أي يوم

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٥﴾

الحساب الذي كذّبنا به.

[٢٢] فيردّ عليهم من قبل الله سبحانه، أو الملائكة، أو المؤمنين، بـ **﴿هذا يوم الفصل﴾** الذي يُفصل فيه بين المؤمن والكافر، والمبطل والمحق **﴿الذي كنتم به تكذبون﴾** فتقولون ـ وأنتم في الدنيا ـ لا حساب ولا جزاء.

[٢٣] ثم يقال من قِبَل الله تعالى **﴿احشروا﴾** أي اجمعوا من ساحة المحشر **﴿الذين ظلموا وأزواجهم﴾** أي نساءهم الظالمات، أو المراد أشكالهم، فإن الزوج بمعنى الشكل، وكأنّ «الذين ظلموا» مراد به كبراء الظالمين، ويراد بـ «أزواجهم» أشباههم من صغار الظالمين **﴿وما كانوا يعبدون﴾** أي الأصنام التي كانوا يعبدونها.

[٢٤] **﴿من دون الله﴾** أي سوى الله سبحانه، وإنما الاستثناء باعتبار أن المشركين، كانوا يعبدون الله والأصنام، فالاستثناء لتخصيص الأمر حتى في الصورة واللفظ ـ بالأصنام **﴿فاهدوهم﴾** أي أرشدوهم وأروهم ـ بعد جمعهم جميعاً ـ **﴿إلى صراط الجحيم﴾** أي الطريق التي تنتهي إلى النار، وإنما جيء بلفظ الهداية لشباهة إراءتهم لطريق النار بإراءة المؤمنين طريق الجنة.

[٢٥] **﴿وقفوهم﴾** من «وقف» أي أوقفوا هؤلاء الكفار، قبل إلقائهم في النار **﴿إنهم مسؤولون﴾** أي يلزم أن يسأل عنهم، عما فعلوا لزيادة التقريع،

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٩﴾

ثم يُلقون في النار، وقد ورد في بعض الأحاديث سؤالهم عن ولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[1]، وذلك من باب بعض المصاديق لما يسأل عنه هناك.

[٢٦] ثم يقال لهم تقريعاً وتبكيتاً ﴿**ما لكم**﴾ أيها الكفار ﴿**لا تناصرون**﴾ أي لاينصر بعضكم بعضاً، لإنجائكم من أهوال القيامة؟ أصله «تتناصر» حذفت إحدى تائيه للقاعدة.

[٢٧] ﴿**بل هم اليوم مستسلمون**﴾ منقادون، لما يفعل بهم، حيث لايتمكنون من المعارضة، وليس هناك كالدنيا، التي كان بعضهم ينصر بعضاً ـ فيها ـ ضد الحق، ولإخماد نوره.

[٢٨] ﴿**وأقبل بعضهم**﴾ أي بعض أولئك الكفار ﴿**على بعض يتساءلون**﴾ فإن الأتباع يسألون القادة عن سبب إضلالهم؟ ويلقون عليهم تبعة ضلالهم.

[٢٩] ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الأتباع للقادة ﴿**إنكم**﴾ أيها القادة ﴿**كنتم تأتوننا عن اليمين**﴾ أي عن طريق اليمن والبركة، فتقولون لنا إن كفرتم، ولم تؤمنوا بقيت لكم البركة والسعادة الدنيوية، فلم كنتم تغوونا بهذه الغواية حتى نلاقي هذا المصير السيئ؟ أو المراد كنتم تأتون عن طرف

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤ ص٢٧٢ .

قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٣﴾ فَإِنَّهُمْ

يميننا للإسرار في آذاننا، فإن الذي يريد أن يناجي، يُسر في الأذن اليمنى، لأنها أكثر احتراماً واستماعاً، لأنها في طرف القلب.

[٣٠] ﴿**قالوا**﴾ أي القادة للأتباع، يريدون بذلك تبرئة ساحتهم عن تبعة كفر الأتباع ﴿**بل لم تكونوا**﴾ أنتم بالذات ﴿**مؤمنين**﴾ فإنكم كنتم معرضين عن الله والرسول، وإنا لم نسبب ضلالكم، حتى تكون التبعة علينا.

[٣١] ﴿**وما كان لنا عليكم**﴾ أيها الأتباع ﴿**من سلطان**﴾ أي سلطة وقهر نجبركم على الكفر، لولا أنكم كنتم تحبون الكفر ﴿**بل كنتم**﴾ أيها الأتباع، في أنفسكم، وبدون إغوائنا ﴿**قوماً طاغين**﴾ قد طغيتم، وتجاوزتم حدود الإيمان فتبعتكم على أنفسكم، لا نحن معاشر القادة.

[٣٢] ﴿**فحق علينا**﴾ جميعاً التابع والمتبوع ﴿**قول ربنا**﴾ بأنا معذّبون، فقد قال الله سبحانه: إن من كفر، سيعذب، وقد ثبت، وانطبق علينا هذا القول، فـ ﴿**إنّا لذائقون**﴾ عذابنا على الكفر.

[٣٣] وإذ قد ثبت علينا وانطبق العذاب ﴿**فأغويناكم**﴾ حسب استعدادكم الذاتي، حيث انزلقتم معنا في حضيض الكفر ﴿**إنا كنا**﴾ بأنفسنا ﴿**غاوين**﴾ والطيور على أشكالها تقع.

[٣٤] ثم يحكي سبحانه حالتهم جميعاً، بقوله ﴿**فإنهم**﴾ القادة والأتباع

يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٧﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٨﴾

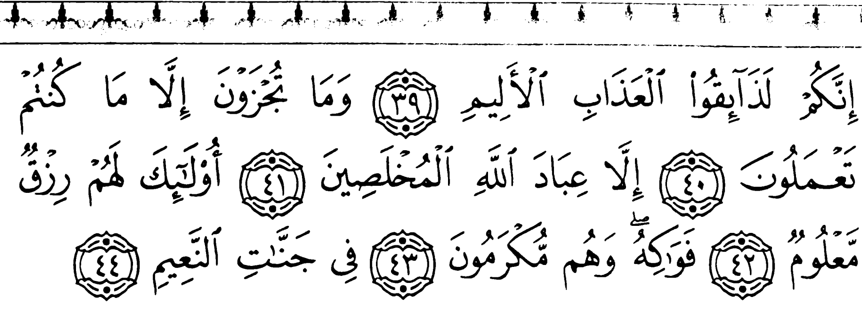
﴿**يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**في العذاب مشتركون**﴾ لكونهم جميعاً، كانوا كفاراً مشتركين في الضلال ـ في الدنيا ـ فاشتركوا في العذاب، هناك.

[٣٥] ﴿**إنا كذلك**﴾ أي كما فعلنا بهؤلاء من التعذيب ﴿**نفعل بـ**﴾ سائر ﴿**المجرمين**﴾ فهم معذبون بما صدر منهم من الكفر والعصيان، وكأنّ الآية ذكرت سابقاً جماعة خاصة، دار حولهم الكلام ـ وهم المشركون ـ ثم أرادت تعميم الأمر على سائر من يُجرم.

[٣٦] ثم بين سبحانه علة تعذيبهم بقوله ﴿**إنهم كانوا**﴾ في الدنيا ﴿**إذا قيل لهم**﴾ قولوا ﴿**لا إله إلاّ الله**﴾ واتركوا عبادة الأصنام ﴿**يستكبرون**﴾ أي يطلبون الكبرياء، ويرون أنفسهم فوق هذا الاعتراف، أليسوا هم أكبر قدراً من أتباع الرسول ﷺ؟ بزعمهم.

[٣٧] ﴿**ويقولون**﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿**أئنا لتاركوا آلهتنا**﴾ أي هل إنّا نترك الأصنام ﴿**لـ**﴾ قول ﴿**شاعر مجنون**﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، والاستفهام إنكاري، أي لا نفعل ذلك.

[٣٨] فرد الله عليهم ذلك بقوله، إن الرسول ليس شاعراً ولا مجنوناً ﴿**بل جاء بالحق**﴾ الذي هو التوحيد، وسائر الشؤون الأصولية ﴿**وصدّق المرسلين**﴾ الذين كانوا من قبله، وهل يقال لمثله شاعر، أو يقال له



مجنون؟ فهذا كلامه، ليس بشعر، وهذه حركاته ليست بحركات ذي جنون.

[٣٩] ﴿إنكم﴾ أيها الكفار ﴿لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي المؤلم الموجع، فإن استمراركم في الكفر لا ينتج إلا ذاك.

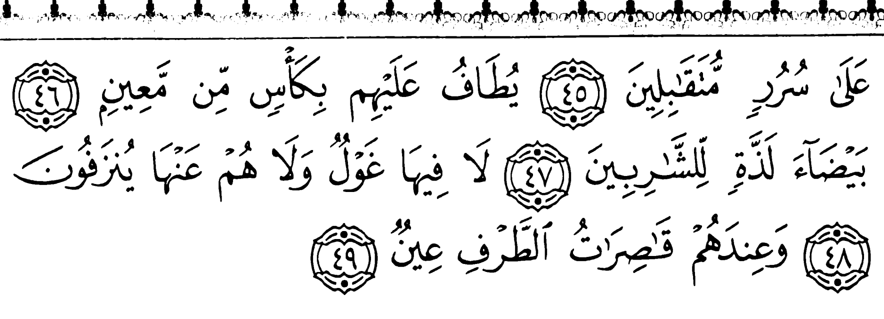
[٤٠] ﴿وما تجزون﴾ يوم القيامة ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ أي على قدر إجرامكم، أو نفس جرائمكم ـ بناءً على تجسيم الأعمال ـ.

[٤١] ولما كان الخطاب، في «إنكم» يوهم العموم لكل الناس، استثنى سبحانه عن ذلك بقوله ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ الذين أخلصهم الله لنفسه، فلا يعملون، إلا لله سبحانه، فإن هؤلاء بمعزل عن العذاب الأليم.

[٤٢] ﴿أولئك لهم﴾ في الجنة ﴿رزق معلوم﴾ قد عُلم وقُدّر جزاءً لأعمالهم، والحصة المعلومة، أقر للعين من الحصة المجهولة، التي لا يدري مقدارها.

[٤٣] ثم بين سبحانه بعض ذلك الرزق المعلوم، بقوله ﴿فواكه﴾ جمع فاكهة، وهي ثمرة الأشجار، يتفكهون بها ويتنعمون فيها ﴿وهم مكرمون﴾ فلهم النعمة الروحية، ـبالإكرامـ إضافة على النعمة الجسمية بالجنة والفواكه.

[٤٤] وذلك الإكرام والفواكه ﴿في جنات النعيم﴾ أي البساتين التي



يتنعم فيها الإنسان.

[٤٥] والمؤمنون هناك ﴿**على سرر**﴾ جمع سرير ﴿**متقابلين**﴾ حال عن أولئك، أي في حال كون بعضهم في مقابل بعض ليتم السرور عليهم بالتنعم في المجالس مع الأصدقاء يرى بعضهم بعضاً.

[٤٦] ﴿**يطاف عليهم بكأس**﴾ وهي الإناء الذي فيه المائع اللذيذ، ومعنى يطاف إن الحور والولدان، يدورون عليهم بالكأس المملوءة ﴿**من معين**﴾ والمعين الماء الجاري، النابع من العين.

[٤٧] ﴿**بيضاء**﴾ ومن ذلك يعرف، إن ما في الكأس «خمر» لوصفه بالمؤنث، وبما سيأتي ﴿**لذة للشاربين**﴾ فكأنها من كثرة اللذة قطعة منها، نحو زيد عدل.

[٤٨] ﴿**لا فيها**﴾ أي في تلك الخمر ﴿**غول**﴾ هو فساد يلحق الشيء، يعني ليس في ذلك الخمر فساد ﴿**ولا هم**﴾ أي الشاربين ﴿**عنها**﴾ أي عن تلك الخمر ﴿**ينزفون**﴾ أي يسكرون، فليس في خمر الجنة سكر، من نزف إذا ذهب عقله، أو بمعنى يطردون من نزف بمعنى طرد، فالشرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا.

[٤٩] ﴿**وعندهم**﴾ زوجات ﴿**قاصرات الطرف**﴾ «الطرف» العين، والمعنى قصرن أعينهم على أزواجهن، فلا يرغبن في غيرهم ﴿**عين**﴾ جمع «عيناء» وهي المرأة واسعة العين ـ مما يزيدها جمالاً ورونقاً ـ يعني

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٥٠﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾

إنهن واسعات العيون.

[٥٠] ﴿**كأنهن**﴾ أي كأن أجسام تلك الزوجات من البياض ﴿**بيض مكنون**﴾ بيض قد حفظ في مكان، فلم يذهب بياضه، بواسطة الوسخ والغبار.

[٥١] وهناك لما يستقرون ويتنعمون، بأنواع النعم يذهب بهم الفكر إلى أحوال الدنيا، وما كانوا فيها، ثم يتذكرون الكافرين الذين كانوا يستهزئون بهم، حيث إنهم يصدقون بالمعاد ﴿**فأقبل بعضهم**﴾ أي بعض أهل الجنة ﴿**على بعض يتساءلون**﴾ عن أحوالهم السابقة، فقد التقوا هناك، وكثيراً ما لم يكن لأحدهم معرفة بالآخر.

[٥٢] ﴿**قال قائل منهم**﴾ أي من أهل الجنة لبعض أصدقائه ﴿**إني كان لي قرين**﴾ أي شخص مقارن معي في دار الدنيا، بالجوار أو النسب أو الصداقة.

[٥٣] ﴿**يقول**﴾ لي على وجه الإنكار والاستهزاء ﴿**أإنك لمن المصدقين**﴾ أي من جملة الذين يصدقون بالحساب والجزاء؟

[٥٤] ثم يستهزئ قرينه بما اعتقده قائلاً ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً**﴾ لحومنا ﴿**وعظاماً أإنا لمدينون**﴾ أي مجزيون بأعمالنا من دانه، بمعنى حاسبه وجازاه، أي كيف يمكن أن يُجزي تراب وعظام؟ فإن هذا لايكون أبداً.

قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٥﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٧﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٨﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٩﴾

[٥٥] ﴿**قال**﴾ هذا المتسائل ـ بعد أن يحكي قول قرينه ـ ﴿**هل أنتم**﴾ أيها الجلساء ﴿**مطلعون**﴾؟ أي تحبون الاطلاع، والإشراف على النار، لترون ذلك القرين المكذب؟

[٥٦] فيقولون نعم نحب الاطلاع، فانظر أنت لتعرف مكانه، حتى ترينا، فإنّا لا نعرفه ﴿**فاطلع**﴾ هو بنفسه، وأشرف على النار ﴿**فرآه**﴾ أي رأى قرينه ﴿**في سواء الجحيم**﴾ أي في وسط النار، فإن «سواء الشيء» وسطه، وطبيعي أنه حين رآه، أراه إخوانه الذين قال لهم «هل أنتم مطلعون».

[٥٧] وإذ قد رأى قرينه الكافر في النار، يتوجه إليه بالتكلم معه ﴿**قال**﴾ له المؤمن ﴿**تالله**﴾ التاء للقسم، وتأتي غالباً لأمر غريب، أو نحوه ﴿**إن كدت**﴾ أي قد اقتربت، ﴿**لتردين**﴾ أي ترديني وتهلكني بوسوستك، وحذف «ياء» المتكلم تخفيفاً.

[٥٨] ﴿**ولولا نعمة ربي**﴾ وفضله بي، حيث عصمني من أن أسمع كلامك، فأصير كما صرت ﴿**لكنت من المحضرين**﴾ الذين أحضروا إلى الحشر والحساب بالقهر ـ لا بالرضا ـ لأنهم علموا بمصيرهم السّيء، ولذا كرهوا الحضور، حتى أجبروا عليه.

[٥٩] ثم يردّد المؤمن، ما كان يقوله الكافر في الدنيا، ترديداً بإنكار وتقريع ﴿**أفما نحن بميتين**﴾ أي كنت تقول في الدنيا، ما نحن نموت.

إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦٢﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٣﴾

[٦٠] **﴿إلا موتتنا الأولى﴾** فليس موت بعد الحياة في القبر، فإن الإنسان إذا حُوسب في القبر مات ثانياً، ثم يحيى يوم القيامة، كما قال سبحانه (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ)[1] **﴿وما نحن بمعذبين﴾** يوم القيامة، ألم تكن تقول ذلك؟ فهل كان صحيحاً؟ أو إن الكفار كانوا يقولون «ما وراءنا إلا موتة واحدة، فلا عذاب» وحينئذ معنى «الأولى» المتعارفة، لا في مقابل الموتة الثانية.

[٦١] ثم يأتي السياق ليبين فوز أهل الجنة ـ بعد إسدال الستار على قصة تلك المحاورة ـ **﴿إن هذا﴾** الذي يُنعِّم المؤمن في الجنة **﴿لهو الفوز العظيم﴾** الذي لا فوز ولا فلاح أعظم منه.

[٦٢] **﴿لمثل هذا﴾** الفوز والثواب **﴿فليعمل العاملون﴾** أي الذين يريدون العمل، فإنه أحسن نتيجة يحصل عليها العامل.

[٦٣] وبعد أن تقدم شطر من أحوال المؤمنين، يأتي السياق ليقابل بهم أحوال الكفار **﴿أذلك﴾** الثواب في الجنان **﴿خير نزلاً﴾** «النزل» هو ما يعد للضيف، ونصبه لكونه تمييزاً **﴿أم شجرة الزقوم﴾** التي أعدت نزلاً للكفار؟ قالوا، وهي شجرة صغيرة الورق زفرة مرة تكون بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في النار لتكون ثمرتها قوتاً لأهل النار.

---

(١) غافر: ١٢ .

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٥﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٦﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٨﴾

[٦٤] ﴿**إنا جعلناها**﴾ أي جعلنا تلك الشجرة ﴿**فتنة**﴾ أي محنة وعذاباً ﴿**للظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان في الدنيا فابتلوا بأكلها.

[٦٥] ﴿**إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم**﴾ أي تنبت من هناك، وتعلوا أوراقها وأغصانها إلى سائر الدركات.

[٦٦] ﴿**طلعها**﴾ أي ثمرها وحملها، ويقال للثمر الطلع، لأنه يطلع ويظهر ﴿**كأنه رؤوس الشياطين**﴾ في بشاعة المنظر، فإنها بالإضافة إلى طعمها السيئ لها منظر مهول، والإنسان، وإن لم ير الشيطان، ورأسه، إلا أن تصويره جسماً مهولاً بشعاً كاف في التشبيه، أو لأنها ثمرة تسمى بذلك.

[٦٧] ﴿**فإنهم**﴾ أي الظالمين ﴿**لآكلون منها**﴾ أي من تلك الشجرة، اضطراراً من جوعهم الشديد الذي لا يُطاق ﴿**فمالئون منها**﴾ أي من تلك الشجرة ﴿**البطون**﴾ أي بطونهم، و «اللام» عوض الضمير.

[٦٨] ﴿**ثم إن لهم عليها**﴾ أي بعد أكل تلك الشجرة ﴿**لشوباً**﴾ أي شراباً مشوباً، ليس بصافي ﴿**من حميم**﴾ أي الماء الحار، وهذا كما يقال: شرب الماء على الطعام.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٧٠﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٤﴾

---

[٦٩] ﴿**ثم إن مرجعهم**﴾ أي مأواهم ومصيرهم، بعد أكل الزقوم، وشرب الحميم ﴿**لإلى الجحيم**﴾ وكأن محل طعامهم وشرابهم، بعيد عن الجحيم فإذا أكلوا وشربوا رجعوا إلى محلهم، كما قال سبحانه (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)[1].

[٧٠] ﴿**إنهم**﴾ أي هؤلاء الكفار، إنما يصرون على الكفر والفساد تقليداً فقط، بلا حجة أو دليل، فقد ﴿**ألفوا**﴾ أي وجدوا، من ألفى يلفي بمعنى وجد ﴿**آباءهم ضالين**﴾ فقد رأوهم منحرفين عن طريق الهداية.

[٧١] ﴿**فهم على آثارهم يهرعون**﴾ أي يسرعون في تقليدهم، فإن الإهراع الإسراع.

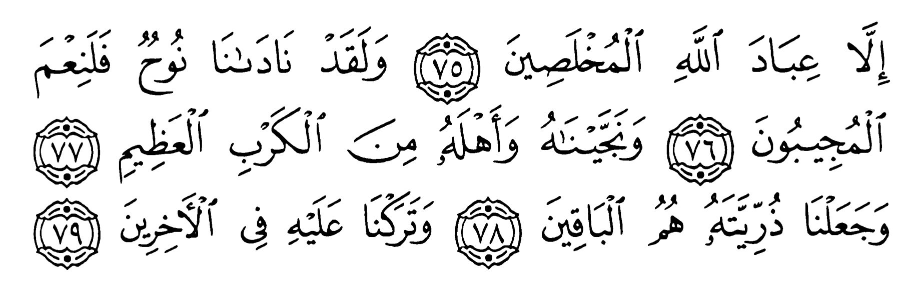
[٧٢] ﴿**ولقد ضل قبلهم**﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿**أكثر الأولين**﴾ من الأمم السابقة.

[٧٣] ﴿**ولقد أرسلنا فيهم**﴾ أي في أولئك الأولين ﴿**منذرين**﴾ أنبياء ينذرونهم من الضلال والكفر.

[٧٤] ﴿**فانظر**﴾ يا رسول الله، أو أيها الناظر ﴿**كيف كان عاقبة المنذرين**﴾

---

(١) الرحمن: ٤٥ .



حيث إن الله سبحانه، أهلكهم بعذابه لما انحرفوا، وهذا تهديد لهؤلاء بأنهم إن انحرفوا، أخذهم العذاب، كما أخذ السابقين.

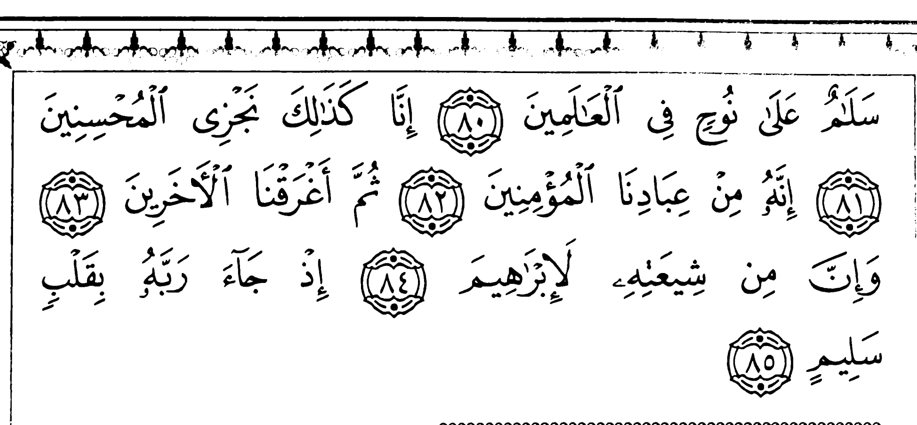
[٧٥] ﴿**إلا عباد الله المخلصين**﴾ بصيغة اسم المفعول، أي الذين أخلصهم الله سبحانه لنفسه، فكانوا يعملون لله سبحانه، لا لغيره، وهذا استثناء من «المنذرين» يعني إن المنذرين أهلكوا إلا عباد الله منهم.

[٧٦] ثم يأتي السياق ليبين طرفاً من أحوال الأمم وأنبيائهم تنبيهاً وإيقاظاً وتبياناً لقوله «ولقد أرسلنا» ﴿**ولقد نادانا نوح**﴾ بعد ما يئس من إيمان قومه، لننصره عليهم ﴿**فلنعم المجيبون**﴾ نحن لنوح، فلقد أجبناه لما سئل من إنجائه من الكفار.

[٧٧] ﴿**ونجيناه**﴾ أي خلصناه ﴿**وأهله**﴾ عائلته ـ إلا ولده ـ ﴿**من الكرب العظيم**﴾ أي المكروه الذي كان ينزل به من قومه، بأن حملناه في السفينة، وأهلكنا الكفار.

[٧٨] ﴿**وجعلنا ذريته**﴾ أولاده وأحفاده ﴿**هم الباقين**﴾ في الأرض، فالناس كلهم ـ بعد نوح ـ من ولده، إذ هلك سائر الناس بالغرق.

[٧٩] ﴿**وتركنا عليه**﴾ أي أبقينا له ذكراً جميلاً ﴿**في الآخرين**﴾ أي الأمم الآخرين الذي جاءوا بعده، وهكذا عاقبة المجاهد في سبيل الله، نجاة، وبقاء الذرية، وذكر جميل.



سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿٨٣﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٤﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٥﴾

[٨٠] ﴿**سلام على نوح في العالمين**﴾ إما جملة مستأنفة، تحية لنوح من الله سبحانه، ومعنى هذا إنه سالم في جميع العوالم، سالم الذكر، سالم الشخص، سالم المبدأ، أو إنه من تتمة الكلام السابق، أي تركنا عليه أن يسلم الناس عليه إلى يوم القيامة، فكل جيل من الأجيال عالم يُحيّي نوحاً بالسلام.

[٨١] ﴿**إنا كذلك**﴾ أي كما أنجينا نوحاً ﴿**نجزي المحسنين**﴾ بإنجائهم من الأعداء.

[٨٢] ﴿**إنه من عبادنا المؤمنين**﴾ وفي هذه الآية مدح للمؤمنين حيث جُعل نوح عليه السلام منهم.

[٨٣] ﴿**ثم**﴾ بعد إنجاء نوح عليه السلام في السفينة ﴿**أغرقنا الآخرين**﴾ أي الكفار.

[٨٤] ﴿**وإن من شيعته**﴾ أي شيعة نوح ﴿**لإبراهيم**﴾ والشيعة من المشايعة، بمعنى المتابعة، أي أن إبراهيم كان من الذين شايعوا نوحاً في منهاجه ودعوته إلى التوحيد والشريعة، والإذعان بالمعاد، والإنقياد لأوامر الله سبحانه.

[٨٥] ﴿**إذ جاء**﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿**ربه بقلب سليم**﴾ سالم من الشرك والعصيان والرذائل، ومعنى «جاء» توجه إلى الله سبحانه، مع قلب طاهر نظيف.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٧﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٨﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٩﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٩٠﴾

[٨٦] ﴿**إذ قال**﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿**لأبيه**﴾ آزر، والمراد عمه، فإن الاصطلاح على تسمية العم، أبا، احتراماً ﴿**وقومه ماذا تعبدون**﴾ أي أيّ شيء تعبدونه.

[٨٧] ﴿**أئفكاً**﴾ الإفك هو الكذب ﴿**آلهة**﴾ بدل من إفكاً ﴿**دون الله**﴾ أي غير الله ﴿**تريدون**﴾؟ قال ذلك على نحو الاستفهام الإنكاري، أي كيف تعبدون آلهة دون الله بالكذب والإفك؟

[٨٨] ﴿**فما ظنكم**﴾ أيها المشركون ﴿**برب العالمين**﴾ أي ما تظنون أن يفعل بكم إذا أشركتم؟ وهذا تهديد لهم في عبادتهم دون الله.

[٨٩] ولما رأى إبراهيم عليه السلام، إن الكلام لا يؤثر فيهم عزم على أن يُحطّم الأصنام، ليحدث فيهم ضجة، ودائماً في الضجة، تظهر القلوب النقية، وتصطدم التقاليد، فيولد في الناس حب الاستطلاع والرجوع إلى مناهجهم ليروا أيها صحيحاً، وأيها فاسداً، وقد كان للقوم عيد يخرجون فيه إلى الصحراء، ويضعون الطعام أمام الأصنام، لتبارك عليه، ثم إذا رجعوا أخذوه للتبرك والاستشفاء، ولما أرادوا الخروج، قالوا لإبراهيم، هلم معنا إلى العيد ﴿**فنظر**﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿**نظرة في النجوم**﴾ ولعل نظره إليها، كان لأجل التفكر، فإن الإنسان إذا أراد أن يفكر ـ سريعاً ـ صرف نظره عمن يقابله، إلى محل آخر، لئلا يشغله المخاطب، فيفكر في أمره.

[٩٠] ﴿**فقال إني سقيم**﴾ فقد كان قلبه حزيناً على إصرار القوم على الكفر،

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩١﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٣﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٤﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ

والسقم كما يطلق على المرض الجسدي، يطلق على ضجر النفس وعدم خلوها من الهمّ والمعنى لا حالة لي على الخروج معكم، فإن مشغول القلب بالهم، لا حالة له على التنزه والتفرج.

[٩١] ولما عرف القوم، بأنه لا يخرج معهم تركوه ﴿**فتولوا عنه**﴾ أي أعرضوا عن مصاحبته للعيد ﴿**مدبرين**﴾ أي ولوه الدبر ذاهبين إلى العيد.

[٩٢] ﴿**فراغ**﴾ أي مال إبراهيم ﴿**إلى آلهتهم**﴾ أي الأصنام، فإنه حين رأى خلو المعبد من العباد، مال نحو الأصنام ﴿**فقال**﴾ لها ﴿**ألا تأكلون**﴾؟ وقد كان هذا سؤال العارف يريد أن يسمع غيره، لتتم عليه الحجة، والمراد بالأكل وجود الحس والحياة، وإلا فإله الحق أيضاً لا يأكل، وقد تقدم أن أمام الآلهة كانت أطعمة للقوم.

[٩٣] ﴿**ما لكم**﴾ أيها الأصنام ﴿**لا تنطقون**﴾ ولا تتكلمون؟ والإتيان بالضمائر على غرار العاقل، توحيداً مع سياق كلام القوم.

[٩٤] ﴿**فراغ**﴾ أي مال إبراهيم ﴿**عليهم**﴾ أي على الأصنام ﴿**ضرباً باليمين**﴾ فقد أخذ فأساً بيمينه، وشرع يحطمهم ويكسرهم، وإنما أخذ باليمين، لأنها أقوى في العمل.

[٩٥] ولما رجع القوم من العيد، ودخلوا بيت الأصنام رأوها محطمة مكسرة، وعلموا إن ذلك من فعل إبراهيم، لأنه هو الذي بقي في المدينة، وإنه كان مخالفاً للأصنام ﴿**فأقبلوا إليه**﴾ أي إلى إبراهيم

يَزِفُّونَ ﴿٩٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٨﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٩﴾

﴿**يزفون**﴾ أي يسرعون في المشي، فإن «زف» بمعنى الإسراع في المشي لنيل مطلوب، أو الانتقام من عدو، أو ما أشبه.

[٩٦] وأخذوا إبراهيم، وأثبتوا التحطيم عليه، فـ ﴿**قال**﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿**أتعبدون**﴾ أيها القوم ﴿**ما تنحتون**﴾؟ على نحو الاستفهام الإنكاري، أي كيف تعبدون الأصنام، التي تنحتونها من الأحجار بأيديكم، وهل يمكن أن يكون الإله مصنوعاً للإنسان؟

[٩٧] ﴿**والله خلقكم**﴾ أيها القوم ﴿**وما تعملون**﴾ من الأصنام، فإن أصنامكم التي تعملونها وتنحتونها مخلوقة له سبحانه.

[٩٨] ولما لم يتمكن القوم من رد حجة إبراهيم، وتفكروا في التخلص منه ﴿**قالوا**﴾ قال بعضهم لبعض ﴿**ابنوا له**﴾ لإبراهيم ﴿**بنياناً**﴾ محلاً ليُلقى فيه الحطب، فيُشعل، ثم يقذف فيه إبراهيم ليحترق، واحتراق الإنسان لا يحتاج إلى ذلك، وإنما أراد القوم إظهار حقدهم على إبراهيم بذلك ﴿**فألقوه في الجحيم**﴾ أي النار، وكل نار عظيمة، تسمى جحيماً.

[٩٩] وصنعوا البنيان، وجمعوا الحطب، وأشعلوه، وقذفوا فيه إبراهيم، لكنه لم يحترق ﴿**فأرادوا**﴾ أي القوم ﴿**به**﴾ بإبراهيم ﴿**كيداً**﴾ حيلة للخلاص منه ﴿**ف**﴾ لم ينجحوا بل ﴿**جعلناهم الأسفلين**﴾ وأعلينا إبراهيم عليهم، إذ (قُلْنا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[1].

(١) الأنبياء: ٧٠.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

---

[١٠٠] وإذ خرج إبراهيم من النار ظافراً، ورأى أن القوم لا يؤثر فيهم الكلام، وإنما هم مصرون على عبادة الأصنام، أراد هجر تلك الديار، إلى مكان آخر، لعله يجد آذاناً واعية ﴿**وقال**﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿**إني ذاهب إلى ربي**﴾ أي إلى حيث أمرني ربي إلى الديار المقدسة، وهذا كما يسمى من يذهب إلى الحج، إنه ذاهب إلى الله ﴿**سيهدين**﴾ أي يهديني ربي ـ فيما بعد ـ إلى المكان الذي يختاره لي، فإني مهاجر من هذه البلاد، منتظر أمر ربي لاختيار المكان الذي أقطن فيه.

[١٠١] ثم دعا ربه أن يهب له ولداً، ليكون خلفه في إقامة الدين، فقال يا ﴿**رب هب لي**﴾ ولداً ﴿**من الصالحين**﴾ بأن يكون من جملتهم.

[١٠٢] ﴿**فبشرناه بغلام**﴾ أي ولد ﴿**حليم**﴾ ذو حلم وأناة، وهذا من أعظم صفات المصلحين، إذ الإصلاح يحتاج إلى التحلّم من الجهال، وتلقّي أذاهم بصبر وأناة، والمراد بالغلام «إسماعيل» جد نبينا عليه السلام.

[١٠٣] وأعطاه الله سبحانه الولد، وبقي معه حتى شبّ وكبر ﴿**فلما بلغ**﴾ الغلام ﴿**معه السعي**﴾ أن يسعى مع إبراهيم في أعماله، فإن الولد ما دام طفلاً، لا يتمكن أن يشارك الأب في مهامه، فإذا كبر وشب، يبلغ مبلغاً يتمكن أن يسعى مع أبيه في حوائجه ﴿**قال**﴾ إبراهيم عليه السلام له ﴿**يا بني إني أرى في المنام**﴾ أي رأيت في النوم ﴿**أني أذبحك**﴾ وقد كان نومه وحياً من الله سبحانه، وكان هذا امتحاناً آخر لإبراهيم عليه السلام، بعد تلك المصاعب والأحزان، والطرد من الوطن، وإسكان الأهل في واد

فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾

غير ذي زرع ﴿**فانظر**﴾ يا بني ﴿**ماذا ترى**﴾؟ أي ما رأيك في هذا الأمر؟ فهل تقبل أن أذبحك أم لا؟ ﴿**قال**﴾ إسماعيل عليه السلام ﴿**يا أبت**﴾ أصله «أبي» والتاء عوض عن الياء ﴿**افعل ما تؤمر**﴾ من ذبحي، فإني مستعد لذلك ﴿**ستجدني**﴾ عند الذبح ﴿**إن شاء الله من الصابرين**﴾ أصبر على ألم الذبح، ومفارقة الحياة.

[١٠٤] ﴿**فلما أسلما**﴾ أي استسلم إبراهيم لذبح ولده، وإسماعيل لأن يُذبح ﴿**وتله**﴾ أي أضجعه، فإن التل هو الصرع، ومنه يسمى تل التراب تلاً، لأن التراب يُصرع ويجمع هناك ﴿**للجبين**﴾ الجبين، ما عن يمين الجبهة وشمالها، أي أنام إبراهيم ولده إسماعيل على جنبه ليقتله.

[١٠٥] أظهرنا له ما كنا نقصده من عدم الذبح ـ وإنما الامتحان ـ ﴿**وناديناه أن يا إبراهيم**﴾ فإتيان «الواو» هنا للإشارة إلى وجهة في الكلام، وذلك من فنون البلاغة.

[١٠٦] ﴿**قد صدقت الرؤيا**﴾ أي أتيت بما يصدقها، والتصديق كما يكون بالعمل، كذلك يكون بالتهيؤ القريب مع النية الجازمة ﴿**إنا**﴾ كما جازينا إبراهيم بالعفو عن ذبح ولده، وإعطائه أجر الذبح ﴿**كذلك نجزي المحسنين**﴾ الذين يحسنون في عملهم تجاه الله سبحانه بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٨﴾

[١٠٧] ﴿إن هذا﴾ الذي امتحن به إبراهيم من ذبح ولده ﴿لهو البلاء﴾ الامتحان ﴿المبين﴾ الظاهر، فإن تهيؤ الإنسان لذبح ولده بعد كبره وشدة علاقته معه، لَمِن أعظم الامتحانات.

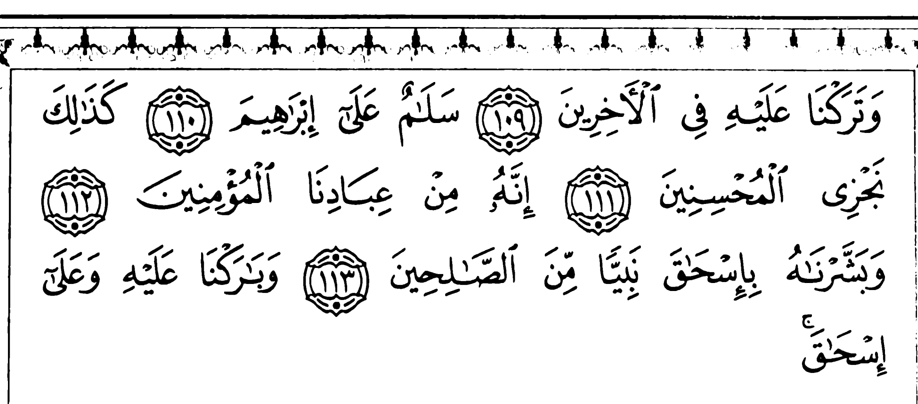
[١٠٨] ﴿وفديناه﴾ أي جعلنا عوض ذبح إسماعيل، فإن الفدية هو العوض عن شيء وجب على الإنسان ﴿بذبح عظيم﴾ الذبح هو المذبوح، فقد جاء جبرئيل من الجنة بكبش ذبح عوض إسماعيل، ومن المعلوم أن ذبح كبش الجنة فدية أعظم أقسام الذبح قربة إلى الله تعالى، أو المراد إنه كان عظيماً، حيث أمر الناس بالاقتداء به، والسير خلفه، وإلى هذا اليوم يذبحون الأغنام، في الأضحية تجديداً لتلك الذكرى، وقد ورد إن كل ما يذبح بمنى، فهو فدية لإسماعيل إلى يوم القيامة.

في حديث عن الباقر والصادق عليهما السلام، يذكر قصة حج إبراهيم، قال: ثم أفاض إلى المزدلفة، فسميت المزدلفة، لأنه ازدلف إليها، ثم قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، وقد رأى فيه شمائله وأخلاقه وآنس مما كان إليه، فلما أصبح أفاض من المشعر إلى منى، فقال لأمه: زوري البيت أنت، واحتبس الغلام، فقال يا بني هات الحمار والسكين؟ حتى أقرّب القربان، سأل الراوي: ما أراد بالحمار والسكين؟ قال: أراد أن يذبحه ثم يحمله، فيجهزه ويدفنه، قال: فجاء الغلام بالحمار والسكين، فقال: يا أبت أين القربان؟ قال: ربك يعلم أين هو، يا بني أنت والله هو، إن الله قد أمرني بذبحك، فانظر ما ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، قال: فلما عزم على الذبح، قال: يا أبت خمّر وجهي، وشُد وثاقي، قال: يا بني الوثاق مع الذبح؟ والله لا أجمعهما عليك اليوم، قال

الباقر عليه السلام: ، فطرح له قرطان «برذعة» الحمار، ثم أضجعه عليه، وأخذ المدية فوضعها على حلقه، قال فأقبل شيخ، فقال: ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه، فقال: سبحان الله، غلام لم يعص الله طرفة عين تذبحه؟ فقال: نعم إن الله قد أمرني بذبحه، فقال: بل ربك ينهاك عن ذبحه، وإنما أمرك بهذا الشيطان في منامك، قال: ويلك الكلام الذي سمعت، هو الذي بلغ بي ما ترى، لا والله لا أكلمك، ثم عزم على الذبح، فقال الشيخ: يا إبراهيم إنك إمام يقتدى بك، فإن ذبحت ولدك، ذبح الناس أولادهم فمهلاً، فأبى أن يكلمه، ثم قال عليه السلام: فأضجعه عند الجمرة الوسطى، ثم أخذ المدية فوضعها على حلقه، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم انتحى عليه المدية، فقلبها جبرئيل عليه السلام عن حلقه، فنظر إبراهيم، فإذا هي مقلوبة، فقلبها إبراهيم عليه السلام على حدها، وقلبها جبرئيل عليه السلام على قفاها، ففعل ذلك مراراً، ثم نودي من ميسرة مسجد الخيف، يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، واجْتَرَّ الغلام من تحته، وتناول جبرئيل الكبش من قُلَّةِ ثبيرٍ، فوضعه تحته، وخرج الشيخ الخبيث، حتى لحق بالعجوز حين نظرت إلى البيت، والبيت في وسط الوادي، فقال: ما شيخ رأيته بمنى فنعت نعت إبراهيم عليه السلام، قالت: ذاك بعلي، قال: فما وصيف رأيته معه؟ ونعت نعته، فقالت: ذاك إبني، قال: فإني رأيته أضجعه، وأخذ المدية، ليذبحه؟ قالت: كلا ما رأيته، إبراهيم إلاّ أرحم الناس، وكيف رأيته يذبح ابنه؟ قال: ورب السماء والأرض، ورب هذه البنية، لقد رأيته أضجعه؟ وأخذ المدية ليذبحه، قالت: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذبحه، قالت: فحق له أن يطيع ربه «الحديث»[1].

---

(١) الكافي: ج٤ ص٢٠٧ .


وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١١٠) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٣) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ

[١٠٩] ﴿**وتركنا عليه**﴾ أي على إبراهيم عليه السلام ذكراً جميلاً ﴿**في الآخرين**﴾ في الأمم التي أتت من بعده، فإن جميع الأمم، يمدحون إبراهيم عليه السلام، جزاءً لجهاده، وإطاعته لله سبحانه.

[١١٠] ﴿**سلام على إبراهيم**﴾ إما جملة مستأنفة، أي سلامة من الله على إبراهيم في دنياه بالذكر الجميل، وفي آخرته بالجنة والنعيم، أو من تتمّة «وتركنا» أي أبقينا له تسليم الناس له وتحيتهم إياه.

[١١١] ﴿**كذلك**﴾ الذي جزينا إبراهيم عليه السلام ﴿**نجزي المحسنين**﴾ كل من أحسن عقيدة وعملاً.

[١١٢] ﴿**إنه**﴾ أي إبراهيم عليه السلام ﴿**من عبادنا المؤمنين**﴾ الذين آمنوا بنا، وفي هذا تلميح إلى رفعة درجة الايمان.

[١١٣] ﴿**وبشرناه**﴾ أي بشرنا إبراهيم، جزاءً لخدماته وأتعابه ﴿**بإسحاق**﴾ فقد كانت زوجته «سارة» لا تلد، لكن الله سبحانه شاء أن يتفضل عليهما بالولد فولدت له إسحاق في حال كونه ﴿**نبياً من الصالحين**﴾ أي من جملتهم، وفي جماعتهم، وهذا ترغيب في الصلاح، وحيث إن النبي مع عظم درجته يُعدّ منهم.

[١١٤] ﴿**وباركنا عليه**﴾ أي على إبراهيم ﴿**وعلى إسحاق**﴾ بأن جعلنا فيهما البركة والزيادة: زيادة النسل، وزيادة الذكر، وزيادة الخير إلى غير

وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٧﴾

ذلك، ويحتمل بعيداً أن يكون ضمير «عليه» راجعاً إلى «إسماعيل» المفهوم من قوله «بنيّ» وقد صدق سبحانه، فإن من نسل إسحاق «اليهود» ومن نسل إسماعيل كثرة من المسلمين، وقد بُعث فيهم كثرة من الأنبياء، وبقوا إلى هذا اليوم ﴿**ومن ذريتهما**﴾ أي ذرية إبراهيم - وبالطبيعة يرجع ذلك إلى إسماعيل - وذرية إسحاق ﴿**محسن**﴾ بالإيمان والطاعة ﴿**وظالم لنفسه**﴾ بالكفر أو العصيان ﴿**مبين**﴾ صفة لكلا الأمرين، باعتبار كل واحد منهما، وكانت هذه الجملة، للتعريض بالظالم كيف يظلم، وآبائه هؤلاء الأنبياء العظام المحسنون؟

[١١٥] وبعد تمام قصة إبراهيم يعطف السياق إلى قصة موسى وهارون الذين هما من نسل إبراهيم عليه السلام ﴿**ولقد مننا على موسى وهارون**﴾ أي أنعمنا عليهما بنعم كثيرة لطفاً ومنّة، لا استحقاقاً، فقد جعلناهما، نبيين عظيمين، وملكناهما الأرض إلى غير ذلك من النعم، التي تفضل الله بها عليهما.

[١١٦] ﴿**ونجيناهما وقومهما**﴾ أي خلصناهما وبنى إسرائيل ﴿**من الكرب العظيم**﴾ وهو إسار فرعون الذي كان يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

[١١٧] ﴿**ونصرناهم**﴾ على فرعون بإغراقه مع جيشه، وغلبة هؤلاء عليهم ﴿**فكانوا هم**﴾ أي موسى وهارون، وبنو إسرائيل ﴿**الغالبين**﴾ على فرعون وقومه.

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٨﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢١﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾

[١١٨] ﴿**وآتيناهما**﴾ أي أعطينا موسى وهارون ﴿**الكتاب المستبين**﴾ يقال استبان الأمر إذا أُظهر ظهوراً جلياً، والمراد بالكتاب «التوراة» التي كانت ظاهرة جلية.

[١١٩] ﴿**وهديناهما الصراط المستقيم**﴾ أي دللناهما الطريق الذي يوصل إلى المطلوب بأقصر مسافة.

[١٢٠] ﴿**وتركنا عليهما**﴾ أي أبقينا على موسى وهارون الذكر الجميل ﴿**في**﴾ الأقوام ﴿**الآخرين**﴾ بأن عرّفناهما للناس، حتى يثنون عليهما.

[١٢١] ﴿**سلام على موسى وهارون**﴾ إما جملة مستأنفة، وإما من تتمة «تركنا» كما تقدم.

[١٢٢] ﴿**إنا كذلك**﴾ أي كما جزيناهما ﴿**نجزي المحسنين**﴾ الذين يحسنون في العقيدة والعمل.

[١٢٣] ﴿**إنهما من**﴾ جملة ﴿**عبادنا المؤمنين**﴾ وفيه إشارة إلى مدح الإيمان، حتى أن موسى وهارون يستحقان، آيتين عليهما بكونهما مؤمنين.

[١٢٤] وإذ فرغ السياق من ذكر موسى وهارون، يأتي لذكر «إلياس» النبي عليه السلام ﴿**وإن إلياس لمن المرسلين**﴾ في المجمع، قالوا: إنه بعث بعد حزقيل، لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وكان يوشع لما

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٦﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٩﴾﴾

فتح الشام، بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطاً منهم ببعلبك وهم سبط إلياس، فبعث فيهم نبياً إليهم، فأجابه الملك، ثم إن امرأته حملته على أن ارتد وخالف إلياس، وطلبه ليقتله، فهرب إلى الجبال والبراري، إلى أن قال: وسلط الله على الملك وقومه عدواً لهم، فقتل الملك وامرأته.

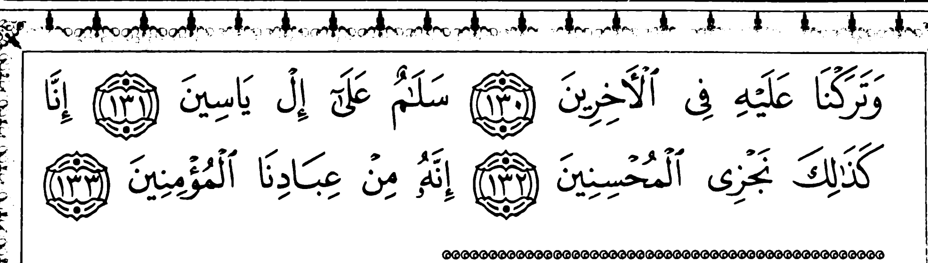
[١٢٥] ﴿**إذ قال لقومه ألا تتقون**﴾ المعاصي وتخافون الله؟ على وجه الاستفهام الإنكاري، أي لماذا لا تتقون.

[١٢٦] ﴿**أتدعون بعلاً**﴾ اسم صنم لهم، أي كيف تدعون بالألوهية «بعلاً» ﴿**وتذرون**﴾ أي تتركون ﴿**أحسن الخالقين**﴾؟ أي الله فلا تتخذونه إلهاً؟

[١٢٧] تذرون ﴿**الله ربكم**﴾ بدل من «أحسن الخالقين» ﴿**ورب آبائكم الأولين**﴾ فإنه هو الخالق لكم جميعاً، فكيف يترك الإنسان خالقه ليأخذ غيره؟

[١٢٨] ﴿**فكذبوه**﴾ في دعوته ولم يؤمنوا به، بل قالوا إنك تكذب في ادعائك بوجود الله، وأنك رسوله، ﴿**فإنهم لمحضرون**﴾ يحضرون في القيامة بالعنف، والكره منهم، حيث يعلمون شدة الحساب عليهم، وسوء الجزاء، بخلاف المؤمنين الذين يحضرون الموقف رغبة منهم، إذ يعلمون الجزاء الحسن.

[١٢٩] ﴿**إلا عباد الله المخلصين**﴾ من قوم «إلياس» فإنهم ليسوا بمحضرين،



أو استثناء منقطع، حيث إن المراد، إن كل إنسان محضر، إلا من أخلصه الله سبحانه لنفسه، من الصالحين ـ وقد ذكرنا سابقاً وجه الاستثناء المنقطع ـ.

[١٣٠] ﴿**وتركنا عليه**﴾ أي على إلياس، ذكراً جميلاً ﴿**في**﴾ الأقوام ﴿**الآخرين**﴾ فإنهم يعظمونه.

[١٣١] ﴿**سلام على آل ياسين**﴾ إما جملة مستأنفة، بأن يكون السلام من الله عليه، أو مرتبطة بما قبلها، أي تركنا عليه تسليم الأقوام عليه بالإضافة إلى الذكر الجميل، و«آل ياسين» لغة «في إلياس» أو باعتبار ما قالوا: من أن الكلمة إذا كانت عجمية، جاز التصرف فيها بكل وجه، ولذا جاز في «جبرئيل» لغات، وما ورد من أن المراد «آل ياسين» يعني آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[1]، فذاك من باب التأويل، أو باعتبار استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ على المختار من جوازه بالقرينة ـ .

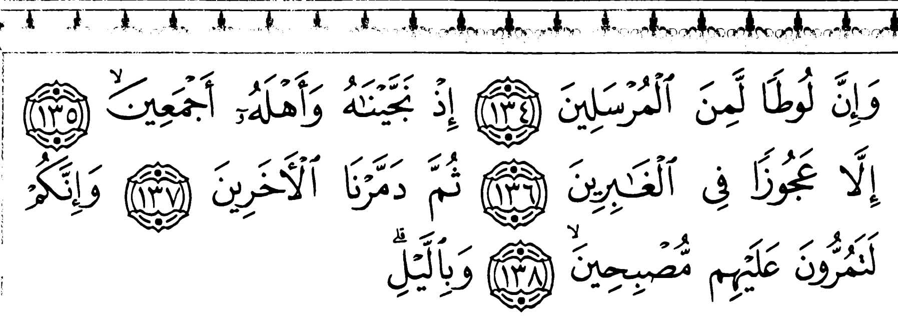
[١٣٢] ﴿**إنّا**﴾ كما جزينا إلياس ﴿**كذلك نجزي المحسنين**﴾ الذين يحسنون في العقيدة والعمل.

[١٣٣] ﴿**إنه**﴾ أي إن إلياس ﴿**من عبادنا المؤمنين**﴾ المصدقين بنا وبشريعتنا، ومن المعلوم إن منتهى مفخرة الأنبياء، إنهم من المؤمنين، ولذا قال (وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)[2] وقال تعالى:

---

(١) تأويل الآيات: ٤٨٩ .

(٢) آل عمران: ١٠٣ .



(آمَنَ الرَّسُولُ)[1].

[١٣٤] وبعد تمام قصة إلياس، يأتي السياق للإشارة إلى قصة لوط ﴿**وإن لوطاً لمن المرسلين**﴾ الذين أرسلهم الله إلى قومهم.

[١٣٥] فقد جاء ليرشد قومه في ترك الكفر، واجتناب الفاحشة، التي كانوا يرتكبونها، لكن وعظه لم ينفع في قومه، وأخيراً قدر الله سبحانه الهلاك على القوم، وإنجاء لوط من براثنهم ﴿**إذ نجيناه**﴾ أي لوط ﴿**وأهله أجمعين**﴾ من تلك القرية التي كانت تعمل الخبائث، بأن أمرناهم بالخروج منها ليلاً.

[١٣٦] ﴿**إلا عجوزاً**﴾ هي زوجة لوط المنافقة ﴿**في الغابرين**﴾ أي كانت في الباقين الذين أهلكوا.

[١٣٧] ﴿**ثم**﴾ بعد خروج لوط وأهله من القرية ﴿**دمّرنا الآخرين**﴾ التدمير هو الإهلاك، أي أهلكنا القوم بتقليب أرضهم ظهراً لبطن، ورجمهم بالحجارة.

[١٣٨] ﴿**وإنكم**﴾ يا أهل مكة ﴿**لتمرون عليهم**﴾ أي على أراضي قوم لوط ﴿**مصبحين**﴾ أي صباحاً، من أصبح، بمعنى دخل في الصباح.

[١٣٩] ﴿**وبالليل**﴾ فإن أهل مكة كانوا إذا سافروا إلى الشام، مروا بأراضي

---

(١) البقرة: ٢٨٦ .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٠﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤١﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٢﴾

قوم لوط المدمرة، ورأوا أماكنهم ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أليس لكم عقل حتى تعتبروا بأولئك القوم، وتعلموا أن من تمادى في الكفر والطغيان، كان مصيره، مثل مصير أولئك؟

[١٤٠] ثم أتى السياق للإشارة إلى قصة يونس عليه السلام ﴿**وإن يونس لمن المرسلين**﴾ الذين أرسلوا إلى أقوامهم لإرشادهم.

[١٤١] فقد جاء إلى قومه، وكانوا كفاراً عصاتاً، وعددهم مائة ألف، أو يزيدون، فدعاهم إلى الله مدة مديدة، لكنهم لم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً ودعا عليهم بالعذاب، لكن دعائه عليهم، كان خلاف الأولى، ولذا شاءت إرادة الله سبحانه، أن ينبهه على ذلك ﴿**إذ أبق**﴾ أي فرّ من قومه تضجراً، لئلا يحضر وقت نزول العذاب بهم ﴿**إلى الفلك**﴾ أي السفينة ﴿**المشحون**﴾ أي المملوء بالناس والأحمال، من شحنه إذا ملأه.

[١٤٢] ﴿**فساهم**﴾ أي قارع، وذلك لأن حوتاً أخذ طريق السفينة، فاستقر رأي القوم على أن يقرعوا باسم الأشخاص الراكبين، فمن خرج اسمه في القرعة، ألقوه للحوت ليأكله، فيفتح عليهم الطريق، وإنما قال «ساهم» لأن القوم كلهم، ومنهم يونس، قبلوا القرعة، فهو من باب إسناد الفعل إلى السبب ﴿**فكان**﴾ يونس ﴿**من المدحضين**﴾ يقال أدحضه إذا أسقطه، أي من الساقطين في البحر، فقد أسقطه القوم حسب خروج اسمه على القرعة، والإتيان بالجمع «المدحضين» باعتبار السياق، وتوهم كلّي له أفراد في سائر السفن، وتلك السفينة، فلا

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٣﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٤﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٥﴾﴾

ينافي ذلك، إن لم يكن أحد مدحضاً سواه.

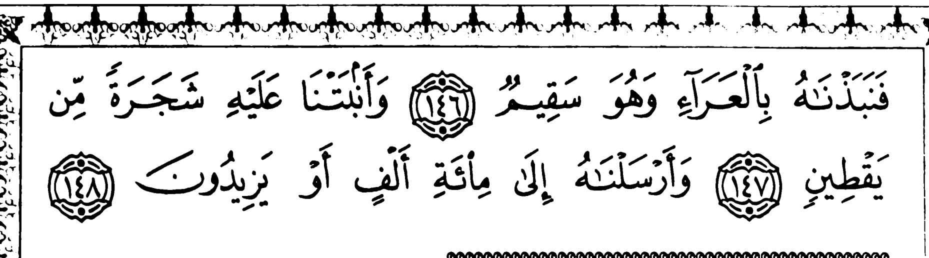
[١٤٣] **﴿فالتقمه الحوت﴾** أي ابتلعه الحوت الذي كان ساداً طريق السفينة، وقد أمره الله سبحانه أن لا يؤذي يونس، كما أوقف أجهزة هضمه عن هضم يونس، فكان عليه السلام في بطنه حيّاً، وإن كان في صعوبة ومشقة **﴿وهو مليم﴾** أي مستحق للوم، يقال ألام الرجل، بمعنى أتى بما يلام عليه، فهو مليم، أو المراد أنه كان يلوم نفسه، لإتيانه بذاك المخالف للأولى، ومعناه الشيء الذي يكون تركه أولى، فإذا أضفت إنساناً، كان الأولى أن تحضر له ماء غسل اليد قبل الطعام مثلاً فإن لم تحضر له، كان ذلك خلاف الأولى، فتلوم نفسك لم ما أحضرت؟ وقد ثبت عقلاً ونقلاً، إن الأنبياء منزهون عن العصيان، فما يرى من هذا القبيل، يكون من باب «ترك الأولى» كما حقق في علم الكلام.

[١٤٤] **﴿فلولا أنه﴾** أي يونس **﴿كان من المسبّحين﴾** فإنه عليه السلام كان يقول في بطن الحوت (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[١].

[١٤٥] **﴿للبث في بطنه﴾** أي يبقى في بطن الحوت **﴿إلى يوم يبعثون﴾** أي يوم القيامة، وإنما نجّاه من بطن الحوت لتسبيحه وتنزيهه لله سبحانه، وليس بدعاً من قدرة الله سبحانه، أن يُبقي الإنسان حياً، فإنه على ما يشاء قدير، وما يقال: إن عمل يونس، كان تركاً للأولى، وترك الأولى، لاعقاب له، فكيف عوقب يونس بحبسه في بطن الحوت؟ فالجواب إن مقام يونس

---

(١) الأنبياء: ٨٨ .



الرفيع، يقتضي أن يكون ترك الأولى منه كالعصيان من سائر الناس، ألا ترى إن رئيس الوزراء، لو أتى عند الملك بما ينافي الآداب، عُدّ عاصياً ـ بلحاظ مقامه ـ وإن كان الأكبر من مثل ذلك العمل، لا يُعدّ عصياناً من سائر الناس، ومن ههنا قيل «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

[١٤٦] وبعد زمان من مكث يونس في بطن الحوت **﴿فنبذناه﴾** أي أمرنا الحوت بطرحه **﴿بالعراء﴾** وهو المكان الخالي من الشجر **﴿وهو سقيم﴾** ذو علّة من تعب بطن الحوت.

[١٤٧] **﴿وأنبتنا عليه﴾** لظلاله **﴿شجرة من يقطين﴾** وهو القرع، فكان يمصه، ويستظل به وبورقه، وقد كان تساقط شعره عليه السلام، ورَق جلده.

[١٤٨] **﴿وأرسلناه﴾** إما بعد ذلك، كما روى إنه رجع إلى أهل نينوى بعد خروجه من البحر، أو حكاية لما قبل ذهابه عنهم **﴿إلى مائة ألف أو يزيدون﴾** إما أن «أو» بمعنى الواو، كما قال ابن مالك:

وربما عاقبت الواو إذا
لم يلف ذو النطق للبث منفذا

أو بمعنى الترديد، لأجل عدم الاهتمام بالخصوصية، وقد روى عن الصادق عليه السلام: إنهم زادوا ثلاثين ألفاً[١]، ويمكن أن يكون الترديد باعتبارين، فباعتبار المدينة، كانوا مائة ألف، وباعتبار أطرافها كانوا يزيدون.

(١) الكافي: ج١ ص ١٧٤ .

فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٩﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٥٠﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥١﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٢﴾

[١٤٩] ﴿**فآمنوا**﴾ به إما المراد أن القوم الجدد الذين أرسل إليهم آمنوا به، أو المراد القوم الأول، وقد كانوا حين ذهب يونس آمنوا بالله وبما قاله يونس حين رأوا العذاب، فقد ورد عن الباقر عليه السلام: إن يونس جاءه الوحي من قبله سبحانه، يقول: إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا، فارجع إليهم[1] ﴿**فمتعناهم**﴾ أي رفعنا عنهم العذاب، وأبقيناهم يُمتّعون بالحياة ﴿**إلى حين**﴾ الموت، حيث ماتوا بآجالهم المقدرة لهم.

[١٥٠] وبعد نقل هذه القصص، يعود السياق مع كفار مكة، ليوقظهم من غفلتهم، وينبههم على خرافاتهم، فقال سبحانه ﴿**فاستفتهم**﴾ أي سلهم يا رسول الله ﴿**ألربك البنات**﴾ أي هل لله أولاداً إناثاً ﴿**ولهم البنون**﴾؟ فقد كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فكانوا يخصصون البنات ـ وهم يكرهونها ـ بالله، أما البنون فلهم وحدهم.

[١٥١] ﴿**أم خلقنا الملائكة إناثاً**﴾ أي هل خلقنا الملائكة نساءً؟ ﴿**وهم شاهدون**﴾ أي حاضرون وقت خلقنا لهم، حتى رأوا أنهم نساء، وهذا على وجه الاستفهام الإنكاري.

[١٥٢] ﴿**ألا**﴾ فليتنبه السامع ﴿**إنهم**﴾ أي الكفار ﴿**من إفكهم**﴾ وكذبهم، و «من» نشوية، أي من منشأ الكذب ﴿**ليقولون**﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٨٣ .

وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٧﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٨﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ

---

[١٥٣] ﴿**ولد الله**﴾ حين زعموا إن الملائكة أولاد الله ﴿**وإنهم لكاذبون**﴾ في قولهم، إن لله أولاداً، وإن الملائكة إناث.

[١٥٤] ﴿**أَصطفى البنات على البنين**﴾ أصله «أأصطفى» بهمزتين، أحدهما للوصل، والثانية للإستفهام، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً، أي هل اختار الله سبحانه، البنات على البنين، حين زعمتم إنه جعل ملائكته نساءً؟ والمعنى الإنكار عليهم في أن يختار الله، الأدنى ـ بنظرهم ـ على الأعلى، وهو قادر على كل شيء.

[١٥٥] ﴿**ما لكم**﴾ أيها الكفار ﴿**كيف تحكمون**﴾ بهذا الحكم الباطل؟ وأصل «مالك» أي شيء لك، ثم استعمل في الإنكار.

[١٥٦] ﴿**أفلا تذكرون**﴾ تتعظون وترجعون عن غفلتكم.

[١٥٧] ﴿**أم لكم سلطان مبين**﴾ أي هل تحكمون بذلك اعتباطاً بدون دليل، أم لكم على ذلك دليل واضح؟ فإن السلطان بمعنى الدليل، لأنه يُسلط الإنسان على خصمه الخالي من الدليل.

[١٥٨] فإن تزعمون إن لكم دليلاً على قولكم ﴿**فأتوا بكتابكم**﴾ الذي فيه الحجة على أن الملائكة أناث ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في قولكم.

[١٥٩] ﴿**و**﴾ أغرب من هذا، أن ﴿**جعلوا**﴾ أي الكفار ﴿**بينه**﴾ تعالى ﴿**وبين**

ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦١﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا

الجنة نسباً﴾ إما هو حكاية، لما كانوا يقولون: إن الله تزوج إمرأة من الجن فولدت له الملائكة، أو لما كانوا يقولون: إن الله أخ لإبليس ــ وهو من الجن ــ فالله خالق الخير وإبليس خالق الشر، والله أعلم بمراده **﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾** أي يُحضرون بالكره لموقف القيامة، ولو كانت الجنة قريبة في النسب لله سبحانه، كان تعالى يكرمهم، وهذا كقوله (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم)[1]؟ والمعنى أن هؤلاء يزعمون إن الجن نسيب مع الله، والحال إن الجن هم يعلمون إنهم عباد له يحضرهم للحساب والجزاء كسائر العبيد.

[١٦٠] **﴿سبحان الله﴾** أي أنزه الله تنزيهاً **﴿عما يصفون﴾** أي عن الشيء يصفون الله به من كونه صاحب الأولاد أو البنات، وإنه نسيب الجنة.

[١٦١] وإذ كان في قوله سبحانه (إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)[2] عموم لفظي، استثنى من «إنهم» المؤمنين بالرسول المنزهين عن هذه الأقوال **﴿إلا عباد الله المخلصين﴾** الذين أخلصهم الله لنفسه، فهم لا يقولون بهذه الأقوال الفارغة والخرافات.

[١٦٢] ثم بين سبحانه إن هؤلاء الكفار لا يتمكنون من إضلال كل أحد، إلا الذين هم منحرفون ذاتاً، وكأنه تسلية للرسول ﷺ، وللمؤمنين، بأن لايخافوا على الدعوة أن تذهب سُدى **﴿فإنكم﴾** أيها الكفار **﴿وما**

---

(١) المائدة: ١٩ .

(٢) الصافات: ١٥٢ .

تَعْبُدُونَ ﴿١٦٢﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٤﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٦﴾

تعبدون﴾ أي الأصنام التي تعبدونها، أو المراد مطلق المعبودات حتى الملائكة.

[١٦٣] **﴿ما أنتم عليه﴾** أي على الله سبحانه **﴿بفاتنين﴾** يقال فتنه إذا أضلّه وحرّفه عن الطريق، أي أنكم لا تتمكنون من إضلال الناس، على خلاف الله سبحانه.

[١٦٤] **﴿إلا من هو صال الجحيم﴾** وإنما تتمكنون على إضلال جماعة خاصة، هم يصلون الجحيم، ويلازمونها، فإن «صلى» بمعنى دخل النار ملازماً لها، فمن سبق في علمه سبحانه أنه منحرف، يصلى النار لامحالة، هو الذي يضل بإضلالكم، لا كل أحد، فالاستثناء من المقدر، أي «بفاتنين الناس، إلا . . ».

[١٦٥] ثم جاء السياق ليحكي جملة من خطاب الملائكة للكفار، في رد قولهم، إن الملائكة بنات الله، وإنها آلهة شركاء لله ـ فقد كان بعض الكفار يعبد الملائكة ـ وقيل: إن كلام الملائكة يبتدء من قوله «فإنكم» **﴿وما منا﴾** معاشر الملائكة، وما ورد من إرادة أهل البيت عليهم السلام، بذلك، فإنه من باب التأويل، أو استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى، أو نحو ذلك، **﴿إلاّ له مقام معلوم﴾** لا يتمكن أن يتعدى ذلك المقام، فكيف يمكن أن يكون من بهذه الصفة إلهاً يُعبد؟ فإن الإله لا حد له، ولا محل خاص يكنفه.

[١٦٦] **﴿وإنا لنحن الصافون﴾** صفوفاً في الصلاة، أو المصطفون كالخدم، ننتظر الأوامر.

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٧﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٨﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٩﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٠﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾

---

[١٦٧] ﴿**وإنا لنحن المسبحون**﴾ المنزّهون لله عن الشريك، وعن النقائص، فكيف يمكن أن يكون من هذا وصفه إلهاً، يُعبد من دون الله؟

[١٦٨] ﴿**وإن كانوا ليقولون**﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي أن الكفار، كانوا يقولون قبل بعثة الرسول ﷺ.

[١٦٩] ﴿**لو أن عندنا ذكراً من الأولين**﴾ أي كتاباً، من كتب الأنبياء السابقين، بأن كان أُرسل إلينا رسول، كما أرسل إلى تلك الأمم.

[١٧٠] ﴿**لكنا عباد الله المخلصين**﴾ أي كنا من الذين يخلصهم الله لعبادته، بأن كنا مطيعين له غاية الإطاعة، فإن كفار مكة، حيث كانوا يرون أهل الكتاب منحرفين، ويسمعون قصص أسلافهم، كانوا يتعجبون من انحراف أهل الكتاب، ويقولون: لو كان أُرسل إلينا رسول لكنا مطيعين لله، منقادين لأوامره، فلما أتاهم الرسول، صاروا مثل تلك الأمم في إيذاء الرسول وتكذيبه.

[١٧١] ﴿**فـ**﴾ لما جاءهم الرسول أو الكتاب ﴿**كفروا به**﴾ ولم يقبلوه ﴿**فسوف يعلمون**﴾ عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم بالعقاب والنكال.

[١٧٢] ﴿**و**﴾ لكن كفر هؤلاء لا يضر الأنبياء عليهم السلام، ف ﴿**لقد سبقت كلمتنا**﴾ بالنصر، أي إنّا قبل أن نبعث الأنبياء، كنا نقول ـ والمراد بالقول: التقدير ـ إنهم سينتصرون على أعدائهم ﴿**لعبادنا المرسلين**﴾ الذين أرسلوا من قبلنا.

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٤﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٥﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٦﴾ أَفَبِعَذَابِنَا

[١٧٣] **﴿إنهم﴾** أي الأنبياء ـ وهذا تفسير «كلمتنا» ـ **﴿لهم المنصورون﴾** أي الغالبون على الكفار، فإنا ننصرهم على أعدائهم، والإتيان، بـ «لهم» للتأكيد، كما أنه كذلك في الآيات السابقة «وإنا لنحن» في قصة الملائكة، ثم أن الله سبحانه لم يخلف وعده، فإن الأنبياء انتصروا في نهاية المطاف، وسادت مناهجهم الحياة، والانتصار هو هذا، وإن عذبوا وقتلوا، ألا ترى إنا نقول: انتصرت الدولة الفلانية، إذا غلبت في نهاية المطاف، وإن قُتل أكثر شبابها، وخربت ديارها.

[١٧٤] **﴿وإن جندنا﴾** أي المؤمنين **﴿لهم الغالبون﴾** على سائر الأعداء، وكونهم جند الله، باعتبار نصرهم لدينه.

[١٧٥] **﴿فتول﴾** يا رسول الله، والمعنى: أعرض، **﴿عنهم﴾** عن هؤلاء، بأن لا تقابلهم بالأذى **﴿حتى حين﴾** نأمرك بقتالهم، فقد كانت حكمة الله، أن تشمل الدعوة بالسلم التام، حتى تنمو وتقوى، ثم تصول بالقوة، كما هو طريقة العقلاء.

[١٧٦] **﴿وأبصرهم﴾** أي أنظرهم بدون أن تحاربهم، فإن الإنسان الذي تقع عليه الكوارث، قد يقوم بالمدافعة، وقد يجلس ينتظر وينظر، **﴿فسوف يبصرون﴾** عاقبة أمرهم حين تؤمر بالجهاد، كيف يتضاءلون أمام الحق، وحين يؤخذون للعذاب، كيف لا قوة لهم ولا ناصر؟

[١٧٧] إنهم من جهلهم يقولون: لو كنت يا محمد صادقاً، أنزل علينا العذاب، وهذا مستغرب جداً **﴿أفبعذابنا**

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٧﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٨﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٠﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾

يستعجلون﴾؟ أي كيف يطلب هؤلاء العذاب؟ أما يخافون منه؟

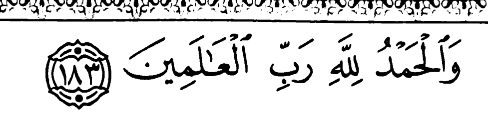
[١٧٨] وسيأتي يوم العذاب ﴿**فإذا نزل**﴾ العذاب ﴿**بساحتهم**﴾ أي بأفنية دورهم ﴿**فساء**﴾ الصباح وقت ذاك ﴿**صباح المنذرين**﴾ بصيغة اسم المفعول، أي صباح هؤلاء الذين أنذرهم الرسول، فلم ينفعهم الإنذار.

[١٧٩] ﴿**وتول عنهم**﴾ أي أعرض يا رسول الله عن هؤلاء بعد أن دعوتهم، فلم تنفعهم الدعوة ﴿**حتى حين**﴾ يأتي الأمر بقتالهم.

[١٨٠] ﴿**وأبصر**﴾ أمرهم ناظراً إلى ما يصنعون فقط لتكون شاهداً عليهم ﴿**فسوف يبصرون**﴾ إنما كرر للتأكيد، أو لأن المراد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة.

[١٨١] وأخيراً نزّه الله سبحانه نفسه، عما ينسب إليه من الصاحبة والولد والشريك، وسائر الخرافات ﴿**سبحان ربك**﴾ «سبحان» منصوب بفعل مقدّر، أي أسبح ربك تسبيحاً، والمعنى أنزهه عما لا يليق به ﴿**رب العزة**﴾ أي مالك العزة وخالقها، ومن لوازم العزة المطلقة، أن لا يكون له ولد وشريك، وزوجة ليشاركوه العزة ﴿**عما يصفون**﴾ هؤلاء، أي يصفون الله به.

[١٨٢] ﴿**وسلام على المرسلين**﴾ تحية عليهم منا، أو سلامة وأمان لهم، من



أن ينصر عليهم أعدائهم.

[١٨٣] ﴿**والحمد للّه رب العالمين**﴾ فجنس الحمد للّه، إذ جميع المحامد منه، وهو رب العوالم، خالقها ومربيها، والعوالم باعتبار عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم الجن والشياطين، وعالم الملائكة، وعالم الدنيا، وعالم الآخرة، إلى غير ذلك، فإن اللّه سبحانه، هو رب الكل لاشريك له فيها.



سُورة ص

مكيّة/آياتها (٨٩)

سميت السورة بهذا الاسم لابتدائها بهذه اللفظة «ص» وهي كسائر السور المكية تبين العقيدة بأصولها الثلاثة، في أساليب قصصية رائعة، للتقريب إلى الذهن، والتركيز على الحقائق، وإذ ختمت سورة الصافات، بذكر المكذبين للرسل، وللكافرين بالله، والجاحدين للقرآن، ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ باسم الاله الرحمن الرحيم نبدأ السورة إعلاناً على الصبغة العامة للمسلم، بأنه مربوط بالله، وذكراً لله الذي لا ينسى من ذكره، ويبارك كل شيء ابتدأ به، واستمطاراً لشآبيب رحمته، ليغمر القارئ بالفضل والرحم.

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿٢﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٣﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ

[٢] ﴿ص﴾ فيه أقوال: منها إنه رمز بين الله والرسول، ومنها أن المراد، إن القرآن الذي لا تتمكنون ـ أيها الكفار ـ من الإتيان بأقصر سورة منه، من جنس حروف الهجاء، لـ «ص» وغيره، ومنها إنه: اسم لعين تنبع من تحت العرش، كما ورد عن الصادق عليه السلام، ومنها إنه اسم من أسماء الله تعالى إشارة إلى اسم لكونه إشارة إلى «الصابر» أو «الصادق» إلى غيرها من الأقوال، وفي إعرابه أيضاً خلاف تبع الخلاف الأول ﴿والقرآن﴾ أي قسماً بهذا القرآن الذي هو ﴿ذي الذكر﴾ أي صاحب الشرف، كما يقال: لفلان ذكر أي شرف بسببه يذكر في المجامع، أو المراد أنه صاحب التذكير بالله واليوم الآخر، ولا ينافي أن يكون هو ذكر ـ باعتبار بعض آياته ـ وأن يكون صاحب الذكر ـ باعتبار مجموعه وجواب القسم محذوف: أي أنه لحق، دلّ عليه قوله «بل الذين».

[٣] فليس في القرآن نقص، يوجب عدم إيمانهم، فإنه حق ظاهر لامرية فيه ﴿بل الذين كفروا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿في عزة﴾ أي تكبر عن قبول الحق، فإن الإنسان العزيز يعرض عن الرضوخ لغيره ـ سواء كانت عزة واقعية، أو عزة مزعومة ـ ﴿وشقاق﴾ أي مخالفة للرسول، والعدو مهما يرى الحق في جانب خصمه، لا يرضخ له، ولا يقبل منه، مشتق من شق، كأنّه في شق وطرف، والخصم في شق آخر.

[٤] ولكن هل يبقون هؤلاء كذلك معرضين عن الحق، أعداء للرسول؟ كلا، فليعتبروا بالأمم المكذبة، التي سبقتهم، فـ ﴿كم أهلكنا﴾ «كم» للخبر يراد به التكثير ﴿من قبلهم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿من قرن﴾

فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٤﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٥﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٦﴾

أي من أمة، وتسمى الأمة قرناً، باعتبار تقارن أعمار أفرادها ﴿**فنادوا**﴾ عند إتيانهم العذاب بالاستغاثة والضراعة، لكن لم يفيدهم النداء، في نجاتهم من العذاب ﴿**ولات حين مناص**﴾ أصل «لات» «لا» زيدت عليه التاء، بمعنى «ليس» و «مناص» من «النوص» وهو التأخر يقال: ناص ينوص إذا تأخر، وقد حذف خبر «لات» أي ليس الوقت الذي استغاثوا فيه، وقت التأخر للعذاب والنجاة لهم، فقد كانوا في مهلة، ما دام أجلهم باق، أما إذا حقّت عليهم كلمة العذاب، فلا تفيدهم الضراعة والاستغاثة.

[٥] ﴿**وعجبوا**﴾ أي الكفار ﴿**أن جاءهم منذر**﴾ أي رسول من قبل الله سبحانه لإنذارهم وتخويفهم عن بأس الله، بأنهم إن تمادوا على الكفر والعصيان، أخذهم العذاب، وأُرجعوا إلى النار ﴿**منهم**﴾ أي من جنسهم، فقد كانوا يقولون: لولا يكون الرسول علينا ملائكة ﴿**وقال الكافرون هذا**﴾ الرسول ﴿**ساحر كذاب**﴾ فإنه يسحرنا، حين لا نتمكن من الإتيان، بمثل القرآن، حين يأتي بخوارق، وهو يكذب على الله، بأنه رسوله، وإن الله إله واحد لا شريك له، ولا صاحبة، ولا ولد.

[٦] ثم جعلوا يستفهمون مستنكرين بقولهم ﴿**أجعل**﴾ أي هل جعل هذا الرسول ﴿**الآلهة**﴾ المتعددة التي نقول بها ﴿**إلهاً واحداً**﴾؟ أي كيف يقول، أن لا إله إلا إله واحد، والحال أن لنا آلهة متعددة؟ ﴿**إن هذا**﴾ الذي يقوله محمد من وحدة الإله ﴿**لشيء عجاب**﴾ أي لأمر عجيب

وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ

مفرط في العجب، قال بعض: إن قبيلة، كانت لها آلهة متعددة، تبعاً لتنازع كان يقع بينهم، وقد كانوا يقولون: إن هذه الكثرة من الآلهة، لاتكفينا، فيجب صنع آلهة جديدة، فلما قال لهم الرسل أن الإله واحد، قالوا: إنا لم نكتف بهذا العدد العديد من الآلهة، فهو يدعونا إلى إله واحد؟ وهناك ظريفة تحكى، هي أن الكفار اجتمعوا، وقالوا إن في القرآن كلمات غير فصيحة، وظنوها مأخذاً على الرسول، وجمعوا تلك الكلمات في ثلاث، هي «كبار» و «يستهزئ» و «عجاب» وأتوا إلى الرسول ﷺ ، ناقدين للقرآن فقال الرسول: ائتوني بأفصحكم، فذهبوا، وجاءوا بشيخ كبير، قالوا: إنه أفصحهم، ولما حضر بين يدي الرسول أراد الجلوس، فقام الرسول ﷺ ، فأخذ في القيام، فجلس الرسول، فأخذ الشيخ في الجلوس، فقام الرسول، فاستشاط الشيخ غضباً من هذا العمل، وقال: يا محمد أتستهزيء بي، وأنا شيخ كبار، هذا أمر عجاب؟ وهناك نظر بعض القوم إلى بعض، وقد أبطل الشيخ دعواهم في جملة واحدة وانصرفوا خائبين، ونقل إن المشركين، اجتمعوا حول الرسول، ليفاوضوه في ترك الدعوة؟ فقال لهم الرسول ﷺ : أتعطون كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك وعشرة أمثالها؟ فقال: قولوا لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فنزلت هذه الآيات[1].

[٧] ﴿**وانطلق الملأ منهم**﴾ المراد بالانطلاق، انطلاق الألسنة بالكلام، فقد قال الأشراف ـ وهم الملأ ـ بعضهم لبعض، ولأتباعهم ﴿**أن امشوا**﴾

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٣٤٣ .

وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٧﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٨﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ

أي سيروا في طريقكم التقليدي الذي يقول: بتعدد الآلهة، ولا تعيروا كلام محمد بالاً ﴿**واصبروا على آلهتكم**﴾ المتعددة، وتحملوا المشاقّ في سبيلها، لئلا يغلبكم محمد ﴿**إن هذا**﴾ البقاء على ديننا، والصبر على المشاق، في سبيل الآلهة ﴿**لشيء يراد**﴾ منّا، فنحن مطلوبون عند العرف الاجتماعي بالحماية عن الشرك.

[٨] ﴿**ما سمعنا بهذا**﴾ الذي يقوله الرسول من وحدة الإله، وعدم الشرك ﴿**في الملة الآخرة**﴾ أي ملة أهل الكتاب، التي هي خير الملل، بعد الوثنية، وما أشبههما، وكأنهم أرادوا بذلك التموية على العوام، بأن أهل الكتاب أيضاً، لا يقولون بوحدة الإله، فكيف يدعي محمد، إنه مثل موسى وعيسى، يدعي ما لا يقولا به ﴿**إن هذا**﴾ الذي يقوله الرسول من التوحيد ﴿**إلا اختلاق**﴾ أي الكذب، فقد خلقه وصنعه محمد، ولا نصيب له من الواقع وقد رأى الكفار أهل الكتاب، الذين انحرفوا عن منهاج التوحيد، فجعلوهم حجة في مقابل الرسول، وإلا فالأنبياء جميعاً لم يقولوا إلا بالتوحيد، وهكذا أكد التوراة والانجيل على ذلك.

[٩] ثم جعلوا يستغربون، عن أن الرسول يكون مُوحى إليه من بينهم؟ ظانين إنهم مثل الرسول في المؤهلات، إن لم يكونوا أفضل منه، فاللازم أن يوحى إليهم دونه، أو إليهم وإليه على حد سواء ﴿**أأنزل عليه**﴾ أي على الرسول ﴿**الذكر**﴾ أي القرآن ﴿**من بيننا**﴾؟ كيف ذلك يكون، وفينا

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٩﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿١٠﴾

من هو أكبر منه سناً، ومالاً، وجاهاً، وأولاداً؟ لكنهم غفلوا، من أن مؤهلات الرسالة، غير مؤهلات العرف والعادة، والرسول منفرد فيها، فليس قولهم هذا لنقص رأوه في الرسالة والرسول ﴿**بل هم في شك من ذكري**﴾ الذي أنزلته على الرسول، ولم يكن الشك بحق، فإنهم، لو تفكروا علموا بصدق الرسول، وإنما شك المقلد الجاهل، الذي يرى الحق في طرف، والتقليد في طرف آخر ﴿**بل لما يذوقوا عذاب**﴾ أي عذابي، حذف «ياء المتكلم» تخفيفاً، وهذا تهديد لهم، بمعنى أنهم، إنما يقولون ما يقولون لا لعدم صحة الرسالة والدعوة، بل لأنهم منحرفون محتاجون إلى التأديب، وسيذوقون العذاب.

[١٠] أمّا ما يقولون من أن اللازم نزول الذكر عليهم، دون الرسول، وقولهم (لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم)[١] فالجواب: إن ذلك فضل الله يعطيه من يشاء ﴿**أم عندهم خزّائن رحمة ربك**﴾ حتى يفتحون خزائن الرسالة، فيهبونها لمن شاءوا، دون من يريده الله سبحانه؟ ﴿**العزيز**﴾ في سلطانه، يفعل ما يشاء ﴿**الوهاب**﴾ العطايا لمن يشاء، ومن المعلوم، إن الله سبحانه لايهب، إلا حسب المصلحة والحكمة، فإنما ينزل الرسالة لمن يؤهلها، كما قال سبحانه (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[٢] وقال (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٣].

(١) الزخرف: ٣٢.
(٢) الأنعام: ١٢٥.
(٣) الدخان: ٣٣.

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١١﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١٢﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾

[١١] ﴿**أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾ حتى إذا شاءوا، أن لايكون محمد ﷺ، رسولاً، سدّوا أبواب الوحي على وجهه، لأنهم يملكون طرق الوصول من السماء إلى الأرض؟ وإذا قالوا: إنهم يملكون ذلك ﴿**فليرتقوا**﴾ أي يصعدوا ﴿**في الأسباب**﴾ الموصلة لهم إلى السماوات، ليمنعوا مسالك الرسالة، لئلا يُوحى بالقرآن إلى الرسول.

[١٢] إنهم ليسوا بمالكي خزائن الله، ولا لهم ملك السماوات والأرض، وإنما جماعة منبوذة تجمعت من لفيف جنود للباطل، في ابتعاد عن التصرف في الشؤون الكونية، إنهم ﴿**جند ما**﴾ نكرة غير مربوطين بشأن من الشؤون ﴿**هنالك**﴾ منبوذة في زاوية من زوايا العالم، لا يرتبط بأمر من أمور الكون ﴿**مهزوم**﴾ هزمهم المنطق والحق ﴿**من الأحزاب**﴾ ملتفة من أحزاب مختلفة، ومذاهب متشتتة، فلم يجمعهم الحق، وإنما الحسد والعناء والكبر، وإلا فما يجمع بين اليهودي والمسيحي، والمشرك تحت قيادة أبي سفيان لمحاربة الرسالة الإلهية العظمى؟ و «جند» مبتدأ، و «هنالك» خبرة، و«مهزوم» صفة جند.

[١٣] إن مصير هؤلاء، هو مصير من قبلهم من الكفار، حيث كذبوا الأنبياء، فأهلكهم الله سبحانه، بما كذبوا، وإن بقي هؤلاء في كفرهم وغيهم، سيلاقون ذلك المصير المهلك ﴿**كذبت قبلهم**﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿**قوم نوح**﴾ نوحاً عليه السلام ﴿**وعاد**﴾ كذبت هوداً عليه السلام ﴿**وفرعون**﴾ كذب موسى وهارون عليهما السلام ﴿**ذو الأوتاد**﴾ صفة فرعون، وقد سئل

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُوْلَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٦﴾

الصادق عليه السلام، لأي شيء سمي فرعون ذا الأوتاد؟ فقال: لأنه كان إذا عذب رجلاً، بسطه على الأرض على وجهه، ومدّ يديه ورجليه، فأوتدوها بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب منبسط، فوتد رجليه ويديه بأربعة أوتاد، ثم تركه على حاله حتى يموت[1].

[١٤] ﴿و﴾ كذبت ﴿ثمود﴾ صالحاً عليه السلام ﴿وقوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب، وقد كانت إلى جنبهم غيضة ذات أشجار، وهي الأيكة، كذبوا شعيباً عليه السلام ﴿أولئك الأحزاب﴾ الذين كذبوا الرسل، وكان قومك حزب من تلك، فما كان مصيرهم؟

[١٥] ﴿إن كل﴾ أي ما كل من أولئك الأقوام ﴿إلا كذب الرسل﴾ الذين أُرسلوا إليهم ﴿فحق﴾ أي ثبت ولزم عليهم ﴿عقاب﴾ أي عقابي، وحذف الياء تخفيفاً، والمراد بالعقاب أخذهم بأنواع عذاب الاستئصال في الدنيا قبل الآخرة.

[١٦] ﴿و﴾ إذ قد عرف قومك مصير أولئك المكذبين، فما بقاؤهم في الكذب والكفر، إلا انتظاراً لتلك العاقبة السيئة ﴿ما ينظر هؤلاء﴾ أي كفار مكة ﴿إلا صيحة واحدة﴾ يصيح بهم جبرئيل، أو ملك آخر، حتى يهلكهم جميعاً، كما حدث في بعض الأمم السابقة، أو المراد النفخة الأولى ﴿ما لها﴾ أي ليس لتلك الصيحة ﴿من فواق﴾ أي إفاقة، بأن

(١) راجع مجمع البيان: ج٨ ص٣٤٧ .

وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾

تنقطع قبل هلاك القوم، فيرجعوا عن غيهم، وضلالهم، يقال: أفاق من مرضه إذا طاب، وفواق الناقة، هي المدة بين الحبستين، لأن فيها يعود اللبن إلى الضرع.

[١٧] وإذ كان الرسول ﷺ، يهدد الكفار بالعذاب، كانوا يقولون: ـ مستهزئين له ﷺ ـ عجل لنا بالعذاب! ﴿**وقالوا**﴾ أي الكفار ﴿**ربنا عجل لنا قطنا**﴾ أي قدم لنا نصيباً من العذاب ﴿**قبل يوم الحساب**﴾ و «القط» هو النصيب، من «قطّ» بمعنى قطع، لأن النصيب، يُقطع ويعين في مقدار خاص.

[١٨] قال الله سبحانه في جوابهم تسلية للرسول ﷺ، ﴿**اصبر**﴾ يا رسول الله ﴿**على ما يقولون**﴾ أي ما يقوله هؤلاء الكفار في تكذيبك، والاستهزاء بك ﴿**واذكر**﴾ جماعة من الأنبياء عليهم السلام الذين آذوهم قومهم، فصبروا، أو كانت لهم القوة الدنيوية، بالإضافة إلى الإيمان الذي هو قوة معنوية تقوية لقلوب المؤمنين، ولئلا يقول المرجفون: إن الإيمان، لا يلائم الحياة الدنيا، فاذكر يا رسول الله ﴿**عبدنا داود ذا الأيد**﴾ أي صاحب القوة، فإن «أيد» جمع يد، ثم استعملت في النعمة والقوة، لأن اليد من أسبابهما ﴿**إنه**﴾ عليه السلام، مع كونه، ذا قوة عظيمة دنيوية ﴿**أوّاب**﴾ أي تواب يستغفر ربه في دائم الأحوال، من آب يؤوب إذا رجع، وكأن الإنشغال بأمور الدنيا، كان انصرافاً عن الله سبحانه ـ ولو انصرافاً مباحاً ـ فكان يرجع إليه تعالى، بصرفه نفسه كلها إليه كل صباح ومساء.

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٩﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢١﴾

[١٩] ﴿**إنا سخرنا الجبال معه**﴾ أي جعلناها مسخرة مع داود في كونها ﴿**يسبحن**﴾ بتسبيح داود ﴿**بالعشي**﴾ أي العصر ﴿**والإشراق**﴾ أي عند شروق الشمس، فإن داود كان إذا سبّح الله تعالى في هذين الوقتين، كانت الجبال تردد معه التسبيح، وقوله «يسبّحن» بلفظ العاقل، لأن صدور محل العقلاء من الجبال يدخلها في جملتهم.

[٢٠] ﴿**و**﴾ سخرنا لداود عليه السلام ﴿**الطير**﴾ المراد به الجنس أي كل الطيور، في حال كونها ﴿**محشورة**﴾ أي مجموعة له ﴿**كل**﴾ من الجبال والطير ﴿**له**﴾ أي لداود ﴿**أوّاب**﴾ أي رجّاع فكانت الطيور تردّد معه التسبيح، كما تردد الجبال، وقيل إنها كانت تطيعه، فيما يأمر به.

[٢١] ﴿**وشددنا ملكه**﴾ أي قوينا ملك داود بالحرس والمال، وكثرة العُدة والعِدة ﴿**وآتيناه الحكمة**﴾ المراد بها، إما النبوة، أو أن يكون بحيث يعرف مواضع الأشياء، فإن الحكمة هي عبارة عن علم وضع الشيء في موضعه اللائق به ﴿**وفصل الخطاب**﴾ أي الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، والمراد به علم القضاء، فإنه كان يعرف كيفية الحكم بين الناس ومعرفة تمييز المحق من المبطل، وقد كان من ذلك قاعدة «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر».

[٢٢] ثم ينتقل السياق لينقل قصة امتحن الله بها داود عليه السلام، فقد جاء خصمان إلى داود في شكوى، ولما سمع داود من المدعي كلامه حكم له، بدون أن يستمع من المنكر، وكان هذا الاستعجال تركاً للأولى،

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٢﴾﴾

بالنسبة إليه، ثم توجه وأناب إلى الله سبحانه، وقد كان أمثال هذه المخالفات ـ المسماة بترك الأولى ـ تصدر من الأنبياء أحياناً لإثارة النشاط في نفوسهم، لتقوى اتصالاتهم بالله سبحانه، وهي لم تكن معصية، كما لايخفى، كما أن نقلها في القرآن لعلها، بسبب أن لا يعتقد الناس فيهم الألوهية، فإن من عادة الناس، أن يرفعوا الإنسان النزيه فوق مرتبته، كما رفعوا المسيح وعلى بن أبي طالب عليه السلام إلى مقام الألوهية، أما إذا علموا بصدور ترك الأولى منهم، كان ذلك حاجزاً دون الغلو، ومن غريب الأمر إن جماعة اختلقوا حول هذه القصة أكاذيب استناداً إلى «العهدين» المحرّف، فذكروا قصة «أوريا» كما نسبوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أسطورة قصة «زينب»، وقد روى في المجالس عن الصادق عليه السلام، أنه قال: رضى الناس لا يملك، وألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا إلى داود، إنه تبع الطير، حتى نظر إلى إمرأة «أوريّا» فهواها، وإنه قدم زوجها أمام التابوت، حتى قُتل، ثم تزوج بها[1]، وقد روي عن الإمام المرتضى عليه السلام، إنه قال: لا أوتي برجل يزعم، إن داود تزوج إمرأة أوريا، إلا جلدته حدين حداً للنبوة، وحداً للإسلام[2] ﴿**وهل أتاك**﴾ يا رسول الله، وهذا للتشويق نحو القصة، التي ستذكر ﴿**نبأ الخصم**﴾ أي خبر الخصمين، والمراد «بالخصم» الجنس، ولذا يشمل النفرين، أي هل بلغك خبر الخصمين ﴿**إذ تسوروا**﴾ أي صعدوا على السور لينزلوا ﴿**المحراب**﴾ محل عبادة داود عليه السلام؟ فقد كان في المحراب، إذ رأى نفرين نزلا من سور

---

(١) الأمالي للصدوق: ص١٠٢ المجلس٢٢ .

(٢) تنزيه الأنبياء: ص٩٢ .

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً

المحراب، أي جداره، فهاله أمرهم، إذ لم يدخلوا من الباب، وإنما جيء بلفظ الجمع، فقال «تسوروا» لأن الخصم جنس، والجنس عام، ويتحمل أن يكونوا أكثر من اثنين، بأن أتياه مع بعض متعلقيهم، كما هو العادة في المنازعات.

[٢٣] ﴿**إذ دخلوا**﴾ الخصوم ﴿**على داود**﴾ من السور ﴿**ففزع**﴾ وخاف ﴿**منهم**﴾ لأنهم دخلوا من غير الباب، وبدون الإذن، وفي غير الأوان ﴿**قالوا**﴾ لداود ﴿**لا تخف**﴾ فلسنا نريد إيذاءك، فإن الإنسان قد اعتاد أن يخاف من المفاجئ، لأنه يظن كون المجيء للإيذاء، وإلا كان يأتي على نحو المعتاد، لا فجئة... إنما نحن ﴿**خصمان**﴾ أي نفران، أو طرفان ﴿**بغى**﴾ وظلم ﴿**بعضنا على بعض**﴾ فجئنا إليك لتحكم بيننا ﴿**فاحكم**﴾ يا داود ﴿**بيننا بالحق**﴾ والعدل ﴿**ولا تشطط**﴾ من الشطط، بمعنى الميل عن الحق والكذب، والالتواء، وهذا القول لم يكن لأجل احتمالهم، إن داود يكذب ويجور، بل هكذا يقول الإنسان المخاصم، ليري طرفه والسامعين، إنه واضح للحق مائل إليه، لا يريد جوراً وظلماً وتعدياً ﴿**واهدنا**﴾ أي أرشدنا في قضيتنا ﴿**إلى سواء الصراط**﴾ أي وسط الطريق، الذي لا جور فيه، ولا انحراف.

[٢٤] ثم قال أحدهما لداود عليه السلام ﴿**إن هذا**﴾ الخصم ﴿**أخي**﴾ في النسب، أو من باب الشفقة واللين في الخطاب ﴿**له تسع وتسعون نعجة**﴾ أنثى

وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٤﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ

الشاة ﴿**ولي نعجة واحدة**﴾ فقط ﴿**فقال**﴾ أخي لي، يريد سلب شاتي، لتكمل له مائة شاه ﴿**أكفلنيها**﴾ أي ضم شاتك إلى نعاجي، واجعلني كفيلها حتى تكون لي ﴿**وعزني في الخطاب**﴾ أي غلبني في الكلام ومخاطبته معي، بأن خاشنني في الكلام بقصد أن يقهرني ويأخذ شاتي.

[٢٥] وبمجرد أن سمع داود كلام المدعي، بدون أن يطلب من خصمه الردّ ﴿**قال لقد ظلمك**﴾ أخوك، وجار عليك في طلبه بنعجتك ﴿**بسؤال نعجتك**﴾ ليضمها ﴿**إلى نعاجه**﴾ ثم بين داود، أن الظلم من عادة بعض الشركاء على بعض ﴿**وإن كثيراً من الخلطاء**﴾ جمع خليط، وهو الشريك، لأنه يخالط الإنسان، لأجل إشتراك أموالهما ﴿**ليبغي بعضهم على بعض**﴾ حيث إن الأقوى منهم يريد أكل الأضعف، ثم استثنى من هذا العموم المؤمنين بقوله ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ بأن كانوا مستقيمين عقيدة وعملاً، فإنهم لا يظلمون أحداً، ولم يكن حاجة إلى هذا الاستثناء، لأنه نص أولاً بقوله «كثيراً» وإنما جيء بالاستثناء، لئلا يوهم، إن الكثير من المؤمنين، للتنصيص على إن أحداً من المؤمنين ليس بداخل في ذلك الكثير ﴿**وقليل ما هم**﴾ «ما» لزيادة التقليل، فإن المؤمن المستقيم في جميع شؤونه، قليل جداً، وإذ حكم داود بهذا الحكم قبل أن يستفسر من المدعى عليه الحال، تنبّه إلى

وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٦﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ

استعجاله الذي كان خلاف الأولى ﴿**وظن**﴾ حينذاك ﴿**داود إنما فتناه**﴾ أي امتحناه بهذه الحكومة، ويظهر من لفظ «ظن» إنه لم يتيقن، وإنما ترجح في نظره ذلك ﴿**فاستغفر ربه**﴾ أي طلب منه غفرانه، فإن ترك الأولى موجب للتنقيص من الثواب، فاستزادته بحاجة إلى الستر والغفران، وفرض أنه لم يكن ﴿**وخر**﴾ أي سقط داود لوجهه ﴿**راكعاً**﴾ معظماً له سبحانه، فإن الركوع يطلق على مطلق التعظيم، ولو بنحو السجود، كما يدل عليه «خر» وهو الأنسب بمثل هذا المقام ﴿**وأناب**﴾ أي رجع إلى ربه، بعد الانشغال بتلك القضية، وقد ورد في بعض الأحاديث إن الخصمين كانا ملكين.

[٢٦] ﴿**فغفرنا له**﴾ أي لداود ﴿**ذلك**﴾ الترك للأولى ﴿**وإن له**﴾ أي لداود ﴿**عندنا**﴾ أي في المحل المعد المكرم بكرامتنا ـ تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ـ ﴿**لزلفى**﴾ أي قربى وكرامة، من زلف بمعنى اقترب ﴿**وحسن مآب**﴾ أي المرجع الحسن في الآخرة.

[٢٧] ثم خاطبه الله سبحانه بقوله ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ الخليفة هو الذي يجلس مكان غيره خلفاً له، والأنبياء خلفاء الله سبحانه، حيث إنه قررهم للقيام بأمره، وإنفاذ حكمه في الأرض، وكأن الإتيان، بقوله «في الأرض» لإفادة العموم، فليس خليفة له في بلدة أو قطر ﴿**فاحكم بين الناس بالحق**﴾ المطابق للواقع

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

﴿**ولا تتبع الهوى**﴾ الذي يأمر بالانحراف، حسب العواطف والميول ﴿**فيضلك**﴾ اتباع الهوى ﴿**عن سبيل الله**﴾ وطريقه، وهذا ليس معناه، إن داود كان محتمل الانحراف، وإنما الأوامر الصارمة، تُوجّه إلى الأنبياء، كما تُوجّه إلى غيرهم، كما قال سبحانه (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)[1] ﴿**إن الذين يضلون عن سبيل الله**﴾ أي ينحرفون عن طريق الله، بالحكم أو الفتوى أو الدعوة إلى الباطل ﴿**لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾ أي بسبب نسيانهم، والمراد بالنسيان تركهم أحكام الله، وحيث إن النسيان غالباً سبب لترك الأوامر، كان الإتيان بالنسيان، وإرادة الترك مجازاً من علاقة السبب والمسبب، ويوم الحساب، إما متعلق، بـ «بما نسوا» أي بسبب نسيانهم ليوم الحساب، أو متعلق لـ «عذاب شديد» أي لهم عذاب شديد، يوم الحساب بسبب نسيانهم أوامر الله.

[٢٨] وإذ وصلت القصة إلى هذا الموضع، ألفت السياق الأذهان إلى حقيقة كبرى، هي إن العالم لم يُخلق باطلاً، حتى يلائمه الحكم في القضايا بالباطل، بل العالم خُلق بالحق وللحق، فاللازم أن تكون الأمور العملية من حكم وفتوى، وغيرهما على الحق، وإلا كانت العاقبة الإنهيار والدمار ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما**﴾ من البشر

(١) الزمر: ٦٦ .

بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٨﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٩﴾

والملك والهواء، وغيرها ﴿**باطلاً**﴾ عبثاً واعتباطاً، بلا غاية، أو غرض، حتى يكون الباطل من القول والعمل والحكم، ملائماً للخلق، ولا يكون له مصير مؤلم ﴿**ذلك**﴾ أي كون الخلق باطلاً ﴿**ظن الذين كفروا**﴾ بالله وجحدوا حكمه، وإنما قال «ظن» لأنهم يرجحون ذلك، ولا يستيقنونه ﴿**فويل للذين كفروا من النار**﴾ التي تحرقهم لكفرهم، وظنهم، أن الخلق عبث باطل.

[٢٩] ثم توجه السياق إلى تنبيه الكفار، بأنهم ليسوا سواء والمؤمنين، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، بل المؤمنون فوقهم مقاماً ومنزلة ﴿**أم نجعل الذين آمنوا**﴾ أي هل من الممكن أن نجعل المؤمنين ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ اللازم منه عدم العمل بالمعاصي ﴿**كالمفسدين في الأرض**﴾ فإن كل كافر وعاصي مفسد، أي عامل بالفساد مفسد لنفسه، أو غيره؟ كلا! لا نجعل المؤمن كالمفسد ﴿**أم نجعل المتقين**﴾ الذين اتقوا معاصي الله بعد الإيمان ﴿**كالفجار**﴾ الذين عصوا وفجروا؟ من الفجر، وهو الشق، كأن الفاجر يشق ستر الهدى، وينفذ نحو الباطل، ولعل المراد بالسؤال الثاني، بيان عدم استواء المطيع والعاصي من المؤمنين، بعد بيان عدم استواء المؤمن والكافر.

[٣٠] ومن ثم ياتي الكلام حول القرآن الحكيم، ليلفت بعد بيان القصص والآداب، إلى أنه كتاب عظيم، حيث اشتمل على مثل هذه الحقائق الرائعة، وقد ذُكر في علم القرآن إلقاء المطلب في الذهن، بعد الإتيان

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٣٠﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣١﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ

بأمر مُعجب أنفذ من الإلقاء في الذهن الخالي غير المتحرك، ألا ترى إن الإنسان إذا رق قلبه لأمر كان أسرع إلى العمل من أجله؟ وهذا ﴿**كتاب أنزلناه إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**مبارك**﴾ ذو بركة وزيادة ونماء كثير نفعه وخيره، لأنه يهدي ويرسم الخطط الموجبة، للزيادة والخير ﴿**ليدبروا آياته**﴾ أي يتفكروا فيها ويتعظوا بها ﴿**وليتذكر**﴾ مما أودع فيهم من الحقائق بالفطرة ﴿**أولوا الألباب**﴾ أي أصحاب العقول، فإن اللُبّ بمعنى العقل، أما غيرهم فإنهم لا يتذكرون ولا يتدبرون.

[٣١] وإذ تمت قصة داود، يأتي السياق لبيان قصة سليمان ﴿**ووهبنا لداود سليمان**﴾، ومعنى الهبة العطية المجانية، والأولاد هبات للآباء، ولذا قال سبحانه (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ)[1] إنه ﴿**نِعْمَ العبد**﴾ إذ كان كأبيه يعمل بأوامرنا ﴿**إنه أوّاب**﴾ أي كثير الرجوع إلى الله سبحانه في جميع أموره، وقد سبق أن الإنسان إذا صرف إلى ضروريات حياته، فكأنّه ابتعد عن الله سبحانه، إذ لم يكن بجميع سرائره مشغولاً نحوه تعالى، ولذا كان الالتفات إليه بعد ذلك أوباً ورجوعاً.

[٣٢] اذكر يا رسول الله ﴿**إذ عرض عليه**﴾ أي على سليمان ﴿**بالعشي**﴾ أي في آخر النهار ﴿**الصافنات**﴾ جمع صافنة، وهي الخيل الواقفة على

---

(١) الشورى: ٥٠ .

ٱلْجِيَادُ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٣﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ

ثلاث قوائم الواضعة السنبك الرابع على الأرض. يقال صفنت الخيل إذا وقفت كذلك، وهي من علامة الجودة ﴿**الجياد**﴾ جمع جيد وهي الفرس الأصيلة النجيبة، ونجابة الفرس بعرفانها صاحبها، وسرعة سيرها، والاهتمام بخلاص راكبها من المشكلة التي يقع فيها.

[٣٣] ﴿**فـ**﴾ اشتغل سليمان بتلك الأفراس، حتى فاتت صلاة مندوبة، كان يصليها في ذلك الوقت، حتى غابت الشمس، ومضى وقت صلاته المندوبة، وهناك تأثر سليمان من ذلك، وأمر أصحابه بردّ الأفراس إليه، ليوقفها في سبيل الله، كفارة لفوت صلاته المندوبة، أو يذبحها ليطعمها الناس كفارة، وهذا المعنى، قد استفدناه من بعض الأخبار، مع التحفظ على ظاهر الآية، وما ثبت من عصمة الأنبياء عليهم السلام، وإن كان الواقع في القصة لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم، ولما نظر سليمان إلى غروب الشمس، وذهاب وقت نافلته ﴿**قال إني أحببت حب الخير**﴾ أي أحببت الخير حباً، والخير هو الفرس، وكل مال هو خير، كما قال سبحانه (إِن تَرَكَ خَيْراً)[1] ﴿**عن ذكر ربي**﴾ أي آثرت الاشتغال بعرض الأفراس عن ذكر الله ﴿**حتى توارت**﴾ الشمس ﴿**بالحجاب**﴾ كأنها عروس تستر نفسها بالحجاب حين تغيب وتستتر تحت الأفق، فلم أصلّ نافلتي.

[٣٤] ثم قال سليمان لأصحابه ﴿**ردوها**﴾ أي ردوا الصافنات ﴿**عليَّ**﴾

---

(١) البقرة: ١٨١ .

فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ

فردوها إليه ﴿**فطفق**﴾ أي شرع سليمان يمسح ﴿**مسحاً بالسوق**﴾ أي سوق الأفراس جمع ساق ﴿**والأعناق**﴾ أي ويمسح أعناقها، و «اللام» عوض عن الضمير والمعنى يمسح سوقها وأعناقها تسبيلاً في سبيل الله، ووقفاً لها على جهات الخير، أو ضرباً بالسيف ليطعمها الفقراء، كل ذلك، لتكون كفارة عن فوت نافلته، بسبب اشتغاله بها.

[٣٥] ﴿**ولقد فتنا سليمان**﴾ أي امتحناه، وذلك بأنه ولد له مولود، فخاف عليه من إيذاء الشياطين، وجعله في السحاب، ليكبر هناك ـ وقد كان السحاب مسخراً له ـ ولكن ذلك، كان خلاف التوكل من مثله عليه السلام، ولذا مات الولد، وألقي على كرسي حكمه، فلما رآه عرف أنه ترك الأولى في إيداع الولد السحاب ﴿**وألقينا على كرسيه**﴾ أي سرير حكمه ﴿**جسداً**﴾ لولده الميت ﴿**ثم أناب**﴾ أي رجع عن تركه للأولى.

[٣٦] ﴿**قال رب اغفر لي**﴾ اعتمادي على السحاب في إبقاء ولدي، وعدم أذى الشياطين له ﴿**وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ لعله أراد نوعاً من الملك، يكون ذو إعجاز لا يتمكن أحد من الإتيان مثله، كما إن عصا موسى، وإحياء عيسى، وقرآن الرسول، كانت بحيث لا ينبغي لأحد من بعدهم، فلم يرد سليمان البُخل، وتخصيص رحمة الله بنفسه بل أرد الإعجاز، والذي يؤيد ذلك، إن الملك الذي وُهب له كان معجزة، إذ هو تسخير الريح، وعبارة «لا ينبغي لأحد» يراد به الناس، لا حتى الأنبياء عليهم السلام، فإن مثل هذا التعبير شائع، قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٦﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٨﴾ وَءَاخَرِينَ

«ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذي لهجة، أصدق من أبي ذر»[1] ولم يرد ﷺ ترجيحه على الأئمة، كما أن قوله سبحانه في القرآن الحكيم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)[2] أريد به ممن آمن وعصى، لا من كل أحد، وهكذا، ومثله تعبير عرفي شائع ﴿**إنك**﴾ يا رب ﴿**أنت الوهاب**﴾ الكثير الهبة، فتفضل عليَّ بذلك.

[٣٧] ﴿**فسخرنا**﴾ أي ذللنا بأمره ﴿**له**﴾ أي لسليمان ﴿**الريح**﴾ التي كانت تحمل بساطه وتسير به إلى حيث شاء ﴿**تجري**﴾ الريح ﴿**بأمره**﴾ أي أمر سليمان ﴿**رُخاءً**﴾ أي لينة بدون عنف ﴿**حيث أصاب**﴾ أي إلى كل مكان أراد الذهاب إليه، والإصابة هي الوصول إلى الشيء، وكأن المعنى حيث أصاب نظره وإرادته.

[٣٨] ﴿**و**﴾ سخرنا له ﴿**الشياطين**﴾ أي الأجنة، وقد سبق أن الشيطان قسم من الجن، وإن كان له نوعان، نوع يسمى جناً، ونوع يسمى شيطاناً ﴿**كل بناء**﴾ يبني له القصر والدار، وما أشبه، في المدن والصحاري ﴿**وغواص**﴾ في البحر يذهب في الماء ليأتي له بالجواهر واللئالي، و «كل» بدل من الشياطين، بدل بعض من الكل.

[٣٩] ﴿**و**﴾ سخرنا له شياطين ﴿**آخرين**﴾ غير البناء والغواص في حال

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٤٢٦ .

(٢) السجدة: ٢٣ .

مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٩﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤١﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤٢﴾

كونهم ﴿**مقرنين في الأصفاد**﴾ جمع صفد، وهو الغلّ، فقد كان يجمع بين بعض الشياطين مع بعض في السلسلة تعذيباً لهم على تمردهم، أو لئلا يفر المتمرد منهم أو كان يغل المتمرد يديه ورجليه، وهذا كناية عن إعطاء زمامهم بيده، حتى أنه يتمكن من استخدامهم وعقاب المجرمين منهم.

[٤٠] وبعد هذا الملك الوسيع الخارق، قال الله سبحانه لسليمان ـ زيادة لاكرامة ـ ﴿**هذا**﴾ الملك ﴿**عطاؤنا**﴾ لك ﴿**فامنن**﴾ على من شئت بإعطائه ما تشاء ﴿**أو أمسك**﴾ عمن شئت، بأن لا تعطيه شيئاً في حال كونك ﴿**بغير حساب**﴾ أي أنك لا تُحاسب عما تفعل، أو اعط بغير حساب وتعداد من شئت، فهو متعلق بـ «امنن».

[٤١] ﴿**وإن له**﴾ أي لسليمان ﴿**عندنا**﴾ لدينا ﴿**لزلفى**﴾ قرباً منّا فإنه ذو جاه ومنزلة عند الله سبحانه ﴿**وحسن مآب**﴾ أي مرجعاً حسناً في الآخرة.

[٤٢] ﴿**واذكر**﴾ يا رسول الله ﴿**عبدنا أيوب**﴾ كيف صبر على البلاء، فإنه عليه السلام ذهب ماله وأهله وأولاده، وتمرض في جسده، بأشد أنواع المرض، ولم يزل يذكر الله ويشكره، حتى إذا بلغ الأمر منتهاه، وأراد الله سبحانه له الشفاء، بعد أن أحسن الصبر ونجح في الامتحان ﴿**إذ نادى ربه**﴾ تعالى قائلاً يا رب ﴿**أني مسني الشيطان بنصب وعذاب**﴾

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٤﴾

فإن الشيطان هو الذي صار سبباً لبلاء أيوب، وقد مكّنه الله سبحانه منه، بأن لم يصده عن إيذائه، كما لم يصده عن الوسوسة لآدم عليه السلام، امتحاناً لأيوب، وليرتفع بذلك مقامه، و «النَصَب» هو البلاء، و «العذاب» هو الألم، ولعله أراد باللفظين الألم الجسمي والروحي، أو ألمه في أهله وماله وأولاده، وألمه في نفسه.

[٤٣] وبعد أن دعا أيوب ربه، لينجيه من البلاء خوطب من قبله سبحانه ﴿**اركض برجلك**﴾ أي ادفع برجلك الأرض، فإن الركض، هو الدفع بالرجل على جهة الإسراع، ومنه يسمى المشي السريع ركضاً، فركض عليه السلام برجله الأرض، فظهرت عين ماء، فقيل له ﴿**هذا**﴾ الذي تراه ﴿**مغتسل**﴾ أي موضع يغتسل فيه، وقد أريد بذلك، تنبيهه على الاغتسال في ذلك الماء ﴿**بارد**﴾ الإتيان بهذا الوصف للترويح عن النفس المريضة الملتهبة التي تطلب الماء البارد ﴿**وشراب**﴾ يُشرب منه، وقد اغتسل أيوب في ذلك الماء، وشرب منه، فصح جسمه كأن لم يكن به مرض أبداً.

[٤٤] ﴿**ووهبنا له أهله**﴾ الذين ماتوا في البلاء، بأن أحياهم الله سبحانه ﴿**ومثلهم معهم**﴾ إما بأن وُلد له أولاد آخرين على عدد أولئك الأولاد، حتى صار له من الأولاد ضعف أولاده قبل البلاء، وإما بأن المراد إعطاء أهله الذين ماتوا قبل البلاء، والذين ماتوا في البلاء، وذلك لأنه استحق الذين ماتوا في البلاء، لا الذين ماتوا قبله بآجالهم الطبيعية، وإنما فعلنا ذلك ﴿**رحمة منا**﴾ له وتفضلاً عليه، فليس أحد يستحق على الله شيئاً ﴿**وذكرى لأولي الألباب**﴾ أي، وليتذكر أصحاب

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٥﴾﴾

العقول، بأن الله سبحانه، إذا أخذ من أحد شيئاً، فلا يفعل ذلك اعتباطاً وعبثاً، وإنما ليعطيه ذلك الشيء مع الزيادة ـ إذا كان أخذه، لم يصدر عن عقاب وتأديب ـ وهذا هو شأنه سبحانه في جميع ما يأخذ، كما قال في باب الإنفاق (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً)[1].

[٤٥] ﴿**وخذ**﴾ يا أيوب ﴿**بيدك ضغثاً**﴾ وهو ملءُ الكف من الشماريخ للتمر ﴿**فاضرب به**﴾ أي بذلك الضغث امرأتك ﴿**ولا تحنث**﴾ حلفك، فقد رأى أيوب من زوجته قولاً، أو عملاً ساءه ذلك، فحلف أن يضربها عدداً من السوط، أو نحو ذلك ـ مما سكتت عنه الآية، ولما أن عُوفي خفف الله سبحانه ذلك، بأن يضربها بالشماريخ ضربة واحدة، لاتؤذي كثيراً، بأن يجعل لكل مرة شمراخاً، وقد كان حلف أيوب على ضربها مشروعاً، إذ لعلها كانت عاصية في قولها أو عملها الذي ساء أيوب وللزوج حق تأديب الزوجة، ولذا وجب الوفاء بها، كما أن عدم الحنث بذلك تخفيف من الله سبحانه، مع أنه عليه السلام، أتى بما يشبه المحلوف، فلا يقال: كيف قال تعالى «لا تحنث» والحال أن المحلوف غير هذا؟ ﴿**إنا وجدناه**﴾ أي وجدنا أيوب ﴿**صابراً**﴾ على البلاء الذي ابتلي به ﴿**نعم العبد**﴾ أيوب ﴿**إنّه أواب**﴾ أي كثير الرجوع إلى الله سبحانه من آب بمعنى رجع، وقد ذكرنا معنى رجوع الأنبياء عليهم السلام، وأنه من اشتغالهم بالأمور الدنيوية.

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٦﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ

[٤٦] ﴿**واذكر**﴾ يا رسول الله ﴿**عبادنا إبراهيم وإسحاق**﴾ ابن إبراهيم ﴿**ويعقوب**﴾ ابن إسحاق ﴿**أولي الأيدي**﴾ أي أصحاب القوة والتمكن، فقد كان هؤلاء الأنبياء عليهم السلام أصحاب ثروة ونعمة وجاه ﴿**والأبصار**﴾ يبصرون أمور دينهم، فقد جمعوا بين الدنيا والآخرة، وإنما أمر الرسول بذكرهم ليقتدى بهم الناس في دينهم ودنياهم، فلا يتركوا أحدهما للآخر، كما قال تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً)[1].

[٤٧] ﴿**إنا أخلصناهم**﴾ أي جعلناهم لنا خالصين، فلا يعملون شيئاً إلا لأجلنا ﴿**بخالصة**﴾ أي بخلصة، وصفة خالصة لا شوب فيها: هي ﴿**ذكرى الدار**﴾ الآخرة، فقد كانوا دائمي التذكر لها، ومن المعلوم، أن الإنسان إذا كان دائم التذكر للآخرة، لا تزل له قدم، وقوله «ذكرى» بدل من «بخالصة».

[٤٨] ﴿**وإنهم عندنا لمن المصطفين**﴾ جمع مصطفى أي اصطفيناهم، واخترناهم للنبوة، ومعنى عندنا، في حسابنا، وما كتبناه، لهم ليجزون عليه ﴿**الأخيار**﴾ جمع خير، كأموات جمع ميت، وهو الذي يفعل الأشياء الكثيرة الحسنة.

[٤٩] ﴿**واذكر**﴾ يا رسول الله ﴿**إسماعيل**﴾ بن إبراهيم عليه السلام، وكأنه لذكره

---

(١) البقرة: ٢٠٢ .

وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٩﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٥٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥١﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٢﴾

هنا، لم يذكر هناك مع أبيه وأخيه ﴿**واليسع**﴾ قال بعضهم كان من أنبياء بني إسرائيل ﴿**وذا الكفل**﴾ هو يوشع بن نون، وصي موسى عليه السلام، على بعض الأقوال ﴿**وكل**﴾ من هؤلاء ﴿**من الأخيار**﴾ الخيّرين.

[٥٠] ﴿**هذا**﴾ الذي سميناهم هنا في القرآن ﴿**ذكر**﴾ لهم، وشرف في الدنيا، باق بقاء الأبد ﴿**وإن للمتقين**﴾ الذين أولئك الأنبياء من ساداتهم ﴿**لحسن مآب**﴾ أي مآب حسن، والمآب هو المرجع، من آب بمعنى رجع.

[٥١] ثم بين سبحانه المراد بذلك بقوله ﴿**جنات عدن**﴾ يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه، والجنة هي البستان، سمى بها لأن الأشجار تجن وتستر أرضها، أي جنات إقامة لا زوال لأحد عنها، في حال كونها ﴿**مفتحة لهم الأبواب**﴾ والإتيان من باب التفعيل، للدلالة على كثرة الأبواب المفتحة لهم، لأن من معاني باب التفعيل التكثير، وفي ذلك إشارة إلى عظم رتبتهم، حيث إن كل الأبواب تفتح في وجوههم، حتى يكون لهم أن يدخلوها من حيث شاءوا.

[٥٢] في حال كونهم ﴿**متكئين فيها**﴾ أي مستندين أهل الجنة إلى المساند، وذلك للدلالة على كمال راحتهم الجسدية والروحية ﴿**يدعون فيها**﴾ أي يطلبون في تلك الجنات ﴿**بفاكهة**﴾ هي ثمرة الأشجار ﴿**كثيرة**﴾ حسب ما أرادوا ﴿**وشراب**﴾ بقدر ما اشتهوا،

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٣﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٧﴾

من خمر ومن عسل ومن لبن وغيرها.

[٥٣] ﴿**وعندهم**﴾ زوجات ﴿**قاصرات الطرف**﴾ قد قصرت عيونهن على أزواجهن، فلسن كبعض نساء الدنيا اللاتي ينظرن إلى غير أزواجهن، من حيث إنهن يرون غيرهم أعلى جاهاً، أو مالاً، أو جمالاً، أو غير ذلك، من أزواجهن ﴿**أتراب**﴾ جمع ترب، وهي التي بسن الزوج، فليس أعمارهن أقل أو أكثر من أزواجهن، حتى يكونا مختلفي الجسم أو العقل.

[٥٤] ﴿**هذا**﴾ الذي تقدم في وصف الجنان ونعيمها ﴿**ما توعدون**﴾ أيها الناس ﴿**ليوم الحساب**﴾ فإذا أحسنتم استحقتم كل ذلك.

[٥٥] ثم إنه لا انقطاع لنعيم الجنة، بل يقال لأهل الجنة ﴿**إن هذا**﴾ الذي ترون من النعيم ﴿**لرزقنا**﴾ لكم أيها المؤمنون ﴿**ماله**﴾ أي ليس لهذا الرزق ﴿**من نفاد**﴾ أي فناء وانقطاع بل باق إلى الأبد.

[٥٦] ﴿**هذا**﴾ ما يقدم للمتقين، فلننظر الكفار ﴿**وإن للطاغين**﴾ الذين طغوا على الله سبحانه وتجاوزوا الحد بالكفر والعصيان ﴿**لشر مآب**﴾ أي مآب شرير في مقابل «حسن الماب» للمتقين.

[٥٧] ﴿**جهنم**﴾ تفسير لشر مآب ﴿**يصلونها**﴾ من صلى الشيء إذا لازمه، أي يدخلونها ملازمين لها ﴿**فبئس المهاد**﴾ أي بئست جهنم مسكناً لهم، والمهاد هو المحل الذي يمهده الإنسان، ويهيئه لنفسه.

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٨﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٩﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ

---

[٥٨] أما شرابهم ﴿**هذا فليذوقوه حميم وغساق**﴾ أي هذا حميم وغساق، فليذوقوا كل واحد منهما، والحميم هو الماء الحار، وغساق، ما يغسق أي يسيل من صديد أهل النار وتحميمهم.

[٥٩] ﴿**وآخر**﴾ أي ولهم ضرب آخر من الطعام والشراب ﴿**من شكله**﴾ من شكل الحميم والغساق ﴿**أزواج**﴾ ألوان وأنواع متشابهة في الشدة، وصعوبة المذاق.

[٦٠] تلك دارهم، وذاك طعامهم وشرابهم، ولهم صنوف أُخرى من العذاب، من جملة تلك ضيق المكان، حتى أنهم في جهنم من الضيق، كالوتد دقّ في الحائط ـ كما ورد ـ وذلك إن القادة يدخلون النار أولاً فيجدون ضيقاً وإرهاقاً، ثم يؤتى بالأتباع، وإذا يراهم القادة، يقولون: لا مكان هنا لهؤلاء، فيقول مالك النار ﴿**هذا**﴾ الجمع الذي تشاهدونهم ﴿**فوج**﴾ أي جماعة ﴿**مقتحم معكم**﴾ من الاقتحام، والدخول في الشيء بشدة، وصعوبة، أي داخلون في ثناياكم وخلالكم ﴿**لا مرحباً بهم**﴾ أي لارحبت عليهم الأرض، ولا اتسعت لهم أماكنهم، وهذا حكاية لقول القادة، الذين هم في النار، يقولون لأتباعهم ذلك، وهو عكس التحية ﴿**إنهم صالوا النار**﴾ أي يدخلونها ملازمين لها.

[٦١] وإذ يسمع الأتباع هذا الترحيب المعكوس من قادتهم ﴿**قالوا بل أنتم**﴾

لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦١﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٣﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا

أيها القادة ﴿**لا مرحباً بكم**﴾ أي لا اتسع بكم المكان، ولا حييتم إلا بالسوء ﴿**أنتم قدمتموه**﴾ أي قدمتم هذا العذاب ﴿**لنا**﴾ حيث حملتمونا على الكفر والعصيان ﴿**فبئس القرار**﴾ والمقر الذي نستقر عليه.

[٦٢] وكان القادة يجيبون بأنّا لم نقدم لكم هذا العذاب، وإنما أنتم كنتم منحرفين عن الجادة، كما سبق شبه هذا الحوار بين السادة والأتباع في بعض السور السابقة، ولذا يلتجيء الأتباع إلى الله لينتقم لهم من القادة الذين غرّوهم ثم لا يقبلون حتى أن يسمعوا ذلك الكلام من أتباعهم ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الأتباع يا ﴿**ربنا من قدّم لنا هذا**﴾ العذاب وهيأه، لأن ندخله ﴿**فزده عذاباً ضعفاً**﴾ عذاباً لضلاله بنفسه وعذاباً لإضلاله لنا ﴿**في النار**﴾ وإلى هنا ينتهي الحوار بين القادة والأتباع.

[٦٣] ثم إن الكفار في النار يفتقدون المؤمنين، الذين سخروا منهم في الدنيا، وكذبوا كلامهم حول الوعيد، فيتسائل بعضهم عن بعض حولهم ﴿**وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً**﴾ مؤمنين ﴿**كنا نعدهم**﴾ في دار الدنيا ﴿**من الأشرار**﴾؟ جمع شر، فقد كان الكفار في الدنيا يقولون، إن المؤمنين أشرار، حيث يرونهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسبون الأصنام.

[٦٤] ﴿**أتخذناهم سخرياً**﴾ أي هل إن عدم رؤيتنا لهم في النار، لأجل أن سخريتنا بهم ـ في الدنيا ـ كان خطأ، فذهبوا إلى النعيم، ولذا

أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٤﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٦﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٧﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

لا نراهم، ﴿**أم**﴾ أن سخريتنا كانت صحيحة، فهم معنا في الجحيم، ولكن ﴿**زاغت**﴾ أي مالت وانحرفت ﴿**عنهم الأبصار**﴾ أي أبصارنا، فعدم رؤيتنا لهم، لأن أبصارنا عدلت عنهم، فلا تراهم، وإن كانوا معنا في الجحيم؟

[٦٥] ﴿**إن ذلك**﴾ التخاصم بين القادة والأتباع المنجرّ إلى ذلك الكلام حول المؤمنين ﴿**لحق**﴾ كائن لا محاله ﴿**تخاصم أهل النار**﴾ بدل عن ذلك، أي أن ذلك التخاصم بين أهل النار حق ثابت لا شك فيه.

[٦٦] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**إنما أنا منذر**﴾ مخوف لكم، إن بقيتم على الكفر والعصيان، لتلاقون هذا اليوم العصيب الذي سبق الحديث عنه ﴿**وما من إله**﴾ يحق له العبادة ﴿**إلا الله الواحد**﴾ الذي لا شريك له ﴿**القهار**﴾ لجميع خلقه يقهرهم على ما يريد بهم من الأمور التكوينية، فلا يُعز الإنسان، ما يرى من إسلاس القياد له في دار الدنيا، للاختبار والامتحان.

[٦٧] ﴿**رب السماوات والأرض وما بينهما**﴾ من الملك والإنس والجن وغيرها ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه، فلا يمتنع منه شيء ﴿**الغفار**﴾ لذنوب عباده، فمن ندم وتاب، غفر ذنبه، وقبل توبته.

[٦٨] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿**هو**﴾ أي ما اخبركم به عن المبدأ والمعاد، وسائر الأمور ﴿**نبأ عظيم**﴾ أي خبر ذو عظمة، تكون سعادة

أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٧٠﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧١﴾

الإنسان، وشقوته تابعة لتصديقه، أو تكذيبه.

[٦٩] ﴿**أنتم**﴾ أيها الكفار ﴿**عنه**﴾ أي عن هذا النبأ ﴿**معرضون**﴾ لا تعيرونه اهتماماً، كأنه ليس بمهم.

[٧٠] إنه ليس كهانةً أو سحراً أو شعراً، كما كانوا يذكرون، وإنما هو وحي، وإلا فمن أين أدري أنا، ماذا جرت بين الله وبين الملائكة، من محادثات حول أصل الخلقة، فإنه ﴿**ما كان لي من علم بالملأ الأعلى**﴾ يعني الملائكة ﴿**إذ يختصمون**﴾ يقال لكل تخالف في الرأي اختصاماً، وقد كان في ابتداء الخلقة أمر الله سبحانه طرفاً، وفكرة الملائكة طرفاً آخر، أو إن المراد اختصام الشيطان مع الله في الملأ الأعلى.

[٧١] ﴿**إن يوحى إلي**﴾ أي ما يوحى إليّ ﴿**إلا**﴾ لـ ﴿**أنما أنا نذير مبين**﴾ فلو لم أكن نبياً منذراً من أين كنت أعلم بماذا جرى في الملأ الأعلى، وإنما أعلم ذلك، لأنه يوحى إليّ حيث أني نذير ظاهر، ورسول من قبل الله سبحانه، فليس النبأ أمراً هيناً، كما تزعمون أنتم من أنه نزاع بين «محمد» و «الكفار» فحسب، وإنما أمر مهم جداً هو أمر الوحي من الله إلى الأرض، لتقرير المنهج العام للبشرية في هذه الحياة، والحياة الآخرة.

[٧٢] ثم بين السياق قصة اختصام الملأ الأعلى، الذي كان إخبار الرسول ﷺ، له دليلاً على نبوته، وأنه يُوحى إليه، وقد كان أمثال هذه العلوم في ذلك الزمان خاصاً برؤساء أهل الكتاب، حتى أن أحداً لم يكن يعلم من تلك شيئاً ـ حتى بالمقدار الخرافي المحرّف الذي كان مدرجاً في التوراة والإنجيل ـ فإذا أخبر بذلك في صورة صحيحة،

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٢﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٤﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٥﴾

رجل أمي، كان دليلاً على اتصاله بالوحي، كما لو أخبر في هذا اليوم، رجل أمي عن أسرار الذرة، وغوامض علم الفلك بصورة صحيحة، لم يصل إليها بعد أعظم علماء الفيزياء والفلك ﴿**إذ قال ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**للملائكة إني خالق**﴾ أي أريد أن أخلق، فاسم الفاعل بمعنى المستقبل ﴿**بشراً من طين**﴾ يعني آدم عليه السلام.

[٧٣] ﴿**فإذا سويته**﴾ أي سويت خلق هذا البشر وتمت أعضاؤه ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ أي أحييته، وجعلت فيه الروح المضاف إليّ تشريفاً، ومعنى النفخ، أن يخلق سبحانه روحاً، ثم يدخله في آدم على طريقة النفخ ﴿**فقعوا**﴾ الفاء عاطفة، و «قعوا» أمر من وقع يقع ﴿**له ساجدين**﴾ أي اسقطوا على الأرض، للسجود لآدم.

[٧٤] ثم إن الله سبحانه خلق آدم، ونفخ فيه الروح ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون**﴾ لآدم عليه السلام حسب أمر الله سبحانه، والإتيان بتأكيدين، لرفع استبعاد أن يكون الملايين من الملائكة المتفرقين في مختلف الفضاء الوسيع المدهش، قد سجدوا لآدم ولزيادة التقريع على إبليس حيث أبى السجود، مع سجود الجميع.

[٧٥] ﴿**إلا إبليس استكبر**﴾ أي جعل نفسه أكبر وأعظم من أن يسجد لآدم ﴿**وكان من الكافرين**﴾ «كان» لمجرد الربط، أو بمعنى صار، أو باعتبار

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٩﴾

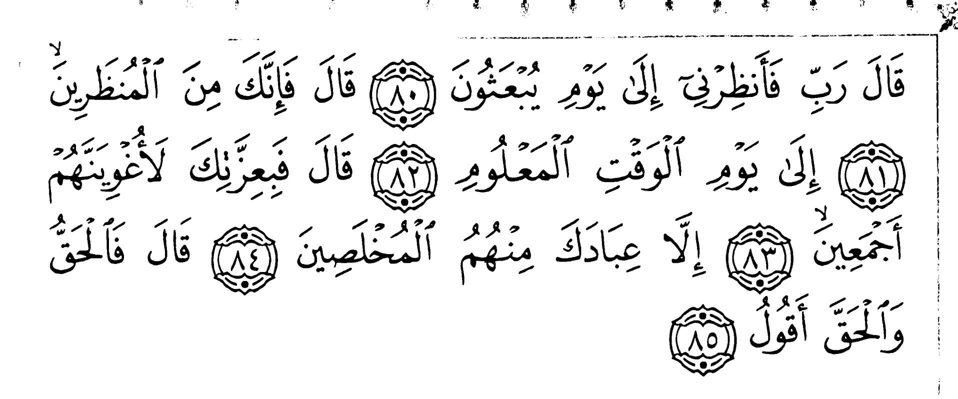
إنه في علم الله، كان كافراً في ضميره، فظهر ما كان كامناً.

[٧٦] ﴿**قال**﴾ الله سبحانه لإبليس ﴿**يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت**﴾ أنا ﴿**بيدي**﴾؟ هذا سؤال للتوبيخ والتقريع، أي ما هو سبب امتناعك من السجود لمثل الإنسان الشريف، الذي كرّمه الله سبحانه، بأن خلقه بلا واسطة؟ وقوله «بيدي» إضافة تشريفية، كناية عن وساطة سببت في خلقه، ثم قال له سبحانه ﴿**أستكبرت**﴾ أي هل استكبرت عن السجود، بلا حق ﴿**أم كنت من العالين**﴾ بأن كنت في الحقيقة والواقع، أعلى رتبة من آدم، ولذا لم تسجد؟.

[٧٧] ﴿**قال**﴾ إبليس في جواب الله سبحانه، بل كنت أعلى رتبة من آدم، إذ ﴿**أنا خير منه**﴾ أي أشرف من آدم، وذلك لأنك يا رب ﴿**خلقتني من نار**﴾ فإن أصلي النار ﴿**وخلقته**﴾ أي خلقت آدم ﴿**من طين**﴾ والنار أشرف من التراب.

[٧٨] ﴿**قال**﴾ الله سبحانه للشيطان، إذ رأى كبره وغروره وتمرده ﴿**فاخرج منها**﴾ أي من الجنة، فقد كان الجميع في الجنة ﴿**فإنك رجيم**﴾ مطرود مبعّد، يقال رجمه أي طرده.

[٧٩] ﴿**وإن عليك**﴾ يا شيطان ﴿**لعنتي**﴾ طردي وغضبي ﴿**إلى يوم الدين**﴾



أي يوم القيامة، حيث تحاسب هناك وتُلقى في النار.

[٨٠] ﴿**قال**﴾ إبليس عند ذلك، يا ﴿**رب**﴾ أي ربي، وحذف ياء المتكلم تخفيفاً ﴿**فأنظرني**﴾ أي امهلني، بأن أبقى حياً ﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ أي يوم القيامة الذي يُبعث ويحشر ويحيى فيه الناس؟

[٨١] ﴿**قال**﴾ الله تعالى في جوابه ﴿**فإنك من المنظرين**﴾ أي من جملة الذين يبقون إلى النفخة الأولى.

[٨٢] ﴿**إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ الوقت المعلوم، هو النفخة الأولى التي يموت فيه كل حيّ، فلم يمهله الله سبحانه إلى يوم القيامة، بل إلى النفخة الأولى، وما ورد في بعض الأحاديث، من أنه عند ظهور الإمام عليه السلام، فهو ببعض الاعتبارات، كما سبق.

[٨٣] ﴿**قال**﴾ الشيطان، إذ علم بالمهلة ﴿**فبعزتك**﴾ حلفي يا رب، أي أقسم بقدرتك ﴿**لأغوينهم**﴾ أي لأضلّن بني آدم ﴿**أجمعين**﴾.

[٨٤] ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ الذين أخلصتهم لنفسك، فلا أقدر على أولئك، ومعنى إغوائه لهم دعوته إلى الغواية.

[٨٥] ﴿**قال**﴾ الله سبحانه ﴿**فالحق والحق أقول**﴾ جملة معترضة، أي قولي حق، دائماً ثابت لا كذب فيه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٧) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٨) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٩)

[٨٦] و «الحق» مبتدأ خبره قوله ﴿**لأملأن جهنم**﴾ أي حقاً إملاء النار ﴿**منك**﴾ والمراد به هو وذريته ﴿**وممن تبعك**﴾ أي اتبع كلامك ﴿**منهم أجمعين**﴾ «منهم» بيان «من تبعك» والضمير يعود إلى بني آدم، المفهوم من السياق، و «أجمعين» تأكيد لمن تبع، أي كل متتابع، بحيث لا أدع متابعاً لك خارج جهنم.

[٨٧] وأخيراً ﴿**قل**﴾ يا رسول الله للناس ﴿**ما أسألكم عليه**﴾ أي تبليغ الوحي والقرآن ﴿**من أجر**﴾ أي مال تعطونه لي في مقابل أتعابي ﴿**وما أنا من المتكلفين**﴾ للقرآن من تلقاء نفسي، فليس القرآن كذباً، تكلفته أنا، ولا وسيلة، لأخذي مالاً منكم.

[٨٨] ﴿**إن هو**﴾ أي ما هو ﴿**إلا ذكر للعالمين**﴾ يذكرهم بما كمن في فطرتهم من التوحيد والمعاد والآداب، وما أشبه، والمراد بالعالمين، الأجيال، لأن كل دور من أدوار الدنيا، عالم مستقل، وإن اتصلت الحلقات بعضها ببعض.

[٨٩] ﴿**ولتعلمنّ نبأه**﴾ أي خبر القرآن وصدقه ﴿**بعد حين**﴾ في الدنيا، حيث ترون غلبته على الكفر والكفار، وفي الآخرة، حيث ترون صدقه في ما أخبر به من الجنان وأهلها، والنيران وأصحابها، وقد علم الكفار، وسائر الناس، صدق أنبائه بالنسبة إلى مستقبل الدنيا، وسنرى صدق أنبائه بالنسبة إلى الآخرة، جعلنا الله من أهل الجنة.



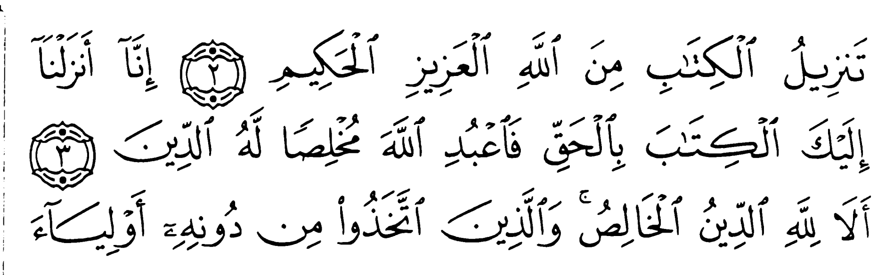
سُورة الزمر

مكيّة/آياتها (٧٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة «زمراً» وهي كسائر السور المكية باستثناء آيات، قالوا إنها مدنية، تعالج قضايا العقيدة في أصولها، ولما ختمت سورة «ص» بذكر القرآن، فتحت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الله، الذي لا يخيب من استعان به، وهو خير مستعان يستعين به الإنسان في مختلف حوائجه، والتوصيف بالرحمن والرحيم، التماس للرحمة، التي وسعت كل شيء، كي ينال الإنسان المستعين من ذلك المعين الذي لا ينضب فضلاً ورحمة.



[٢] ﴿**تنزيل الكتاب**﴾ أي نزول هذا الكتاب، إنما هو ﴿**من الله**﴾ فهذا خبر لتنزيل الكتاب ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يحكم بما يريد وفق المصلحة، ويفعل ما يشاء على طبق الصلاح، فبحكمته أحكم الكتاب، وبعزته أنزله للهداية والإرشاد، وليس سحراً أو تقوّلاً أو كهانة كما يقول المشركون.

[٣] ﴿**إنا أنزلنا إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**بالحق**﴾ فليس إنزاله لأجل الباطل أو اللعب، أو ما أشبه، كما لو كتب رئيس إلى نائبه، أن اقتل الناس، فإنه إرسال بالباطل، والإتيان بمادة «نزل» في الآيتين، إما لعلو مقام المنزل، فنُزل العلو رتبة منزلة العلو حساً، وإما حقيقة باعتبار، إن القرآن جاء من السماء إلى الأرض ﴿**فاعبد الله**﴾ وحده لاشريك له، كما أمرنا في الكتاب ﴿**مخلصا له الدين**﴾ أي في حال كونك تُخلص له الدين ـ وهو الطريقة، في العقيدة والعمل ـ ولا تجعل له نداً أو شريكاً، كما يفعل المشركون.

[٤] ﴿**ألا**﴾ فلينتبه السامع ﴿**لله الدين الخالص**﴾ يعني إن الطريقة الناصعة الخالصة من الانحراف والالتواء، وكل سوء هي لله سبحانه، أما سائر الطرق، فإنها ليست خالصة، بل في كل منها التواء وكذب وغش، والمراد بالدين الخالص هو الإسلام ﴿**والذين اتخذوا من دونه**﴾ أي من دون الله ﴿**أولياء**﴾ أي أصناماً يوالونهم، يقولون: ـ في سبب الاتخاذ ـ

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾

﴿**ما نعبدهم**﴾ أي إنا لا نعبد الأصنام ـ والإتيان بضمير العاقل، باعتبار إن الكفار كانوا يعتبرون الأصنام عقلاء ـ ﴿**إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ اسم مصدر زلف بمعنى قرب، فهو مفعول مطلق، بـ «يقربونا» أي يقربونا تقريباً، فقد كانوا يعتقدون إن الأصنام توجب القرب من الله سبحانه، لكنهم كاذبون في هذا الزعم، و ﴿**إن الله يحكم بينهم**﴾ يوم القيامة ﴿**فيما هم فيه يختلفون**﴾ من أمور الدين، فقد كان المشركون على اختلاف كبير بين الطوائف والعقائد، أو أن ضمير «بينهم» يعود إلى الناس عامة، مؤمنهم وكافرهم، والمراد بالحكم القضاء، وبيان أيهم مبطل، وأيهم محق، أو بيان أيهم مغرق في الباطل، وأيهم ليس بتلك المثابة، وإن كان الكل على باطل ـ وهذا بناءً على رجوع ضمير بينهم إلى الكفار فقط ـ ﴿**إن الله**﴾ بعد بيان الطريق، وانحراف البعض ﴿**لا يهدي**﴾ بالألطاف الخفية، بالنسبة إلى من انحرف، وهو الذي عُبّر عنه بقوله سبحانه ﴿**من هو كاذب**﴾ على الله وعلى رسوله ﴿**كفار**﴾ أي كثير الكفر، فكلما رأى حقاً كفر به، بخلاف من آمن، فإن الله يهديه، بأن يلطف به الألطاف الخفية الزائدة على أصل الهداية، ليزداد هدى، كما قال تعالى (زَادَهُمْ هُدًى)[١] و (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)[٢].

---

(١) محمد: ١٨ .

(٢) الكهف: ١٤ .

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

[٥] ﴿**لو أراد الله أن يتخذ ولداً**﴾ كما يزعم هؤلاء الكفار من أن لله ولداً ﴿**لاصطفى**﴾ أي لاختار هو بنفسه ﴿**مما يخلق**﴾ من الإنسان والملك ﴿**ما يشاء**﴾ فكان ينتخب الأليقُ به، لا أن يترك الأمر إلى الكفار، حتى يضيفوا إليه من شاءوا من الأولاد، كما أضاف اليهود عزيراً إليه، والنصارى المسيح، والمشركون الملائكة، فمثلاً كان يختار موسى إبناً، ومحمّد إبناً ﴿**سبحانه**﴾ أي أسبحه سبحانه، فهو منزّه عن الأولاد، ولادة وتبنياً، وهؤلاء كاذبون في إضافة الأبناء إليه، فإنه ﴿**هو الله الواحد**﴾ الذي لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد ﴿**القهار**﴾ الذي يقهر الكون طبق إرادته، ولو كان له ولد، شاركه في الألوهية، فلم يكن واحداً، ولا قادراً على قهره.

[٦] ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق**﴾ فلا باطل في شأنه، حتى يتخذ ولداً بالتبني، ولا شريك له حتى يكون له ولد صلبى، إذ لو كان له ولد لشاركه في الخلق بمقتضى كونه إلهاً ﴿**يكور الليل على النهار**﴾ تشبيه بمن يلف شيئاً على شيء، فإذا جاء الليل كان، كأنه لُفّ على النهار حتى ستره ﴿**ويكور النهار على الليل**﴾ فإذا جاء النهار، كان كأنه لُف أيضاً على الظلمة حتى سترها ﴿**وسخر الشمس والقمرَ**﴾ بأن ذللهما وأجراهما حسب الصلاح والحكمة ﴿**كل**﴾ منهما

يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ

﴿**يجري**﴾ في مداره ﴿**لأجل مسمى**﴾ أي إلى غاية محدودة، يوم يقفان عن السير، وهو يوم القيامة، ﴿**ألا**﴾ فلينتبه السامع ﴿**هو**﴾ الله ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الغفار**﴾ فمن تاب من الكفار والعصات، غفر له ذنبه، وإنما أُتي بهذا الوصف، لإلقاء الرجاء في قلوب مَن لاذت قلوبهم نحو الحق، فلا ييأسوا من سالف أعمالهم، أن تُقبل توبتهم.

[٧] ﴿**خلقكم**﴾ أيها البشر، بعد خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر ﴿**من نفس واحدة**﴾ هي نفس آدم عليه السلام، يعني أن أصل خلقتكم من شخص واحد، كل الناس ينتهون إليه ﴿**ثم**﴾ هذا إنما هو للتراخي في الكلام، لا التراخي في الخارج، كقوله «إن من ساد ثم ساد أبوه، ثم قد ساد بعد ذلك جده» فإن سيادة الأب قبل الإبن خارجاً، وإنما أُتي، بـ «ثم» للتراخي في التكلم، وبيان أن هذا الكلام بإثر ذلك الكلام ﴿**جعل منها**﴾ أي من تلك النفس ﴿**زوجها**﴾ إما أن يراد كون حواء عليها السلام، من فاضل طينة آدم، أو أنها من نفس ذلك الجنس، فليست زوجة آدم من جنس الملائكة، أو الجن، وهذا فضل منه سبحانه، لأن «كل جنس لجنسه يلف» ﴿**وأنزل**﴾ أي بسبب ما أنزله من المطر أنشأ ﴿**لكم**﴾ أيها البشر ﴿**من الأنعام**﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿**ثمانية أزواج**﴾ من كل زوجين ذكر وأنثى ﴿**يخلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**في بطون أمهاتكم خلقاً من**

بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٧) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

بعد خلق﴾ فنطفة فعلقة فمضغة، فعظام فإنسان سوي، فحياة **﴿في ظلمات ثلاث﴾** ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فإن هذه الأغلفة الثلاثة محيطة بالولد حال تكوينه **﴿ذلكم﴾** «ذا» إشارة، و «كم» خطاب **﴿الله ربكم﴾** أيها البشر، فإنه هو الذي خلقكم من الابتداء إلى حال الوجود، بتلك الكيفية المدهشة **﴿له الملك﴾** كما أن له الخلق **﴿لا اله الا هو﴾** لا شريك له من صنم أو وثن، أو غيرهما **﴿فأنى تصرفون﴾** عن الحق، أي إلى أين يصرفكم الشيطان والكفار؟ حتى تقولون بالشريك لله سبحانه.

[٨] **﴿إن تكفروا﴾** أيها البشر، فهو يضركم، ولا يضر الله سبحانه **﴿فإن الله غني عنكم﴾** غير محتاج إليكم، حتى يضره كفركم **﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾** فإنه لم يأمر بذلك، وهذا لنقض قول الكفار، حيث كانوا يقولون: إن الله أمرنا بهذا **﴿وإن تشكروا﴾** أيها البشر ورأس الشكر، أن توحدوه **﴿يرضه﴾** أي يرضى الشكر **﴿لكم﴾** ويجازيكم عليه جزاءً حسناً وليعلم الكافر أن القادة لا يحملون تبعة كفرهم، كما يقولون في الدنيا، حيث قالوا (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)[١] **﴿ولا تزر﴾** أي لا تحمل نفس **﴿وازرة﴾** أي حاملة **﴿وزر أُخرى﴾** أي ذنب الشخص

---

(١) العنكبوت: ١٣.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٨﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

الآخر، بأن تخفف نفس ذنب شخص آخر، نعم إن الضال يحمل وزرَين، وزر ضلاله، ووزر إضلاله ﴿**ثم**﴾ بعد الدنيا، أيها البشر ﴿**إلى ربكم مرجعكم**﴾ مصدر ميمي، أي رجوعكم ﴿**فينبئكم**﴾ يخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ يجازيكم على أعمالكم، فإن الإخبار مقدمة الجزاء، كما يقول الحاكم للمجرم: سأخبرك بما عملت ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**عليم بذات الصدور**﴾ أي بالأشياء التي تدور فيها، فعلمه شامل لكل شيء، فلا يظن البشر أنه يتمكن من الإخفاء منه.

[٩] وعجيب أمر هذا الإنسان الذي يكفر بالله، بعد أن يعتقد في باطنه به ﴿**وإذا مس الإنسان ضر**﴾ من مرض، أو فقر أو بلاء ﴿**دعا ربه**﴾ وتوجه إلى الله تعالى ﴿**منيباً إليه**﴾ من أناب بمعنى رجع، أي راجعاً إلى الله وحده راجياً إيّاه دون سواه ﴿**ثم إذا خولّه**﴾ أي أعطاه الله ﴿**نعمة منه**﴾ أي من قبله ﴿**نسي ما كان يدعوا إليه من قبل**﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل هذه النعمة، ومعنى النسيان ترك التوحيد والشكر، ويستعمل النسيان في الترك، لأنه من أسبابه، بعلاقة السبب والمسبب، كما قال(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)[١]، أو باعتبار أن الشرك غالباً يجر إلى النسيان ﴿**وجعل للّه أنداداً**﴾ جمع ند وهو المثل والضد،

---

(١) التوبة: ٦٧ .

لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٩﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ

والمراد بها الأوثان ﴿**ليضل**﴾ الناس ﴿**عن سبيله**﴾ أو يضل نفسه عن سبيل اللّه، واللام للعاقبة، إذ جميع الكفار لا يريدون بالشرك إضلال الناس، أو ضلال أنفسهم، و إنما عاقبة الشرك الضلال والإضلال ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، لمثل هذا الشخص ﴿**تمتع بكفرك قليلاً**﴾ الأمر للتهديد، أي تنعم بنعمة الدنيا، التي جرها إليك كفرك، فكأنه تنعم بالكفر، والباء سببية، نحو تنعم بالعلم أو بالمال ﴿**إنك من أصحاب النار**﴾ الملازمين لها كملازمة الصاحب لصاحبه.

[١٠] فهل هذا الإنسان الذي يكفر ويكون مصيره النار خير ﴿**أم من**﴾ يؤمن، ويعمل الصالحات، حتى يصير إلى الجنة؟ ف ﴿**هو قانت**﴾ من القنوت بمعنى الخضوع لله تعالى ﴿**آناء الليل**﴾ جمع «أنى» بمعنى ساعات الليل، وإنما خص الليل بالذكر، لأن القيام في ساعاتها للعبادة، أدل على قوة الإيمان من الطاعة في ساعات النهار، في حال كونه ﴿**ساجداً**﴾ مرة ﴿**وقائماً**﴾ في الصلاة والتلاوة، أخرى ﴿**يحذر الآخرة**﴾ أي يخاف من عذابها ﴿**ويرجوا رحمة ربه**﴾ والجنة ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في صدد المقارنة بين الكافر والمؤمن ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾؟ ومن الواضح، أنهما لا يستويان، وإذا لا يستوي المؤمن العالم بالله واليوم الآخر، والكافر الذي لا يعلم بالمبدأ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٠﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١٢﴾

والمعاد ﴿**إنما يتذكر**﴾ بهذه المواعظ والإرشادات ﴿**أولوا الألباب**﴾ أي أصحاب العقول الذين يعملون عقولهم، لإستفادة الحق، أما غيرهم، فهم في غفلة من هذا.

[١١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**يا عباد**﴾ وأصله يا عبادي ﴿**الذين آمنوا**﴾ فعل ماضي ﴿**اتقوا**﴾ أيها الناس ﴿**ربكم**﴾ أي خافوا عقابه، فلا تخالفوا أوامره، فإنه ﴿**للذين أحسنوا**﴾ في العقيدة والعمل ﴿**في هذه الدنيا حسنة**﴾ المراد بها الجنس، فإن اتباع مناهج الله سبحانه، يوجب الغنى، والصحة، والأمن، والعلم، والفضيلة، وسائر الخيرات، كما دلّ عليه الدليل والتجارب ﴿**و**﴾ إذا رأيتم أنكم لا تتمكنون من الإتيان بالطاعة في مكان فهاجروا، ف ﴿**أرض الله واسعة**﴾ إلى حيث تتمكنون من أن تحسنوا هناك، وحيث إن الهجرة توجب أتعاباً جمّة، قال سبحانه ﴿**إنما يوفّى**﴾ ويعطى وافياً ﴿**الصابرون**﴾ في الشدائد ﴿**أجرهم بغير حساب**﴾ فإنه لكثرته، لا يتمكن الإنسان من عدّه، وإن كان بقدر معلوم عند الله سبحانه.

[١٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**إني أمرت أن أعبد الله**﴾ وحده ﴿**مخلصاً له الدين**﴾ أي أخلص له في طريقتي، فلا آخذ عقيدة أو عملاً، إلا من طرفه وحده، لا أعتقد بغيره ولا أعبد سواه.

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٥﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ

[١٣] ﴿**وأمرت**﴾ من قبله سبحانه ﴿**لأن أكون أول المسلمين**﴾ الذين يُسلمون لأوامره، وإنما أكون أولهم، لأدرك الفضل في السبق إلى الطاعة، فإن من سبق إلى خير جمع الفضل والأجر.

[١٤] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**إني أخاف إن عصيت ربي**﴾ بالكفر أو الإثم ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾ هو يوم القيامة، الذي لا منجى ولا مفر منه، وعذابه في غاية الشدة، والخوف يمكن أن يكون مع القطع بالضار كما يمكن أن يكون مع الشك والظن والوهم.

[١٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين ﴿**الله أعبد**﴾ لا غيره ﴿**مخلصاً له ديني**﴾ أي أخلص له طريقتي، فلا أعبد أحداً معه، وهذا تكرار لما سبق للتأكيد وتفريغ ما يأتي عليه.

[١٦] ﴿**فاعبدوا**﴾ أنتم أيها الكفار ﴿**ما شئتم**﴾ من الأصنام والبشر ﴿**من دونه**﴾ أي من دون الله، وهذا الأمر للتهديد، أي افعلوا ما شئتم فستلقون جزاءه، ولذا قال تعالى ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**إن الخاسرين**﴾ الذين يحق أن يقال لهم خاسرون هم ﴿**الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**﴾ بأن ذهبت نفوسهم إلى النار، وتفرقت عنهم أهاليهم إلى الجنة أو إلى النار، والخاسر هو الذي يذهب رأس ماله، بخلاف الرابح الذي يبقى أصل ماله ويزاد عليه، فإن المؤمن بقيت نفسه في راحة وأهله معه،

أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

ثم ربح النعيم، أما الكافر، فإنه لم يحصل شيئاً، وبالإضافة إلى ذلك، أتلف نفسه وأهله ﴿**ألا ذلك**﴾ الذي ذكر من خسارة النفس والمال ﴿**هو الخسران المبين**﴾ الواضح الذي لا خسارة فوقه.

[١٧] ﴿**لهم**﴾ أي للخاسرين ﴿**من فوقهم ظلل من النار**﴾ «ضلل» جمع «ظلة» وهي السترة العالية، يعني فوقهم أطباق النار ﴿**ومن تحتهم ظلل**﴾ أي فُرش، وتسمية ما تحتهم «ظلل» إما باعتبار المشاكلة اللفظية، من قبيل قوله تعالى (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ)[١] وإما من جهة، أن ما تحت كل طائفة سقف لمن في الدرك والأسفل منه، إذ النار دركات وأطباق بعضها فوق بعض ﴿**ذلك**﴾ الذي تقدم من العذاب ﴿**يخوف الله به عباده**﴾ حتى لا يعصوه فيلقون فيه ﴿**يا عباد**﴾ حذف ياء المتكلم تخفيفاً ﴿**فاتقون**﴾ أي اتقوني فلا تعصوني، فقد ألزمت عليكم الحجة، وأرشدتكم إلى السبيل.

[١٨] ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت**﴾ المراد به الشيطان، أو كل قائد ضال شديد الطغيان، ويطلق على الأوثان تشبيهاً، وإلا فليست الأوثان تطغى وتجاوز الحدّ ﴿**أن يعبدوها**﴾ بدل اشتمال للطاغوت، أي اجتنبوا عبادتها، ﴿**وأنابوا**﴾ أي رجعوا عن الكفر والعصيان ﴿**إلى الله**﴾ بأن

(١) البقرة: ١٩٥ .

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

آمنوا وأطاعوا، والرجوع، إنما هو بالنسبة إلى من كان كافراً عاصياً، ويدخل غيره في العموم بالملاك ﴿**لهم البشرى**﴾ أي البشارة بخير الدنيا وسعادة الآخرة ﴿**فبشر**﴾ يا رسول الله ﴿**عباد**﴾ أصله عبادي حذف ياء المتكلم تخفيفاً.

[١٩] ﴿**الذين يستمعون القول**﴾ وصف للعباد، أي إذا سمعوا من المجتمع قولاً، يتركون منحرفه ﴿**فـ**﴾ لا يعملون به، بل ﴿**يتبعون أحسنه**﴾ أي أولاه بالاتباع، فإن الإنسان يستمع في المجتمع الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان والفضيلة والرذيلة، فالإنسان الخير يتبع الأحسن مما يستمع، والإنسان الشرير يتبع الأسوأ مما يستمع، والأحسن منسلخ عن معنى التفضيل، أو يراد به الأحسن عرفاً، وإن لم يكن في طرف مقابله حسن حقيقة ﴿**أولئك الذين هداهم الله**﴾ أي أن من صفته اتباع الأحسن، هو الذي تفضل الله عليه بالهداية، والمراد بها اللطف الخفي، أما الهداية بمعناها العام، فهي لكل بر وفاجر ﴿**وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ أي أصحاب العقول، فإن اللب بمعنى العقل، نقل في المجمع عن بعض إنه قال: إن هاتين الآيتين، نزلت في «زيد» و «أبي ذر» و «سلمان» حيث كانوا يعترفون بالتوحيد في زمن الجاهلية[١].

[٢٠] ثم يُسلي الله رسوله في عدم إيمان جماعة من المعاندين، فلا يهتم

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٣٩٢.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿٢٠﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ

لهم ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب**﴾ أي ثبتت كلمة العذاب في شأنه، بأن علم الله سبحانه، أنه لا يؤمن إلى الأبد، فأثبت في شأنه العذاب، وقال فيه «إنه معذب» ﴿**أفأنت**﴾ يا رسول الله ﴿**تنقذ من في النار**﴾ بأن تهديه حتى لا يدخل النار، وهذه الجملة عبارة عن «تتمكن من إنقاذه» على سبيل الاستفهام الإنكاري، أي أنك يا رسول الله، لا تتمكن من إنقاذ هذا القسم من الناس، وإنما أتت هذه الجملة، في قالب الاستفهام، لزيادة الانكار، وقوله «من في النار» باعتبار، الأول، نحو، (وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرينَ)[1]، وكما نقول «السلطة ساقطة» حيث نرى فيها آثار السقوط.

[٢١] ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم**﴾ بأن خافوا عقابه، فأطاعوه ﴿**لهم غرف**﴾ جمع غرفة، وهي البيت فوق الدار، وتلك أحسن من التحت لقربها من الشمس، ودخول الهواء فيها، وإشرافها وغير ذلك ﴿**من فوقها غرف**﴾ مبنية، فهم في قصور ذات طبقات، كما أن من في النار في عذاب ذي أطباق، من فوقهم ظلل، ومن تحتهم ظلل ﴿**مبنية**﴾ أي قد بنيت تلك الغرف، والإتيان بهذا الوصف، لامتداد البشارة، فإن الإنسان كما أطال وصف المطلوب، امتدت في نفسه البشائر ﴿**تجري من تحتها**﴾ أي من تحت تلك الغرف ﴿**الأنهار**﴾ فهم ينظرون إلى الأنهار والأشجار، من فوق مما يزيد في سرورهم، فإن الإشراف على المحبوب من الأعلى يشع في النفس بهجة وحبوراً ﴿**وعد الله**﴾ أي

---

(١) التوبة: ٤٩.

لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

وعدهم الله بذلك وعداً، فهو مفعول مطلق لفعل مقدر، و ﴿**لا يخلف الله الميعاد**﴾ الذي يعده، لأن الخلف ناشئ، إما من الجهل أو العجز أو الخبث، والله سبحانه منزه من ذلك كله.

[٢٢] وبعد أن ذكر سبحانه قسماً من التوحيد والمعاد والرسالة، ذكر بعض أدلة التوحيد ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**أن الله أنزل من السماء ماءً**﴾ وهو المطر ﴿**فسلكه**﴾ أي أدخل ذلك الماء في ﴿**ينابيع في الأرض**﴾ جمع ينبوع، وهو محل اختزان الماء، وتجمعه كالعيون والقنوات والأنهار، وما أشبهها ﴿**ثم يخرج**﴾ الله ﴿**به**﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿**زرعاً**﴾ أي نباتاً ﴿**مختلفاً ألوانه**﴾ من أخضر وأحمر وأزرق وأصفر وأبيض، وغيرها، أو المراد بالألوان جميع الصفات من طعوم وروائح، وحجوم، وأشكال وغيرها، فإن اللون له إطلاقان: إطلاق بمعنى ما يدرك بالبصر فقط، وإطلاق بمعنى ما يدرك بجميع الحواس، بل أعم من ذلك، كالخواص والفوائد ﴿**ثم يهيج**﴾ أي يجف الزرع وييبس، من هاج أي ثار، فكأن النبات يثور عن حالته الأولى ﴿**فتراه مصفراً**﴾ بعد ما كان ذا لون آخر ﴿**ثم يجعله**﴾ الله ﴿**حطاماً**﴾ رفاتاً منكسراً متفتتاً، فإن الحطم هو الكسر للشيء اليابس ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي تقدم من إنزال الماء، وإنبات النبات مع تلك الأوصاف المذكورة

لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٢﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ

﴿**لذكرى**﴾ أي تذكير بما كمن في النفوس من التوحيد ﴿**لأولي الألباب**﴾ أي أصحاب العقول، فإن لب كل شيء أحسنه، ولب الإنسان عقله.

[٢٣] وإذا كانت الآيات الكونية تدل على ما يقوله الرسول ﷺ وكان الذي أعرض قاسياً، لا يدخل النور قلبه، وكان الذي يقبل ويُسلم رحب الصدر قابلاً لأنّ يدخل فيه الاسلام، كالظرف الوسيع القابل لأخذ الشيء ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ وإنما نسب الشرح إلى الله، لأنه لطف به الألطاف الخفية، بعد أن كان هو بصدد الإيمان، مقابل الكافر الذي لا يشرح الله صدره، بأن يعرض الله عنه، إذا رآه بصدد التعامى عن الحق، وإنما نسب الشرح إلى الصدر، لأنه مركز القلب الذي هو مصدر قبول الإيمان، أو رفضه، فهو من باب سبك مجاز من مجاز، أو باعتبار أن المُعرض تشتد فيه حرارة القلب، فتنتفخ الرئة كثيراً لتجذب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتكون آخذة موضعاً وسيعاً من الصدر، ولذا يحس الإنسان بضيق صدره، لضيق مجاري الدم وما أشبه، بسبب ضغط الرئة، وبالعكس من ذلك الذي يهدأ ويسرّ بالإسلام، فإن حرارته تخف، فلا تحتاج الرئة إلاّ إلى حركة يسيرة، حتى يبقى أكثر مواضع الصدر فارغاً، فلا ضغط من الرئة على الأوردة والشرايين، وبذلك يحس الإنسان بسعة صدره ﴿**فهو على نور**﴾ كأنه في طرق الحياة، على قطعة نور، يبصر به طريقه جيداً، فلا يقع في مشاكل الحياة ﴿**من ربه**﴾ «من» نشوية أي نور ناشئ من قبل الله

فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ

تعالى، وقد حذف عدل الاستفهام، أي أفمن شرح الله صدره، كمن ليس كذلك؟ وحذفه لنكتة هي، إن من ليس كذلك غير قابل حتى للذكر، وكأنه لا شيء، ﴿**فويل للقاسية قلوبهم**﴾ أي الهلاك والسوء، للذي قسى قلبه، حتى لم يجد الإيمان محلاً له فيه ﴿**من ذكر الله**﴾ أي قساوة من هذا النوع، وإن كان رقيق القلب من جهات أخرى ﴿**أولئك**﴾ القاسية قلوبهم ﴿**في ضلال مبين**﴾ أي انحراف واضح بيّن.

[٢٤] وإذ تقدم الحديث عن الإسلام، يأتي السياق ليصف القرآن الحكيم، الذي هو مصدر أحكام الإسلام وإرشاداته ﴿**الله نزل أحسن الحديث**﴾ المراد بالحديث الجنس، أي أحسن نوع من هذا الجنس، والحديث هو الخبر، سُمي حديثاً، لأنّه يحدث ويتجدد بعد أن لم يكن، فإن المخبر يجدّده ويذكره، وإنما سمى القرآن حديثاً، لأنه كلام الله وإخباراته وإن كان فيه بعض الإنشاء، فإنه بصورة عامة، حديث من باب التغليب ﴿**كتاباً**﴾ بدل من أحسن الحديث، أو حال أي في حال كونه مكتوباً لاملفوظاً فقط ﴿**متشابهاً**﴾ يشبه بعضه بعضاً، فلا تفاوت في ألفاظه فصاحة وإعجازاً، ولا في معانيه وأحكامه، إحكاماً وإرشاداً، فلا اختلاف فيه، ولا تناقض ﴿**مثاني**﴾ جمع مثنى، أي أن قصص هذا الكتاب، وإخباراته، وأحكامه، تذكر مثنى مثنى، في قوالب مختلفة للتركيز في الأذهان، ويكون أبلغ في التحدي والإعجاز، ووصف الكتاب بالمثاني ـ جمعاً ـ باعتبار سوره وآياته

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٤﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وفصوله ﴿**تقشعر**﴾ أي ترتجف ﴿**منه**﴾ من هذا الكتاب ﴿**جلود الذين يخشون ربهم**﴾ فتأخذهم قشعريرة خوفاً من وعيده ورهبة وجلالاً ﴿**ثم تلين جلودهم**﴾ بعد الانكماش بالقشعريرة ﴿**وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾ فإنّ وعوده سبحانه توجب الهدوء والطمأنينة، كما قال تعالى (وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)(1) ومن عادة الإنسان، أنه إذ ذكر الوعيد تفكر، فيذكر الوعد، وهناك الاطمئنان للقلب الوجيف، والجلد المقشعر ﴿**ذلك**﴾ أي القرآن ﴿**هدى الله**﴾ الذي هدى بسببه الناس إلى طريق الحق والرشاد ﴿**يهدي به**﴾ أي بالقرآن ﴿**من يشاء**﴾ وليست مشيئته سبحانه اعتباطية، بل لمن سلك الطريق الحق وكان في صدد الهدى، والمراد بالهداية هنا، الألطاف الخاصة، وإلاّ فالهداية عامة لكل مؤمن وكافر ﴿**ومن يضلل الله**﴾ بأن يتركه حتى ينحرف بعد أن لم يقبل الهدى ﴿**فماله من هاد**﴾ إذ اللطف منه سبحانه، فإذا أعرض الإنسان عن السلوك في الطريق، لم يكن له من يلطف به، حتى يهتدي.

[٢٥] ﴿**أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب**﴾ بأن يكون وجهه في مقابل لفح النار ولهبها ﴿**يوم القيامة**﴾ خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة، لا يرى النار

(١) التغابن: ١٢.

وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٥﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

أبداً؟ وواضح أن الجواب من يأتي آمناً خير، وإنما قال «الوجه» لأنه أشرف الأعضاء، فيكون عذابه أكثر إيلاماً من عذاب سائر الأعضاء ﴿**وقيل للظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿**ذوقوا ما كنتم تكسبون**﴾ في الدنيا بناءً على تجسيم الأعمال، أو المراد ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون، بعلاقة السبب والمسبب، فإن الكسب علة الجزاء، وإنما حذف.

[٢٦] ويعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم حيث إنهم لما كذبوا عوقبوا وأهلكوا ﴿**كذب الذين من قبلهم**﴾ أي قبل هؤلاء الكفار من الأمم الماضية ﴿**فأتاهم العذاب**﴾ أي جاءهم عذاب الله في الدنيا ﴿**من حيث لا يشعرون**﴾ أي لا يعرفون، فقد كانوا آمنين في بلادهم، وإذا بهم يرون عذاب الاستئصال من صيحة أو خسف أو قذف، أو ما أشبه يعمهم.

[٢٧] ﴿**فأذاقهم الله**﴾ أي أذاق أولئك الأمم المكذبة ﴿**الخزي**﴾ والهوان ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ بأن عذبهم وأهلكهم ﴿**ولعذاب الآخرة**﴾ الذي أعدّ لهم لتكذيبهم وكفرهم ﴿**أكبر**﴾ من عذاب الدنيا ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي لو علموا بالعذاب المهيء لهم، لعلموا أن ذلك أكبر من عذاب الدنيا.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ

[٢٨] ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾ يفيدهم ويهديهم إلى الطريق، كما مثلنا هنا لهم بأحوال المكذبين السابقين ﴿**لعلهم**﴾ أي لكي ﴿**يتذكرون**﴾ ما أودع فيهم من الفطرة الدالة على أن من أساء، فإنه يرى السوء، وإن من أحسن يرى الحسنى.

[٢٩] لقد بينا الأمثلة في هذا القرآن في حال كونه ﴿**قرآناً عربياً**﴾ يفهمون معناه، فهو بلغتهم ﴿**غير ذي عوج**﴾ أي ليس صاحب اعوجاج، وميل عن الحق، فهو لفظاً بلغتهم، ومعنى لا انحراف في أحكامه ﴿**لعلهم يتقون**﴾ أي لكي يتقوا الكفر والعصيان، فلا يأتيهم العذاب.

[٣٠] ثم بين سبحانه، مثلاً للموحد والمشرك، فالموحد كالعبد الذي هو لإنسانٍ واحد، والمشرك كالعبد الذي هو لعدة سادة يتنازعون ما بينهم، في الأمور، فيجر كل واحد العبد إلى جانبه، أيها خير؟ ومن الطبيعي إن العبد الذي لسيد واحد خير، من ذلك العبد المشترك بين سادة كثيرين ﴿**ضرب الله مثلاً**﴾ للموحد والمشرك، فللمشرك ﴿**رجلاً فيه شركاء**﴾ أي جماعة سادة مشتركون ﴿**متشاكسون**﴾ من شكس بمعنى خاصم، فالمتشاكسون بمعنى المتنازعون المتخاصمون فيما بينهم، فهل هذا العبد أحسن حالاً؟ أم العبد الذي هو لسيد واحد ﴿**ورجلاً**﴾ وهو مثال الموحد ﴿**سلماً لرجل**﴾ أي خالصاً لسيد واحد

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣٢﴾

يطيع أوامره، وينتهي عن زواجره ﴿**هل يستويان**﴾ أي العبدان ﴿**مثلاً**﴾ أي من حيث المثل، وإذ كان الجواب العدم، فاللازم أن يعرف المشرك، أن له أسوأ المثل، فليقلع عن غيه ﴿**الحمد لله**﴾ فلا شريك له يستحق الحمد، بل جميع المحامد راجعة إليه، ولذا يستحق كل حمد ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ إن الإله واحد، ولذا يعبدون آلهة متعددة، وكما إن العبد لسيد واحد، ينعم براحة البال، كذلك الموحد ينعم بالراحة والاطمئنان، وكما إن العبد لعدة شركاء موزع القلب لايدري ماذا يصنع، قلق الضمير، كذلك المشرك قلق لا يدري، هل يرضي الله أم الشركاء، فهو مكلوم الفؤاد.

[٣١] إن الدنيا تنقضي، وإن الرسول والمشركين، سيموتون، وهناك تشكّل محكمة كبرى، أمام الله سبحانه، ويظهر مَن المحق ومَن المبطل؟ وهذا تهديد لهم بأنكم إن بقيتم على غيكم، ستلاقون يوماً عسيراً، حين يخاصمكم الرسول يوم القيامة ﴿**إنك**﴾ يا رسول الله ﴿**ميت**﴾ بعد مدة ﴿**وإنهم**﴾ أعداؤك وخصماؤك المشركون ﴿**ميتون**﴾ جمع ميت.

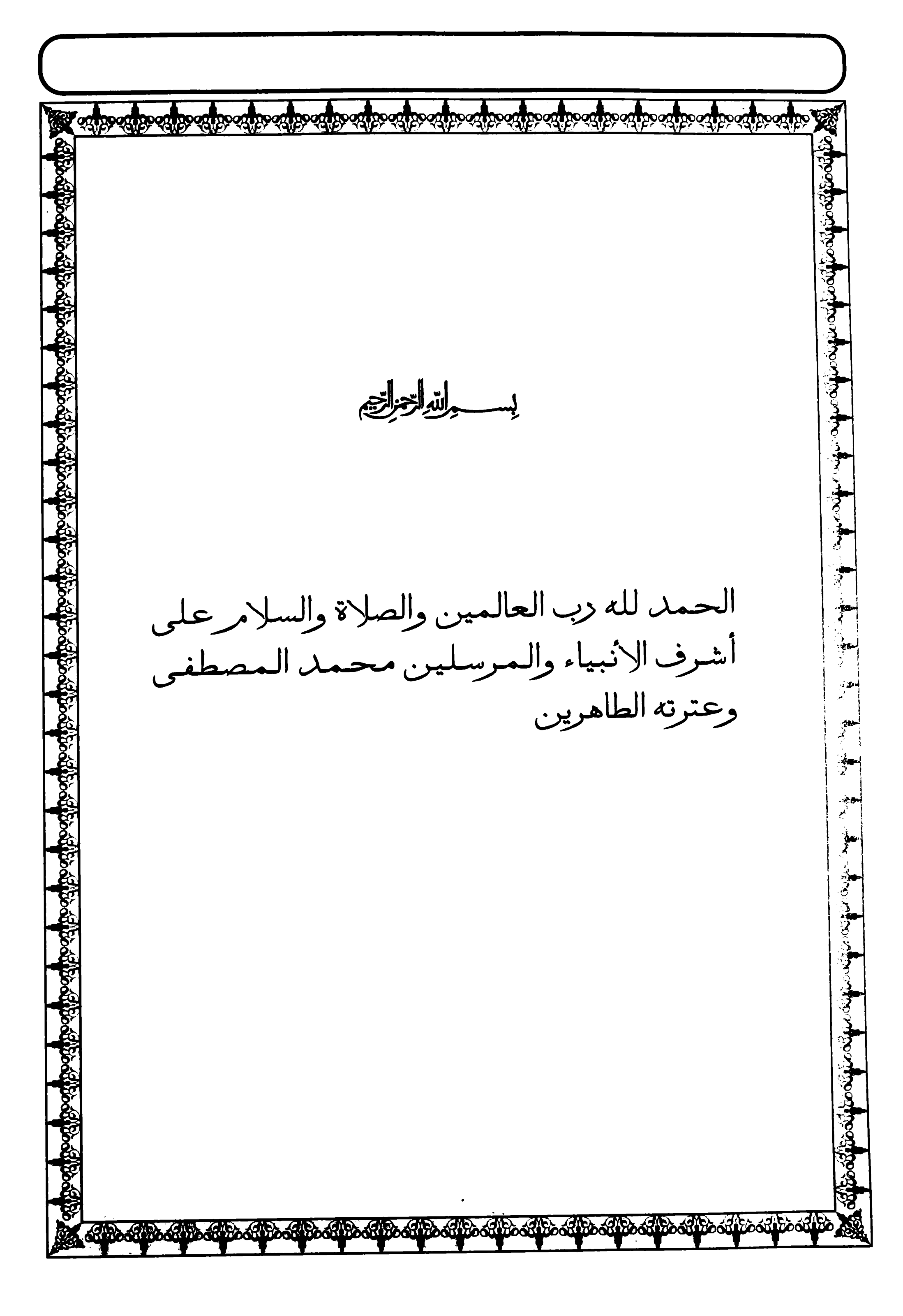
[٣٢] ﴿**ثم إنكم**﴾ بعد إنقضاء مدة البرزخ بين الدنيا والآخرة ﴿**يوم القيامة عند ربكم**﴾ أي المحل الذي أعده للحساب، وإلا فليس لله سبحانه، مكان ﴿**تختصمون**﴾ فيظهر مَن المحق ومَن المبطل.



الجزء الرابع والعشرون

من آية (٣٣) سورة الزمر

إلى آية (٤٧) سورة فصّلت



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾

[٣٣] ثم بيين سبحانه حال الفريقين الموحدين والمشركين ﴿**فمن أظلم ممن كذب على الله**﴾ بأن ادعى أن له ولداً أو شريكاً ﴿**وكذب بالصدق**﴾، وهو الرسول والقرآن ﴿**إذ جاءه**﴾؟ والمعنى لا أظلم من مثل هذا الشخص، وقد سبق، أن هذا الاستفهام، وكون من ذكر أظلم الناس، إنما هو إضافي لا حقيقي، ثم بين سبحانه مصير هؤلاء بقوله ﴿**أليس في جهنم مثوى**﴾ أي منزلاً، من ثوى بمعنى اتخذ المنزل، ومحل السكنى ﴿**للكافرين**﴾؟ والمعنى أن مثوى هؤلاء هو جهنم.

[٣٤] ﴿**والذي جاء بالصدق**﴾ أي بالأمر الذي هو صدق، كالرسول ﷺ الذي جاء بالقرآن صدقاً، وجاء بشريعة هي صادقة ﴿**و**﴾ الذي ﴿**صدق به**﴾ أي صدق بمن جاء بالصدق، كالمؤمنين الذين صدقوا بالرسول ﴿**أولئك هم المتقون**﴾ الذين اتقوا عذاب الله ونكاله، بأن أطاعوه فيما أمر ونهى.

[٣٥] ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الرسول والمؤمنين ﴿**ما يشاؤون**﴾ من أنواع النعيم والملذات الجسمية والروحية ﴿**عند ربهم**﴾ أي في الجنة، وقد سبق، أن كونه عند الله، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فهناك موضع اختاره الله سبحانه، فقريب من رضاه وفضله ﴿**ذلك**﴾ الذي أن يكون لهم ما يشاءون ﴿**جزاء المحسنين**﴾ الذين أحسنوا في العقيدة والعمل.

لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ

---

[٣٦] وإنما «لهم ما يشاءون» لأن الله سبحانه يريد أن يحقق لهم فضلاً وكرامة ﴿**ليكفر الله عنهم**﴾ أي عن هؤلاء المحسنين ﴿**أسوأ الذي عملوا**﴾ المراد كل سيئة، فإنها أسوأ من حسناتهم، إما بتجريده من معنى التفضيل، أو بالمقايسة العرفية، يقال، الزنى أسوأ من النكاح، يراد أحد الأمرين، إما بمعنى أن الزنى يسيء دون النكاح، أو بمعنى أن العرف يرى، أن الزنى، أسوأ من النكاح ـ فيما يرى كليهما شيئاً ـ ، ومعنى «التكفير» الحبط والمحو ﴿**ويجزيهم أجرهم بأحسن**﴾ أي بمقابل أحسن ﴿**الذي كانوا يعملون**﴾ والمراد بـ «الذي» الجنس، أي أحسن الأعمال التي كانوا يعملونها، وهذا كالسابق أيضاً، فالمراد جزاؤهم بكل حسنة، وفي الأحسنية، الاحتمالان، فالله سبحانه يجزي المحسنين، بما يشاؤون لتحقيق تكفير خطاياهم وجزاؤهم بحسناتهم.

[٣٧] وقد كان المشركون يخوفون الرسول، بأنه إن استمر في دعوته أصابه منهم ومن آلهتهم المكروه، فرد الله عليهم بقوله ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ استفهام للإنكار، أي أن الله يكفي عبده، كل ما أهمه، فلا يمكن الأعداء من الوصول إليه ﴿**ويخوفونك**﴾ يا رسول الله ﴿**بالذين من دونه**﴾ أي بالأصنام، وعبدتها الذين هم دون الله، فقد كانوا يقولون للرسول، إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا لأنك تعيبها ﴿**ومن يضلل الله**﴾ بأن يترك لطفه الخاص عنه، بعد أن أراه الطريق، فانحرف

فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٧﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿**فما له من هاد**﴾ يهديه سبل الرشاد، إذ الهداية خاصة به سبحانه، وهي هدايتان ظاهرة، وقد أعرضوا عنها، وخفية، والله منعهم إياها، حيث رأى إعراضهم عن الهداية العامة.

[٣٨] ﴿**ومن يهد الله**﴾ بأن لطف به ألطافه الخاصة، بعد أن جاء في الطريق بمجرد الهداية العامة ﴿**فما له من مضل**﴾ أي لا أحد يتمكن من إضلاله، لأن لطف الله يرعاه ﴿**أليس الله بعزيز**﴾ يعز من سلك طريقه فلا يقوى أحد على إضلاله بعد أخذ الله بيده ﴿**ذي انتقام**﴾ ممّن انحرف عن الجادة، وانتقامه منه أن يتركه في الدنيا ضالاً لا يعتني به، وفي الآخرة يذيقه من النار، والاستفهام للإنكار، يعني أن الله عزيز منتقم.

[٣٩] ثم يأتي السياق لعدة مباحثات مع المشركين حول شركهم ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي سألت يا رسول الله هؤلاء المشركين ﴿**من خلق السماوات والأرض**﴾ هل الله أم شركاؤكم؟ ﴿**ليقولن**﴾ في الجواب ﴿**الله**﴾ خلقهما، لأنهم، لايتجرؤون أن يقولوا أن الأصنام خلقتهما ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم، بعد أن اعترفوا بأن الله خلق السماوات والأرض ﴿**أفرأيتم**﴾ أي أخبروني هل إن الله إذا أضرَّ أو نفع، الأصنام تقدر على خلاف ذلك؟ وطبيعي أن الجواب: لا، إذاً فما شأن الأصنام في الكون، أو في نفس الإنسان، حتى يتخذها الإنسان آلهة؟ ﴿**ما تدعون من دون الله**﴾ أي الأصنام التي

إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

تدعونها، سوى الله ﴿**إن أرادني الله بضر**﴾ أي قصد الله إضراري، بمرض أو فقر أو بلاء ﴿**هل هن**﴾ أي الأصنام، والإتيان بضمير العاقل، لتوحيد السياق بين كلام الكفار الذين اعتقدوا، أن الأصنام عقلاء، وبين كلام القرآن في المناقشة معهم ﴿**كاشفات ضره**﴾ أي دافعات للضر الذي جاء من قبل الله تعالى؟ ﴿**أو أرادني**﴾ الله ﴿**برحمة**﴾ من غنى أو صحة، أو أمن، أو جاه، أو نحوها ﴿**هل هن**﴾ أي الأصنام ﴿**ممسكات رحمته**﴾ بأن تقدر على أن تمانع الله حتى لا يتمكن سبحانه من الرحمة والفضل؟ وإذا أجاب الكفار بالنفي، كان المجال لأن يقال لهم، إذاً فما فائدة الأصنام حتى يعبدها الإنسان؟ ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، إذن، ﴿**حسبي الله**﴾ أي يكفيني الله عن غيره من الآلهة، فلا أعبد إلا إياه ﴿**عليه**﴾ أي على الله ﴿**يتوكل المتوكلون**﴾ أي أن اللازم، أن يتوكل عليه من يريد التوكل، ويفوض أمره إليه دون سواه.

[٤٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء القوم ﴿**يا قوم**﴾ إذا لم تقبلوا عظتي، فـ ﴿**اعملوا**﴾ أنتم ﴿**على مكانتكم**﴾ أي حالكم الذي أنتم عليه، وهذا تهديد، كما تقول للمجرم، إعمل ما شئت، والمراد سترى جزاؤك السيئ ﴿**إني عامل**﴾ على مكانتي ﴿**فسوف تعلمون**﴾ في الدنيا أو الآخرة.

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤٢﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

[٤١] ﴿**من يأتيه عذاب يخزيه**﴾ أي يذله ويهينه؟ هل هو أنا أم أنتم؟ ﴿**ويحل عليه عذاب مقيم**﴾ في الآخرة، ولعل المراد، بـ «عذاب يخزيه» عذاب الدنيا.

[٤٢] إن إيمان المؤمن يعود نفعه على نفسه، وضلال الكافر يعود ضرره على نفسه، فلا يهمك يا رسول الله، من ضل بعد إتمام الحجة ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**للناس**﴾ أي لهداية الناس ﴿**بالحق**﴾ أي إنزالاً بالحق، فلم يكن إنزالاً بالباطل، أو لأجل الباطل، ﴿**فمن اهتدى**﴾ بالقرآن ﴿**فلنفسه**﴾ أي تعود فائدة هدايته إلى شخصه ﴿**ومن ضل**﴾ وانحرف عن الطريق ﴿**فإنما يضل عليها**﴾ أي على ضرر نفسه، إذ تعود عقوبة الضلال على نفسه ﴿**وما أنت**﴾ يا رسول الله ﴿**عليهم**﴾ أي على الناس، أو على من ضل ﴿**بوكيل**﴾ حتى تكون مسؤولاً، عمن لم يقبل الهداية، وإنما أنت مبلغ ومنذر.

[٤٣] إن الخلق بيد الله، وإيصال الضرر والنفع منه ـ كما مرّ ـ والإماتة بإذنه، فما يكون بعد ذلك شأن الأصنام، التي يعبدونها هؤلاء؟ ﴿**الله يتوفى الأنفس**﴾ أي يميتها، و «توفى» متعد، ولذا، فالمتوفي بصيغة الفاعل هو الله، والمتوفي بصيغة المفعول هو الإنسان ﴿**حين موتها**﴾ أي حين الموت المقدر لها، وانقضاء أجلها، والمراد بالأنفس، هي

وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ

الإنسان، لا نفس الإنسان ـ بمعنى روحه ـ حتى يقال، إن الروح لا تموت ﴿**والتي**﴾ أي النفس ﴿**لم تمت في منامها**﴾ بأن كان الإنسان نائماً، ولم يخرج روحه الذي به الحياة بعد، فإنه في قبضة الله، فإذا شاء أماته، بأن لا يرسل روحه الذي أخذه، وإن شاء أرسله حتى يستيقظ، ومن المعلوم، أن الروح الذي أخذه سبحانه عند المنام، هو ما به من الحس والعقل، فإذا شاء موته، أخذ بقية الروح أيضاً، وإن شاء عدم موته، أرسل المقدار الذي أخذه ﴿**فيمسك التي**﴾ أي النفس التي ﴿**قضى**﴾ الله وحكم ﴿**عليها الموت**﴾ فلا يعيدها إلى البدن ﴿**ويرسل**﴾ الله النفس ﴿**الأخرى**﴾ التي لم يقض عليها الموت لأن تبقى في البدن ﴿**إلى أجل مسمى**﴾ أي مدة محدودة، قد سميت في اللوح المحفوظ ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي ذكر من الإماتة للإنسان اليقظ، والإماتة للإنسان النائم، وإرجاع الروح إلى بعض النائمين ليبقى حياً إلى مدة محدودة مقدرة ﴿**لآيات**﴾ دلالات على وجود الله ﴿**لقوم يتفكرون**﴾ وإلا فمن أمات الإنسان في اليقظة؟ ومن أمات بعض النائمين؟ ومن أعاد الروح لبعض النائمين حتى يقوم؟ وقوله «والتي لم تمت» عطف على «الأنفس» من باب عطف الخاص على العام، وإنما جاء بهذا العطف تمهيداً للتفصيل الذي ذكره بعد.

[٤٤] فالأصنام، إذن لا شأن لها في الكون، بقي للمشركين أن يقولوا، أنهم يعبدونها، لأجل أنها تشفع لهم يوم القيامة ﴿**أم اتخذوا من دون الله**

شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ

شفعاء﴾؟ أي قالوا بأنها شفعاؤهم، ومعنى من دون الله، أن الشفاعة لله مسلمة، فهم إنما اتخذوا غيره شفيعاً ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، في رد هذه الحجة ﴿**أو لو كانوا**﴾ أي الأصنام ﴿**لا يملكون شيئاً**﴾ من أمر الشفاعة ﴿**ولا يعقلون**﴾؟ يعني حتى في هذه الصورة تعتبرون الأصنام شفعاء؟ والإتيان بضمير العاقل للأصنام، لتوحيد السياق، مع كلام المشركين.

[٤٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**لله الشفاعة جميعاً**﴾ فأمرها بيده، ليس لأحد، فإذا شاء أن يشفع لأحد أمر نبياً أو إماماً أو صالحاً أن يشفع ﴿**له ملك السماوات والأرض**﴾ ومن جملة أملاكه ملكه للشفاعة، فلا يغتر القوم، بأن يعبدوا الأصنام بزعم الشفاعة ﴿**ثم إليه ترجعون**﴾ أيها البشر، فهو المبدئ، وهو المعيد، وهو بيده الشفاعة وحده، حتى إن الأنبياء، ومن إليهم (وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى)[1].

[٤٦] ﴿**وإذا ذكر الله وحده**﴾ بأن لم يأت الذاكر بذكر غيره، من الأصنام ﴿**اشمأزت**﴾ الاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء، أي نفرت ﴿**قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ ممن كفروا بالله، وجعلوا له

---

(١) الأنبياء: ٢٩ .

وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٦) قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٧) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

شركاء، وإنما أتى بهذا الوصف للتلازم بين عدم الإيمان بالتوحيد وعدم الإيمان بالآخرة ﴿**وإذا ذكر**﴾ الأصنام ﴿**الذين من دونه**﴾ أي من دون الله ﴿**إذا هم يستبشرون**﴾ أي يفرحون، فإذا قال قائل «الله» نفروا، وإذا قال «اللات» فرحوا، وهذا عجيب إذ إنهم، كانوا يعبدون الله والشركاء ـ في زعمهم ـ فما الذي أوجب اشمئزازهم من «الله» ولم يوجب إلا فرحهم من «اللات» مثلاً؟.

[٤٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**اللّهم**﴾ أي ياالله، والميم عوض عن ياء النداء، يا ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾ أي يا خالقهما ومبدعهما، من فطر بمعنى خلق، يا ﴿**عالم الغيب**﴾ الذي غاب عن الحواس، سواء كان موجوداً غير محسوس، أو مما سيوجد ﴿**والشهادة**﴾ أي الشيء المشهود الحاضر، الذي يحس بالحواس ﴿**أنت تحكم بين عبادك**﴾ المؤمنين والمشركين ﴿**فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ من التوحيد والشرك، وسائر الأمور، فبيدك الخلق والمعاد، وأنت العالم بكل شيء، وفي هذا تعريض بالآلهة الباطلة، التي لا خلق لها ولا علم، ولا تملك من الإعادة شيئاً.

[٤٨] وهناك في القيامة لا ينفع الكفار شيء، فليتأهبوا لذلك اليوم من ها هنا قبل أن يبلسوا ﴿**ولو أن للذين ظلموا**﴾ أنفسهم بالكفر والعصيان

مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٨﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٩﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا

﴿**ما في الأرض**﴾ من الأموال والمعادن والثروات ﴿**جميعاً ومثله معه**﴾ وهذا من باب المثال، وإلا فعشرة أضعافه أيضاً بذلك الحكم ﴿**لافتدوا به**﴾ أي جعلوا مالهم بدلاً عن أنفسهم ﴿**من سوء العذاب يوم القيامة**﴾ ليفكوا أنفسهم من النار، ويخلصوها من العقاب، ولكن لو فُرض ذلك؟ هل كان ينفعهم؟ كلا ﴿**وبدا لهم**﴾ أي ظهر لهم هناك ﴿**من**﴾ طرف ﴿**الله**﴾ سبحانه ﴿**ما لم يكونوا يحتسبون**﴾ أي صنوفاً من العذاب لم يكونوا يظنون أن الله أعدها لهم، من كثرتها، وشدة ألمها ووقعها.

[٤٩] ﴿**وبدا لهم**﴾ أي ظهر لهم هناك ﴿**سيئات ما كسبوا**﴾ أي جزاء أعمالهم التي كسبوها، فكأنّ الجزاء سيئة لما عمل الإنسان ﴿**وحاق بهم**﴾ أي حل وأحاط بهم ﴿**ما كانوا به يستهزءون**﴾ فقد كانوا يستهزءون بالعذاب، ويوم القيامة ينزل بهم العذاب، الذي استهزءوا به وضحكوا منه.

[٥٠] ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم يتذكرون الله عند الشدة، فإذا تفضل عليهم بالرخاء نسوه، ونسبوا الفضل إلى ذكائهم الشخصي وعلمهم ﴿**فإذا مس الإنسان ضر**﴾ من مرض، أو فقر، أو بلاء، أو عدو، أو ما أشبه ﴿**دعانا**﴾ استغاث بنا لكشفه وإنقاذه منه ﴿**ثم إذا**﴾

خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ

استجبنا دعاءه و ﴿**خولناه**﴾ أي أعطيناه ﴿**نعمة منا**﴾ أي من طرفنا بأن بدلنا مرضه صحة، وفقره غنى، وهكذا ﴿**قال إنما أوتيته**﴾ أي أعطيت هذا الشيء المخول إلي، والمراد به النعمة ﴿**على علم**﴾ مني، ولا يرتبط بالتقدير، وإعطاء الله سبحانه، فقد أدت فطنتي وعملي إلى الحصول على هذا ﴿**بل هي**﴾ أي هذه النعمة ﴿**فتنة**﴾ امتحان واختبار، ليعرف بذلك قدر شكره، فليس حصوله بعلمه، وإنما أعطاه الله سبحانه ليمتحنه، هل يبقى على عهده الذي دعا الله فيه أم لا؟ فيجازيه حسب عمله ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ أي أكثر الناس ﴿**لا يعلمون**﴾ أن النعم من الله ـ لا من فطنتهم ـ وأنها للاختبار، لا مجرد نعمة فحسب.

[٥١] ﴿**قد قالها**﴾ أي قال مثل هذه الكلمة، وهي «إنما أوتيته على علم» كما سبق من كلام قارون ﴿**الذين من قبلهم**﴾ أي من قبل هؤلاء، فكل ضعيف الإيمان، إذا رأى النعمة ظنها من فطنته ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ أي أن كسبهم لم يغن عنهم، ولم يفدهم في دفع عذاب الله تعالى.

[٥٢] وإذ بطروا عند النعمة، ولم يُؤدّوا حقها وشكرها ﴿**فأصابهم**﴾ أي أولئك الذين من قبلهم ﴿**سيئات ما كسبوا**﴾ أي وصل إليهم عقاب أعمالهم السيئة، فإضافة «سيئات» إلى «ما» من باب إضافة الصفة إلى

وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الموصوف، أو أن المراد من «السيئات» العقاب، سمي سيئة، لمشاكلته للسيئة، مثل (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[1] ﴿**والذين ظلموا من هؤلاء**﴾ القوم المعاصرين للرسول ﴿**سيصيبهم سيئات ما كسبوا**﴾ كما أصاب أولئك الأقوام ﴿**وما هم بمعجزين**﴾ أي أنهم لا يتمكنون من إعجاز الله سبحانه، حتى لا يتمكن من أخذهم وعقابهم، لفرارهم من ملكه، أو امتناعهم من نفوذ إرادته فيهم.

[٥٣] إن هؤلاء يظنون أن النعمة، إنما أتتهم من علمهم وفطنتهم ﴿**أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء**﴾ أي يوسعه عليه ﴿**ويقدر**﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء، فليس لعلمهم مدخل في توسعة الرزق، ولذا نرى أناساً كثيرين لهم فوق فطنة أولئك، وذكائهم، ومع ذلك رزقهم ضيق لا وسعة فيه، كما نرى أناساً دون فطنتهم وعلمهم، ورزقهم أوسع من هؤلاء ﴿**إن في ذلك**﴾ البسط والضيق ﴿**لآيات**﴾ أي دلالات دالة على وجوده سبحانه ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ وإنما خصهم لأنهم المنتفعون بالآيات.

[٥٤] وإذ تبين خطأ هؤلاء، فإن الباب أمامهم مفتوح إذا أرادوا الدخول، وليس العاصي آيساً من رحمة الله، فإنه يقبل التائب مهما كان

---

(١) البقرة: ١٩٥.

قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن

عصيانه ﴿**قل**﴾ يا رسول الله للعصاة، تحكي لهم كلامي الذي وجهته إليهم ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ بارتكاب الكفر والآثام، والإسراف هو التعدي عن الحدود، فإن الكافر والعاصي يتعديان عن حدود العبودية، أمام الله سبحانه ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ أي لا تيأسوا من غفرانه وفضله، ف ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ لمن جاءه نادماً تائباً ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**هو الغفور**﴾ لذنوب عباده ﴿**الرحيم**﴾ بهم يتفضل عليهم بالرحمة فوق غفران ذنبهم.

[٥٥] ﴿**وأنيبوا**﴾ الإنابة، هي الرجوع عن الذنب، أي أيها العصاة، توبوا ﴿**إلى**﴾ الله ﴿**ربكم**﴾ وارجعوا إليه ﴿**وأسلموا له**﴾ أي انقادوا إليه بالطاعة، فيما يأمركم وينهاكم ﴿**من قبل أن يأتيكم العذاب**﴾ في الدنيا بالهلاك، أو في الآخرة في القبر، أو يوم القيامة ﴿**ثم**﴾ إذا جاء العذاب ﴿**لا تنصرون**﴾ أي لا ينصركم أحد من الأصنام، أو أصدقائكم العصاة.

[٥٦] ﴿**واتبعوا**﴾ أيها الناس ﴿**أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ فمثلاً أنزل الله إباحة المنام، واستحباب العبادة في الليل، فاتباع الأحسن، هو العبادة ـ في المثال ـ وهذا على سبيل الترغيب، لا الإلزام ﴿**من قبل أن**

﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾

يأتيكم العذاب بغتة﴾ أي فجأة بدون إنذار سابق **﴿وأنتم لا تشعرون﴾** به وبوقته، فإذا ترون أنفسكم فيه حيث لا مناص ولا خلاص، وعدم اتباع الأحسن لا يوجب ذلك، وإنما الموجب العصيان، فهذا مربوط بالآية السابقة، وإنما كرر «العذاب» لترتيب أمرين عليه، الأول أنهم لا يضرون، والثاني إتيانه بغتة حين لا يشعرون.

[٥٧] أنيبوا إلى الله وأسلموا قبل إتيان العذاب، حتى لا تتحسروا ـ إن بقيتم على الكفر والعصيان ـ لـ **﴿أن﴾** لا **﴿تقول نفس﴾** أي شخص، أو كراهة، أن تقول نفس **﴿يا حسرتى﴾** أي يا قوم لي الحسرة، أو ياحسرتي احضري، فهذا وقتك، والتحسر، هو التأسف على ما فات، والالف بدل من ياء المتكلم، قال ابن مالك:

واجعل منادي صح، أن يضف ليا
كعبد عبدي عبدَ عبدا عبديا

﴿على ما فرطت في جنب الله﴾ أي على تفريطي وتقصيري في إطاعة أمر الله سبحانه، والحال قد كنت عند الله سبحانه، وهذا كما يقول أحدنا: كنت إلى جنب العالم، ولم أتعلم منه، والله سبحانه منزه عن الجنب، ولكن قرب أحكام الدين والمرشدين إلى الإنسان، نُزلَّ منزلة القرب من الله تعالى تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، لتقريب الذهن، وهذا هو المراد مما ورد عن الباقر عليه السلام، أنه قال: «نحن جنب الله»[١].

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٤ ص١٧٩ .

وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ

﴿**وإن كنت لمن الساخرين**﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي يا حسرتي عليّ، إني كنت من المستهزئين بالرسول، وبأحكام الله.

[٥٨] ﴿**أو تقول**﴾ نفس ﴿**لو أن الله هداني**﴾ في الدنيا وأرشدني ﴿**لكنت من المتقين**﴾ فقد أراكم الله الطريق، حتى لا يكون لكم هذا العذر هناك.

[٥٩] ﴿**أو تقول**﴾ نفس ﴿**حين ترى العذاب**﴾ الذي يحيط بها ﴿**لو أن لي كرة**﴾ أي ليت لي رجوعاً إلى الدنيا ﴿**فأكون من المحسنين**﴾ حتى إذا مُت ثانيةً، لا أرى العذاب، فإنّا ننصحكم، بأن تنيبوا وتسلموا قبل أن تقولوا هذا القول، حيث لا ينفعكم، ويقال لكم (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)[١].

[٦٠] وحينذاك يقال لهذا المتحسر والمتمني ﴿**بلى**﴾ أي ليس كما قلت، فإن «بلى» تأتي غالباً لنفي ما تقدم، نحو (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[٢] فإنك، لا ترجع بعد أن ظهرت سيئاتك، حين ما أتاك الدليل والحجة فلم تقبل ﴿**قد جاءتك آياتي**﴾ على لسان الأنبياء والأئمة، فقد أوضحوا لك الحجج والأدلة ﴿**فكذبت بها**﴾ ولم تقبلها ﴿**واستكبرت**﴾ بأن استعليت

(١) المؤمنون: ١٠١ .

(٢) الأعراف: ١٧٣ .

وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦١﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾

على أن تقبلها ﴿**وكنت من الكافرين**﴾ بالله وبما أنزل.

[٦١] ﴿**ويوم القيامة ترى**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**الذين كذبوا على الله**﴾ فزعموا أن له شريكاً أو ولداً، أو أنه ليس بعادل، أو لم يرسل رسولاً، أو ما أشبه ﴿**وجوههم مسودة**﴾ شديدة السواد، فقد تكبروا هنا ـ ومظهر الكبر هو الوجه ـ وهناك يعاقب الوجه بهذا العقاب الظاهر، لكل رأس يذل صاحبه ويهينه ﴿**أليس في جهنم مثوىً**﴾ أي محل ثوي، وهو المنزل، من ثوى، إذ اتخذ المنزل والمسكن ﴿**للمتكبرين**﴾ استفهام يريد به الإنكار، أي أن جهنم مثواهم.

[٦٢] ﴿**وينجي الله الذين اتقوا**﴾ أي خافوا، فلم يكفروا، ولم يعصوا ﴿**بمفازتهم**﴾ المفازة مصدر ميمي، أي بسبب فوزهم، حيث أنهم قد فازوا في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ويكون لهم في الآخرة النجاة والفلاح من النار والعذاب ﴿**لا يمسهم السوء**﴾ أي العذاب والشدة ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ على ما يراد بهم، إذ لا حزن لهم.

[٦٣] ﴿**الله خالق كل شيء**﴾ فلا شريك له في خلق أو تكوين ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾ أي حفيظ حارس، فكما أن الوكيل يعمل للموكل،

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٥﴾

ويحفظ ما يتعلق به، كذلك الله سبحانه يربي كل شيء ويكلؤه، بحراسته وحفظه، فليس للأصنام خلق ولا حفظ.

[٦٤] **﴿له مقاليد﴾** جمع مقلاد، وهو المفتاح **﴿السماوات والأرض﴾** فمفتاح كل شيء بيده، مثلاً: مفتاح المطر الريح، ومفتاح النبات المطر، ومفتاح المرض السموم، وهكذا، فإن كل شيء بيده مفتاحه، وهذا كناية عن أن الأمور الكونية، كلها بيده، وليس للأصنام شيء **﴿والذين كفروا بآيات الله﴾** دلائله وحججه، بأن أنكروه، أو جعلوا له شريكاً **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** الذين يخسرون دنياهم وآخرتهم، أما الدنيا، فإن لهم فيها معيشة ضنكاً، وأما الآخرة، فإن لهم فيها النار.

[٦٥] **﴿قل﴾** يا رسول الله لهؤلاء الذين يعيبون عليك توحيدك لله سبحانه **﴿أفغير الله تأمروني أعبد﴾** أصله «تأمرونني» ثم أدغمت نون الوقاية في نون الجمع **﴿أيها الجاهلون﴾** فأنتم تريدون، أن أشرك بالله، كما أشركتم، وهذا جهل بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، والأصنام جهل بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، والأصنام ليست بشيء؛ فإن مستواها أنزل من مستوى نبتة صغيرة، فكيف تجعلونها شريكة الله.

[٦٦] ثم أكد الله سبحانه شأن التوحيد، حتى أن كل أحد أشرك حبط عمله، ولو كان نبياً، وقد تقرر في الأدب والمنطق، أن صدق الشرطية بصدق التلازم، وإن استحال خارجية أحد الطرفين، كما لو قلت: لو جمع

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٦﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٦٧﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ

النقيضان تغير وجه العالم، فإن كلا من جمع النقيضين، وتغير وجه العالم، هكذا، مستحيل، إلا أن القضية صادقة للتلازم، ومن هذا الباب قوله سبحانه ﴿**ولقد أوحى إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**وإلى الذين من قبلك**﴾ من الأنبياء والرسل ﴿**لئن أشركت**﴾ بالله، ودعوت معه غيره ﴿**ليحبطن عملك**﴾ وحبط العمل بطلانه، بأن لا يكون له ثواب، أي لم يكن لك أجر على أعمالك الحسنة ﴿**ولتكونن**﴾ حين أشركت ﴿**من الخاسرين**﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، دنياهم وآخرتهم، وتوجه الخطاب إلى الرسول، وسائر الرسل، لتنبيه الناس، بأن الأمر هكذا، حتى بالنسبة إلى أعظم الناس.

[٦٧] ﴿**بل الله**﴾ وحده ﴿**فاعبد**﴾ يا رسول الله ﴿**وكن من الشاكرين**﴾ لنعمائه.

[٦٨] ﴿**وما قدروا الله**﴾ أي الكفار ﴿**حق قدره**﴾ أي ما عظموه حق عظمته، حيث جعلوا له شريكاً، وأنكروا قدرته على البعث، والحال أنه قادر على كل شيء ﴿**والأرض جميعاً**﴾ بجميعها، وجميع ما فيها ﴿**قبضته**﴾ والقبضة هي ما قبضت عليه بجميع كفك ﴿**يوم القيامة**﴾ أي أن يوم القيامة تكون الأرض تحت قدرته سبحانه، كالشيء الذي في قبضة الإنسان ﴿**والسماوات مطويات بيمينه**﴾ أي ملفوفات بعضها حول

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

بعض، وكلها في يده اليمنى، وإنما قال «بيمينه» لأن اليمين أقدر على القبض، وهذا من باب التشبيه، يعني أن الكون كله تحت قدرته القوية، حتى أن السماوات بالنسبة إليه، كالثوب المطوي، في يد أحد أفراد الإنسان، وأن الأرض بالنسبة إليه، كالشيء المقبوض في الكف، وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس للتقريب إلى الذهن، كما يقال: أن المملكة خاتم في إصبع فلان، يراد قدرته الزائدة على إدارتها، كقدرة الشخص على إدارة خاتمه، وإنما قال «يوم القيامة» مع أن السماوات والأرض، هكذا، بالنسبة إليه، قبل ذلك؟ لأن الكلام حول قدرة الله سبحانه، على إعادة الأرواح إلى الأجساد، في ذلك اليوم، فالآية بصدد أن قدرته تعالى في ذلك اليوم، بهذا القدر الهائل، فكيف لا يقدر على بعث الناس، وقد فهم _بالتلازم_ بطلان الشركاء، إذ الكون كله تحت قدرته وحده بلا شريك ولا ظهير ﴿**سبحانه**﴾ أي أسبحه سبحاناً، وأنزهه تنزيهاً ﴿**وتعالى**﴾ أي أنه رفيع، فإن الفعل منسلخ عن معنى الماضي، كما في سائر صفات الذات ﴿**عما يشركون**﴾ أي عن الأصنام، التي يشركونه بها.

[٦٩] ﴿**ونفخ في الصور**﴾ قد تقرر في البلاغة، أن المضارع المتحقق وقوعه، يؤتى بصيغة الماضي، لإفادة أنه لمعلومية وقوعه، كأنه قد وقع وانقضى، والصور بوق ينفخ فيه إسرافيل مرتين، مرة علامة لانقضاء العالم، ورحيل الجميع منه إلى الآخرة، وبذلك يموت الناس كلهم، ومرة علامة، لابتداء عالم الآخرة، وبذلك يحيى الناس كلهم، وهذا كالذي يصنعه أمير القافلة، حين إرادة الرحيل، وإرادة النزول، من النفخ في البوق، والمراد بهذا النفخ هنا هو الأول

فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٩﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ

﴿**فصعق**﴾ أي مات ﴿**من في السماوات**﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿**ومن في الأرض**﴾ من أفراد البشر وغيرهم ﴿**إلا من شاء الله**﴾ كالأملاك الأربعة، جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وغيرهم، والتفصيل في كتاب «البحار» ﴿**ثم نفخ فيه**﴾ أي في الصور نفخة ﴿**أخرى**﴾ حين إرادة ابتداء القيامة، والشروع في العالم الآخر ﴿**فإذا هم**﴾ أي البشر والملائكة، وغيرهم ﴿**قيام**﴾ أي قائمون من قبورهم، وهو جمع «قائم» ﴿**ينظرون**﴾ إلى المحشر، منتظرين ماذا يفعل بهم؟ وقوله «فإذا هم» للدلالة على سرعة قيامهم عقيب النفخة، فإن الإحياء فجائي.

[٧٠] ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها**﴾ أي بعدله سبحانه، كما يقال: أشرق البلد بنور فلان إذا أخذ بالزمام، حيث أنه يعدل ويحسن في مقابل سالف الأيام، التي كانت الأرض مظلمة، بظلم الظالمين ﴿**ووضع الكتاب**﴾ أي وضعوا الكتاب في الوسط، وهو كتاب أعمال العباد، وكأنه كان قبل ذلك في زاوية بعيدة، ثم أتى به للمحاسبة، وهذا كما يقال للمحاسب: ضع الدفتر حتى نحاسب، والكتاب اسم جنس يشمل كتب الخلائق كلهم ﴿**وجيء**﴾ في ساحة المحاكمة ﴿**بالنبيين والشهداء**﴾ جاء بهم الله سبحانه، ليحاكموا الأمم، ويشهدوا عليهم،

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ

فالمراد بالشهداء الذين يشهدون على العباد بما عملوا، وهم صالحوا كل أمة، إذ كانوا في وسط الأمة ناظرين إلى أعمالهم، فيشهد الصالح الفلاني، بأن القوم، كانوا يضلون، والصالح الفلاني، بأن القوم كانوا يشربون الخمر، وهكذا ﴿**وقضي بينهم**﴾ أي حكم الله، ومن جعله حاكماً هناك «بينهم» أي بين الناس ﴿**بالحق**﴾ والعدل بإعطاء كل ذي حق حقه، بلا حيف ولا جور ﴿**وهم**﴾ أي الخلق ﴿**لا يظلمون**﴾ في الحكم بأن ينقص من حق، أو يزاد اعتباطاً.

[٧١] ﴿**ووفيت**﴾ أي أعطيت وافياً ﴿**كل نفس ما عملت**﴾ أي يعطى كل إنسان حسب أعماله وافياً، فالمحسن يوفّى بالإحسان، والمسيئ بالنكال ﴿**وهو**﴾ سبحانه ﴿**أعلم بما يفعلون**﴾ في الدنيا، فيجازيهم حسب ما علم، بلا تغيير أو خطأ، أو زيادة ونقيصة.

[٧٢] ﴿**و**﴾ بعد تمام الحساب ﴿**سيق الذين كفروا**﴾ ساقهم الملائكة بالجبر والعنف ﴿**إلى جهنم زمراً**﴾ جمع زمرة، وهي الفوج، أي يساقون زمرة فزمرة، وفوجاً ففوجاً، كل فوج مشتمل على متشابهي الأعمال، كالزناة والمقامرين، وهكذا ﴿**حتى إذا جاؤوها**﴾ أي وصلوا إلى جهنم ﴿**فتحت أبوابها**﴾ لهم، وهي سبعة أبواب، حتى يدخل كل فوج من الباب، المناسب بحالهم والمقرر لهم ﴿**وقال لهم**﴾ أي لأولئك الكفار

خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٢﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿**خزنتها**﴾ جمع خازن، وهو الموكل بالشيء، أي الموكلون بجهنم ﴿**ألم يأتكم**﴾ أيها المجرمون ﴿**رسل منكم**﴾ أي من جنسكم ﴿**يتلون عليكم**﴾ أي يقرءون على مسامعكم ﴿**آيات ربكم**﴾ أدلته وحججه ﴿**وينذرونكم**﴾ أي يخوفونكم ﴿**لقاء يومكم هذا**﴾ أي من مشاهدة هذا اليوم وعذابه، وهذا الاستفهام منهم، إنما هو على وجه التقريع والتبكيت، وإلا فالخزنة يعلمون ذلك ﴿**قالوا**﴾ أي قال الكفار في جواب الخزنة ﴿**بلى**﴾ قد جاءتنا رسل ربنا، وخوفونا من هذا اليوم ﴿**ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين**﴾ فإنا قد كفرنا، فثبت في حقنا ما قاله سبحانه، بأن من كفر يعاقب بالنار، وهذا، كما يقول أحدنا «هكذا مصيري» في يأس وانقطاع، وإنما لم يقولوا «علينا» مكان «على الكافرين» لإفادة، أن سبب عذابهم، هو كفرهم، فهو حكم مع ذكر العلة.

[٧٣] وحينذاك ﴿**قيل**﴾ والقائل الخزنة ﴿**ادخلوا أبواب جهنم**﴾ أي ادخلوها من أبوابها ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في حال كونهم باقين فيها أبد الآبدين ﴿**فبئس**﴾، هذا المحل ـ في جهنم ـ ﴿**مثوى**﴾ أي محل إقامة ﴿**المتكبرين**﴾ الذين تكبروا في الدنيا عن الحق، حتى صاروا إلى هذا المكان.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٤﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ

[٧٤] ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم**﴾ أي خافوا في الدنيا عذابه، فأطاعوه، فيما أمر ونهى، وإنما يساقون بإكرام وإعظام ﴿**إلى الجنة زمراً**﴾ زمرة فزمرة، كل فوج في أشكالهم، فالمصلون صلاة الليل زمرة، والتالون للقرآن زمرة، وهكذا ﴿**حتى إذا جاءوها**﴾ أي وصلوا إليها ﴿**وفتحت أبوابها**﴾ ليدخل كل فوج من الباب المناسب لعمله المعدّ له، وللجنة ثمانية أبواب والإتيان بالواو في «وفتحت» دون «فتحت» في الآية السابقة للتفنن الذي هو نوع من البلاغة ﴿**وقال لهم**﴾ أي لأهل الجنة ﴿**خزنتها**﴾ جمع خازن، وهو الموكل بالشيء ﴿**سلام عليكم**﴾ إما بقصد التحية، وإما بمعنى، أن السلامة من الآفات والبليات عليكم، تظللكم دائماً، ولذا لم يقل «لكم» فإن «على» تفيد معنى الإحاطة والشمول ﴿**طبتم**﴾ أي صرتم طيبين هنا بسبب أعمالكم الطيبة في دار الدنيا ﴿**فادخلوها**﴾ أي ادخلوا الجنة، من أبوابها ﴿**خالدين**﴾ أي في حال كونكم، دائمين فيها أبد الآبدين، لا خروج لكم عنها، وكان الإتيان بواو العطف في الجملتين، لإيجاد فراغ في الذهن، حتى يبقى منتظراً لأصناف الكرامة، وألوان اللذة، فليس الأمر ينتهي بقول الخزنة، وإنما، لـ «حتى» جواب طويل عريض باق مدى الأبد.

[٧٥] ﴿**وقالوا**﴾ أهل الجنة بعد دخولها ﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾ أي

وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

صدق في وعده لنا بأنا إن عملنا صالحاً أدخلنا الجنة ﴿**وأورثنا الأرض**﴾ أي أرض الجنة، نقلها إلينا، كالميراث الذي ينقل إلى الوارث، ولعل التعبير بلفظ الأرض، لبيان أنهم جازوا أرض الجنة، وغرفها، حيث قالوا بعد ذلك ﴿**نتبوأ من الجنة حيث نشاء**﴾ أي نأخذ المنزل من قصورها، أيّ محل شئنا فما هو مقدر لنا ـ وفي ذلك إشارة إلى سعة قصورهم، وأرض الجنة لكل إنسان ـ و «نتبوأ» من «تبوّأ» بمعنى اتخذ المنزل، أصله «باء» إذا رجع، إذ المنزل مرجع الإنسان، كلما خرج عاد إليه ﴿**فنعم أجر العاملين**﴾ بالخيرات، الجنة.

[٧٦] ﴿**وترى**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**الملائكة حافين من حول العرش**﴾ قد أحاطوا بعرش الله سبحانه، والعرش هو موضع جعله الله سبحانه محلاً تشريفياً، أحاطه بعنايته ولطفه، وجعله مصدر أمره ونهيه، كما أن البيت الحرام في الدنيا محل تشريفي له سبحانه، ذاك بالنسبة إلى الملائكة، وهذا بالنسبة إلى البشر، ويلتذ المؤمنين بهذه الرؤية، كمن يلتذ إذا نظر إلى قصر الملك المحاط بالجيش، ورجال التشريفات، فإن الإنسان يتقوى روحياً إذا نظر إلى محل القوة والعزة، وهم ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به بسبب الحمد، فإذا قال الإنسان «سبحان الله» كان تنزيهاً فقط، أما إذا قال «الحمد لله» كان تحميداً وتنزيهاً، فإن وصف الممدوح بالجميل، حمد وتنزيه له عن القبيح، بخلاف التنزيه عن القبيح، فإنه ليس حمداً ـ

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾

كما مر ـ ﴿**وقضى بينهم**﴾ أي بين الناس ﴿**بالحق**﴾ وهذا كموجز لما تقدم للتركيز عليه ﴿**وقيل**﴾ والقائل كل من هنالك ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ وهذا هو منتهى أهل التقوى في الدنيا، وأكرم به من عاقبة جميلة.

٤٠

سُورة غافر

مكية/آياتها (٨٦)

وتسمى أيضاً بسورة «المؤمن» لاشتمالها على لفظي «غافر» و «مؤمن»، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، الألوهية، والرسالة، والمعاد، ولما ختمت سورة «الزمر» بالحمد لله رب العالمين، ابتدأت هذه السورة بذكر صفاته سبحانه، التي بها استحق الحمد.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله، المستجمع لجميع صفات الكمال، شعاراً للمؤمن في مقابل شعار الكفار الذين كانوا يبتدئون «باسم اللات» ونحوه، وشعار النصارى الذين يبتدئون باسم «الأب والإبن وروح القدس» وهكذا سائر الكفار والمنحرفين، وقد اعتادوا في زماننا أن يقولوا «باسم الشعب» في الحكومات الديمقراطية.. ﴿**الرحمن الرحيم**﴾، وصفان من مادة واحدة، إفادة لقوة الرحمة، في ذاته سبحانه، كما قال (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[١].

(١) الأعراف: ١٥٧ .

حمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

[٢] ﴿**حم**﴾ «حاء» و «ميم» وجنسهما من سائر حروف الهجاء، هي مادة هذا القرآن الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله، أو هو رمز بين الله ورسوله، أو أن معناه، الحميد المجيد، فهو ابتداء بعد البسملة، باسمين من أسمائه سبحانه، على طريق الرمز، أو غير ذلك.

[٣] ﴿**تنزيل الكتاب**﴾ أي هذا هو إنزال القرآن ﴿**من**﴾ قبل ﴿**الله العزيز**﴾ الغالب سلطانه ﴿**العليم**﴾ الذي يعلم كل شيء، فيعلم الصالح من غيره، أو أن «تنزيل الكتاب» مبتدأ «من الله» خبره.

[٤] ﴿**غافر الذنب**﴾ صفته، لـ «الله» أي أنه سبحانه يغفر ذنوب عباده، وهذا على نحو القضية الطبيعية، لا أن معناه أنه سبحانه، يغفر كل ذنب ﴿**وقابل التوب**﴾ جمع توبة، كدوم جمع دومة، أو مصدر من تاب يتوب توباً، والمعنى إن من تاب ورجع إليه سبحانه، قبل توبته، ولم يرده عن بابه خائباً ﴿**شديد العقاب**﴾ لمن كفر وعصى ﴿**ذي الطول**﴾ الطول هو الإنعام الذي تطول مدته ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له ﴿**إليه المصير**﴾ أي المرجع في المعاد، فهو إله واحد له الفضل، يغفر لمن استغفره، ويعاقب من عصاه، وبيده العاقبة.

[٥] وإذ كان الإله واضحاً وجوده وصفاته، من الآيات الكونية، فإنه ﴿**ما يجادل في آيات الله**﴾ الدالة على وجوده وصفاته ﴿**إلا الذين كفروا**﴾

فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٥﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ

فإنهم يخاصمون حول أصل وجود الإله، أو صفاته، وإلا فالمنصف لابد وأن يستدل من الآيات الكونية على وجوده سبحانه ﴿**فلا يغررك**﴾ يارسول الله ﴿**تقلبهم**﴾ أي تقلب الكفار وتصرفهم ﴿**في البلاد**﴾ بالعزة والتجارة، بأن يوجب هذا التصرف للمشاهد شكاً في أنه لو كان هناك إله لأخذهم أخذ مقتدر، وضيّق عليهم المسالك، فهو يغتر، ويخدع ـ عن الحقيقة ـ بهذا التقلب والتصرف، فالخطاب، وإن كان حسب الظاهر متوجهاً إلى الرسول، إلا أنه في الحقيقة لإيقاظ الناس عامة، أو أن المخاطب هو العام، أي «لا يغررك أيها الناظر إلى الكفار».

[٦] فإنهم إنما يتقلبون بمهلة الله لهم حتى يستنفدوا كل أمرهم، وتظهر ضمائرهم، وهناك الأخذ الشديد، كما كان يفعل سبحانه بالأمم السابقة، فقد ﴿**كذبت قبلهم**﴾ أي قبل كفار مكة ﴿**قوم نوح**﴾ رسولهم نوحاً عليه السلام ﴿**و**﴾ كذبت ﴿**الأحزاب**﴾ أي الأمم الذين تحزبوا على الرسل، رسلهم ﴿**من بعدهم**﴾ أي من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وقوم لوط وقوم إبراهيم، وغيرهم ﴿**وهمت**﴾ أي قصدت ﴿**كل أمة**﴾ من تلك الأمم المكذبة ﴿**برسولهم**﴾ قصد سوءٍ ﴿**ليأخذوه**﴾ أي يأخذوا الرسول، للحبس أو القتل أو النفي ﴿**وجادلوا بالباطل**﴾ أي خاصموا رسلهم بمجادلات ومحاورات باطلة، حول الألوهية والرسالة والمعاد ﴿**ليدحضوا**﴾ أي يبطلوا ﴿**به**﴾ أي بسبب الجدال الباطل ﴿**الحق**﴾

فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

الذي أتى به الأنبياء ﴿**فأخذتهم**﴾ أي أخذت تلك الأمم بالعقاب، بعد أن لم يبق رجاء في هدايتهم ﴿**فكيف كان عقاب**﴾ أي عقابي لهم؟ وحذف ضمير المتكلم تخفيفاً، وهذا تهديد لكفار مكة، بأنهم، إن تمادوا في غيهم، كان مصيرهم، كمصير أولئك الأقوام، والاستفهام تقريري للإيقاظ والإلفات.

[٧] ﴿**و**﴾ كما ثبتت كلمة العذاب على أولئك الأمم الذين كذبوا الرسل ﴿**كذلك حقت كلمة ربك**﴾ أي ثبتت كلمة ربك بالعذاب، بأن قال «سأعذبهم» وستنطبق هذه الكلمة عليهم ﴿**على الذين كفروا**﴾ من أهل مكة، يا رسول الله ﴿**أنهم أصحاب النار**﴾ إما بمعنى، لأنهم أصحاب النار، فلذا ثبت في حقهم عذاب الدنيا، أو «أنهم» تأكيد «حقت» فيكون التشبيه في «كذلك» من حيث أصل العذاب، وإن كان المراد بالعذاب في الأمم السابقة عذاب الدنيا والآخرة، وفي هذه الأمة في الآخرة فقط.

[٨] إن أقرب الملائكة إلى الله سبحانه منزلة هم مؤمنون بالله، فكيف لايؤمن هؤلاء؟ وأنهم يستغفرون للمؤمنين، فمن آمن فاز باستغفارهم، فليستبشر المؤمنون ﴿**الذين يحملون العرش**﴾ وهم جماعة من الملائكة، خلقهم الله سبحانه، واضعين العرش على أكتافهم، زيادة في الهيبة والجلال، كما لو شاهد الإنسان سرير ملك محمولاً على جماعة من الأشراف، ومن الواضح أن الملائكة

وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨﴾

لا يتأذون بذلك، كما أن العرش إنما هو محل شرّفه الله سبحانه، لا أنه محله؛ فإنه منزه عن المكان ﴿**ومن حوله**﴾ أي حول العرش من الملائكة ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ أي ينزهون الله سبحانه، تنزيهاً بالمدح، فإن من قال زيد ـ مثلاً ـ شجاع كان حامداً له ومنزهاً له عن الجبن، بخلاف من قال أنه ليس بجبان، فإنه تنزيه فقط ﴿**ويؤمنون به**﴾ أي بربهم معترفين بوحدانيته، وسائر صفاته، ولعل تأخير الإيمان، عن التسبيح لأجل أن فيهم أظهر، فإذا رآهم أحد، سمع منهم التسبيح، أما الإيمان فإنه يعلم بالملازمة ﴿**ويستغفرون**﴾ أي يطلبون من الله الغفران ﴿**للذين آمنوا**﴾ من أهل الأرض، بأن يغفر الله لهم زلاتهم، وما أسلفوا من الكفر والعصيان، ويقولون، إذ يريدون الاستغفار للمؤمنين، يا ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة**﴾ أي وسعت رحمتك كل شيء، فارحم المؤمنين واغفر لهم ﴿**وعلماً**﴾ فإنك تعلم أنهم مطيعون، وإنما يزلهم الشيطان، أو المراد، نطلب منك الغفران على علمك بزلاتهم، كما يقال «على علمك فاعف» يعني مع أنك عالم نطلب العفو، في مقابل طلب العفو من الذي لا يعلم، فإنه أسرع عفواً، إذ لا يعلم بالتفاصيل ﴿**فاغفر**﴾ يا الله ﴿**للذين تابوا**﴾ عن الكفر والعصيان ﴿**واتبعوا سبيلك**﴾ أي طريقك الذي هو الإسلام ﴿**وقهم**﴾ أي واحفظهم، من «وقى» «يقي» والأمر «ق» فالواو عاطفة ﴿**عذاب الجحيم**﴾ حتى لا يعذبوا بها.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

---

[٩] يا ﴿**ربنا وأدخلهم**﴾ أي أدخل المؤمنين ﴿**جنات عدن**﴾ أي بساتين إقامة، من «عدن» إذا أقام ﴿**التي وعدتهم**﴾ على ألسنة الأنبياء، ولعل هذا الدعاء بمعنى أثبتهم على الإيمان حتى يدخلوا الجنان، وإلا فالله سبحانه، يفي بوعده حتماً، فلا حاجة إلى الطلب، أو أنه على طريق الضراعة والانقطاع ﴿**و**﴾ أدخل الجنات ﴿**من صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم**﴾ أي نسلهم، ليكمل أُنسهم بذلك، فإن الإنسان، عند أحبائه آنس، ومعنى من صلح، من آمن وعمل صالحاً ﴿**إنك**﴾ يا رب ﴿**أنت العزيز**﴾ القادر على ما تشاء ﴿**الحكيم**﴾ في أفعالك تفعلها، حسب الصلاح والحكمة، ولقد كان من الصلاح، أن وعدتهم بالجنة، فأكمل ذلك لهم، بإدخالهم فيها.

[١٠] ﴿**وقهم**﴾ أي احفظهم، يا رب من ﴿**السيئات**﴾ حتى لا يعملوا في الدنيا ما يوجب سخطك، وعلى هذا فجملة «ومن تق» مستأنفة للمشابهة، أو المراد قهم جزاء السيئات، أو أنواع العذاب التي هي سيئات، وعلى هذا فجملة «ومن تق» تتمة ﴿**ومن تق السيئات**﴾ أي تحفظه من جزاء المعاصي ﴿**يومئذ**﴾ أي في الآخرة ﴿**فقد رحمته**﴾ رحمة عظيمة ﴿**وذلك**﴾ أي حفظهم من العذاب هناك ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ الذي لا فوز مثله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ

[١١] وإذ يرون الكفار النار، وجزاء أعمالهم في الآخرة، يغضبون على أنفسهم، لم فعلوا ما يستحقون به هذه النار والنكال؟ فيناديهم الملائكة أنّ غضب الله عليكم بسبب أعمالكم أشد من غضبكم على أنفسكم! وهذا لتأليمهم روحياً، فإن الإنسان إذا علم غضب الملك العظيم عليه يتألم كثيراً ﴿**إن الذين كفروا ينادون**﴾ من قبل الملائكة يوم القيامة ﴿**لمقت الله**﴾ أي غضب الله عليكم ﴿**أكبر**﴾ أي أشد وأكثر ﴿**من مقتكم أنفسكم**﴾ أي من غضبكم على أنفسكم، وذلك المقت ﴿**إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون**﴾ أي إن هذين المقتين، إنما كانا من وقت دعيتم إلى الإيمان فكفرتم.

[١٢] ﴿**قالوا**﴾ وهم معترفون أذلاء، قد رفع عن أعينهم الغشاء، يا ﴿**ربنا أمتنا اثنتين**﴾ موتاً حين كنا تراباً، وموتاً بعد الحياة الدنيوية، أي جعلنا ميتاً مرتين، والإماتة بالنسبة إلى الموت الترابي، وإن كان خلاف المنصرف، إلا أنه غير بعيد، بالنسبة إلى ما ورد في أحوال الإنسان، حيث لا موت جديد، بعد الموت الدنيوي، وما ورد أنه بالنسبة إلى الرجعة، فالظاهر أنه من باب المصداق، وإلا فالكفار كلهم لا يحبون الرجعة، وظاهر الآية أنه بالنسبة إلى الكلي ﴿**وأحييتنا اثنتين**﴾ أي حياتين، حياةً بالتولد في الدنيا، وحياةً بعد الموت في القيامة، وإنما يقول الكفار ذلك خضوعاً وتخشعاً، كالمجرم الذي يعترف بذنبه تخشعاً، ويريدون بذلك اعترافهم، بأن أزمّة الأمور بأيدي الله سبحانه

فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿**فاعترفنا بذنوبنا**﴾، حيث كفرنا بك وعصينا ﴿**فهل إلى خروج**﴾ من حالة القيامة والنار، إلى الدنيا لنعمل صالحاً ﴿**من سبيل**﴾؟ وهذا طلب بتأدب خوفاً ووجلاً من الطلب الصريح.

[١٣] لكن لا مجال لهم في الخروج، ويقال: (كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)[١] (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)[٢] ثم يقال لهم ﴿**ذلكم**﴾ العذاب الذي حل بكم، و «كم» خطاب ﴿**بأنه إذا دعي الله وحده**﴾ وإنه لا إله إلاّ هو، كما كان يدعوه المؤمنون ﴿**كفرتم**﴾ وأنكرتم أن يكون واحداً ﴿**وإن يشرك به**﴾ أي بالله ﴿**تؤمنوا**﴾ بالآلهة المتعددة كما كان يفعل المشركون ﴿**فالحكم**﴾ أي فصل هذه القضية، والحكم عليكم في الآخرة بالنار والعذاب ﴿**لله العلي**﴾ الرفيع الذي لا شريك له، فهو أرفع من كل شيء ﴿**الكبير**﴾ الذي لا أكبر منه، في ذاته وصفاته.

[١٤] ثم يأتي السياق ليبين بعض آياته سبحانه الدالة على وجوده، وسائر صفاته ﴿**هو الذي يريكم آياته**﴾ أي أدلته الكونية، الدالة على ذاته وصفاته، ومعنى الإرائة إيجادها، كالليل والنهار والمطر، أو إلفاتكم إليها، وإن كانت مستقرة ثابتة ﴿**وينزل لكم**﴾ أيها البشر ﴿**من السماء**

---

(١) المؤمنون: ١٠١ .

(٢) الأنعام: ٢٨ .

رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٤﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٥﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

رزقاً﴾ وهو المطر الموجب لكل رزق، أو المراد أنه سبحانه يقدر في السماء أرزاقكم، فينزل الأمر به من هناك **﴿وما يتذكر﴾** أي يلتفت **﴿إلا من ينيب﴾** أي يتوب، فإن التذكر المفيد، إنما هو تذكر التائب دون غيره.

[١٥] **﴿فادعوا﴾** أيها البشر **﴿الله﴾** وحده **﴿مخلصين له الدين﴾** أي في حال كونكم توجهون عبادتكم إليه، وتجعلون دينكم له دون غيره **﴿ولو كره﴾** إخلاصكم وتوحيدكم لله **﴿الكافرون﴾** فلا تبالوا بهم.

[١٦] إنه سبحانه **﴿رفيع الدرجات﴾** أي يرفع درجات الناس في الجنة، فبيده الملك والملكوت، ومثله يحق أن يعبد دون سواه، أو إن المعنى أنه سبحانه صاحب درجات رفيعة، والمراد بالدرجات الصفات، فهو ذو العلم الرفيع والإحسان الرفيع، والحلم الرفيع، وهكذا، فلا يبلغ شأنه شيء من الأصنام، أو غيرها، حتى يُجعل شريكاً له، وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس **﴿ذو العرش﴾** فله عرش السلطة، وحده بلا شريك ومنازع **﴿يلقي الروح﴾** أي الحياة للبشرية، التي هي الوحي، فقد شبه الوحي بالروح، تشبيهاً بالروح الذي به حياة الإنسان، وفي الوحي حياته الواقعية من العمى والضلالة، أو المراد الروح لنبوة الشخص **﴿من أمره﴾** أي أن الإلقاء صار من أمره لا جبر له فيه، إذ قد يلقى الإنسان شيئاً مجبوراً من أمر غيره **﴿على من يشاء من عباده﴾** وهم الأنبياء عليهم السلام، ومشيئته سبحانه باعتبار صلاحية النبي لذلك،

لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٦﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٨﴾

لمؤهلاته النفسية ﴿**لينذر**﴾ الله بسبب الإلقاء، أو ينذر الرسول ﴿**يوم التلاق**﴾ أصله «التلاقي» حذف الياء تخفيفاً، حيث يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، كما عن الصادق عليه السلام[1].

[١٧] ﴿**يوم هم بارزون**﴾ أي ظاهرون من قبورهم ﴿**لا يخفى على الله منهم**﴾ أي من الناس ﴿**شيء**﴾ فكل شيء منهم من الأجساد، والأعمال، والنوايا، منكشفة لديه سبحانه، ويقول الله سبحانه، حينذاك ﴿**لمن الملك اليوم**﴾؟ تقريعاً للذين اغتصبوا الملك في الدنيا، ولمن أشركوا بالله بزعم أن لله شريكاً في الملك، ويأتي الجواب من قبله أو قبل صلحاء الناس والملائكة ﴿**لله الواحد**﴾ الذي لا شريك له ﴿**القهار**﴾ الذي يقهر الكون حسب ما يشاء.

[١٨] ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت**﴾ فالمحسن يجزى بالإحسان، والمسيء بالإساءة ﴿**لا ظلم**﴾ على أحد ﴿**اليوم**﴾ فلا ينقص من ثواب المحسن ولا يزاد على عقاب المجرم ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ يعني إن الآخرة قريبة، أو إن حساب الخلائق في ذلك اليوم، يكون سريعاً، فلا مجال للّف والدوران، كما في الدنيا، حتى يحتمل المجرم التملص.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٥٩ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿٢٠﴾

[١٩] ﴿**وأنذرهم**﴾ يا رسول الله، أي خوّفهم من العذاب ﴿**يوم الأزفة**﴾ من أزف بمعنى دنى، ويسمى يوم القيامة، بالآزفة لدنوها، والآزفة ليست رفعة لليوم ـ في المقام ـ وإنما مضاف إليها، نحو يوم القيامة ﴿**إذ القلوب لدى الحناجر**﴾ فإن الإنسان إذا خاف كثيراً حدثت فيه الحرارة الزائدة، ولذا تنتفخ الرئة، وتكبر لجلب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتضغط على القلب، وترفعه عن موضعه، فيأتي قريب الحنجرة ﴿**كاظمين**﴾ أي في حال كونهم امتلؤا غماً وغيضاً، لكنهم كظموه وأخفوه، فلم ينطقوا بشيء خوفاً ورعباً، يقال: كظم فلان غيظه إذا أخفاه ﴿**ما للظالمين من حميم**﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان من صديق هناك، إذ أصدقاؤهم في الدنيا يفرون منهم ﴿**ولا شفيع يطاع**﴾ فإن هناك لا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن، والإتيان بـ «يطاع» لبيان النتيجة، أي لا خلاص لهم، وإلا فهناك لا شفيع لهم إطلاقاً.

[٢٠] وقد علم سبحانه جميع أعمالهم ونياتهم، فيجازيهم حسب الأعمال ﴿**يعلم**﴾ تعالى ﴿**خائنة الأعين**﴾ أي خيانة العين، بأن تنظر إلى ما حرمه الله تعالى، وإنما سمي خيانة، لأنها تنظر بسرقة وخيانة، لئلا يعرف الناس أنه نظر إلى الشيء الفلاني ﴿**و**﴾ يعلم ﴿**ما تخفي الصدور**﴾ وتنويه فهو مطلع على النيات، وإنما نسب الاختفاء إلى الصدور، لأن القلب في الصدر.

وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم

---

[٢١] ﴿**والله يقضي**﴾ ويحكم في يوم القيامة ﴿**بالحق**﴾ فهو القاضي الوحيد هناك ﴿**و**﴾ الأصنام ﴿**الذين يدعون**﴾ أي يدعونهم المشركون آلهة ﴿**من دونه**﴾ من دون الله ﴿**لا يقضون بشيء**﴾ إذ لا حكم لهم هناك، لا بحق، ولا بباطل، والإتيان، للأصنام بضمير العقلاء، لتوحيد السياق بين كلام أصحابها، وكلام الله والمؤمنين ﴿**إن الله هو السميع**﴾ الذي يسمع كل شيء ﴿**البصير**﴾ الذي يرى كل مرئي، أما الأصنام فهي جمادات، لا تسمع ولا تبصر، فكيف تتمكن أن تحكم؟

[٢٢] ﴿**أو لم يسيروا**﴾ أي يذهبوا ويسافروا، هؤلاء الكفار ﴿**في الأرض**﴾ هنا وهناك ﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم**﴾ من الأمم السابقة، الذين كذبوا أنبياءهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، مما بقيت آثارهم الخربة في البلاد والصحاري ﴿**كانوا هم**﴾ أي أولئك الأقوام ﴿**أشد منهم**﴾ أي من هؤلاء الكفار ﴿**قوة**﴾ في أبدانهم ﴿**و**﴾ أكثر ﴿**آثاراً في الأرض**﴾ أي عمارة وبناءً وزراعة وصناعة، جمع أثر وهو الذي يبقى بعد الإنسان أثراً له، وعلامة منه ﴿**فـ**﴾ لما كفروا، لم تفدهم قوتهم وآثارهم، بل ﴿**أخذهم الله**﴾ أي عاقبهم، وأنزل عليهم العذاب ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ذنوبهم**﴾ كفرهم وعصيانهم ﴿**وما كان لهم**﴾ أي

مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ

لأولئك الأقوام ﴿**من الله من واق**﴾ «الواق» أصله «واقي» من وقى، بمعنى حفظ، أي لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله وعذابه، وهؤلاء إن تمادوا في كفرهم وعصيانهم كان مصيرهم مصير أولئك.

[٢٣] ﴿**ذلك**﴾ العذاب الذي نزل بهم، إنما كان لأجل كفرهم وتماديهم في العصيان ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنهم كانت تأتيهم رسلهم بـ**﴾ الآيات ﴿**البينات**﴾ أي الواضحات، والمعاجز الظاهرات الباهرات ﴿**فكفروا**﴾ ولم يؤمنوا بعد إتمام الحجة ﴿**فأخذهم الله**﴾ بذنوبهم، بأن عذبهم وأهلكهم ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**قوي**﴾ يقوى على ما يريد ﴿**شديد العقاب**﴾ فإذا عاقب أحداً تمكن من ذلك، وعقابه شديداً أليماً.

[٢٤] ثم مثل سبحانه لبعض أولئك الأمم الذين أهلكهم سبحانه، بنقل قصة موسى وفرعون ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا**﴾ أي مع آياتنا وأدلتنا، كالعصا، واليد البيضاء، وغيرهما ﴿**وسلطان مبين**﴾ أي دليل واضح، فقد كان موسى عليه السلام مزوداً بحجة قوية يحتج ويستدل للألوهية، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام، فلهم معاجز، ولهم أدلة منطقية على إرشاداتهم.

[٢٥] ﴿**إلى فرعون**﴾ الملك ﴿**وهامان**﴾ وزيره ﴿**وقارون**﴾ الطاغي الذي كان مؤمناً، ثم انحرف، وإنما خص هؤلاء بالذكر، لأنهم كانوا رؤساء

فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ

الكفار والمنافقين ﴿**فقالوا**﴾ عوض الإيمان ﴿**ساحر كذاب**﴾ إنه يسحر في خوارقه، كذاب كثير الكذب، في إدعاءاته بوجود الإله، وأنه رسوله، وأن هناك داراً آخرة.

[٢٦] ﴿**فلما جاءهم**﴾ موسى عليه السلام ﴿**بالحق**﴾ أي مع الحق الذي هو التوحيد والمعاد والشريعة ﴿**من عندنا**﴾ أي كان من طرفنا، فإن الآتي بالحق، قد يكون غير مرسل، كالصلحاء والعلماء الذين يرشدون الناس ﴿**قالوا**﴾ أي فرعون وهامان، وأشراف القبط ﴿**اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه**﴾ وهم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى ﴿**واستحيوا نساءهم**﴾ فقد أمر فرعون، قبل ولادة موسى بقتل أبناء بني إسرائيل، حيث أخبره منجم، بأنه يولد في بني إسرائيل ولد يكون على يده ذهاب ملكه، وأمر بعد نبوة موسى بذلك، حيث أراد عدم كثرتهم ليقوى الصف المخالف، كما كان يبقي النساء أحياء لاستخدامهن وإذلالهن، لكن الله سبحانه منع عن ذلك بإرسال الضفادع والجراد والقمل والدّم ـ كما سبق ـ ﴿**وما كيد الكافرين إلا في ضلال**﴾ أي أن ما يكيدون يضل ويضيع فلا يظهر له أثر مقصود.

[٢٧] ﴿**وقال فرعون**﴾ لمن حوله من الأشراف ﴿**ذروني**﴾ أي اتركوني، ولا تشيروا علي بالخلاف ﴿**أقتل موسى**﴾ لأستريح منه، وقد قال ذلك

وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ

إظهاراً لسطوته، وإلا فقد أراد غير مرة، قتل موسى، فلم يتمكن ﴿**وليدع ربه**﴾ بما شاء، فقد كان يخاف من دعوة موسى لله سبحانه، بإنزال العذاب عليهم، كما شاهد من قبل، وهذا كما يقول أحدنا، أفعل ذلك، كائناً ما كان، وقوله «ليدع» أمر يراد به الخبر، أي وإن دعا ربه عليّ، وإنما أريد قتل موسى لـ ﴿**إني أخاف أن يبدل دينكم**﴾ بأن يمنعكم عن عبادتي، وعبادة الأصنام، إلى عبادة الله ﴿**أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ بأن يجهز الجيوش للحرب والقتال، فقتله يريحنا من إفساده في ديننا أو دنيانا.

[٢٨] ﴿**وقال موسى**﴾ عليه السلام ـ وكأنه قال ذلك لما سمع بإرادة فرعون قتله ـ ﴿**إني عذت**﴾ من عاذ، بمعنى لجأ ﴿**بربي وربكم**﴾ يا بني إسرائيل، أو أيها القبط، إن كان خطابه لهم ﴿**من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب**﴾ كفرعون الذي تكبر ولا يخاف المعاد.

[٢٩] ﴿**وقال رجل مؤمن**﴾ بالله وبموسى ﴿**من آل فرعون**﴾ أي من ذويه، وقد كان ابن عمه، كما في بعض الأحاديث، وكان اسمه حزقيل ﴿**يكتم إيمانه**﴾ عن فرعون وقومه ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾

وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٩﴾

أي كيف تقتلون موسى، وهو يقول أمراً لا يضركم؟ ﴿**وقد جاءكم بالبينات**﴾ أي بالأدلة الواضحة، وهذا الكلام لا ينافي كتمان إيمانه، فإن الخصوم دائماً يظهرون فيما بينهم حقائق خصومهم، ويعترفون بمزاياهم وفضائلهم ﴿**من ربكم**﴾ أي من طرف إلهكم وخالقكم، وقد كان حتى فرعون يعترف بالإله في خلواته، ولذا تضرع إليه سبحانه وقت انقطاع النيل ﴿**وإن يك**﴾ موسى ﴿**كاذباً**﴾ في دعواه النبوة ﴿**فعليه كذبه**﴾ أي أن ضرر كذبه يعود إليه، لا إليكم، فإن الكاذب يتضرر من كذبه ﴿**وإن يك صادقاً**﴾ فيما يقول ﴿**يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾ فإن موسى كان يعدهم بالهلاك والعذاب إن بقوا في كفرهم وطغيانهم، وإنما قال «بعض» تلطفاً في الخطاب، وتوسعاً في الكلام، وكأنه قال، أقل ما في الأمر، أنه يصيبكم بعض ما يقوله موسى من نكال الدنيا وعذاب الآخرة، ومعنى «يصيبكم» يصل إليكم ﴿**إن الله لا يهدي**﴾ بالألطاف الخفية الموجبة للسعادة الأبدية ﴿**من هو مسرف كذاب**﴾ أي متجاوز في العصيان حدّ المتعارف، أو متجاوز حدود الشريعة كثير الكذب، وقد أراد بهذا، إما فرعون وقومه بمعنى أنكم إذا قتلتم موسى، كنتم من المسرفين الكذابين، الكثيري التكذيب لما يقوله موسى من الأمور المربوطة بالمبدأ والمعاد والشريعة، وإما موسى عليه السلام، بأنه إن كان موسى مسرفاً كذاباً، لم يهده ربه، وقد قال ذلك تأكيداً لقوله «وإن يك كاذباً فعليه كذبه».

يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣١﴾

[٣٠] ﴿**يا قوم لكم الملك**﴾ والسلطة في هذا ﴿**اليوم**﴾ في حال كونكم ﴿**ظاهرين في الأرض**﴾ أي غالبين عليها، فإن الإنسان صاحب السلطة يكون ظاهراً للناس يعرفوه، ولا يخفى عليهم ﴿**فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا**﴾؟ من يمنعنا من عذاب الله، إن جاءنا عند قتل موسى، فإن هذا الملك يذهب، ويحلّ محله العذاب، وإنما قال «لكم الملك» إما تذكيراً بالنعيم، في مقابل التخويف بالعذاب، وإما لبيان، أن أصحاب السلطة دائماً أقرب إلى سخط الله ونكاله، حيث أنهم يعصون كثيراً، فإذا تجمعت حل بهم العذاب، بخلاف غير أصحاب السلطة، الذين هم بمعزل عن العصيان، فيكون احتمال عقابهم أبعد، وبعد هذا النصح كله ﴿**قال فرعون**﴾ القاسي المظلم القلب ﴿**ما أريكم إلا ما أرى**﴾ أي ما أشير عليكم إلا ما أراه صواباً في رأيي وفكري، فقتل موسى صواب في نظري ﴿**وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾ أي ما أرشدكم إلاّ الطريق الذي هو صحيح، وفيه الرشد والهداية.

[٣١] ﴿**وقال الذي آمن**﴾ من قوم فرعون وهو حزقيل ﴿**ياقوم إني أخاف عليكم**﴾ أيها القوم إن تقدمتم إلى قتل موسى عليه السلام أن يصيبكم ﴿**مثل يوم الأحزاب**﴾ أي الأحزاب التي عارضت الرسل وكفرت، ولكل حزب يوم، وإنما جمعهم المؤمن، لبيان أن كل حزب، خالف

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

الرسل، حقت عليه كلمة العذاب، ثم فصل ذلك بقوله.

[٣٢] ﴿**مثل دأب قوم نوح**﴾ الدأب العادة، ومعنى ذلك، أخاف عليكم، مثل سنة الله في قوم نوح، حيث أغرقهم سبحانه ﴿**وعاد**﴾ قوم هود النبي عليه السلام ﴿**وثمود**﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿**والذين من بعدهم**﴾ من الأمم التي كذبت الأنبياء عليهم السلام ﴿**وما الله يريد ظلماً للعباد**﴾ فلا تفعلوا ما تستحقون الظلم بأنفسكم.

[٣٣] ﴿**ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد**﴾ أصله «التنادي» مصدر باب التفاعل، وإنما حذف الياء تخفيفاً، والمراد به، إما يوم نزول العذاب، فإن فيه ينادي كل إنسان، صاحبه بالفرار والحذر، وإما يوم القيامة، حيث ينادي أهل النار أهل الجنة (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا)[١] وينادي أهل الجنة أهل النار (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)[٢]؟

[٣٤] ﴿**يوم تولون**﴾ عن العذاب، فأين منه ﴿**مدبرين**﴾ بزعم أن الفرار ينجي من عذاب الله ﴿**ما لكم من الله من عاصم**﴾ أي لا يحفظكم من بأس الله أحد، فإذا جاء العذاب، لا يتمكن أن يمنع عنه مانع ﴿**ومن يضلل الله**﴾ بأن تركه في الظلمات، حتى يفعل ما يشاء، وقطع عنه الألطاف

---

(١) الأعراف: ٥١ .

(٢) المدثر: ٤٣ .

﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٤ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ

الخفية، بعد أن أرشده إلى الطريق، فلم يقبل ﴿**فما له من هاد**﴾ أي ليس له أحد يهديه، بأن يفيض عليه من ألطافه الخاصة، فاحذروا أن تكونوا من أولئك الزمرة.

[٣٥] ﴿**ولقد جاءكم يوسف**﴾ بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام ﴿**من قبل**﴾ أي قبل موسى عليه السلام ﴿**بالبيّنات**﴾ أي بالأدلة الواضحة، فقد كان يوسف رسولاً إلى أهل مصر، بالإضافة إلى كونه ملكاً، وبعد يوسف، امتدت السلطات الخيرة، ثم المتوسطة، ثم الشريرة، حتى وصلت النوبة إلى فرعون، حيث قال «أنا ربكم الأعلى» ﴿**فما زلتم**﴾ والمراد، لم يزل آباؤهم ﴿**في شك مما جاءكم به**﴾ من التوحيد، فقد كان أهل مصر يعبدون الأصنام، في ذلك الزمان، ولذا قال يوسف، لأهل السجن: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ)[١]؟ ﴿**حتى إذا هلك**﴾ أي مات يوسف، وهلك يستعمل في مطلق الموت، كما قال سبحانه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ)[٢] وإن كان يتبادر منه ـ أحياناً ـ موت السيء ﴿**قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً**﴾ كأنكم استرحتم من موت يوسف، كما يستريح المجرم من موت السلطان، إذ يتمكن من إبداء إجرامه، فأنتم ـ أيها القوم ـ مسرفون في الكفر والضلال، قديماً وحديثاً، فلم هذا الكفر، ولم هذا الضلال؟ ﴿**كذلك**﴾ أي كما ترك

---

(١) يوسف: ٤٠ .

(٢) القصص: ٨٨ .

يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٥﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٦﴾

الله سبحانه أسلافكم ضلاّلاً غير معتن بشأنهم، لمّا لم يؤثر فيهم إرسال الرسول، وإقامة الحجة ﴿**يضل الله**﴾ بترك لطفه عن ﴿**من هو مسرف**﴾ في الكفر والضلال ﴿**مرتاب**﴾ أي شاك في الله والمعاد والشريعة، من ارتاب، بمعنى شك.

[٣٦] ثم بين لهم كيف يقطع الله لطفه عن بعض الناس، حتى يتيهون في الضلال والانحراف ﴿**الذين يجادلون**﴾ أي يعاندون ﴿**في**﴾ البحث، حول ﴿**آيات الله**﴾ أي أدلته الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿**بغير سلطان**﴾ أي حجة ﴿**أتاهم**﴾ ذلك السلطان، من عقل أو نقل، فجادلهم عن الهوى، لا عن الدليل والبرهان ﴿**كبر**﴾ ذلك الجدال ﴿**مقتاً**﴾ أي من حيث المقت، فإن الغضب على ذلك المجادل كبير ﴿**عند الله وعند الذين آمنوا**﴾ فالله يلعن المجادل، والمؤمنون يبغضونه ﴿**كذلك**﴾ أي بهذا النحو من الطبع، وهو ختم القلب على الكفر بعد أن جاء الهدى، فجادل بدون الدليل ﴿**يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾ فكبره عن الحق وتجبّره في الأرض، أورث، أن ختم الله على قلبه، وقد سبق أن القلب قابل لكل شيء، فإذا أعرض الإنسان عن الحق إلى الباطل، يستمر إيحاء الباطل على قلبه في كل مناسبة، حتى يكون الباطل ملكة له، فلا يقبل الهدى أبداً، لا بالاضطرار، وإنما بالاختيار والنفرة عن الحق عناداً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٧﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ

[٣٧] ﴿**وقال فرعون**﴾ بعد أن سمع مواعظ حزقيل، وكأنّ هناك كان مجلس حوار بين حزقيل، وبين القوم ﴿**يا هامان**﴾ وهو وزير فرعون ﴿**ابن لي صرحاً**﴾ أي قصراً مشيداً عالياً ﴿**لعلي أبلغ الأسباب**﴾ بأن أصعد عليه، وأنظر هناك في ملكوت السماوات.

[٣٨] ثم فسر «الأسباب» بقوله ﴿**أسباب السماوات**﴾ أي أسباب الاطلاع على السماوات، وما فيها! فكما أن أسباب العز «السيارة» وأمثالها، كذلك أسباب الاطلاع على السماوات «المرتقى العالي» و «المجهر» وما أشبه، فإذا بُني بعضه كان الرجاء أن يبلغ ﴿**فأطلع**﴾ بالنصب لأنه جواب بالفاء، أي إذا بلغت اطلعت ﴿**إلى إله موسى**﴾ وقد قصد بهذا التمويه على الناس العوام، بأنه إن كان موسى صادقاً، في أن له إلهاً خلق السماوات، فإني قادر على الاطلاع عليه ومحاربته ﴿**وإني لأظنه**﴾ أي أظن موسى ﴿**كاذباً**﴾ وقد أراد بهذا الخداع للناس، في أنه منصف مع موسى، حتى يتورع أن يقال أنه علم كذبه، بل يريد الاستطلاع هل صدق موسى أم كذب؟ وإن كان ظنه أنه كاذب.

ثم قال سبحانه ﴿**وكذلك**﴾ أي كما زيّن لهؤلاء الكفار أعمالهم السيئة، أو كما ذكر من حكاية أعمال فرعون وأقواله ﴿**زين لفرعون**﴾ والمزين هو نفسه، أو الشيطان ﴿**سوء عمله**﴾ أي رأى عمله السيء حسناً ﴿**وصد عن السبيل**﴾ أي منع عن طريق الهداية والمانع له هو

وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٩﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٤٠﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا

الشيطان، أو نفسه الأمارة بالسوء ﴿**وما كيد فرعون**﴾ ومكره الذي عمله لإطفاء نور موسى ﴿**إلا في تباب**﴾ أي هلاك وخسارة واضمحلال، من «تبّ» بمعنى هلك وخسر، فلم ينفع كيده، لإطفاء نور موسى عليه السلام.

[٣٩] ولما رأى حزقيل إصرار القوم على ضلالهم، ألقى عليهم نصيحته الأخيرة ﴿**وقال الذي آمن**﴾ من قوم فرعون، وكان يكتم إيمانه ﴿**يا قوم اتبعون**﴾ حذف ياء المتكلم تخفيفاً، وبقيت الكسرة، دليلاً عليه ﴿**أهدكم**﴾ جزم الفعل، لأنه في جواب الأمر، أي إن تتبعوني أهدكم ﴿**سبيل الرشاد**﴾، أي طريق الرشد، والمراد اتبعوا كلامي، فإن فيه الهداية والرشد.

[٤٠] ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا**﴾ أي الحياة القريبة، و «دنيا» مؤنث «أدنى» ﴿**متاع**﴾ أي مورد انتفاع قليل، ثم يزول عن قريب ﴿**وإن الآخرة هي دار القرار**﴾ التي يستقر فيها الإنسان، أبد الآبدين، فلا تبيعوا آخرتكم بدنياكم، لتزول الدنيا عن أيديكم بعد قليل، وتخسروا الآخرة.

[٤١] ﴿**من عمل سيئة فلا يجزى إلاّ مثلها**﴾ أي مثل تلك السيئة، بلا زيادة

وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤٢﴾

عليها ﴿**ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**﴾ مصدق بالله ورسله، واليوم الآخر، بأن صحت عقيدته وعمله ﴿**فأولئك يدخلون الجنة**﴾ جزاءً لإيمانهم وتصديقهم، وعملهم الصالح ﴿**يرزقون فيها بغير حساب**﴾ فلا يُعدّ ما يعطون من الأجر والثواب، وإن كان كل شيء عنده بحساب وعدّ، لا يغيب عن علمه شيء، فآمنوا واعملوا الصالحات، أيها القوم، حتى تنالوا ذلك الثواب العظيم، ولا تكفروا حتى تدخلوا في النار ـ وقوله، فلا يجزى إلا مثلها، لبيان لطفه سبحانه، وللمقابلة، وإلا فلم تكن هذه الخصوصية في معرض الكلام ـ.

[٤٢] ﴿**ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة**﴾؟ «ما لي» كان في الأصل استفهاماً عن النفع العائد إلى الشخص، ثم استعمل في كل استفهام، بعلاقة، الجزئي والكلي، كما يقال: ما لي أراك حزيناً؟ أي لماذا تحزن، والمعنى، أخبروني كيف صرتم هكذا حتى إني أدعوكم إلى ما فيه نجاتكم من عذاب الدنيا والآخرة ﴿**و**﴾ أنتم ﴿**تدعونني إلى النار**﴾ بأن أشرك بالله، وأعصي حتى أستحق النار، وكأن المؤمن خرج هنا من كتم الإيمان، وجعل يحاورهم بصفته مؤمناً، ولذا قال سبحانه «فوقاه الله» كأنهم أرادوا قتله لما علموا إيمانه.

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٤﴾

[٤٣] ثم بين دعوتهم له بقوله ﴿**تدعونني لأكفر بالله**﴾ بأن لا أعتقد بوحدانيته ﴿**وأشرك به ما ليس لي به علم**﴾ أي أجعل الصنم ـ الذي لا علم لي بكونه إلهاً ـ شريكاً لله تعالى، وقوله «ما ليس لي به علم» من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فإن من علم أن شيئاً ليس بإله، فإنه لا يعلم ألوهيته، ولعل الإتيان بهذا التعبير، لعدم جرح عواطفهم، حتى يتألبون عليه ﴿**وأنا أدعوكم إلى العزيز**﴾ الغالب في سلطانه، لا كالصنم الذي لا حول له ولا قوة ﴿**الغفار**﴾ فإنكم إذا آمنتم به غفر ذنوبكم.

[٤٤] ﴿**لا جرم**﴾ «جرم» بمعنى قطع، ويستعمل مع «لا» بمعنى حقاً، لأن الحق لا قطع فيه عن الواقع، كالكذب الذي فيه قطع عن الواقع إلى الخيال والوهم ﴿**أنما تدعونني إليه**﴾ من الأصنام ﴿**ليس له دعوة في الدنيا**﴾ فإنها لا تدعو أحداً لا في الدنيا ﴿**ولا في الآخرة**﴾ بل الله هو الداعي إلى عبادته وطاعته، أو المراد أنه لا يستجيب دعوة الداعي، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فأي نفع في عبادته ﴿**وأن مردنا**﴾ أي رجوعنا، مصدر ميمي، من «ردّ» بمعنى رجع ﴿**إلى الله**﴾ فكيف نترك طاعته ورجوعنا إليه؟ ﴿**وأن المسرفين**﴾ الذين أسرفوا في الكفر والعصيان، وتجاوزوا الحدّ ﴿**هم أصحاب النار**﴾ الملازمون لها.

[٤٥] ثم هددهم، بأنهم إن لم يقبلوا كلامه يأتيهم يوم يذكرون فيه مقالته

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٧﴾

حيث لا ينفعهم التذكر ﴿**فستذكرون**﴾ أيها القوم ﴿**ما أقول لكم**﴾ من النصائح يوم يأخذكم العذاب، أو يوم القيامة ﴿**و**﴾ أما أنا، ف ﴿**أفوض أمري إلى الله**﴾ أي أكل أموري إليه حتى لا يمسني السوء منكم ﴿**إن الله بصير بالعباد**﴾ فهو يبصرني ويتمكن على نجاتي.

[٤٦] وقد أراد القوم به سوءً، إذ همّ فرعون بقتله، لكن الرجل، فرّ من بين أيديهم إلى جبل ﴿**فوقاه الله**﴾ أي حفظه الله من ﴿**سيئات ما مكروا**﴾ فإن مكرهم، كان يشتمل على نتائج سيئة من قتله وما يلازم القتل من الإيذاء والإهانة وما أشبه ﴿**وحاق**﴾ أي أحاط وحل ﴿**بآل فرعون**﴾ والمراد هو وآله، فقد ذكرنا سابقاً، أنه قد يقال «آل ـ فلان» ويراد هو وآله ﴿**سوء العذاب**﴾ بالغرق في البحر في الدنيا.

[٤٧] وما في البرزخ، ف ﴿**النار يعرضون**﴾ أي آل فرعون ﴿**عليها**﴾ على النار ﴿**غدواً**﴾ صباحاً ﴿**وعشياً**﴾ عصراً، بأن يعذبون كل يوم مرتين، مقابل المؤمنين، الذين لهم رزقهم بكرة وعشياً، وهذا عذاب برزخهم ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أي إذا قامت القيامة، يقال للملائكة الموكلين بهم ﴿**أدخلوا آل فرعون**﴾ أي هو وآله ﴿**أشد**﴾ أنواع ﴿**العذاب**﴾ لكفرهم وطغيانهم، فقد نتج تمردهم تعذيبهم في العوالم الثلاثة.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٨﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

---

[٤٨] وبمناسبة الحديث، عن عمل فرعون واتباع قومه له، بدون تبصر واهتداء، يأتي السياق لنقل جملة من حوار أهل النار ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ يتحاجون**﴾ أي يتخاصم الرؤساء والأتباع ﴿**في النار**﴾ في الآخرة ﴿**فيقول الضعفاء**﴾ عقيدة وإمكانية، وهم الأتباع ﴿**للذين استكبروا**﴾ من القادة والرؤساء، أي تكبروا عن قبول الحق ﴿**إنا كنا لكم**﴾ معاشر الرؤساء ﴿**تبعاً**﴾ جمع تابع، كخدم جمع خادم، أو مصدر من قبيل «زيد عدل»، فقد كنا نسمع أوامركم، ضد الدين والشريعة ﴿**فهل أنتم مغنون عنا**﴾ أي دافعون عنا ﴿**نصيباً**﴾ وقسماً ﴿**من النار**﴾ التي أحاطت بنا؟

[٤٩] ﴿**قال الذين استكبروا**﴾ في جواب الضعفاء ﴿**إنا كلّ**﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿**فيها**﴾ أي في النار، فلسنا خالين من العذاب، حتى نتحمل بعض عذابكم ﴿**إن الله قد حكم بين العباد**﴾ بأن يتحمل كل جزاء ما عمله من شرك وعصيان.

[٥٠] ثم إنهم يتوجهون إلى الملائكة الذين هم موكلون بالنار ﴿**وقال الذين في النار**﴾ بصورة عامة، من الأتباع والمتبوعين ﴿**لخزنة جهنم**﴾ جمع

ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٥٠﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

خازن، وهو الحافظ، والمراد بهم الملائكة، الذين يتولون أمور أهل جهنم ﴿**ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب**﴾ حتى نستريح، ولو قليلاً، وإنما يقولون ذلك لأنهم لا يطمعون في انقطاع العذاب.

[٥١] ﴿**قالوا**﴾ أي قال الخزنة في جوابهم ﴿**أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات**﴾؟ أي بالحجج القاطعة الواضحة، ثم عاندتم ولم تقبلوا ﴿**قالوا**﴾ أهل النار في الجواب ﴿**بلى**﴾ جاءونا، فلم نقبل ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الخزنة لهم بعد هذا الاعتراف ﴿**فادعوا**﴾ أنتم، حتى يخفف الله عنكم، فإنّا لا ندعو وذلك لعلم الخزنة، بأن الدعاء لا يفيد ﴿**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾ أي ضياع وبطلان، فلا تفيد دعوتهم شيئاً.

[٥٢] ثم يرجع السياق إلى قصة الرسل، ومن يعاندهم ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا**﴾ كما نصر سبحانه، حيث نرى، أنّ الدين واضح ظاهر، بينما معاندوا الأديان، ليس لهم إلا الخسران، وقد نصر سبحانه، عيسى، وموسى، ومحمداً، وإبراهيم، وغيرهم، من الرسل عليهم السلام بالأتباع الكثيرين، وعُلوّ الاسم والاحترام، ففي دنيا اليوم، ونفوسها «ثلاثة آلاف مليون وخمسة عشر مليوناً»[١] أكثر من

(١) كان ذلك في وقت كتابة الكتاب أما الآن فنفوس العالم أكثر من ذلك.

وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٤﴾

ثلثي العالم متدينون، وهل النصرة فوق هذا؟ وهل كان مقصد الرسل والمؤمنين بهم أكثر من هذا؟، أما من يتصور أن النصرة معناها، أن لا يُقتل الرسول ـ أو المؤمنون به في ساحة حرب، وأن لا يهان، فقد اشتبه، ألا ترى أنه يقال: انتصرت الدولة الفلانية على الدولة الفلانية، وإن ذهب شبابها ضحايا، وأموالها نهباً، حين لم تسقط، ولم يستولِ عليها الأجنبي، ولم تمح عن الخارطة؟ ﴿**ويوم يقوم الأشهاد**﴾ جمع شاهد، كأصحاب وصاحب، والمراد يوم القيامة، وهم الذين يشهدون على الناس، بالإيمان والكفر والإطاعة والعصيان.

[٥٣] ثم بين وصفاً لذلك اليوم، يناسب حال الكفار ـ الذين كان الكلام حولهم ـ ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم**﴾ أي أن اعتذارهم من الكفر والعصيان، لا يفيدهم في دفع العذاب عنهم، وليس كالدنيا حيث ينفع المعتذر عذره ﴿**ولهم اللعنة**﴾ أي البعد والطرد عن رحمة الله وفضله ﴿**ولهم سوء الدار**﴾ أي الدار السيئة، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

[٥٤] ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**موسى الهدى**﴾ أي الهداية، التي بها يهدي الناس إلى الحق ـ وهذا رجوع إلى قصة موسى عليه السلام، التي سبقت، وتسلية للمؤمنين بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿**وأورثنا بني إسرائيل الكتاب**﴾ أي أعطينا التوراة إرثاً لهم، باعتبار الكتب السابقة، فكأن كتاب الله الذي فيه شريعته شيء واحد، يتوارثه المؤمنون جيلاً بعد جيل، وإن كان ذا قوالب متعددة، كالتوراة والإنجيل والقرآن.

هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٥﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٦﴾

[٥٥] ﴿**هدى**﴾ أي لأجل هدايتهم إلى الحق وإرشادهم طريق السعادة ﴿**وذكرى**﴾ أي ولأن يكون مذكراً بالله وبرسله وبالمعاد ـ مما يكمن في فطرة كل إنسان، بصورة إجمالية ـ ﴿**لأولي الألباب**﴾، أي أصحاب العقول جمع لب، وهو العقل.

[٥٦] ﴿**فاصبر**﴾ يا رسول الله على أذى قومك، فإن مصيرك ومصير المؤمنين، كمصير موسى، الذي غلب على فرعون، ومصير بني إسرائيل، الذين علا كعبهم على أعدائهم ﴿**إن وعد الله**﴾ بنصرتك، وإهلاك الكفار ﴿**حق**﴾ مطابق للواقع، لا كذب فيه، ﴿**واستغفر لذنبك**﴾ فإن الأنبياء كانوا يعدّون اشتغالهم بالأمور الدنيوية الضرورية ذنباً، ألا ترى، أن من أصابه وجع الرجل، حتى لا يتمكن من جمعها، إذا اضطر إلى أن يبسطها في مجلس أمام أناس محترمين، اعتذر منهم، وطلب عفوهم؟ مع أن عمله ذاك ضروري ليس باختياره، وهكذا أشغال الأنبياء الدنيوية، أمام الله سبحانه، وإن كانوا مضطرين إليها كل اضطرار تقويماً للبدن، فإنه بنظرهم ذنب، أمام الله الذي ينبغي أن لا يشغل عنه الإنسان، ولو طرفة عين، وهناك قول، بأن الآية على طريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة» ﴿**وسبح بحمد ربك**﴾ أي نزهه بالحمد، فإن الإنسان إذا أثنى على الله بالعلم مثلاً، كان حمداً وتنزيهاً عن الجهل، في آن واحد ﴿**بالعشي**﴾ وهو من زوال الشمس إلى الليل ﴿**والإبكار**﴾ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والمراد الاستمرار

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلۡقُ

على الاستغفار والتسبيح.

[٥٧] ﴿**إن**﴾ الكفار ﴿**الذين يجادلون في آيات الله**﴾ أي يخاصمون الرسول والمؤمنين في إبطال آيات الله وأدلته الكونية، وخوارق الأنبياء ﴿**بغير سلطان**﴾ أي بغير دليل ﴿**أتاهم**﴾ من عقل، أو شرع، وإنما يجادلون عبثاً واعتباطاً بعدما تم عليهم الحجة ﴿**إن في صدورهم إلاّ كبر**﴾ أي ليس احتجاجهم، وخصامهم، إلا لأجل أن في صدورهم، تكبراً عن قبول الحق، ولكن ﴿**ما هم ببالغيه**﴾ أي لا يبلغون ما يريدون من العظمة التي تمنعهم عن قبول الحق، فإن الله سبحانه يذلّهم، حتى لا يبلغوا كبرياءهم، ومن غريب الأمر، أن الإنسان يرى كل متكبر عن الحق هكذا أنه يظن إن هو قبل الحق يهان، ويجرح كبرياءه، فلا يقبل، بل يتكبر، زعماً بأنه، إن فعل ذلك يصل إلى عظمة، وارتفاع في المجتمع، والأمر دائماً خلاف ذلك، فالحق يعلو، والمتكبر يذل ﴿**فاستعذ**﴾ يا رسول الله ﴿**بالله**﴾ من شر هؤلاء الكفار المتكبرين، أو من الابتلاء، بمثل هذا النحو من الكبر الصادف عن الحق ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**هو السميع**﴾ لقولك واستعاذتك ﴿**البصير**﴾ بما يجول في خاطرك، وما أنت عليه من الخضوع للحق، والقبول له.

[٥٨] وكيف يتكبر هؤلاء الكفار، وهم يرون حولهم السماوات والأرض، وخلقهما، أكبر من خلقهم؟ والإنسان العاقل، إذا رأى نفسه وسط هذا الكون الفسيح، لا بد وأن يتضاءل، ويعترف بصغر نفسه ﴿**لخلق**

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا

السماوات والأرض﴾ بما فيهما من عجيب الصنع، وصفوف الخلق **﴿أكبر من خلق الناس﴾** ولعل التعبير بأكبر، لأن خلق الإنسان أدق، ولذا لما خلق الله الإنسان، قال: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ)[1] **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** ذلك لأنهم لا يتفكرون، والإنسان إذا لم يتفكر في الكون يغتر بنفسه ويتكبر.

[٥٩] إن الكفار كالأعمى، حيث أغلقوا بصائرهم عن الإدراك، والتفكر، والمؤمنين كالبصير، لأنهم فتحوا منافذ عقولهم، فأدركوا الحقائق **﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾** كما هو واضح لكل ذي عقل **﴿و﴾** لا يستوي **﴿الذين آمنوا﴾** بالله واليوم الآخر، وما يلزم الإيمان به **﴿وعملوا الصالحات﴾** أي الأعمال الصالحة **﴿ولا المسيء﴾** الذي أساء بالكفر والعصيان **﴿قليلاً ما تتذكرون﴾** «ما» مصدرية، أي قليل تذكرهم لهذه الحقيقة، وهي عدم استواء الكافر والمؤمن، والمحسن والمسيء، أو أن «ما» مصدرية، أي قليل تذكرهم لهذه الحقيقة، وهي عدم استواء الكافر والمؤمن، والمحسن والمسيء، أو أن «ما» تأكيدية.

[٦٠] **﴿إن الساعة﴾** أي القيامة **﴿لآتية﴾** تأتي قطعاً **﴿لا ريب فيها﴾** أي

(١) المؤمنون: ١٥ .

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦١﴾

ليست محل ارتياب، وإن ارتاب فيها المبطلون، وهذا كما نقول «لا شك أن هذه شمس» وإن شك فيها السوفسطائيون ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ بإتيان الساعة لكفرهم، أو عدم رسوخ الإيمان في أعماقهم.

[٦١] وإذ جرى حديث الإيمان والمتكبرين عن قبوله، يأتي السياق لتوجيه الناس إلى الله سبحانه بالدعاء والضراعة إليه، وأن من تكبر عنه، فجزاؤه النار، فالإيمان والدعاء، كلاهما توجه إلى الله، والاستكبار عن الإيمان وعن الدعاء كلاهما ابتعاد عنه، وهنا مناسبة أخرى، أن لا ييأس الكافر والعاصي، فإن أبواب الدعاء بطلب التوبة ونحوه مفتوحة ﴿**وقال ربكم**﴾ أيها الناس ﴿**ادعوني**﴾ اطلبوا حوائجكم، صغيرها وكبيرها ﴿**أستجب لكم**﴾ «استجب» مجزوم جواباً للأمر، أي إن تدعوني، أستجب لكم ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾ ومن جملتهم من يستكبر عن الدعاء، إذ الدعاء قسم من العبادة، فإن العبادة اعتراف الإنسان بسيادة الله، والعمل طبقه، والدعاء قسم منه ﴿**سيدخلون جهنم**﴾ في الآخرة، ولذا جيء، بـ «السين» ﴿**داخرين**﴾ من دخر، بمعنى ذل وصغر، وهم صاغرون، في مقابل تكبرهم، في الدنيا عن الدعاء، ولا يقال: كيف قال سبحانه «ادعوني أستجب لكم» وإنّا نرى أن كثيراً من الأدعية لا تستجاب؟ فإن الجواب، أن القضية طبيعية، أي أن من طبيعة الدعاء أن يستجاب، كسائر القضايا، فلو

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ

قلنا: الشمس مشرقة أو النار محرقة، أو العقار الفلاني مقوي، أو ما أشبه، لم يناف مع عدم إشراق الشمس وقت الكسوف، أو عدم إحراق النار إذا لم يشأ الله، كنار إبراهيم، أو عدم تقوية العقار في بدن بلغ من الضعف إلى حيث لا يتمكن من هضم العقار، وهكذا في سائر القضايا، فإن الملحوظ، في أمثالها الطبيعة، لا كل فرد، والطبيعة قد يمنع عنها مانع، أو عدم تمامية المقتضى، وقد قال سبحانه (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)[1]، فمن لم يف بعهده سبحانه، بأن ارتكب الكفر والعصيان، لم يكن عليه سبحانه، أن يفي بما عهد، وكذا قال تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[2] فمن لم يتق، لم يكن لدعائه، قبول واستجابة.. ولا يقال: إنا لا نرى الفرق البين بين الداعي وغيره، فلكل منهما مشاكل ولكل منهما سعادة؟ إذ الجواب أنه منقوض بمن يقول: إنا لا نرى فرقاً بين من يراجع الطبيب، وبين من لا يراجع، فإن لكليهما صحة حيناً ومرض حيناً آخر، والحلّ: إنا نرى الفرق شاسعاً، فالداعون، أسعد هناء عيشاً، وأقل مشكلة من غيرهم، وهذا يعلم، عند المقايسة الدقيقة، كما هو الجواب عن مثال مراجع الطبيب وغيره.

[٦٢] ثم بين سبحانه جملة من الآيات الكونية، المُلفِتة إلى وجوده تعالى، وسائر صفاته ﴿**الله**﴾ وحده، هو ﴿**الذي جعل لكم**﴾ معاشر البشر ﴿**الليل**﴾ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، أو إلى طلوع الشمس ﴿**لتسكنوا**﴾ وتستريحوا، من الأتعاب ﴿**فيه**﴾ بالنوم والراحة

---

(١) البقرة: ٤١ .

(٢) المائدة: ٢٨ .

وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٢﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٣﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٤﴾

﴿و﴾ جعل لكم ﴿**النهار مبصراً**﴾ أي موجباً، لأن تبصرون فيه حوائجكم وسبلكم، فتشتغلوا وتسيروا إلى مآربكم ﴿**إن الله لذو فضل على الناس**﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم، بدون استحقاق منهم ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ نعمه وفضله، بل يجحدون بها ويكفرون به.

[٦٣] ﴿**ذلكم**﴾ ذا إشارة إلى الله سبحانه، جاعل تلك الآيات المذكورة، و «كم» خطاب للسامعين ﴿**الله ربكم**﴾ أيها البشر ﴿**خالق كل شيء**﴾، فهو بالإضافة إلى جعله تلك الأمور، وكونه رباً لكم، خالق لكل شيء موجود في الكون ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له من صنم، أو بشر أو ملك أو غيرها، ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ أي إلى أين تصرفون أيها المشركون حيث تتخذون مع الله شريكاً له؟ من أفك بمعنى انصرف وقلّب الأمر، ولذا يسمى الكذب إفكاً.

[٦٤] ﴿**كذلك**﴾ أي كما أفك هؤلاء بالشرك بالله، بعد رؤية الآيات ﴿**يؤفك**﴾ ويصرف عن الحق ﴿**الذين كانوا بآيات الله يجحدون**﴾ من الأمم السابقة، فكل جاحد للآيات الكونية، لا بد وأن يصرف عن التوحيد إلى الشرك، والذي يأفك هؤلاء نفوسهم الأمارة، ورؤساؤهم الكافرون.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

[٦٥] ﴿**الله**﴾ وحده، هو ﴿**الذي جعل لكم الأرض قراراً**﴾ أي تستقرون عليها ﴿**و**﴾ جعل ﴿**السماء بناءً**﴾ أي بناها بناءً، والمراد بالسماء الأفلاك والهواء، التي قد أحكمت إحكاماً دقيقاً، وإن لم يكن جسماً ملموساً، حتى إن هذا الإحكام لو أُزيل، لاختلت الحياة، واضطربت الأرض والكون ﴿**وصوركم**﴾ أي أعطاكم الله الصور أيها البشر ﴿**فأحسن صوركم**﴾ أي أجملها وزينها، والمراد بالصورة هنا أعم من الشكل واللون والحجم، فإن الصورة تطلق على ذلك، كما تطلق على اللون فقط، أو الشكل فقط، أو الحجم والكيفية فقط ﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾ التي خلقها من ماء عذب، وأثمار شهية وألبان وعسل وسائر المطاعم، بل والمشارب والمساكن والمناكح والعلوم وغيرها، فإن الجميع داخلة في الرزق، والمراد بهاتين القضيتين، كغالب القضايا الطبيعية، فلا ينافي ذلك عدم حسن صورة بعض الأفراد، أو عدم رزقهم الطيب طيلة عمرهم ﴿**ذلكم**﴾ «ذا» إشارة إليه سبحانه الذي فعل ما تقدم و «كم» خطاب للبشر ﴿**الله ربكم**﴾ أيها البشر، ولا شريك له في ذلك ﴿**فتبارك الله**﴾ أي جلّ سبحانه، فإنه الدائم الذي ينمي الأشياء، ويجعل فيها الخير والبركة ـ وقد تقدم معنى تبارك ـ ﴿**رب العالمين**﴾ عالم الإنسان والملائكة والحيوان والجن وغيرهم.

هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

---

[٦٦] إن الذي أنعم عليكم بهذه النعم ﴿**هو الحيّ**﴾ المطلق الذي لا موت له ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له ولا ظهير ﴿**فادعوه**﴾ أيها البشر ﴿**مخلصين له الدين**﴾ أي دعوة بإخلاص في دينكم وطريقتكم ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ فإن له الحمد وحده، حيث أن كل شيء محمود منه، لا يشركه فيها أحد، واللام في الحمد للجنس، أي أن جنس الحمد له، أما من جعل اللام للإستغراق، فقد ابتعد عن سياق الكلام.

[٦٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، لهؤلاء الكفار ﴿**إني نهيت**﴾ نهاني الله سبحانه ﴿**أن أعبد الذين تدعون من دون الله**﴾ أي الأصنام التي تدعونها آلهة وهي سوى الله سبحانه ﴿**لما جاءني البينات**﴾ الأدلة الواضحات على التوحيد، أي حين أتاني الحجج والبراهين ﴿**من ربي**﴾ أي من قبله سبحانه، وذلك الحين قبل خلق آدم، كما قال ﷺ «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[1] فلا تدل هذه الآية على أنه ﷺ كان قبل نزول القرآن، غير عارف ببعض المعارف ﴿**وأمرت**﴾ من قبله تعالى ﴿**أن أسلم**﴾ في جميع أعمالي وعقائدي ﴿**لرب العالمين**﴾ الذي يملك العوالم كلها، وهو المدبر والمربي الوحيد لها، والإسلام هو

---

(١) مفتاح الفلاح: ص٤١ .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ

الاستسلام والانقياد.

[٦٨] ﴿**هو**﴾ الله تعالى وحده ﴿**الذي خلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**من تراب**﴾ فإن الإنسان تراب، ثم يكون نباتاً، والنبات يأكله الحيوان، فيكون لحماً وقسماً من اللحم وقسماً من التراب يأكله معاً الإنسان، فيكون دماً في جسمه ﴿**ثم من نطفة**﴾ فإن الدم ينقلب منياً، وهو النطفة ﴿**ثم من علقة**﴾ وهو المنى المتحول إلى علقة من الدم ﴿**ثم يخرجكم**﴾ من بطون أمهاتكم ﴿**طفلاً**﴾ والمراد، كل واحد منكم طفلاً، فلا تنافي بين الإتيان، بـ «كم» جمعاً، وبـ «طفلاً» مفرداً ﴿**ثم**﴾ يبقيكم ﴿**لتبلغوا أشدكم**﴾ وهو حال استكمال القوة والشباب ﴿**ثم**﴾ يبقيكم ﴿**لتكونوا شيوخاً**﴾ جمع شيخ، وهو الكبير السن، البالغ عمر الشيخوخة والضعف ﴿**ومنكم**﴾ أيها البشر ﴿**من يتوفى من قبل**﴾ أن يبلغ سن الشباب أو الشيوخ ويموت بعضكم قبل ذلك، ﴿**و**﴾يفعل الله ذلك بكم ﴿**لتبلغوا أجلاً مسمى**﴾ أي المدة التي سميت في اللوح المحفوظ، فإن الله سبحانه، قدر لكل إنسان أجلاً محدوداً لا يتجاوزه ﴿**ولعلكم تعقلون**﴾ أي ولكي تتفكروا وتعقلوا أمر دينكم، فإن خلق الإنسان، وإبلاغه الأجل المسمّى إنما هو للتعقل والتفكر.

[٦٩] و ﴿**هو**﴾ الله ﴿**الذي يحيي**﴾ الناس من التراب، ثم يحييهم بعد موتهم

وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٧٠﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧٢﴾

ليوم القيامة ﴿**ويميت**﴾ الإنسان بعد حياته ﴿**فإذا قضى أمراً**﴾ أي أراد شيئاً ﴿**فإنما يقول له كن**﴾ لفظاً، أو إرادة ﴿**فيكون**﴾ ويوجد في الخارج، وهذا لدفع استبعاد الحياة بعد الموت، فإن الله الذي تمكن من خلق الإنسان، يتمكن من إعادته بعد الموت.

[٧٠] ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**إلى الذين يجادلون في آيات الله**﴾ أي المشركين الذين يريدون إبطال الآيات والحجج الدالة على وجود الله وصفاته، ويوم القيامة ﴿**أنى يصرفون**﴾ أي إلى أين من الضلال، يصرفهم الشيطان وأنفسهم الكافرة.

[٧١] ﴿**الذين كذبوا بالكتاب**﴾ بأن لم يؤمنوا بالقرآن، ونسبوه إلى الكذب ﴿**وبما أرسلنا به رسلنا**﴾ من الشرائع والأحكام، بأن لم يقبلوا ما جاء به الأنبياء من الأصول والأحكام ﴿**فسوف يعلمون**﴾ في القيامة، عاقبة تكذيبهم بالكتاب، وبالشريعة.

[٧٢] ﴿**إذ**﴾ ظرف لـ «يعلمون» أي يعلمون سوء أعمالهم حين تكون ﴿**الأغلال في أعناقهم**﴾ كما يغل المجرم في الدنيا، والغل في العنق، إما للإهانة والألم، وإما للربط ﴿**والسلاسل**﴾ في أعناقهم ﴿**يُسحبون**﴾

فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٤﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا

أي يجرّون، والأغلال جمع غل، وهو طوق يدخل في العنق، والسلاسل جمع سلسلة، وهي حلق حديدية متشابكة يربط بها المجرم.

[٧٣] ﴿**في الحميم**﴾ متعلق بـ «يسحبون» أي يجرون في المحل الحار المنتهي حرارته غايتها ﴿**ثم في النار يسجرون**﴾ من سجّر التنور، إذا أوقده، ولعل المعنى يكونون وقوداً في النار، حتى تشعل النار بهم، كما قال سبحانه (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[١].

[٧٤] ﴿**ثم قيل لهم**﴾ تقول لهم الملائكة الموكلة بالنار، على وجه الإهانة والإذلال ﴿**أين**﴾ ذهبت ﴿**ما كنتم**﴾ أي الأصنام التي كنتم ﴿**تشركون**﴾ أي تجعلونها شريكة لله سبحانه؟

[٧٥] ﴿**من دون الله**﴾ متعلق بـ «تشركون» فإنهم لما كانوا يعبدون الله، ويعبدون الأصنام، استثنى «الله» سبحانه ﴿**قالوا**﴾ أي المشركون في الجواب ﴿**ضلوا عنا**﴾ أي ضاعوا عنا، ولا نجدهم ﴿**بل لم نكن ندعوا من قبل**﴾ في الدنيا ﴿**شيئاً**﴾، وهذا إما يقولونه إنكاراً، لعلهم يتخلصون بهذا الإنكار، من تبعة عبادة الأصنام، كما في آية أخرى يقولون (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[٢] وإما أن مرادهم، أن ما كنا ندعوا

---

(١) البقرة: ٢٥ .

(٢) الأنعام: ٢٤ .

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٥﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٦﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى

في الدنيا، لم يكن شيئاً يستحق العبادة، وينفع أو يضر، نحو «يا أشباه الرجال ولا رجال» فقد نفوا الذات مريدين نفي الصفة ﴿**كذلك**﴾ أي كما أبطل الله سبحانه عبادة هؤلاء للأصنام ﴿**يضل الله**﴾ سائر ﴿**الكافرين**﴾ فلا يهديهم طريق الجنة، ويبطل عبادتهم وأعمالهم، أو المعنى يضلهم في الدنيا، بأن يتركهم وشأنهم، حين رآهم لم يقبلوا الهدى، فلا يلطف بهم الألطاف الخفية، حتى يعملوا ما ينتفعون به في الآخرة.

[٧٦] ﴿**ذلكم**﴾ «ذا» إشارة إلى العذاب الذي يحيط بهم، و «كم» خطاب ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق**﴾ بأن كنتم تبطرون وتتكبرون بالأعمال الإجرامية ﴿**وبما كنتم تمرحون**﴾ من مرح، وهو الفرح بالباطل بتوسع فهو أخص من الفرح، وهكذا يكون المجرمون دائماً، إن فرحهم بالباطل، وهم يوسعون في الفرح، بخلاف المؤمنين الذين فرحهم بالحق، وهم يفرحون بقدر، حيث يعلمون أن وراءهم يوماً مهولاً، كما قال الله (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ)[١].

[٧٧] ﴿**ادخلوا**﴾ أيها الكفار ﴿**أبواب جهنم**﴾ أي من أبوابها السبعة، كل فوج، حسب بابه وأعماله في حال كونكم ﴿**خالدين فيها**﴾ إلى الأبد، لا انقطاع لعذابها، ولا خلاص لكم منها ﴿**فبئس مثوى**﴾ من «ثوى»

(١) القصص: ٧٧ .

ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾

بمعنى اتخذ المحل، أي المنزل ﴿**المتكبرين**﴾ الذين تكبروا عن قبول الحق، والظاهر أن هذا الكلام تأكيد للكلام السابق، وهو «يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون» لا إنّ ذلك، كان قبل دخولهم جهنم، وإن كان محتملاً، بأن يكون هناك أنهر من المياه الحارة، والأودية النارية، فيسحبون أولاً، في تلك المياه، ويعذبون بتلك النار، ثم يدخلون في النار.

[٧٨] ثم يرجع السياق إلى الرسول ليصبّره عما يلاقي من الأذى في سبيل البلاغ ﴿**فاصبر**﴾ يا رسول الله ﴿**إن وعد الله**﴾ لك بالنصر والأجر ولأولئك بالعذاب والإذلال والانهزام ﴿**حق**﴾ لا خلف فيه ﴿**فإما**﴾ أصله «إن» الشرطية، و «ما» الزائدة ﴿**نرينك**﴾ يا رسول الله ﴿**بعض الذي نعدهم**﴾ فإن الله وعدهم عذاب الدنيا والآخرة، والمراد بالبعض عذاب الدنيا ﴿**أو نتوفينك**﴾ بأن نقبض روحك قبل تعذيبهم ﴿**فإلينا يرجعون**﴾ في الآخرة، لنعذبهم العذاب الشديد، وليس من المهم عذابهم هنا، حتى يحتم أن تراه، وإنما المهم أنهم لا يفوتوننا، ومعنى «إلينا» إلى حكمنا وعقابنا.

[٧٩] وقد كان الكفار يطلبون من الرسول، أن يأتيهم بالخوارق، كعصا موسى، وإحياء عيسى، فيأتي السياق، لردّ هذا الطلب، فقد أتى الرسول ﷺ بالقرآن الذي هو أعظم الخوارق حجة ودليلاً، فمن كفر بعد ذلك، فهو معاند، أما الإتيان، بسائر الآيات، فذلك حسب إرادة الله، إن شاء جاء بها وإن لم يشأ لم يأت ـ بعد أن تمت الحجة ـ أما

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٩﴾

الخوارق لإثبات وجود الله سبحانه، فهي الآيات الكونية المثبوتة، في كل جهة من جهات الكون ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك**﴾ يا رسول الله ﴿**منهم من قصصنا عليك**﴾ أحوالهم، كإبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، ولوط، ويونس، وغيرهم ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ أحوالهم، كسائر الأنبياء عليهم السلام، بل الأكثر منهم، لم تقص أحوالهم في القرآن ـ وليس المهم القصة ـ ﴿**و**﴾ إنما المهم أنه ﴿**ما كان لرسول**﴾ أي لم يكن حسب مقدوره ﴿**أن يأتي بآية**﴾ أي بمعجزة خارقة ﴿**إلا بإذن الله**﴾ بأن يأذن الله للرسول حتى يتمكن أن يؤتي بها ﴿**فإذا جاء أمر الله**﴾ بهلاك القوم، بعد أن أتاهم الرسول بالخارقة، ولم يؤمنوا ﴿**قضي**﴾ عليهم بالهلاك والدمار ﴿**بالحق**﴾ بسبب أنهم عاندوا فاستحقوا العقاب ﴿**وخسر هنالك المبطلون**﴾ خسروا دينهم ودنياهم، وفي هذا تلميح، بأنه إنما لا يؤذن للرسول بالخارقة، لأنه إن جاءهم بالخارقة ولم يقبلوا استحقوا العقاب، والله سبحانه لا يشاء عقاب هؤلاء بهذه العجالة.

[٨٠] ثم يأتي السياق، ليذكر جملة من الآيات الكونية، الدالة على وجوده تعالى وصفاته، والتي هي أحسن من الخارقة الموقتة، ألا ترى أنه لو صنع إنسان صنعاً، هل يحتاج بعد ذلك أن يأتي بدليل على وجوده،

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨١﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨٢﴾

أو علمه، بمجيء خارق؟ ﴿**الله**﴾ وحده هو ﴿**الذي جعل لكم الأنعام**﴾ أي خلقها لكم، والمراد بالأنعام، الإبل والبقر والغنم ﴿**لتركبوا منها**﴾ أي بعضها وهي الإبل ﴿**ومنها**﴾ أي من جميعها ﴿**تأكلون**﴾ لبناً ولحماً.

[٨١] ﴿**ولكم**﴾ أيها الناس ﴿**فيها منافع**﴾ من جهة الصوف والشعر والوبر، وحمل الأثقال، وغير ذلك ﴿**ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم**﴾ بأن تركبوها لمقاصد بعيدة، والوصول إليها حاجة في صدوركم، وهذا أخص من الركوب، الذي سبق في الآية المتقدمة، فإن الركوب أعم من ذلك، وأهمية هذا القسم من الركوب، هي التي أوجبت تخصيصها بالذكر، وقوله «لتبلغوا» عطف على «لتركبوا» ﴿**وعليها وعلى الفلك تحملون**﴾ الأنعام للبر، والفلك، وهي «السفينة» للبحر، وتكرار «عليها» تمهيد لـ «على الفلك» فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ وهل يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى خارقة للبرهنة على وجود الله، أو صفاته؟

[٨٢] ﴿**ويريكم**﴾ الله سائر ﴿**آياته**﴾ وأدلته الدالة على وجوده، وسائر صفاته، من الآيات الآفاقية والأنفسية، إما بخلق جديد، أو بإلفاتكم إلى المخلوق السابق ﴿**فأي آيات الله تنكرون**﴾؟ أيها البشر، تنكرون وجودها، أو دلالتها على الله المتصف بالعلم والقدرة، وسائر الصفات؟

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٤﴾

---

[٨٣] وبعد الاحتجاج على الكفار بصنوف الاستدلال لتهديدهم، إن تمادوا في الغي والضلال، وإنه يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، لما تمادوا في الكفر والطغيان **﴿أفلم يسيروا﴾** أي يسافروا هؤلاء الكافرين **﴿في الأرض﴾** إلى الشام وإلى اليمن **﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** من الأمم المكذبة، والنظر إنما هو بالنظر إلى أراضيهم وطلالهم، والسؤال عن أحوالهم، من الساكنين هناك **﴿كانوا﴾** أولئك الأمم **﴿أكثر منهم﴾** عدداً **﴿وأشد قوة﴾** بدنية وعلمية وغيرهما **﴿و﴾** أكثر **﴿آثاراً في الأرض﴾** بالزراعة والعمارة والصناعة، ونحوها **﴿فما أغنى عنهم﴾** أي ما أفادهم في دفع العذاب عنهم **﴿ما كانوا يكسبون﴾** أي ما كسبوه من البنيان والعمارة والأموال والقوى، وغيرها.

[٨٤] **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾** أي بالأدلة البينة الواضحة، الدالة على وجود الله، وسائر صفاته **﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾** أي فرح الكفار بعلمهم الوراثي التقليدي حول الأصول، واستحقروا علم الرسل **﴿و﴾** استهزءوا بما أتت به الرسل، ف **﴿حاق﴾** أي حل وأحاط **﴿بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** من العذاب، فقد كان الكفار يستهزءون بما يعدهم الرسل من العذاب، وأخيراً وقعوا فيه.

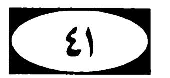
فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٦﴾

[٨٥] ﴿**فلما رأوا بأسنا**﴾ أي عذابنا النازل بهم ﴿**قالوا آمنا بالله وحده**﴾ لا شريك، كما قال الرسل ﴿**وكفرنا بما كنا به مشركين**﴾ أي بالأصنام التي كنا نشركها بالله.

[٨٦] ﴿**فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا**﴾ وعذابنا، كما قال سبحانه (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)[1] ﴿**سنة الله**﴾ أي سنّ الله عدم قبول إيمان من نزل به العذاب سنّة ﴿**التي قد خلت**﴾ وسبقت واستمرت ﴿**في عباده**﴾ الكفار، وذلك لأن العذاب لا ينزل إلا بعد أن يظهر عناد الكفار، بحيث يعلم أنهم لا يؤمنون باختيارهم أبداً، وهذا وإن كان معلوماً لله سبحانه من الأزل إلا أن مظهره ذلك ﴿**وخسر هنالك**﴾ عند نزول العذاب ﴿**الكافرون**﴾ بأن ذهبت دنياهم وآخرتهم، فلم يفوزوا بما أعدّ الله للصالحين من الثواب والجنان.

---

(١) النساء: ١٩.



سُورة فصلت

مكيّة/آياتها (٥٥)

سميت هذه السورة، بـ «فصلت» لاشتمالها على هذه الكلمة، وسميت بـ «حم السجدة» لابتدائها، بـ «حم» ووجود السجدة الواجبة فيها، فأضيف «حم» إلى السجدة، لتميزها عن غيرها من «الحواميم» وهي كسائر السور المكية، تحوم حول العقيدة بأصولها الثلاث، ولما ختم سبحانه سورة المؤمن «غافر» بذكر الذين يتكبرون عن آيات الله سبحانه، والإيمان به، ابتدأ في أوائل هذه السورة، بذكرهم، وما كانوا يقولون حول الإيمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، ذي الرحمة المؤكدة التي وسعت كل شيء، وذكر الله بصفة خاصة، يستمطر من تلك الصفة على الذاكر، فمن أكثَرَ ذكر، الغني، يغنى، ومن أكثر ذِكر، العظيم، يعظم، ومن أكثر ذكر المؤمن يقوى إيمانه، فالإكثار من ذكر «الرحمن الرحيم» يوجب اتصاف الذاكر بالرحم، هذا بالإضافة إلى إيجابه أن يرحمه الله سبحانه.

حمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾

[٢] ﴿حم﴾ أي هذا حم، أو «حاء» و «ميم» «تنزيل» وقد تقدم في فواتح السور بعض التي منها أنها رموز بين الله والرسول، ومنها أنها للإشارة، إلى أن القرآن المعجز من جنس هذه الحروف التي تتلفظون بها ليل نهار، وقال بعض: أن الكفار تبانوا ان يصفقوا ويلفظوا عند قراءة الرسول، استهزاءً ومنعاً للناس عن الاستماع، فكان كلما وجد مثل هذا المجال، افتتحت السورة بالمقطعات، لأنهم كانوا ينصتون لها لما قد دهشهم، فيلقى الوحي الموقظ.

[٣] ﴿**تنزيل**﴾ أي أن القرآن تنزيل ﴿**من**﴾ الله ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ ذي الرحمة المكررة، فإنه يرحم العباد في الدنيا والآخرة، ويرحمهم بالحياة، وسائر اللوازم، إلى غيرهما من الأقوال في وجه التكرار ـ وقد تقدم بعضها ـ .

[٤] هو ﴿**كتاب فصلت آياته**﴾ أي بُيّنت آياته تبياناً تاماً، بحيث، لم تجمل ولم تدمج، بل أوضحت، كما يقال، فصلت الأمر لزيد، حيث أوضحه له وذلك، لأن التفصيل والتوضيح متلازمان غالباً، وهذا لا ينافي إجمال بعض الآيات لحكمته، لأن القضية طبيعية، أي أن طبيعة القرآن، تفصيل آياته وتوضيحه في حال كونه ﴿**قرآناً عربياً**﴾ بهذه اللغة التي يفهمها أهل الجزيرة والقرآن، من قرأ، بمعنى جمع بعضه إلى بعض، وأنه يُقرأ، كما أنه يسمى كتاباً لأنه يكتب ﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي أنزل هذا القرآن، لأهل العلم، وإنما خصوا بذلك ـ مع أنه عام ـ لأنهم هم المستفيدون منه.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٦﴾

[٥] في حال كون هذا القرآن ﴿**بشيراً**﴾ للمؤمن والمحسن، بالجنة والثواب ﴿**ونذيراً**﴾ للكافر والعاصي، بالنار والعقاب، وذلك بما اشتمل عليه من آيات الوعد والوعيد ﴿**فأعرض أكثرهم**﴾ أي أكثر المخاطبين به ـ إلى حين نزول هذه السورة ـ والمراد بهم أهل مكة ﴿**فهم لا يسمعون**﴾ القرآن، استماع تفكر وتعقل وفائدة.

[٦] ﴿**وقالوا**﴾ أي الكفار المعرضون ﴿**قلوبنا في أكنة**﴾ أي في أغطية، فإن «أكنة» جمع «كن» وهو الغطاء ﴿**مما تدعونا**﴾ يا محمد ﴿**إليه**﴾ من التوحيد والمعاد، وسائر الأصول والفروع، فلا نفقه ما تقول، كالشيء الذي عليه غطاء، حيث لا ينفذ فيه البصر والسمع لحيلولة الغطاء بينه وبين الإبصار والاستماع، وكانوا يقولون هذا القول استهزاءً بالرسول والقرآن ﴿**وفي آذاننا وقر**﴾ أي حمل ثقيل، فلا نسمع ما تلفظ منه، من آي القرآن ﴿**ومن بيننا وبينك**﴾ يا محمد ﴿**حجاب**﴾ لا نراك ولا ترانا فقلبنا وسمعنا وبصرنا، غير مستعدة لك ولكلماتك، وكما كان قوم نوح يفعلون ذلك (وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ)[١] فقوم الرسول، كانوا يقولونه قولاً ﴿**فاعمل**﴾ يا محمد على طبق وحيك ﴿**إننا عاملون**﴾ على طبق تقاليدنا، وهذا يشبه الاستهزاء أو التهديد، قريب من قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[٢].

(١) نوح: ٨.
(٢) الكافرون: ٧.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٧﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

[٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في جواب هؤلاء الأشخاص، إنني لست شخصاً عجيباً، حتى أستحق، كل هذه الأقوال الفارغة بل أنا بشر يوحي الله إليّ لإرشادكم ﴿**إنما أنا بشر مثلكم**﴾ أي من هذا الجنس، فلا أدعي لنفسي مقاماً فوق هذا، منتهى الأمر، أنه ﴿**يُوحى إليّ**﴾ من قبل الله سبحانه ﴿**أنما إلهكم**﴾ أيها الكفار ﴿**إله واحد**﴾ لا شريك له، كما تزعمون ﴿**فاستقيموا**﴾ في عقيدتكم وأعمالكم ﴿**إليه**﴾ إستقامة منتهية إليه سبحانه دون انحراف إلى اليمين أو الشمال ﴿**واستغفروه**﴾ أي اطلبوا غفرانه فيما سلف من معاصيكم ﴿**وويل**﴾ أي الهلاك والنكال، فإن «ويل» كلمة تطلق للأمر السيئ أيّاً ما كان ﴿**للمشركين**﴾ الذين يشركون بالله سبحانه.

[٨] ثم بين سبحانه أظهر صفات المشركين بقوله ﴿**الذين لا يؤتون الزكاة**﴾ أي لا يعطونها، والظاهر أن المراد بالزكاة مطلق الإنفاق، لا الزكاة المفروضة، لأنها لم تكن وجبت في مكة، والسورة كما عرفت مكية، وهذا لأجل أن المشرك لا يعتقد بالله واليوم الآخر، حتى ينفق، فالذم راجع إلى عدم الاعتقاد، لا إلى عدم الاعطاء، حتى يقال، لو كانت الزكاة مندوبة، لم يكن وجه للويل؟ ﴿**وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ إنما كرر «هم» تأكيداً، وبياناً للتلازم بين الكفر وبين عدم الإيمان بالآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٩﴾ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ

[٩] ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بالله وبما يجب الإيمان به ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ الملازم لعدم عمل السيئات ﴿**لهم أجر غير ممنون**﴾ أي جزاء على أعمالهم غير مقطوع، فإن «ممنون» من «منّ» بمعنى «قطع» أو من «المنّ» بمعنى الأذى الذي يكدّر الإحسان، أي غير مكدّر بالمن.

[١٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله منكراً على الكفار ﴿**أئنكم**﴾ أيّها الكافرون ﴿**لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين**﴾ أي كيف تكفرون بهذا الإله العظيم، الذي خلق أرضكم الوسيعة ـ هذه ـ في مدة يومين فقط؟ ﴿**وتجعلون له أنداداً**﴾ أي أضداداً، أو أمثالاً، من الأصنام، تعبدونها معه، ﴿**ذلك**﴾ الذي خلق الأرض ﴿**رب العالمين**﴾ فليس دونه إله ولا شريك له.

[١١] ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ جمع راسية، أي الجبال الثابتات، من «رسى» بمعنى ثبت ﴿**من فوقها**﴾ أي من فوق الأرض، حتى أنتم تشاهدونها ﴿**وبارك فيها**﴾ أي جعل في الأرض البركة والنمو، فليس ما في الأرض جامداً لا ينمو، إنما فيها الثمار والحيوان وغيرهما من أنواع الخيرات ﴿**وقدر فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**أقواتها**﴾ جمع قوت، وهو الرزق، بأن قدّر لكل إنسان وحيوان رزقه ومأكله ﴿**في أربعة أيام**﴾ أي في تتمة أربعة أيام، فيومان للخلق، ويومان للتقدير، وهذا كما يقال:

سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يراد في خمسة، حتى تمت السفرة في خمسة عشر ﴿**سواءً**﴾ أي أربعة أيام مستوية، كاملة من غير زيادة ونقصان ﴿**للسائلين**﴾ عن مدة خلق الأرض، وتقدير الأقوات فيها، وقد أوصل بعضٌ انهزاميتهم الغربية على أن يتصرف في الآية ويطبقها على العلم الحديث، فيقول بأن «يومين» يعني «ألفي مليون سنة» إلى آخر أمثال هذه الثرثرة الفارغة، ومن غريب الأمر أن نرى أناساً يهتبلون كل كلمة غربية وإن قالها رجل في كتاب، ويتركون ظواهر الكتاب والسنة، ولم؟ لإرضاء الغرب والمتغربين، كأنهم لم يسمعوا قوله (وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[1] ورفع اليد عن الظاهر، لا يكون إلا بدليل قاطع من عقل أو نقل، وإلاّ، حصل التزلزل في جميع أصول الاسلام وفروعه، ثم ما المانع في أن يكون الخلق في مقدار يومين من أيامنا، كما هو الظاهر؟

[١٢] ﴿**ثم استوى**﴾ الله سبحانه ﴿**إلى السماء**﴾ أي قصد نحو خلقها، يقال: استوى إلى مكان كذا، بمعنى توجّه إليه توجهاً، لا يلفته شيء، والإتيان بـ «ثم» للتفاوت بين الخلقين، لا للتراخي بين الزمانين ﴿**وهي دخان**﴾ أما المراد هو الدخان المتعارف، بأن خلق سبحانه أولاً دخاناً، ثم جعله سماءً، أو المراد الهواء المتخلخل بالماء، الذي صعد من ضرب الماء بعضه ببعض، وسمي دخاناً لشباهته به، فإن الدخان هواء متخلخل بالرماد، وكلاهما يرى في النظر على نحو واحد، وهل هناك

---

(١) البقرة: ١٢١ .

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١٢﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا

في المدارات، ما أصله الدخان، مما يشبه هوائنا المجاور للأرض، أو المراد من خلق السماء خلق الكواكب من الدخان؟ أو غير ذلك؟ احتمالات ﴿**فقال**﴾ الله سبحانه ﴿**لها**﴾ أي للسماء ـ فإنها مؤنثة سماعية ـ ﴿**وللأرض ائتيا**﴾ وأقبلا السير على وفق حكمتنا ﴿**طوعاً أو كرهاً**﴾ وهذا كناية عن تطلب الحركة منهما، كما يتطلب الإنسان من العاقل شيئاً ﴿**قالتا أتينا**﴾ وانقدنا للأوامر ﴿**طائعين**﴾ جمع طائع، وهذا كناية عن خضوعها التكويني، لما أجرى الله فيهما من السنة، كما يقال: قلت لداري لا تهدمي، فامتثلت، يراد أنها لم يحن بعد وقت انهدامها، ويحتمل بعيداً أن يكون هناك خطاب حقيقي، وجواب حقيقي، فإن ظاهر(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[1] إن للأشياء مرتبة من الإدراك والتجارب، وإنما قال «طائعين» لأن الجمع قد يستعمل بمعنى الجنس، أو باعتبار تغليب العقلاء الذين فيهما.

[١٣] ﴿**فقضاهن**﴾ أي صنع السماوات، وأحكم خلقهن ﴿**سبع سماوات**﴾ مدارات للكواكب السيارة ـ كما قالوا ـ أو هناك طبقات تسمى كل طبقة سماءً، ولا حجة في قول علماء الفلك على النفي، إذ الفضاء وسيع مدهش، ولم يدرك الإنسان حسب اعترافهم إلاّ شيئاً ضئيلاً في الفلك، نسبة إلى ما لم يدرك كنسبة الذرة إلى الصحراء الوسيعة ﴿**في يومين**﴾ أي مقدارهما ـ كما هو الظاهر ـ ﴿**وأوحى في كل سماء أمرها**﴾ بأن دبّر

(١) الإسراء: ٤٥ .

وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ

أمرها، فإن الوحي يطلق على التيسير حسب الصلاح والحكمة، نحو (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)[1] أو المراد أوحى إلى الملائكة الذين فيها، بأمور السماء وتنظيم شؤونها ﴿**وزينا السماء الدنيا**﴾ أي السماء القريبة من الأرض ﴿**بمصابيح**﴾ أي النجوم، فإن جعل الفضاء الملاصق للأرض، بحيث يخرقه النور، حتى يراه الإنسان قد تزيّن له، وإنما سمى الكواكب مصابيح، لأنها كالمصابيح تضيء ﴿**وحفظاً**﴾ أي لأجل الحفظ، فإن الكواكب مراكز لرجم الشياطين، الذين يريدون اختلاس الكلمات، التي تدار هناك حول الأرض، فإنهم يرجمون من الكواكب بالشهب ﴿**ذلك**﴾ الذي ذكر ﴿**تقدير العزيز**﴾ في سلطانه الغالب على كل شيء ﴿**العليم**﴾ بالمصالح.

[١٤] ﴿**فإن أعرضوا**﴾ أي أعرض هؤلاء الكفار عن الإيمان ﴿**فقل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**أنذرتكم**﴾ أي أخوّفكم ﴿**صاعقة**﴾ أي عذاباً، وإنما سمي العذاب صاعقة، لأنه يصعق الإنسان ويهلكه، والتأنيث، باعتبار أنها وصف للنار النازلة من السماء، في العذاب غالباً ﴿**مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ أي كعذاب قوم هود وصالح، حيث لم يؤمنوا فأهلكوا.

[١٥] ﴿**إذ جاءتهم الرسل**﴾ أي نزل بهم العذاب حين أتتهم رسل الله ﴿**من**

(١) النحل: ٦٩.

بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً

بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي من كل طرف من أطرافهم قبلهم وبعدهم، حتى يحيطوا بهم لعلهم يؤمنوا ـ وهذا كناية عن إصرار الرسل عليهم بالإيمان، أو المراد أنذروهم من جهة دنياهم وآخرتهم، إن لم يؤمنوا، قائلين لهم ﴿**ألا تعبدوا إلاّ الله**﴾ فلا تشركوا به عبادة الأصنام، لكن هؤلاء الأقوام لم ينفعهم الإنذار، بل ﴿**قالوا لو شاء ربنا**﴾ أن نؤمن به وحده، ولا نشرك به شيئاً، ولا نفعل المعاصي ـ كما تقولون ـ ﴿**لأنزل ملائكةً**﴾ لدعوتنا إلى هذه الأمور ﴿**فإنا بما أرسلتم به كافرون**﴾ إذ لا نعتقد بأنكم رسل من الله تعالى.

[١٦] ﴿**فأما عاد**﴾ قوم هود عليه السلام ﴿**فاستكبروا**﴾ وتجبّروا ﴿**في الأرض**﴾ حين وصفوا أنفسهم فوق حقيقتهم، بل رأوها أعظم من الإيمان بالله واتباع رسله ﴿**بغير الحق**﴾ فلم يكن ترفيعهم نفوسهم بالحق لعلم أو إيمان، أو ما أشبه، بل لمجرد الظلم والطغيان ﴿**وقالوا**﴾ مغترين بقواهم البدنية والمالية، وما أشبه ﴿**من أشد منا قوة**﴾ حتى يتمكن من تعذيبنا، فقد هددهم نبيّهم بالعذاب، إن تمادوا في الطغيان، فقالوا نحن نقدر دفعه، إذ لا أقوى منا، حتى يتمكن من تعذيبنا، وقد ردهم الله سبحانه بقوله ﴿**أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة**﴾ فلو شاء أهلكهم، ولم يتمكنوا من دفع عذابه بقواهم، التي هي من قبل

وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾

الله أيضاً ﴿**وكانوا بآياتنا**﴾ أي أدلتنا الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا ﴿**يجحدون**﴾ أي ينكرون ولا يعترفون.

[١٧] ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات**﴾ الريح الصرصر، هي الريح الباردة من الصرّ بمعنى البرد، أو هي الريح العاصفة، ذات الصوت الشديد، والصيحة المزعجة، ونحسات، جمع نحس، وهي الأيام المشؤومة المنحوسة، وإنما كانت الأيام نحسات، لما يحدث فيها من العذاب، والنكال، وإنما أرسلنا هذه الريح عليهم ﴿**لنذيقهم عذاب الخزي**﴾ أي العذاب الذي يخزيهم ويذلهم ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ أي في هذه الحياة القريبة قبل حياة الآخرة ﴿**ولعذاب الآخرة**﴾ المعدّ لهم ﴿**أخزى**﴾ أكثر إذلالاً لهم ﴿**وهم لا ينصرون**﴾ أي لا ينصرهم أحد من بأس الله تعالى.

[١٨] ﴿**وأما ثمود**﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿**فهديناهم**﴾ أي بيّنا لهم طريق الخير والشر والإيمان والكفر ﴿**فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ أي اختاروا التعامي عن الحق على الهداية، وسلوك طريق الدين، ومعنى استحب طلب حب الشيء ﴿**فأخذتهم صاعقة العذاب الهون**﴾ أي العذاب ذو الذلّ والهوان، صعقهم وأهلكهم ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ من تكذيب

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

صالح وعقر الناقة ـ كما مرت قصتهم سابقاً ـ .

[١٩] ﴿**ونجينا الذين آمنوا**﴾ في هاتين القصتين ﴿**وكانوا يتقون**﴾ المعاصي، فلم يصيبهم العذاب.

[٢٠] ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم يحشر**﴾ أي يجمع ﴿**أعداء الله**﴾ وهم الكفار والعصاة ﴿**إلى النار**﴾ أي منتهين إلى النار ﴿**فهم يوزعون**﴾ أي يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم، من وزع، بمعنى حبس، ومنع والمعنى إذا حشروا حبسوا هناك على حافة النار قبيل دخولها، وفيه زيادة إهانة وإرهاب.

[٢١] ﴿**حتى إذا ما جاءوها**﴾ أي وصلوا إلى النار، و «ما» زائدة جيء بها، لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ـ كما في الصافي ـ ﴿**شهد عليهم سمعهم**﴾ بالاستماع إلى المحارم ﴿**وأبصارهم**﴾ بالنظر إلى المحرمات ﴿**وجلودهم**﴾ بلمس الحرام، من أخذ، ومشي عليه، وزنا، وما أشبه ﴿**بما كانوا يعملون**﴾ من أنواع المعاصي، كما قال سبحانه (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[١] فإن الله سبحانه، يجعل فيها حاسة النطق والتكلم، كما جعل في اللسان.

(١) يس: ٦٦ .

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ

[٢٢] ﴿**وقالوا**﴾ أي قال أعداء الله ﴿**لجلودهم**﴾ والظاهر أن المراد تغليب الجلود، لا أن خطابهم خاص بها ﴿**لم شهدتم علينا**﴾؟ حتى نبتلي بالعقاب، وتتم الحجة علينا، يقولون ذلك معاتبين ﴿**قالوا**﴾ أي قالت الجلود في جوابهم، وإنما جيء بلفظ العاقل، لأنهم حيث أخذوا في التكلم، صاروا كأنهم عقلاء ﴿**أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾ من الأشياء الناطقة، وإنما جيء بـ «كل شيء» لأن الجلود من الأشياء، وليست من الأشخاص، فقد ردفت ردِف «اللسان» في الإنسان، والطيور الناطقة ونحوهما ﴿**وهو خلقكم أول مرة**﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة خطاب من الله للكفار في الدنيا، أي كيف تنكرونه، وهو خالقكم؟ ﴿**وإليه ترجعون**﴾ في الآخرة، والرجوع إنما هو إلى حكمه وحسابه وجزائه، ويحتمل أن يكون هذا من تتمة كلام الجلود ـ ولكن بتأوّل ـ.

[٢٣] ثم رجع السياق إلى كلام الجلود مع الكفار يوم القيامة، إذ تقول لهم «ما سترتم المعاصي خوف شهادتنا عليكم، بل كان ستركم لها ظنكم بعدم علم الله إن سترتم» وتريد الأعضاء أن تثبت بهذا الكلام، رذيلة أخرى على الكفار ـ فوق ارتكابهم العصيان ـ وهي أنهم كانوا يظنون عدم علم الله تعالى بأحوالهم واطلاعه على عصيانهم، وهذا كما لو قال الشاهد للمجرم: إنك لم تخف مني، ولذا لم يكن سترك من خوفي، وإنما كان سترك للجريمة، لأنك لا تعتقد بعقاب الحاكم لك ﴿**وما كنتم تستترون**﴾ المعاصي بإتيانها في السرّ مخافة ﴿**أن يشهد**

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟

عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ فإنكم لم تكونوا تخافون منها، حتى يكون ستركم للعصيان خوفاً من هذه الجوارح **﴿ولكن﴾** كان ستركم حيث **﴿ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾** فكنتم ترون أن الله لا يعلم السرائر، وإنما يعلم العلانية فقط، فأسررتم المعاصي، حتى لا يعلم بها اللّه سبحانه.

[٢٤] **﴿وذلكم﴾** «ذا» إشارة و «كم» خطاب **﴿ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾** أي أهلككم، والمعنى أن ظنكم بأن الله لا يعلم سركم، هو الذي أوجب هلاككم، إذ نزّلتم الله سبحانه، دون منزلته، وأنكرتم علمه الشامل، حتى هانت لديكم المعاصي، فأدى إلى الكفر، وفي الإعراب «ذلكم» مبتدأ، و «ظنكم» بدل منه، و «أرداكم» خبر **﴿فأصبحتم﴾** أيها الكفار **﴿من الخاسرين﴾** الذين خسروا دنياهم وأخراهم، روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ينبغي للمؤمن، أن يخاف الله خوفاً، كأنه يشرف على النار، ويرجوه رجاءً، كأنه من أهل الجنة، إن الله تعالى يقول «وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم. . . الآية» ثم قال، إن الله عند ظن عبده، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر(١).

[٢٥] وبعد هذا كله، فحق هؤلاء الكفار النار **﴿فإن يصبروا﴾** على ما يلاقون

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٣١١ .

فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

من النيران والهوان ﴿**فالنار مثوىً لهم**﴾ أي منزل لهم من «ثوى» بمعنى اتخذ المنزل، والمعنى أن صبرهم لا ينفعهم، كما كان ينفع في الدنيا ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ أي ليطلبوا العتبى، وهي بمعنى «الرضا» أي يطلبوا رضاه سبحانه عنهم حتى ينجيهم مما فيه ﴿**فما هم من المعتبين**﴾ ـ بصفة اسم المفعول ـ أي ممن يُرضى عنه، فإن المعتب هو الذي يقبل عتابه، ويجاب إلى ما سأل.

[٢٦] وقد جرت عادة الله في الكون، أن الإنسان، إذا عاشر الأخيار، يقودونه إلى الخير، وإن عاشر الأشرار، يقودونه إلى الشر، وإذا انحرف الإنسان لما رأى الهدى، لا بد وأن يلتحق بقافلة الأشرار، وهذا معنى تهيئة الله لرفقاء السوء، فإنه حيث جرت سنته الكونية على ذلك نُسبت التهيئة، لقرين السوء إليه ﴿**وقيضنا**﴾ أي هيئنا ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿**قرناء**﴾ جمع قرين، وهو الصديق المقارن للإنسان ﴿**فزينوا**﴾ أولئك القرناء ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿**ما بين أيديهم**﴾ من أمور الدنيا الحاضرة، بأن زينوا لهم الكفر والعصيان ﴿**وما خلفهم**﴾ من أمور الدنيا الآتية، كتأسيس أسباب الفسق والعصيان، كالبدع الباقية، وبناء محلات الفساد، وما أشبه ذلك، ولعل العموم شامل للشياطين أيضاً، كما قال سبحانه (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)(١)

---

(١) الزخرف: ٣٧.

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**وحق عليهم القول**﴾ أي ثبت في حقهم العذاب، فقد صاروا في قطيع الكافرين، وأهل النار، فهم داخلون ﴿**في أمم**﴾ كافرة كانت ﴿**قد خلت**﴾ ومضت ﴿**من قبلهم**﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار ﴿**من الجن والإنس**﴾ فهؤلاء داخلون في زمرة أولئك ﴿**إنهم كانوا خاسرين**﴾ حيث خسروا سعادة الدنيا والآخرة.

[٢٧] ثم يأتي السياق لبيان حال الكفار، أمام القرآن وصنيعهم لإبطاله، وعدم وصوله إلى الناس ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ من أهل مكة، بعضهم لبعض ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن**﴾ الذي يقرأه الرسول، لئلا تتأثروا به، ويجذبكم إلى الإيمان ﴿**والغوا فيه**﴾ أي عارضوه باللغو الباطل ﴿**لعلكم تغلبون**﴾ الرسول، فقد كان بعض الكفار، إذا قرأ الرسول القرآن، جاءوا، ورفعوا أصواتهم بالكلام الهدر، ليخلطوا على الرسول، فلا يتمكن من القرآن، ولئلا يسمع الناس الذين يستمعون إلى كلام الرسولﷺ حتى يؤثر فيهم القرآن، وفوق ذلك، إن بعض الكفار، كان يقف على باب المسجد الحرام، فإذا أراد أحد الدخول، في المسجد للطواف - والرسول جالس قرب الكعبة يتلو - ملأ أذنه قطناً، ويحذره من سماع القرآن، قائلاً أن فيه سحراً يؤثر، كما فعلوا ذلك بالوفد الذي أتى من المدينة، للإصلاح بين الأوس والخزرج.

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا

---

[٢٨] ﴿**فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً**﴾ في الدنيا بالقتل والأسر والضنك، وغيرها، وفي الآخرة بالنار والهوان ﴿**ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون**﴾ أي نجازيهم بأقبح أعمالهم، أما أعمالهم الحسنة، فإنها تُحبط، أو نجازيهم بأقبح جزاء في مقابل العصاة المعادين الذين لايجازون إلا بالقبيح.

[٢٩] ﴿**ذلك**﴾ الذي تقدم من «أسوأ الذي كانوا يعملون» ﴿**جزاء أعداء الله**﴾ «ذلك» مبتدأ، و«جزاء» خبره، و ﴿**النار**﴾ بدل من «جزاء» أي ذلك الذي ذكرنا هو النار ﴿**لهم فيها دار الخلد**﴾ فهم مخلدون في النار أبد الآبدين ﴿**جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون**﴾ أي ينكرون الآيات الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا، من الآيات التكوينية والتشريعية، كالقرآن الحكيم.

[٣٠] ﴿**و**﴾ إذ دخل الكفار النار، أرادوا الانتقام من الذين أضلوهم في الدنيا، و ﴿**قال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس**﴾ والمراد بالجن الشيطان، والمراد الطائفتين لا الشخصين، فهم يريدون الانتقام من الشياطين الموسوسين لهم، والبشر المضلين إياهم، لكي ﴿**نجعلهما تحت أقدامنا**﴾ في النار، لنسحقهم، أو ليكونوا أشد عذاباً،

لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

إذ طبقات النار كلما سفلت ازدادت حرارة ونكالاً ﴿**ليكونا من الأسفلين**﴾ أي من جملتهم، حتى يكون عذابهم أكثر من عذابنا، وهنا لا يأتي الجواب، وقد مرّ في آية أخرى، أنه سبحانه يقول (لِكُلٍّ ضِعْفٌ)[1].

[٣١] في مقابل أهل النار أهل الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**﴾ أي اعتقدوا ذلك، لا مجرد لقلقة لسان ﴿**ثم استقاموا**﴾ في العمل والسلوك بالإيمان، بما يلزم الإيمان به والعمل الصالح ﴿**تتنزل عليهم الملائكة**﴾ إما دائم الأوقات، فإن الملائكة تنزل على الأخيار، وإن لم يروها[2] أو عند الموت ـ كما روي عن الصادق عليه السلام[3] ويؤيده ظاهر الآية ـ قائلين لهم ﴿**أن لا تخافوا**﴾ من أهوال الآخرة ﴿**ولا تحزنوا**﴾ وهو بعد الخوف، فإن الإنسان، إذا علم بالمكروه، أو وصل إليه حزن ﴿**وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ بها في الدنيا.

[٣٢] ثم يقولون لهم على وجه التبشير ﴿**نحن**﴾ معاشر الملائكة ﴿**أولياؤكم**﴾ أحبائكم ونلي أموركم ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ فإنا معكم لا

---

(١) الأعراف: ٣٩ .

(٢) راجع تأويل الآيات: ص٥٢٤ .

(٣) بحار الأنوار: ج٥٦ ص١٦٢ .

وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣٢﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٤﴾

يصيبكم مكروه ما دمتم في الحياة ـ وهذا لا ينافي كون التنزل عند الموت، إذ يراد به حينئذ هذه الساعات القلائل التي بقيت من أعمارهم في الدنيا ـ ﴿**وفي الآخرة**﴾ حيث نهديكم الطريق إلى أن تصلوا إلى الجنة، فإن الإنسان من أحوج ما يكون إلى المرشد والصديق في محلات الأهوال والأحزان ﴿**ولكم فيها**﴾ أي في الآخرة ﴿**ما تشتهي أنفسكم**﴾ من أنواع الملذات والكرامات ﴿**ولكم فيها**﴾ أي في الآخرة ﴿**ما تدعون**﴾ أنه لكم، من «ادّعى» «يدعي».

[٣٣] ثم يرونهم، بأنها من إحسان الله إليهم، حتى تبهج نفوسهم بالكرامة، كما بهجت بالملذة ﴿**نزلاً**﴾ أي في حال كون هذا الإنعام، بما تشتهي الأنفس إنزالاً ﴿**من غفور**﴾ لذنوبكم ﴿**رحيم**﴾ بكم، والإنزال إنما هو باعتبار علو مرتبة المعطي، لا الرفعة المكانية.

[٣٤] ثم يأتي السياق توجيه الناس إلى دعوة الرسول، وأنها ليست إلا إلى الخير، وللخير، فلماذا يفر منها الكفار والعصاة؟ ﴿**ومن أحسن قولاً**﴾ استفهام يراد به النفي، أي لا أحد أحسن قولاً ﴿**ممن دعا إلى الله**﴾ الذي هو خالق البشر ومالك كل شيء ﴿**وعمل صالحاً**﴾ الملازم لعدم السّيئ ﴿**وقال إنني من المسلمين**﴾ الذين أسلموا لله تعالى، في كل أمر ونهي، وممن أرشد ودعا، فهو مسلم، عامل للصالحات، داع إلى الله

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو

تعالى، وهل هناك أحسن منه؟

[٣٥] وإذ جرى حديث الدعوة، لا بد وأن يسير السياق إلى واجب الداعي أمام الأتعاب والمصاعب التي يواجهها الدعاة إلى الله ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة**﴾ فإن الحسنة المأمور بها الداعي في مقابل الجهال، خير من السيئة، التي هي مقتضى تقابل السيئة بمثلها، وهذه الجملة كمقدمة لقوله ﴿**ادفع**﴾ يا رسول الله، أو أيها الذي تواجه بالسيئة ﴿**بالتي هي أحسن**﴾ أي ادفع أذى الكفار وكيدهم بالطريقة التي هي أحسن الطرق في دفع الأذى والكيد، وقد جمع الإمام السجاد عليه السلام، ذلك في قطعة من «دعاء مكارم الأخلاق» هي «سدّدني لأن أعارض من غشني بالنصح وأجزي من هجرني بالبر، وأُثيبَ من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة»[١] ﴿**فإذا**﴾ فعلت ذلك كان ﴿**الذي بينك وبينه عداوة**﴾ وغضاضة ﴿**كأنه ولي**﴾ أي موال لك ﴿**حميم**﴾ كثير المودة والمحبة.

[٣٦] ﴿**وما يلقاها**﴾ أي ما يلقّى هذه الفضيلة والصفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن ﴿**إلا الذين صبروا**﴾ في مقابلة الجهال، بأن لم تثر أقوال الأعداء وحركاتهم ﴿**وما يلقاها**﴾ أي هذه الخصلة المذكورة ﴿**إلا ذو**

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٩٢ ومن دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق.

حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ

حظ عظيم﴾ أي نصيب وافر من العقل، والرأي، والحكمة، فإن الإنسان يقابل السيء بالأسوأ، ثم بالمثل وآخر طاقته أن يسكت في مقابل السيئة، أما أن يفعل الحسن، بل الأحسن، فإنه بحاجة إلى حظ عظيم وعظيم جداً.

[٣٧] **﴿وإما ينزغنّك﴾** يا رسول الله، أو أيها المخاطب، بأن تدفع بالتي هي أحسن **﴿من الشيطان﴾** أي من طرفه **﴿نزغ﴾** النزغ هو النخس بما يدعو إلى الفساد، فإن الشيطان ينخس الإنسان، ويهيجه للباطل خصوصاً عند الخصام، وفي المعركة ـ وهذا من تتمة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن ـ **﴿فاستعذ بالله﴾** أي اطلب العوذ والإجارة والحفظ من الله سبحانه، «من الشيطان الرجيم» الطريد، المرجوم باللعن والشهب كما قال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)[1] وهذا بخلاف غير المتقي الذي يستمر في خصامه ولجاجه، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم»[2] ف **﴿إنه﴾** أي الله **﴿هو السميع﴾** يسمع ما تقولون وهو **﴿العليم﴾** يعلم ما تعملون.

[٣٨] ثم رجع السياق ليحاج المشركين بإتيان الأدلة على الله الواحد الأحد الذي لا شريك له **﴿ومن آياته﴾** أي آيات الله الدالة على وجوده وسائر

(١) الأعراف: ٢٠٢.

(٢) نهج البلاغة: ص٦٨١ ـ الباب الثالث في المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام الرقم ٢٥٧.

ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٨﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ

صفاته ﴿**الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ فمن يا ترى أبدعها وخلقها، هل هي الأصنام الجاهلة العاجزة الجامدة؟ أم الله العلي العظيم؟ ﴿**لا تسجدوا**﴾ أيها الناس ﴿**للشمس ولا للقمر**﴾ فإنهما من آيات الله سبحانه، وليسا بإله يُسجد له ﴿**واسجدوا لله الذي خلقهن**﴾ أي خلق الشمس والليل والنهار، والإتيان بجمع العاقل، لتوحيد السياق مع قول المشركين، فإنهم كانوا يعتبرون هذه المخلوقات من العقلاء، حيث اتخذوها آلهة ﴿**إن كنتم إياه تعبدون**﴾ أي إن كنتم تريدون عبادة الله فاعبدوه وحده ولا تشركوا به، وهذا كما يقول «إن كنت تريدني فاسمع كلامي، ولا تسمع كلام غيري» تريد أن سماع كلامك، وكلام غيرك عندك، بمنزلة عدم سماع كلامك أصلاً.

[٣٩] ﴿**فإن استكبروا**﴾ أي تكبر هؤلاء الكفار عن قبول كلامك واتباعك في التوحيد، بل عبدوا الشركاء مع الله، فليس بمهم، إذ هناك من هو أعلى منهم، وأرفع رتبة، يخضع لله ويسجد له وحده، وهذا كما تقول لمن عصاك «إن تعصي، فإن عندي من هو أحسن منك يطيعني» تريد الاستهانة بشأنه، وأنك لا يهمك عصيانه، ﴿**فالذين عند ربك**﴾ أي الملائكة، والمراد عنده رتبة ومنزلة، لا مكاناً، فهو سبحانه منزه عن المكان والمكانيات ﴿**يسبحون له**﴾ أي ينزهونه عن الشركاء والنقائص

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ

﴿**بالليل والنهار**﴾ في دائم الأوقات ﴿**وهم لا يسئمون**﴾ من سأم بمعنى تعب، أي لا يتعبون من التسبيح والعبادة.

[٤٠] ﴿**ومن آياته**﴾ الكونية الدالة على وحدته، وسائر صفاته وعلى المعاد ﴿**أنك**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**ترى الأرض خاشعة**﴾ وخشوعها اغبرارها، وعدم وجود النباتات المتحركة فيها، بواسطة الجدب، فحالها حال الإنسان الخاشع، الذي لا حراك له، وهو مغبر غير نضر ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء**﴾ من المطر ﴿**اهتزت**﴾ أي تحركت، فإن الماء ينشط الأرض ويحركها بالانتفاخ وتعلية الأملاح ﴿**وربت**﴾ أي ارتفعت لدخول الماء والهواء خلالها ﴿**إن الذي أحياها**﴾ أي أحيا الأرض بعد الموت والخشوع ﴿**لمحي الموتى**﴾ فكما يقدر على هذا يقدر على ذلك ﴿**إنه على كل شيء قدير**﴾ فكيف ينكر الكافر قدرته على إعادة الأموات، وهو يرى هذه القدرة الباهرة كل يوم؟

[٤١] ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا**﴾ أي يميلون عن الإيمان بآياتنا، من «ألحد»، بمعنى، مال، فينكرون قدرتنا، وسائر صفاتنا، فإنهم حيث انحرفوا عن الإيمان، كانوا بمنزلة من انحرف عن الدليل الدال عليه ﴿**لا يخفون علينا**﴾ فإنهم تحت سمعنا وبصرنا، نرى أعمالهم ونسمع أقوالهم، حتى نجازيهم على ما اقترفوا من الميل والانحراف، ويكون

أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

مصيرهم النار، بخلاف مصير المؤمنين الذي هو الجنة ﴿**أفمن يلقى في النار خير**﴾ وهم الملحدون ﴿**أم من يأتي آمناً**﴾ من عذاب الله ﴿**يوم القيامة**﴾ ومصيره إلى الجنة؟ ثم يتوجه الخطاب إلى الناس مبيناً لهم، أن كل عمل يعملونه من خير أو شر سيجازون عليه ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**بما تعملون**﴾ من الخير والشر ﴿**بصير**﴾ عالم لا يخفى عليه شيء، فستحاسبون عليه وتعطون جزاءه، فاختاروا لأنفسكم ما شئتم.

[٤٢] ثم هدد سبحانه الكافرين بالقرآن، بعد أن هدد الكافرين به، أو بالمعاد، بقوله ﴿**إن الذين كفروا بالذكر**﴾ وهو القرآن، بأن جحدوه، وقالوا أنه ليس من عند الله ﴿**لما جاءهم**﴾ من عند الله تعالى ﴿**و**﴾ الحال ﴿**إنه لكتاب عزيز**﴾ ذو عزة ورفعة، لا يتمكن البشر أن يأتيه لفصاحته وبلاغته واشتماله على الأنظمة البديعة والخوارق، وقد حذف خبر إنّ لأجل التهويل، فالتقدير مثلاً ليلاقوا جزاءهم الأليم على هذا التكذيب والكفر، وقد تقرر في علم البلاغة، أن حذف الخبر، وما أشبه في مثل هذا المقام يفيد التهويل، كما تقول للمجرم: إن اقترفت هذه الجريمة، تريد تهويله من الجزاء الذي يحل به.

[٤٣] ثم وصفه سبحانه بقوله ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه**﴾ بأن يأتي في

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾

زمن الرسول ﷺ ما يماثله في فصاحته أو نظامه، أو أخباره، كأن يأتي أفصح منه، أو أجمل نظاماً، أو ما يدل على أن أخباره عن الأمم السابقة أو اللاحقة، أو حول الأصول باطلة ﴿**ولا من خلفه**﴾ بأن يأتي بعد الرسول ﷺ، من يبدي بطلانه في إحدى تلك الأمور، وروى في المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام، أن معناه ليس في أخباره عما مضى باطل ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها[1]، أقول: وكان هذا بيان لمصداق من مصاديق الكلي الذي ذكرناه، وهو الظاهر من عموم الآية ﴿**تنزيل من حكيم**﴾ في أفعاله، فإنه سبحانه، أنزل القرآن حسب الحكمة والصلاح، ولذا لايتطرق إليه الباطل ﴿**حميد**﴾ محمود في كل شيء، ولذا لا يأتي بما لايحمد مما هو قابل للبطلان.

[٤٤] ثم ربط سبحانه بين الرسول ﷺ، وسائر الرسل، وبين القرآن، وسائر الكتب السابقة بقوله ﴿**ما يقال لك**﴾ يا رسول الله، أي لا يوحي إليك ﴿**إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾ بأن أوحى إليهم ﴿**إن ربك لذو مغفرة**﴾ أي غفران للمذنبين إذا تابوا ﴿**وذو عقاب أليم**﴾ مؤلم لهم إذا بقوا في كفرهم وعصيانهم، فليختاروا ما شاءوا من المغفرة التابعة للإيمان، أو العقاب التابع للعصيان.

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢٧ .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ

[٤٥] ثم عطف السياق نحو القرآن بقوله ﴿**ولو جعلناه**﴾ أي جعلنا هذا القرآن ﴿**قرآناً أعجمياً**﴾ بغير لغة العرب ﴿**لقالوا**﴾ أي لقالت العرب ﴿**لولا**﴾ أي هلاّ ﴿**فصلت**﴾ وبينت بلغتنا ﴿**آياته**﴾؟ حتى نفهمه، فنؤمن به، وقالوا تبريراً لعدم إيمانهم ﴿**أأعجمي**﴾ القرآن ﴿**وعربي**﴾ من خوطب به: كيف يكون هذا؟ وجعلوا ذلك وسيلة لعدم الإيمان، أمّا والقرآن عربي، والرسول منهم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ)[١] فما عذرهم؟ ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**هو**﴾ القرآن أنزله الله عربياً، حتى يقطع عذركم، فهو ﴿**للذين آمنوا هدىً**﴾ من الضلالة ﴿**وشفاءٌ**﴾ من أمراض القلب كالحسد والغل والقلق، وسائر الأوجاع النفسية، أو الأعم منها، ومن الأوجاع البدنية ﴿**والذين لا يؤمنون**﴾ بالقرآن ليس من جهة نقص في القرآن، بل من جهة أنهم ﴿**في آذانهم وقر**﴾ أي حمل ثقيل مانع عن استماعه، وهذا كناية عن إعراضهم عن الحق، فهم كالأصمّ الذي في أذنه ثقل لا يسمع، فلا يسمع حتى يعلم ـ بعلاقة المشابهة ـ ﴿**وهو**﴾ أي القرآن ﴿**عليهم**﴾ أي على الذين لا يؤمنون ﴿**عمىً**﴾ إذ أن القرآن يوجب أن ينصرفوا عن الحق، إنصراف الأعمى عن الطريق، فكأنه يولد فيهم العمى، والإنسان يرى بعض الناس، يقرون بالحق نوعاً ما، فإذا جاءهم الحق واضحاً، تعاموا حتى عما

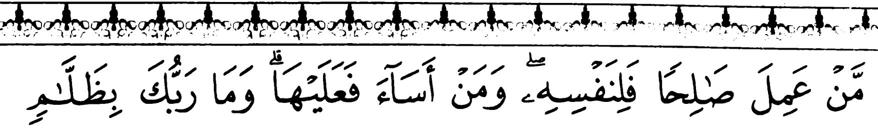
(١) الجمعة: ٣.

أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٦﴾

كانوا يعترفون به، عناداً وحسداً، أو المراد أنهم كالأصم والأعمى، لا يبصرون الحق، ولا يسمعون الصدق ﴿**أولئك**﴾ الكفار كالذين ﴿**ينادون من مكان بعيد**﴾ حيث لا يسمعون ولا يفهمون، كمن إذا نودى من البُعد، لا يسمع ولا يفهم، فهذا من باب تشبيه حالهم في الإعراض، بمن ينادى من بعيد.

[٤٦] ولا غرر في ذلك، فإن الأمم قد اعتادت تكذيب الأنبياء ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا لـ ﴿**موسى الكتاب**﴾ أي التوراة ﴿**فاختلف فيه**﴾ اختلف فيه الناس، فبعضهم آمنوا به، وبعضهم لم يؤمنوا، كما اختلفوا في القرآن، وهذا تسلية للرسول ﷺ ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك**﴾ يا رسول الله، بتأخير العذاب عن قومك، لأنك فيما بينهم (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)[1] ﴿**لقضي بينهم**﴾ أي لحكم الله بين المؤمن والكافر، بإبقاء المؤمن وإهلاك الكافر، بإنزال العذاب عليهم، كما أهلك القبط بالغرق، حين كفروا بموسى ﴿**وإنهم**﴾ أي قومك ﴿**لفي شك منه**﴾ أي من القرآن ﴿**مريب**﴾ أي موجب للريب والاضطراب، فإن الشك إذا لم يظهر أثره لا يسمى مريباً، وهذا كفذلكة للكلام، أو المراد، أنهم في شك من قولنا «لولا كلمة.. إلى آخره» أي لا يصدّقون، بأن الكلمة أخّرت عذابهم إلى يوم القيامة، بل يظنون أنك

(١) الأنفال: ٣٤ .




تكذب، ولذا لا أثر لكلامك وتهديدك.

[٤٧] وأخيراً ﴿**من عمل صالحاً**﴾ بالإيمان بالله والإتيان بأوامره ﴿**فلنفسه**﴾ عمل إذ هو يرى جزاءه الحسن، وثوابه العاجل والآجل ﴿**ومن أساء**﴾ عقيدة أو عملاً ﴿**فعليها**﴾ أي كان ضرره على نفسه ﴿**وما ربك بظلام**﴾ أي بذي ظلم، فإن «فعّال» من صيغ النسبة، كما قال ابن مالك:

ومـــع فـــاعـــل وفـــعـــال فـــعـــل
فـــي نـــسـب أغـنـى عـن اليا فـقـبـل

أو يراد به المبالغة، وذلك لأن كل صنعة جازت في الله، بلغت إلى أقصى حد، فإن جاز فيه الخلق كان خلاقاً، أو الرزق كان رزاقاً، وهكذا، فنفي المبالغة، موجب لنفي الصفة ﴿**للعبيد**﴾ جمع عبد، فما يرى الإنسان من السوء في الدنيا أو الآخرة، فإنما هو جزاؤه العادل بما عمل من الكفر والعصيان.

الفهرس